المفصل
في
تاريخ العرب قبل الإسلام

الدكتور جواد علي

الجزء الرابع

المفصل

في

تاريخ العرب قبل الإسلام

٤

المفصل
في
تاريخ العرب قبل الإسلام

تأليف

الدكتور جواد علي

ساعدت جامعة بغداد على نشره

الجزء الرابع



○ الطبعة الثانية ○

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

الفصل الثاني والأربعون

مكة المكرمة

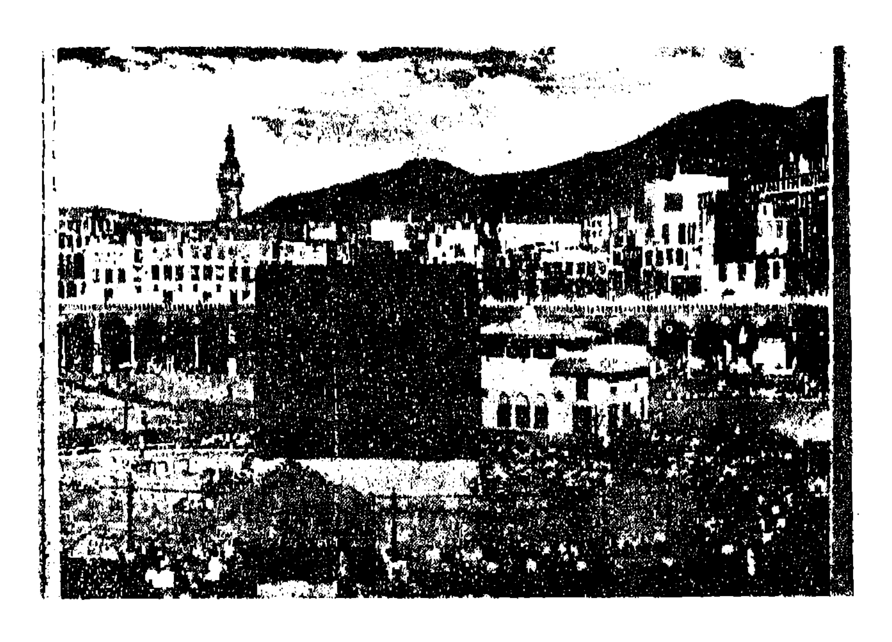
ومكة بلد في وادٍ غير ذي زرع ، تشرف عليها جبال جُرْد ، فتزيد في قسوة مناخهـا . ليس بها ماء ، غير ماء زمزم ، وهي بئر محفورة ، وآبار أخرى مجة حفرها أصحاب البيوت ، أما مياه جارية وعيون غزيرة ، على ما نرى في أماكن أخرى ، فليس لها وجود بهذا المعنى هناك . وكل ما كان يحدث نزول سيول ، قد تكون ثقيلة قوية ، تهبط عليهـا من شعاب الهضاب والجبال ، فتنزل بهـا أضراراً فادحة وخسائر كبيرة ، وقد تصل الى الحرم فتؤثر فيه ، وقـد تسقط البيوت ، فتكون السيول نقمة ، لا رحمة تسعف وتغيث أهل البيت الحرام[1] .

لذلك لم تصلـح أرض مكة لأن تكون أرضاً ذات نخيـل وزرع وحَب ، فاضطر سكانها الى استيراد ما يحتاجون اليه من الأطراف والخارج ، وأن يكتفوا في حياتهم بالتعيش مما يكسبونه من الحجاج ، وأن يضيفوا الى ذلك تجارة تسعفهم وتغنيهم ، وتضمن لهم معاشهم ، وأماناً وسلماً يحفظ لهم حياتهم ، فـلا يطمع فيهم طامع ، ولا ينغص عيشهم منغص . (وإذ قال ابراهيم : ربِّ اجعل هذا بلداً آمناً ، وارزق أهله من الثمرات ...)[2] .

---

١ تاريخ مكة ، للازرقي (٣٨/١ وما بعدها) ، البلاذري ، فتوح (٦٥ وما بعدها) .
٢ البقرة ، الآية ١٢٦ .

ويعود الفضل في بقاء مكة وبقاء أهلها بها الى موقعها الجغرافي ، فهي عقدة تتجمع بها القوافل التي ترد من العربية الجنوبية تريد بلاد الشأم ، أو القادمة من بلاد الشأم تريد العربية الجنوبية ، والتي كان لا بد من أن تستريح في هذا المكان ، لينفض رجالها عن أنفسهم غبار السفر ، وليتزودوا ما فيه من رزق . ثم ما لبث أهلها أن اقتبسوا من رجال القوافل سرّ السفر وفائدته ، فسافروا أنفسهم على هيأة قوافل ، تتولى نقل التجارة لأهل مكة وللتجار الآخرين من



مكة المكرمة

أهل اليمن ومن أهل بلاد الشأم . فلما كان القرن السادس للميلاد ، احتكر تجار مكة التجارة في العربية الغربية ، وسيطروا على حركة النقل في الطرق المهمة التي تربط اليمن ببلاد الشأم وبالعراق [1] .

---

١ W.M. Watt, Muhammad at Mecca, P. 3.

والبيت فضل كبير على أهل مكة ، وبفضله يقصدها الناس من كل أنحاء العالم حتى اليوم للحج اليه . وقد عرف البيت بـ (الكعبة) لأنه مكعب على خلقة الكعب . ويقال له : (البيت العتيق) و (قادس) و (بادر) ، وعرفت الكعبة بـ (القرية القديمة) كذلك [1].

وبمكة جبل يطل عليها ، يقال له جبل : (أبو قبيس) ، ذكر بعض أهل الأخبار انه سُمّي (أبا قبيس) برجل حداد لأنه أول من بنى فيه . وكان يسمى (الأمين) لأن الركن كان مستودعاً فيه [2] . وأمامه جبل آخر ؛ وبين الجبلين وادٍ ، فيه نمت مكة ونبتت . فصارت محصورة بين سلسلتين من مرتفعات .

وقد سكن الناس جبل (أبي قبيس) قبل سكنهم بطحاء مكة ، وذلك لأنه موضع مرتفع ولا خطر على من يسكنه من اغراق السيول له . وقد سكنته (بنو جرهم) ، ويذكر أهل الأخبار انه إنما سُمّي (قبيساً) بـ (قبيس بن شالخ) رجل من جرهم . كان في أيام (عمرو بن مضاض) [3] .

١ نهاية الأرب (١/٣١٣) .

٢ نزهة الجليس (١/٢٧) .

٣ اللسان (ق ب س) ، (وأبو قبيس مصغرا جبل بمكة . هذه عبارة الصحاح ، وفي التهذيب جبل مشرف على مسجد مكه ، سمي برجل من مذحج حداد ، لأنه أول من بنى فيه . وفي الروض للسهيلي : عرف أبو قبيس بقبيس بن شالخ ، رجل من جرهم كان قد وشى بين عمرو بن مضاض وبين ابنه عمه مية . فنذرت أن لا تكلمه . وكان شديد الكلف بها ، فحلف ليقتلن قبيسا ، فهرب منه في الجبل المعروف به ، وانقطع خبره ، فاما مات واما تردى منه ، فسمي الجبل أبا قبيس . قال : وله خبر طويل ذكره ابن هشام في غير هذا الكتاب . وكان أبو قبيس الجبل هذا يسمى الأمين ، لأن الركن أي الحجر الأسود كان مستودعا فيه . كما ذكره أهل السير والمغازي) ، تاج العروس (٤/٢١٢) ، (قبس) ، (والأخشبان : جبلا مكة ، وفي الحديث في ذكر مكة لا تزول مكة حتى يزول أخشباها ، أي جبلاها ... الأخشبان الجبلان المطيفان بمكة ، وهما : أبو قبيس وقعيقعان ويسميان : الجبجاب أيضا . ويقال بل هما أبو قبيس والأحمر . وهو جبل مشرف وجهه على قعيقعان . وقال ابن وهب : الأخشبان جبلا منى اللذان تحت العقبة ، وكل خشن غليظ من الجبال ، فهو أخشب . وقال السيد العلوي : الأخشب الشرقي أبو قبيس والأخشب الغربي وهو المعروف بجبل الخط . والخط من وادي ابراهيم عليه السلام . وقال الأصمعي : =

ويظهر انه كان من المواضع المقدسة عند الجاهليين ، فقد كان نُسّاك مكة وزهادها ومن يتحنف ويتحنث ويترهب من أهلها في الجاهلية يصعده ويعتكف فيه . ولعله كان مقام الطبقة المترفة الغنية من أهل مكة قبل نزوح (قريش) الى الوادي ، وسكنها المسجد الحرام المحيط بالبيت .

ويظهر من سكوت أهل الأخبار عن الإشارة الى وجود أُطم أو حصون في مكة للدفاع عنها ، ان هذه المدينة الآمنة لم تكن ذات حصون وبروج ولا سور يقيها من احتمال غزو الأعراب أو أي عدو لها . ويظهر ان ذلك إنما كان بسبب ان مكة لم تكن قبل أيام (قصيّ) في هذا الوادي الذي يتمركزه (البيت) ، بل كانت على المرتفعات المشرفة عليه .

اما الوادي ، فكان حرماً آمناً يغطيه الشجر الذي انبتته السيول ورعته الطبيعة بعنايتها ، ولم يكن ذا دور ولا سكن ثابت متصل بالأرض ؛ بل كان سكن من يأوي اليه بيوت الخيام . واما أهل المرتفعات فكانوا ، إذا داهمهم عدو أو جاءهم غزو ، اعتصموا برؤوس المرتفعات المشرفة على الدروب ، وقاوموا العدو والغزو منها ، وبذلك يصير من الصعب على من يطمع فيهم الوصول اليهم ، ويضطر عندئذ الى التراجع عنهم ، فحمتهم الطبيعة بنفسها ورعتهم بهذه الرؤوس الجبلية التي أقامتها على مشارف الأودية والطرق . فلما أسكن (قصي) أهل الوادي في بيوت ثابتة مبنية ، وجاء ببعض من كان يسكن الظواهر لنزول الوادي ، بقي من فضّل السكن في ظواهر مكة ، أي على المرتفعات . يقوم بمهمة

= الأخشبان أبو قبيس ، وهو الجبل المشرف على الصفا ، وهو ما بين حرف اجياد الصغير المشرف على الصفا الى السويداء التي تلي الخندمة • وكان يسمى في الجاهلية الأمين ، والأخشب الآخر الجبل الذي يقال له الأحمر ، وكان يسمى في الجاهلية الأعرف ، وهو الجبل المشرف وجهه على قعيقعان) ، تاج العروس (١/٢٣٤) ، (خشب) ، (قال الزبير بن بكار : الجباجب جبال مكة حرسها الله تعالى ، او أسواقها أو منحر • وقال البرقي : حجر بمنى كان يلقى به الكروش ، اي كروش الأضاحي في أيام الحج • أو كان يجمع فيها دم البدن والهدايا • والعرب تعظمها ونفخر بها) ، تاج العروس (١/١٧٤) ، (جبب) •

حماية نفسه وحماية أهل البطحاء من تلك المرتفعات ، وهـم الذين عرفوا بقريش الظواهر . فلم تعد لأهل مكة سكان الوادي ثمة حاجة الى اتخاذ الأطم والحصون، وبناء سور يحمي المدينة من الغزو ، لا سيا والمدينة نفسها حرم آمن وفي حمايــة البيت ورعايته . وقـد أكد (قصي) على أهلهـا لزوم إقراء الضيف ورعاية الغريب والابتعاد عن القتال وحل المشكلات حلاً بالتي هي أحسن . كما نظم أمور الحج ، وجعل الحجاج يقدون الى مكة ، للحج وللاتجار . ثم أكد من جاء بعده من سادة قريش هذه السياسة التي افادت البلد الآمن ، وأمنت له رزقه رغداً .

ولم يرد اسم (مكة) في نص الملك (نبونيد) ملك بابـل ، ذلك النص الذي سرد الملك فيه أسماء المواضع التي خضعت لجيوشه ، ووصل هو اليهـا في الحجاز فكانت (يثرب) آخر مكان وصل اليه حكمه في العربيـة الغربية على ما يبدو من النص .

ولم نتمكن من الحصول على اسم (مكة) من الكتابات الجاهلية حتى الآن . اما الموارد التأريخية المكتوبـة باللغات الأعجمية ، فقد جـاء في كتاب منها اسم مدينة دعيت بـ (مكربة) (مكربا) (Macoraba) ، واسم هذا الكتاب هو (جغرافيا) (جغرافية) (للعالم اليوناني المعروف (بطلميوس) (Ptolemy) الذي عاش في القرن الثاني بعد الميلاد . وقد ذهب الباحثون الى ان المدينـة المذكورة هي (مكة)[1] . وإذا كان هذا الرأي صحيحاً يكون (بطلميوس) أول من أشار اليها من المؤلفين وأقدمهم بالنظر الى يومنا هذا . ولا أستبعد مجيء يوم قد لا يكون بعيداً ، ربما يعثر فيـه المنقبون على اسم المدينـة مطموراً تحت سطح الأرض ، كما عثروا على أسماء مدن أخرى وأسماء قرى وقبائل وشعوب .

ولفظة (مكربة) (Macoraba) ، لفظة عربية أصابها بعض التحريف ليناسب النطق اليوناني ، أصلها (مكربة) أي (مقربة) من التقريب . وقـد رأينا في أثناء كلامنا على حكومة (سبأ) القديمة ، ان حكامها كانوا كهاناً ،

---

١ Ptolemy, Geography, VI, 7, 32.

أي رجال دين ، حكموا الناس باسم آلهتهم . وقد كان الواحد منهـم يلقب نفسه بلقب (مكرب) أي (مقرب) في لهجتنا . فهو أقرب الناس الى الآلهة ، وهو مقرب الناس الى آلهتهم ، وهو مقدس لنطقه باسم الآلهة ، وفي هذا المعنى جاء لفظة (مكربة) ، لأنها (مقربة) من الآلهة ، وهي تقرب الناس اليهم ، وهي أيضاً مقدسة و (حرام) ، فاللفظة ليست علماً لمكة ، وإنما هي نعت لها ، كما في (بيت المقدس) و (القدس) إذ هما نعت لها في الأصـل . ثم صار النعت علماً للمدينة .

أما ما ذهب اليه بعض الباحثين من ان المعبد الشهير الذي ذكره (ديودروس الصقلي) (Diodorus Siculus) في أرض قبيلة عربية دعاها (Bizomeni) [١] ، وقال إنه مكان مقدس له حرمة وشهرة بين جميع العرب ، هو مكـة — فهو رأي لا يستند الى دليل مقبول معقول . فالموضع الذي يقع المعبد فيه ، هو موضع بعيد عن مكة بعـداً كبيراً ، وهو يقع في (حسمى) في المكان المسمى (روافة) (غوافـة) على رأي (موسل) . وقد كانت في هـذه المنطقة وفي المحلات المجاورة لها معابد أخرى كثيرة أشار اليهـا الكتبة اليونان والرومان ، ولا تزال آثارها باقية ، وقد وصفها السياح الذين زاروا هذه الأمكنة [٢] .

وإذا صح رأينا في ان موضع (Macoraba) هو مكة ، دلّ على انها كانت قد اشتهرت بين العرب في القرن الثاني بعد الميلاد ، وانها كانت مدينـة مقدسة يقصدها الناس من مواضع بعيدة من حضر ومن بادين . وبفضل هـذه القدسية والمكانة بلغ اسمها مسامع هذا العالم الجغرافي اليوناني البعيد . ودلّ ايضاً على انها كانت موجودة ومعروفة قبل أيام (بطليموس) إذ لا يعقل ان يلمع اسمها وتنال هذه الشهرة بصورة مفاجئة بلغت مسامع ذلك العالـم الساكن في موضع بعيـد . ما لم يكن لها عهد سابق لهذا العهد .

١ C.H. Oldfather, Diodorus Siculus, Bibliotheca, Book, III, XXXI, Booth, The Historical Library of Diodorus The Sicilian, 105, Gerald De Gury, Rulers of Mecca, London, 1951, P. 12.

٢ تأريخ العرب قبل الاسلام (٣/٣٥٣) .

وقد عرفنا من الكتابات الثمودية أسماء رجال عرفوا بـ (مكي) . ولم تشر تلك الكتابات الى سبب تسمية اولئك الرجال بـ (مكي) . فلا ندري اليوم إذا كان اولئك الرجال من (مكة) أو من موضع آخر ، أو من عشيرة عرفت بـ (مكت) (مكة) . لذلك لا نستطيع ان نقول ان لهذه التسمية صلة بمكة .

ولم يشر الأخباريون ولا من كتب في تأريخ مكة الى هذا الاسم الذي ذكره (بطلميوس) ، ولا الى اسم آخر قريب منه ، وإنما أشار الى اسم آخر هو (بكة) . وقد ذكر هذا الاسم في القرآن [1] . قالوا إنه اسم مكة ، أبدلت فيه الميم باءً ، وقال بعض الأخباريين : إنه بطن مكة ، وتشدد بعضهم وترمت ، فقال : بكة موضع البيت ، ومكة ما وراءه ، وقال آخرون : لا . والصحيح البيت مكة وما والاه بكة ، واحتاجوا الى ايجاد اجوبة في معنى اسم مكة وبكة ، فأوجدوا للاسمين معاني وتفاسير عديدة تجدها في كتب اللغة والبلدان وأخبار مكة [2] .

وذكر أهل الأخبار ان مكة عرفت بأسماء اخرى ، منها : صلاح ، لأمنها ، ورووا في ذلك شعراً لأبي سفيان بن حرب بن أمية [3] ، ومنها أم رحم ، والباسّة ، والناسّة [4] . والحاطمة . و (كوثى) [5] . وذكرت في القرآن الكريم

---

١ آل عمران : الآية ٦٩ ، (وتسمى بكة ، نبك أعناق البغايا اذا بغوا فيها ، والجبابرة)، الطبري (٢/٢٨٤) ، نزهة الجليس (١/٢٧) .

٢ المفردات ، للاصفهاني (ص ٥٦ وما بعدها) ، البلدان (٢/٢٥٦ وما بعدها) ، صبح الأعشى (٤/٢٤٨) ، تاج العروس (٧/١٧٩) ، الصحاح ، للجوهري (٤/١٦٠٩)، القاموس (٣/٣١٩) ، أخبار مكة (١/١٨٨) ، ابن هشام ، سيرة (١/١٢٥ وما بعدها) ، الطبرسي ، مجمع البيان (٣/٤٧٧ وما بعدها) ، البلدان (٨/١٣٤) ، نهاية الأرب (١/٣١٣) .

٣ بلوغ الأرب (١/٢٢٨) ، القاموس المحيط (١/٢٣٥) ، فنوح البلدان (١/٦٠ وما بعدها) ، الأحكام السلطانية (١٥٧ وما بعدها) .

٤ بلوغ الأرب (١/٢٨٨) ، الطبري (٢/٢٨٤) ، أخبار مكة (١/١٨٩ وما بعدها) ، صبح الأعشى (٤/٢٤٨) ، القاموس (١/٢٣٩) .

٥ القاموس المحيط (٣/٩٧) ، صبح الأعشى (٤/٢٤٨) ، أخبار مكة (١/١٨٩) .

بـ (أم القرى) [1] .

ولعلماء اللغة بعد ، تفاسير عديدة لمعنى (مكة) [2] ، يظهر من غربلتها انها من هذا النوع المألوف الوارد عنهم في تفسير الأسماء القديمة التي ليس لهم علم بها ، فلجئوا من ثم الى هذا التفسير والتأويل . ولا استبعد وجود صلة بين لفظة مكة ولفظة (مكربة) التي عرفنا معناها . ولا استبعد ان يكون سكان مكة القدامى هم من أصل يماني في القديم ، فقد أسس أهل اليمن مستوطنات على الطريق الممتد من اليمن الى أعالي الحجاز ، حيث حكموا أعالي الحجاز وذلك قبل الميلاد . وقد سبق ان تحدثت عن ذلك في الجزء الثاني من هذا الكتاب ، فلا يستبعد ان تكون مكة احداها . ثم انضم اليهم العرب العدنانيون ، ولأهل الأخبار روايات تؤيد هذا الرأي .

وقد ذهب (دوزي) الى ان تأريخ مكة يرتقي الى أيام (داوود) ففي أيامه — على رأيه أنشأ (الشمعونيون) (السمعونيون) ، الكعبة وهم (بنو جرهم) عند أهل الأخبار [3] . وهو يخالف بذلك رأي (كبن) (GIBBON) ، ورأي جماعة من المستشرقين رأت ان مكة لم تعرف ولم تشتهر إلا في القرن الأول قبل الميلاد ، مستدلةً على ذلك بما ورد في تأريخ (ديودورس الصقلي) من وجود معبد ، ذكر عنه انه كان محجة لجميع العرب ، وان الناس كانوا يحجون اليه من أماكن مختلفة . ولم يذكر (ديودورس) اسم المعبد ، ولكن هذه الجماعة من المستشرقين رأت ان هذا الوصف ينطبق على الكعبة كل الانطباق ، وان (ديودورس) قصدها بالذات [4] .

وقد ذكر بعض أهل الأخبار ان (العماليق) كانوا قد انتشروا في البلاد ، فسكنوا مكة والمدينة والحجاز ، وعتوا عتوّاً كبيراً . فبعث اليهم موسى جنداً

---

١ الأنعام ، السورة ، الرقم ٦ ، الآية ٩٢ ، الكشاف (٢/٢٥) ، البيضاوي (١٨٤) ، تفسير ابن عباس (١٠٧) ، نهاية الأرب (١/٣١٣) .

٢ تاج العروس (٧/١٧٩) ، (مَكّ) .

٣ R. Dozy, Die Israeliten zu Mekka, S., 15.

٤ Dozy, Die Israeliten, S., 13. Gibbon, History of the Decline and fall of the Roman Empire, Cha., 50. Cussin De Perceval, Essai sur L'Histoire des Arabes Avant L'Islamisme, I, P. 174.

فقتلوهم بالحجاز . وجاء اليهود فاستوطنوا الحجاز بعد العماليق[1] . ويظهر انهم أخذوا أخبارهم هذه من اليهود ، ففي التوراة ان العماليق (العمالقة) ، هم أول الشعوب التي حاربت العبرانيين ، لما همّوا بدخول فلسطين ، وقد حاربهم موسى ، فوسع يهود الحجاز هذه القصة ونقلوا حرب موسى مع العمالقة الى الحجاز ليرجعوا زمان استيطانهم في الحجاز الى ذلك العهد .

ثم جاءت (جرهم) فنزلت على قطورا ، وكان على (قطورا) يومئذ (السميدع بن هوثر) ، ثم لحق بجرهم بقية من قومهم باليمن وعليهم (مضاض ابن عمر بن الرقيب بن هاني بن نبت بن برهم) فنزلوا بـ (قعيقعان) . وكانت قطورا بأسفل مكة ، وكان (مضاض) يعشر من دخل مكة من أعلاها ، و (السميدع) من أسفلها . ثم حدث تنافس بين الزعيمين فاقتتلا ، فتغلب (المضاض) وغلب (السميدع) .

وجرهم قوم من اليمن ، فهم قحطانيون إذن ، جدهم هو ابن (يقطن بن عابر بن شالخ) : وهم بنو عم (يعرب) . كانوا باليمن وتكلموا بالعربية ، ثم غادروها فجاؤوا مكة[2] .

والعمالقة من الشعوب المذكورة في (التوراة) ، وقد عدّهم (بلعام) (أول الشعوب)[3] . وقد كانوا يقيمون بين كنعان ومصر وفي (طور سيناء) ، أيام الخروج ، وبقوا في أماكنهم هذه الى أيام (شاؤول) (SAUL)[4] . وقد تحدثت عنهم في الجزء الأول من هذا الكتاب[5] .

ومن جرهم تزوج (إسماعيل بن ابراهيم) على رواية الأخباريين ، وبلغتهم تكلم . وكانت (هاجر) قد جاءت به الى (مكة) . فلما شبّ وكبر ، تعلم لغة جرهم ، وتكلم بها . وهم من (اليمن) في الأصل . وكانت لغتهم هي اللغة العربية[6] . تزوج امرأة أولى قالوا إن اسمها (حرا) وهي بنت (سعد بن

١ ابن رستة ، الاعلاق (٦٠ وما بعدها) .
٢ مروج الذهب (٥٤/١) .
٣ العدد ، الاصحاح ٢٤ ، آية ٢٠ .
٤ قاموس الكتاب المقدس (١١٢/٢ وما بعدها) .
٥ (ص ٣٤٥ وما بعدها) .
٦ اللسان (٩٧/١٢) .

عوف بن هنيء بن نبت بن جرهم) ، ثم طلقها بناءً على وصية أبيه ابراهيم له ، فتزوج امرأة أخرى هي السيدة بنت (الحارث بن مضاض بن عمرو بن جرهم) . وعاش نسله في جرهم ، والأمر على البيت لجرهم الى ان تغلبت عليهم (بنو حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر) ، وهم خزاعة في رأي بعض أهل الأخبار [1] .

وطبقت خزاعة على جرهم قانون الغالب ، فانتزعت منها الملك ، وزحزحتها عن مكة ، وأقامت عمرو بن لحيّ — وهو منها — ملكاً عليها ، وكان دخول خزاعة مكة على أثر خروجها من اليمن ، بسبب تنبؤ الكاهن بقرب انفجار السدّ ، في قصة يذكرها الأخباريون . وظلت خزاعة صاحبة مكة ، الى ان كانت أيام عمرو بن الحارث وهو (أبو غبشان) (غبشان) ، فانتزع قصي منه الملك ، وأخذه من خزاعة لقريش [2] .

وكان (عمرو بن لحيّ) أول من نصب الأوثان وأدخل عبادة الأصنام الى العرب ، وغيّر دين التوحيد على زعم أهل الأخبار . ويظهر مما يرويه الأخباريون عنه انه كان كاهناً ، حكم قومه ووضع لهم سنن دينهم على طريقة حكم الكهان ، واستبدّ بأمر (مكة) وثبت ملك خزاعة بها . فهو مثل (قصيّ) الذي جاء بعده ، فأقام ملك (قريش) في هذه المدينة . ويظهر من بقاء خبره في ذاكرة أهل الأخبار ان أيامه لم تكن بعيدة عن الإسلام ، وان حكمه لمكة لم يكن بعيد عهد عن حكم (قصيّ) ، وان اليه يعود فضل تنحية (جرهم) عن مكة ، وانتزاع الحكم منهم ونقله الى قومه من (خزاعة) ، وذلك بمساعدة (بني اسماعيل) أسلاف (قريش) من (بني كنانة) [3] .

وهو أول رجل يصل الينا خبره من الرجال الذين كان لهم أثر في تكوين مكة وفي انشاء معبدها وتوسيع عبادته بين القبائل المجاورة لمكة . حتى صيّر لهذه

١ الطبري (١/٢٥١ وما بعدها) ، اخبار مكة (١/٤٢) ، ابن خلدون (٢/٣٣١ وما بعدها) ، الأحكام السلطانية (١٦٠) .

٢ ابن خلدون (٢/٣٣٢ وما بعدها) ، الأزرقي : اخبار مكة وما جاء فيها من الآثار (١/٤٦ وما بعدها) ، (طبعة المطبعة الماجدية بمكة المكرمة) ، (ص ٥١ وما بعدها) (طبعة وستنفلد) ، (لايبزك ١٨٥٨ م) .

٣ الأصنام (ص ٥) .

المدينة شأن عند القبائل المجاورة . وذلك باتيانه بأصنام نحتت نحتاً جيداً بأيد فنية قديرة ، وعلى رأسها الصنم (هبل) ووضعهـا في البيت ، فجلب بذلك أنظار أهل مكة وأنظار القبائل المجاورة نحوها ، فصارت تقبل عليها ، وبذلك كوّن للبيت شهرة بين الأعراب ، فصاروا يقدمون عليـه للتقرب الى (هبل) والى بقية الأصنام التي جاء بها من الخارج فوضعها حوله وفي جوفه .

ومـن بطون خزاعـة : (بنو سلول) و (بنو حُبْشية بن كعب) ، و (بنو حليل) ، و (بنو ضاطر) . وكان (حُليَل) سادن الكعبـة ، فزوج ابنته (حبى) بقصي . و (بنو قمير) ومن (بني قمير) (الحجاج بن عامـر بن أقوم) شريف ، و (حلحـة بن عمرو بن كليب) : شريف ، و (قيس بن عمرو بن منقذ) الذي يقال له (ابن الحدادية) شاعر جاهلي[1] . و (المحترش) ، وهو (أبو غُبشان) الذي يزعمون انـه باع البيت مـن (قصي)[2] . ومن خزاعة (بديل بن ورقاء بن عبـد العزّى) ، شريف ، كتب اليه النبي يدعوه الى الإسلام ، وكان له قدر في الجاهلية بمكة[3] .

(وكنانة) التي استعان بها (عمرو بن لحيّ) في تثبيت حكمه بمكة ، هي من القبائل العدنانية في عرف أهل الأنساب ، ومن مجموعة (مضر) . ولما استبد (عمرو بن لحيّ) ومن جاء بعـده بأمر مكة ، وأخذوا بأيديهم أمر مكة ، تركوا الى (كنانة) أموراً تخص مناسك الحج وشعائره ، وهي الإجازة بالناس يوم (عرفة) والإضافة والنسيّ . وهي أمور سأتحدث عنها في أثناء كلامي عن الحج .

ويذكر أهل الأخبار أن (الإسكندر) الأكبر دخل مكة ، وذلك أنه بعد أن خرج من السودان قطع البحر فانتهى الى ساحل (عدن) ، فخرج اليه (تبع الأقرن) ملك اليمن ، فأذعن له بالطاعة ، وأقرّ بالإتاوة ، وأدخله مدينة (صنعاء) ، فأنزله ، وألطف له من الطاف اليمن ، فأقام شهراً ، ثم سار الى (تهامة) ، وسكان مكة يومئذ خزاعة ، قد غلبوا عليها ، فدخل عليه (النضر بن كنانة) ،

---

١ الاشتقاق (ص ٢٧٦ وما بعدها) .
٢ الاشتقاق (ص ٢٧٧) .
٣ الاشتفاق (ص ٢٨٠) .

فعجب الإسكندر به وساعده ، فأخرج (خزاعة) عن مكة ، وأخلصها للنضر ، ولبني أبيه ، وحج الإسكندر ، وفرّق في ولد معد بن عدنان صلاتٍ وجوائزَ ، ثم قطع البحر يؤم الغرب .[1]

وإذا كان أهل الأخبـــار قد أدخلوا (الإسكندر) مكة ، وصيّروه رجلاً مؤمناً ، حاجاً من حجاج البيت الحرام ، فلا غرابة اذن إن جعلوا أسلاف الفرس فيمن قصد البيت وطاف به وعظمه وأهدى له . بعد أن صيّروا (ابراهيم) جداً من أجدادهم وربطوا نسب الفرس بالعرب العدنانيين . فقالوا : وكان آخر من حج منهم (ساسان بن بابك) ، وهو جدّ (أردشير) . فكان ساسان إذا أتى البيت طاف به وزمزم على بئر إسماعيل ، فقيل إنما سميت زمزم لزمزمته عليها ، هو وغيره من فارس . واستدلوا على ذلك بشعر ، قالوا عنه : إنه من الشعر القديم . وبه افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الإسلام ، وقالوا : وقد كان (ساسان بن بابك) هذا ، أهدى غزالين من ذهب وجوهراً وسيوفاً وذهباً كثيراً ، فقذفه ، فدفن في زمزم . وقد أنكروا أن يكون بنو جرهم قد دفنوا ذلك المال في بئر زمزم ، لأن جرهم لم تكن ذات مال فيضاف ذلك اليها .[2]

ويزعم الأخباريون أن (حسان بن عبد كلال بن مثوب ذي حرث الحميري) ، (أقبل من اليمن مع حمير وقبائل من اليمن عظيمة ، يريد أن ينقل أحجار الكعبة من مكة الى اليمن ، ليجعـــل حج الناس عنده ببلاده ، فأقبل حتى نزل بنخلة فأغار على سرح الناس ، ومنع الطريق ، وهاب أن يدخل مكة . فلما رأت ذلك قريش وقبائل كنانة وأسد وجذام ومن كان معهم من أفناء مضر ، خرجوا اليه ، ورئيس الناس يومئذ فهر بن مالك ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فهزمت حمير ، وأسر حسان بن عبد كلال ملك حمير ، أسره الحارث بن فهر ، وقتل في المعركة — فيمن قتل من الناس — ابن ابنة قيس بن غالب بن فهر ، وكان حسان عندهم بمكة أسيراً ثلاث سنين ، حتى افتـــدى منهم نفسه ، فخرج به ، فمات بين مكة واليمن) .[3]

ويشير هذا الحادث إن صحّ وقوعه وصدق ما رواه أهل الأخبار عنه ، الى

---

١ الأخبار الطوال (٣٣ وما بعدها) .
٢ مروج (١/٢٦٥ وما بعدها) ، (ذكر ملوك الطوائف) .
٣ الطبري (٢/٢٦٢ وما بعدها) .

طمع الملك (حسان) والى خطة وضعها للاستيلاء عليها . وهو شيء مألوف ، فقد كانت قبائل اليمن تتجه دوماً نحو الشمال ، غير أن أهل مكة قاوموا الملك وتمكنوا من الصمود تجاهه ، بل من التمكن من جيشه ومن الحاق هزيمة به .

ويذكر أهل الأخبار حادثاً آخر مشابهاً لهذا الحادث ، بل يظهر أنه الحادث نفسه وقد صيغ في صيغة أخرى ، خلاصته أن (الملوك الأربعة) الذين لعنهم النبي ، ولعن أختهم (أبضعة) ، ولم يذكروا أسماءهم ، لما هموا بنقل (الحجر الأسود) الى صنعاء ليقطعوا حج العرب عن البيت الحرام الى صنعاء ، وتوجهوا لذلك الى مكة ، فاجتمعت (كنانة) الى (فهر بن مالك بن النضر) ، فلقيهم ، فقاتلهم ، فقتل ابن لفهر ، يسمى الحارثة ، وقتل من الملوك الأربعة ثلاثة ، وأسر الرابع ، فلم يزل مأسوراً عند (فهر بن مالك) حتى مات .

وأما (أبضعة) ، فهي التي يقال لها (العنقفير) ، ملكت بعد اخوتها على زعم أهل الأخبار .[1]

ويشير الأخباريون الى احترام التبابعة لمكة ، فيذكرون مثلاً أن التبع (أسعد أبو كرب) الحميري وضع الكسوة على البيت الحرام ، وصنع له باباً ، ومنذ ذلك الحين جرت العادة بكسوة البيت ،[2] ويذكرون غير ذلك من أخبار تشير الى اهتمام التبابعة بمكة . أما نحن ، فلم يصل الى علمنا شيء من هذا الذي يرويه الأخباريون ، مدوناً بالمسند ، كما أننا لا نعلم أن أصنام أهل اليمن كانت في مكة حتى يتعبد لها التبابعة . ولسنا الآن في وضع نتمكن فيه من إثبات هذا القصص الذي يرويه الأخباريون ، والذي قد يكون أوجد ، ليوحي أن ملوك اليمن كانوا يقدسون الكعبة ، وأن الكعبة هي كعبة جميع العرب قبل الإسلام .

ولا نملك اليوم أثراً جاهلياً استنبط منه علماء الآثار شيئاً عن تأريخ مكة قبل الإسلام ، ولذلك فكل ما ذكروه عنها هو من أخبار أهل الأخبار ، وأخبارهم عنها متناقضة متضاربة ، لعبت العواطف دوراً بارزاً في ظهورها . ولا يمكن لأحد أن يكتب في هذا اليوم شيئاً موثوقاً معقولاً ومقبولاً عن تأريخ هذه المدينة المقدسة في أيام الجاهلية القديمة ، لأنه لا يملك نصوصاً أثرية تعينه في التحدث عن ماضيها

١ الأخبار الطوال (ص ٣٩ وما بعدها) .

٢ وقد نسبوا الى الرسول أحاديث في هذا المعنى ، أعتقد أنها من الأحاديث الموضوعة ، راجع الأزرقي ، أخبار مكة (١/١٦٥) .

القديم . وأملنا الوحيد هو في المستقبل ، فلعلّ المستقبل يكون خيراً من الحاضر والماضي ، فيجود على الباحثين بآثار تمكنهم من تدوين تأريخ تلك المدينة ، تدويناً علمياً يفرح نفوس الملايين من الناس الذين يحجون اليها من مختلف أنحاء العالم ، ولكنهم لا يعرفون عن تأريخها القديم ، غير هذا المدوّن عنها في كتب أهل الأخبار .

وإذا كنا في جهل من أمر تأريخ مكة قبل أيام (قصيّ) وقبل تمركز قريش في مكة ، فإن جهلنا هذا لا يجوّز لنا القول بأن تأريخها لم يبدأ إلا بظهور قريش فيها وبتزعم قصيّ لها . وان ما يروى من تأريخها عن قبل هذه المدة هو قصص لا يعبأ به . لأن ما يورده أهل الأخبار من روايات تفيد عثور أهل مكة قبل أيام الرسول على قبور قديمة وعلى حليّ وكنوز مطمورة وكتابات غريبة عليهم ، يدل كل ذلك على ان المدينة كانت مأهولة قبل أيام قصي بزمن طويل ، وان مكة كانت موجودة قبل هذا التأريخ . وان تأريخها لذلك لم يبدأ بابتداء ظهور أمر قصيّ ونزول قريش مكة في عهده .

وتأريخ مكة حتى في أيام قصيّ وما بعدها الى ظهور الإسلام لا يخلو مع ذلك من غموض ومن لبس وتناقض . شأنه في ذلك شأن أي تأريخ اعتمد على الروايات الشفوية ، واستمد مادته من أقوال الناس ومن ذكرياتهم عن الماضي البعيد . لذلك نجد الرواة يناقضون أنفسهم تناقضاً بيناً في أمر واحد ، ما كان في الإمكان الاختلاف فيه لو كانوا قد أخذوه من منبع قديم مكتوب . وسنرى في مواضع من هذا الكتاب وفي الأجزاء التي قد تتلوه عن تأريخ العرب في الإسلام نماذج وأمثلة تشير الى تباين روايات أهل الأخبار في أخبارهم عن مكة في تلك الأيام .

قريش :

و (قصيّ) من (قريش) . و (قريش) كلها من نسل رجل اسمه (فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان) . فهي من القبائل العدنانية . أي من مجموعة العرب المستعربة في اصطلاح علماء النسب . ومن (فهر) فما بعده عرف اسم (قريش) في رأي أهل الأخبار . أما ما قبل (فهر) من آباء فلم يعرفوا بقريش . فقريش إذن هم (فهر)

وأبناؤه ، من سكان مكة أو من سكان ظواهرها ، أي كل من انحدر من صلبه من أبناء .[1] وما كان فوق (فهر) فليس يقال له (قرشي) ، وإنما يقال له كناني .[2]

ومعارفنا عن (قريش) لا بأس بها بالنسبة الى معارفنا عن خزاعة وعن من تقدم عليها من قبائل ذكَر أهل الأخبار أنها سكنت هذه المدينة. وتبدأ هذه المعرفة بها ، ابتداءً من (قُصَيّ) زعيم قريش ومجمّعها ، والذي أخذ أمر مكة فوضعه في يديه ، ثم في أيدي أولاده من بعده ، فصارت (قريش) بذلك صاحبة مكة .

وقد اشتهرت قريش بالتجارة ، وبها عرفت وذاع صيتها بين القبائل . وتمكن رجالها بفضل ذكائهم وحذقهم بأسلوب التعامل من الاتصال بالدول الكبرى في ذلك العهد : الفرس والروم والحبشة ، وبحكومة الحيرة والغساسنة ، وبسادات القبائل ، ومن تكوين علاقات طيبة معها ، مع تنافر هذه الدول وتباغضها . كما تمكنوا من عقد أحلاف مع سادات القبائل ، ضمنت لهم السير طوال أيام السنة بهدوء وطمأنينة في كل أنحاء جزيرة العرب . والطمأنينة ، أهم أمنية من أماني التاجر . وبذلك أمنوا على تجارتهم ، ونشروا تجارتهم في كل أنحاء جزيرة العرب . حتى عرفوا بـ (قريش التجار) . جاء على لسان كاهنة من كهان اليمن قولها : (لله درّ الديار ، لقريش التجار) .[3]

وليس لنا علم بتأريخ بدء اشتغال قريش بالتجارة واشتهارها بها . وروايات أهل الأخبار ، متضاربة في ذلك ، فبينما هي ترجع ظهور (قريش) بمكة الى أيام قصي ، ومعنى ذلك أن تجارة قريش إنما بدأت منذ ذلك الحين ، نراها ترجع تجارتها الى أيام النبي (هود) ، وتزعم أنه لما كان زمن (عمرو ذي الأذعار الحميري) ، كشفت الريح عن قبر هذا النبي ، فوجدوا صخرة على قبره كتب عليها بالمسند : (لمن ملك ذمار ؟ لحمير الأخيار . لمن ملك ذمار ؟ للحبشة الأشرار . لمن ملك ذمار ؟ لفارس الأحرار . لمن ملك ذمار ؟ لقريش التجار) .[4] والرواية أسطورة موضوعة ، ولكنها تشير الى أن اشتغال قريش بالتجارة يرجع

---

١ البلاذري ، أنساب (١/٣٩) ، نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار (٩) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٥٥) .
٣ رسائل الجاحظ ، (جمع السندوبي) ، (ص ١٥٦) (المطبعة الرحمانية ، ١٩٥٨ م) .
٤ الاكليل ، الجزء الثامن (خبر آخر عن قبر هود وقبر قضاعة بن مالك بن حمير) .

الى عهد قـديم ، عجز اصحاب هذه الرواية عن ادراك وقته ، فوضعوه في أيام هود .

ثم نرى روايات أخرى ترجع بدء اشتهار قريش التجارة الى ايام (هاشم) ، وهي تزعم ان تجارة قريش كانت منحصرة في مكة ، يتاجر اهلها بعضهم مع بعض ، فتقدّم العجم عليهم بالسلع ، فيشترونها منهم ثم يتبايعونها بينهم ، ويبيعونها لمن حولهم من العرب ، فكانوا كذلك حتى ركب (هاشم بن عبد مناف) فنزل بقيصر ، وتعاقد معه على ان يسمح له ولتجار قريش بالاتجار مع بلاد الشام، فوافق على ذلك ، وأعطاه كتاباً بذلك . فلما عاد ، جعل كلما مرّ بحيّ من العرب بطريق الشام ، أخذ من أشرافهم إيلافاً ، اي عقد امان ، فضمن بذلك لقومه حرية الاتجار بأمن وسلام . واشتهرت قريش بالتجارة منذ ذلك العهد .[1]

وقد علّمت الأسفار سادة قريش اموراً كثيرة من امور الحضارة والثقافة . فقد أرتهم بلاداً غريبة ذات تقدم وحضارة ، وجعلتهم يحتكون بعرب العراق وبعرب بلاد الشام ، فتعلموا من (الحيرة) اصول كتابتهم ، وهذّبوا لسانهم ، ودوّنوا به امورهم . وذكر انهم كانوا من افصح العرب لساناً ، وقد شهد العرب لهم بفصاحـة اللسان ، حتى ان الشعراء كانوا يعرضون عليهم شعرهم ، وذكر ان الشاعر (علقمة الفحل) عرض عليهم شعره ، فوصفوه بـ (سمط الدهر) .[2]

وقد علّمت الطبيعة أهل مكة انهم لا يتمكنون من كسب المال ومن تأمـين رزقهم في هذا الوادي الجاف ، إلا إذا عاشوا هادئين مسالمين ، يدفعون الإساءة بالحسنة ، والشر بالصبر والحلم ، والكلام السيء البذيء بالكلام الحسن المقنـع المخجل . فتغلب حلمهم على جهل الجاهلية ، وجاءت نجدتهم في نصرة الغريب والذب عن المظلوم والدفاع عن حق المستجير بهم ، بأحسن النتائج لهم ، فصار التاجر والبائع والمشتري يفد على سوق مكة ، يبيع ويشتري بكل حرية ، لانـه في بلد آمن ، أخذ سادته على أنفسهم عهداً بألا يتعدى أحد منهم على غريب ، لأن الإضرار به ، يبعد الغرباء عنهم ، وإذا ابتعد الغرباء عن مكـة ، خسروا جميعاً مورداً من موارد رزقهم : يعيش عليه كل واحد منهم بلا استثناء . لذلك

١ ذيل الأمالي (ص ١٩٩) ، الثعالبي ، ثمار القلوب (١١٥ وما بعدها) .
٢ الأغاني (٢١/١١٢) .

كان الغريب إذا ظُلِمَ ، نادى يا آل قريش ، أو يا آل مكة أو يا آل فلان . ثم يذكر ظلامته ، فيقوم سادة مكة أو من نودي باسمه بأخذ حقه من الظالم له .

وقد اصطلحت قريش على ان تأخذ ممن ينزل عليها في الجاهلية حقاً . دعته : (حقّ قريش) وفي جملة ما كانوا يأخذونه من الغريب القادم اليهم عن هذا الحق بعض ثيابه أو بعض بدنته التي ينحر . ويأتي أهل الأخبار بمثل على ذلك ، هو مثل : (ظويلم ويلقب مانع الحريم ، وإنما سُمّي بذلك لأنه خرج في الجاهلية يريد الحج ، فنزل على المغيرة بن عبد الله المخزومي ، فأراد المغيرة ان يأخذ منه ما كانت قريش تأخذ ممن نزل عليها في الجاهلية ، وذلك سُمّي : الحريم . وكانوا يأخذون بعض ثيابه أو بعض بدنته التي ينحر ، فامتنع عليه ظويلم)[1] . وظويلم منع عمرو بن صرمة الإتاوة التي كان يأخذها من غطفان[2] .

وقد جعلت طبيعة هذا الوادي أهل مكة يميلون الى السلم ، ولا يركنون الى الحرب والغزو إلا دفاعاً عن نفس . وهو شيء منطقي محترم ، فأهل مكة في وادٍ ضيق بين جبلين متقابلين ، وفي استطاعة الأعداء إنزال ضربات موجعة بهم من المرتفعات المسيطرة عليه ، وبسد منفذيه ، يحصر أهله فتنقطع عنهم كل وسائل المعيشة من ماء وطعام . لذلك لم يجدوا أمامهم من سبيل سوى التجمل بالحلم والصبر واتباع خطة الدفاع عن النفس ، بالاعتماد على أنفسهم وعلى غيرهم من أحلافهم كالأحابيش حلفائهم وقريش الظواهر . وقد أدت هذه الخطة الى اتهام قريش انها لا تحسن القتال ، وانها إن حاربت خسرت ، وانها كانت تخسر في الحروب — فخسرت ثلاثة حروب من حروب الفجار الأربعة ، الى غير ذلك من تهم . ولكن ذلك لا يعني ان في طبع رجال قريش جبناً ، وان من سجية قريش الخوف . وإنما هو حاصل طبيعة مكان ، واملاء ضرورات الحياة ، لتأمين الرزق . ولو ان أهل مكة عاشوا في موضع آخر ، لما صاروا أقل شجاعة وأقل اقبالاً في الاندفاع نحو الحرب والغزو من القبائل الأخرى .

وقد تمكنت مكة في نهاية القرن السادس وبفضل نشاط قريش المذكور من القيام بأعمال هامة ، صيّرتها من أهم المراكز المرموقة في العربية الغربية في التجارة

---

١ الاشتقاق (ص ١٧١ وما بعدها) .
٢ الاشتقاق (١٧٢) .

وفي اقراض المال للمحتاج اليه . كما تمكنت من تنظيم أمورها الداخلية ومن تحسين شؤون المدينة ، واتخاذ بيوت مناسبة لائقة لان تكون بيوت أغنياء زاروا العالم الخارجي ورأوا ما في بيوت أغنيائه من ترف وبذخ وخدم واسراف .

وقد ذكر (الثعالبي) ان قريشاً صاروا (أدهى العرب ، وأعقل البرية ، وأحسن الناس بياناً) لاختلاطهم بغيرهم ولاتصالهم بكثير من القبائل فأخذوا عن كل قوم شيئاً ، ثم انهم كانوا تجاراً (والتجار هم أصحاب التربيح والتكسب والتدنيق والتدقيق) ، وكانوا متشددين في دينهم حمساً ، (فتركوا الغزو كراهة السبي واستحلال الأموال) الى غير ذلك من أمور جلبت لهم الشهرة والمكانة [1] . وقد أشيد ايضاً بصحة اجسامهم وبجمالهم حتى ضرب المثل بجمالهم فقيل : (جمال قريش) [2] .

وقصيّ رئيس قريش ، هو الذي ثبت الملك في عقبه ، ونظم شؤون المدينة ، وقسم الوظائف والواجبات على أولاده حين شعر بدنو أجله . فلما أشرق الإسلام ، كانت أمور مكة في يد قريش ، ولها وحدها الهيمنة على هذه المدينة ، حتى عرف سكانها بـ (آل قصي) ، فكان أحدهم اذا استغاث او استنجد بأحد ، صاح : (يا لَقصيّ) ، كناية عن انهم (آل قصيّ) . جامع قريش [3] .

وهو أول رئيس من رؤساء مكة يمكن ان نقول إن حديثنا عنه ، هو حديث عن شخص عاش حقاً وعمل عملاً في هذه المدينة التي صارت قبلة الملايين من البشر فيما بعد . فهو إذن من الممهدين العاملين المكونين لهذه القبلة ، وهو أول رجل نتكلم عن بعض أعماله ونحن واثقون مما نكتبه عنه ونقوله . وهو أول شخص نقض البيوت المتنقلة التي لم تكن تقي أصحابها شيئاً من برد ولا حرّ ، والتي كانت على أطراف الوادي وبين أشجار الحرم ، وكأنها تريد حراسة البيت ، وحوّلها من خيام مهلهلة الى بيوت مستقرة ثابتة ذات أعمدة من خشب شجر الحرم ، وذات سقوف .

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (١١ وما بعدها) .

٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (٢٩) .

٣ يالـ قصيّ لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائي الدار والنفَر
الأحكام السلطانية (ص ٧٨ وما بعدها) .

ولم نعثر حتى الآن على اسم قريش أهل مكة في نص جاهلي . كذلك لم نعثر عليه أو على اسم مقارب له في كتب اليونان أو اللاتين أو قدماء السريان ممن عاشوا قبل الإسلام . فليس في امكاننا ذكر زمن جاهلي نقول اننا عثرنا فيه على اسم قريش ، وانها كانت معروفة يومئذ فيه .

وقد وردت لفظة (قريش) اسماً لرجل عرف بـ (حَبْسل قريش) . وذلك في نص حضرمي من أيام الملك (العز) ملك حضرموت[1] .

هذا ، وان لأهل الأخبار كلاماً في سبب تسمية قريش بقريش ، (فقيل : سُمّيت بقريش بن بدر بن يخلد بن الحارث بن يخلد بن النضر بن كنانة ، لأن عير بني النضر كانت اذا قدمت ، قالت العرب : قد جاءت عير قريش ، قالوا : وكان قريش هذا دليل النضر في أسفارهم ، وصاحب ميرتهم ، وكان له ابن يسمى بدراً ، احتفر بدراً ، قالوا فيه سميت البئر التي تدعى بدراً ، بدراً . وقال ابن الكلبي : انما قريش جماع نسب ، ليس بأب ولا بأم ولا حاضن ولا حاضنة ، وقال آخرون : انما سُمي بنو النضر من كنانة قريشاً ، لأن النضر بن كنانة خرج يوماً على نادي قومه ، فقال بعضهم لبعض : انظروا الى النضر ، كأنه جمل قريش .

وقيل : إنما سميت بدابّة تكون في البحر تأكل دواب البحر ، تدعى القرش ، فشبه بنو النضر بن كنانة بها ، لأنها أعظم دواب البحر قوة[2] .

وقيل : إن النضر بن كنانة كان يقرش عن حاجة الناس ، فيسدها بماله ، والتقريش — فيما زعموا — التفتيش وكان بنوه يقرشون أهل الموسم عن الحاجة فيسدّونها بما يبلّغهم[3] . (وقيل إن النضر بن كنانة كان اسمه قريشاً . وقيل : بل لم تزل بنو النضر بن كنانة يدعون بني النضر حتى جمعهم قصيّ بن كلاب ، فقيل لهم : قريش ، من أجل ان التجمع هو التقرش ، فقالت العرب : تقرش

١ تاريخ العرب في الاسلام (١/٤١) .
٢ وقريش هي التي تسكن البحر بها سميت قريش قريشا . تفسير الطبري (٢٥/ ١٩٩) .
٣ الطبري (٢/٢٦٣ وما بعدها) .

بنو النضر ، أي قد تجمعوا . وقيل : إنما قيل قريش من أجل انهـا تقرشت عن الغارات)[1] .

وذكر ان قريشاً كانت تدعى (النضر بن كنانة) ، وكانوا متفرقـين في (بني كنانة) ، فجمعهـم (قصيّ بن كلاب) ، فسموا قريشاً ، التقرش التجمع . وسُمّي قصي مجمّعاً . قال حذافة بن غانم بن عامر القرشي ثم العدوي :

قُصيٌّ أبوكم كان يدعى مجمعاً   بـه جمع الله القبائل من فهر[2]

وذكر ان قريشاً إنما قيل لهم (قريش) لتجمّعهم في الحرم من حوالي الكعبة بعد تفرقهم في البلاد حين غلب عليها (قصي بن كلاب) . يقال تقرش القوم إذا اجتمعوا . قالوا وبه سمّي قصي مجمعاً . أو لأنهم كانوا يتقرشون البياعـات فيشترونها ، أو لأن النضر بن كنانة اجتمع في ثوبه يوماً ، فقالوا تقرش ، فغلب عليه اللقب ، أو لأنه جاء الى قومه يوماً ، فقالوا كأنه جمل قريش أي شديد ، فلُقب به ، أو لأن قصياً كان يقال له القرشي ، وهو الذي سمّاهم بهذا الاسم ، أو لأنهم كانوا يفتشون الحاج فيسدّون خلتها ، فمن كان محتاجاً أغنوه ومن كان عارياً كسوه ومن كان معدماً كسوه ومن كان طريداً آووه ، أو سمّوا بقريش بن مخلد بن غالب بن فهر ، وكان صاحب عيرهم ، فكانوا يقولون : قدمت عير قريش وخرجت عير قريش ، فلقبوه به . أو نسبة الى (قريش بن الحرث بن مخلد بن النضر) ، والد (بدر) ، وكان دليلاً لبني (فهر بن مـالك) في الجاهلية ، فكانت عيرهم إذا وردت (بدراً) ، يقال : قد جاءت عير قريش، يضيفونها الى الرجل حتى مات . أو لأنهم كانوا أهل تجارة ولم يكونوا أصحاب ضرع وزرع . أو الى قريش بن بدر بن مخلد بن النضر . وكان دليل بني كنانة في تجارتهم ، فكان يقال : قدمت عير قريش . فسميت قريش بذلك . وأبوه بدر بن مخلد ، صاحب بدر ، الموضع المعروف[3] .

١ الطبري (٢٦٤/٢) ، ابن كثير ، البداية (٢٠١/٢) .
٢ العقد الفريد (٣١٢/٣ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٣٣٧/٤) ، (قرش) ، كتاب نسب قريش ، للزبيري (ص ١٢) .

ونعتت قريش بـ (آل الله) و (جيران الله) و (سكان حرم الله) [1] .
وبـ (أهل الله) [2] .

الى غير ذلك من آراء حصرها بعضهم في عشرين قولاً في تفسير معنى لفظة (قريش) ومن أين جاء أصلها . تجدها في بطون الكتب التي أشرت اليها في الحواشي . وفي موارد أخرى . وهي كلها تدل على ان أهل الأخبار كانوا حيارى في أمر هذه التسمية ، ولما كان من شأنهم ايجاد أصل وفصل ونسب وسبب لكل اسم وتسمية ، كما فعلوا مع التسميات القديمة ، ومنها تسميات قديمة تعود الى ما قبل الميلاد ، أوجدوا على طريقتهم تلك التعليلات والتفسيرات لمعنى (قريش) . وقد نجد هذه التعليلات تروى وتنسب الى شخص واحد كابن الكلبي مثلاً ، وهو ينسب رواياتها عادة الى رواة تقدموا عليه أو عاصروه ، وقد لا يرجعها الى أحد ، وربما كانت من وضعه وصنعته أو من اجتهاده الخاص في ايجاد علل للمسميات [3] .

فهذا هو مجمل آراء أهل الأخبار في معنى اسم قريش .

أما رأيهم في أول زمن ظهرت فيه التسمية ، فقد اختلف في ذلك وتباين أيضاً . فذكر قوم (ان عبد الملك بن مروان سأل محمد بن جبير : متى سميت قريش قريشاً ؟ قال : حين اجتمعت الى الحرم من تفرقها ، فذلك التجمع التقرش . فقال عبد الملك : ما سمعت هذا ، ولكن سمعت ان قصياً كان يقال له القرشي ، ولم تسم قريش قبله) . وورد : (لما نزل قصي الحرم وغلب عليه ، فعل أفعالاً جميلة ، فقيل له : القرشي ، فهو أول من سمي به) . وورود أيضاً ان (النضر بن كنانة كان يسمى القرشي) [4] .

وقد نسب الى علي وابن عباس قولهما ان قريشاً حي من النبط من أهل كوثى [5] . وإذا صح ان هذا القول هو منهما حقاً ، فإن ذلك يدل على انهما قصدا بالنبط (نبايوت) : وهو (ابن اسماعيل) في التوراة . واما (كوثى)

١ العقد الفريد (٣/٣١٣ وما بعدها) .
٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٠) .
٣ نهاية الأرب (١٦/١٦) ، تاج العروس (٤/٣٣٧) ، (قرش) .
٤ الطبري (٢/٢٦٤ وما بعدها) .
٥ البرفوفي (ص ٢٢٨) .

فقصدا بذلك موطن ابراهيم ، وهو من أهل العراق على رواية التواراة أيضاً . ولعلها أخذا هذا الرأي من أهل الكتاب في يثرب .

ويذكر أن جِذْم قريش كلها (فهر بن مالك) فما دونه قريش وما فوقه عرب ، مثل كنانة وأسد وغيرهما من قبائل مضر . وأما قبائل قريش ، فانما تنتهي الى فهر بن مالك لا تجاوزه[1] . ومن جاوز (فهراً) ، فليس من قريش[2] . ومعنى هذا ان جذم قريش من أيام (فهر بن مالك) فما فوقه ، كانت متبدية تعيش عيشة أعرابية ، فلما كانت أيام (فهر) أخذت تميل الى الاستقرار والاستيطان ، ولما استقرت وأقامت في مواضعها عرفت بـ (قريش) .

وذكر ان قريشاً قبيلة ، وأبوهم النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ، فكل من كان من ولد (النضر) ، فهو (قرشي) دون ولد كنانة ومن فوقه . وورد كل من لم يلده (فهر) فليس بقرشي . وهو المرجوع اليه[3] .

وقد صيرت رابطة النسب هذه قريشاً قبيلة تامة تقيم مجتمعة في أرض محدودة ، وبصورة مستقرة في بيوت ثابتة فيها بيوت من حجر ، بين أفرادها وأسرها وبطونها عصبية ، وبينهم تعاون وتضامن . كما جعلت أهل مكة في تعاون وثيق فيما بينهم في التجارة ، حتى كادوا يكونون وكأنهم شركاء مساهمون في شركة تجارية عامة . يساهم فيها كل من يجد عنده شيئاً من مال ، وإن حصل عليه عن طريق الاقتراض والربا ، ليكون له نصيب من الأرباح التي تأتي بها شركات مكة .

ويقسم أهل الأخبار قريشاً الى : قريش البطاح ، وقريش الظواهر . ويذكرون ان قريش البطاح بيوت ، منهم : بنو عبد مناف ، وبنو عبد الدار ، وبنو عبد العزّى ، وبنو عبد بن قصيّ بن كلاب ، وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو تيم بن مرة ، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة ، وبنو سهم ، وبنو جمح ابنا عمرو ابن هصيص بن كعب ، وبنو عدي بن كعب ، وبنو حسل بن عامر بن لؤي ، وبنو هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر ، وبنو هلال بن

١ العقد الفريد (٣/٣١٣ وما بعدها) .
٢ نهاية الأرب (١٦/١٥) .
٣ تاج العروس (٤/٣٣٧) ، (قرش) .

مالك بن ضبة بن الحارث بن فهر . وبنو عتيك بن عامر بن لؤي [1] . و (قصي) هو الذي أدخل البطون المذكورة الأبطح ، فسُمّوا البطاح [2] . ودخل (بنو حسل ابن عامر) مكة بعد ، فصاروا مع قريش البطاح ، فأما من دخل في العرب من قريش فليسوا من هؤلاء ولا من هؤلاء [3] .

ويذكر أهـل الأخبار ان (قريش البطاح) ، الذين ينزلون أباطح مكـة وبطحاءها . أو هم الذين ينزلون الشعب بين أخشبي مكة . وأخشبا مكة جبلاها : أبو قبيس والذي يقابله . ويقال لهم قريش الأباطح وقريش البطاح ، لأنهم صبابـة قريش وصميمها الذين اختطوا بطحاء مكة ونزلوها [4] . وهـم أشرف وأكرم من قريش الظواهر . ذكروا ان سادة قريش نزول ببطن مكة ، ومن كان دونهم ، فهم نزول بظواهر جبالها ، أي قريش الظواهر [5] .

اما قريش الظواهر : فهم : بنو معيص بن عامر بن لؤي ، وتيم الأدرم بن غالب بن فهر ، والحارث ابنا فهر ، إلا بني هلال بن أهيب بن ضبة ، وبني هلال بن مالك بن ضبة [6] . وعامة بني عامر بن لؤي ، وغيره [7] . عرفوا جميعاً بقريش الظواهر ، لأنهم لم يهبطوا مع قصيّ الأبطح . الا ان رهط (أبي عبيدة ابن الجراح) ، وهم من (بني الحارث بن فهر) ، نزلوا الأبطح فهم مـع المطيّبين أهل البطاح [8] . وورد ان (بني الأدرم من أعراب قريش ليس بمكـة منهم أحد) [9] .

١ المحبر (ص ١٦٧ وما بعدها) ، العمدة (٢/١٩٣) ، رسائل الجاحظ، (ص ١٥٦. (السندوبي) ، (المطبعة الرحمانيـة ١٩٣٣ م) ، مـروج الذهب (١/٥٨ . (١٩٥٨ م) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٧١) .
٣ البلاذري ، أنساب (١/٤٠) .
٤ فلو شهدتني من قريش عصـابة قريش البطـاح لا قريش الظـواهر
تاج العروس (٢/١٢٥) ، (بطح) .
٥ تاج العروس (٣/٣٧٢) ، (ظهر) .
٦ المحبر (١٦٨) ، البلاذري ، أنساب (١/٣٩) ، الثعالبي ، ثمار القلوب (٩٧) .
٧ العمدة (٢/١٩٤) .
٨ ابن سعد ، طبقات (١/٧١) .
٩ نهاية الأرب (١٦/١٧) .

ويبدو من وصف أهل الأخبار لقريش البطاح ، انهم إنما سُموا بالبطاح لأنهم دخلوا مع قصي البطاح ، فأقاموا هناك[1] . فهم مستقرون حضر ، وقد أقاموا في بيوت مهما كانت فإنها مستقرة ، وقد انصرفوا الى التجارة وخدمة البيت . فصاروا أصحاب مال وغنى ، وملكوا الأملاك في خارج مكة ، ولا سيما الطائف ، كما ملكوا الإبـل ، وقد تركوا رعيهـا للأعراب . وعرفوا أيضاً بقريش الضبَّ للزومهم الحرم[2] .

واما قريش الظواهر[3] ، فهم الساكنون خارج مكة في أطرافها ، وكانوا على ما يبدو من وصف أهل الأخبار لهم أعراباً ، أي انهم لم يبلغوا مبلغ قريش البطاح في الاستقرار وفي اتخاذ بيوت من مدر . وكانوا يفخرون على قريش مكة بأنهم أصحاب قتال ، وانهم يقاتلون عنهم وعن البيت . ولكنهم كانوا دون (قريش البطاح) في التحضر وفي الغنى والسيادة والجاه ، لأنهم أعراب فقراء ، لم يكن لهم عمل يعتاشون منه غير الرعي . وكانوا دونهـم في مستوى المعيشة بكثير وفي الوجاهة بين القبائل . ومع اشتراكهم وقريش البطاح في النسب ، ودفاعهم عنهم أيام الشدة والخطر ، إلا انهم كانوا يحقدون على ذوي أرحامهم على مـا أوتوا من غنى ومال وما نالوه من منزلة ، ويحسدونهم على ما حصلوا عليه من مكانة دون ان يعملوا على رفع مستواهم ، وترقية حالهم ، والاقتداء بذوي رحمهم أهل الوادي في اتخاذ الوسائل التي ضمنت لهم التفوق عليهم وفي جلب الغنى والمال لهم . كان شأنهم في ذلك شأن الحساد الذين يعيشون على حسدهم ، ولا يبحثون عن وسائل ترفعهم الى مصافّ من يحسدونه . ولعل نظرتهم الجاهلة الى أنفسهـم من انهم أعلى وأجل شأناً ممن يحسدونهم ، وإن كانوا دونهم في نظر الناس في المنزلة والمكانـة ، حالت دون تحسين حالهـم والتفوق على المحسود بالجـد والعمل ، لا بالاكتفاء بالحسد وبالتشدق بالقول والمباهاة .

ويذكر أهل الأخبار ان قسماً ثالثاً من قريش ، لم ينزل بمكة ولا بأطرافها ،

١ المحبر (١٦٨) .
٢ ابن الأثير (٢/٨) ، البلاذري ، انساب (١/٣٩) .
٣ (قريش الظواهر الذين ينزلون خارج الشعب) ، تاج العروس (٢/١٢٥) ، (بطح) ، البلاذري ، انساب (١/٣٩) ، (كانوا يفخرون على قريش الظواهر لظهورهم للعدو ، ولقائهم المناسر) ، البلاذري ، أنساب (١/٤٠) .

وانما هبط أماكن أخرى ، فاستقر بها ، وتحالف مع القبائل التي نزل بينها . من هؤلاء : سامة بن لؤى ، وقع الى عمان ، فولده هناك حلفاء أزد عمان . والحارث ابن لؤي وقع الى عُمان ، فولده هناك حلفاء أزد عمـــان . والحارث بن لؤي ، وقع الى اليامة ، فهـــم في بني هزان من عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار . والحـــارث ، هو جُشَم . وخزيمـــة بن لؤي ، وقعوا بالجزيـــرة الى بني الحارث بن همام بن مرة بن ذهـــل بن شيبان وسعد بن لؤي ، وبنو عوف بن لؤي ، وقعوا الى غطفان ولحقوا بهم ، ويقال لبني سعد بن لؤي بنانة ، وبنانة أمهم ، فأهل الباديـــة منهم . وأهل الحاضرة ينتمون الى قريش . ويقال لبني خزيمة بن لؤي : عائذة قريش . وكان عثمان بن عفان ألحق هذه القبائل ، حين استخلف بقريش[١] .

ويلاحظ ان هذا الصنف من أصناف قريش ، هو من نسل (لؤي) ، أي : من نسل (لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر) . وقد تباعدت مواطنهم عن قريش .

ومن قريش الظواهر : بنو الأدرم من نسل الأدرم ، وهو تيم بن غالب ، ومن رجالهم : عوف بن دهر بن تيم الشاعر ، وهو أحد شعراء قريش . وهلال ابن عبد الله بن عبد مناف ، وهو صاحب القينتين اللتين كانتا تغنيان بهجاء النبي ، وهو ابن الخطل الذي كان يؤذي النبي وارتد فأهدر النبي دمه يوم الفتح ، قتله أبو برزة الأسلمي وهو متعلق بأستار الكعبة ، أو سعد بن حريث المخزومي على رواية قريش[٢] . ومن قريش الظواهـــر أيضاً : بنو محارب ، والحارث بن فهر وبنو هصيص بن عامر بن لؤي .

ولم يكن أهل مكة كلهم من قريش ، بل ساكنهم أيضاً من كان بها قبلهم ، مثل خزاعة وبنو كنانة . وقريش وإن كانت من (كنانة) ، إلا انهـــا ميزت نفسها عنها ، وفرقت بينها وبين كنانة . ولكنانة إخوة منهم : أسد وأسده ، ووالدهم هو (خزيمة) وهو جدّ من أجداد قريش ، كما ان (كنانـة) هو

١ المحبر (ص ١٦٨ وما بعدها) ، الطبرى (٢٦١/٢) ، (وفي قريـــش من ليس بأبطحية ولا ظاهرية) ، تاج العروس (١٢٥/٢) ، (بطح) .
٢ الاشتقاق (ص ٦٦) .

جد من أجدادهم . وللأخباريين رأي في معنى كنانة[١] .

وقد عرفت قريش بين أهل الحجاز بسخينة . والسخينة طعام رقيق يتخذ من سمن ودقيق . وقيل دقيق وتمر – وهو دون العصيدة في الرقة وفوق الحساء . وانما لقبت قريش بسخينة لاتخاذها اياه ، أي لأنهم كانوا يكثرون من أكلها ولذا كانت تعيّر به[٢] .

الأحابيش :

ومن أهل مكة جماعة عرفت بـ (الأحابيش) . ذكر أهل الأخبار انهم حلفاء قريش ، وهم : بنو المصطلق ، والحياء بن سعد بن عمرو ، وبنو الهون ابن خزيمة . اجتمعوا بذنب حبشي – وهو جبل بأسفل مكة – فتحالفوا بالله إنا ليدٌ على غيرنا ما سجا ليل وأوضح نهار ، وما أرسى حبشي مكانه . وقيل : إنما سُمّوا بذلك لاجتماعهم . والتحابش : هو التجمع في كلام العرب[٣] . وذكر انهم اجتمعوا عند (حبشي) فحالفوا قريشاً . وقيل : أحياء من القارة انضموا الى (بني ليث) في الحرب التي نشبت بينهم وبين قريش قبل الإسلام ، فقال إبليس لقريش : إني جارٌ لكم من بني ليث فواقعوا دماً ، سُمّوا بذلك لاسودادهم ، قال :

ليث وديل وكعب والذي ظأرت   جمع الأحابيش ، لما احمرت الحدقُ

١ الاشتقاق (ص ١٨) ، الطبري (٢/٢٦٦) .

٢ (وفي الحديث أنه دخل على حمزة ، رضي الله تعالى عنه . فصنعت لهم سخينة فأكلوا منها . قال كعب بن مالك :

زعمت سُخينة أن ستغلب ربها   وليغلبن مغالب الغلاب

وفي حديث معاوية ، رضي الله تعالى عنه ، انه مازح الأحنف بن قيس ، فقال : ما الشيء الملفف في البجاد ؟ فقال : هو السخينة يا أمير المؤمنين ! الملفف في البجاد : وطب اللبن يلف به ليحمى ويدرك . وكانت تميم تعير به . والسخينة الحساء المذكور يؤكل في الجدب ، وكانت قريش تعير بها . فلما مازحه معاوية بما يعاب به قومه مازحه الأحنف بمثله) ، تاج العروس (٩/٢٣٢) .

٣ العمدة (٢/١٩٤) ، اللسان (٦/٢٧٨) ، (حبش) .

فلما سميت تلك الأحياء (الأحابيش) من قبل تجمعها ، صار التحبيش في الكلام كالتجميع .[1]

وورد ان (عبد مناف) و (عمرو بن هلال بن معيط الكناني) ، عقدا حلف الأحابيش . والأحابيش ، بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، وبنو المصطلق من خزاعة ، وبنو الهون بن خزيمة بن مدركة ، وكانوا مع قريش .[2] وقيل ايضاً ان الأحابيش ، هم : بنو الحـــارث بن عبد مناة بن كنانة ، وعضل ، والديش من بني الهون بن خزيمة ، والمصطلق ، والحيا من خزاعة .[3]

وقد وصف (اليعقوبي) (حلف الأحابيش) بقوله : (ولما كبر عبد مناف ابن قصي جاءته خزاعـــة وبنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، يسألونه الحلف ليعزوا به . فعقد بينهم الحلف الذي يقال له : حلف الأحابيش . وكان مُدبّر بني كنانة الذي سأل عبد مناف عقد الحلف عمرو بن هلل (هلال) بن معيص ابن عامر . وكان تحالف الأحابيش على الركن . يقوم رجل من قريش والآخر من الأحابيش فيضعان ايديهما على الركن ، فيحلفان بالله القاتل وحرمة هذا البيت والمقام والركن والشهر الحرام على النصر على الخلق جميعاً حتّى يرث الله الأرض ومن عليها وعلى التعاقد وعلى التعاون على كل من كادهم من الناس جميعاً ، ما بلّ بحرٌ صوفة ، وما قام حر او ثبير ، وما طلعت شمس من مشرقها الى يوم القيامة . فسمي حلف الأحابيش) .[4]

وقد ذُكر أن (المطلب بن عبد مناف بن قصي) ، قاد بني عبد مناف وأحلافها من الأحابيش ، وهم من ذكرتُ يوم ذات نكيف ، لحرب بني ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة .[5] كما ورد ان (الأحابيش) ، الذين ذكرت اسماءهم ، كانوا يحضرون مع من يحضر من طوائف العرب مثل قريش وهوازن ، وغطفان ،

١ اللسان (٦/٢٧٨) .
٢ قال الشاعر :
ان عمـــراً وان عبد منـــاف … جعلا الحلـف بيننـا أسـبابا
البلاذري ، أنساب (١/٥٢ ، ٧٦) .
٣ المحبر (ص ٢٤٦) .
٤ اليعقوبي (١/٢١٢) ، (طبعة النجف ١٩٦٤ م) .
٥ المحبر (ص ٢٤٦) .

وأسلم ، و (طوائف من العرب) سوق عكـاظ ، فيبيعون ويشترون .[1] كما ذكر انهم كانوا مثل قريش يقدسون اسافاً ونائلة .[2]

وورد في بعض اخبـار الأخباريين ، ان يوم (ذات نكيف) ، وقع بين قريش وبني كنانة . فهزمت قريش بني كنانة ، وعلى قريش عبد المطلب .[3]
وقد بقي (الأحابيش) بمكة ، الى ايام الأمويين . فذكر ان (عبد الله المتكبر) ، وكان من اشراف قريش في ايام (معـاوية) ومن اغناها مالاً ، لما وفد على (معاوية) وكان خليفة إذْ ذاك ، كَلَّمه في (قريش) ووجوب الاعتماد عليهم ثم في (الأحابيش) ، إذْ قال له عنهم : (وحلفاؤك من الأحابيش) قد عرفت نصرهم ومؤازرتهم ، فاخلطهم نفسك وقومك) .[4]

وقـد بحث (لامانس) في موضوع الأحابيش ، فرأى انهم قوة عسكرية ألفت من العبيد السود المستوردين من افريقية ومن عرب مرتزقة ، كونتها مكة للدفاع عنها . وقد بحث مستشرقون آخرون في هذا الموضوع ، فمنهم من ايده ، ومنهم من توسط في رأيه ، ومنهم من ايد الرواية العربية المتقدمة التي ذكرتها . وعندي رأي آخر ، قد يفسر لنا سبب تسمية (بني الحارث بن عبد مناة) من (كنانة) ومن ايدها من (بني المصطلق) و (بني الهون) بالأحابيش . هو ان من الممكن ان تكون هذه التسمية قد وردت اليهم من اجل خضوعهم لحكم الحبش ، وذلك قبل الإسلام بزمن طويل . فقد سبق ان ذكرت في الجزء الثالث من كتابي : (تأريخ العرب قبل الإسلام) ، وفي اثناء كلامي على (جغرافيا بطلميوس) ،[5] ان الساحل الذي ذكره (بطلميوس) باسم : (Cinaedocolpitae) انما هو ساحل (تهامة) وهو منازل (كنانة) . وقد بقي الحبش به وقتاً طويلاً . واختلطوا بسكانه . فيجوز ان تكون لفظة (الأحابيش) قد لحقت بعض (كنانة)

---

١ المحبر (ص ٢٦٧) .
٢ المحبر (٣١٨) .
٣ اللسان (٩/٣٤٢) ، (نكف) ، قال ابن سعنلة الفهري :

فلله عينـا من رأى من عصـابة — غـوت غـي بـكر يوم ذات نكيف
أناخـوا الى أبياتنـا ونسـائنا — فـكانوا لنا ضيفـا لشر مضيف

تاج العروس (٦/٢٦١) ، (نكف) .
٤ نسب قريش (٣٨٩) .
٥ (٣٩٣) .

من خضوعهم للحبش ، حتى صارت اللفظة لقباً لهم ، او علماً لكنانة ومن حالفها . ويجوز ان تكون قد لحقتهم ولحقت الآخرين معهم لتميزهم عن بقية (كنانة) ومن انضم اليهم ممن سكن خارج تهامة . او لتزوج قسم منهم من نساء حبشيات ، حتى ظهرت السمرة على سحنهم . ولهذا وصفوا بالأحابيش فليس من اللازم اذن ان يكون (الأحابيش) ، هم كلهم من حبش افريقية ، بل كانوا عرباً وقوماً من العبيد والمرتزقة ممن امتلكهم اهل مكة . ومما يؤيد رأيي هذا هو ورود (من بني كنانة) مع اهل تهامة في اخبار معارك قريش مع الرسول . ففي معركة (أحد) ، نجد (الطبري) يقول : (فاجتمعت قريش لحرب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حين فعل ذلك ابو سفيان وأصحاب العير بأحابيشها ومن اطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة) .[1] ونجد مثل ذلك في اخبار معارك اخرى . مما يشير الى ان الأحابيش ، ليسوا عبيد افريقية حسب ، بل هم عرب وحبش ومرتزقة . وأن اولئك الأحابيش هم من ساحل تهامة في الغالب من كنانة،اي ممن اقام بذلك الساحل المستقر به من الحبش واندمج في العرب ، فصار من المستعربة الذين نسوا اصولهم وضاعت انسابهم ، واتخذوا لهم نسباً عربياً ،

وقد كان للأحابيش سادة يديرون امورهم ، منهم (ابن الدغنة) وهو (ربيعة بن رفيع بن حيّان بن ثعلبة السلمي) الذي اجار (ابا بكر) . وشهد معركة حنين .[2]

ومن سادات الأحابيش (الحليس بن يزيد) . ويظهر انه كان يتمتع بمنزلة محترمة بمكة . وقد ذكر (محمد بن حبيب) (الحليس) على هذه الصورة : (الحليس بن يزيد) . وذكر انه من (بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة) . وكان من رؤساء حرب الفجار من قريش .[3] وذكره غيره على هذه الصورة : (وحليس بن علقمة الحارثي . سيد الأحابيش ورئيسهم يوم أحد . وهو من بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة) .[4]

وقد حارب الأحابيش مع قريش يوم أحد ، وقد رأسهم (ابو عامر)

١ خبر (غزوة أحد) ، (فخرجت قريش بحدها وجدّها وأحابيشها ، ومن معها من بني كنانة واهل تهامة) ، الطبري (٥٠١/١٢) .
٢ تاج العروس (٢٠٠/٩) ، (دغن) .
٣ المحبر (١٦٩ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (١٣٠/٤) ، (حلس) .

المعروف بـ (الراهب) .[1] وقاتل بهم ، مع ان رئيسهم وسيدهم اذ ذاك هو (الحليس بن زبان) أخو (بني الحارث بن عبد مناة) . وهو يومئذ (سيد الأحابيش) . وقد مرّ بـ (ابي سفيان) ، وهو يضرب في شدق (حمزة) بزج الرمح ، فلامه على فعله وأنبه .[2] ولعلّ هذا الحليس هو الحليس المتقدم ، كتب اسم والده بصور مختلفة بحذف اسم والده واضافة جده او غيره اليه ، فصار وكأنه انسان آخر .

وقد ورد ذكر (الحليس) في خبر (الحديبية) . فقد ذكر الطبري ان قريشاً اوفدت (الحليس بن علقمة) او (ابن زبان) ، وكان يومئذ سيد الأحابيش ، وهو احد (بلحارث بن عبد مناة بن كنانة) ، الى رسول الله ، فلما رآه الرسول ، قال : ان هذا من قوم يتألهون ، فلما رأى الحليس هدْيَ المسلمين في قلائده ، وأحس ان الرسول انما جاء معتمراً لا يريد سوءاً لقريش ، قَصَّ عليهم ما رأى ، فقالوا له : اجلس ، فإنما انت رجل أعرابي لا علم لك . فغضب (الحليس) عند ذلك ، وقال : يا معشر قريش ، والله ما على هذا حالفناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، ان تصدّوا عن بيت الله من جاءه معظماً له ، والذي نفس الحليس بيده لتخلُّن بين محمد وبين ما جاء له او لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد ! فقالوا له : مه ، كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نوصي به .[3]

وقد ساهم (الأحابيش) في الدفاع عن مكة عام الفتح . وكانوا قد تجمعوا مع (بني بكر) و (بني الحارث بن عبد مناة) ومن كان من الأحابيش ، اسفل مكة . كما امرتهم قريش بذلك . فأمر رسول الله خالد بن الوليد ان يسير عليهم ، فقاتلهم حتى هزموا . ولم يكن بمكة قتال غير ذلك .[4] ولم يذكر (الطبري) اسم سيد الأحابيش في هذا اليوم .

ويتبين من دراسة اخبار اهل الأخبار عن الأحابيش ، ومن نقدها وغربلتها ، ان الأحابيش ، كانوا جماعة قائمة بذاتها ، مستقلة في ادارة شؤونها ، يدير امورها رؤساء منهم ، يعرف احدهم بـ (سيد الأحابيش) . وقد ذكرت اسماء

١ الطبري (٢/٥١٢) ، (غزوة أحد) .
٢ الطبري (٢/٥٢٧) ، (غزوة أحد) .
٣ الطبري (٢/٦٢٧ وما بعدها) ، (الحديبية) .
٤ الطبري (٣/٥٦) ، (فتح مكة) .

بعض منهم قبل قليل . وقد عاشوا عيشة اعرابية ، خارج مكة على ما يظهر من الروايات . وذلك بدليل قول قريش للحليس : (اجلس ، فإنما انت رجل اعرابي ، لا علم لك) .[1] اي انهم كانوا اعراباً ويعيشون عيشة اعرابية . ويظهر من هذه الاخبار ايضاً ان (الحليس) (سيد الأحابيش) ، كان من (بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة) ، وأن (ابن الدغنة) ، كان من (بني سليم) . ولم ينص اهل الاخبار فيما اذا كانا عربيين صريحين ام انهما كانا من (بني الحارث) ومن (بني سليم) بالولاء ، فنسبهما الى القبيلتين ، هو نسب ولاء .

ويظهر من خبر (الحديبية) ، ومن قول النبي لما رأى (الحليس) قادماً اليه : (ان هذا من قوم يتألهون) ، ان الأحابيش لم يكونوا على دين مكة اي من عباد الاصنام بل كانوا مؤلهة ، يدينون بوجود إلّه . وقد يشير الرسول بذلك اى انهم كانوا نصارى ، اخذوا نصرانيتهم من الحبش . ولذلك كانوا من المؤلهة بالنسبة لقريش . وأنا لا استبعد ايضاً ان تكون تلك التسمية قد غلبت على هؤلاء لأنهم كانوا من الساحل الافريقي المقابل لجزيرة العرب . جاؤوا اليها بالفتوح وبالنخاسة ، وأقاموا في تهامة الى مكة ، وعاشوا عيشة اعرابية متبدية ، وتحالفوا مع القبائل العربية المذكورة ، وتخلقوا بأخلاق عربية حتى صاروا اعراباً في كل شيء . وقد لازمتهم التسمية التي تشير الى اصلهم ، وانما تحالفوا مع (بني الحارث) وبقية المذكورين ، عرف حلفهم بـ (حلف الأحابيش) ، ثم عرف المتحالفون بـ (الأحابيش) . وقد نسي الأصل وهو الأحابيش ، اي اسم الحبش الذين تحالفوا مع (بني الحارث) و (عضل) و (الديش) و (المصطلق) و (الحيا) . لسبب لا نعرفه ، قد يكون بسبب كونهم عبيداً سوداً ، وأطلق الحلف على المذكورين . غير ان روايات اهل الاخبار تشير الى كثير من الأحابيش في مثل قولها : (وخرجت قريش بأحابيشها) الى ان الأحابيش المذكورين كانوا في حكم قريش ، اي جماعة من الحبش من اهل افريقية ، كانت كما ذكرتُ تكوّن وحدة قائمة بذاتها ، ولكنها تدين بولائها لقريش ، ولها حلف مع بعض كنانة ومع قبائل اخرى . ولما كان عام الفتح امرتها قريش بالتعاون مع (بني بكر) و (بني الحارث بن عبد مناة) ، للدفاع عن مكة من جهة الجنوب . فامتثلت لأمر قريش ، وأخذت مواضعها هنالك ، حتى زلزلها (خالد بن الوليد) .

١ الطبري (٢/٦٢٧) ، (الحديبية) .

وقد منح (لامانس) الأحابيش درجة مهمة في الدفــاع عن قريش . حتى زعم ان قريشاً ركنت اليهم في دفاعهم عن مكة ، وعهدت اليهم دوراً خطيراً في حروبها مع الرسول . وقد استند في رأيه هذا الى ما رواه أهل الأخبار من اشتراكهم مع قريش في تلك الحروب . غير اننا نجد من دراسة أخبار الحروب المذكورة ، ان الأحابيش وان ساهموا فيها ، الا انهم لم يلعبوا دوراً خطيراً فيها . وانهم لم يكونوا في تلك الحروب سوى فرقة من الفرق التي ساعدت قريشاً ، مقابل مال ورزق ووعود . ولم يكن الأحباش وحدهم قد ساعدوا أهل مكة في حروبهم مع غيرهم ، فقد ساعدهم ايضاً طوائف من الأعراب ، أي من البدو الفقراء الذين كانوا يقاتلون ويؤدون مختلف الخدمات في سبيل الحصول على خبز يعيشون عليه .

وقريش جماعة استقرت وتحضرت ، واشتغلت بالتجارة ، وحصلت منها على غنائم طيبة . ومن طبع التاجر الابتعاد عن الخصومات والمعارك والحروب . لأن التجارة لا يمكن ان تزدهر وتثمر إلا في محيط هادىء مستقر . لذلك ، صار من سياستها استرضاء الأعراب وعقد (حبال) مع ساداتهم ، لتأمين جانبهم ، ليسمحوا لقوافلها بالمرور بسلام . كما صار من اللازم عليها عقد أحلاف مــع المجاورين لهم من الأعراب مثل (قريش الظواهر) و (الأحابيش) وأمثالهم للاستعانــة بهم في الدفاع عن مكة والاشتراك معهم في حروبهم التي قد يجبرون على خوضها مع غيرهم . بالإضافة الى عبيدهم (الحبش) الذين اشتروهم لتمشية أمورهــم وليكونوا حرساً وقوة أمن لهم .

ولم تكن قريش تعتمد على القوة في تمشية مصالحها التجارية ، بقدر اعتمادها على سياسة الحلم واللين والقول المعسول والكلام المرضي في الوصول الى غايتهــا وأهدافها ومصالحها التجارية . وبهذه السياسة : سياسة اللين والمفاوضة والمسالمة ، كانت تبدأ بحل ما يقع لها من صعوبات مع الناس . ولم يكن من السهل عليها في الواقع إرضاء الأعراب واسكاتهم لولا هذه السياسة الحكيمة التي اختاروها لأنفسهم ، وهي سياسة أكثر سكان القرى العامرة الواقعة في البوادي بين أعراب جائعين ، سياسة الاسترضاء بالحكمة واللسان الجميل ، واداء المال رشوة لهــم بأقل مقدار ممكن ، لأن الاكثار من السخاء يثير في الأعرابي شهوة طلب المزيد . وشهوتـه هذه متى ظهرت ؛ فسوف لا تنتهي عند حد . وأهل مكة بخبرتهـم الطويلة في تجولهم بمختلف أنحاء جزيرة العرب أعرف من غيرهم بنفسية الأعراب .

وكان لأشرافها أحلاف مع سادات القبائل ، تحالفوا معهم لتمشية مصالحهم ولحماية تجارتهم . فكان (زرارة) التميمي مثلاً حليفاً لـ (بني عبد الدار) . وكان عامر بن هاشم بن عبد مناف ، قد تزوّج (بنت النباش بن زرارة) ، وأولد منها (عكرمة بن عامر بن هاشم) الشاعر ، و (بغيض بن عامر) الذي كتب الصحيفة على (بني هاشم) في أمر مقاطعة قريش لبني هاشم[1] .

وقد عيرت قريش بأنها لا تحسن القتال ، وانها تجاري وتساير من غلب ، وانها لا تخرج إلا بخفارة خفير ، وبحلف حليف ، وبحبل من هذه الحبال التي عقدتها مع سادات القبائل . فلما سمع (النعمان بن قبيصة بن حيّة الطائي) ابن عم (قبيصة بن إياس بن حيّة الطائي) صاحب الحيرة ، بـ (سعد بن أبي وقاص) ، سأل عنه ، فقيل : (رجل من قريش ، فقال : اما إذا كان قرشياً فليس بشيء ، والله لأجاهدنه القتال . إنما قريش عبيد من غلب ، والله ما يمنعون خفيراً ، ولا يخرجون من بلادهم إلا بخفير)[2] . ونجد أمثلة أخرى من هذا القبيل تشير الى ميل قريش الى السلم ، وعدم قدرتها على القتال .

وذكر الأخباريون انه كان لكنانة جملة أولاد ، ذكر ابن الكلبي منهم : النضر ، والنضير ، ومالكاً وملكان ، وعامراً ، وعمراً ، والحارث ، وعروان (غزوان) ، وسعداً ، وعوفاً ، وغنماً ، ومخرمة ، وجرولاً . وهم من زوجته (برة بنت مرّ) أخت (تميم بن مرّ) . ولهذا رأى النسابون وجود صلة بين أبناء هؤلاء الأولاد وقبيلة (تميم) . وأما (عبد مناة) ، فإنه ابن كنانة من زوجته الأخرى ، وهي (الذفراء بنت هانىء بن بليّ) من قضاعة . ولذلك عدّ أبناؤه من قضاعة .

ويذكر أهل الأخبار ان من أجداد (قصيّ) ، رجل كانت له منزلة في قومه اسمه (كعب بن لؤي) ، كان يخطب للناس في الحج ، وكان رئيساً في (قريش) فلما توفي ، أرخت قريش بموته اعظاماً له ، الى ان كان عام الفيل فأرخوا به[3] . وذكر بعض أهل الأخبار ان أم (كعب) هي من (القين بن

١ نسب قريش (٢٥٤) .
٢ الطبري (٣/٥٧٢ وما بعدها) ، (دار المعارف) .
٣ البلاذري ، أنساب (١/٤١) .

جسر) من قضاعة ، وان كعباً هذا أول من سمى يوم الجمعة الجمعة ، وكانت العرب تسمي يوم الجمعة : العروبة . وأول من قال : (أمـا بعد) ، فكان يقول : (اما بعد ، فاستمعوا وافهموا) ، وان بين موته والفيل خمسمائة سنة وعشرون سنة [١] .

وفي قول أهل الأخبار عن وقت موت كعب مبالغة شديدة بالطبـع ، فإن كعباً هو والد (مُرّة) و (مُرّة) هو والد (كلاب) و (كلاب) هو والد (قصيّ) . فلا يعقل إذن ان يكون بين موت (كعب) وبين الفيل هذا المقدار من السنين .

وهم يذكرون ايضاً ان والد (قصيّ) وهو (كلاب) كان قـد تزوج (فاطمة بنت سعد بن سيل) ، فأنجبت له (قصيّاً) . وهي من الأزد ، من نسل (عامر الجادر) . وقد عرف بـ (الجادر) لانه بنى جدار الكعبة بعد ان وَهَنَ من سيل أتى في أيام ولاية جرهم البيت ، فسمي الجادر . وذكر ايضاً ان الحاج كانوا يتمسحون بالكعبة ، ويأخذون من طيبها وحجارتها تبركاً بذلك ، وان عامراً هذا كان موكلاً باصلاح ما شعث من جدرها فسُمّي الجادر . وذكر ان (سعد بن سيل) ، كان أول من حـلى السيوف بالفضة والذهب . وكان أهدى الى (كلاب) مع ابنته (فاطمة) سيفين محليين ، فجعلا في خزانـة الكعبة [٢] . وذكر ان (كلاباً) ، هو أول من جعل في الكعبة السيوف المحلاة بالذهب والفضة ذخيرة للكعبة [٣] . وجاء ايضاً انه أول من جدر الكعبة [٤] .

و (قصيّ) رئيس قريش ، ، هو الذي ثبت الملك في عقبـه ، ونظـم شؤون المدينة ، وقسم الوظائف والواجبات على أولاده حين شعر بدنو أجله . فلما أشرق الإسلام ، كانت أمور مكة في يد قريش ، ولم يكن لغـير قريش نفوذ يذكر على مكة . فهو الذي بعث الحياة الى قومه من قريش ، وجعل لهم مكانة في هذه القرية ونفوذاً وشهرة في الحجاز . وهو الذي أوجد لمكة مكانة ، وخلق

---

١ نهاية الأرب (١٨/١٦) .
٢ البلاذري ، أنساب (٤٨/١)، (كلاب) ، الدميري ، حياة الحيوان (٢٧٨/٢) .
٣ نهاية الأرب (١٩/١٦) .
٤ نسب قريش ، للزبيري (ص ١٤) .

لها نوعاً من التنظيم والإدارة . ومن عهده فما بعد نجد في أخبار مكة ما يمكن ان يركن ويطمأن اليه من أخبار .

وقد روى (ابن قتيبة) خبراً مفاده ان (قيصر) أعان (قصياً) على (خزاعة)[1] . واذا صح هذا الخبر ، فإن مساعدة (قيصر) له قد تكون عن طريق معاونة الغساسنة له ، وهم حلفاء الروم . وقد تكون قبيلة (بنو عذرة) وهي من القبائل المتنصرة التي عاشت على مقربة من حدود بلاد الشأم ، هي التي توسطت فيما بين قصي والروم ، وقد كانت خاضعة لنفوذهم ، فأعانه أحد الحكام الروم – وقد يكون من ضباط الحدود ، أو من حكام المقاطعات الجنوبية مثل (بصرى) – بأن أمده بمساعدة مالية أو بايعاز منه الى الأعراب المحالفين للروم بمساعدته في التغلب على خزاعة[2] . ولا أهمية كبيرة في هذا الخبر لكلمة (قيصر) . فقد جرت عادة أهل الأخبار على الإسراف في استعمالهم لهذه اللفظة . وقد ورثوا هذا الإسراف من الجاهليين ، فقد كان من عادتهم تسمية أي موظف بارز من موظفي الحدود الروم ، أو من حكام المقاطعات بـ (قيصر) . وفي روايات أهل الأخبار أمثلة عديدة من هذا القبيل .

ويذكر ان (عثمان بن الحويرث) ، وكان من المجانين في قريش ومن العالمين بأخبار رجالها ، قد توسط فيما بعد لدى البيزنطيين لتنصيب نفسه ملكاً على مكة . وهو من (بني أسد بن عبد العزى) . ويظهر انه أدرك المرارة التي أصيب بها البيزنطيون من خروج الحبش عن اليمن ومن دخول الفرس اليها ، وسيطرتهم بذلك على باب المندب ، مفتاح البحر الأحمر ، فتقرب الى الروم وتوسل اليهم لمساعدته بكل ما عندهم من وسائل لتنصيب نفسه ملكاً على مكة ، علماً منه ان هذا الطلب سيجد قبولاً لديهم ، وان في امكانهم في حالة عدم رغبتهم بمساعدته مساعدة عسكرية أو مالية ، الضغط على سادات مكة ضغطاً اقتصادياً ، بعرقلة تجارتهم مع بلاد الشأم ، أو بمنع الاتجار مع مكة ، أو برفع مقدار الضرائب التي تؤخذ عن تجارتهم ، وبذلك يوافقون على الاعتراف به ملكاً

١ المعارف (ص ٦٤٠) ، (وأعانه قيصر عليها) ،
Lammens, Macque, P. 269.

٢ W. M. Watt, Muhammad at Mecca, P. 13.

عليه ، على نحو ما كان عليه الملوك الغساسنة . وكما سأتحدث عن هذا الموضوع فيما بعد .

والظاهر ان مشروعه هذا لم يلاق نجاحاً ، لأن سادات مكة وفي جملتهم رجال من (بني أسد بن عبد العزى) ، مثل (الأسود بن المطلب) و (أبو زمعة) ، والأثرياء من الأسرة الأخرى عارضوه ، لأنهم كانوا تجاراً يتاجرون مع الفرس والروم ، وانحيازهم الى الروم ، معناه خروج مكة عن سياسة الحياد التي اتبعوها تجاه المعسكرين : الفرس والروم ، وسيؤدي هذا الانحياز الى عرقلة اتجارهم مع الفرس ومع الأرضين الخاضعة لنفوذهم ، وتؤدي هذه العرقلة الى خسارة فادحة تقع بتجارتهم ، لا سيما وان الفرس كانوا قد استولوا على اليمن ، ولأهل مكة تجارة واسعة معها . ثم إن بين أهل مكة رجال لهم شأن ومكانة في قومهم ، وكانوا أرفع منزلة من (عثمان بن الحويرث) ، لذلك لم يكن من الممكن بالنسبة لهم الانصياع له حتى وإن أرسل الروم جيشاً قوياً منظماً على مكة ، لذلك لم يتحقق حلم (عثمان) في الرياسة ولو بمساعدة قوات أجنبية .

وزعم بعض أهل الأخبار ان (الحارث بن ظالم المريّ) ، ذكر (آل قصي) في شعره ، ودعاهم بـ (قرابين الإله) ، إذ قال :

وإن تَعصيب بهم نسبي فنهم ... قرابين الإله بنو قصيّ [1]

وهو في عرف بعض النسابين : (قصي بن كلاب بن مُرّة ين كعب بن لؤي بن فِهر) [2] . و (قصي بن كلاب بن مُرّة بن كعب بن لؤي بن غالب ابن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضَر بن نزار بن معد بن عدنان) ، في شجرة نسبه التي توصله الى جدّه الأعلى (عدنان) [3] . فأبوه هو كلاب . اما أمه ، فهي (فاطمة بنت سعد بن

---

١ الثعالبي ، ثمار (١٦) .

٢ ابن الأثير ، الكامل ، (٢/٧ وما بعدها) ، المعارف (٧٠ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٣٠) ، ابن سعد ، طبقات (١/٦٨) .

٣ الطبري (٢/٦٦١ وما بعدها) ، (دار المعارف بمصر) ، مروج (٢/١٦٤) ، (طبعه محمد محيي الدين عبد الحميد) ، الذهبي ، تأريخ الاسلام ، (١/١٨) ، أبو الفداء ، المختصر (١/١١٢) .

سيل بن حمالة بن عوف بن غنم بن عامر الجادر بن عمرو بن جعثمة ابن يشكر) من أزد شنوءة حلفاء في (بني الدِّيل)[1] . توفي أبوه وهو صغير ، وتزوجت أمه بعد وفاة (كلاب) أبيه من رجل من بني عذرة ، هو ربيعة بن حرام . ولصغر سن قصي ، أخذته أمه معها الى أرض زوجها في بني عذرة ، على مقربة من تَبُوك ، وتركت أخاه الأكبر (زهرة) في أهله بمكة . ولما شب قصيّ وترعرع ، وعرف من أمه أصله وعشيرته ، رجع الى قومه ، فنزل بمكة وأقام بها : ونظم أمر قريش[2] .

ولم يكن اسم قصي قصيّاً يوم سُمي ، بل كان (زيداً) ، وانما سُمّي قصيّاً بعد ذلك ، سُمّي قصيّاً على ما يذكر أهل الأخبار ، لأنه قصيّ عن قومه ، فكان في بني عذرة ، فسمي قصيّاً لبعد داره عن دار قومه[3] . وبينا قصي بأرض قضاعة لا ينتمي إلا الى ربيعة بن حرام ، زوج أمه ، وهو من أشراف قومه ، إذ كان بينه وبين رجل من قضاعة شيء ، فأنبه القضاعي بالغربة ، فرجع قصي الى أمه ، وقد وجد في نفسه مما قال له القضاعي ، فسألها عما قال له ذلك الرجل ، فقالت له : أنت ، والله ، يا بني أكرم منه نفساً وولداً . فأجمع قصي الخروج الى قومه واللحوق بهم ، فقالت له أمه : يا بني، لا تعجل بالخروج حتى يدخل عليك الشهر الحرام ، فتخرج في حاج العرب ، فإني أخشى عليك ان يصيبك بعض البأس ، فأقام قصي حتى إذا دخل الشهر الحرام ، خرج حاج قضاعة ، فخرج فيهم حتى قدم مكة فلما فرغ من الحج ، أقام بها ، واتخذها له مستقراً ومقاماً[4] .

وتعرف قصي وهو بمكة على (حليل بن حبشية الخزاعي) ، وكان يلي الكعبة وأمر مكة ، ثم خطب اليه ابنته ، وهي (حبى) ، فزوجه إياها ، وولدت

---

١ الطبري (٢/٢٥٤) ، (دار المعارف بمصر) ، (وسيل ، هو خير بن حمالة ، من الجدرة من أزد شنوءة) ، المحبر (٥٢) .

٢ ابن سعد ، طبقات (١/٦٦ وما بعدها) .

٣ واسمه (زيد) وكنيته (أبو المغيرة) ، ابن الأثير ، الكامل (٢/٧ وما بعدها) ، (فاطمة بنت سيل بن حمالة بن عوف بن غنم بن عامر الجادر) ، الاشتقاق (١٣ ، ٢٥) ، الطبري (٢/٢٥٥) ، (دار المعارف بمصر) ، الأزرقي ، أخبار مكة (١/٥٧) ، السويدي ، سبائك (٦٧) .

٤ الطبري (٢/٢٥٥) (دار المعارف بمصر) ، نهاية الأرب (١٦/٢٠ وما بعدها) .

له ولده : عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزّى ، وعبد قصي . وكثر ماله ، وعظم شرفه ، فلما توفي (حليل) رأى قصي انه أولى من خزاعة بولاية البيت ، وان قريشاً فرعة اسماعيل وابراهيم ، واستنفر رجال قريش ، ودعاهم الى اخراج خزاعة من مكة . وكتب الى أخيه من أمه ، وهو (رزاح بن ربيعة بن حرام العذري) يستنصره ، فأجابه ومعه قومه من بني عذرة من قضاعة ، ووصلوا مكة ونصروه ؛ وغلبت قضاعة وبنو النضر خزاعة ، وزال ملكهم عن مكة ، وصار الامر الى قصي وقريش[1] .

وفي رواية أخرى انه اشترى ولاية البيت من (أبي غَبْشان) بزق خمر وبعود . وكان (حليل) كما يقول أصحاب هذه الرواية قد جعل ولاية البيت الى ابنته (حُبى) ، فقالت : قد علمت اني لا أقدر على فتح الباب وإغلاقه ، قال : فاني أجعل الفتح والاغلاق الى رجل يقوم لك به ، فجعله الى (أبي غبْشان) ، وهو (سليم بن عمرو بن بويّ بن ملكان بن أفصى) ، فاشترى قصي ولاية البيت منه بزق خمر وبعود . فلما سمعت خزاعة ذلك ، تجمعت على قصي ، فاستنصر أخاه ، فقاتل خزاعة وأصيب خراعة بوباء العدسة ، حتّى كادت تفنيهم . فلما رأت ذلك ، جلت عن مكة . ويذكرون ان العرب لما سمعت بقصة (أبي غبشان) ، قالت : (أخسر صفقة من أبي غبشان) ، فذهب القول مثلاً[2] .

وأبو غبشان ، هو (المحترش)[3] . وقد ورد اسم رجل عرف بالحارث ، قيل عنه انه غبشان بن عبد عمرو ، وانه كان قد حجب البيت[4] ، فلعلّ له علاقة بأبي غبشان المذكور ، كأن يكون ابنه .

وفي رواية ان القتال حينما اشتد بين قصي وخزاعة ، تداعوا الى الصلح ، على

١ الطبري (٢/٢٥٥ وما بعدها) ، ابن الأثير (٢/٧ وما بعدها) ، الأزرقي (١/٥٥ وما بعدها) ، (طبعة الماجدية) ، (٦٥ وما بعدها) ، (طبعة وستنفلد) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٦٨) (صادر) ، البلاذري ، أنساب (١/٤٧ وما بعدها) .

٢ الطبري (٢/٢٥٦) (دار المعارف بمصر) ، ابن الأثير ، الكامل (٢/٨) ، السويدي ، سبائك (٦٧) ، المسعودي ، مروج (٢/٥٨ وما بعدها) .

٣ الاشتقاق (ص ٢٧٧) .

٤ الاشتقاق (ص ٢٨٢) .

ان يحكم بينهم (عمرو بن عوف بن كعب بن ليث بن بكر بن عبد مناف بن كنانة) (يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث) ، فوافـق . فكان حكمه ان قصياً أولى بالبيت ومكة من خزاعة ، وان كل دم أصابه من خزاعة موضوع ، فيشدخه تحت قدميه ، وان كل دم أصابت خزاعة وبنو بكر حلفاؤهم من قريش وبني كنانـة ، ففي ذلك الدية مؤداةً . وبذلك انتصر قصي عـلى خصومه . ويقولون إن (عمراً) سُمّي منذ ذلك الحين الشدّاخ ، بمـا شدخ من الدمـاء[1] .

ولم يشر بعض أهل الأخبار الى ان شدخ الشدّاخ الدماء بين قريش وخزاعة ، كان في عهد قصي ، فأغفلوا اسم (قصي) ، بل اكتفوا بالاشارة الى شدخه الدماء واصلاح ما بين قريش وخزاعة ، وذكر بعضهم انه حكم في جملة ما حكم به على ألا يخرج خزاعـة من مكة[2] . وأكثر الرواة على ان اسمه (يعمر بن عوف ، لا (عمرو بن عوف) كما جاء في الرواية المتقدمة[3] .

ولم تشر رواية أخرى ذكرها (ابن دريد) الى وقوع نزاع بين قصي وبين خزاعة ، بل قالت : إن حليلاً سادن الكعبة ، كان قد أوصى اليها أمر الكعبة واعطاها مفتاحها ، فأعطته زوجها قصياً ، فتحولت الحجابـة من خزاعـة الى بني قصي[4] .

وترجع بعض الروايات نزاع خزاعة مع قصي الى عامل آخر غير ولاية البيت ، فتذكر ان خزاعة كانت قد سلمت لقصي بحقه في ولاية البيت ، وانها زعمت ان (حليلاً) أوصى بذلك قصياً ، وبقيت على ولائها له ، الى ان اختلف (قصي) مع (صوفة) . وكانت (صوفة) وهي من (جرهم) تتولى أمـر الإجازة

---

١ ابن الأثير (٢/٨) ، (الشداخ : وهو يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر) المحبر (ص ١٣٣) ، (يعمر بن عوف) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٦٩) (صادر) ، نهاية الأرب (١٦/٣٨) .

٢ المحبر (ص ١٣٣ وما بعدها) .

٣ المحبر (ص ١٣٣) ، الاشتقاق (ص ١٠٦) ، سيرة ابن هشام (١/٧٩ وما بعدها)، الطبري (١٠٩٧) (طبعة ليدن) ، (٢/٢٥٨) (طبعة دار المعارف بمصر) .

٤ الاشتقاق (ص ٢٧٦) .

بالناس من عرَفة . فتجيزهم إذا نفروا من (منى) تولت ذلك من عهد جرهم وخزاعة . فلما كان قصي ، أتاهم مع قومه من قريش وكنانة وقضاعة عند العقبة ، فقالوا : نحن أولى بهذا منكم ، فناكروه ، فناكرهم ، فقاتلوه ، فاقتتل الناس قتالاً شديداً ، ثم انهزمت صوفة ، وغلبهم قصي على ما كان بأيديهم من ذلك ، وحال بينهم وبينه ، فانحازت عند ذلك خزاعة وبنو بكر عن قصي بن كلاب ، وعرفوا انه سيمنعهم كما منع صوفة ، فوقع من ثم ما وقع على نحو ما مر[1] .

غير ان الرواة يذكرون في مكان آخر ان قصياً أقر للعرب في شأن حجّهم ما كانوا عليه ، وذلك انه كان يراه ديناً في نفسه ، لا ينبغي له تغييره ، وكانت صوفة على ما كانت عليه ، حتى انقرضت – فصار ذلك من أمرهم الى (آل صفوان بن الحارث بن شجنة) وراثة[2] . فهذه الرواية تنافي ما ذكرته آنفاً من قولهم بقتال قصي لهم ، وغلبته عليهم . وبقي أمر (عدوان) والنسأة ، ومرة ابن عوف على ما كانوا عليه ، حتى جاء الإسلام ، فهدم به ذلك كله[3] .

ويذكر الأخباريون ان قصياً بعد ان تمت له الغلبه ، جمع قومه من الشعاب والأودية والجبال الى مكة ، فسُمّي لذلك مُجمّعاً ، وانه حكم منذ ذلك الحين فيهم ، وملك عليهم . فكان قصي أول ولد كعب بن لؤي أصاب ملكاً ، وأطاعه قومه به ، وأنه قسم مكة أرباعاً بين قومه ، فبنوا المساكن ، وان قريشاً هابت قطع شجر الحرم في منازلهم ، فقطعها قصي بيده ، وأعانوه ، وانها تيمنت به ، فكانت لا تعقد أمراً ، ولا تفعل فعلاً إلا في داره ، فما تنكح امرأة ولا رجل من قريش إلا في دار قصي ، وما يتشاورون في أمر ينزل بهم إلا في داره ، ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلا في داره ، يعقدها لهم بعض ولده ، وما تدرّع جارية إذا بلغت ان تدرّع من قريش إلا في داره ، يشق عليها فيها درعها ثم تدرعه ، ثم ينطلق بها الى أهلها ، فكان أمره في قومه من قريش في حياته وبعد موته كالدين المتبع ، لا يعمل بغيره تيمناً بأمره ومعرفة

---

١ الطبري (٢/٢٥٧ وما بعدها) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٦٨) .
٢ الطبري (٢/٢٥٩) .
٣ نهاية الأرب (١٦/٢٩) .

بفضله وشرفه ، واتخذ قصي لنفسه دار الندوة ، وجعل بابها الى مسجد الكعبة ، ففيها كانت قريش تقضي أمورها [1] .

ويذكر الأخباريون ايضاً ، ان قريشاً كانوا إذا أرادوا إرسال عيرهم ، فلا تخرج ولا يرحلون بها إلا من دار الندوة · ولا يقدمون إلا نزلوا فيها تشريفاً له وتيمناً برأيه ومعرفة بفضله ، ولا يعذر لهم غـلام إلا في دار الندوة . وكانت اليه الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والندوة وحكم مكة . وكان يعشر من دخل مكة سوى أهلها [2] .

وقد وردت في الشعر لفظة (مجمع) :

أبونا قصي كان يدعي مجمّعاً به جمع الله القبائل من فهر [3]

فيظهر من هذا البيت انه جمع قبائل فهر ، ووحدها .

ويذكر الرواة ان (بني بكر بن عبد مناة) ، صاروا يبغضون قريشاً لما كان من (قصي) حين أخرجهم من مكة مع من أخرج من خزاعة حين قسمها رباعاً وخططاً بين قريش . فلما كانوا على عهـد (المطلب) ، وهموا باخراج قريش من الحرم وان يقاتلوهم حتى يغلبوهم عليه ، وعدت (بنو بكر) على نعم لبني الهون فأطردوها ، ثم جمعوا جموعهم وجمعت قريش واستعدت . وعقد المطلب الحلف بين قريش والأحابيش ، فلقوا بني بكر ومن انضم اليهـم وعلى الناس (المطلب) ، فاقتتلوا بـ (ذات نكيف) ، فانهـزم بنو بكر ، وقتلوا قتلاً ذريعاً ، فلم يعودوا لحرب قريش .

وقتل يومئذ (عبيد بن السفّاح القاري) من القارة : قتادة بن قيس أخـا

١ الطبري (٢/٢٥٨ وما بعدها) ، ابن الأثير ، الكامل (٢/١٣ وما بعدها) ، ابن هشام ، سيرة (٢/١٢٤ وما بعدها) ، (طبعة مصطفى البابي) ، البلاذري ، أنساب (١/٥٢) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٧٠) .
٣ الاشتقاق (٩٧) ، وفي رواية : (أبوكم قصي) ، الطبري (٢/١٦) (الاستقامة) ، اليعقوبي (١/٢١٠) ، المقدسي ، البدء والتأريخ (٤/١٠٩) ، ابن سعد ، طبقات (١/٧١) (بيروت) ، السويدي ، سبائك (٦٧) ، البلاذري ، أنساب (١/٥٠) .

(بلعاء بن قيس) . والقارة من ولد (الهون بن خزيمة) [1] .

ويظهر من هـذه الروايات ان أرض حرم مكة كانت مشجرة ، وان تلك الأشجـار كانت مقدسة ، وان بعض بيوت مكة كانت ذات أشجار ، ويظهر انها انتزعت من أرض الحرم ، ولذلك كانوا يهابون قطعها ولا يتجاسرون على إلحاق سوء بها . فلما جاء قصي ، خالف عقيدة القوم فيها ، فقطعها . ولما وجد أهل مكة ان قطعها لم يلحق أي سوء بقصي ، وانه بقي سالماً معافى ، تجاسروا هم وفعلوا فعله في قطع الشجر [2] .

وذكر العلماء : ان (الحرم) ، أي حرم مكة ، ما أطاف بمكة من جوانبها ، وحدُّه من طريق المدينة دون (التنعيم) عند بيوت (بني نفار) على ثلاثة أميال ، ومن طريق العراق على ثنيّة جبل بالمنقطع على سبعة أميال ، ومن طريق الجعرانة بشِعْب (آل عبد الله بن خالد) على تسعة أميال ، ومن طريق الطائف على عرفة من بطن (نمرة) على سبعة أميال ، ومن طريق (جُدَّة) منقطع العشائر على عشرة أميال [3] .

والحرم المذكور ، هو الأرض الحرام التي كانت مقدسة عند الجاهليين أيضاً ، وهي مكة وأطرافها الى حدودها التي اصطلح عليها . وأما الحرم الذي أحاط بالكعبة فقد عرف بـ (المسجد) و (بالمسجد الحرام) و بـ (الحرم) . ولا نعرف حدوده في الجاهلية على وجه واضح معلوم . وقد كان الجاهليون قد وضعوا أنصاباً على الحدود ليعلم الناس مكان الحرم ، ولم يكن له جدار يحيط به . وذكر انه كان في عهد الرسول وأبي بكر فناء حول الكعبة للطائفين ، ولم يكن له على عهدها جدار يحيط به . فلما استخلف (عمر) وكثر الناس ، وسّع المسجد ، واشترى دوراً هدمها وزادها فيه ، واتخذ للمسجد جداراً قصيراً دون القامة ، وكانت المصابيح توضع عليه . فكان عمر أول من اتخذ جداراً للمسجد .

١ البلاذري ، انساب (١/٧٥ وما بعدها) ، المحبر (٦٤٦) ، نهاية الأرب (١٦/٣٥ وما بعدها) .
٢ البلاذري ، انساب (١/٥٨) ، ابن سعد ، طبقات (١/٧١) ، (صادر) ، السيرة الحلبية (١/١٤) ، اليعقوبي (١/٢١٠) .
٣ الأحكام السلطانية (١٦٤ وما بعدها) .

ثم وسّع المسجد (عثمان) ومن جاء بعده ، ثم صار كل من ولي من الخلفاء والسلاطين يزيد في اتساع الحي ، حتّى صار على ما هو عليه الآن .[1]

ودار الندوة اذن هي دار مشورة في أمور السلم والحرب ، ومجلس المدينة التي عرف رؤساؤهـا كيف يحصلون على الثروة وكيف يستعيضون عن فقر ارضهم بتجارة تدرّ عليهم ارباحاً عظيمة وبخدمة يقدمونها الى عابدي الأصنام ، جاءت اليهم بأموال وافرة من الحجيج . في هذه الدار يجتمع الرؤساء وأعيان البلاد للتشاور في الأمور والبت فيها . وفي هذه الدار ايضاً تجري عقود الزواج ، وتعقد المعاملات ، فهي دار مشورة ودار حكومة في آن واحد ، يديرها (الملأ) ، وهم مثـل اعضاء مجلس شيوخ (اثينا) الذين كانوا يجتمعون في (المجلس) (Ekklesia) للنظر في الأمور .[2] يمثلون زعماء الأسر ، ورؤساء الأحياء ، وأصحاب الرأي والمشورة للبت فيما يعرض عليهم من مشكلات .[3]

وقد ذكر بعض اهل الاخبار ان دار الندوة لم يكن يدخلها الاّ ابن اربعين او ما زاد ، فدخلها ابو جهل ، وهو ابن ثلاثين لجودة رأيه .[4] ودخلها غيره للسبب نفسه . فيظهر من ذلك ان المراد من دخول الدار ، هو حضورها للإسهام في ابداء رأي وتقديم مشورة .

ولما كانت سن الأربعين في نظر العرب هي سن النضج والكمال ، اخذوا بمبدأ تحديده باعتباره الحد الأصغر لسن من يسمح له بالاشتراك في الاجتماعات وابداء الرأي ، الا اذا وجدوا في رجل اصغر سناً جودةً في الرأي ، وحدة في الذكاء ، فيسمح له عندئذ بالاشتراك وبابداء الرأي بصورة خاصة .

وذكر ايضاً ، انه لم يكن يدخل دار الندوة احد من قريش لمشورة حتّى يبلغ اربعين سنة ، الاّ حكيم بن حزام ، فانه دخلها وهو ابن خمس عشرة سنة . وكان ولد في الكعبـة ، وذلك ان أمه دخلت الكعبة مع نسوة من قريش وهي حامل به ، فضربها المخاض في الكعبة ، وأعجلها عن الخروج ، فوضعت به بها . وجاء

١ الأحكام السلطانية (١٦٢) ، نزهة الجليس (١/ ٢٤) .
٢ Watt, p. 9.
٣ O'Leary, p. 183.
٤ الاشتقاق (ص ٩٧) .

الإسلام ودار الندوة بيد حكيم ، فباعها بعد من معاوية بمائة الف درهم .[1]

فدار الندوة اذن ، هي دار (ملأ) مكة . وهم سادتها ووجوهها وأشرافها وأولو الأمر فيها. ولم تكن (برلماناً) او (مجلس شيوخ) على النحو المفهوم من اللفظتين في المصطلح السياسي . وانما كانت دار (أولي الشورة) و (الرأي) . تتخذ رأياً عند ظهور حاجة او اخذ (الرأي) وعند وجوب حصول زعماء الملأ على قرار في امر هام . ولم تكن قراراتها ملزمة ، بل قد يخالفها سيد ذو رأي ومكانة ، فينفرد برأيه . ولا يحتمل الاجماع الا باتفاق. والغالب ألا يحصل هذا الاتفاق. ويتوقف تنفيذ رأي (الملأ) على شخصية المقررين وعلى كفاءتهم وعلى ما يتخذونه من اجراء بحق المخالفين المعاندين من مقاطعة ومن مساومة ومن اقناع . والغالب ان الملأ لا يتخذون رأياً الا بعد دراسة وتفكير ، ومفاوضات يراعى فيها جانب المروءة والحلم والمرونة ، حتى لا يقع في البلد انشقاق قد يعرض الأمن الى الاهتزاز .

وربما قام وجوه (الشعب) ، وهم سادة الأسر ، بدور هو اكثر فعالية من دور (دار الندوة) في فض الخصومات . والعادة عندهم ان الخصومات الداخلية للأسر ، تفض داخل الأسرة ، لأن (آل) الأسرة أقدر على حل خلافاتهم من تدخل غيرهم في شؤونهم ، ثم انهم لا يقبلون بتدخل غريب عن الأسرة في شأن من شؤون تلك الأسرة . لذلك كان (الملأ) لا ينظرون الا في الامور التي هي فوق مستوى الاسر و (الشعاب) ، والتي تخص امور المدينة كلها ، والتي قد تعرض أمنها الى الخطر ، او التي يتوقف على قراراتهم بصددها مستقبل المدينة .

والانسان بمكة بأسرته وبمقدرته وقابلياته وكفاءته . وقد يرفع الأشخاص من مستوى اسرهم ، وقد يهبط مستوى الأسر ومكانتها بسبب هبوط مستوى رجالها وعدم ظهور رجال اغنياء اقوياء فيها . ولما كانت مكة مدينة عمل وتجارة ومال ، والمال يتنقل بين الناس حسب اجتهاد الافراد وجدهم في السعي وراءه ، لذلك تجد من بين رجالها من يخمل ذكره بسبب خمول اولاده وتبذيرهم لما ورثوه من مال ، وعدم سعيهم لاضافة مال جديد اليه . ويستتبع ذلك تنقل النفوذ من بيت الى بيت .

فالحكم في مكة اذن حكم لا مركزي ، حكم رؤساء واصحاب جاه ونفوذ ومنزلة

---

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (٥١٨ وما بعدها) .

تطاع فيها الاحكام ، وتنفذ الاوامر ، لا لوجود حكومة قوية مركزية مهيمنة لها سلطة على اهل مكة ، بل لأن الاحكام والاوامر هي احكام ذوي الوجه والسن والرئاسة والشرف ، واحكام هؤلاء مطاعة في عرف اهل مكة وفي عرف غيرهم من اهل جزيرة العرب . حكمت بذلك العادة وجرى عليه العرف ، ولا مخالفة للعرف والعادة . فالعرف قانون اهل جزيرة العرب حتى اليوم . وانتهاك احكامها معناه انتهاك سيادة القانون ، وتمرد على الهيأة والنظام ، وتحقير الحاكمين واهانة لهم ولاتبـــاعهم ، وليس لاحد الخروج على اوامر سادات القوم وذوي الحسب والشرف والسن والعقل .

ولم تكن في مكة حكومة مركزية بالمعنى المفهوم المعروف من الحكومة ، فلم يكن فيها ملك له تاج وعرش ، ولا رئيس واحد يحكمها على انه رئيس جمهورية او رئيس مدينة ، ولا مجلس رئاسة يحكم المدينة حكماً مشتركاً او حكماً بالتناوب ، ولا حاكم مدني عام او حاكم عسكري . ولم يتحدث اهل الاخبار عن وجود مدير عام فيها واجبه ضبط الامن . او مدير له سجن يزج فيه الخارجين عن الانظمة والقوانين او ما شابه ذلك من وظائف نجدها في الحكومات . وكل امرها انها قرية تتألف من شعاب . كل شعب لعشيرة . وأمر كل شعب لرؤسائه ، هم وحدهم اصحاب الحل والعقد والنهي والتأديب فيه . وليس في استطاعة متمرد مخالفـــة احكامهم . والا ادبه حيه ، وملؤه اي اشرافه . هؤلاء الرؤساء هم الحكام الناصحون وهم عقلاء الشعب .

وقد اشير الى رؤساء مكة في القرآن الكريم في آية : (وقالوا : لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) . [1] فرؤساء مكة هم علماؤها وساداتها ، وهم أعلى الناس منزلة ودرجة ومكانة فيها . و (عظماء) مكة او (عظماء الطائف) هم الطبقة (المختارة) والصفوة المترعمة في الناس . واليها وحدها تكون الزعامة والرئاسة والرجاحة في الرأي .

وقانون القوم ودستورهم : (إنا وجدنا آباءنـــا على امة وانّا على آثارهم مقتدون) . [2] فهم محافظون حريصون على كل ما وصل اليهم ، لا يريدون له تغييراً ولا تبديلاً . مهما بدا لهم في الجديد من منطق وحق . (قال : أوَ لو

١ الزخرف ، الآية ٣١ .
٢ الزخرف ، الآية ٢٣ .

جئتكم بأهدى ممّا وجدتم عليه آباءكم . قالوا انّا بما أُرسلتم به كافرون) . [1] وفي القرآن الكريم آيات اخرى ترينا تمسك نخبة مكة ورجال الملأ بحقوقهم وبما ورثوه من عرف مكّنهم من الملأ ، وفي تمسكهم بها محافظة على حقوقهم الموروثة وعلى مصالحهم وعلى زعامتهم في الناس .

فملأ مكة اناس محافظون لا يقبلون تجديداً ولا تطويراً ، سنتهم التعلق بالماضي ، وكره الثورة والخروج عن العرف والعادة مهما كانت . فالعرف جرى الناس عليه ، فلا خروج على العادة والعرف . اما المستهين بالعرف المخالف لسنة الآباء والاجداد ، فيعاقب حتّى يعود الى رشده وصوابه . وهم باستماتتهم في التمسك بالماضي كيف كان ، وبتطرفهم في المحافظة على العرف ، انما يراعون بذلك حقوقهم الموروثة ومكانتهم الاجتماعية ومصالحهم الاقتصادية ، فالعرف جعلهم الطبقة الحاكمة بالتقاليد ، المحافظة على مصالحها ، استناداً الى العادات . هم يحكمون بهذا القانون الموروث غير المسجّل ، وعلى الناس الطاعة والانقياد . (واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله . قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . او لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) . [2]

وقد توارث بنو عبد الدار الندوة ، حتّى باعها (عكرمة بن عامر بن هاشم ابن عبد مناف بن عبد الدار) من معاوية ، فجعلها دار الامارة بمكة ، ثم أدخلت في الحرم [3] . وورد في رواية اخرى ان (حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي الاسلمي) وهو ابن أخي خديجة بنت خويلد ، كان هو الذي باعها من معاوية وكانت بيده . باعها بمئة ألف درهم . [4] وكان قد اشتراها من (منصور بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار . [5]
ودار الندوة ، هي أول دار بنيت بمكة على حدّ قول الرواة . وكانت اشهر

١ الزخرف ، الآية ٢٤ .
٢ البقرة ، الآية ١٧٠ .
٣ ابن الأثير ، الكامل (٢/١٤ وما بعدها) ، تاج العروس (١٠/٣٦٢ وما بعدها) ، ابن سعد ، طبقات (١/٧٧) ، (وعكرمه بن عامر بن هشام بن عبد الدار بن قصي) ، الأحكام السلطانية (ص ١٦٤) ، البلاذري ، انساب (١/٥٣) .
٤ ديوان حسان (٦٩) ، (البرفوقي) .
٥ نسب قريش (٢٥٤) .

دار بمكة وانشرها في الناس خبراً.[1] ثم تتابع الناس فبنوا من الدور ما استوطنوه.

ويذكر اهل الاخبار: ان مكة لم تكن ذات منازل، وكانت قريش بعد جُرهُم والعمالقة ينلجعون جبالها وأوديتها ولا يخرجون من حرمها انتساباً الى الكعبة لاستيلائهم عليها وتخصصاً بالحرم لحلولهم فيه. ولما كان (كعب بن لؤيّ بن غالب)، جمع قريشاً صار يخطب فيها في كل (جمعة)، وكان يوم الجمعة يسمى في الجاهلية (عروبة) فسماه كعب (الجمعة). وبذلك ألف بين قريش حتى جاء (قصي) ففعل ما فعل.[2]

ولدينا خبر آخر، يذكر انه قد كان حول الحرم شجر ذو شوك، نبت من قديم الزمن وكوّن غُوطة، فقطعها (عبد مناف بن قصي)، وهو أول من بني داراً بمكة، ولم تُبن دار قبلها، بل كان بها مضارب للعرب من الشعر الاسود.[3]

وزعم بعض اهل الاخبار ان اهل مكة كانوا يبنون بيوتهم مُدوّرة تعظيماً للكعبة، وأول من بنى بيتاً مربعاً (حُمَيْد بن زهير)، فقالت قريش: (رَبّعَ حُمَيْد بن زهير بيتاً)، امّا حياةً واما موتاً).[4] و (الربع): المنزل ودار الإقامة والمحلة.[5] وهو احد (بني أسد بن عبد العزى). وان العرب تسمي كل بيت مربع كعبة، ومنه كعبة نجران.[6] وذُكر ايضاً ان (حُمَيْد بن زبير ابن الحارث بن اسد بن عبد العزى)، هو اول من خالف سنة قريش وخرج على عرف اهل مكة فبنى بيتاً مربعاً. وجعل له سقفاً. وفي عمله هذا قال الراجز:

اليوم يبني لِحُمَيْدٍ بيته   امّا حياته واما موته[7]

وورد في رواية اخرى، ان ثاني دار بنيت بمكة بعد دار الندوة، هي (دار

١ الأحكام السلطانية (ص ١٦٣ وما بعدها)، البلاذري، فتوح (٦٤).
٢ الأحكام السلطانية (ص ١٦٢ وما بعدها).
٣ نزهة الجليس (٢٤/١).
٤ نهاية الأرب (٣١٣/١).
٥ اللسان (١٠٢/٨).
٦ ابن رسته، الاعلاق النفيسة (٥٨).
٧ الثعالبي، ثمار القلوب (١٣)، مؤرج السدوسي، حذف من نسب قريش (٥٤)، الزبير بن بكار، نسب قريش (٤٤٣/١)، Kister, p. 126

العجلة) ، وهي دار سعيد بن سعد بن سهم . وزعم (بنو سهم) انها بنيت قبل (دار الندوة) [1] .

ويظهر من روايات أهل الأخبار عن بيوت مكة ان بيوتها ، وهي بيوت أثريائها وساداتها ، بيوت كانت مقامة بالحجر ، وبها عدد من الغرف ، ولها بابان متقابلان باب يدخل منها الداخل وباب تقابلها يخرج منها الخارج ، ولعلها بنيت على هذا الوضع ليتمكن النساء من الخروج من الباب الأخرى عند وجود ضيوف في رحبة الدار عند الباب المقابلة . ومعنى هذا ان أمثال هذه الدور كانت واسعة تشرت على زقاقين . ولبعض الدور (حجر) عند باب البيت ، يجلس تحته ليستظل به من أشعة الشمس ، وكان منزل (خديجة) ذو حجر من هذا الطراز [2] .

ولو أخذنا بالرواية المتقدمة عن التغيير الذي طرأ على طراز العمارة في مكة ، فإن ذلك يحملنا على القول : إنه يجب ان يكون قد حدث في النصف الثاني من القرن السادس للميلاد . في وقت ليس ببعيد عهد عن أيام النبي . لأننا نجد ان أحد أبناء (حُمَيْد) ، وهو عبد الله) ، كان قد حارب في معركة (أحد) [3] .

ويتبين من غربلة روايات الأخباريين المتقدمة عن مدى سعة الحرم وعن زمان بناء الدور بمكة ، ان بطن مكة لم يعمر ولم تبن البيوت المستقرة فيه إلا منذ أيام (قصي) . أما ما قبل ذلك ، فقد كان الناس يسكنون (الظواهر) : ظواهر مكة ، أي أطرافها وهي مواضع مرتفعة تكون سفوح الجبال والمرتفعات المحيطة بالمدينة . أما باطن مكة ، وهو الوادي الذي فيه البيت ، فقد كان حرماً آمناً ، لا بيوت فيه ، او ان بيوته كانت قليلة حصرت بسدنة البيت وبمن كانت له علاقة بخدمته . لذلك نبت فيه الشجر حتى غطي سطح الوادي ، من السيول التي كانت تسيل اليه من الجبال . ولم يكن في وسع أحد التطاول على ذلك الشجر ، لأنه شجر حرم آمن ، وبقي هذا شأنه يغطي الوادي ويكسو وجهه بغوطة ، حتى جاء (قصي) . فتجاسر عليه بقطعه كما ذكرنا . وخاف الناس من فعله ، خشية

١ البلاذري ، فتوح (٦٤) .
٢ الطبري (٢/٢٨٢) ، (ذكر تزويج النبي) .
٣ Kister, P., 127

غضب رب البيت ، ونزول الأذى بهم إن قطعوه . فلما وجدوا ان الله لم يغضب عليهم ، وانه لم ينزل سوءاً بهم ، اقتفوا أثره ، فقطعوا الشجر ، واستحوذوا على الأرض الحرام ، وظهرت البيوت فيه ، وأخذت تتجه نحو البيت حتى أحاطت به ، وصغرت مسجده ، ولم يكن له يومئذ جدار . وظلت البيوت تتقرب اليه حتى ضايقته وصغرت فناءه : مما اضطر الخليفة (عمر) ومن جاء بعده الى هدم البيوت التي لاصقته لتوسيع مسجده ، ثم الى بناء جدار ليحيط به حتى صار على نحو ما هو عليه في هذا اليوم .

ويتبين من خطبة الرسول عام الفتح ويوم دخوله البيت الحرام وقوله : (لا يُختلى خلا مكة ولا يعضد شجرها) [1] ، ان حرم مكة كان لا يزال ذا شجر . ولم يكن قد قطع تماماً منه في أيام الرسول .

وتذكر بعض الموارد ان قصياً أول من بنى الكعبة بعد بناء تبع ، وكان سمكها قصيراً ، فنقضه ورفعها [2] . وإذا صحت الرواية ، يكون قصي من بناة الكعبة ومن مجدديها . وذكر انه كان أول من جدد بناء الكعبة من قريش ، وانه سقفها بخشب الدوم وجريد النخل . وقد أشير الى هذا البناء في شعر ينسب الى الأعشى [3] . وهذه الرواية تناقض بالطبع ما يرويه الأخباريون من ان الكعبة لم تكن مسقفة ، وانها سقفت لأول مرة عندما جدد بناؤها في أيام شباب الرسول . وهو يومئذ ابن خمس وثلاثين سنة [4] .

والظاهر من روايات الأخباريين ، ان البيت كان في الأصل بيتاً مسقوفاً ، غير انه أصيب بكوارث عديدة ، فتساقط وتساقط سقفه مراراً بسبب السيول ، وبسبب حريق أصيب به ، فصار من غير سقف في أيام شباب الرسول . حتى اذا ما نقضت قريش البيت وأعادت بناءه سقفته ، وزوّقت جدره الداخلية والخارجية بالأصنام والصور . وأعادت اليه خزائنه حتى كان يوم الفتح ، إذ أمر الرسول

---

١ فتوح البلدان ، للبلاذري (ص ٥٥) .

٢ الاشتقاق (٩٧) ، ابن كثير ، البداية والنهاية (٢/٢٠٧) .

٣ بلوغ الأرب (١/٢٣٢) ،

حلفت بثوبي راهب الشأم والتي بناها قصي جدّه وابن جرهم
لئن شبّ نيران العداوة بيننا ليرتحلن مني على ظهر شيهم

الأحكام السلطانية (١٦٠) .

٤ الأحكام السلطانية (١٦٠) ، الطبري (٢/٢٨٣) ، (دار المعارف) .

بتحطيم الأصنام وبطمس الصور على نحو ما سأتحدث عنه في تأريخ الكعبة وذلك في القسم الخاص بأديان الجاهليين .

وفي روايات أهل الأخبار عن البيت – كما سنرى فيما بعد حين أتكلم عنه في هذا القسم الخاص بأديان أهل الجاهلية – غموض وتناقض ، يجعل من الصعب تكوين رأي واضح عنه . فبينما هم يقولون إنه كان من غير سقف وان الطيور كانت تقف عليه ، وان الأتربة المحملة بالأهوية كانت تتساقط في أرض البيت ، نراهم يذكرون انه كان مسقفاً ، وانه سقف بالخشب في أيام قصي وانه احترق ، ثم يقولون إنه كان في داخله أصنام قريش ، مع ان الوصف الذي يقدمونه لنا عن الكعبة من انها (كانت ضمة فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها ، وذلك ان نفراً من قريش وغيرهم سرقوا كنز الكعبة ، وإنما كان يكون في بئر في جوف الكعبة)[1] ، لا يمكن ان يجعل البيت سوى غرفة بسيطة ساذجة من أحجار رصت بعضها فوق بعض .

وفي رواية : ان قصياً هو أول من أظهر (الحجر الأسود) ، وكانت (إياد) دفنته في جبال مكة ، فرأتهم امرأة حين دفنوه ، فلم يزل (قصي) يتلطف بتلك المرأة حتى دلته على مكانه ، فأخرجه من الجبل ، واستمر عند جماعة من قريش يتوارثون حتى بنت قريش الكعبة فوضعوه بركن البيت ، بإزاء باب الكعبة في آخر الركن الشرقي[2] .

ويذكر ان قصياً بعد ان تمكن من مكة ، حفر بها بئراً سماها (العجول) وهي أول بئر حفرتها قريش[3] . وكانت قريش قبل قصي تشرب من بئر حفرها لؤي بن غالب خارج مكة تدعى (اليسيرة) ومن حياض ومصانع على رؤوس الجبال . ومن بئر حفرها (مُرّة بن كعب) مما يلي عَرَفَة ، تدعى (الروى) ، ومن آبار حفرها (كلاب بن مرة) ، هي (خم) و (رم) و (الجفر)

١ الطبري (٢/٢٨٣) .
٢ نزهة الجليس (١/٢٦) ، البلاذري ، أنساب (١/٥١) ، نهاية الأرب (١٦/٣١) .
٣ ابن الأثير (٢/٩) ، البلاذري ، أنساب (١/٥١) .

بظاهر مكة[1] . فكانت (بئر العجول) أول بئر حفرتها قريش في مكة[2] .

وازدادت حاجة أهل مكة ، بعد قصي وقد تزايد عددهم الى الماء ، ولم تعد (العجول) تكفي لتموينهم به ، فاقتفى أولاده أثره في حفر الآبار ، واعتبروا حفرها منقبة ومحمدة ، لما للماء من أهمية لأهل هذا الوادي الجاف . وقد حازت بئر زمزم على المقام الأول بين آبار مكة ، فهي بئر البيت وبئر الحجاج تمونهم مما يحتاجون اليه من ماء .[3]

وذكر أهل الأخبار ان في جملة ما أحدثه قصي في أيامه وصار سنة لأهل الجاهلية ، انه أحدث وقود النار بالمزدلفة : حيث وقف بها حتى يراها من دفع من عرفة ، فلم تزل توقد تلك النار تلك الليلة في الجاهلية[4] . ويظهر ان قريشاً حافظت على هذه السُنّة أمداً في الإسلام . وكانت تلك النار توقد على عهد رسول الله وأبي بكر وعمر وعثمان[5] .

ويذكرون أيضاً ان في جملة ما أحدثه : (الرفادة) ، وهي إطعام الحجاج في أيام موسم الحج حتى يرجعوا الى بلادهم . وقد فرضها على قريش إذ قال لهم : (يا معشر قريش انكم جيران الله وأهل مكة وأهل الحرم ، وان الحاج ضيف الله وزوّار بيته ، وهم أحق بالضيافة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج ، حتى يصدروا عنكم) . ففعلت قريش ذلك ، فكانوا يخرجون في كل عام من أموالهم خرجاً ، فيدفعونه الى قصي ، لكي يصنعه طعاماً للناس أيام منى وبمكة وقد بقيت هذه السنة في الإسلام[6] . وذكر ان (الرفادة شيء كانت

---

١ البلاذري ، فتوح البلدان (ص ٦٠) ، (المكتبة التجارية) .

٢ البلاذري ، فتوح (٦٠) ، وفيها قال بعض رُجّاز الحجاج .

تروى على العجول ثم تنطلق ان قصيّاً قد وفى وقد صدق
بالشبع للناس وريٍّ مغتبق

البلاذري ، أنساب (١/٥١) ، (دار المعارف) .

٣ البلاذري ، فتوح البلدان (ص ٦٠ وما بعدها) .

٤ الطبري (٢/٢٦٥) ، ابن الأثير ، البداية (٢/٢٠٧) ، السويدي ، سبائك الذهب (١١٩) ، ابن سعد ، طبقات (١/٧٢) (بيروت) .

٥ ابن سعد ، طبقات (١/٧٢) (صادر) .

٦ ابن كثير ، البداية (٢/٢٠٧ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢/٦٩٣) (بيروت) ، الطبري (٢/١٩) (الاستقامة) (٢/٢٦٠) (دار المعارف) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٧٣) .

تترافد به قريش في الجاهلية ، فيستخرج فيما بينها كل انسان مالاً بقدر طاقته وتشتري به للحاج طعاماً وزبيباً للنبيذ ، فــلا يزالون يطعمون الناس حتى تنقضي أيام موسم الحج[1] .

وكانت الى قصي أيضاً : الحجابة ، والسقاية واللواء . فحــاز شرف قريش كله[2] . وصار رئيسها الوحيد المطاع ، الناطق باسمها الآمر والناهي ، إذْ لا أحد أحكم وأعقل وأحسن إدارةً للملك منه .

وذكر ان قصيّــاً أول من أصاب الملك من قريش بعد ولد اسماعيل ، وذلك في أيام المنذر بن النعمان ملك الحيرة ، وملك الفرس الساسانيين (بهرام جور) [3] . وقد كان حكم (بهرام جور) من سنة (٤٢٠ م) حتى سنة (٤٣٨ م) [4] ، أي في النصف الأول من القرن الخامس للميلاد ، واذا أخذنا برواية من جعــل قصيّــاً من المعاصرين لهذا الملك ، يكون حكم قصي إذن في النصف الأول من القرن الخامس للميلاد .

وقد نسب أهل الأخبار الى قصي أقوالاً وأمثالاً وحكماً وجعلوه غايــة في الحكمــة والمنطق . وروي (ان أمــر قصي عند قريش دينــاً يعملون بــه ولا يخالفونه) [5] .

وقد ترك قصي أثراً كبيراً في أهل مكة ، وعدّوه المؤسس الحقيقي لكيان قريش . وكانوا يذكرون اسمه دائماً بخير . وكانوا لا يطيقون سماع أحد يستهين بشأنه . فلما تطاول الشاعر (عبد الله بن الزِبَعْرَى) ، على ما جاء في بعض الروايات ، وتجاوز حــدّه بذكر قصي بسوء في شعر له ، كتبه كما يقولون في أستار الكعبة ، غضب بنو عبد مناف ، واستَعدَوا عليه (بني سهم) ، لأنــه كان من (بني سهم) ، فأسلموه اليهم ، فضربوه وحلقوا شعره وربطوه الى

١ تاج العروس (٣٥٥/٢) ، (رفــد) .
٢ ابن الأثير ، الكامل (١٣/٢ وما بعدها) ، الأزرقي ، أخبار مكة (٦١/١) ، ابن كثير ، البداية والنهاية (٢٠٧/٢) .
٣ بلوغ الأرب (٢٤٧/١) .
٤ Ency., 4, P. 178.
٥ أنساب الأشراف ، للبلاذري (٥٢/١) .

صخرة ، فاستغاث قومه ، فلم يغيثوه ، فجعل يمدح قصياً ويسترضيهم ، فأطلقه بنو عبد مناف وأكرموه ، فمدحهم بأشعار كثيرة[1] .

ولم نعثر في نصوص المسند على اسم رجل يُدعى قصياً ، وإنما ورد في النصوص النبطية اسم علم لأشخاص . وهذا الاسم هو اسم صنم في الأصل ، بدليل ورود عبد قصي . أما حديث الأخباريين عن أصله وفصله ، فهو مما لا قيمة له . وقد ابتدعته مخيلتهم على الطريقة المألوفة في اختراع تفاسير لأسباب التسميات . والظاهر ان هذا الاسم من الأسماء التي كان يستعملها العرب النازلون في أعالي الحجاز ، وربما في بلاد الشأم .

وفي جملة النصوص النبطية التي عثر عليها في (صلخد) اسم رجل عرف بـ (روحو بن قصيو) (روح بن قصي) ، كما عثر على نص جاء فيه اسم (مليكو بن قصيو) (مالك بن قصي) ، وورد اسم (قصيو بن اكلبو) ، أي (قصي بن كلاب) . وقد تبين من هذه الكتابات ان المذكورين هم من أسرة واحدة ، وقد كانوا كهاناً أو سدنة لمعبد من معابد (صلخد)[2] . فقصي إذن من الأسماء الواردة عند النبط . والغريب أننا نرى بين قصي صلخد وقصي مكة اشتراكاً لا في الاسم وحده ، بل في المكانة ايضاً ، فلقصي صلخد مكانة دينية ، ولقصي مكة هذه المكانة أيضاً في مكة .

ويلاحظ ان الاسم الذي زعم الأخباريون انه اسم قصي الأصلي الذي سُمّي به يوم ولد بمكة ، وهو (زيد) ، هو أيضاً اسم صنم . فقد نص أهل الأخبار على ان (زيداً) هو صنم من أصنام العرب[3] .

ويذكر الأخباريون انه كان لقصي أربعة أولاد ، ورووا قولاً زعموا انه قاله . فقد ذكروا انه قال : (ولد لي أربعة ، فسميت اثنين بصنمي ، وواحداً بداري ، وواحداً بنفسي) . وكان يقال لعبد مناف : القمر ، واسمه المغيرة ، وكانت أمه (حُبّى) دفعته الى مناف ، وكان أعظم أصنام مكة ، تديناً

---

١ ابن هشام ، السيرة (١٤٣/١) .
٢ رينو دبسو : العرب في سوريا قبل الاسلام ، تعريب عبدالحميد الدواخلي ، (ص ١١٦) ، تاريخ العرب في الاسلام ، لجواد علي (٤٠/١) .
٣ الاشتقاق (١٣) .

بذلك ، فغلب عليـه عبد مناف[1] . وأولاده هم : (عبد مناف) ، واسمه (المغيرة) ، وعبد الله ، وهو (عبد الدار) ، و (عبد العزى) ، و (عبد قصي) ، و (هند) بنت قصي ، تزوجها (عبد الله بن عمّار الحضرمي)[2] .

ولما مات قصي ، دفن بالحَجُون ، وقد كانوا يزورون قبره ويعظمونه[3] . والحجون جبل بأعلى مكة كان أهل مكة يدفنون موتاهم فيه[4] . فعليـه مقبرة جاهلية من مقابر مكة القديمة . وقد ذكر في شعر جاهلي[5] .

وقد أنكر بعض المستشرقين وجود (قصي) ، وعدّوه شخصية خرافية من شخصيات الأساطير ، واستدلوا على ذلك بالأقاويل التي رواها ابن الكلبي وابن جريج عنه ، وهي ذات طابع قصصي[6] . غير ان هذه المرويات لا يمكـن ان تكون دليلاً قوياً وسنداً يستند اليه في انكار وجود رجل اسمه قصي ، وإذا كان ما قيل عنه خرافة ، فلن تكون هذه الخرافة سبباً لإنكار وجود شخص قيلت عنه .

وقد ترك (قصي) جملة أولاد هم : عبد العزى وعبـد الدار وعبد مناف وعبد بن قصي . وقد تكتل أبناء هؤلاء الأولاد وتحزبوا ، ونافسوا بعضهم بعضاً ، فنافس بنو عبد مناف بني عبـد الدار ، وكونوا حلفاً فيما بينهم كان جماعتـه وأنصاره بنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم والحارث بن فهر . وتراص بنو عبد الدار وجمعوا شملهم وشمل من انضم اليهم ، وكونوا جماعـة معارضة تألفت من بني مخزوم وبني سهم وبني جمح وبني عدي بن عامر بن لؤي ومحارب . وهم من (قريش الظواهر) . وقد عرف حلف (بني عبد مناف) بـ (حلف المطيبين)

١ الطبري (٢/٢٥٤) ، نهاية الأرب (١٦/٣٢) .
٢ البلاذري ، أنساب (١/٥٢) .
٣ ابن الأثير (٢/٩) ، (٢/١٤ وما بعدها) (المطبعة المنيرية) ، اليعقوبي (١/٢١٢) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٧٣) ، البلاذري ، أنساب (١/٥٢) ، نهـاية الأرب (١٦/٣١) ، تاج العروس (١٠/٢١١) ، (صفا) .
٤ البلدان (٢/٢٢٥) .
٥ قال (عمرو بن الحارث بن مضاض) ، أو الحارث الجُرهمي :
كأن لم يـكن بين الحجـون الى الصفا أنيـس ، ولم يسمُر بمكـة سـامر
اللسان (١٣/١٠٩) ، تاج العروس (٩/١٧١) ، (حجن) .
٦ Ency., Vol., II, pp. 1158.

و بـ (المطيبون) ، وعرف بنو عبد الدار بـ (الاحلاف) .

ولما ظهر الاسلام ، كان هذا النزاع العائلي على رئاسة مكة قائماً ، وقد تمثل في تنافس الأسر على الرئاسة . اشتهر بعضها بالثراء والغنى ، واشتهر بعضها بالوجاهة الدينية أو بالمكانة الاجتماعية .

ويلاحظ ان هذا النزاع لم يكن نزاعاً عائلياً تماماً ، قام على النسب الى الأب والجد بل كان نزاعاً على الرئاسة والسيادة في الغالب ، فنجد جماعة من عائلة تنضم الى العائلة الأخرى المنافسة ، وتترك عشيرتها ، لأن مصلحتها الخاصة وتخاصمها مع أحد أقربائها دفعاها على اتخاذ ذلك الموقف .

ولما أسنّ قصي ، جعل لابنه (عبد الدار) على حدّ رواية أهل الأخبار دار الندوة والحجابة أي حجابة الكعبة ، واللواء ، فكان يعقد لقريش ألويتهم ، والسقاية وهي سقاية الحاج ، و (الرفادة) ، وهي خرْج تخرجه قريش في كل موسم من أموالها الى قصي ليصنع به طعاماً للحاج يأكله الفقراء ، وكان قصي قد قال لقومه : (انكم جيران الله وأهل بيته ، وان الحاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم شراباً وطعاماً أيام الحج ، حتى يصدروا عنكم) ، ففعلوا ، فكانوا يخرجون من أموالهم ، فيصنع به الطعام أيام منى ، فجرى ذلك من أمره على قومه في الجاهلية ، حتى قام الإسلام[1] .

ويذكر الأخباريون في تعليل إعطاء عبد الدار هذه الامتيازات ان عبد الدار كان ضعيفاً ، وان عبد مناف شقيقه كان قد ساد في حياة أبيه ، وكثر ماله ، فأراد قصي بذلك تقويته بهذه الامتيازات[2] .

وقد توارث بنو عبد الدار اللواء ، فلا يعقد لقريش لواء الحرب الا هم . وهي وظيفة مهمة جداً ، لما للواء من أثر خطير في الحروب والمعارك في تلك الأيام . ولهذا كانوا يتدافعون في الذّبّ عن اللواء ، حتى لا يسقط على الأرض بسقوط حامله ، وسقوطه معناه نكسة معنوية كبيرة تصيب المحاربين تحت ظل

---

١ الطبري (٢/٢٥٩ وما بعدها) ، ابن الأثير (٢/١٠ وما بعدها) ، اللسان (٣/١٨١) ، تاج العروس (٢/٣٥٥) ، الأزرقي (١/٦١ وما بعدها) .

٢ ابن الأثير (٢/٩) ، نسب قريش ، للزبيري (١٤) .

ذلك اللواء . ولما أسلم (بنو عبد الدار) ، قالوا : يا نبيّ الله ، اللواء الينا . فقال النبي : الإسلام أوسع من ذلك . فبطل اللواء[1] .

ويذكر الأخباريون ان قصيّاً لما هلك ، قام (عبد مناف بن قصي) على أمر قصي بعده ، وأمر قريش اليه ، واختط بمكة رباعاً بعد الذي كان قصي قطع لقومه[2] .

ويذكر أهل الأخبار ان بني عبد مناف أجمعوا على ان يأخذوا من بني عبد الدار (الرفادة) و (السقاية) ، فأبى بنو عبد الدار ترك ما في أيديهم واصروا على الاحتفاظ به ، فتفرقت عند ذلك قريش ، فكانت طائفة مع بني عبد الدار ، وطائفة مع بني عبد مناف ، وتحالف كل قوم مؤكداً ، وأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً ، فوضعوها عند الكعبة ، وتحالفوا ، وجعلوا أيديهم في الطيب ، فسموا المطيبين . وتعاقد بنو عبد الدار ومن معهم ، وتحالفوا ، فسموا الأحلاف ، وتعبأوا للقتال ، ثم تداعوا الى الصلح ، على ان يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة ، فرضوا بذلك ، وتحاجز الناس عن الحرب ، واقترعوا عليها ، فصارت لهاشم بن عبد مناف[3] .

وأما الذين كوّنوا حلف الاحلاف ولعقة الدم ، فهم : بنو مخزوم ، وبنو جمح ، وبنو سهم ، وبنو عدي بن كعب[4] .

وقد خرجت من ذلك (بنو عامر بن لُؤيّ) و (بنو محارب بن فهر) . فلم يكونوا مع واحد من الفريقين[5] .

---

١ البلاذري ، أنساب (١/٥٤ وما بعدها) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٤٧) ، نهاية الأرب (١٦/٣٢) .
٣ ابن الأثير (٢/٩) (١/٢٦٧) (المنبرية) ، (١/١٨٣) ، الطبري (٨/١١) (طبعة ليدن) اللسان (١٠/٤٠٠) ، ابن هشام (١/١٤٣) ، المعارف (٦٠٤) (دار الكتب) ، اليعقوبي (١/٢٨٧ (طبعة هوتسما) ، التنبيه (١٨٠) ، (الصاوي) ، ابن كثير ، البداية (٢/٢٠٩) ، ابن خلدون ، (٢/٦٩٤) ، مروج (٢/٥٩) (السعادة) ، المحبر (١٦٦) ، تاج العروس (٦/٧٥) ، القاموس (٣/٢٨٠) ، ابن سعد ، طبقات (١/٧٧) .
٤ البلاذري ، أنساب (١/٥٦) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/٧٧) .

وتذكر بعض الروايات ان (آل عبـد مناف) قد كثروا ، وقلّ (آل عبد الدار) ، فأرادوا انتزاع الحجابة من (بني عبد الدار) ، فاختلفت في ذلك قريش ، فكانت طائفة مع (بني عبد الدار) وطائفة مع (بني عبد مناف) ، فأخرجت (أم حكيم البيضاء) توأمة ابي رسول الله ، جفنـة فيها طيب ، فوضعتها في الحجر ، فقالت : من كان منّا فليدخل يده في هذا الطيب . فأدخلت عبد مناف ايديها ، وبنو اسد بن عبد العزّى ، وبنو زهرة ، وبنو تيم ، وبنو الحارث بن فهر ، فسمّوا المطيبين . فعمدت بنو سهم بن عمرو ، فنحرت جزوراً ، وقالوا : من كان منّا ، فليدخل يده في هذه الجزور ، فأدخلت ايديها عبد الدار وسهم ، وجمح ، ومخزوم ، وعدي ، فسُمّيت الاحـلاف . وقام الاسود بن حارثة بن نضلة ، فأدخل يده في الدم ، ثم لعقها ، فلعقت بنو عدي كلها بأيديها ، فسموا لعقة الدم .[1]

وتذكر رواية ان (بني عبد مناف) اقترعوا على الرفادة والسقاية فصارتا الى (هاشم بن عبد مناف) ، ثم صارتا بعده الى (المطلب بن عبد مناف) بوصية ، ثم لعبد المطلب ، ثم للزبير بن عبد المطلب ، ثم لأبي طالب . ولم يكن له مال ، فاستدان من اخيه العبّاس بن عبد المطلب عشرة آلاف درهم ، فأنفقها ، فلما لم يتمكن من رد المبلغ تنازل عن الرفادة والسقاية الى (العباس) : وأبرأ ابا طالب مما له عليه .[2]

وتذكر رواية اخرى ، ان هاشماً وعبد شمس والمطلب ونوفل بني عبد مناف أجمعوا ان يأخذوا ما بأيدي (بني عبد الدار) مما كان قصي جعل الى (عبد الدار) من الحجابة واللواء والرفادة والسقاية والندوة ، ورأوا أنهم أحق بها منهم ، فأبت (بنو عبـد الدار) ، فعقد كل قوم على امرهم حلفاً مؤكداً على الاّ يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً . وعرف حلف (بني عبد مناف) بحلف المطيبين وعرف حلف (بني عبد الدار) بحلف الاحلاف ولعقة الدم . ثم تداعوا الى الصلح ، على ان تكون الحجابة واللواء ودار الندوة الى بني عبد الدار ، وأن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة .[3] وولي هاشم بن عبد مناف السقاية

---

١ نسب قريش (٣٨٣) .
٢ البلاذري ، أنساب (١/٥٧) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٧٧) .

والرفادة .[1] وتصرح بعض الروايات ، ان هاشما هو الذي قام بأمر بني عبد مناف ، ثم عامر بن هاشم .[2]

ومعنى هذا ان الحلفين المذكورين : حلف المطيبين وحلف (الاحلاف) ، انما عقدا في حياة (هاشم بن عبد مناف) ، اي قبل ميلاد الرسول . وأن حلف (لعقة الدم) هو نفسه حلف الاحلاف ، او من حلف الاحلاف ، عرف بهذه التسمية ، لأن (بني عدي بن كعب ، الذين حالفوا عبد الدار وانضموا اليهم ، لعقوا الدم ، فقيل لهم لعقة الدم ، تمييزاً لهم عن الذين لم يلعقوا الدم ، وهم الاحلاف .[3] وذُكر ان (بني عبد الدار) و (بني عدي) ، أدخلوا جميعاً ايديهم في ذلك الدم في الجفنة ، فسموا كلهم (لعقة الدم) بذلك .[4]

ولكننا نصطدم بروايات اخرى ، ترجع تأريخ حلف (لعقة الدم) الى ايام بنيان الكعبة ، الذي كان قبل المبعث بخمس سنين ، وعمر الرسول يومئذ خمس وثلاثون سنة . فهي تذكر ان اهل مكة لما وصلوا الى موضع الركن اختصموا في وضع الحجر الاسود ، حتى تجاوزوا وتحالفوا وتواعدوا على القتال ، (فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماء ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب على الموت ، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في الجفنة ، فسموا لعقة الدم بذلك) ،[5] ثم اتفقوا على ان يجعلوا بينهم حكماً ، يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، على ان يكون اول من يدخل من باب المسجد ، فكان اول من دخل عليهم رسول الله . فحكم على نحو ما هو معروف .

كما نصطدم بروايات اخرى تذكر ان حلف المطيبين ، انما عرف بذلك ، لان خمس قبائل هي : بنو عبد مناف ، وبنو اسد ، وبنو تيم ، وبنو زهرة ، وبنو الحارث بن فهر ، لما ارادت بنو عبد منـاف اخذ ما في ايدي بني عبد الدار من الحجابة والرفادة واللواء والسقاية وأبت بنو عبد الدار تسليمها اياهم — اجتمع المذكورون في دار عبد الله بن جدعان ، وعقد كل قوم على امرهم حلفاً

١ ابن سعد ، طبقات (١/٧٨) .
٢ نهاية الأرب (١٦/٣٤ وما بعدها) .
٣ البلاذري ، أنساب (١/ ٥٦) .
٤ الطبري (٢/٢٨٩ وما بعدها) .
٥ الطبري (٢/٢٩٠) .

مؤكداً على التناصر وأن لا يتخاذلوا ، ثم اخرج لهم بنو عبد مناف جفنة ثم خلطوا فيها اطياباً وغمسوا ايديهم فيها وتعاقدوا ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً فسُمّوا المطيبين . وتعاقدت بنو عبد الدار وحلفاؤها وهم ست قبائل : عبد الدار وجمح ومخزوم وعدي وكعب وسهم حلفاً آخر مؤكداً ، فسُمّوا بذلك الاحلاف . [1]

وقيل بل قدم رجل من بني زيد لمكة معتمراً ومعه تجارة اشتراها منه رجل سهمي فأبى ان يقضيه حقه فناداهم من أعلى ابي قبيس ، فقاموا وتحالفوا على انصافه ، وكان النبيّ من المطيبين لحضوره فيه ، وهو ابن خمس وعشرين سنة وكذلك ابو بكر . وكان عمر احلافياً لحضوره معهم . [2]

وقد وهم بعض اهل الاخبار فجعلوا حلف المطيبين هو حلف الفضول ، ويظهر انهم وقعوا في الخطأ من كون الذين دعوا الى عقد حلف الفضول وشهدوه هم من (المطيبين) ، فاشتبه الامر عليهم ، وظنوا ان الحلفين حلف واحد . وقد ردّ عليهم بعض اهل الاخبار ايضاً ، اذ ذكروا ان الرسول لم يدرك حلف المطيبين ، لانه كان وقع بين بني عبد مناف ، وهم هاشم واخوته ومن انضم اليهم ، وبين بني عمهم عبد الدار واحلافهم ، فقيل لهم الاحلاف ، قبل ان يولد الرسول . [3]

اما ان الحلفين قد عقدا في ايام (عبد الله بن جدعان) ، فخطأ ، فقد اجمع اهل الاخبار على ان بني عبد مناف كانوا يلون الرفادة والسقاية قبل هذا العهد ، وأن (هاشم) كان يليها في حياته ، وأما انهما وقعا في ايام (هاشم) او في ايام ابنائه ، فان ذلك اقرب الى المنطق ، وذلك فيما اذا اخذنا برواية من يقول : ان (قصيّاً) اوصى بالرفادة والسقاية واللواء والحجابة ودار الندوة الى ابنه (عبد الدار) ، وحرم بذلك ابنه (عبد مناف) من كل شيء ، بحجة انه كان غنياً ، وجيهاً وقد ساد في حياة ابيه ، فلا حاجة له به اليها ، فتأثر هاشم او ابناؤه من ذلك ، فأجمعوا على انتزاعها من ايدي (بني عبد الدار) وحدث ما حدث ، وتولى هاشم الرفادة والسقاية على النحو المذكور . [4]

---

١ تاج العروس (١/٣٥٩ وما بعدها) ، العمدة (٢/١٩٤) ، البلاذري ، انساب (١/٥٦ وما بعدها) ، ابن سعد ، طبقات (١/٧٧) .

٢ تاج العروس (١/٣٦٠) .

٣ السيرة الحلبية (١/١٥٦) .

٤ (ولما صارت الرفادة والسقاية لهاشم ، كان يخرج من ماله كل سنة للرفادة مالا عظيما) ، البلاذري ، انساب (١/٦٠) .

وهناك رواية اخرى رواهـا (اليعقوبي) ، تفيد ان قصيـاً كان قد قسم السقاية والرفادة والرئاسة والدار بين ولده . فجعل السقاية والرئاسة لعبد مناف ، والدار لعبد الدار ، والرفادة لعبد العزّى ، وحافة الوادي لعبد قصيّ .[1] وأخذ كل ابن ما اعطاه والده له .

ويتبين من دراسة الروايات المختلفة الواردة عن الحلفين المذكورين ، انهما قد عقدا لاغراض اخرى لا صلة لها بالسقاية والرفادة ، وربما كانا قد عقدا قبل ايام هاشم ، بسبب نزاع وقع بين بطون قريش على الزعامة ، فتحربت تلك البطون وانقسمت على نفسها الى (مطيبين) و (احلاف) ، وربما كان حلف لعقة الدم حلفاً آخر عقده (بنو عدي) فيما بينهم ، وهم الذين انحازوا الى الاحلاف ، ودخلوا معهم في حلف . خاصة ونجد (اليعقوبي) يشير الى حلف عقـده (عبد مناف) بعد وفاة والده (قصي) مع (خزاعة) و (بني عبد منـاة ابن كنانة) ، عرف بحلف (الاحابيش) . وكان مدبّر بني كنانة الذي سأل عبد مناف عقد الحلف (عمرو بن هلل بن معيص) .[2] مما يشير اذا صح هـذا الخبر الى ان (بني مناف) او الذين انضموا اليهم ، كما يقول ذلك (اليعقوبي) ارادوا تقـوية انفسهم وتكوين قوة مهابة بتأليف ذلك الحلف . وربما كان هذا الحلف موجهاً ضد (بني عبد الدار) مما دفع (بني عبد الدار) على جمع صفوفهم وتأليف حلف بهم ، للدفاع عن مصالحهم .

واسم هاشم على رواية الاخباريين (عمرو) وهو اكبر اولاد عبد مناف . وانما قيل له هاشم ، لانه اول من هشم الثريد لقومه بمكة وأطعمه . ذكر ان قومه من قريش ، كانت اصابتهم لزبة وقحط ، فرحل الى فلسطين ، فاشترى منها الدقيق ، فقدم به مكة ، فأمر به فخبز له ونحر جزوراً ، ثم اتخذ لقومه مرقة ثريد بذلك .[3] ويذكرون ان شاعراً من الشعراء ، هو مطرود بن كعب الخزاعي ،

١ اليعقوبي (١/٢١١) ، (طبعة النجف) .
٢ اليعقوبي (١/٢١٢) .
٣ الطبري (٢/٢٥١ وما بعدها) ، اللسان (١٢/٦١١) ، القاموس (٤/١٩٠) ، الكامل لابن الأثير (٢/٩) .

او ابن الزبعرى ، ذكر ذلك في شعره حيث قال :

عمرو الذي هشم الثريد لقومه   ورجال مكة مُسنِتون عجاف [١]

ويظهر من وصف الاخباريين لهاشم انه كان تاجراً ، له تجارة مع بلاد الشام ، وأنه جمع ثروة من تجارته هذه ، حتى زعموا انه هو اول من سن الرحلتين لقريش : رحلة الشتاء والصيف . [٢]

ويذكر اهل الاخبار ان هاشماً كان يحُثّ اهل مكة على اكرام الحجاج واضافتهم وتقديم كل معونة لهم ، لانهم يأتون يعظّمون بيت الله ، ويزورونه ، وهم جيران بيت الله ، وقد أكرموا به ، وشرفوا بالبيت على سائر العرب ، فعليهم تقديم كل معونة لحجاج البيت . وكان يطلب منهم مساعدته باخراج ما يتمكنون من اخراجه من اموالهم يضعونه في دار الندوة ، ليخدم به الحجاج ، لانه لا يتمكن وحده من اكرامهم وتقديم الطعام من ماله وحده اليهم . [٣] فكان هاشم يخرج في كل عام مالاً كثيراً ، وكان قوم من قريش اهل يسار يترافدون . وكان كل انسان يرسل بمئة مثقال هرقلية ، فيجمع هاشم ما يتجمع ويصنع به طعاماً للحجاج . [٤]

ولشح الماء في مكة ، واضطرار الناس الى جلبه من اماكن بعيدة ، فعل (هاشم) ما فعله قصيّ حين حفر بئراً على نحو ما ذكرت ، فحفر بئراً عرفت بـ (بذّر) وهي البئر التي في حق (المقوم بن عبد المطلب) في ظهر دار الطلوب مولاة زبيدة بالبطحاء في اصل المستنذر . وحفر بئراً اخرى ، وهي البئر التي يقال لها بئر (جبير بن مطعم) ، ودخلت في (دار القوارير . [٥] فيسر بذلك لمكة الماء ، وساعد على اكثاره عندهم .

---

١ عمرو العلى هشم الثريد لقومه   ورجال مكة مسنون عجاف
الطبري (٢/٢٥٢) ، الاشتقاق (٩) ، أمالي المرتضى (٢/٢٦٩) ، أخبار مكة للازرقي (١/٦٧) ، ابن سعد ، طبقات (١/٧٦) ، نهاية الأرب (١٦/٣٣) .

٢ الطبري (٢/٢٥٢) (دار المعارف بمصر) .
وهو الذي سن الرحيل لقومه   رحل الشتاء ورحلة الأصياف
البلاذري ، أنساب (١/٥٨) ، ابن سعد ، طبقات (١/٧٥) .

٣ النويري ، نهاية الأرب (١٦/٣٤) .

٤ ابن سعد ، الطبقات (١/٧٨) .

٥ ابن سعد ، الطبقات (١/٧٥) ، الأزرقي ، أخبار مكة (١/٦٧) ، تاج العروس (٣/٣٦) ، (بذر) .

وأخذ (هاشم) عهداً على نفسه بأن يسقي الحجاج ويكفيهم بالماء ، قُربةً الى رب (البيت) ما دام حياً . فكان إذا حضر الحج ، يأمر بحياض من أدم ، فتجعل في موضع (زمزم) ، ثم تملأ بالماء من الآبار التي بمكة ، فيشرب منها الحاج . وكان يطعمهم قبل التروية بيوم بمكة ، وبمِنى وعَرفَة ، وكان يثرد لهم الخبز واللحم ، والخبز والسمن والسويق والتمر ، ويحمل لهم الماء ، فيستقون بمنى ، والماء يومئذ قليل في حياض الأدم الى ان يصدروا من (مِنى) ، ثم تنقطع الضيافة ، ويتفرق الناس الى بلادهم[1] .

وموضوع السقاية موضوع غامض . فبينما نجد أهل الأخبار يفسرون السقاية باسقاء المحتاجين من الحجاج بالماء مجاناً ، نجدهم يتحدثون عن السقاية على انها إسقاء الحجاج من الزبيب المنبوذ بالماء . وذكر ان العباس كان يليها في الجاهلية والإسلام[2] .

وتحدث أهل الأخبار عن (سقاية) عرفت بـ (سقاية عديّ) ، زعموا انها كانت بالمشعرين بين الصفا والمروة ، وان مطرود الخزاعي ذكرها حين قال :

وما النيل يأتي بالسفين يكفّه   بأجود سيباً من عديّ بن نوفل
وأنبطت بين المشعرين سقاية   لحجاج بيت الله أفضل منهل

وذكر ان هذه السقاية ، كانت بسقاية اللبن والعسل[3] .

ويظهر من وصف الأخباريين لهاشم انه كان تاجراً ، له تجارة مع بلاد الشأم ، وانه جمع ثروة من تجارته هذه ، حتى زعموا انه هو أول من سنّ الرحلتين لقريش : رحلة الشتاء والصيف[4] . وانه كان صاحب (إيلاف قريش)[5] .

---

١ ابن سعد ، الطبقات (١/٧٨) النويري ، نهاية الأرب (١٦/٣٥) .
٢ تاج العروس (١٠/١٨١) . ، (سقى) .
٣ نسب قريش (١٩٧) .
٤ الطبري (٢/٢٥٢) ، (دار المعارف بمصر) .
وهو الذي سنّ الرحيل لقومه   رحل الشتاء ورحلة الأصياف
البلاذري ، أنساب (١/٥٨) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٧٥) ، تفسير القرطبي (٢٠/٢٠٥) ، (سورة قريش) .
٥ نهاية الأرب (١٦/٣٣) .

وذلك ان قريشاً كانوا تجاراً ، ولكن تجارتهم – كما يقول أهل الأخبار – لم تكن تتجاوز مكة ، إنما تقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ، ثم يتبايعونهـا بينهم ، ويبيعونها على من حولهم من العرب . فكانوا كذلك حتى ركب هاشم ابن عبد مناف الى الشأم ، فكان يذبح كل يوم شاة ، ويصنع جفنة ثريد ويجمع من حوله فيأكلون . وكان هاشم من أجمل الناس وأتمهم ، فذكر ذلك لقيصر ، فدعا به فلما رآه وكلمه ، أعجب به . فكان يبعث اليه في كل يوم ، فيدخل عليه ويحادثه فلما رأى نفسه تمكن عنده ، قال له : أيها الملك : إن قومي تجار العرب ، فإن رأيت ان تكتب لي كتاباً تؤمن تجارتهم فيقدموا عليك بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه ، فتباع عندكم ، فهو أرخص عليكم . فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم . فأقبل هاشم بذلك الكتاب ، فجعل كلما مر بحي من العرب بطريقه الى مكة ، عقد معهم عقداً على ان تقدم قريش اليهم ما يرضيهم من بضائع وهدايا تؤلف بينهم وبين قريش ، فكان الإيلاف . فلما وصل الى مكة ، كان هذا الإيلاف أعظم ما جاء به هاشم الى قريش . فخرجوا بتجارة عظيمة ، وخرج هاشم معهم يجوزهم يوفيهم إيلافهم الذي أخذ من العرب حتى أوردهم الشأم ، وأحلهم قراها . فكان ذلك بدء إيلاف قريش [1] .

وذكر ان متجر (هاشم) كان الى بلاد الشأم [2] ، ويصل بتجارته الى (غزة) وناحيتها ، وربما توغل نحو الشمال ، حتى زعم بعض أهل الأخبار انه كان ربما بلغ (أنقرة) (فيدخل على قيصر فيكرمه ويحبوه) [3] . ويجب علينا ألا نتصور دائماً ان أي (قيصر) يرد ذكره في أخبار أهل الأخبار ، هو قيصر الروم حقاً ، بل هو أحد عماله في الغالب ، وأحد الموظفين الروم في بلاد الشأم ، وربما كان أحد قادة الحدود . وربما أخذوا اسم (أنقرة) من قصة للشاعر امرؤ القيس ، فأدخلوها في قصة (هاشم) . فلم تكن (أنقرة) ، مقراً

١ القالي ، ذيل الآمالي والنوادر (ص ١٩٩) ، الثعالبي ، ثمار القلوب ، (١/٨ وما بعدها) ،

Caetani, Annali, I, 109, (90), M.J. Kister, p. 116

٢ المحبر (١٦٢) .

٣ ابن سعد ، الطبقات (١/٧٥ وما بعدها) ، نهاية الأرب (١٦/٣٣) ، البلاذري ، أنساب (١/٥٨) .

للقياصرة إذ ذاك حتى يذهب هاشم اليها ليدخل على قيصر ويزوره فيها ، بل كانت (القسطنطينية) ، هي عاصمة البيزنطيين.

وقد فسر (الجاحظ) (الإيلاف) ، انه جُعلٌ فرضه هاشم على القبائل لحماية مكة من الصعاليك ومن المتطاولين ، إذْ قال : (وقد فسَّره قوم بغير ذلك. قالوا : ان هاشماً جعل على رؤوس القبائل ضرائب يؤدونها اليه ليحمي بها أهل مكة . فإن ذؤبان العرب وصعاليك الأحياء وأصحاب الطوائل ، كانوا لا يؤمَنون على الحرم ، لا سيا وناس من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدراً . مثل طيء وخثعم وقضاعة وبعض بلحارث بن كعب)[1] . فيفهم من ذلك إذن ان الإيلاف ، هو نوع من تأليف قلوب سادات القبائل ، لصدهم عن التحرش بأهل مكة ومن التعرض بقوافلهم ، فألفهم هاشم وصاروا له مثل (المؤلَفة قلوبهم) في الإسلام . لا سيا وان بين الإيلاف و (ألف) (ألف بينهم) و (المؤلفة) صلة . وان فيا قاله (الجاحظ) عن (هاشم) من قوله : (وشرك في تجارته رؤساء القبائل من العرب ... وجعل لهم معه ربحاً)[2] ، وبين تأليف القبائل صلة تامة ، تجعل تفسير الإيلاف على انه عهود ومواثيق مع سادات القبائل في مقابل اسهامهم بأموالهم وبحمايتهم لقوافل قريش في مقابل ضرائب معينة تدفع لهم ، وسهاماً من الأرباح تؤدى لهم ، مع اعطائهم رؤوس اموالهم وما ربحته في الأسواق هو تفسير منطقي معقول . وبذلك كسبت قريش حياد هذه القبائل ودفاعها عن مصالحها .

وقد تعرض (الثعالبي) لموضوع (إيلاف قريش) ، فقال : إيلاف قريش : كانت قريش لا تتاجر إلا مع من ورد عليها من مكة في المواسم وبذي المجاز وسوق عكاظ ، وفي الأشهر الحرام لا تبرح دارها ، ولا تجاوز حرمها ، للتحمس في دينهم ، والحب لحرمهم ، والإلف لبيتهم ، ولقيامهم لجميع من دخل مكة بما يصلحهم ، وكانوا بوادٍ غير ذي زرع ... فكان أول من خرج الى الشأم ووفد الى الملوك وأبعد في السفر ومرّ بالأعداء ، وأخذ منهم الإيلاف الذي ذكره الله هاشم بن عبد مناف ، وكانت له رحلتان : رحلة في الشتاء نحو العباهلة من

١ رسائل الجاحظ (٧٠) ، (السندوبي) ، Kister, p. 143.

٢ رسائل (٧٠) ، السندوبي) (٧٠) ، الثعالبي ، ثمار القلوب (١١٥ وما بعدها).

ملوك اليمن ونحو اليكسوم من ملوك الحبشة ، ورحلة في الصيف نحو الشام وبلاد الروم . وكا يأخذ الإيلاف من رؤساء القبائل وسادات العشائر لخصلتين : إحداهما ان ذؤبان العرب وصعاليك الأعراب وأصحاب الغارات وطلاب الطوائــل كانوا لا يؤمنّون على أهل الحرم ولا غيرهم ، والخصلة الاخرى ان اناساً من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمــة ، ولا للشهر الحرام قــدراً ، كبني طيء وخثعم وقضاعة ، وسائر العرب يحجون البيت ويدينون بالحرمة له . ومعنى الإيلاف انما هو شيء كان يجعله هاشم لرؤساء القبائل من الربح ، ويحمل لهــم متاعاً مــع متاعه ، ويسوق اليهم إبلاً مع إبله ليكفيهم مؤنة الأسفار ، ويكفي قريشاً مؤنة الأعداء ، فكان ذلك صلاحاً للفريقين ، إذ كان المقيم رابحاً ، والمسافر محفوظاً ، فأخصبت قريش ، وأتاها خير الشام واليمن والحبشة ، وحسنت حالها ، وطاب عيشها . ولما مات هاشم قام بذلك المطّلب ، فلما مات المطلب قام بذلك عبد شمس ، فلما مات عبد شمس قام به نوفل ، وكان أصغرهم)[1] .

والى هذا الإيلاف أشير في شعر (مطرود الخزاعي) بقوله :

يا أيهـــا الرجل المحولّ رحله   هلا حللت بآل عبــد مناف
الآخــذين العهد في إيلافــهم   والراحلين برحلة الإيــلاف[2]

وعمل قريش هذا هو عمل حكيم ، بدّل وغيّر اسلوب تجــارة مكة ، بأن جعل لها قوافل ضخمة تمر بأمن وبسلام في مختلف أنحاء الجزيرة جاءت اليها نتيجة لذلك بأرباح كبيرة ، ما كان في امكانها الحصول عليها ، لو بقيت تتاجر وفقاً لطريقتها القديمة ، من ارسالها قوافل صغيرة للمتاجرة مع مختلف الأسواق ، فكانت القافلة منها اذا سلبت ، عادت بأفدح الأضرار المادية على صاحبها أو على الأسرة التي أرسلتها ، وربما أنزلت الإفلاس والفقر بأصحابها ، بينما توسعت القافلة وفقاً للطريقة الجديدة بأن ساهم بأموالها كل من أراد المساهمة ، من غني أو صعلوك أو متوسط حال ، ومن سادات قبائل . وبذلك توسع الربح ، وعمت فائدتــه عدداً كبيراً من أهل مكة ، فرفــع بذلك من مستواها الاجتماعي ، كما ضمن لقوافلها الأمن والسلامة ، وصيّر مكة مكاناً مقصوداً للأعراب .

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (١١٥ وما بعدها) .
٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (١١٦) .

ويذكر أهل الاخبار أنه كان المطلب وهاشم وعبد شمس، ولد عبد مناف من أمهم : (عاتكة بنت مرّة السُلمية) ، و (نوفل) من (واقــدة) ، قد سادوا بعد أبيهم عبد مناف جميعاً ، وكان يقال لهم : (المجبرون) ، وصار لهم شأن وسلطان . فكانوا اول من أخذ لقريش (العِصَم) [1] ، اي (الحبال) ، ويراد بها العهود . أخذ لهم هاشم حبلاً من ملوك الروم وغسّان ، وأخذ لهم عبد شمس حبلاً من النجاشي الاكبر ، فاختلفوا بذلك السبب الى ارض الحبشة ، وأخذ لهم نوفل حبــلاً من الاكاسرة . فاختلفوا بذلك السبب الى ارض العراق وأرض فارس ، وأخذ لهم المطلب حبلاً من ملوك حمير ، فاختلفوا بذلك السبب الى اليمن ، فجُبرت بهم قريش ، فسمّوا المجبرين . [2] حتى ضرب بهم المثل ، فقيل : أقرش من المجبرين . والقرش الجمع والتجــارة ، والتقرش التجمع . والمجبرون هم الاربعة المذكورون . [3]

وفي رواية اخرى ان (المطلب) هو الذي عقد الحلف لقريش من النجاشي في متجرها الى ارضه . وأن هاشم ، هو الذي عقد الحلف لقريش من (هرقل) لأن تختلف الى الشام آمنة . ولو اخذنا بهذه الرواية وجب ان يكون هاشم قد أدرك ايام (هرقل) (٦١٠ — ٦٤١) (Heracleous I) ، وهو امر غير ممكن . لأن معنى ذلك انه عـــاش في ايام الرسول وأدرك رسالته . ولا يهم ورود اسم (هرقل) في هذه الرواية ، فأهل الاخبار لا يميزون بين ملوك الروم ، ويذكرون اسم (هرقل) ، لانه حكم في ايام الرسول وفي ايام الخلفاء الراشدين الأُول .

واذا صحت الرواية ، يكون (آل عبــد مناف) ، قد احتكروا التجارة وصاروا من أعظم تجار مكة . وقد وزّعوا التجارة فيما بينهم ، وخصّوا كل بيت من بيــوتهم الكبيرة بالاتجار مع مكان من امكنة الاتجار المشهورة في ذلك العهد ، وأنهم تمكنوا بهذه السياسة من عقد عقود تجارية ومواثيق مع السلطات الاجنبية التي تاجروا معها لنيل حظوة عندها ، ولتسهيل معاملاتها التجارية ، فجنّوا

---

١ العِصَم ، بكسر ففتح .

٢ الطبري (٢/٢٥٢) ، السعوبى (١/٢٠٠) ، ذيل الأمالي (ص ١٩٩) ، امالي المرتضى (٢/٢٦٨) .

٣ مجمع الأمثال (٢/٧٢) ، البلاذري ، أنساب (١/٥٩) .

من هذه التجارة ارباحاً كبيرة .

فما كان في استطاعة (قريش) ارسال (عيرها) الى بلاد الشام او العراق او اليمن او العربية الجنوبية ، بغير رضاء وموافقة سادات القبائل التي تمر قوافل قريش بأرضها ؛ ورضاء هؤلاء السادات بالنسبة لقريش هو أهم جداً من رضاء حكومات بلاد الشام او العراق او اليمن عن مجيء تجار مكة الى بلادها للاتجار في اسواقها ، فما الفائدة من موافقة حكومات تلك البلاد على مجيء تجار مكة للبيع والشراء في اسواقهـا ، ان لم يكن في وسع اولئك التجار تأمين وصول تجارتهم اليها ، او تأمين سلامة ما يشترونه من اسواقها لايصاله الى مكة او الى الاسواق الاخرى . لهذا كان من اهم ما فعله تجار مكة في هذا الباب ، هو عقــدهم (حبالاً) و (عصماً) وعهوداً مع رؤساء القبائل ، لترضيتهم بدفع جعالات معينة لهم او تقــديم هدايا والطاف مناسبة مغرية لهم ، او اشتراكهم معهم في تجارتهم . يقول الجاحظ في باب (فضل هاشم على عبد شمس) ، (وشرك في تجارته رؤساء القبائل من العرب ... وجُعل لهم معه ربح) .[1] وبهذه العقود المتنوعة سيطر تجار قريش على الاعراب ، وحافظوا على اموالهم ، وحدّوا من شره فقراء ابناء البادية الى الغنائم . وصار في امكانهم الخروج بكل حرية من مكة ومن الاسواق القريبة منها بتجارتهم نحو الاماكن المذكورة بكل أمن وسلام .

ولما كان البحث في هذا الموضع ، هو في تأريخ مكة بصورة عامة ، لذلك فسأترك الكلام عن (الايلاف) الى الموضع المناسب الخاص به ، وهو التجارة والاتجار ، وعندئذ سأتكلم عنه بما يتمم هذا الكلام العام .

ويذكر اهل الاخبار ان عبد شمس وهاشماً توأمان ، وقد وقع بينهما تحاسد ، وانتقل هذا التحاسد الى ولد الاخوين ، حتى في الاسلام .

وذكروا ان (أمية بن عبد شمس) حسد عمّه هاشماً ، وكان أمية ذا مال ، فدعا عمّه الى المنافرة ، فرضي عمّه بذلك مكرهاً ، على ان يتحاكما الى الكاهن (الخزاعي) ، فنفّر هاشماً عليه ، فأخذ هاشم الإبل التي نافر عليها من أمية ، فنحرها وأطعمها من حضره ، وخرج أمية الى الشام ، فأقام بها عشر سنين ، بحسب حُكم الكاهن ، وكان هاشم قد نافر على الجلاء عن مكة عشر سنين .

---

١ الجاحظ ، رسائل (٧٠) ، السندوبي) ،

فكانت هذه اول عداوة وقعت بين هاشم وأمية .[1]

ويذكر اهل الاخبار ان أمية بن عبد شمس كان من جملة من ذهب من رجال مكة الى (سيف بن ذي يزن) لتهنئته بانتصار اليمن على الحبش وطردهم لهم . وقد دخل عليه مع وفد مكة في (قصر غمدان) . وكان مثل ابيه عبد شمس حامل لواء قريش ، اي انه كان يحملها في الحرب .[2]

وكان هاشم اول من مات من ولد عبد مناف ، مات بغزة فعرفت بـ (غزة هاشم) ، وكان قد وفد بتجارة اليها فمات بها ، ومات عبد شمس بمكة ، فقبر بأجياد ، ثم مات نوفل بسلمان من طريق العراق ، ثم مات المطلب بردمان من ارض اليمن .[3] ويتبين من ذلك ان جميع هؤلاء الاخوة ، ما خلا عبد شمس ، ماتوا في ارض غريبة ، ماتوا تجاراً في تلك الديار .

وورد في رواية اخرى ، ان هاشماً خرج هو وعبد شمس الى الشام ، فماتا جميعاً بغزة في عام واحد . وبقي مالهما الى ان جاء الاسلام .[4]

وأجياد جبل مكة على رأي ، وموضع مرتفع في الثرا غربيّ (الصفا) كما ورد ذلك في شعر للأعشى . ذكر ان (مضاضاً) ضرب في ذلك الموضع اجياد مائة رجل من العمالقة ، فسمّي الموضع بذلك (اجياد) .[5]

ويذكر الاخباريون : ان هاشماً كان قد خرج في عير لقريش فيها تجارات ، وكان طريقهم على المدينة ، فنزلوا بـ (سوق النبط) ، فصادفوا سوقاً مقامة ، فباعوا واشتروا ، ونظروا الى امرأة على موضع مشرف من السوق تأمر بما يشترى ويباع لها . وهي حازمة جلدة مع جمال ، فسأل هاشم عنها : أأيّم هي ، أم

---

١ الطبري (٢٥٢/٢ وما بعدها) ، ابن الأثير ، الكامل (٩/٢) ، (الطباعة المنيرية) ، ابن سعد ، طبقات (٧٦/١) ، نهاية الأرب (٣٤/١٦) ، انسان العيون (٤٠/١)، سيرة ابن دحلان (١٥/١ وما بعدها) .

٢ الاشتقاق (ص ١٠٣) ، دائرة المعارف الاسلاميه (٣٢٤/١) .

٣ الطبري (٢٥٤/٢) ، ابن الأثير (٧/٢) ، شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد (٨٣/١) ، ذيل الأمالي (ص ١٩٩) ، البلاذري ، أنساب (٦٣/١) ، ابن سعد ، طبقات (٧٩/١) .

٤ نهاية الأرب (٣٧/١٦) ، الكامل لابن الأثير (٤/٢ وما بعدها) ، الطبري (١٧٦/٢) .

٥ تاج العروس (٣٣٠/٢) ، (الجيد) .

ذات زوج ؟ فقيل له : أيّم ، كانت لا تنكح الرجال لشرفها في قومها حتى يشترطوا لها ان امرها بيدها : فاذا كرهت رجلاً ، فارقته ، وهي (سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خداش بن عامر بن غنم بن عديّ بن النجار) ، وهو (تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج) ، فخطبها فزوّجته نفسها ، ودخل بها ، وصنع طعاماً ، دعا اليه من كان معه من اهل مكة ، ودعا من الخزرج رجالاً . وأقام بأصحابه اياماً ، وعلقت (سلمى) بعبد المطلب .[1] وكانت (سلمى) ، قد تزوجت من (أُحَيْحَة بن الجُلاّح بن الحريش بن جَحْجَبا الأوسي) ، وهو من المعروفين في قومه كذلك .[2]

ويذكر اهل الاخبار ، ان عمر هاشم لما توفي ، كان عشرون سنة ، ويقال خمساً وعشرين .[3] وهو عمر قصير اذا قيس بما يذكره اهل الاخبار ويوردونه عنه من اتجار وأعمال ، اعمال لا تتناسب مع تلك السن .

ومن سادات مكة في هذه الايام (قيس بن عدي بن سهم) من بني هصيص ابن كعب) ، قد تكاثروا بمكة ، حتى كادوا يعدلون بعبد مناف . وهو الذي منع (عديّ بن كعب) و (زهرة بن كلاب) من (بني عبد مناف) ، ومنع (بني عديّ) ايضاً من (بني جمح) . وكان (عبد المطلب بن هاشم) ينقر ابنه (عبد المطلب) ، وهو صغير ، ويقول :

كأنه في العز قيس بن عديّ   في دار قيس ينتدى اهل الندى [4]

مما يدلّ ان صح ان هذا الشعر هو من شعر (عبد المطلب) حقاً ، على ان (عديّاً) كان اعزّ رجال قريش في ايامه ، حتى ضربوا به المثل في العزّ . وأنه كان سيّد قومه : بنو سهم بن هصيص بن كعب .

ومن ولد هاشم (عبد المطلب) ، وأمه من اهل يثرب من بني النجار فهي

---

١ ابن سعد ، الطبقات (١/٧٦) ، ابن هشام ، السيرة (١/١٤٤) ، نهاية الأرب (١٦/٣٦ وما بعدها) ، المحبر (ص ٣٩٨) ، الطبري (٢/٢٤٦ وما بعدها) ، (دار المعارف) .

٢ المحبر (ص ٤٥٦) ، البلاذري ، أنساب (١/٦٤) .

٣ البلاذري ، أنساب (١/٦٣) .

٤ نسب قريش (٤٠٠) .

خزرجية تدعى (سلمى بنت عمرو بن زيد) على نحو ما ذكرت قبل قليل . تزوّجها هاشم في اثناء رحلة من رحلاته التي كان يقوم بها الى الشام للاتجار . ولما مات هاشم بغزة ولدت سلمى (عبد المطلب) ، ومكث عند أخواله سبع سنين ، ثم عاد الى قومه بمكة ، عاد به عمه (المطلب) . ولما كبر تولى السقاية والرفادة وتزعم قومه .

ويذكر أهل الأخبار ، ان هاشماً كان قد أوصى الى أخيه (المطلب) ، فبنو هاشم وبنو المطلب يد واحدة . وبنو عبد شمس وبنو نوفل يد[1] . ومعنى هذا ان نزاعاً كان قد وقع بين أبناء هاشم وأبناء إخوته ، جعلهم ينقسمون الى فرقتين .

ويذكر أهل الأخبار ان اسم عبد المطلب ، هو (شيبة) . وقد عرف بين الناس بعبد المطلب ، لان عمّه (المطلب) لما حمله من يثرب الى مكة ، كان يقول للناس ، هذا عبدي ، أو عبدٌ لي ، فسُمّي من ثمّ بعبد المطلب ، وشاعت بين قومه أهل مكة حتى طغت على اسمه . وقيل انه عرف بين أهل مكة بـ (شيبة الحمد) لكثرة حمد الناس له ، وكان يقال له (الفيّاض) لجودة ، و (مطعم طير السماء) و (مطعم الطير) لانه كان يرفع من مائدته للطير والوحوش في رؤوس الجبال[2] .

وقد كان (المطلب) عمّ (عبد المطلب) مثل سائر أفراد أسرته وأهل مكة تاجراً ، فخرج الى أرض اليمن تاجراً ، فهلك بـ (ردمان) من اليمن[3] .

وهم يروون انه كان مَفزَع قريش في النوائب ، وملجأهم في الأمور ، وانه كان من حلماء قريش وحكمائها ، وممن حرم الخمر على نفسه ، وهو أول من

---

١ ابن سعد ، طبقات (٧٩/١) .

٢ وفيه يقول حذافة بن غانم :

بنو شيبة الحمد الذي كان وجهه ... يضيء ظلام الليل كالقمر البدر

(شيبة الحمد لنور وجهه ، وذلك أنه كانت في ذؤابته شعرة بيضاء حين ولد ، فسمي شيبة الحمد) ، الثعالبي ، ثمار القلوب (٩٧) ، الطبري (٢٤٧/٢ وما بعدها) (دار المعارف بمصر) ، الأصنام (٢٨) ، بلوغ الأرب (٣٢٤/١) ، ابن حزم ، جوامع السير (٢/٢) ، البداية ، لابن كثير (٢٥٢/٢) ، السيرة الحلبية (٢٢/١ وما بعدها) ، شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد (٨١/١) ، ابن سعد ، الطبقات (٨٣/١) .

٣ طبقات ابن سعد (٨٣/١) ، اليعقوبي (٢١٦/١) .

تحنث بغار حراء . والتحنث التعبد الليالي ذوات العدد . وكان اذا دخـل شهر رمضان ، صعده وأطعم المساكين ، وكان صعوده للتخلي من الناس ، ليتفكر في جلال الله وعظمته[١] . وكان يعظم الظلم بمكة ، ويكثر الطواف بالبيت[٢] .

وذكر انه كان يأمر أولاده بترك الظلم والبغي ، ويحثهم على مكارم الأخلاق ، وينهاهم عن دنيات الأمور . وكان يقول : لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم الله منه ، وان وراء هـذه الدار ، داراً يجزى فيها المحسن باحسانه ، ويعاقب المسيء باساءته . ورفض في آخر عمره عبادة الأصنام ، ووحد الله . وروي : انه وضع سنناً جـاء القرآن بأكثرها ، وجاءت السنة بها . منها : الوفـاء بالنذر ، وتحريم الخمر والزنا ، وان لا يطوف بالبيت عريان[٣] . وذكر انه كان أول من سن دية النفس مئة من الإبل ، وكانت الدية قبل ذلك عشراً من الإبل ، فجرت في قريش والعرب مئة من الإبل . وأقرها رسول الله على ما كانت عليه[٤] .

ويذكرون ان قريشاً كانت اذا أصابها قحط شديد ، تأخذ بيد عبد المطلب ، فتخرج به الى جبل ثَبِير ، تستسقي المطر[٥] .

وقد وقع خلاف بين عبد المطلب وعمه (نوفل) ، كان سببه ان نوفل بن عبد مناف ، وكان آخر من بقي من بني عبد مناف ، ظلم عبـد المطلب على أركاح له ، وهي الساحات ، فلما أصر نوفل على انكاره حق عبـد المطلب ، تدخل عقلاء قريش في الأمر على رواية أهل مكة ، أو أخوال عبد المطلب ، وهم من أهـل يثرب . فأكره (نوفل) على إنصاف عبد المطلب حتى عـاد اليه حقه[٦] .

ومن أهم أعمال (عبد المطلب) الخالدة الى اليوم (بئر زمزم) في المسجد الحرام ، على مقربة من البيت . وهي بئر يذكرون انها بئر اسماعيل ، وان جرهماً

---

١ السيرة الحلبية (١/٢٢ وما بعدها) .
٢ البلاذري ، أنساب (١/٨٤) .
٣ السيرة الحلبية (١/٢٤ وما بعدها) .
٤ ابن أبي الحديد (١/٨٩) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٨٩) .
٥ السيرة الحلبية (١/٢٤ وما بعدها) .
٦ الطبري (٢/٢٤٨ وما بعدها) ، (دار المعارف) .

دفنتها ، وانها تقع بين أساف ونائلة في موضع كانت قريش تنحر فيــه . فلما حفرها (عبد المطلب) ، أقبل عليها الحجّاج وتركوا سائر الآبار [1] .

ويذكر أهل الأخبار ان عبد المطلب لما كشف عن بئر زمزم ، وجد فيهــا دفائن ، من ذلك غزالان من ذهب ، كانت جرهم دفنتهما ، وأسياف قلعية ، وأدراع سوابغ ، فجعل الأسياف باباً للكعبة ، وضرب في الباب أحــد الغزالين صفائح من ذهب ، وجعل المفتاح والقفل من ذهب فكان أول ذهب حُلّيته الكعبة [2] . وجعل الغزال الآخر في الجبّ الذي كان في الكعبة أمام هبل . وذكر ان قريشاً ارادت منعه من الحفر ، ولكنه أصر على ان يحفر حتى يصل الى موضع الماء ، وذلك بسبب رؤيا رآها ، عينت له المكان ، وأوحت اليه انه موضع بئر قديمــة طمرت وعليه إعادة حفرها [3] .

ويذكر الأخباريون ، ان عبد المطلب ، لمــا حلى بالمال الذي خرج من بئر زمزم الكعبة ، جعله صفائح من ذهب على باب الكعبة . فكان أول ذهب حُلّيته الكعبة [4] . وتذكر بعض الروايات ، ان ثلاثة نفر من قريش عدَوا على هــذا الذهب وسرقوه [5] . وتذكر رواياتهم انه ضرب الأسياف التي عثر عليها في البئر باباً للكعبة ، وضرب بالباب الغزالين من ذهب [6] .

ويظهر من وصف أهل الأخبار لما فعله (عبد المطلب) من ضرب الغزالين صفائح في وجه الكعبة ، ومن جعــل المفتاح والقفل من ذهب ، أو من ضرب أحد الغزالين صفائح على الباب ، وجعل الغزال الآخر في الجبّ الذي كان أمام (هُبَل) أي الغبغب ، ان الكعبة لم تكن على نحو ما يصفها أهل الأخبار من البساطة والسذاجة . بغير سقف وذات جدر ضمة بقدر قامة انسان . إذ لا يعقل

---

١ ابن الأثير (٢/ ٥ وما بعدها) ، الطبري (٢/ ٢٤٧)، البلاذري، انساب (١/ ٧٨).
٢ الطبري (٢/ ٢٥١) ، البداية (٢/ ٢١٦ ، ٢٢٥ ، ٢٤٥) ، اخبار مكة (١/ ٢٨٢)، ابن الأثير (٢/ ٧ وما بعدها) ، ابن سعد ، الطبقات (١/ ٨٥) ، البلاذري ، انساب (١/ ٧٨) .
٣ اخبار مكة (٢٨٤ وما بعدها) .
٤ اليعقوبي (١/ ٢١٨) ، الطبري (٢/ ٢٥١) ، ابن سعد ، الطبقات (١/ ٨٥) .
٥ ابن سعد ، الطبقات (١/ ٨٥) .
٦ سيرة ابن دحلان (١/ ٢٦) ، (حاشية على السيرة الحلبية) .

ان يضرب وجه باب الكعبة بالذهب وتوضع في داخلها تلك النفائس وهي على تلك الحالة ، اللهم إلا اذا شككنا في أمر هذه الروايات وذهبنا الى انها من نوع القصص الذي وضعه أهل الأخبار .

وقد طغى ماء (بئر زمزم) على مياه آبار مكة الأخرى . فهو أولاً ماء مقدس ، لانه في أرض مقدسة ، وفي المسجد الحرام ، ثم هو أغزر وأكثر كمية من مياه الآبار الأخرى ، وهو لا ينضب مهما استقى أصحاب الدلاء منه ، ثم انه ألطف مذاقاً من مياه آبار مكة الأخرى . وقد استفاد (عبد المطلب) من هذه البئر ، مادياً وأدبياً ، وصارت ملكاً خالصة له ، على الرغم من محاولات زعماء مكة والمنافسين له مساهمتهم له في حق هذه البئر ، لانها في أرض الحرم ، والحرم حرم الله ، وهو مشاع بين كل أهل مكة . وصار يسقي الحجاج من هذه البئر ، وترك السقي من حياض الأدم التي كانت بمكة عند موضع بئر زمزم ، وصار يحمل الماء من زمزم الى عرفة فيسقي الحاج[١] .

وكان أبناء (قصي) قبل حفر بئر (زمزم) يأتون بالماء من خارج مكة – كما يقول أهل الأخبار – ثم يملأون بها حياضاً من أدم ويسقون الحجاج ، جروا بذلك على سنة (قصيّ) ، فلما حفرت بئر زمزم ، تركوا السقي بالحياض من المياه المستوردة من خارج مكة ، وأخذوا يسقونهم من ماء زمزم[٢] .

وقد كان عبد المطلب يزور اليمن بين الحين والحين ، فكان اذا وردها نزل على عظيم من عظماء حمير . ويذكر أهل الأخبار ان أحد هؤلاء علّم عبد المطلب صبغ الشّعر ، وذلك بأن أمر به فخضب بحنّاء ، ثم عُليَ بالوسمة ، وصار يصبغ شعره بمكة ، وخضب أهل مكة بالسواد[٣] . ويذكر أهل الأخبار ايضاً انه اتصل بملوك اليمن ، وأخذ منهم إيلافاً لقومه ، بالاتجار مع اليمن . وكانت قريش تنظم عيراً الى اليمن في كل سنة[٤] .

---

١ ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة (٨٣/١ ، سيرة ابن هشام (٨٩/١) ، أخبار مكة (٢٨٥ وما بعدها) ، السيرة الحلبية (٣٧/١) ، الروض الأنف (٩٧/١) .
٢ ابن سعد ، الطبقات (٨٣/١) .
٣ ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة (٨٦/١) ، ابن سعد ، الطبقات (٨٦/١) .
٤ ذيل الأمالي (ص ١٩٩) .

ويذكر (المسعودي) ان (معديكرب) حينما ولي الملك باليمن ، أتته الوفود لتهنئه بالملك . وكان فيمن وفد عليه من زعماء العرب ، (عبد المطلب) ، و (خويلد بن أسد بن عبد العزّى) وجد أميّة بن أبي الصلت ، وقيل : أبو الصلت أبوه . فدخلوا عليه في قصره بمدينة صنعاء : قصر غمدان . ويذكر له ، كلاماً قاله عبد المطلب له ، وجواب (معد يكرب) عليه . ويذكر ايضاً ان (عبد المطلب) كان فيمن وفد على (سيف بن ذي يزَن) ليهنئه بطرد الحبش [1] .

ولم يكن عبد المطلب أغنى رجل في قريش ، ولم يكن سيد مكة الوحيد المطاع كما كان قصي ، إذْ كان في مكة رجال كانوا أكثر منه مالاً وسلطاناً . انما كان وجيه قومه ، لانه كان يتولى السقاية والرفادة وبئر زمزم ، فهي وجاهة ذات صلة بالبيت . وقد تكون صلته هذه ، هي التي جعلته يذهب الى أبرهة لمحادثته في شؤون مكة والبيت .

ويروي أهل الأخبار ان عبد المطلب كان قد نذر : لئن أكمل الله له عشرة ذكور حتى يراهم ان يذبح أحدهم . فلما تكاملوا عشرة ، همّ بذبح أحدهم ، فضرب بالقداح فخرج القداح على عبد الله ، ولكن القوم منعوه ، ثم أشاروا عليه بأن يرضي الله بنحر إبل فدية عنه ، وكان كلما ضرب القداح يخرج على عبد الله حتى بلغ العدد مئة فخرج على الإبل . فنحرها بين الصفا والمروة . وخلّى بينها وبين كل من يريد لحمها من إنسيّ أو اسبع أو طائر ، لا يذب عنها أحداً ، ولم يأكل منها هو ولا أحد من ولده شيئاً [2] . وكان نحر الإبل قبل الفيل بخمس سنين [3] . إذن فيكون ذلك حوالى سنة (٥٦٥) للميلاد .

وكان لعبد المطلب ماء بالطائف ، يقال له (ذو الهرم) وكان في أيدي ثقيف ردحاً ، ثم طلبه عبد المطلب منهم ، فأبوا عليه . وكان صاحب أمر

١ المسعودي ، مروج الذهب (٢/١٠ وما بعدها) ، (طبعة محمد محي الدين عبد الحميد) .
٢ ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة (١/٨٨ وما بعدها) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٨٨ وما بعدها) .
٣ البلاذري ، انساب (١/٧٩) .

ثقيف : (جندب بن الحارث) فأبى عليه وخاصمه فيه ، فدعاهما ذلك الى المنافرة الى الكاهن (العذري) ، وكان يقـــال له : (عزى سلمة) ، وكان ببلاد الشام ، وتنافرا على إبل ، وأتيا الكاهن ، فنفّر عبد المطلب عليه ، فأخذ عبد المطلب الإبل فنحرها .[1]

وقد نادم (عبد المطلب) على عادة اهل مكة جماعة من أقرانه ، لقد كانت عادتهم ان يجتمعوا مساءً فيتحادثوا او يشربوا ويأكلوا او يستمعوا الى غنـــاء ، حتى يحل وقت النوم ، وكان ممن نادمهم عبد المطلب (حرب بن أميّة) ، ثم اختلف معه ، ونافره عند (نفيل بن عبد العُزّى) جد (عمر بن الخطاب) ، فنفره على (حرب) ، فافترقا .[2] وكان سبب افتراقه عنه ، إغلاظ (حرب) القول على يهوديّ كان جوار عبد المطلب .[3] وتذكر رواية اخرى ان عبد المطلب و (حرب) ، تنافرا اولاً الى النجاشي الحبشي ، ولكنه أبى ان ينفر بينهما ، فذهبا الى نفيل . وأن (حرب بن امية) غضب حين نفر عبد المطلب عليه ، وقال له : ان من انتكاس الزمان ان جعلنـــاك حكماً ، وصار نديماً لعبد الله ابن جدعان .[4]

وذكر (ابن الأثير) ان سبب افتراق (عبد المطلب) عن (حرب) ، كان بسبب جار عبد المطلب اليهودي ، واسمه (أُذَيْنَة) ، وكان تاجراً وله مال كثير ، فغاظ ذلك (حرب بن امية) ، فأغرى به فتياناً من قريش ليقتلوه ويأخذوا ماله . فقتله (عامر بن عبد مناف) و (صخر بن عمرو بن كعب التَيْمي) ، فلم يعرف عبد المطلب قاتله ، فلم يزل يبحث حتى عرفهما ، واذا هما قد استجارا بحرب بن امية ، فأتى حرباً ولامه وطلبهما منه ، فأخفاهما ، فتغالظا في القول حتى تنافرا الى النجاشي ملك الحبشة ، فلم يدخل بينهما ، وذهبـــا الى نفيل . وترك عبد المطلب منادمة حرب ، ونادم عبد الله بن جدعان ، وأخذ من

١ ابن سعد، طبقات (١/ ٥١ وما بعدها)، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة (١/ ٨٨)، ابن سعد، طبقات (١/ ٨٨) ، (دار صادر) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/ ٥١) وما بعدها) ، (١/ ٨٧) ، (صادر) .
٣ السيرة الحلبية (١/ ٢٥) ، البلاذري ، أنساب (١/ ٧٤) .
٤ ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة (١/ ٨٧) ، ابن سعد ، الطبقات (١/ ٨٧) (صادر) .

حرب مئة ناقة ، فدفعها الى ابن عم اليهوديّ ، وارتجع ماله ، الا شيئاً هلك ، فغرمه من ماله .[1]

وقد صاهر عبد المطلب ، رجال من أسر معروفة بمكة ، فصاهره (كُرِيز ابن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس) ، وكانت عنده (أم حكيم) ، وهي (البيضاء بنت عبد المطلب) . وصاهره (ابو أميّة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم) ، وكانت عنده (عاتكة بنت عبد المطلب) ، و (عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم) ، وكانت عنده (برة بنت عبد المطلب) . وناسبه (ابو رُهم بن عبد العزى بن ابي قيس بن عبد ودّ بن نصر بن مالك ابن حسل بن عامر بن لؤي) ، خلف على (برة) بعد عبد الأسد . وصاهره (جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرّة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة) ، وكانت عنده (اميمة بنت عبد المطلب) ، و (العوّام ابن خويلد بن اسد بن عبد العزّى) ، خلف على (صفية بعد عمير بن وهب) .[2]

ويذكر ان (عبد المطلب) ، كان يفرش له في ظل الكعبة ، ويجلس بنوه حول فراشه الى خروجه ، فاذا خرج ، قاموا على رأسه مع عبيده ، اجلالاً له .[3] وكانت عادة سادة مكة تمضية اوقاتهم في مسجد الكعبة ، حيث يجلسون في ظل الكعبة او في فنائها يتحدثون ويتسامرون ، ثم يذهبون الى بيوتهم .

وفي ايام عبد المطلب كانت حملة (أبرهة) على مكة . وقد ارخت قريش بوقوعها ، وصيّرت الحملة مبدءاً لتأريخ ، لأهميتها بالنسبة لمكة . وقد تركت اثراً كبيراً في نفوس قريش ، بدليل تذكير القرآن لهم بما حلّ بـ (اصحاب الفيل) ،[4] على نحو ما تحدثت عنه في الأجزاء المتقدمة من هذا الكتاب .

وقد رأينا ان (عبد المطلب) وقد اشار على قومه بالتحرز بشعاب الجبال ،

---

١ الكامل (٢/٨ وما بعدها) .
٢ المحبر (ص ٦٢ وما بعدها) ، ابن سعد ، (٨/٢٧ وما بعدها) .
٣ البلاذري ، أنساب (١/٨١) .
٤ الفيل ، رقم ١٠٥ ، الآية ١ وما بعدها ، تفسير الطبري (٣٠/٢٩٩) ، تفسير ابن كثير (٤/٥٤٩) ، الأزرقي (١/٨٥) ، مروج الذهب (٢/٧١) ، الكامل ، لابن الأثير (١/٢٦٠) ، البداية (٢/١٧٠ ، ١٤٥) ، الملل والنحل (٣/٢٧٩) .

وبترك البيت وشأنه لأن للبيت رباً يحميه ، وبعدم التحرش بالحبش وتركهم وشأنهم . والظاهر انه وجد ان عدد الاحباش كان كبيراً وان من غير الممكن مقاومتهم والذبّ عن مكة في الوادي . ثم انها حرم آمن ، لا يجوز القتال فيه ، وليس فيها حصون وآطام يُتَحصَّن بها ، لهذا رأى الرحيل عن الوادي والاحتماء برؤوس الجبال ، والاشراف منها على الدروب والطرق ، فذلك انفع واحمى للمال وللنفس . ثم ان من الممكن مباغتة الحبش منها ومهاجمتهم وانزال خسائر بهم حين يشاؤون ويقررون ، على حين تكون القوة والمنعة في ايدي الأحباش لو حصروا انفسهم بمكة ، اذ يكونون في منخفض بينما العدو على شُرف يشرف عليهم ، وليس في امكانهم مقاومته ، وليس لهم حصون ولا مواضع دفاع . فتكون الغلبة لأبرهة حتماً ، وقد نجحت فكرة عبد المطلب ، ولم يُصب اهل مكة بسوء .

وقد كان من عادة اهل مكة ، انهم اذا داهمهم الخطر توقّلوا الجبال واعتصموا بها ، ولما حاصرهم الرسول عام الفتح ، هرب اكثرهم واعتصموا برؤوس الجبال ، اذ ليس في امكانهم الحرب والصمود في البطحاء .[1]

ومات (عبد المطلب) بعد ان جاوز الثمانين . مات في ملك (هرمز بن أنو شروان) ، وعلى الحيرة قابوس بن المنذر ، أخو (عمرو بن المنذر) على رواية ، وعمر الرسول ثمان سنين . ومعنى ذلك انه توفي في حوالي السنة (٥٧٨) للميلاد . ولما حمل على سريره ، جزّت نساء (بني عبد مناف) شعورهن ، وشق بعض الاولاد قمصانهم حزناً على وفاته . ودفن بالحجون.[2] وذكر انه لم يقم بمكة سوق اياماً كثيرة لوفاة عبد المطلب .[3]

وذكر ان عبد المطلب كان اول من تحنث بحراء ، وكان اذا أهلّ هلال شهر رمضان ، دخل بحراء فلم يخرج حتى ينسلخ الشهر ، ويطعم المساكين . وكان يعظّم الظلم بمكة ويكثر الطواف بالبيت .[4]

ومن ولد عبد المطلب : عبد الله وهو والد الرسول ، وأبو طالب ، واسمه

١ البلاذري ، انساب (١/٣٥٥) .
٢ البلاذري ، انساب (١/٨٤ وما بعدها) .
٣ البلاذري ، انساب (١/٨٧) .
٤ البلاذري ، انساب (١/٨٤) .

عبد مناف . والزبير ، وعبد الكعبة ، وعاتكة ، وبرّة وأميمة [1] وعدة ولده اثنا عشر رجلاً وست نسوة . [2]

ولم يكن ولد عبد المطلب من رجال مكة الأثرياء ، وكل ما كان عندهم ثراء روحي ، استمدوه من اسم (قصيّ) وهاشم . فكانوا من وجهاء مكة من هذه الناحية . اما من ناحية المادة والمال ، فلم يكونوا من السبّاقين فيه . لقد كانوا وسطا ، وربما كانوا دون اوساط تجار مكة . مات (عبد الله) ، ولم يخلف لأهله شيئاً ، ومات ابو طالب ، وحالته المالية ليست على ما يرام . لقد كانوا تجاراً يخرجون بتجاراتهم على عادة فيهم الى بلاد الشام ، او الى اليمن فيبيعون ويشترون ، ولكنهم على ما يبدو من الاخبار لم يتمكنوا من جمع ثروة تغنيهم وتجعلهم من اغنياء مكة . وقد تُوُفي (عبد الله) وهو في طريقه من (غزة) الى مكة ، وكان قد اقبل بتجارة له ، فنزل بالمدينة وهو مريض ، وتوفي هناك . [3] وأن (عبد المطلب) بعث اليه (الزبير بن عبد المطلب) اخاه ، ودفن في دار النابغة . [4] وأنه ترك عند وفاته (أم أيمن) ، حاضنة الرسول ، وكان يُسمّيها : (أمّي) ، فأعتقها وخمسة اجمال أوارك ، وقطعة غنم ، وسيفاً مأثوراً ، وورقا . [5]

وخرج (ابو طالب) بتجارة له في (عير قريش) ولكنه لم يتمكن من كسب شيء يربحه ويسعده من كل تجاراته . وآية ذلك ان الرسول اخذ منه ابنه (عليّاً) ، ليخفف عنه مشقة الانفاق على ولده ، وأخذ (العباس) (جعفراً) منه لينفق عليه . ووضعٌ مثل هذا لا يدل على يسر . [6] وكانت له مع فقره هذا وجاهة عند اهله وقومه . قيل : (لم يَسُد من قريش مُمِق الا عتبة وأبو طالب ، فانهما سادا بغير مال) . [7] وقال (عليّ) في والده : (ابي ساد فقيراً وما

---

١ الطبري (٢/٢٣٩) (دار المعارف) ،
٢ ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة (١/٨٩) .
٣ الطبري (٢/٢٤٦) (دار المعارف) ، البلاذري ، انساب (١/٩٢) ، ويقال كان عبد المطلب بعثه الى المدينة يمار له تمرا . ويقال : بل أتاهم زائرا لهم ، ويقال بل قدم من غزة بتجارة له .
٤ البلاذري ، أنساب (١/٩٢) ، ابن سعد ، طبقات (١/٩٩) .
٥ البلاذري ، أنساب (١/٩٦) .
٦ ابن الأثير ، الكامل (٢/٣٧) (المنيرية) الطبري (٢/٢١٣) (الحسينية)
٧ السهيلي الروض الأنف (١/١٢١) .

ساد فقير غيره)[1] . وذكر ان عياله كانوا في ضيقة وخدة . لا يكادون يشبعون لقلة ما عندهم[2] .

وعتبة بن ربيعة ، هو أبو هند زوج (أبي سفيان) ، وهي أم معاوية . ويذكر أهل الأخبار أيضاً : (ساد عتبة بن أبي ربيعة وأبو طالب ، وكانا أفلس من أبي المزلق . وهو رجل من بني عبد شمس ، لم يكن يجد مؤنة ليلته ، وكذا أبوه وجدّه وجدّ جدّه كلهم يعرفون بالافلاس)[3] .

ويظهر ان (عبد شمس) و (نوفل) و (مخزوم) ، كانوا قد تمكنوا من منافسة (عبد المطلب) و (آل هاشم) على التجارة ، ومن انتزاع تجارة بلاد الشأم منهم ، ومن مزاحمتهم في الاتجار مع اليمن والعراق ، حتّى حصلوا على ثراء طائل ، صيّرهم من أغنى رجال مكة ، وجعل لهم التفوق على البلد ، حتّى صار رجال من (بني مخزوم) من أغنى رجال مكة. وكذلك رجال من (عبد شمس).

وتعدّ (أيام الفجار) من الحوادث المؤثرة في تأريخ مكة . وهي أفجرة . وانما سميت بذلك لأنها كانت في الأشهر الحرم ، ومن أهمها (فجار البراض) ، نسبت الى (البراض بن قيس) الذي قتل (عروة الرحّال) (عروة بن عتبة الرحال) ، الى جانب (فدك) بأرض يقال لها (أوارة) ، فأهاج مقتله الحرب بين (قريش) ومن معها من (كنانة) وبين (قيس عيلان) ، وكانت الدبرة على (قيس)[4] . وذكر في رواية أخرى ، ان الفجارات الأربعة : فجار الرجل ، أو فجار بدر بن معشر الغفاري ، وهو الفجار الأول ، وفجار القرد ، وفجار المرأة ، والفجار الرابع هو فجار البراض[5] . وان يوم (البراض) أو يوم نخلة، هو أعظم أيّام الفجار ، وكان البراض قد قدم باللطيمة الى مكة، فأكلها، وهي لطيمة (النعمان بن المنذر) ، التي وضع (النعمان) زمامها بيد (عروة بن عتبة الرحال) ، وكان سُمّي الرحال لرحلته الى الملوك . فكان ذلك مما أهاج

١ اليعقوبي (٢/٩) .
٢ البلاذري ، أنساب (١/٩٦) .
٣ السيرة الحلبية (١/١٥٣) .
٤ تاج العروس (٣/٤٦٥) ، (فجر) ، عن حروب الفجار ، العمدة (٢/٢١٨ وما بعدها) .
٥ المسعودي ، مروج (٢/٢٧١) ، تاج العروس (٣/٤٦٥) .

الحرب . وقد رأس قريش : حرب بن أمية ، وكان موضعه في القلب ، وعبد الله ابن جدعان في إحدى المجنبتين ، وهشام بن المغيرة في الأخرى ، فالتقوا بـ (نخلة) ، فاقتتلوا حتى دخلت قريش الحرم ، وجنّ عليهم الليل . فكان اليوم لهوازن[1] .

وذكر ان هذا اليوم قد وقع بعد عشرين سنة من عام الفيل . وقد شهده الرسول وعمره عشرون سنة .

ثم إن قريشاً وبني كنانة لقوا هوازن بشمطة . وعلى بني هاشم : الزبير بن عبد المطلب ، وعلى بني عبد شمس وأحلافها : حرب بن أمية ، وعلى بني عبد الدار وحلفائها : عكرمة بن هاشم ، وعلى بني أسد بن عبد العزى : خويلد بن أسد ، وعلى بني زهرة : مخرمة بن نوفل ، وعلى بني تيم : عبد الله بن جدعان ، وعلى بني مخزوم : هاشم بن المغيرة ، وعلى بني سهم : العاص بن وائل ، وعلى بني جمح : أمية بن خلف ، وعلى بني عديّ : زيد بن عمرو بن نفيل ، وعلى بني عامر بن لؤي : عمرو بن شمس ، وعلى بني فهر : عبد الله بن الجرّاح ، وعلى بني بكر : بلعاء بن قيس ، وعلى الأحابيش : الحليس الكناني ، فالتقوا أول النهار على هوازن ، فصبروا . ثم استحر القتل في قريش ، وانهزم الناس[2] .

وروي ان (البراض بن قيس) لقي (بشر بن أبي خازم) الأسدي الشاعر ، فأخبره الخبر ، وأمر ان يعلم ذلك (عبد الله بن جدعان) و (هشام ابن المغيرة) ، و (حرب بن أمية) و (نوفل بن معاوية الديلي) و (بلعاء ابن قيس) ، فوافى (عكاظا) ، فأخبرهم فخرجوا الى الحرم ، وبلغ (قيساً) الخبر ، فخرجوا في آثارهم فأدركوهم وقد دخلوا الحرم ، ولم تقم في تلك السنة (عكاظ) . ومكثت (قريش) وغيرها من (كنانة) و (أسد) بن خزيمة ومن لحق بهم من الأحابيش ، وهم الحارث بن عبد مناة وعضل والقارة وديش والمصطلق من خزاعة لحلفهم بالحارث بن عبد مناة ، سنة يتأهبون للحرب ، لانذار (قيس) لها . وتأهبت (قيس عيلان) وسارت على (قريش) ، وكان فيها (أبو براء عامر بن مالك بن جعفر) ، و (سُبيع بن ربيعة بن معاوية

---

١ البلاذري ، انساب (٤٣/١ ، ١٠١ وما بعدها) ، السيرة الحلبية (١٥٢/١) .
٢ البلاذري ، أنساب (١٠٢/١ وما بعدها) .

النصري) و (دريد بن الصمة) ، و (مسعود بن معتب الثقفي) و (أبو عروة بن مسعود) و (عوف بن أبي حارثة المرّي) و (عباس بن رعل السُلمي) . واستحدت (قريش) ورؤساؤها (عبد الله بن جدعان) ، و (هشام ابن المغيرة) ، و (حرب بن أمية) و (أبو أحيحة سعيد بن العاص) ، و (عتبة بن ربيعة) ، و (العاص بن وائل) ، و (معمر بن حبيب الجمحي) ، و (عكرمة بن هاشم) ، وخرجوا متساندين . ويقال بل أمرُهم الى عبد الله بن جدعان . فالتقوا فكانت الدبرة أول النهار لقيس على قريش وكنانة ومن ضوى اليهم ، ثم صارت الدبرة آخر النهر لقريش وكنانة على قيس ، فقتلوهم قتلاً ذريعاً . فاصطلحوا على ان عَدّوا القتلى ، وودت قريش لقيس ما قتلت فضلاً عن قتلاهم ، وانتهت الحرب . وقد شهد الرسول هذه الفجار ، ورمى فيها بسهم ، فكان يوم حضر ابن عشرين سنة ، وكان الفجار بعد الفيل بعشرين سنة[1] .

وأغلب حروب الفجار معارك ومناوشات ، ولم تكن حروباً بالمعنى المفهوم من كلمة (حرب) . اما أهميتها وسبب اشتهارها فلوقوعها في شهور حرم ولخروج المتحاربين فيها على سنة قريش ودينهم في تحريم القتال في هذه الشهور . ولهذا السبب حفظ ذكرها وجاء خبرها في كتب أهل الأخبار . وقد كان النصر فيها على كنانة وقريش في الغالب . وهو شيء مفهوم معقول . فقد كانت (قيس عيلان) كما كانت (هوازن) قبائل محاربة تعيش على الغزو والقتال ، بينما كانت (قريش) قبيلة مستقرة اتخذت التجارة لها رزقاً ، كما عاشت على الأرباح التي تجنيها من مجيء الأعراب اليها في مواسم الحج أو أيام العمرة ومن الامتيار من أسواقها . وقوم هذا شأنهم في حياتهم وفي تعاملهم لا يمكن ان يميلوا الى الغزو والقتال ، بل كانوا يحبون حياة السلم والاستقرار ، يشترون السلم ولو عن طريق ترضية الأعراب بتقديم الأموال لهم والهدايا والهبات . لذلك لم يصر رجالها رجال حروب وقتال ، بل صاروا رجال سياسة ومساومة ومفاوضات تنتهي بنتائج طيبة بالنسبة لهم ، لا يمكن ان يحصلوا عليها من القتال .

وقد رأس (الزبير بن عبد المطلب) بني هاشم ، غير ان رئاسته هذه

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/١٢٨) ، السيرة الحلبية (١/١٥٢) .

لم تكن متينة وقد كان في جملة من شهد (حلف الفضول) في دار (عبد الله ابن جدعان)[1] . كما رأس (بني هاشم) في حرب الفجار[2] . وذكر انه كان نديماً لمالك بن عُميلة بن السباق بن عبد الدار[3] . وقد تاجر الزبير مع بلاد الشأم إلا انه لم ينجح في تجارته على ما ظهر ، بدليل انه لم يكن موسراً . وذكر انه كان أحد حُكام العرب الذين يتحاكمون اليهم[4] .

وحلف الفضول من الأحداث المهمة التي يذكرها أهل السير والأخبار في تأريخ مكة . وإذا صحّ ما يذكرونه من انه عقد بعد الفجار بشهور ، وفي السنة التي وقع فيها الفجار الذي حضره الرسول ، ومن ان الرسول حضره وهو ابن عشرين سـنة ، فيجب ان يكون عقد هـذا الحلف قد تم في حوالي السنة (٥٩٠) للميلاد[5] . ويذكر ان الذي دعا اليه هو الزبير بن عبد المطلب[6] .

وقد شهد حلف الفضول بنو هاشم وبنو زهرة وبنو تيم وذكر انهم تعاهدوا على ان يكونوا مع المظلوم حتى يؤدى اليه حقه ، وفي التآسي في المعاش . وقد عقد منصرف قريش من الفجار وكان الفجار في شوّال وعقد الحلف في ذي العقدة[7] . وذكر ايضاً انهم (تحالفوا ألا يُظلم أحد بمكة إلا قاموا معه حتى ترد ظلامته) . وقد ذكره الشاعر (نبيه بن الحجّاج السهمي)[8] . وليس لأهـل الأخبار رأي ثابت عن سبب تسمية هذا الحلف بحلف الفضول . فذكر بعضهم انه سُمّي بذلك لانهم تحالفوا ان يتركوا عند أحد فضلاً يظلمه أحداً إلا أخذوه له منه . وقيل : سُمّي به تشبيهاً بحلف كان قديماً بمكة أيام جرهم على التناصف والأخذ للضعيف من القوي والغريب من القاطن . وسُمّي حلف الفضول ، لانه قام بـه رجال

١ المحبر (ص ١٦٧) .
٢ المحبر (ص ١٦٩) .
٣ المحبر (ص ١٧٦) .
٤ البلاذري ، أنساب (١/٨٨) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/١٢٨ وما بعدها) .
٦ السيرة الحلبية (١/١٥٣ وما بعدها) .
٧ ابن سعد ، طبقات (١/١٢٨ وما بعدها) .
٨ نسب قريش ، (٢٩١) ، الأغاني (١٦/٦٤) .

من جرهم كلهـم يسمى الفضل ، فقيل حلف الفضول جمعاً لأسماء هؤلاء [1] . وذكر انه سُمّي حلف الفضول ، لأن قريشاً قالت : هذا فضول من الحلف ، فسمي حلف الفضول [2] . وقيل لأن قريشاً تعاقدوا فيما بينهم على (مواساة أهل الفاقة ممن ورد مكة بفضول أموالهم) [3] . وهو في بعض الروايات تحالُف ثلاثـة من الفضلين على ألا يروا ظلماً بمكة إلا غيّروه . وأسماؤهم : الفضل بن شراعة ، والفضل بن قضاعـة ، والفضل بن نصاعة . فسُمّي من ثم باسمهـم : حلف الفضول [4] .

وذكر أكثر أهل الأخبار ، ان الغاية التي أريد بها منه ، هي إنصاف المظلومين من أهل مكة ، من الضعفاء والمساكين ومن لا يجد له عوناً ليحميه ويدافع عن حقوقه ، وإنصاف الغرباء الوافدين على مكة من حجاج أو تجـار ، ممن يعتدي عليهم فيأخذ أموالهم أخذاً ويأكلها ولا يدفع لأصحابها عنها شيئاً . فذكر ان رجلاً من (زبيد) من اليمن ، وكان باع سلعة له (العاصَ بن وائل السهمي) ، فمطله الثمن حتى يئس ، فعـلا جبل (أبي قيس) ، وقريش في مجالسها حول الكعبة ، فنادى رافعاً صوته يشكو ظلامته ، ويطلب انصافه مستجيراً بقريش ، فمشت قريش بعضهـا الى بعض ، وكان أول من سعى في ذلك (الزبـير بن عبد المطلب) ، واجتمعت في (دار الندوة) ، وكان ممن اجتمع بهـا من (قريش) (بنو هـاشم) و (بنو المطلب) و (زهـرة) و (تـيم) و (بنو الحارث) ، فاتفقوا على انهم ينصفون المظلوم من الظـالم ، فساروا الى دار عبد الله بن جدعان ، فتحالفوا هنالك [5] .

وذكر ان رجلاً من (بني أسد بن خزيمة) جاء بتجارة فاشتراها رجل من (بني سهم) ، فأخذها السهمي وأبى ان يعطيه الثمن ، فكلّم قريشاً وسألهـا اعانته على أخذ حقه ، فلم يأخذ له أحد بحقه ، فصعد الأسدي (أبا قبيس) ،

١ تاج العروس (٦٣/٨) .
٢ اليعقوبي (١٤/٢) ، (طبعة النجف) .
٣ Kister, p. 124.
٤ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٠٤) .
٥ مروج الذهب (٢٧٠/٢ وما بعدها) ، السيرة الحلبية (١٥٦/١ وما بعدها) ، الثعالبي ، ثمار القلوب (١٤٠) .

وصرخ بشعر يشكو فيه ظلامته ، فتداعت قريش ، وعقدت حلف الفضول .

وقيل لم يكن من (بني أسد) ، ولكنه (قيس بن شيبة السُلمي) ، باع متاعاً من (أبي خلف الجمحي) وذهب بحقه ، فاستجار بـ (آل قصي) ، فأجاروه ، فكان ذلك سبب عقد حلف الفضول[1] . وقيل : بل كان الرجل من (بارق) ، فلما يئس من أخذ حقه من (أبي) ، صعد في الجبل ورفع عقيرته بقوله :

يا للرجال لمظلومٍ بضاعته ... ببطن مكة نائي الدار والنفر
ان الحرام لمن تمت حرامته ... ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فلما سمعه (الزبير بن عبد المطلب) ، أجابه :

حلفتُ لنعقدن حِلفاً عليهم ... وإن كُنّا جميعاً أهل دارِ
نُسمّيه الفضول إذا عقدنا ... يقربه الغريب لذي الجوار

ثم قام وعبد الله بن جدعان ، فدعوا قريشاً الى التحالف والتناصر والأخذ للمظلوم من الظالم ، فأجابوهما ، وتحالفوا في دار عبد الله بن جدعان ، فهذا حلف الفضول[2] .

وذكر ان رجلاً من (خثعم) قدم مكة ومعه بنت وضيئة ، فاغتصبها منه (نبيه بن الحجاج) ، فقيل له عليك بحلف الفضول ، فوقف عند الكعبة ، ونادى : يا لحلف الفضول ، فاجتمعوا حوله ، واستردوا الجارية من نبيه . وقالوا له : (ويحك . فقد علمت من نحن وما تعاهدنا عليه) فأعادها اليه[3] .

ويظهر من هذا الخبر ان حلف الفضول كان قد عقد قبل هذه الحادثة ، وان جماعته كانت شديدة متراصة في دفع الحق الى أهله واسترجاعه ممن اغتصبه كائناً ما كان .

ويظهر ان هذا الحلف استمر قائماً الى وقت ما في الإسلام ، ثم فقد

---

١ اليعقوبي (٢/١٣ وما بعدها) .
٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٤١) ، السهيلي ، الروض الأنف (١/٩١) .
٣ السيرة الحلبية (١/١٥٧) .

قيمته ، فمات . فورد انه كان بين (الحسين بن عليّ بن أبي طالب) وبين (الوليد بن عتبة بن أبي سفيان) منازعة في مال متعلق بالحسين ، فماطله الوليد . (فقال الحسين للوليد : أحلف بالله لتنصفني من حقي أو لآخذن سيفي ثم لأقومن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لأدعون لحلف الفضول ، فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقه) [1] .

وقد تفسر دعوة (الحسين) المذكورة ، بأن الحسين ، لم يقصد بقوله (لأدعون لحلف الفضول) ، الحلف القديم المعروف ، وانما قصد لأدعون لحلف كحلف الفضول ، وهو نصرة المظلوم على ظالمه . وقد أيده على حقه جماعة ، منهم عبد الله بن الزبير ، مما دفع الوليد على ارجاع حق الحسين ، خشية وقوع فتنة وتدخّل في هذه الخصومة [2] . ومعنى هذا أننا لا نستطيع ان نستنتج من الخبر المتقدم ، ان حلف الفضول كان قد بقي الى ذلك العهد .

ويرجع حلف الفضول الى أحلاف سابقة على ما يتبين من أخبار أهل الأخبار . الى عهد (هاشم) والى ما قبل أيام هاشم . والظاهر ان أهل مكة ، بعد ان اجتمعوا وتكتلوا في وادٍ ضيق وفي أرض فقيرة ، وجدوا ان من العسير عليهم رؤية حفنة منهم وقد استأثرت بالمال والغنى ، بينما عاش الكثير بينهم في فقر وفاقة . وانهم ان أصموا آذانهم عن سماع نداء الإغاثة ، فإن حالة من الذعر ، ستسود مدينتهم . لذلك تواصوا فيما بينهم على مواساة أهل الفاقة وجبْر خاطر المحتاج ، وعلى تراحمهم فيما بينهم وتواصلهم . وكان مما فعلوه لرفع مستوى الفقير ، وللقضاء على الفوارق الكبيرة التي صارت فيما بين سادات مكة وسوادها ، ان حثوا كل مكيّ على المناهمة في أموال القوافل ، حتى اذا ما عادت رابحة ، وُزّعت أرباحها على هؤلاء ايضاً ، كلّ حسب مقدار ما ساهم به من مال في القافلة . وبذلك خفف أهل مكة من حدة التضاد الذي كان بين النقيضين . وأمنوا من تطاول الشباب الفقراء على الأغنياء . بأن فتح بعض الأغنياء أبواب بيوتهم

١ السيرة الحلبية (١٥٧/١) .
٢ السيرة الحلبية (١٥٧/١) .

للجياع ، فآووهم وساعدوهم على نحو ما جاء في شعر لمطرود بن كعب الخزاعي إذْ يقول :

هبلتك أمك لو حللت بدارهم ضمنوك من جوع ومن اقراف [1]

وقوله :

والخالطين غنيهـــم بفقيرهـــم حتى يصير فقيرهم كالكافي [2]

والعطف على الفقراء ومواساة الضعفاء وذوي الحاجـــة من خـــلال الأشراف السادات . لانهم إن لم يغيثوا الغائث ويرحموا المسكين فمن يرحمهم إذن على وجه هذه الأرض ! وقد مدح من يخلط الفقير بالغني فيساوي بينهما ، وذم من يبيت شبعاناً وجاره يبيت خامصاً لا شيء عنده يعتمد عليه [3] .

وكان من أهم الأحداث التي وقعت في أيام الرسول ، يوم كان في الخامسة والثلاثين ، بناء الكعبة . بسبب سيل ملأ ما بين الجبلين ، ودخـــل الكعبة حتى تصدعت ، أو بسبب حريق أصاب أستار الكعبة ، فتصدعت ، فعزمت قريش على بنائها ، فهدمتها وأعادت بناءها . وذكر ان قريشاً كانت قد أفردت ببناء كل ربع من أرباع البيت قوماً ، وكان ذلك بقرعة بينهم . فلما انتهوا الى موضع الحجر الأسود ، اختلفوا فيمن يضعه وتشاحّوا عليه ، فرضوا بأول من يدخل من الباب . فكان أول من دخل رسول الله ، فوضعه بيده ، بعـــد ان قال : ليأت من كل ربع من قريش رجل ، وبذلك فض النزاع [4] . ويجب ان يكون حادث بناء البيت إذن في حوالي السنة (٦٠٥) للميلاد .

---

١ اليعقوبي (٢١٤/١) ، (طبعة النجف ١٩٦٤ م) .

٢ (فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير ، حتى صار فقيرهم كغنيهم ، فجاء الاسلام وهم على هذا ، فلم يكن في العرب بنو أب أكثر مالا ولا أعز من قريش ، وهو قول شاعرهم :

والخالطون فقيرهم بغنيهم حتى يصير فقيرهم كالكافي

فلم يزالوا كذلك حتى بعث الله رسوله) ، تفسير القرطبي ، (٢٠٥/٢٠) ، الطبرسي ، مجمع البيان (٥٤٦/١٠) ، (طبعة طهران) ، البلاذري ، أنساب (٥٨/١) ، ابن العربي ، محاضرات الأبرار (١٩/٢) .

٣ القالي ، الأمالي (١٥٨/٢) . Kister, P. 123.

٤ البلاذري ، أنساب (٩٩/١) ، ابن رسته ، الاعلاق النفيسة (وكان النبي صلى الله عليه وسلم ، يومئذ قد ناهز الحلم) ، (ص ٢٩) .

وجهاء مكة :

وكان امر مكة الى وجهاء امرها ، مثل (بنو مخزوم) ، و (بنو عبد شمس) ، و (بنو زهرة) و (بنو سهم) و (بنو المطلب) و (بنو هاشم) و (بنو نوفل) و (بنو عديّ) و (بنو كنانة) و (بنو اسد) و (بنو تَيْم) و (بنو جمح) و (بنو عبد الدار) و (بنو عامر بن لؤيّ) و (بنو محارب بن فهر) وذكر بعض اهل الاخبار ، ان الشرف والرياسة في قريش في الجاهلية في (بني قصيّ) ، لا ينازعونهم ولا يفخر عليهم فاخر . فلم يزالوا ينقاد لهم ويرأسون . وكانت لقريش ست مآثر كلها لبني قصيّ دون سائر قريش . منها الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء والرياسة . فلما هلك (حرب بن امية) ، وكان حرب رئيساً بعد المطلب ، تفرقت الرياسة والشرف في (بني عبد مناف) . فكان في بني هاشم : الزبير وأبو طالب وحمزة ، والعباس بن عبد المطلب . وفي بني امية : ابو احيحة ، وهو سعيد بن العاص بن امية ، وهو (ذو العمامة) ، كان لا يعتم احد بمكة بلون عمامته اعظاماً له . وفي بني المطلب : عبد يزيد بن هاشم بن المطلب . و (عبد يزيد) هو (المحض لا قذى فيه) وفي (بني نوفل) : المطعم بن عديّ بن نوفل . وفي بني اسد بن عبد العُزى : خويلد ابن اسد ، وعثمان بن الحويرث بن اسد . وقد كانت النبوة والخلافة لبني عبد مناف ، ويشركهم في الشورى : زهرة وتيم وعدي وأسد . [1]

وقد اختص (بنو كنانة) بالنسيء . فكان نسأة الشهور منهم . وهم (القلامسة) . وكانوا فقهاء العرب والمفتين لهم في دينهم . [2] فكانتهم اذن بين الناس هي مكانة روحية ، فبيدهم الفقه والافتاء .

ومكة وان كانت مجتمعاً حضرياً ، اهله اهل مدر في الغالب ، غير انهـا لم تكن حضرية تامة الحضارة بالمعنى الذي نفهمه اليوم ، لأن الحياة فيها كانت مبنية على اساس العصبية القبليـة . المدينة مقسمة الى شعاب ، والشعاب هي وحدات اجتماعية مستقلة ، تحكمها الاسر ، وبين الاسر نزاع وتنافس على الجاه والنفوذ .

١ المحبر (ص ١٦٤ وما بعدها ، ١٦٩) .
٢ المحبر (ص ١٥٦) .

نزاع وان لم يقلق الأمن ويعبث بسلام المدينة ، الا انه اثر في حياتها الاجتماعية اثراً خطيراً ، انتقلت عدواه الى ايام الاسلام .

لقد حاول بعض رؤسائها ووجوهها التحكم بأمر مكة ، واعلان نفسه ملكاً عليها يحلي رأسه بالتاج شأن الملوك المتوّجين ، ولكنه لم يفلح ولم ينجح . حتى ذكر ان بعضهم التجأ الى الغرباء ، لمساعدتهم بنفوذهم السياسي والمادي والعسكري في تنصيب انفسهم ملوكاً عليها ، فلم ينجحوا ، كالذي ذكروه عن (عثمان بن الحويرث بن اسد بن عبد العزى) ، المعروف بـ (البطريق) ، من انه طمع في ملك مكة ، فلما عجز عن ذلك ، خرج الى قيصر ، فسأله ان يملكه على قريش ، وقال : احملهم على دينك ، فيدخلون في طاعتك ، ففعل ، وكتب له عهداً وختمه بالذهب ، فهابت قريش (قيصر) وهمّوا ان يدينوا له ، ثم قام الاسود بن المطلب ، ابو زمعة ، فصاح ، والناس في الطواف : ان قريشاً لقاح ! لا تملك ولا تملك ، وصاح الاسود بن اسد بن عبد العزى : الا ان مكة حي لقاح ، لا تدين للملك . فاتسعت قريش على كلامه ، ومنعوا عثمان مما جاء له ، ولم يتم له مراده ، فمات عند ابن جفنة . فاتهمت بنو اسد ابن جفنة بقتله .[١] وابن جفنة هو عمرو بن جفنه الغساني .[٢]

ولم يكن عثمان بن الحويرث اول زعيم جاهلي فُتن بالملك وبلقب ملك،الحبيب الى النفوس ، حتى حمله ذلك على استجداء هذا اللقب والحصول عليه بأية طريقة كانت ، ولو عن سبيل التودد الى الأقوياء الغرباء والتوسل اليهم ، لمساعدتهم في تنصيبهم ملوكاً على قومهم . ففي كتب اهل الاخبار والتواريخ اسماء نفر كانوا على شاكلته ، فتنهم الملك وأعماهم الطمع وحملهم ضعف الشخصية وفقر النفس حتى على التوسل الى الساسانيين والروم ، لتنصيبهم على قومهم ومنحهم اللقب الحبيب ، ووضع التاج على رأسهم ، في مقابل وضع انفسهم وقومهم في خدمة السادة المساعدين اصحاب المنة والفضل .

لقد استمات عثمان بن الحويرث في سبيل الحصول على ملك مكة ، حتى ذكر

١ نسب قريش (٢٠٩ وما بعدها) ، الروض الأنف (١٤٦/١) .
٢ جمهرة ابن حزم (١٩٠) ، الروض الأنف (١٤٦/١) ، نسب قريش (٢٠٩ وما بعدها) .

انه تنصر وتقرب بذلك الى الروم ، وحسنت منزلته عندهم . ومن يدري ؟ فلعلّه كان مدفوعاً مأموراً حرضه الروم ودفعوه للحصول على المدينة المقدسة ، ليتمكنوا بذلك من السيطرة على الحجاز والوصول الى اليمن والسيطرة على العربية الغربية والعربية الجنوبية . واخضاع جزيرة العرب بذلك لنفوذهم . ولقد جمع القوم ورغّبهم وانذرهم وحذرهم بغضب الروم عليهم ان عارضوا مشروعه وقاوموا تنصيبه ملكاً عليهم . قائلاً لهم : (يا قوم ، ان قيصر قد علمتم امانكم ببلاده وما تصيبون من التجارة في كنفه . وقد ملكني عليكم ، وأنا ابن عمكم ، وأحدكم ، وانما آخذ منكم الجُراب من القرظ والعكة من السمن والأوهاب ، فأجمع ذلك ، ثم اذهب اليه . وأنا اخاف ان ابيتم ذلك ان يمنع منكم الشام ، فلا تتجروا به وينقطع مرفقكم منه) .[1]

واذ صحّ ان هذا الكلام هو كلام (عثمان بن الحويرث) حقاً ، وانه خاطب به قومه لحثهم على الاعتراف به ملكاً على مكة ، فانه يكون كلام رجل عرف من اين يكلم قومه ، وكيف يأتيهم ! فقد هددهم بأن الروم سيمنعونهم من الاتجار مع الشام ان خالفوه ولم يبايعوه ولم يسلّموا له بالملك ، وقد كلفه (قيصر) به . لأنه يعلم ان تجارة قريش مع بلاد الشام هي مصدر من اهم مصادر رزقهم . ولهذا ظن بأنهم سيخضعون له ويقبلون بما جاء به . ولكن أشراف مكة من اصحاب المال والنفوذ ، لم يحملوا هذا التهديد محمل الجد ، فالروم لا يهمهم امر (عثمان) كثيراً ، ثم ان تهديدهم بقطع تجارة قريش مع الشام ، تهديد لا يمكن تحقيقه ، وحدود الشام طويلة ومفتوحة ، ولعلّهم وجدوا ان كلام (عثمان) هو ادعاء لم يصدر عن الروم ، تفوه به ، من حيث لا يعلمون . فلم يقيموا له وزناً .

ولم يذكر اهل الاخبار شيئاً عن لقب (البطريق) الذي منحوه لـ (عثمان ابن الحويرث) .[2] ولا اظن ان الروم قد منحوه له ، لأنهم لم يكونوا يمنحون هذا اللقب المهم الا لكبار العاملين في خدمتهم ، ممن ادى لهم خدمات جليلة ، ولا اظن انه يشير الى درجة دينية ، لأنه لم يشتهر بين النصارى شهرة كبيرة ولم ينل من العلم والمكانة ما يؤهله لأن يكون (بطرياركاً) على الكنيسة . وقد ذكر

---

١ الروض الأنف (١/١٤٦) .

٢ نسب قريش (٢٠٩ وما بعدها) ، الروض الأنف (١/١٤٦) .

علماء اللغة ان (البطرق) ، القائد ، معرب ، وهو الحاذق بالحرب وأمورها ، وهو ذو منصب عند الروم [1] . فلا يعقل ان يكون (عثمان) ، قد نال هذه المنزلة عند البيزنطيين . وهي منزلة لم ينلها إلا بعض ملوك الغساسنة مع صلتهم القوية بهم .

ومما يذكره أهل الأخبار عن (عثمان) هذا ، انه كان في رؤساء حرب الفجار من قريش . وانه كان من (بني أسد بن عبد العزّى) ، وانه كان أحد الهجائين [2] .

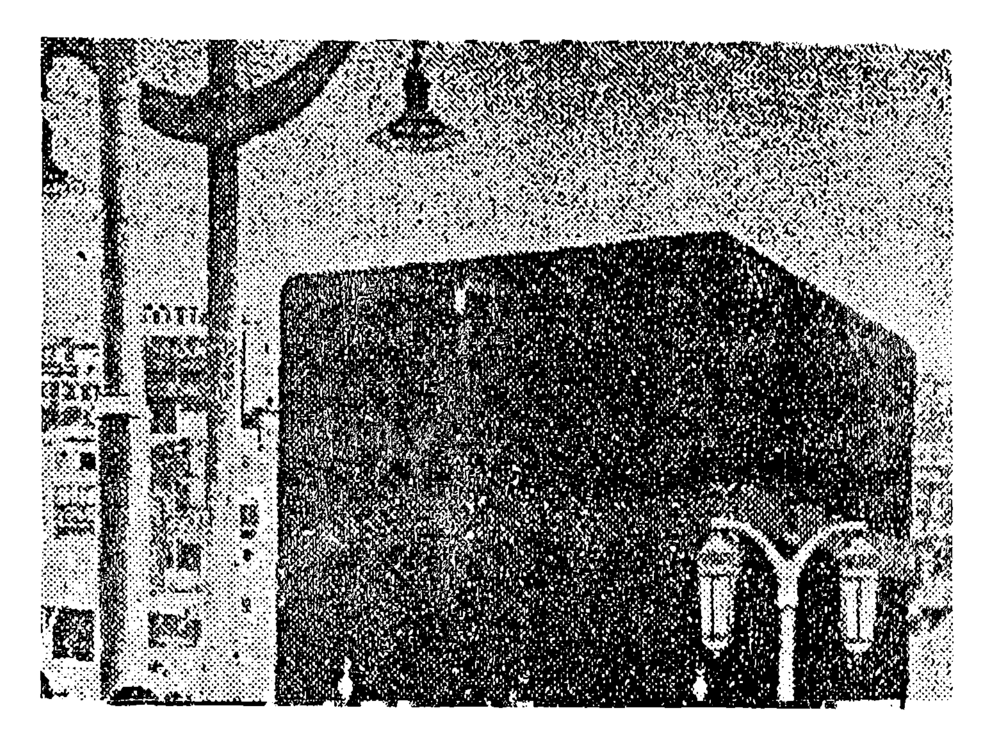
ومن وجهاء مكة وساداتها المقدمين المعروفين : عبد الله بن جدعان ، وكان ثرياً واسع الثراء ، كما كان كريماً ، أسرف في أواخر عمره في إكرام الناس وبالغ في اعطائهم حتى حجر رهطه عليه لما أسن ، فكان اذا أعطى أحداً شيئاً ، رجعوا على المعطى فأخذوه منه . فكان اذا سأل سائل ، قال : (كن مني قريباً اذا جلست ، فإني سألطمك ، فلا ترضَ إلا بأن تلطمني بلطمتك ، أو تفتدى لطمتك بفداء رغيب ترضاه) [3] . والى هذا الحادث أشار ابن قيس الرقيات :

والذي إن أشار نحوك لطماً   تبع اللطم نائل وعطاء [4]

وينسبه النسّابون الى (بني تيم بن مُرّة) ، ويقولون في نسبه إنه (عبد الله ابن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرّة) . وهو ابن عم والد الخليفة (أبي بكر) [5] ، ويذكرون (انه كان في ابتداء أمره صعلوكاً ترب

١ اللسان (١٠/٩) ، (بطرق) .
٢ الاشتقاق (٥٩) ، نسب قريش (٢١٠) ، المحبر (١٦٥ ، ١٧٠) .
٣ المحبر (ص ١٣٨) ، نسب قريش ، (٢٥٦) ، عيون الأخبار ، لابن قتيبة (٣٣٥/١) ، تاريخ الخميس (٢٥٦/١) ، سمط النجوم (٢٠١/١ وما بعدها).
٤ المحبر (ص ١٣٨) ، نسب قريش (٢٩٣) ، وهو من (بني تيم) ، وقد أخطأ المستشرق (ليفي بروفنسال) أو من اشرف نيابة عنه على طبع كتاب (نسب قريش) ، فصير (بنو تيم) (بنو تميم) ، راجع (ص ٢٩٢ س ١٠) ، و (ص ٢٩٣ س ١) . والخطأ خطأ مطبعي ولا شك ، ولأهميته اشرت اليه .
٥ ابن خلدون ، القسم الأول ، المجلد الثاني (ص ٦٧٤) (بيروت) ابن كثير ، البداية والنهاية (٢١٧/٢) (مطبعة السعادة) ، ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب (١٣٦) .

اليدين ، وكان مع ذلك شريراً فاتكاً ، لا يزال يجني الجنايات فيعقل عنه أبوه وقومه ، حتى أبغضته عشيرته ، ونفاه أبوه ، وحلف ان لا يؤويه أبداً ، فخرج في شعاب مكة حائراً مائراً يتمنى الموت ان ينزل به ، فرأى شقاً في جبل ، فظن ان فيه حيَّة ، فتعرض للشق يرجو ان يكون فيه ما يقتله فيستريح ، فلم يجد شيئاً ، فدخل فيه) ، فإذا به أمام غار هو مقبرة من مقابر ملوك (جرهم) ، وفيه كنوز وأموال من أموالهم ثمينة من بينها (ثعبان) مصنوع من ذهب ، له



الكعبـة الشريفـة

عينان من ياقوت . ووجد جثث الملوك على أسرّة ، لم يرَ مثلها ، وعليها ثياب من وشي ، لا يُمَسُّ منها شيء إلا انتثر كالهباء من طول الزمان ، فأخذ من الغار حاجته ثم خرج ، وعلَّم الشق بعلامة ، وأغلق بابه بالحجارة ، وأرسل الى أبيه بالمال الذي خرج بـه منه يسترضيه ويستعطفه ، ووصل عشيرتـه كلهم ، فسادهم ، وجعل ينفق من ذلك الكنز ، ويطعم الناس ، ويفعل المعروف . وكان

كلما احتاج الى مال دهب . فاستخرج ما يحتاج اليه من ذلك الكنز حتى صار من أغنى أغنياء مكة[1] .

فثراء (عبد الله بن جدعان) هو من هذا الكنز على زعم رواة هذه القصة التي يتصل سندها بـ (عبد الملك بن هشام) راوية (كتاب التيجان) ، وهو كتاب مليء بالأقاصيص والأساطير . وقد تكون القصة صحيحة . فعثور الناس على كنوز ودفائن من الأمور المألوفة ، وقد عثر غيره ممن جاؤوا قبله أو جاؤوا بعده على كنوز ، بل ما زال الناس حتى اليوم يعثرون عليها مصادفة أو في أثناء الحفر والتنقيب . والشيء الغريب فيها هو هذا التزويق والتنميق ، وهو أيضاً شيء مألوف بالنسبة الينا ، وغير غريب وقد تعودنا قراءته ، فمن عادة القصاصين ورواة الأساطير والأباطيل الإغراب في كلامهم والكذب فيه لأسباب لا مجال لذكرها هنا ، وعلى رأس هذه الطائفة (وهب بن منبه) ، صاحب (كتاب التيجان) .

وذكر انه لثرائه كان لا يشرب ولا يأكل إلا بآنية من الذهب والفضة ، فعرف لذلك بـ (حاسي الذهب)[2] .

ويذكر أهل الأخبار ان (عبد الله بن جدعان) كان نخاساً ، له جوار يساعين ، ويبيع أولادهن . فكانت جواريه تؤجر للرجال ، وما ينتج عن هذا السفاح من نسل ، يربى ، فيبقي منه عبد الله ما يشاء ويبيع منه ما يشاء[3] . ولكنه مع اتجاره بالرقيق ، وعلى النحو المتقدم ، كان كما يقولون يعتق الرقاب ويعين على النوائب ، ويساعد الناس ويقضي الحاجات[4] ، ولا سيما بعد تقدمه في السن .

١ البداية والنهاية ، لابن كثير (٢/٢١٧ وما بعدها) ، تاريخ الخميس (١/٢٥٥) ، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المالكي ، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، (١/١٩٩) ، ابن الأثير ، الكامل (١/٣٥٩) .
٢ أيام العرب (٢٤٨) .
٣ المسعودي ، مروج (٤/١٥٤) (طبعة باريس) ، الثعالبي ، لطائف المعارف (١٢٨) (الأبياري) ، المعارف ، لابن قتيبة (٥٧٦) .
٤ البداية ، لابن كثير (٢/٢٢٩) .

ولا يستبعد ان يكون ما ذكره أهل الأخبار عن (عبد الله بن جدعان) ، هو من صنع حساده ومبغضيه ، ممن حسدوه على ما بلغ اليه بمكة من مركز وجاه . ومثل هذا التشنيع على الناس شائع مألوف . لا سيما وقد كان في الأصل فقيراً غير موسر ، فغني بجده واجتهاده فتقوّل عليه حساده من أهل زمانه تلك الأقوال .

وقد عرف (ابن جدعان) بإكرام الناس وبالإنفاق على أهل مدينته وروى أهل الأخبار أمثلة عديدة على جوده وسخائه . من ذلك ما رووه من انه كان قد وضع جفنة كبيرة ملأها طعاماً ليأكل منها الناس ، وكانت الجفنة على درجة كبيرة من السعة بحيث غرق فيها صبي كان قد سقط فيها . وذكروا ان الرسول قال : لقد كنت أستظل بظل جفنة عبد الله بن جدعان صكّة عُميّ ، أي وقت الظهيرة [1] . ووصفوا الجفنة فقالوا إنها (كانت لابن جدعان في الجاهلية . يطعم فيها الناس ، وكان يأكل منها القائم والراكب لعظمها) [2] . يأكل الراكب منها ، وهو على بعيره من عرض حافتها وكثرة طعامها [3] .

وذكروا انه كان يطعم التمر والسويق ويسقي اللبن ، حتى سمع قول أمية بن أبي الصلت :

ولقد رأيت الفاعلين وفعلهم ... فرأيت أكرمهم بني الديّان
البر يُلبك بالشهاد طعامهم ... لا ما يُعللنا بنو جُدعان

فبلغ ذلك عبد الله بن جدعان ، فوجه الى اليمن من جاءه بمن يعمل الفالوذج بالعسل ، فكان أول من أدخله بمكة . وجعل منادياً ينادي كل ليلة بمكة على ظهر الكعبة ان هلموا الى جفنة ابن جدعان . فقال أمية بن أبي الصلت :

له داعٍ بمكة مشمعل ... وآخر فوق كعبتها ينادي [4]
الى ردحٍ من الشيزى ملاءٍ ... لُباب البر يلبك بالشهاد [5]

---

١ ابن كثير ، البداية (٢/٢١٧) ، اللسان (١٠/٤٥٧) ، عيون الاخبار (٣/٢٦٨) (كتاب الطعام) .

٢ ابن كثير ، البداية (٢/٢١٧) ، سمط النجوم (١/١٩٩) ، اللسان (١٠/٤٥٧) .

٣ ابن كثير (٢/٢٢٩) .

٤ وفي رواية أخرى (فوق داره) بدلا من (فوق كعبتها) ، وهناك اختلافات أخرى في رواية هذه الابيات وغيرها .

٥ البداية (٢/٢١٧) ، ذيل الامالي والنوادر ، للقالي (٣٨) ، الاغاني (٨/٣٢٩) .

ويذكر اهل الاخبار ان (أمية) كان قد أتى (بني الديان) فدخل على (عبد المدان بن الديان) من بني الحارث بن كعب بنجران ، فاذا به على سريره ، وكأن وجهه قمر ، وبنوه حوله ، فدعا بالطعام ، فأتي بالفالوذج ، فأكل طعاماً عجيباً ، ثم انصرف فقال في ذلك الشعر المذكور ، فلما بلغ شعره (ابن جدعان) ، ارسل ألفي بعير الى الشام تحمل اليه البر والشهد والسمن ، وجعل له منـاديين ينادیان : احدهما بأسفل مكة والآخر بأعلاها ، وكان احدهما سفيان بن عبد الاسود ، والآخر أبا قحافة ، وكان احدهما ينادي : ألا من اراد اللحم والشحم ، فليأت دار ابن جدعان ، وينادي الآخر : ان من اراد الفالوذج فليأتِ الى دار ابن جدعان . وهو اول من اطعم الفالوذج بمكة . [١]

وذكر (الجاحظ) ان من اشرف ما عرفه اهل مكة من الطعام ، هو (الفالوذ) ولم يطعم الناس منهم ذلك الطعام ، الا عبد الله بن جدعان . [٢]

ولبعض اهل الاخبـار رواية اخرى في كيفية وقوف (ابن جدعان) على الفالوذ (الفالوذج) وادخاله الى مكة ، وترجع هذه الرواية مصدره الى الفرس ، فيقول : وفد (ابن جدعان) على كسرى ، فأكل عنده الفالوذ ، فسأل عنه ، فقيل له : هذا الفالوذ . قال : وما الفالوذ ؟ قالوا : لُباب البُرّ يُلْبَكُ مع عسل النحل . فأعجبه ، فابتاع غلاماً يعرف صنعه ، ثم قدم به مكة معه ، ثم امره فصنع له الفالوذ بمكة ، فوضع الموائد بالأبطح الى باب المسجد ، ثم نادى مناديه : ألا من اراد الفالوذ فليحضر ، فحضر الناس . فكان فيمن حضر أُميَّة ابن أبي الصلْت . [٣]

وذكر انه كان يضع (الحَيْس) على انطاع على الارض ليأكل منها القاعد والراكب . والحَيْس : الأقطُ يخلط بالتمر والسمن . وقد يجعل عوض الأقطِ الدقيقُ والفَتيت . وقيـل ، الحَيْس : التمر والأقطُ يُدقّان ويعجنان بالسمن عجناً شديداً حتى يندر النوى منه نواةً نواةً ، ثم يسوّى كالثريد . وهو الوَطْبة ايضاً ، الا ان الحَيْس ربما جُعل فيه السويق ، واما الوطبة فلا . [٤]

١ سمط النجوم (١/١٩٩) ، ذيل الامالي والنوادر (٣٨) .
٢ البخلاء (٢١٠) (طه الحاجري) .
٣ الاغاني (٨/٣٢٩) .
٤ الجاحظ ، الحيوان (٣/٤٠٣) ، لسان العرب (٦/٦١) .

ويروي اهل الاخبار ان اهل مكة كانوا يفدون على مائدة (ابن جدعان) ، وأن رسول الله كان فيمن حضر طعامه .[1]

وروي ان الرسول لما امر بأن يستطلع خبر القتلى من قريش يوم بدر ، وأن تلتمس جثة (ابي جهل) في القتلى ، قال لهم : (انظروا ان خفي عليكم في القتلى ، الى اثر جرح في ركبته ، فإني ازدحمت يوماً انا وهو على مأدبة لعبد الله ابن جـدعان ، ونحن غلامان ، وكنت اشف منه بيسير ، فدفعته فوقع على ركبتيه) ، فخدشت ساقه وانهشمت ركبته ، فأثرها باقٍ في ركبته). فوجدوه كذلك .[2]

ويذكر اهل الاخبار ان (عبد الله بن جدعان) كان قد مثل قومه (بني تيم) في الوقت الذي ارسلته قريش الى (سيف بن ذي يَزَن) ، واسمه (النعمان بن قيس) ، لتهنئته بظفره بالحبشة ، واخراجهم من وطنه . وكان هذا الوفد في وفود من العرب جاءته لتهنئته ، وفيها شعراء وأشراف وسادات قبائل . وقد كان في وفد قريش : عبد المطلب بن هاشم ، وأمية بن عبد شمس ، وخويلد بن أسد ، ووهب بن عبد مناف . وقد قدمت تلك الوفود الى صنعاء ، ودخلت قصره : قصر غُمدان .[3]

ويروى ان عبد الله بن جدعان كان عقيماً ، لم يولد له ولد.[4] فتبنى رجلاً سمّاه (زهيراً) ، وكنّاه (ابا مليكة) ، فولده كلهم ينسبون الى (ابـي مليكة) . وفقد (ابو مليكة) فلم يرجع .[5]

وكانت له بئر بمكة تسمى (الثريا) . وقد ذكر ان (بني تَيْم) حفروها .[6]

١ اللسان (١٠/٤٥٧) ، أيام العرب (٣٢٩) .
(٢/٢١٧) .
٢ ابن هشام (٢/٢٨٨) ، سمط النجوم (٢/٢٠٢) ، البداية ، لابـن كثـير
٣ ابن عساكر ، التاريخ الكبير ، (١/٣٦١) ، العقد الفريد (٢/٢٣) (لجنـة التاليف) ابن كثير ، البداية والنهاية (٢/٣٢٨) .
٤ المحبر (ص ٩٧) ، (ومن ولده : عبدالله بن عبيدالله بن عبدالله بن أبي مليكـة ابن عبدالله بن جدعان ... وعلي بن عبدالله بن أبي مليكة بن عبدالله بن جدعان)، نسب قريش (٢٩٣) .
٥ المعارف (ص ٤٧٥) ، المحبر (ص ٣٠٧) .
٦ الحموي ، المشترك (٨٧) ، البلدان (٢/٧٧) ، الأزرقي ، أخبار مكـة (٤٤٠) (لايبزك) .

وذكر ان دار عبد الله بن جدعان كانت في (ربع بني تيم) ، وكانت شارعة على الوادي .[1] وكانت داراً فخمة ، وبقيت مشهورة معروفة بمكة حتى بعد وفاته .

وبهذه الدار عقد (حلف الفضول) ، وذلك لشرفه ومكانته بين اهل مكة اذ ذاك . ولثرائه الضخم دخل كبير في ذلك ، ولا شك . وقد صنع للمدعوين طعاماً كثيراً قدمه اليهم ، ثم عقد الحلف . وكان الرسول ممن شهده ، وهو ابن عشرين او خمس وعشرين . وكان يتذكره ويقول : (لقد شهدت في دار عبد الله ابن جدعان حلفاً ما أحبّ ان لي به حمر النعم . ولو دعي به في الاسلام لأجبت) .[2] او (اما لو دعيت في الاسلام لأجبت ، وأحبّ ان لي به حمر النعم . واني نقضته وما يزيده الاسلام الا شدة) .[3]

وقد تكون حلف الفضول من هاشم ، و (المطلب) ، و (أسد) ، و (زهرة) ، و (تيم) ، وربما من (بني الحارث بن فهر) ايضاً . وهم الذين كونوا حلف المطيبين . ولذلك ذهب بعض الباحثين الى ان حلف الفضول ، هو استمرار للحلف المذكور ، اذ تألف من الأسر التي كانت ألفت ذلك الحلف ما خلا (بني عبد شمس) و (بني نوفل) . وكان قد وقع نزاع بين (نوفل) و (عبد المطلب ابن هاشم) ، فعلّه كان السبب في عدم انضمام (نوفل) الى هذا الحلف . وقد تعاون (نوفل) و (عبد شمس) ، ووجدا في استطاعتهما التعاون بينهما من غير حاجة الى الدخول في حلف الفضول . ولهذا لم يكن حلف الفضول ، في نظر هؤلاء ، غير حلف من احلاف الأسر ، ولم يكن على رأيهم لنصرة الضعيف وانصاف المظلوم ، على نحو ما جاء في روايات اهل الاخبار .[4]

---

١ أخبار مكة (ص ٤٦٨) (لايبزك) .

٢ المقدسي ، البدء والتاريخ (٤/١٣٧) ، تاريخ الخميس (١/٢٦١) ، النويري ، نهاية الارب (٦/٢٦٧) ، البخلاء (٢/١٢) ، ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة (١٥/٢٠٣) ، طبقات ابن سعد (١/١٢٦ ، ١٢٨) ، مروج (٤/١٢٢ وما بعدها) (باريس) .

٣ النويري ، نهاية الارب (٦/٢٦٧) ، سمط النجوم العوالي ، (١/١٩٠) ، ابن هشام (١/١٩٠) ، البداية (٢/٢٩١ وما بعدها) ، ابن خلدون (القسم الاول ، المجلد الثاني ص ٧٠٦ وما بعدها) ابن الاثير ، الكامل (ذكر حلف الفضول) ، اللسان (١١/٥٢٧) .

٤ Annali, I, 164, Watt, Muhammad at Mecca. p 6,

وروي انه لمكانة (عبد الله) التي بلغها عند قومه وعند العرب ، كانت العرب اذا قدمت عكاظ دفعت اسلحتها اليه حتى يفرغوا من اسواقهم وحجهم ، ثم يردها عليهم اذا ظعنوا .

وكان يحافظ على الأمانات محافظة شديدة . فلما جاءه (حرب بن امية) ، صديقه ، وهو من وجهاء مكة وأثريائها كذلك ، قائلاً له : احتبس قبلك سلاح هوازن وذلك يوم نخلة من ايام الفجار الثاني ، اجابه ابن جدعان : أبالغدر تأمرني ، يا حرب ؟ والله لو اعلم انه لم يبق منها سيف الا ضربت به ، ولا رمح الا طعنت به ، ما امسكت منها شيئاً . ثم أبى الا تسليم السلاح اليهم .[1]

وقد اسهم (ابن جدعان) في ايام الفجار ، وكان على (بني تيم) .[2] وأمد قومه بالسلاح والمال ، فأعطى مئة رجل سلاحاً تاماً كاملاً ، وذلك (يوم شمطة) غير ما ألبس من بني قومه والأحابيش .[3] وحمل مئة رجل على مئة بعير ، وقيل : ألف رجل على ألف بعير ، وذلك (يوم شرب) .[4] او يوم عكاظ .[5] وله أخ اسمه (كللة بن جدعان) قتل في الفجار .[6]

وكان (ابن جدعان) يشرب الخمر على عادة الجاهليين في شربها ، بقي يشربها حتى كبر ، فعافها . ودخل فيمن عاف الخمر على كبره من سادات قريش وأشرافها . وكان من عادتهم اذا كبروا ولعب بهم العمر ، حرموا شرب الخمر على انفسهم . (ما مات احد من كبراء قريش في الجاهلية الا ترك الخمر استحياء مما فيها من الدنس . ولقد عابها ابن جدعان قبل موته) .[7]

ويروون في سبب تركه لها قصتين : قصة تقول انه عافها لأنه سكر مرة

١ أيام العرب (٣٢٩) .
٢ ابن الاثير ، الكامل (٣٥٩/١ وما بعدها) ، تاريخ الخميس (٢٥٥/١) ، البدء والتاريخ (١٣٤/٤ وما بعدها) .
٣ ابن الاثير ، الكامل (٣٦١/١) ، الصحاح (٧٧٨/٢) ، نهاية الارب (٤٢٧/١٥ وما بعدها) أيام العرب (٣٣١) .
٤ سمط النجوم (١٩٦/١) ، نهاية الارب (٤٢٩/١٥) .
٥ أيام العرب (٣٣٤) .
٦ نسب قريش (٢٩١) .
٧ الاغاني (٣٣٢/٨) ، نسب قريش ، (٢٩٢ وما بعدها) .

ففقد رشده فاعتدى على أمية بأن لطم عينه ، فندم على ما فعل حين سمع بالخبر ، وقال : (وَبَلَغَ مني الشراب ما أبلغ معه من جليس هذا المبلغ ؟ فأعطاه عشرة آلاف درهم ، وقال : الخمر عليّ حرام ، ألا لا أذوقها ابداً) ثم قال شعراً في ذم الخمر وفي وصف حاله اذ ذاك .[1]

ومن الرقيق الذي كان في ملك (ابن جدعان) واكتسب شهرة في الاسلام (صهيب الرومي) . بيع في سوق النخاسة ، ثم وضع في شراء (ابن جدعان) ، وبقي في ملكه الى ان هلك سيده ، ويقال انه اعتقه وهو في حياته وأنه لازمه حتى مماته .[2]

وقد كان (ابن جدعان) يلتزم من يستجير به ، ويحمي من يأوي اليه . وكان (الحارث بن ظالم) قاتل (خالد بن جعفر بن كلاب) ، وهو في جوار ملك الحيرة في جملة من لجأ الى (ابن جدعان) حين طلبه ملك الحيرة ، وبقي في جواره وبمكة حتى أتاه ملك الحيرة . ويقال ان (الحارث بن ظالم) قدم على عبد الله بن جدعان بعكاظ ، وهم يريدون حرب قيس . فلذلك نكس رمحه ، ثم رفعه حين عرفوه وأمن . وكانوا اذا خافوا فوردوا على من يستجيرون به ، او جاءوا لصلح ، نكسوا رماحهم . ويوم عكاظ من ايام الفجار .[3]

ورجل ثري وجيه له مكانة ومنزلة عند بني قومه ، لا بد ان يصير مرجعاً للناس ، يرجعون اليه في المنازعات والخصومات ، ليحكم بينهم بما لديه من رجاحة عقل وسلطان ، لذلك كان في جملة حكام العرب ، الذين تحوكم اليهم .[4]

ولأمية بن ابي الصلت شعر في مدح (عبد الله بن جدعان) ، نجده في ديوان أمية وفي كتب الأدب . وقد كان من المقربين عند (أبي زهير) .[5] ومن المكرمين له بسخاء . وكان يعطيه دائماً ، ونجد لأمية شعراً يطلب فيه من

١ نهاية الارب (٤/٨٨) .
٢ المعارف (٢٦٤) ، أنساب الاشراف (١/١٨٠) .
٣ أنساب الاشراف (١/٤٢ وما بعدها) .
٤ البخلاء (ص ٢١٤) .
٥ الجاحظ البيان والتبيين (١/١٧) الاغاني (٨/٣٢٧ وما بعدها)

(ابن جدعان) اعطاه مالاً .[1]

وكان هلاك (ابن جدعان) قبل سنوات من المبعث.[2] وذكر (البلاذري) ان هلاكه كان (قبل المبعث ببضع عشرة سنة .[3] ولما مات دفن بمكة .[4] وذكر في رواية اخرى انه دفن بموضع (برك الغماد) ، وراء مكة بخمس ليال بينها وبين اليمن مما يلي البحر او بين حلي وذهبان .

وفيه يقول الشاعر :

سقى الامطار قبر ابي زهير   الى سقف الى برك الغماد[5]

ومن رجال مكة الأغنياء (الاسود بن المطلب) المعروف بـ (أبي زمعة) . و (زمعة) ابنه ، قتل يوم (بدر) في جملة من قُتل من رجال قريش . وكان يقال له : (زاد الركب)[6]. وقد عرف ولده الأسود بـ (زاد الركب) كذلك[7] . وكان الأسود ممن ادرك ايام الرسول وعارضه ، وعدّه (ابن حبيب) في جملة المستهزئين من قريش بالرسول ، وممن مات كافراً ، بعد ان اصابه العمر[8] .

وكان (الأسود) نديماً للأسود بن عبد يغوث الزهري . وكانا من اعز قريش في الجاهلية ، وكانا يطوفان بالبيت متقلدين بسيفين سيفين . وكانا من المستهزئين بالرسول[9] . وذكر ان (الأسود بن عبد يغوث) كان اذا رأى المسلمين ، قال لأصحابه : (قد جاءكم ملوك الارض الذين يرثون ملك كسرى وقيصر . ويقول للنبي ، صلى الله عليه وسلم : اما كلمت اليوم من السماء ، يا محمد ؟

---

١ أأطلب حاجتي ؟ أم قد كفاني   حياؤك ؟ ان شيمتك الحياء
ابن عساكر ، التاريخ الكبير (٣/١٢٢) .
٢ الإصابة (٢/٢٧٩) ، البداية (٢/٢١٨) ، تأريخ الخميس (١/٢٥٦) ، سمط النجوم (١/٢٠٢) .
٣ أنساب الاشراف (١/١٨٠) .
٤ المعارف (ص ١٧٥) .
٥ تاج العروس (٧/١٠٧) ، (بـرك) .
٦ الاشتقاق (ص ٥٨) ، نسب قريش (٢١٨ وما بعدها) .
٧ المحبر (ص ١٣٧) .
٨ المحبر (ص ١٥٩) ، البلاذري ، أنساب (١/١٤٩ وما بعدها) .
٩ المحبر (١٧٤) .

وما اشبه هذا القول). مات حين هاجر النبي ، ودفن بالحجون . [1]

وكان (زمعة بن الأسود) ، تاجراً ، متجره الى الشام . وعرف بالدقة في العمل وفي وضع خطط سفره وتجارته . (فكان اذا خرج من عند ابيه في سفر ، قال : أسير كذا وكذا ، وآتي البلد يـــوم كذا وكذا ، ثم اخرج يوم كذا وكذا ، فلا يخرم مما يقول شيئاً) . [2]

ومن سادات قريش : (يزيد بن زمعه بن الاسود) . وكانت اليه المشورة . وذلك ان رؤساء قريش لم يكونوا يجتمعون على امر حتى يعرضوه عليـــه ، فان وافقه ، ولاّهم عليه ، والا تخير ، وكانوا له اعواناً . وقد اسلم ، واستشهد مع الرسول بالطائف . [3]

ويعد حرب بن امية من وجهاء مكة وسيداً من سادات كنانة . وكان امر كنانة كلها اليه يوم شمطة . [4] واشترك يوم عكاظ ، وقيد نفسه ومعه سفيان وأبو سفيان بن امية بن عبد شمس ، وذلك كي يثبتوا في اماكنهم ، ويتقوى بذلك قومهم فيثبتوا في القتال . [5] وكان من اثرياء مكة المعروفين .

ومن سادات مكة : (هشام بن المغيرة ، بن عبد الله بن عمر بن مخزوم) ، وكان له ولبنيـــه صيت بمكة وذكر عالٍ . [6] وذكر انه كان سيد قريش في دهره . ولما مات صار يوم موته من ايام مكة المشهورة ، حتى انهم أرّخوا بموته . [7] ونادى منادي مكة في امثال هذه المناسبات : (اشهدوا جنازة ربكم) . وكان سيداً مطعـــاماً . [8] وظل يوم وفاة (هشام) يوماً يؤرخ به سبع سنين الى ان

١ البلاذري ، انساب (١/١٣١ وما بعدها) .
٢ المحبر (ص ١٥٨ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (١/٢٤٩) .
٤ أيام العرب (٣٣١) .
٥ أيام العرب (٣٣٤) .
٦ الاشتقاق (٦٠)
٧ واصبح بطن مكة مقشعرا كان الارض لبس بها هشام
الاشتقاق (٩٢) ، نسب قريش (٣٠١) .
٨ الاشتقاق (٦٣) ، المحبر (١٣٩) ، المعارف (٣٢) .

كانت السنة التي بنوا فيها الكعبة ، فأرخوا بها .[1] وهو من الرجال الذين نعتوا بين قومهم بـ (زاد الركب) ، لأنه كان يقري المسافرين الذين يسافرون معه.[2]

ومن ابناء (هشام بن المغيرة) المذكور (ابو جهل) و (الحارث بن هشام). اما (الحارث بن هشام) ، فقد عرف بالكرم والجود . ذكر ان داره كانت مفتوحة للضيوف . يدخلون واذا جفان مملوءة خبزاً ولحماً . وهو جالس على سرير يحث الناس على الأكل . ويروى ان (ابا ذر) قدم مكة معتمراً ، فقال : (اما من مضيف ؟) قالوا : (بلى كثير وأقربهم منزلاً الحارث بن هشام) . فأتى بابه ، فقال : (اما من قرى ؟) . فقالت له جارية : (بلى) . فأخرجت اليه زبيبا في يدها . فقال : (ولِمَ لَمْ تجعليه في طبق ؟) فعُلم انه ضيف . وقالت : (ادخل) فدخل . فاذا بالحارث على كرسي وبين يديه جفان فيها خبز ولحم وأنطاع عليها زبيب . فقال : (أصب) . فأكل ثم قال : (هذا لك). فأقام ثلاثاً ثم رجع الى المدينة ، فأخبر النبي خبره . فقال : (انه لسري ابن سري . وددت انه أسلم) .[3] وكان نديماً لحكيم بن حزام بن خويلد ابن اسد .[4]

وأما (أبو الحكم : عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ابن مُرّة) . فكان من رجال (بني مخزوم) المعدودين ، ومن المعادين للإسلام ، بل كان على رأس أشد الناس عداوة للرسول . وقد كنّاه الرسول بـ (أبي جهل) لأنه كان يكنى قبل ذلك بـ (أبي الحكم) فاشتهر بهذه الكنية ، حتى لم يعد يعرف إلا بها في الإسلام[5] . وكان من المقتسمين . وهم سبعة عشر رجلاً من قريش ، اقتسموا عقاب مكة . فكانوا اذا حضروا الموسم يصدون الناس عن رسول الله . وفيهم نزلت : (كما أنزلنا على المقتسمين)[6].

---

١ المحبر (١٣٩) ، الاغاني (١٥/١١) .
٢ الاشتقاق (٩٢) .
٣ المحبر (ص ١٣٩ وما بعدها) نسب قريش (٣٠١) .
٤ المحبر (ص ١٧٦) .
٥ المحبر (ص ١٣٩) ، البلاذري ، أنساب (١/١٢٥) .
٦ المحبر (١٦٠) .

وكان من المطعمين لحرب يوم بدر . نحر عشراً[1] . وكان نديماً للحكم بن أبي العاص بن أمية . و (الحكم) هذا هو الطريد[2] .

وأخبر (ابن الكلبي) ، ان اخوين من (بني سليم) ، دخلا مكة معتمرين فما وجدا بها شراءً ولا قرى . فبينا هما كذلك إذ رأيا قوماً يمضون ، فسألا (أين هؤلاء القوم ؟) فقيل لهما : يريدان الطعام . فمضيا في جملتهم حتى أتوا داراً فولجوها . فإذا رجل آدم ، أحول ، على سرير وعليه حلة سوداء واذا جفان مملوءة خبزاً ولحماً . فقعدوا فأكلوا . فشبع أحد الأخوين وقال لأخيه : (كم تأكل ؟ أما شبعت ؟) . فقال الجالس على السرير : (كل فإنما جعل الطعام ليؤكل) . فلما فرغوا خرجوا من باب الدار غير الذي دخلوا منه . فإذا هم بإبل موقوفة . فقالوا : (ما هذه الإبل ؟) قيل : للطعام الذي رأيتم . وكان الرجل الجالس على السرير : صاحب الطعام . فإذا به أبو جهل بن هشام[3] .

ويظهر انه كان قاسياً قسا حتى على النساء ، فعذب عدداً منهن بنفسه عذاباً أليماً . عذب (زنيرة) ، وكانت لبني مخزوم حتى عميت ، وعذب غيرها حتى هلكت ، وممن هلكن (سمية) أم عمار بن ياسر[4] . وكان يأتي من يسلم ، فيكلمه ليفتنه عن دينه : يأتي الرجل الشريف ، ويقول له : أتترك دينك ودين أبيك ، وهو خير منك ؟ ويقبح رأيه وفعله ، ويسفه حلمه . وان كان تاجراً يقول له : ستكسد تجارتك ، ويهلك مالك . وان كان ضعيفاً ، أوصى بمن يعذبه ، حتى يترك دينه . جاء مرة دار أبي بكر ، فلما لم يجده لطم خدّ أسماء ابنته لطمة طرح قرطها . وكان فاحشاً بذيئاً[5] .

ويذكر أهل الأخبار انه كان لا يبالي في أكل حقوق الغرباء القادمين الى

١ المحبر (١٦١) .
٢ المحبر (ص ١٧٦) .
٣ (فاذا هو أبو جهل بن هشام) ، هكذا في نهاية الخبر . بينما الخبر يخص (الحارث ابن هشام ، كما جاء في أوله ، راجع المحبة (ص ١٣٩) ، ويظهر أن مراده من الخبر الثاني الخاص بالاخوين : (أبا جهل) ، لانه كان أحولا كما هو بهذا الخبر ، وقد كان أبو جهل من الحولان الاشراف ، المحبر (ص ٣٠٣) .
٤ ابن الاثير ، الكامل (٤٧/٢ وما بعدها) .
٥ ابن الاثير ، الكامل (٤٧/٢ وما بعدها) .

مكة ، فماطل مرة في أثمان إبل اشتراها من رجل من (أراش) ، وماطل مرة أخرى في إبل أخذها من رجل من (زبيد) ، ولم يدفع أثمانها ولم يعوض عنها إلا بالتجاء الرجلين الى النبي ، فأخذ حقها منه ، وانتصف منه . ويظهر ان (أبا جهل) وان كان قاسياً بغيضاً للرسول مؤذياً له ، غير انه كان يخشاه اذا رآه ووقف أمامه ، وأما ايذاؤه له ، فكان بانتهاز غفلة يعتدي فيها على الرسول ، أو بتحريض غيره للتحرش به[1] .

وعرف (عمرو بن عبد الله بن صفوان بن أمية) بالجود . وذكر انه كان معرقاً به . كان جوادا ابن جواد ابن جواد ابن جواد[2] .

وكان الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، من أشراف مكة وسادتها . وقد عرف بين قومه بـ (العدل) . وذكر انه إنما عرف بذلك ، لأنه كان يعدل قريش كلها ، فكانت قريش تكسو الكعبة جميعها ، ويكسوها الوليد وحده ، وذلك لثرائه وغناه . قيل انه كان له مال وزع بالطائف ، وكان عملك حديقة بها غرس فيها الأشجار والفواكه[3] . وقد كان لذلك متعالياً متغطرساً ، فلما أظهر الرسول الإسلام ، كان مثل بقية سراة مكة وأغنيائها من المعادين له ، لأنه أنف ان يتبع رجلاً هو دونه في المال والاسم والثراء . فكافح الإسلام ، واستهزأ بالرسول وبالإسلام ، وكان أحد (المستهزئين) الذين نزلت بحقهم آيات تعنفهم وتوبخهم وتصفهم بالكفر وبالغرور والاستكبار ، وانه كان يرى ان من الذلة الخضوع للرسول لأنه دونه مالاً ونفراً[4] .

وقد كان (الوليد) الحكّام الذين تحوكم اليهم ، واليه تحاكم بنو عبد مناف في موضوع قتل (خداش) إنساناً منهم[5] . وقد عرف بـ (ابن صخرة) نسبة الى أمه[6] . وذكر انه كان في جملة من حرّم في الجاهلية الخمر على نفسه

---

١ البلاذري ، انساب (١/١٣٠) .
٢ المحبر (ص ١٤٠ وما بعدها) .
٣ Ency., IV, P. 111.
٤ تفسير الطبري (٥/٣٦) ، ابن هشام (١/٧٢ وما بعدها) .
٥ المحبر (ص ٣٣٧) .
٦ المحبر (ص ٣٣٧) .

وضرب فيها ابنه هشاماً على شربها[1] . وقد عدّه (ابن حبيب) في جملة زنادقة قريش ، وذكر انه وجماعته تعلموا الزندقة من نصارى الحيرة[2] ، ولم يفسر قصده من الزندقة .

ويذكرون ان (الوليد) كان أسنّ قريش يوم حكم في قضية (خداش) ، وحكم فيها بـ (القسامة) ، فكان بذلك أول من سنّ (القسامة) في قريش[3] .

ومات الوليد بعد الهجرة بثلاثة أشهر أو نحوها ، ودفن بالحجون[4] . وذكر (محمد بن حبيب) ان (أبا أحيحة) كان نديماً للوليد بن المغيرة . على عادة القوم في اتخاذ الندماء[5] .

وأبو (أحيحة) هو سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ، المعروف بـ (ذي العمامة) ، لأنه كان لا يعتم أحد بمكه بلون عمامته إعظاماً له[6] . كما عرف بـ (ذي التاج) وذلك للسبب نفسه[7] . وقد ذكره (أبو قيس بن الأسلت) في شعر ينسب اليه[8] . وكان مثل أكثر رجال قريش تاجراً . قدم مرة الشأم في تجارة ، فحبسه (عمرو بن جفنة) ، حبسه مع هشام بن سعد العامري ، وبقي في محبسه حتى جاء بنو عبد شمس ، فافتلوه بمال كثير[9] .

وكان أبو أحيحة ممن أخذتهم العزة من أشراف مكة ، فلم يقبلوا الدخول في الإسلام . وممن أظهر عداوته للرسول ، خاصة بعد تحريض النضر بن الحارث والوليد بن المغيرة له على معاداته . وقد كان مثل سائر أشراف مكة يرى ان الأمر العظيم يجب ان يكون في العظماء . وهو من العصبة التي أشير اليها في هذه

---

١ المحبر (٢٣٧) .
٢ المحبر (١٦١) .
٣ المحبر (ص ٣٣٧) .
٤ البلاذري ، أنساب (١/١٣٤) .
٥ المحبر (١٧٤) ، البلاذري ، أنساب (١/١٣٤) .
٦ المحبر (ص ١٦٥) ، الاشتقاق (ص ٤٩) .
٧ الطبري (٢/٣٩٨) ، المحبر (١٦٥) ، البلاذري ، أنساب (١/١٤١) .
٨ البيان والتبيين (٣/٩٧) ، البلاذري ، أنساب (١/١٤١) .
٩ البيان والتبيين (٣/٩٧) ، الاصابة (٣٨٥٩) .

الآية : (وقالوا لولا نزل هــذا القرآن على رجل من القريتين عظم ، أهــم يقسمون رحمة ربك ؟)[1] .

وقد مات أبو أحيحة بماله في الطائف في السنة الأولى ، أو في السنة الثانيــة من الهجرة . مات كافراً ، وقد بني له قبر مشرف . وقد رأى أبو بكر قبره ، فسبه ، فسبّ ابناه أبا قحافة ، فنهى النبي عن سبّ الأموات ، لمــا يثير ذلك من عداوة بين الأحياء ، ولما فيه من إهانة للأموات[2] .

وقد ساهم (أبو أحيحة) بثلاثين ألف دينار في رأس مال القافلة التي تولى قيادتها أبو سفيان . ومبلغ مثل هذا ليس بشيء قليل بالنسبة الى الوضع المالي في تلك الأيام .

ومن سادة قريش : الأسود بن عامر بن السبّاق بن عبد الدار بن قصي[3] .

ومن رجال بني فهر : ضرار بن الخطاب بن مرداس بن كبير بن عمرو بن حبيب بن عمرو بن شيبان بن محارب . وكان فارس قريش في الجاهلية ، وأدرك الإسلام . وكان شاعراً فارسياً ، وقد أخذ مرباع بني فهر في الجاهلية[4] .

ومن رجال بني عامــر بن لؤي : عمرو بن عبد ودّ بن أبـي قيس . كان فارس قريش في الجاهلية ، بل فارس كنانة . قتله علي بن أبي طالب[5] . ومن (بني عبد ودّ) ، سهيل بن عمرو ، وكان من رجال قريش في الجاهلية ، ثم أسلم ، وهو الذي بعثته قريش يحكم الهدنة بينهم وبين النبي يوم الحديبية[6] .

ومن سادات قريش : قيس بن عديّ بن سعد بن سهم . وقد ضرب بــه المثل في العز ، حتى قيل : (كأنه في العزِ قيس بن عديّ) . وكان يأتي الخمار وبيده مقرعة ، فيعرض عليه خمره ، فإن كانت جيدة ، وإلا قال له : (أجد

١ الزخرف ، الرقم ٤٣ الآية ٣١ وما بعدها ، البلاذري ، أنساب (١٤١/١) .
٢ الطبري (/٣٩٨) ، أنساب الاشراف (١٤٢/١) .
٣ الاشتقاق (ص ١٠٠) .
٤ الاشتقاق (ص ٦٤) .
٥ الاشتقاق (ص ٦٨) .
٦ الاشتقاق (ص ٦٩) .

خمورك ، ثم يقرع رأسه وينصرف)[1] . وذكر انه كانت له قينتان يجتمع اليهما فتيان قريش : أبو لهب وأشباهه ، وهو الذي أمرهم بسرقة الغزال من الكعبة ، ففعلوا ، فقسمه على قيانه ، وكان غزالاً من ذهب مدفونـاً ، فقطعت قريش رجالاً ممن سرقه ، وأرادوا قطع يد أبي لهب ، فحمته أخواله من خزاعة[2] . وذكر ان (مقيس بن عبد قيس بن قيس بن قيس بن عديّ بن سعد بن سهم) ، هو صاحب قصة الغزال[3] .

وكان (الحارث بن قيس بن عديّ بن سعد بن سهم) ، أحد المستهزئين المؤذين لرسول الله ، وهو (ابن الغيطلة) . وهو الذي نزلت فيه : (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) . وكان يأخذ حجراً ، فإذا رأى أحسن منه تركه وأخذ الأحسن . وكان دَهْرياً يقول : (لقد غرّ محمد نفسه وأصحابه ان وعدهم ان يحيوا بعد الموت ، والله ما يهلكنا إلا الدهر ومرور الأيام والأحداث)[4] .

وممن اشتهر من بني عبـد شمس : (عتبة بن ربيعة بن عبد شمس)[5] ، وكان نديماً لمطعم بن عديّ بن نوفل بن عبد مناف[6] .

اما أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبـد شمس بن مناف ، ويكنى أيضاً بأبي حنظلة ، فكان مثل سائر رجال مكة تاجراً صاحب أسفار ، ثرياً ، جمع مالاً من تجارته . وكان صاحب (عير قريش) ، فهو المؤتمن عليها ، وهو قائدها ، وهو رجل جد خبير بالطرق والمسالك . وقد نجح في كل أسفاره ، وأوصل تجارة مكة الى أماكنها سالمة مضمونة . فلم يتمكن المسلمون من مفاجأته وأخذه مع أموال قريش وتجارتهم العظيمة التي تحت قيادته ، حينما كان قافلاً من

---

١ المحبر (ص ١٧٨) ، جمهرة النسب (١٥٦) .

٢ فلذلك يقول بعض شعرائها :

همو منعوا الشيخ المنافيّ بعدما رأى حمة الازميل فوق البراجم

الاشتقاق (٧٦) .

٣ شرح ديوان حسان (٤٧) ، (للبرقوقي) .

٤ البلاذري ، انساب (١٣٢/١) .

٥ المحبر (ص ١٦٠) ، ابن هشام ، السيرة (٢٦٢/٢) .

٦ المحبر (ص ١٧٥) .

بلاد الشأم يريد مكة ، اذ أحسّ بالخطر ، فغير طريقه ، وسلك طريق الساحل ، وأفلت مع قافلته ورجالها ، وعدتهم سبعون ، ووصل الى مكة سالماً ، فنشبت على أثر ذلك معركة بدر[1] .

وكانت قيادة قريش في الحرب الى أبي سفيان أيضاً ، ورثها من أبيه[2] . ورجل له فضل قيادة عير قريش ، وقيادة مكة في الحرب ، لا بد ان يكون في مقدمة سادات مكة وعلى رأس طبقتها المحافظة ذات العنجهية ، التي ترى ان لها حق الرئاسة والزعامة ، والكلمة والرأي .

وليس لأحد مكانة إلا اذا كان ذا مال وجاه وحسب . وعلى الباقين طاعة السادة ، ومراعاة سنن الآباء والأجداد ، والإخلاص لعبادة الآباء والأجداد ، والدفاع عن آلهة الكعبة التي كانت السبب في اعطاء قريش منزلة خاصة عند العرب .

وكان فضلاً عن هذا وذاك رجلاً صاحب لسان ، ينظم الشعر ويجيد الهجاء ، ويحسن النزول الى أسوأ مستوى يصل اليه السوقي والحوشة من الإقذاع في الكلام وإلحاق الأذى بالناس . وقد أظهر قابلياته في ذلك في عناده ضد الإسلام وفي ايذائه الرسول وفي الحاقه الأذى بالمسلمين . وقد هيأ كل ما عنده من مواهب وكفايات وقدرات مالية لمقاومة الإسلام ولمحاربة الرسول وللقضاء على الدعوة التي جاءت مقوضة لديانة الآباء والأجداد من عبادة الأصنام ، ومن المحافظة على العرف ، ومن تحطيم الزعامة ، والخضوع لحكم الفقراء والرقيق . وفي القرآن الكريم آيات نزلت في حقه . وقد كان من المحرضين العاملين في معركة أحد[3] . ويذكر انه ذهب الى الشأم واتصل بـ (هرقل) وأخذ يحرضه على الرسول ، ولكن الروم لم يبالوا بتحريضه ، فعاد الى مكة[4] .

---

١ الطبري (١٣١/٢) .

٢ اخبار مكة (٦٦/١) .

٣ (البداية (٩/٤) ، (المطبعة السلفية) اليعقوبي (٣٥/٢) ، الطبري (١٥٧/٢) (الاستقامة) الطبرسي ، مجمع (سورة آل عمران ، الآية ١٧٢) .

٤ الاغاني (٣٢٩/٦) ، (بيروت ١٩٥٦ م) ، تهذيب ابن عساكر (٧٣) .

ويُعدّ (عبد العزّى بن عبد المطلب) من هذا الرعيل من وجهاء مكة الذين حاربوا الرسول ، ونصبوا له العداوة . كان موسراً ، جمع مالاً طائلاً ، كما يفهم ذلك من (سورة المسد) : (ما أغنى عنه ماله وما كسب) . وكان من التجار ، له تجارة مع بلاد الشأم [1] . وكاو من هؤلاء الذين أبوا التنكر لدين آبائهم وأجدادهم وإطاعة رجل فقير ، وهم أكثر منه مالاً ، وأكبر سناً . روي ان رسول الله كان بسوق ذي المجاز يقول : (أيها الناس . قولوا : لا إله إلا الله ، تفلحوا) وإذا برجل يأتي من خلفه ويرميه بحجارة ، أدمت ساقيه وعرقوبيه ، وهو يقول للناس : انه كذاب لا تصدقوه [2] .

ويُعَدّ (أبو لهب) وهو (عبد العزّى) ويكنى ايضاً بـ (أبي عتبة) ، من هذه الطبقة الوجيهة المعروفة من قريش . وهو عم الرسول [3] ، وكان مع ذلك من الذين حملوا حقداً شديداً عليه . وكانت زوجته تحرضه على معاداته وايذائه ، وفي حقهما نزلت سورة (تبت) . وهي السورة الحادية عشرة من السور التي نزلت بمكة على رأي أكثر العلماء .

وكان بيته في جوار بيت رسول الله . فذكر ان رسول الله قال : كنت بين شرّ جارين : بين أبي لهب وعقبة بن أبي معيط ، ان كانا ليأتيان بالفروث فيطرحونها في بابي . وكان النبي يقول : يا بني عبد مناف ، أي جوار هذا ؟ ثم يميطه عن بابه [4] .

ويذكر أهل الأخبار ان هنالك عشرة أبطن من بطون قريش انتهت اليهن الشرف في الجاهلية ، ووصل في الإسلام ، وهم ، أمية ، ونوفل ، وعبد الدار ، وأسد ، وتيم ، ومخزوم ، وعديّ ، وجمح ، وسهم [5] .

---

١ حاشية الشهاب (٤٠٩/٨) .
٢ الطبرسي (٥٥٩/١٠) .
٣ ابن أبي الحديد (٨٩/١) .
٤ البلاذري ، أنساب (١٣١/١) .
٥ العقد الفريد (٣١٣/٣ وما بعدها) .

كسب مكة :

ومكة كما ذكرت بلد في وادٍ غير ذي زرع ، لذلك كان عماد حياة أهلها التجارة ، والأموال التي تجبى من القوافل القادمة من الشأم الى اليمن والصاعدة من اليمن الى الشأم ، وما ينفقه الحجيج القادمون في المواسم المقدسة ، للتقرب الى الأصنام . وهناك مورد آخر درّ على أثرياء هذه المدينة المقدسة ربحاً كبيراً ، هو الربا الذي كانوا يتقاضونه من إيداع أموالهم الى المحتاجين اليها من تجار ورجال قبائل .

لقد استفادت مكة كثيراً من التدهور السياسي الذي حلّ باليمن ، ومن تقلص سلطان التبابعة ، وظهور ملوك وأمراء متنافسين ، إذْ أبعد هذا الوضع خطر الحكومات اليمانية الكبيرة عنها ، وكانت تطمع فيها وفي الحجاز ، لأن الحجاز ، قنطرة بين بلاد الشأم واليمن . ومن يستولي عليه يتصل ببلاد الشأم ، وبموانىء البحر الأبيض المهمة . وأعطى تدهور الأوضاع في العربية الجنوبية أهل مكة فرصة ثمينة عرفوا الاستفادة منها . فصاروا الواسطة في نقل التجارة من العربية الجنوبية الى بلاد الشأم ، وبالعكس . وسعى تجار مكة جهد إمكانهم لاتخاذ موقف حياد تجاه الروم والفرس والحبش ، فلم يتحزبوا لأحد ، ولم يتحاملوا على طرف ، وقوّوا مركزهم بعقد أحلاف بينهم وبين سادات القبائل ، وتوددوا اليهم بتقديم الألطاف والمال اليهم ، ليشتروا بذلك قلوبهم . وقد نجحوا في ذلك ، واستفادوا من هذه السياسة كثيراً .

وفي القرآن اشارة الى تجارة مكة ، والى نشاط اهلها ومتاجرتهم مع الشام ، واليمن : (لإيلاف قريشٍ ايلافهم رحلة الشتاء والصيف) .[1] قال المفسرون :

ان رحلة الشتاء كانت الى اليمن ، اما رحلة الصيف فكانت الى بلاد الشام . وانهم كانوا يجمعون ثروة طائلة من الرحلتين تدر على قريش خيراً كثيراً ، وتعوضهم عن فقر بلادهم .

ويظهر ان اهل هذه المدينة كانوا يسهمون جميعاً في الاتجار ، فيقدم المكّي

١ سورة قريش ، الآية الاولى .

افريقية والعربية الجنوبية ، كما اخذ ملوك الحيرة يرسلون بـ (لطائمهم) الى اليمن للبيع والشراء .

وقد اثر هذا الوضع في تجارة اهل مكة اثراً كبيراً ، اذ انتزع الفرس وملوك الحيرة من ايديهم قسطاً من ارباحهم ، وربما لا يبعد ان يكون الهجوم الذي وقع على (لطيمة) (النعمان بن المنذر) ملك الحيرة ، بتشجيع من اهل مكة ، ذلك الهجوم الذي عرف بـ (الفجار) ، وذلك للإضرار بالفرس وبملوك الحيرة ، ولتخويف القوافل التي صارت تسلك طريق (الطائف) ، ثم منها الى مواضع في البادية الى الحيرة متجنبة طريق مكة .[1]

وكانت (الشعيبة) ميناء مكة ، اليها ترد السفن قبل جُدَّة ، ثم أخذت جُدّة موضعها في ايام الخليفة عثمان بن عفّان .[2]

وقد قصدت ميناء (الشعيبة) سفن الروم وسفن الحبش ، اذ كانت السفن القادمة من افريقية ، لبيع تجارتها لأهل مكة ، ترسو في هذا الميناء .

ويظهر من كتب اهل الاخبار ان تجار مكة لم يكونوا يملكون سفناً خاصة بهم ، لنقل تجارتهم الى موانىء افريقية ، او لنقل ما يشترونه من الموانىء الافريقية لتصريفه في اسواق العراق او اسواق بلاد الشام . فنحن لا نكاد نجد في هذه الكتب شيئاً يفيد ان اهل مكة كانوا يملكون سفناً يسيرها بحارة منهم . بل نجد انهم كانوا يركبون سفناً حبشية ، عند ذهابهم الى الحبشة . وهي سفن لم تكن شيئاً بالقياس الى سفن الروم في ذلك العهد .

ولمركز مكة ونشاطها في التجارة ، توافد عليها ايضاً تجار من الخارج من بلاد الشام ومن العراق ومن بلاد الروم والفرس وغيرهم . ساكنوا المكيّين ، وتحالفوا مع أثريائهم ، ومنهم من اقام فيها في مقابل دفع جزية لحمايته ولحفظ امواله وتجارته . وكان تجار بلاد الشام خاصة يجلبون القمح والزيوت والخمور الجيدة الى تجار مكة . وقد اتخذوا مستودعات فيها لخزن بضاعتهم هذه ولتصريفها .

١ الازرقي ، أخبار مكة (١٢٨) ، المرزوقي ، الازمنة والامكنة (٢/١٦١) ، الاغاني (٦/٦٤) ، (بيروت ١٩٥٦ م) ، صبح الاعشى (١/٤٠١ وما بعدها) .

٢ البلدان (٥/٢٧٦) ، Ency., III, p. 440.

ولا يستبعد (أوليري) ان يكون من بين تجار الروم في مكة من كان عيناً للبيزنطيين على العرب ، يتجسس لهم ، ويتسقط اخبارهم ، ويكتب لهم عن صلاتهم بالفرس ، وعن انباء الفرس في جزيرة العرب واتصالهم بالقبائل ، لشدة حاجة الروم الى تلك الاخبار ، لافساد خطط الفرس وابعادهم عن بلاد العرب وعن البحار . والعالم يومئذ معسكران متخاصمان : معسكر للروم ، ومعسكر للفرس .[1]

وقوم هم اصحاب تجارة واتصال بالعالم الخارجي بحكم اتجارهم معه ، وذهابهم اليه ، لا بد ان يكون لهم اهتمام بما كان يجري ويقع في السياسة الدولية . وكان لهم علم بما يحدث بين الفرس والروم ، وبين الحبش وأهل اليمن ، لأن لما يحدث علاقة كبيرة بتجارتهم وبالاسواق التي كانوا يخرجون اليها للبيع والشراء .

ونجد في القرآن الكريم ما يؤيد ذلك . فلما وقعت الحرب بين الفرس والروم ، هذه الحرب التي استولى فيهـــا الفرس على القدس ، وعلى (الصليب) المقدس عند النصارى ، كان اهتمام مكة بها كبيراً وانقسم اهل مكة فريقين : مؤيد للروم ، ومؤيد للفرس ، مما يدل على وقوف اهل مكة على ما كان يقع في الخارج ، وقد اشار الى ذلك القرآن الكريم في سورة « الروم » .

وقد كان المكيون يهتمون اهتماماً خاصاً عما كان يقع في بلاد الشام وفي اليمن من احداث ، اذ كانت تجارتهم مرتبطة بهذه البلاد بالدرجة الاولى . فما يقع فيها يؤثر تأثيراً مباشراً في تجارتهم . ولذلك حاولوا جهد امكانهم انشاء صلات حسنة مع الحاكم على بلاد الشام والحاكم على اليمن ، كما كان من مصلحة الروم مصالحة حكام العربية الغربية وترضيتهم ، ليأمنوا بذلك على سلامة تجارتهم في البحر الأحمر وعلى وصول بضائع افريقية والبلاد العربية الجنوبية والهند اليهم عند تعسف الفرس بالتجارة البرية التي كانت تأتي من الهند ومن الصين لتباع في بلاد الروم ، وعند نشوب الحرب ، وهي متوالية كثيرة ، فيما بينهما ، فتنقطع التجارة عندئذ بينهما ، وترتفع الاسعار . اما التجارة عن طريق العربية الغربية ، فلم تكن تصاب بأذى الحروب وبالنزاع بين الفرس والروم ، لأنها كانت بعيدة عن ساحة الحروب ، وهي في مأمن من الغارات .

[1] O'leary, P. 184.

ويظهر من روايات اهل الأخبار ان سادات مكة والمواضع الاخرى من الحجاز كانوا يترددون الى الروم والى حكام اليمن ليمكّنوهم من التحكم في شؤون مواطنيهم وللسيادة عليهم . وقد روى (ابن قتيبة) ان (قُصَيّاً) استعان بـ (قيصر) في نزاعه مع خزاعة .[1] وقد تكون مساعدة قيصر له ، باشارته على الغساسنة حلفاء الروم لتقديم العون اليه . ويجوز ان يكون (بنو عذرة) وهم من العرب النصارى النازلين في اطراف بلاد الشام قد ساعدوه بطلب من الروم .[2]

ولا يستبعد ان يكون تجـار اليمن في ايام قصي وبعد موته ، كانوا يأتون بتجارتهم الى (مكة) ، ثم يقوم تجار مكة بنقلها الى بلاد الشام ، او بشرائها من تجار اليمن ، ثم يقومون هم ببيعها على حسابهم في (بُصْرى) او غزة من بلاد الشام . وقد كان يقع اختلاف في بعض الاحيان بين تجار اليمن وتجار مكة ، وقد يقع اعتداء على تجار اليمن فيصادر بعض اهـل مكة اموالهم ويغتصبونها ، كالذي حدث لتاجر من تجار اليمن ، مما حداه بالاستجارة بأشراف مكة وسادتها لإنصافه ، وأدى الحال الى عقد حلف الفضول .[3]

ولطبيعة اهـل مكة المستقرين التجار ، لزم الابتعاد عن الحروب وعن خلق المشكلات ، وحلّ كل معضلة بالمفاوضات اولاً وبالسلم . كما سعت للاتفاق مع القبائل المجاورة على محالفتها ومهادنتها . وقد افادت هذه السياسة قريشاً كثيراً ، فظهرت زعامة مكة على القبائل بعد تدهور ملك حمير في السياسة وفي الدين والاقتصاد . ولارتفاع مستوى مكة الثقافي بالنسبة الى الاعراب ، ولزعامتها الدينية على القبائل المجاورة لها ، ولاتصال سادتها بالعالم الخارجي ، ولوجود جاليات اجنبية فيهـا طورت حياتها الاقتصادية والصناعية مما جعل القبائل تعترف لها بالتفوق عليها ، وتسير في ركابها ، وتتبع تقويمها ، وتحضر في مواسمها ، حتى صارت مكة عند ظهور الاسلام القـاعدة للغربية العربية والزعيمة لها ، ولذلك كانت رمز مقاومة الاسلام ، والحصن العتيد المقاوم له . فلما دك هذا الحصن ، دكت المقاومة دكاً ، واستسلمت المواضع والقبائل للاسلام دون مقاومة تذكر .[4]

---

١ المعارف (ص ٣١٣) .

٢ Lammens, Mecque, 269, Watt, Muhammad at Mecca, P. 13.

٣ Watt, Muhammad at Mecca, P. 13.

٤ Wellhausen, Reste, S., 92.

وبلد مثل مكة فيه تجار وتجارة ورقيق وغنى وفقر وراحة وأصنام وعبادة وحجاج يأتون للتقرب الى الأصنام ، لا بد ان يضع اهله لهم وللقادمين اليه انظمة وقوانين لتنظيم الحياة ، وتأمين الأمن وحفظ الحقوق وحماية من يفد اليه من الأذى لدوام مجيء الحاج اليه على الأقل .

فالكعبة ، وهي بيت الأصنام ، ارض حرام ، لا يجوز البغي فيها ، ولا المعاصي واقتراف الآثام . والمدينة ، وهي في جوار البيت ذات حرمة وقدسية . ودار الندوة دار مشورة وحكم وزعامة . وسكان البلد الحرام هم في حمى البيت وفي جواره ، ولا بد من انصافهم واحقاق حقهم . ولانصافهم ودفع الأذى عن فقيرهم ، عقد حلف الفضول ، وتعهد سادات مكة بالدفاع عمن يستجير بهم ، وبتأديب من يتجاسر منهم على العرف والسنة ، وبذلك ، جعلوا مكة بلداً آمناً مستقراً في محيط تتعارك فيه الأمواج .

ولسياسة اهل مكة القائمة على المسالمة وحل الخلاف بالتشاور والتفاوض ، رميت قريش البواطن ، وهم غالبية اهل المدينة بعدم القدرة على القتال وبالاتكال على غيرهم في الدفاع عن بلدهم ، وباعتمادهم على الأحابيش وعلى قريش الظواهر وعلى القبائل المحالفة لهم في الدفاع عن مكة . ولم تكن مكة وحدها بدعاً في هذا الأمر ، اذ كان اهل يثرب وأهل الطائف وسائر اهل القرى والمدر مثل اهل مكة ، غير ميالين الى الغزو والقتال ، ولهم حبال وأحلاف مع القبائل الساكنة بجوارهم ، لمنع تعدياتهم عليهم ، ولمنع من يطمع فيهم من تنفيذ ما يريد .

الرقيق :

وقد كانت بمكة جالية كبيرة من اصل افريقي ، عرفت بـ (الأحابيش) وهم سود البشرة ، اشتراهم اثرياء مكة للعمل لهم في مختلف الأعمال ولخدمتهم . وقد كان هذا الرقيق ضرورة لازمة لاقتصاد مكة ولنظامها الاجتماعي في ذلك الزمن . فقد كان يقوم مقام الآلة في خدمة التاجر وصاحب العمل ، فكان مصدراً من مصادر الثروة ، وآلة مسخرة تخدم سيدها بأكل بطنها ، كما كان سلاحاً يستخدم

للدفاع عن السادة في ايام السلم وفي ايام الحرب .[1]

وقد سبق ان أشرتُ الى وجود (احابيش) بين اهل مكة ، زعم الاخباريون انهم عرب ، وانهم انما عرفوا بالاحابيش ، لانهم تحابشوا ، اي تحالفوا وتعاهدوا على التناصر والتآزر عند جبل (حبشي) ، فهم على زعم هؤلاء الاخباريين احابيش آخرون لا صلة لهم بالاحابيش الذين اتحدث عنهم .

وقد اشار اهل الاخبار الى ان قوماً من اشراف مكة تزوّجوا حبشيات فأولدن لهم اولاداً . ذكروا منهم (نضلة بن هاشم بن عبد مناف) و (نفيل بن عبد العزّى) و (عمرو بن ربيعة) و (الخطاب بن نفيل) ، والد (عمر بن الخطاب) ، ويذكر ان (ثابت بن قيس بن شماس الانصاري) عيّر (عمر بن الخطاب) فقال له : يا ابن السوداء) ، فأنزل الله : (يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ، عسى ان يكونوا خيراً منهم)[2] و (عمرو بن العاص) وجماعةً آخرين .[3]

وقامت بخدمة قريش طائفة اخرى من الآلات الحية ، هي ادق عملاً وأحسن خدمة وأرقى في الانتاج من الطائفة الأولى : الأحابيش ، استوردت من الشمال من بلاد الشام والعراق ، هي الأسرى البيض الذين كانوا يقعون في ايدي الروم او الفرس او القبائل المغيرة على الحدود ، فيباعون في اسواق النخاسة ، ومنها ينقلون الى مختلف أنحاء جزيرة العرب للقيام بمختلف الاعمال . يضاف الى هؤلاء ، الرقيق المستورد من اسواق اوروبة ، لبيعه في اسواق الشرق . وأسعار هذه البضاعة وان كانت أغلى ثمناً من اسعار البضاعة المستوردة من افريقية ، الا ان الجودة في الانتاج والتفنن فيه ، والبراعة في الصناعات التي لا تعرفها بضاعة الجنوب تعوّض عن هذا الفرق .

---

١ راجع مقال الاب لامانس في مجلة المشرق ، السنة الرابعة والثلاثين (١٩٣٦) ، (ص ١ وما بعدها) ، (ص ٥٢٧ وما بعدها) ، وعنوانه (الاحابيش والنظام العسكري في مكة) .

٣ الحجرات ، الآية ١١ .

٢ المحبر (ص ٣٠٦) (أبناء الحبشيات) .

ومن جملة ما وُكِلَ الى رقيق العراق وبلاد الشأم والروم وغيرهم من ذوي البشرة البيضاء من أعمال ، ادارة المبيعات ، والقيام بالحرف التي تحتاج الى خبرة ومهارة وفن ، وهي من اختصاص أهل المدن والمستقرين : مثل أعمال البناء والنجارة والأعمال الدقيقة .

وهذه البضاعة التي استوردتها قريش الى مكة – وان كانت تابعة ، تؤمر فتفعل ، وتكلف فتستجيب – كانت بضاعة حيّة ، لها قلب نابض ، ودماغ يعمل ، ولحم ودم ، ولبعضها علم وفهم ومعرفة تفوق معرفة أصحابها المالكين لها . فبضاعة هذا شأنها لا بد ان تترك أثراً في البيئة التي استوردت اليها . والأخباريون الذين هم مرجعنا الوحيد في رواية أيام الجاهلية قبيل الإسلام ، وان لم يحدثونا عن أمر هؤلاء القوم في نفوس ساداتهم والذين اختلطوا بهم ، نستطيع بالاعتماد على نقد بعض النتف من رواياتهم ان نصل الى هذه النتيجة التي هي شيء طبيعي وأمر ليس بغريب : نتيجة تقول ان هذه البضاعة تركت في نفوس أهل مكة وفي نفوس العرب الآخرين ممن كان لهم رقيق ، أثراً ليس الى إنكاره من سبيل ، وان بعض المصطلحات الفارسية والرومية والحبشية التي كانت معروفة عند العرب قبيل الإسلام ، والتي أكدوا هم أنفسهم انها لم تكن عربية ، ولا سيما ما كان يتعلق منها بالصناعات والأعمال التي يأنف العربي من الاشتغال بها ، انما دخلت لغتهم وشاعت بينهم من طريق هؤلاء [1] .

وقد كان أغلب الرقيق الأبيض على النصرانية ، وقد ذكر الأخباريون أسماء لبعضهم من نزلاء مكة تشير بوضوح الى تنصرهم . وقد كان فيهم من يتقن العربية ، ويعبر عن أفكاره بها تعبيراً صحيحاً واضحاً ، وفيهم من لا يفقه هذه اللغة ، لانه حديث عهد بها ، فكان يتكلم بلسان أعجمي أو بعربية ركيكة . ومنهم من كان يتباحث في أمور الدين ويشرح لمن يجالسه ما جاء في ديانته وفي كتبه المقدسة . وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك في الآيات : (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلّمه بشرٌ . لسان الذي يلحدون اليه أعجميٌ ، وهذا لسانٌ عربيٌ

---

١ صحيح مسلم : (٢/١٨٩) ، أسد الغابة (٥/٥٧٩) ، المشرق ، السنة (٣٥) (١٩٣٧) ، (٨٢) .

مبينٌ)[1] . (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفكٌ افتراه وأعانه عليه قومٌ آخرون . فقد جاؤوا ظلماً وزوراً . وقالوا أساطير الأولين اكتتبها ، فهي تُملى عليه بُكرةً وأصيلاً)[2] .

وقال (ابن هشام) في تفسير الآية : (ولقد نعلم انهم يقولون إنما يعلمه بشرٌ ، لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) : (وكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فيما بلغني ، كثيراً ما يجلس عند المرْوة الى مبيعة غلام نصراني ، يقال له جبر ، عبد لبَني الحَضْرَميّ ، وكانوا يقولون : والله ما يعلّم محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جبر النصراني ، غلام بني الحضرمي . فأنزل الله عزّ وجلّ في ذلك من قولهم : ولقد نعلم)[3] . وهناك أشخاص آخرون كانوا موالي لا يحسنون العربية ولا يجدون النطق بها[4] .

وروي عن (عبد الله بن مسلم الحضرمي) انه (قال : كان لنا عبدان : أحدهما يقال له يسار ، والآخر يقال له جبر . وكانا صيقلين . فكانا يقرآن كتابهما ويعملان عملهما . وكان رسول الله يمرّ بهما فيسمع قراءتهما . فقالوا : إنما يتعلم منهما . فنزلت : ولقد نعلم انهم يقولون)[5] .

وأشير الى غلام آخر كان بمكة ، اسمه (بلعام) ، وكان قيناً ، ذكر ان الرسول كان يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا انه كان يتعلم منه . وقيل : إن ذلك الرجل الذي قال أهل مكة ان الرسول كان يتعلم منه ، اسمه (أبو اليسر) ، وكان نصرانياً[6] .

وفي جملة من أشار اليهم أهل اليسر من النصارى الذين كانوا بمكة ، رجل اسمه (نسطاس) ، وكان من موالي (صفوان بن أمية)[7] ، ونسطور الرومي ،

---

١ النحل ١٦ ، الآية ١٠٤ وما بعدها .
٢ الفرقان ، الآية ٥ وما بعدها .
٣ ابن هشام : السيرة (ص ٢٦٠) .
٤ الواحدي : اسباب النزول (٢١٢) ، أسد الغابة (٣/١٣١) ، (٥/١٩٤ ، ٤٦٢) .
٥ الاصابة (١/٢٢٢) .
٦ الاصابة (١/١٦٥) .
٧ الاغاني (٤/٤٢) ، ابن هشام ، السيرة (٦٤٠) ، أسد الغابة (٢/٢٤٠) ، المشرق ، السنة الخامسة والثلاثين ، (١٩٣٧ م) ، (ص ٨٨) .

ويوحنا مولى صهيب الرومي، وصهيب الرومي نفسه، وهو من الصحابة، جاء من بلاد الشأم، ونزل بمكة، وتشارك مع مثري قريش عبد الله بن جدعان، ثم استقل عنه، وصار ثرياً من أثرياء مكة. ثم دخل في الإسلام[١]. ومنهم مولى يوناني تزوج سمية أم بلال[٢]. وقد بقي نفر من النصارى محتفظين بدينهم بمكة في أيام الرسول[٣].

وفي حديث الأخباريين عن بناء الكعبة ان قريشاً استعانت بعامل من الروم، أو من الأقباط، اسمه باقوم، كان نجاراً مقيماً بمكة، في تسقيف البيت. وفي حديث آخر لهم: ان هذا الرجل كان في سفينة جهزها قيصر الروم لبناء كنيسة، وقد شحنها بالرخام والخشب والحديد، فجنحت عند (الشعيبة) فاستعانت قريش بما تبقى من أخشابها وبخبرة هذا الرومي في تسقيف البيت[٤]. وقد دعي بـ (بلقوم الرومي) أيضاً[٥].

وفي كتب السير وكتب تراجم الصحابة أسماء جوارٍ يونانيات أو من بلاد الشأم أو من العراق، وقد تزوجن في مكة وتسلّن ذرية كانوا فيها قبل الإسلام. وقد كان منهن في مواضع أخرى من جزيرة العرب بالطبع.

ويعود قسط كبير من وجود الكلمات الحبشية والرومية والفارسية في العربية الى الرقيق الأسود والأبيض. وهذه الكلمات هي مسمّيات لأمور غريبة عن العربية لم يكن لأهل مكة ولا لغيرهم علم بها، فاستعملوها كما وردت وأخذت، أو صقلت حتى لاءمت اللسان العربي، كما حدث ويحدث في اللغات الأخرى، وعربت وصارت من ألفاظ العربية. وقد لاحق قسماً منها علماء اللغة، فوضعوا

---

١ ابن هشام (٣٢١).
٢ المشرق، الجزء المذكور (ص ٨٩).
٣ (ضرب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على نصراني بمكة دينارا كل سنة)، كتاب الخراج ليحيي بن آدم (٥٣)، ابن سعد، الطبقات (١/٣٩)، المشرق، الجزء المذكور (ص ٩٥).
٤ الطبرى (٢/٢٠٠)، السيرة الحلبية (١/١٤٣)، الاصابة (١/١٣٦ وما بعدها)، Ency., III, P. 584.
٥ الاصابة (١/١٦٦).

فيها كتباً بحثت في تلك المعربات ، وفي القرآن الكريم طائفة منها لم يغفل عنها أرباب اللغة والمفسرون [1] .

أغنياء ومعدمون :

كان أهل مكة بين غني مُتْخَم وفقير معدِم . وبين الجماعتين طبقة نستطيع ان نقول انها كانت متوسطة . وأغنياء مكة ، هم أصحاب المال ، وقد تمكنوا من تكثيره بإعمال ما عندهم من مال بالاتجار وباقراضه للمحتاج اليه ، وبإعماله بالزراعة ، واستغلاله بكل الطرق المربحة التي يرون انها تنفحهم بالأرباح .

وقد تمكن هؤلاء الأغنياء من بسط سلطانهم على قبائل الحجاز ، ومن تكوين صلات وثيقة مع أصحاب المال في العربية الجنوبية وفي العراق وبلاد الشأم ، بحيث كانوا يتصافقون في التجارة ويشاركونهم في الأعمال ، حتى صاروا من أشهر تجار جزيرة العرب في القرن السادس للميلاد .

ويظهر مما جاء في القرآن الكريم ان بعض هؤلاء الأغنياء كان قاسياً ، لم تدخل الرحمة ولا الشفقة قلبه . فكان يقسو على المحتاج ، فلا يقرضه المال إلا بربىً فاحش وكان يشتط عليه . وكان بعضهم لا يتورعون من أكل أموال اليتيم والضعيف ، طمعاً في زيادة ثرائه . وكان يستغل رقيقه استغلالاً شنيعاً ، حتى انه كان يكره فتياته على البغاء ليستولي على ما يأتين به من مال . وفي ذلك نزل النهي عنه في الإسلام . (ولا تُكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصناً ، لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) [2] . قال (الطبري) : (كانوا في الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنا . يأخذون أجورهن . فقال الله ، لا تكرهوهن على الزنا من أجل المنالة في الدنيا . ومن يكرههن ، فإن الله من بعد اكراههن غفور رحيم لهن . يعني إذا أكرهن) . وقال : (كانوا يأمرون ولائدهم يباغين ، يفعلن ذلك ، فيصبن فيأتينهم بكسبهن) . وروي ان هذه الآية نزلت في حق (عبد الله ابن أبي سلول) [3] .

---

١ المعرب ، للجواليقي .
٢ النور ، الآية ٣٣
٣ تفسير الطبري (١٨/١٠٣ وما بعدها) ، سورة النور .

وكان من أغنياء مكة من يأكل بصحاف من ذهب وفضة ، ويشرب بآنية من ذهب وفضة ومن بلور ، ويأكل على طريقة الروم والفرس بسكاكين وشوكات مصنوعة من ذهب أو من فضة ، على حين كان أكثر أهل مكة فقراء لا يملكون شيئاً . وكانوا يلبسون الحرير ، ويتحلون بالخواتم المصنوعة من الذهب ، تزينها أحجار كريمة . ولعلّ هذا الإسراف والتبذير كانا في جملة العوامل التي أدت الى منع المسلمين من استعمال الأواني المصنوعة من الذهب والفضة للأكل والشرب ، ومن صدور النهي من استعمال الحرير للرجال[1] .

وقد حرص هؤلاء الأغنياء على اكثار أموالهم ، وعلى توسيع تجارتهم ، لذلك كانت هجرة الرسول الى يثرب وتحرش المسلمين بقوافلهم الذاهبة الآيبة بين بلاد الشأم ومكة لطمة كبيرة أصابتهم . لقد اجتمع ملأهم بعد وقعة بدر للتداول في أمرهم . فقال قائل منهم : (قد عوّر علينا محمد متَنْجَرَنا وهو على طريقنا . وقال أبو سفيان وصفوان بن أمية : إن أقمنا بمكة أكلنا رؤوس أموالنا . قال زمعة بن الأسود : فأنا أدلكم على رجل يسلك بكم النجدية ، لو سلكها مغمض العينين لاهتدى . قال صفوان ؛ من هو ؟ فحاجتنا الى الماء قليل . إنما نحن شاتون . قال : فرات بن حيان ، فدعواه فاستأجراه ، فخرج بهم في الشتاء ، فسلك بهم على ذات عرق ، ثم خرج بهم على (غمرة) . وانتهى الى النبي صلى الله عليه وسلم خبر العير وفيها مال كثير ، وآنية من فضة حملها صفوان بن أمية ، فخرج زيد بن حارثة ، فاعترضها ، فظفر بالعير ، وأفلت أعيان القوم ، فكان الخمس عشرين الفاً ، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقسم الأربعة أخماس على السرية ، وأتى بفرات بن حيّان العجلي أسيراً ، فقيل : إن أسلمت لم يقتلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسلم ، فأرسله)[2] . وقد عرفت هذه الغزوة بـ (غزوة القردة) . وقد كانت في السنة الثالثة من الهجرة .

وقد أشير في ديوان (حسان بن ثابت) الى (فرات) هذا ، كما أشير

---

١ شمس العلوم (حـ ١ قسم ٢ ص ٢٩٣) .

٢ الطبري (٢/٤٩٢) ، (دار المعارف) ، الاشتقاق (٢٠٨) ، البلاذري ، انساب (١/٣٧٤) .

الى رجل آخر هو (قيس بن امرىء القيس العجلي) ، استأجرته قريش كذلك ، ليكون لها دليلاً يهدي قوافلها الطريق[1] .

وقد كانت قريش ، كما كان غير قريش ، ومنهم المسلمون يستعينون بالأدلاء لإرشادهم الطرق ، ولا سيما في أيام الخطر . وأيام جزيرة العرب كلهـا خطر دائم بالنسبة للتجار ، لما كانوا يحملونه معهم من أموال ، تسيل لعاب الطامعين في المال ، وتنسيهم كل عهد وموثق . لذلك كانوا يتحسسون جهدهم الطرق ، ولا يسيرون إلا في الطرق الآمنة التي يوثق من ذمم أصحابها ومن قدرة سادتها على ضبطها وعلى انزال أقصى العقوبة بالخلعاء وبالخارجين على الطاعة والعرف . ويستأجرون الأدلاء أصحاب العلم والدراية العملية بالطرق وبمخارجها وبكيفية الخروج من مآزقها ومهالكها وأخطارها ، يتفقون معهم على ارشادهـم ، على ان يكون لهم أجر حسن ان نجت القافلة من الخطر ووصلت سالمة الى مكانها المقصود .

وقد استغل تجار مكة أموالهم في الخارج ، وامتلكوا الصياع ، فامتلك (أبو سفيان ابن حرب) أيام تجارتـه الى الشأم في الجاهلية ضيعة بالبلقـاء تدعى بقبش ، فصارت لمعاوية وولده)[2] .

ولم يبال رجـال مكة من الاشتغال بالصناعات ، فقـد اشتغل قوم منهـم بالبزازة ، واشتغل بعض منهم بالخياطة ، فكان (العوّام أبو الزبير خياطـاً) و (كان الزبير جزّاراً ، وكان عمرو بن العاص جزاراً ، وكان عامر بن كريز جزاراً ، وكان الوليد بن المغيرة جزاراً . وكان العاص بن هشام أخو أبو جهل حداداً ، وكان عقبة بن أبي معيط خمـاراً . وكان عثمان بن أبي طلحة الذي دفع اليه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، مفتاح البيت خياطاً ، وكان قيس بن مخرمة خياطاً ، وكان أبو سفيان بن حرب يبيع الزيت والأدم ، وكان عتبة بن أبي وقاص أخو سعد نجاراً ، وكان أمية بن خلف يبيع البرم ، وكان عبد الله ابن جدعان نخاساً ، له جوار يساعين ويبيع أولادهن ، وكان العاص بن وائـل أبو عمرو بن العاص يعالج الخيل والإبـل ، وكان النضر بن الحارث بن كلدة

---

١ ديوان حسان (٢٩٥) ، (البرفوقي) ، (ص ٣٨) ، (هرشفلد) .
٢ البلاذري ، فتوح (١٢٥) .

يضرب بالعود ويتغنى ، وكان الحكم بن أبي العاص أبو مروان بن الحكم حجاماً ، وكذلك حريث بن عمرو)[1] .

وإذا صح ما ذكرتـــه من كلام نقلته من (الأعلاق النفيسة) لابن رستة ، فإن ذلك ينفي ما يذكره أهل الأخبار من عدم وجود (نجّار) في مكة كالذي ذكروه من عدم وجود نجار بها يوم جددوا بناء الكعبة ، فحاروا في كيفية العثور على نجار يقوم بتسقيف البيت ، وبقوا في حيرتهم حتى اهتدوا الى رومي تحطمت سفينته عند الساحل ، فجاؤوا به وبخشب سفينته فسقف الرومي (باقوم) لهـــم عندئذ الكعبة . وتنفي رواية (ابن رستة) ما ذكره غيره من ترفع ذوي الأسر من قريش من الاشتغال بالحرف اليدوية لأنها حرف لم تخلق للأشراف . ويكون ذلك دليلاً على ان بعض ما يذكره أهل الأخبار عن أهل مكة بعيد عن الواقـــع وتناقض فيما يروونه ، لم يفطنوا اليه ، لأنهم كانوا ينقلون الأخبار ، ويأخذونهـــا أنّى جاءت ، وغايتهم الجمع ، وعلينا الآن واجب التمحيص بين تلك الروايات ونقدها وغربلتها ، لاستخراج اللب من القشور .

وعندي ان الإسلام ، هو الذي صيّر قريشاً قريشاً المذكورة في الكتب . وهو الذي سوّدها على العرب ، وجعل لهـــا المكانة الأولى بين القبائـــل ، والخلافة فيها ، بفضل كون الرسول منها وظهور الإسلام في مكة . ولولا الإسلام ، لكانت مكة قرية من القرى ، لبعض أسرها ثراء حصلت عليه بفضل نشاطها وتقرّب رجالها الى سادات القبائل وحكام العراق وبلاد الشأم واليمن ، وبفضل دعوة رجال قريش القبائل المحيطة بمكة لحج البيت والتقرب الى الأصنام التي كدسوها فيه وحوله ، ومنها أصنام القبائل التي لها تعامل مـــع مكة ، فحصلت على ربـــح هو (حق قريش) من الغرباء وحق تعشير التجار وتعاطي البيع والشراء معهم .

ويبدو من أخبار الأخباريين عن البيت ؛ ان العناية لم توجـــه اليه إلا قبيل الإسلام ، وان الإسلام هو الذي رفع قواعده ، وعني بعمارته ، وهو الذي فرش مسجده بالرخام ، وجعل له أشياء كثيرة لم تكن موجودة في أيام الجاهلية . وقد صرف عليه الخلفاء أموالاً طائلة وذلك قربة لله رب البيت .

والواقع ان في كثير مما يذكره أهل الأخبار عن مكة ، مـــا يناقض بعضه

---

١ ابن رستة ، الاعلاق (٢١٥) .

الفصل الثالث والأربعون

يثرب والطائف

وكان ليثرب مكان مهم عند ظهور الإسلام ، وفيها وفي أطرافهـا سكنت جاليات من يهود . وهي من المواضع التي يرجع تأريخها الى ما قبل الميلاد . وقد ذكرت في الكتابات المعينية ، وكانت من المواضع التي سكنتها جاليات من معين ، ثم صارت الى السبئيين بعد زوال مملكة معين[1] . ولعلّ هـذا السكن هو الذي حمل النسّابين على ارجاع نسب أهل يثرب الى اليمن ، فقالوا إنهم من الأزد ، وإنهم من (قحطان) .

وللأخباريين كعادتهم آراء في الاسم ، قالوا إنها سميت (يثرب) نسبة الى (يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم بن عبيل بن عوص بن إرم بن سام بن نوح) ، وكان أول من نزلها فدعيت باسمه . وقالوا : بل قيل لها (يثرب) من التثريب ، وقالوا أشياء أخرى من هذا القبيل[2] .

وزعم أهل الأخبار ان الرسول لما نزلها كره ان يسميها (يثرب) ، فدعاها (طيبة) و (طابة) . وذكروا لها تسعاً وعشرين اسماً ، منها : (جابرة)

١ Ency., III, P 83, Hartmann, Die Arabische Frage, S., 253, H. Winckler, Arabisch-Semitisch-Orientalisch, in Mitteilungen der Vorderasiatischen Gesellschaft, (1901), S., 63.

٢ البلدان (٨/٤٩٨) ، ابن خلدون (٢/٢٨٦) .

و (مسكينة) و (مجبورة) و (يندر الدار) و (دار الهجرة)[1] .

ويذكر بعض أهل الأخبار ان أقدم من سكن (يثرب) في سالف الزمان قوم يقال لهم (صُعل) و (فالج) ، فغزاهم النبي (داوود) وأخذ منهم أسرى ، وهلك أكثرهم وقبورهم بناحية (الجرف) . وسكنتها (العماليق) ، فأرسل عليهم النبي (موسى) جيشاً انتصر عليهم ، وعلى من كان ساكناً منهم بـ (تيماء) ، فقتلوهم ، وكان ذلك في عهد ملكهم الملك (الأرقم بن أبي الأرقم) . ولم يترك الاسرائيليون منهم أحداً ، وسكن اليهود في مواضعهم[2] . ونزل عليهم بعض قبائل العرب ، فكانوا معهم واتخذوا الأموال والآطام والمنازل . ومن هؤلاء (بنو أُنيف) ، وهم حيّ من (بليّ) ، ويقال انهم بقية من العماليق ، و (بنو مُريد) مزيد (مرثد) ، حيّ من (بليّ) ، وبنو معاوية ابن الحارث بن بُهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان ، وبنو الجدمى (الجدماء) حيّ من اليمن ، فعاشوا مع من كان بيثرب وأطرافها من اليهود ، واتخذوا المنازل والآطام يتحصنون فيها من عدوهم الى قدوم الأوس والخزرج اياها[3] .

وكان قدوم (الأوس) و (الخزرج) على أثر حادث (سيل العرم) ، فأجمع (عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة) ، الخروج عن بلاده وباع ماله بمأرب ، وتفرق ولده ، فنزلت الأوس والخزرج (يثرب) وارتحلت (غسان) الى الشأم ، وذهبت (الأزد) الى عمان وخزاعة الى تهامة . وأقامت الأوس والخزرج بالمدينة ووجدوا الأموال والآطام والنخل في أيدي اليهود ووجدوا العدد والقوة معهم ، فمكثوا معهم أمداً وعقدوا معهم حلفاً وجواراً يأمن به بعضهم بعضاً ويمتنعون به ممن سواهم ، فلم يزالوا على ذلك زماناً طويلاً ، حتى نقضت اليهود عهد الحلف والجوار ، وتسلطها على يثرب ، فاستعان الأوس والخزرج

١ البلدان (٧/٤٢٥) ، (٨/٤٩٨) ، المقدسي : أحسن التقاسيم (ص ٣٠) ، (الطبعة الثانية) (ليدن ١٩٠٦ م) ، ابن رستة ، الاعلاق (ص ٥٩) ، (للمدينة في التوراة (التوريه) أحد عشر اسما) ، ابن رستة (ص ٧٨) .

٢ ابن رستة ، الأعلاق (٦٠ وما بعدها) ، ياقوت ، البلدان (٤/٤٦١ وما بعدها) ، الأغاني (١٩/٩٤) .

٣ ابن رستة ، الأعلاق (٦٢) .

بأقربائهم على اليهود ، فغلبوهم ، وصارت الغلبة للعرب على المدينة منذ ذلك العهد ، على نحو ما سأتحدث عنه بعد قليل .[1]

وأقدمُ مورد أُشير فيـه الى (يثرب) ، هو نص الملك (نبونيد) ملك بابل ، الذي سكن (تيماء) امداً ، وذكر فيه انه بلغ هذه المدينة ، كما سلف ان تحدثت عن ذلك في اثناء حديثي عن صلات العرب بالبابليين . وقد عرفت بـ (يثربه) (Jathripa) في جغرافيا (بطلميوس) وعند (اصطيفان البيزنطي) .[2] وعرفت بـ (المدينة) كذلك من كلمة (Medinta) (Medinto) الإرمية ، التي تعني (مدينة) في عربيتنا و (هكر) في العربية الجنوبية .[3] وقد ورد اسمها في الكتابات المعينية .[4]

ويظهر انها عرفت بـ (مدينة يثرب) على نحو ما وجدنا في كتاب (اصطيفان البيزنطي) ، ثم اختصرت ، فقيل لها (مدينتا) ، اي (المدينة) . ولما نزل الرسول بها ، عرفت بـ (مدينة الرسول) في الاسلام .[5]

ولقدم تأريخ (يثرب) ولورود اسمها في نص (نبونيد) ، الذي يدل على انها كانت معروفـة اذ ذاك ، لا يستبعد احتمال عثور المنقبين في المستقبل على كتابات وآثار قد تكشف عن بعض تأريخ هذه المدينة في ايام ما قبل الاسلام .

ولم يشر اهل الاخبار الى وجود حرم او بيت بيثرب ، كان يتعبد فيه اليثربيون ويتقربون اليه بالنذور ، مع انهم اشاروا الى بيت اللات في الطائف . ويثرب مدينة مثل الطائف ومثل مدن اخرى كانت ذات محجّات ومعابد . وقد كان اهل يثرب مثـل غيرهم من العرب مشركين يتقربون الى الأصنام ، وكانوا يحفظون

---

١ ابن رستة ، الأعلاق (٦٢ وما بعدها) ، البداية والنهاية ، لابن كثير (٢/١٦٠) ، (مطبعة السعادة ، ١٩٣٢ م) .

٢ تاريخ العرب قبل الاسلام ، لجواد علي (٣/٣٩٥) ، (٤/١٨١) . Ptolemy, VI, 7, 31.

٣ Blau, in ZDMG., 22, (1868), S. 668, Ency., III, P. 83. Paulys-Wissowa, 17 ter Halbband, 1914, 791.

٤ Ency., III, P. 83, Winckler, Arabisch — Semitisch, in Mitteilungen der Vorderasiatischen Gesellschaft, 1901, S., 63.

٥ Ency , III, P. 83.

اصناماً لهم في بيوتهم يتقربون اليها ، كما كانوا يحجون الى محجات كانت على مسافة من يثرب. ولذلك يبدو غريباً سكوت اهل الاخبار عن ذكر بيت في هذه المدينة ، يحج له الأوس والخزرج ومن والاهم من قبائل وعشائر .

وعثر في مواضع لا تبعد كثيراً عن (يثرب) على كتابات جاهلية، لم تعرف هويتها الآن ، لأن الباحثين لم يتمكنوا من فحص مواضعها ومن نقلها الى العلماء المختصين لقراءتهـا . كما أنهم لم يتمكنوا من تصويرها ولا من التنقيب في تلك الأماكن تنقيباً علمياً . وقد اشار (عثمان ورستم) الى وجود كتابات من هذا النوع على جبل (سلع) ، وعند موضع (بئر عروة) بوادي العقيق وفي أماكن اخرى .[1] ارجو ان يصل اليها الباحثون للتنقيب فيها وحل رموز هذه الكتابات .

وقد يعثر على كتابات اخرى مطمورة في تربة (يثرب) وفي الأماكن القريبة منها ، تكشف للقادمين من بعدنا اسرار هذه المدينة المقدسة .

ويثرب ، مثل مكة من شعاب ، تسكنها بطون الأوس والخزرج : الأوس في شعاب ، والخزرج في شعاب ، واليهود في شعاب . وفي الشعاب (حوائط) ، بساتين صغيرة ، وفي الحوائط (آبار) يستقون منها للشرب والسقي والغسل ،[2] كما كانت فيها دور مبنية بالآجر ودور مبنية باللبن . وبعضها ذو طابقين . وقد احتفر اليهود آباراً ، كانوا يبيعون الماء منها بالدلاء ، مثل (بئر ارومة) ، وكانت ليهودي ، وقد امر الرسول بشرائها ، فاشتراها عثمان .[3] ومن آبار المدينة (بئر ذروان) ، وهي البئر التي ذكر ان لبيد (ابن الأعصم) اليهودي سحر بها الرسول .[4]

ويثرب على شاكلة مكة ، بغير سور ولا حائط يحيط بها ، ولا خندق يقف حائلاً امام من يريد بالمدينة سوءاً . وقد كان عماد دفاع اهلها بالتحصن في بيوتهم وبسدّ منافـذ الطرق في اثناء الخطر . والأغنياء الموسرون يعتمدون على آطامهم

---

١ Osman R. Rostem, Rok Inscriptions in the Hijaz, PP. 4.

٢ الطبري (٢/٣٥٧) (دار المعارف) ، اللسان (٧/٢٧٩) .

٣ المعارف (ص ٨٣) .

٤ نزهة الجليس (١/٦١) ، تفسير النيسابوري (٣٠/٢١٥) ، حاشية على تفسير الطبـري .

وحصونهم وقصورهم ، يلجؤون اليها عند الشدة ومن معهم من اتباعهم يرمون اعداءهم من فوق السطوح بالسهام وبالحجارة ، اذ لا حائط يحيط بها على نحو ما كان لمدينة الطائف . وقد تحارب الأوس والخزرج على الآطام ، وأرخوا بتلك الحرب ، وصاروا يؤرخون بـ (عام الآطام) . وذكر ان اهل المدينة من الأوس والخزرج كانوا يمتنعون بها ، فأخربت في ايام عثمان .[1]

ويظهر من وصف اهل الاخبار ليثرب ، انها كانت تشبه مدينة (الحيرة) بالعراق من حيث خلوّها من سور ومن تكوّنهـا من (قصور) ، هي بيوت السادة ومعاقل المدينة ومواضع دفاعها آناء الشدة وأوقات الحروب . وقد عرفت بـ (أطم) و (آطام) عند اهل يثرب . وذكر ان (الأطم) كان حصن بُنِيَ بحجارة ، او كل بيت مربع مسطح . وورد ان (الأُطوم) : القصور وحصون لأهل المدينة والأبنية المرتفعة كالحصون .[2]

والمدينة عند (وادي اضم) . يقال للقسم الذي هو عند المدينة منه (القناة) والذي هو أعلى منهـا عند السدّ : الشظاة ، اما ما كان اسفل ذلك ، فيسمى أضماً الى البحر . وذكر ان اضم وادٍ يشق الحجاز حتى يُفرغ في البحر . وأعلى اضم القناة التي تمر دُوين المدينة .[3] وان المدينة هي ما بين طرف قناة الى طرف الجرف ، وما بين الماء الذي يقال له (البوا) الى (زبالة) .[4]

وجوّ (يثرب) على العموم خير من جوّ مكة ، فهو ألطف وأفرح . ولم يعانِ اهلها ما عانى اهل مكة من قحط في الماء ومن شدة في الحصول عليه ، حتى بعد حفر (بئر زمزم) . فالماء متوفر بعض الشيء في المدينة ، وهو غير بعيد عن سطح الأرض ، ومن الممكن الحصول عليه بسهولة بحفر آبار في البيوت . ولهذا صار في امكان اهلها زرع النخيل ، وانشاء البساتين والحدائق ، والتفسح فيها ، والخروج الى اطراف المدينة للتزهة ، فأثر ذلك في طباع اهلها فجعلهم ألين عريكة وأشرح صدراً من اهل البيت الحرام .

---

١ الأغاني (١٤/١) (ساسي) التنبيه (ص ١٧٦) .
٢ تاج العروس (١٨٧/٨) ، (اطم) ، اللسان (١٩/١٢) ، (أطم) .
٣ تاج العروس (١٨٧/٨) ، (اضم) .
٤ ابن رسته ، الأعلاق (٦٢) .

وتأريخ المدينة مثل سائر تواريخ هذه الأماكن التي نتحدث عنها ، مجهول لا نعرف من أمره شيئاً يذكر ، وانما ما يذكره الاخباريون عن وجود العماليق وجرهم بها [1] فأمر وان قالوه ، لا يستند الى دليل ، وحكمه حكم الأخبار الاخرى التي يروونها والتي عرفنا نوع اكثرها وطبيعته . ولكن الشيء الذي نعرفه يقيناً ان اهل المدينة كانوا ينتسبون عند ظهور الاسلام الى يمن ، وكانوا يقسمون انفسهم فرقتين : الأوس والخزرج . وبين الفرقتين صلة قربى على كل حال . ثم يذكرون انه كان بينهم يهود ، وهم على زعمهم من قدماء سكان يثرب .

ويلاحظ ان الأوس والخزرج لا يدعون انفسهم بأبناء حارثة ، وانما يدعون انفسهم بـ (بني قيلة) وبـ (ابني قيلة) ويقصدون بها (قيلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة) ، او (قيلة بنت هالك بن عُذْرَة) من قضاعة ، او (قيلة بنت كامل بن عُذْرَة بن سعد بن زيد بن ليث بن سود بن اسلم بن الحاف ابن قضاعة) . [2] ولا بد ان يكون لهذه الامرأة التي ينتسبون اليها شهرة في الجاهلية حملتهم على الانتساب اليها . وقد ورد ان (قيلة) اسم ام الأوس والخزرج ، وهي قديمة . [3]

وقد ذكر بعض اهل الاخبار ان الأوس والخزرج ابنا قيلة لم يؤدوا اتاوة قط في الجاهلية الى احد من الملوك ، وكتب اليهم تُبَّع يدعوهم الى طاعته ، فغزاهم تبع ابو كرب ، فكانوا يقاتلونه نهاراً ويخرجون اليه العشاء ليلاً ، فلما طال مكوثه ورأى كرمهم رحل عنهم . [4]

ويُرجع الاخباريون مجيء الأوس والخزرج الى المدينة الى حادث سيل العرم ، ويقولون انهم لما جاءوا الى يثرب وجدوا اليهود وقد تمكنوا منها ، فنزلوا في ضنك وشدة ، ودخلوا في حكم ملوك يهود الى ايام ملكهم المسمى (الفيطوان)

---

١ البلدان (٤٢٧/٧ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢٨٦/٢ وما بعدها) .
٢ البلدان (٤٢٨/٧) ، الكامل (٢٧٥/١) ، ابن حزم ، جمهرة (٣٣٢/٩) ، ابن خلدون ، المجلد الثاني ، القسم الأول (٥٩٦) ، (منشورات دار الكتاب اللبناني ١٩٥٦ م بيروت) .
٣ اللسان (٥٨٠/١١) ، (صادر) ، (قيل) .
٤ العقد الفريد (١٩٢/١ وما بعدها) ، الأصمعي ، ملوك العرب الأولية (٨٧ وما بعدها) .

أو (الفيطون) أو (الفِطيون) ، وكان رجلاً شديداً فظاً يعتدي على نساء الأوس والخزرج ، فقتله رجل منهم اسمه (مالك بن العجلان) وفرّ الى الشأم الى ملك من ملوك الغساسنة اسمه (أبو جبيلة) . وفي رواية انه فرّ الى (تبع الأصغر بن حسان) . وتذكر الرواية ان أبا جبيلة سار الى المدينــة ونزل بذي حرض ، ثم كتب الى اليهود يتودد اليهم ، فلما جاؤوا اليه قتلهم ، فتغلبت من يومئذ الأوس والخزرج ، وصار لهم الأموال والآطام . ثم رجــع (أبو جبيلة) الى الشأم . وصارت اليهود تلعن (مالك بن عجلان) . وهم يروون في ذلك أبياتاً ينسبونها الى شاعر اسمه (الرمق بن زيد الخزرجي[1] . ويذكــر الأخباريون ان اليهود صوّرت (مالك بن عجلان) في كنائسهم وبيعهم ليراه الناس فيلعنوه[2] .

وذكر (ابن دريد) ان (الفِطيون) ، اسم (عبراني) ، وكان تَملَّك بيثرب ، وكان هذا أول اسم في الجاهلية الأولى . وقد شهد بعض ولد الفطيون بدراً ، واستشهد بعضهم يوم اليمامــة ، فمن ولد (الفطيون) : أبو المقشعر ، واسمه أسيد بن عبد الله[3] . ويذكر بعضهم ان اسم (الفطيون) ، هو (عامر ابن عامر بن ثعلبة بن حارثة بن عمرو بن الحارث المحرق بن عمرو مزيقياء)[4] . فهو من العرب على رأي هذا البعض ، ومن اليمن ، وليس من أصل عبراني .

وأبو جبيلة عند بعض الأخباريين ، هو (عبيد بن سالم بن مالك بن سالم) ، أحد بني غضب بن جشم بن الخزرج . فهو على هذه الرواية رجل من الخزرج ذهب الى ديار الشأم ، فملك على غسان . وذهب بعض آخر من الأخباريين الى انه لم يكن ملكاً ، وإنما كان عظيماً ومقربــاً عند ملك غسان[5] . ونسبه بعض

١ البلدان (٤٢٨/٧ وما بعدها) ، الاشتقاق (ص ٢٥٩) ، الكامل (٢٧٥/١) ، البداية ، ابن كثير (١٦٠/٢) ، (مطبعة السعادة ، ١٩٣٢ م) .

٢ ابن خلدون (٢٨٧/٢) ، الاشتقاق (ص ٢٧٠) ، الأغاني (٩٥/١٩ وما بعدها) ، السمهودي خلاصة الوفاء (٨٢ وما بعدها) ، الطبري (٣٧١/٢) ، تاريخ اليهود في بلاد العرب ، اسرائيل ولفنسون (٥٦ وما بعدها) ،
Graetz, BD., 3, S., 91, 410.

٣ الاشتقاق (ص ٢٥٩) .

٤ الاشتقاق (ص ٢٥٩) .

٥ الكامل (٢٧٦/١) ، ابن خلدون (٢٨٦/٢ وما بعدها) .

أهل الأخبار الى (بني زريق) ، بطن من بطون الخزرج . ونعته بـ (أبي جبيلة الملك الغساني)[1] .

ونحن إذا أخذنا بهذه الرواية ، وجب علينا القول : ان أخذ الأوس والخزرج أمر المدينة بيدهم ، وزحزحة اليهود عنها ، يجب ان يكون قد وقع في النصف الثاني من القرن السادس للميلاد ، أي في زمن لا يبعد كثيراً عن الاسلام . لأننا نجد ان أحد أولاده وهو (عثمان بن مالك بن العجلان) في جملة من دخل في الاسلام وشهد بدراً ، كما نجد جملة رجال من (بني العجلان) ، من أبناء أخوة (مالك) وقد شهدوا (بدراً) ومشاهد أخرى[2] ، وهذا مما يجعل زمن (مالك) لا يمكن ان يكون بعيداً عن الاسلام .

ويظهر من دراسة هذه الأخبار المروية عن اليهود وملكهم (الفطيون) وعن الأوس والخزرج وما فعلوه باليهود ، ان عنصر الخيال قد لعب دوراً في هذا المروي في كتب أهل الأخبار عن الموضوع . ونجد في القصص المروي عن ملوك اليمن وعن ولعهم بالنساء وعملهم المنكر بهن ، ما يشبه هذا القصص الذي نسب الى (الفطيون) . ونجد للعلاقات الجنسية مكانة في هذا القصص الجاهلي الذي ايرويه أهل الأخبار عن ملوك الجاهلية . وما قصة (الفطيون) إلا قصة واحدة من هذا القصص الذي نجد للغرائز الجنسية مكانة بارزة فيه .

ويظهر ان كلمة (الأوس) هي اختصار لجملة (أوس مناة) . و (مناة) كما نعلم صنم من أصنام الجاهلية . و (الأوس) هو جدّ الأوس ، وهو في عرف النسّابين (أوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن مرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن عبد الله بن الأزد)[3] .

١ الاشتقاق (ص ٢٧٢) .
٢ الاشتقاق (ص ٢٧١ ومواضع اخرى) .
٣ البلدان (٧/٤٢٨) ، (أوس بن حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امريء القيس البطريق بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان) ، ابن الأثير ، الكامل (١/٢٧٥ ح ، ابن خلدون (٢/٢٨٨) ، اللسان (٤/١٨ وما بعدها) ، تاج العروس (٤/١٠٣) ، ابن حزم ، جمهرة (ص ٣٢٢)، العقد الفريد (٣/٣٦ ، ١٥٩) ، (لجنة) ، ابن هشام (٢/٣٤٧) ، دائرة المعارف الاسلامية (٣/١٥٠) .

وينقسم الأوس الى بطون ، منهم : عوف ، والنبيت ، وجشم ، ومُرّة ، وامرؤ القيس . وقد عرف (بنو مرّة) بالجعادرة كذلك . واتفقت جشم ومرة وامرؤ القيس وكونت حلفاً عرف بـ (أوس اللاة) . وبـ (أوس) كذلك . وانقسمت هذه الكتلة الى أربعة أقسام ، هي : ختمة وهي (جشم) في الأصل ، وأمية ، ووائل وهي مرّة ، وواقف وهي امرؤ القيس . وانقسمت هذه البطون الى أفخاذ عديدة ، حدثت بينها منازعات وحروب [1] .

ويرجع أهل الأخبار نسب أهل (قباء) الى (عوف) ، ونسب (النبيت) الى (عمرو) ، ونسب (الجعادرة) الى (مرّة) . وقيل انهم سمّوا بذلك لانهم كانوا يقولون للرجل اذا جاورهم (جعلرْ حيث شئت ، فأنت آمن . أي اذهب حيث شئت) . ومنهم بنو كلفة وبنو حنش وبنو ضبيعة [2] .

ومن الأوس (أحيحة بن الجلاّح بن الحريش بن جحجبا) ، سيّد الأوس في الجاهلية شاعر . وكانت عنده (سلمى بنت عمرو النجارية) ، وأولاده منها إخوة عبد المطلب . وهو من (بني جحجبا) . ومن ولده (المنذر بن عقبة ابن أحيحة بن الجلاّح) ، شهد بدراً وقتل يوم بئر معونة [3] . وله أشعار ذكرها الرواة ، منها أبيات في رثاء ابن له [4] .

وأما الخزرج ، فانهم إخوة الأوس في عرف النسابين . فالخزرج ، وهو جدّ الخزرج ، هو شقيق أوس . وهو (الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر ابن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن عبد الله بن الأزد) . وقد جاء نسله كما جاء نسل الأوس من اليمن بعد حادث سيل العرم ، وسكنوا يثرب والى الشمال منها حتى (خيبر) و (تيماء) . وتأريخهم مثل تأريخ الأوس في رأي الأخباريين بدأ بالاتصال باليهود وبالعيش معهم وبينهم الى ان تمكنوا منهم بعد الحادث الذي ذكرته وبعد مجيء أبي جبيلة لنصرتهم [5] .

---

١ الاشتقاق (ص ٢٥٩) .

٢ الاشتقاق (ص ٢٥٩ وما بعدها) .

٣ الاشتقاق (ص ٣٦٢) .

٤ رسالة الغفران (٥٥٤ ، ٥٦٢) .

٥ البلدان (٤٢٨/٧) ، الكامل (٢٧٥/١) ، السويدي ، سبائك الذهب (٦٩) ، المعارف لابن قتيبة (٢٦٠) ، دائرة المعارف الاسلاميه ، (١٥٠/٣) ، السهيلي ، الروض الأنف (١٤/١) ، سيرة ابن هشام (٢٠٤/٢) ، (القاهره ١٩٣٦ م) ، Ency., I, P. 523

ومن سادات الأوس عند ظهور الاسلام ، (سعد بن معاذ) ، الذي قتل يوم (الخندق) ، وأخوه (عمرو بن معاذ) ، وقتل يوم أحد) . و (سماك ابن عتيك) فارسهم في الجاهلية ، وابنه (حضير الكتائب) ، وكان سيد الأوس ورئيسهم يوم بعاث . وابنه (أسيد بن حضير) ، شهد بدراً [1] . ومنهم (أبو الهيثم بن التيهان) ، وكان نقيباً ، شهد العقبة وبدراً . و (قيس بن الحطيم بن عدي) الشاعر [2] . و (سعد بن خيثمة) ، وكان نقيباً ، وقتل يوم بدر ، وأبو قيس بن الأسلت الشاعر . و (شاس بن قيس بن عبادة) ، وكان من أشراف الأوس في الجاهلية [3] .

والخزرج أيضاً بطون ، أشهرها : بنو النجار وينتسبون الى (تيم الله بن ثعلبة) والحارث ، وجشم ، وعوف ، وكعب [4] . ويلاحظ ان جشماً وعوفاً هما اسما بطنين أيضاً من بطون الأوس .

ومن الخزرج (أبو أيوب خالد بن زيد) ، نزل عليه النبي أيام قدم المدينة . و (نعيمان بن عمرو) ، وكان النبي يستخف نعيمان ، لم يلقه قط إلا ضحك اليه . و (أسعد الخير بن زرارة بن عدس) ، شهد العقبة وكان نقيباً ، و (أبو أنس بن صرمة) الشاعر ، وهو جاهلي [5] ، و (ثابت بن قيس بن شاس) ، خطيب رسول الله ، وعمرو بن الاطنابة الشاعر ، جاهلي وهو أحد فرسان الخزرج [6] . و (سعد بن عبادة بن دليم) وابنه (قيس بن سعد بن عبادة) وكان نقيباً سيداً جواداً ، وابنه قيس أجود أهل دهره في أيام معاوية ، ومنهم (مالك بن العجلان) قاتل (الفطيون) ، وابنه (عثمان بن مالك بن العجلان) ، شهد (بدراً) [7] ، و (خالد بن قيس بن العجلان) ، شهد بدراً ، و (عمرو بن النعمان بن كلدة بن عمرو بن أمية بن عامر بن بياضة) .

---

١ الاشتقاق (ص ٢٦٣) .
٢ الاشتقاق (ص ٢٦٤) .
٣ الاشتقاق (ص ٢٦٥ وما بعدها) .
٤ الاشتقاق (ص ٢٦٦) .
٥ الاشتقاق (ص ٢٦٧) .
٦ الاشتقاق (٢٦٨) .
٧ الاشتقاق (٢٧٠ وما بعدها) .

رأس الخزرج يوم بُعاث[1] . و (رافع بن مالك بن العجلان) ، وهو أول من أسلم من الأنصار ، و (النعمان بن العجلان)[2] . و (مرداس بن مروان) ، شهد يوم الحديبية ، وبايع تحت الشجرة ، وكان أمين النبي على سُهمان خيبر[3] ، و (خشرم بن الحباب) ، وكان حارس النبي . و (البرّاء بن معرور) ، عقبيّ وكان نقيباً ، وهو أول من أوصى بثلث ماله وأول من استقبل القبلة ، وأول من دفن عليها[4] . و (أبو قتادة بن ربعي) فارس النبي[5] .

ويذكر الأخباريون انه كان للخزرج رئيس منهم ، هو (عمرو بن الأطنّابة) ، وقد ملك الحجاز . وكان ملكه على رأيهم في أيام (النعمان بن المنذر) ، قتله الحارث بن ظالم قاتل خالد بن جعفر بن كلاب[6] . وكانت بينه وبين (عمرو) خصومة . وذكر ان (عمراً) ، قال شعراً يهزأ فيه بالحارث جاء فيه :

أبلغ الحارث بن ظالم المُوعِدَ والناذر النذور عليّا
إنما تقتل النيام ولا تقتل يقظان ذا سلاحٍ كميّا

وكان عمرو شاعراً ومن الفرسان[7] .

وبالرغم من صلة الرحم القريبة التي كانت بين الأوس والخزرج ، فقد وقعت بينهما حروب هلك فيها من الطرفين خلق كثير . وأول حرب وقعت بين الأوس والخزرج هي على رواية الأخباريين حرب (سمير) (سميحة) . و (سمير) في روايتهم رجل من الأوس من بني عمرو ، شتم رجلاً اسمه كعب بن العجلان ، وهو من بني ثعلبة من سعد بن ذبيان ، نزل على مالك بن العجلان رئيس الخزرج وحالفه وأقام معه ، ثم قتله . فثارت الثائرة بين الأوس بسبب هذا القتل وبسبب دفع دية القتيل ، ثم وقعت الحرب . ثم اتفقوا على ان يضعوا حكماً بينهم يفصل في الأمر ، فوقع اختيارهم على (المنذر بن حرام النجاري الخزرجي) . وهو

١ الاشتقاق (ص ٢٧١ وما بعدها)
٢ الاشتقاق (٢٧٢) .
٣ الاشتقاق (٢٧٣) .
٤ الاشتقاق (٢٧٣) .
٥ الاشتقاق (٢٧٥) .
٦ ابن خلدون (٢/٢٨٩) ، الاغاني (١١/١٢١ وما بعدها) .
٧ الاشتقاق (٢٦٨) .

جدّ حسان بن ثابت ، فحكم بينهم بأن يؤدوا لكعب دية الصريح ، ثم يعودوا الى سنّتهم القديمة ، وهي دفع نصف الدية عن الحليف . فرضوا وتفرقوا ، ولكن بعد ان تمكنت العداوة والبغضاء في نفوس الطرفين[١] .

واشتعلت نيران حرب أخرى بين الأوس والخزرج لسبب امرأة من (بني سالم) . وقد كانت الحرب في هذه المرة بين (بني جحجبا) من الأوس و (بني مازن بن النجار) من الخزرج . وقد وقعت في موضع (الرحابة) انهزمت فيه (بنو جحجبا)[٢] .

ثم تجددت الحرب بين (عمرو بن عوف) من الأوس وبني الحارث من الخزرج بسبب مقتل رجل من بني عمرو . وقد عرفت هذه الحرب باسم : (يوم السرارة) . وقد كان على الأوس (حضير بن سماك) . وهو والد (أسيد بن حضير) ، وكان على الخزرج (عبد الله بن سلول) (عبد الله بن أُبَيّ) المعروف في الاسلام ب (رأس المنافقين) . وقد انتهت بانصراف الأوس الى دورها ، فعدت الخزرج ذلك نصراً لها[٣] .

ووقعت حرب أخرى لأسباب تافهة كهذه الأسباب . وما كانت لتقع لولا هذه العصبية الضيقة يثيرها في الغالب أفراد لا منازل كبيرة لهم في المجتمع ، ومنهم من الصعاليك والمغمورين بأمور سخيفة ، فإذا وقع على أحدهم اعتداء نادى قومه للأخذ بثأره ، فتثور الحرب . ومن هذه الحروب ، حرب بني وائل ابن زيد الأوسيين ، وبني مازن بن النجار الخزرجيين ، وحرب بني ظفر من الأوس وبني مالك من الخزرج ، وحرب فارع ، وحرب حاطب ، ويوم الربيع ، وحرب الفجار الأولى ، وهي غير حرب الفجار التي وقعت بين قيس وكنانة ، ثم حرب معبس ومضرس ، وحرب الفجار الثانية ، ثم يوم بُعاث . وكان هذا

١ الكامل (١/٢٧٧) ، الأغاني (٣/١٨ وما بعدها) (٢٠/٢٤ وما بعدها) ، المفضليات (ص ١٣٥) ، الاشتقاق (ص ٢٦٦) ، ابن رستة ، الأعلاق (٦٤) ، البلخي ، (البدء والتاريخ (٣/١٣٠) .

٢ الكامل (١/٢٧٧) .

٣ الكامل (١/٢٧٨ وما بعدها) ، (فمن بني الحبلى : عبدالله بن أبي بن مالك ، الذي يقال له ابن سلول . وسلول امه . وكان راس المنافقين . وكان أبنه عبدالله من خيار المسلمين) ، الاشتقاق (٢٧١) .

اليوم آخر الأيام المشهورة التي وقعت بين الأوس والخزرج [1] .

وكان رئيس الخزرج في يوم بعاث (عمر بن النعمان بن صلاءة بن عمرو بن أمية بن عامر بن بياضة) . أمـــا رئيس الأوس ، فكان (حضير الكتائب بن سماك بن عتيك بن امرىء القيس بن زيد بن عبد الأشهل) . وقد ساعد الخزرج في هذا اليوم أشجع من غطفان ، وجهينة من قضاعة . وساعد الأوس مزينة من أحياء طلحة بن إياس ، وقريضة والنضير . وقد قتل فيـــه (عمرو بن النعمان) رئيس الخزرج . فانهزم الخزرج ، وانتصرت الأوس [2] .

وكان (حضير الكتائب بن سماك) سيد الأوس ورئيسهم يوم بعاث . ركز الرمح في قدمه وقال : ترون أفر ! ؟ فقتل يومئذ . وابنه (أسيد بن حضير) من الصحابة الذين شهدوا العقبة وبدراً [3] .

وقد تخلل أخبار هذه الأيام كالعادة شعر ، ذكر ان شعراء الطرفين المتخاصمين قالوه على الطريقة المألوفـــة في الفخر ، وفي انتقاص الخصم ، وفي اثارة النخوة لتصطلم الحرب ويستميت أصحاب الشاعر في القتال . وقد كان المحلّق في هـــذه الأيام حسان بن ثابت الشاعر المخضرم الشهير ، شاعـــر الرسول . وهـــو لسان الخزرج والمدافع عنهم ، و (قيس بن الخطيم) وهو من الأوس ، ثم جماعة ممن اشتركوا في المعارك ، مثل : عامر بن الاطنابة ، والربيع بن أبي الحقيق اليهودي ، وعبد الله بن رواحة وآخرون .

ويظهر من روايات أهل الأخبار عن يثرب ان الأوس والخزرج ، لم يكونوا كأهل مكة من حيث الميل الى الهدوء والاستقرار ، بل كانوا أميل من أهل مكة الى حياة البداوة القائمة على الخصومة والتقاتل . وقد بقي الحيّان يتخاصمان حتى جاء الرسول اليها ، فأمرهما بالكفّ عنه ، ووجّههما وجهة أخرى أنستهما الخصومة العنيفة التي كانت فيما بينهما . ويظهر من رواياتهم ايضاً ان الأوس والخزرج ، وإن

---

١ الكامل (١/٢٨٠ وما بعدها) .

٢ ابن خلدون (٢/٢٨٩ وما بعدها) ، ابن هشام (ص ٣٨٥) ، البرقوقي (ص ٢٧٨ وما بعدها) ، البلدان ، لياقوت (١/٤٥١) ، الميداني ، الأمثال (١/٢) ، اللسان (٦/١٨) ، (أوس) ، تاج العروس (١/٦٠٤) ، البكري ، معجم (١/٢٦٠) .

٣ الاشتقاق (٢٦٣) .

كانوا قد تحضروا واستقروا ، غير انهم لم يتمكنوا من التخلص من الروح الأعرابية تخلصاً تاماً ، بل بقوا محافظين على أكثر سجاياها ، ومنها النزعة الى التخاصم والتقاتل ، فألهتهم هذه النزعة عن الانصراف الى غرس الارض والاشتغال بالزراعة كما فعل اليهود ، وعن الاشتغال بالتجارة بمقياس كبير على نحو ما فعل أهل مكة .

ونظراً لمساعدة أهل يثرب للرسول ومناصرتهم له وللمهاجرين ، عرف الأوس والخزرج بـ (الأنصار) في الاسلام . وصاروا يفتخرون بهذه التسمية ، حتى غلبت عليهم ، وصارت في منزلة النسب .

وكان أهل (يثرب) مثل غيرهم تجاراً ، يخرجون الى أسواق الشأم فيتجرون بها . وقد ذكر أهل الأخبار أسماء رجال منها تاجروا مع بلاد الشأم . وكان (يهود) يثرب يتاجرون أيضاً ، ويأتون الى أهل (يثرب) بما يحتاجون اليه من تجارات . كما (كانت الساقطة تنزل المدينة في الجاهلية والاسلام يقدمون بالبر والشعير والزيت والتين والقماش ، وما يكون في الشأم)[1] . وكانوا يتسقطون الاخبار وينقلونها الى الروم عند ظهور الاسلام . فقدم بعض الساقطة المدينة ، وأبو بكر ينفذ الجيوش ، وسمعوا كلام أبي بكر لعمرو بن العاص ، وهو يقول : عليك بفلسطين وإيليا ، (فساروا بالخبر الى الملك هرقل)[2] ، وتهيأ للاقاة المسلمين .

ولم يذكر الرواة جنس هؤلاء (الساقطة) ، اللذين كانوا يأتون بالتجارة من بلاد الشأم الى المدينة ، هل كانوا روماً أم عرباً ، أم يهوداً ، أم كانوا خليطاً من كل هؤلاء . على كل كانوا تجاراً يأتون يثرب في الجاهلية لبيع ما يحملونه من تجارة ، ولشراء ما يجدونه هناك ، وبقوا شأنهم هذا الى الاسلام ، كما نرى من الخبر المتقدم .

هذا هو مجمل ما نعرفه عن تأريخ (يثرب) وهو شيء قليل ، لا يكفي المتعطش لمعرفة تأريخ هذه المدينة التي تعدّ من المواضع المقدسة في الاسلام . ولا

---

١ الواقدي ، فتوح (ص ١٦) ، (طبعة بيروت ١٩٦ م) .
٢ الواقدي ، فتوح (١٦ وما بعدها) .

بد وان يأتي يوم سنكتشف فيه الأقنعة عن تأريخ المدينة قبل الاسلام . وذلك حين يقوم المنقبون المتخصصون بالبحث في تربتها عن الماضي المستور الدفين .

الطائف :

والطائف على مسافة خمسة وسبعين ميلاً تقريباً الى الجنوب الشرقي من مكة . وهي على عكس مكة أرض مرتفعة ذات جوّ طيب في الصيف فيه زرع وضرع ، وغنى جادت الطبيعة به على أهله . وقد كان وما زال مصيفاً طيباً يقصده أهل مكة فراراً من وهج الشمس .

وتقع الطائف على ظهر جبل غزوان ، وهو أبرد مكان في الحجاز ، وربما جمد الماء في ذروته في الشتاء ، وليس بالحجاز موضع يجمد فيه الماء سوى هذا الموضع . وبينها وبين مكة وادٍ اسمه نعمان الأراك . وهي كثيرة الشجر والثمر ، وأكثر ثمارها الزبيب والرمان والموز والأعناب ، ولا سيما الصديفي ، وفواكه أخرى عديدة . وهي تموّن مكة بالفواكه والبقول [1] . وتحيط بها الأودية . ومن مواضعها ، (الوهط) ، وهو وادٍ ، أو مكان مطمئن من الارض مستوٍ ، تنبت فيه العضاه والسمر والطلح والعرفط ، وقد اتخذ بستاناً ، صار لـ (عمرو ابن العاص) ، ثم لابنه . وقد عرف بكثرة كرمه وأنواع أعنابه [2] .

والى الشرق من الطائف وادٍ يقال له (ليّة) ، ذكر بعض أهل الأخبار ان أعلاه لثقيف وأسفله لـ (بني نصر بن معاوية) من هوازن [3] .

وتأريخ مدينة الطائف تأريخ غامض ، لا نعرف من أمره شيئاً . إذْ لم تمسّ تربتها أيدي علماء الآثار بعد ، كما ان السياح لم يجلوا في الطائف كتابات قديمة بعد . ولكن مكاناً مثل الطائف لا بد ان يكون له تأريخ قديم ، ولا يعقل ان يكون من الأمكنة التي ظهرت ونشأت قبيل الاسلام . وليس لنا من أمل في

١ تقويم البلدان (٩٥) ، صورة الأرض ، لابن حوقل (٣٩) ، البكري ، معجم (٣/٣١ ، ٨٨٦) .
٢ تاج العروس (٥/٢٤٣) ، (وهط) .
٣ صفة (١٢٠) ، تاج العروس (١٠/٣٣٤) ، (لوو) .

الحصول على شيء من تأريخ الطائف إلا بقيام العلماء بمناجاة تربتها واستدراجها لتبوح لهم بما تكنّه من كتابات مسجلة في الالواح يتحدث عن تأريخ هذا المكان المهم .

وقد عثر الباحثون فعلاً على كتابات ملوّنة على الصخور المحيطة بمدينة الطائف الحديثة وفي مواضع غير بعيدة عنها . وقد تبين ان بعضاً منها بالنبطية وبعضاً آخر بالثمودية ، وان بعضاً بأبجدية أخرى ، وان بعضاً بأبجدية القرآن الكريم ، أي بقلم اسلامي . ولا يستبعد عثور العلماء في المستقبل على كتابات ستكشف عن تأريخ هذه البقعة ، وعن تأريخ من سكنها قبل الاسلام وقبل ثقيف . وذُكر ان بعض كتابات يشبه شكلها شكل الأبجدية اليونانية ، وكتابات أخرى يشبه خطها الخط الكوفي عثر عليها في (بستان شهار) على مسافة كيلومترين الى الجنوب من الطائف [1] . غير انها لم تدرس حتى الآن . ومكان مهم بالنسبة للطرق التجارية ولموقعه المعتدل الجميل ، لا بد وان يكون قد لفت أنظار سكان العربية الغربية قبل الميلاد فسكنوه ، ولا أستبعد امكانية تدوين تأريخ صحيح لهذه المدينة اذا ما قام المنقبون بالبحث فيها وفي الأماكن القريبه منها لاستنطاقها ، لتتحدث لهم عما عرفته من أخبار تلك الشعوب التي سكنت هذا الموضع قبل ثقيف .

ويزعم أهل الأخبار ان الطائف انما سميت طائفاً ، بحائطها المطيف بها . اما اسمها القديم ، فهو (وَجّ) . ولهم روايات عن كيفية قيام ذلك الحائط . وقد حاول بعض أهل الأخبار اعطاء الطائف مسحة دينية ، فزعموا بأنها من دعوات ابراهيم ، وانها قطعة من أرض ذات شجر كانت حول الكعبة ، ثم انتقلت من مكانها بدعوة ابراهيم ، فطافت حول البيت ، ثم استقرت في مكانها ، فسميت الطائف ، وزعمت ان جبريل اقتطعها من فلسطين ، وسار بها الى مكة فطاف بها حول البيت ، ثم أنزلها حول الطائف [2] . وهكذا أكسبت هذه الروايات الطائف

---

١ Osman R. Rostem, Rock Inscriptions in the Hijaz, P. 11.

٢ البلدان (٣ /٤٩٩ وما بعدها) ، المقدسي البدء والتاريخ (٢/١٠٩) ، الكامل ، لابن الاثير (١/٤٢٠ وما بعدها) ، (والطائف من بلاد ثقيف . قال أبو طالب بن عبد المطلب :

منعنا أرضنا من كل حيّ كما امتنعت بطائفها ثقيف

وهي في واد بالغور ، أول قراها : لقيم وآخرها الوهط . سُمّيت لانها طافت على=

قدسية ، وجعلت لها مكانة دينية . وهي روايات يظهر انهـا وضعت بتأثير من سادات ثقيف المتعصبين لمدينتهم ، والذين كانوا يرون ان مدينتهم ليست بأقـل شأنـاً من مكة أو يثرب . وقـد كان بها سادات وأشراف كانوا أصحـاب مـال وثراء .

وقد زعم بعض أهل الأخبار ان الذي أقام حائط الطائف رجل من الصدف ، يقال له (الدمون بن عبـد الملك) ، قتل ابن عمٍّ له يقـال له (عمرو) بحضرموت ، ثم فرَّ هارباً ، ثم جاء الى (مسعود بن معتب الثَّقَفيّ) ومعـه مال كثير ، وكان تاجراً ، فقال : أريد ان أحالفكم على ان تزوجوني وأزوجكم

= الماء في الطوفان ، أو لأن جبريل عليه السلام طاف بها على البيت سبعا . نقلـه الميورقي عن الأزرقي . أو لأنها كانت قرية بالشام فنقلها الله تعالى الى الحجاز بدعوة ابراهيم عليه السلام اقتلاعا من تخوم الثرى بعيونها وثمارها ومزارعها وذلك لما قال: ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . نقله أبو داود الأزرقي في تاريخ مكة وابو حذيفة اسحاق بن بشر القرشي في كتاب المبتدأ، وهو قول الزهري . وقال القسطلاني في المواهب : ان جبريل عليه السلام اقتلع الجنة التي كانت لاصحاب الصريم فسار بها الى مكة ، فطاف بها حول البيت ثم انزلها حيث الطائف ، فسمي الموضع بها . وكانت أولا بنواحي صنعاء . واسم الأرض وج . وهي بلدة كبيرة على ثلاث مراحل أو اثنتين من مكة من جهة المشرق كثيرة الأعناب والفواكه . وروى الحافظ بن عات في مجالسه أن هذه الجنة كانت بالطائف ، فاقتلعها جبريل وطاف بها البيت سبعا ثم ردها الى مكانها ثم وضعها مكانها اليوم . قال أبو العباس الميورقي : فتكون تلك البقعة من سائر بقع الطائف ، طيف بها بالبيت مرتين في وقتين ، أو لأن رجلا من الصدف ، وهو ابن الدمون بن الصدف . واسم الصدف : مالك بن مرتع بن كندة من حضرموت أصاب دما في قومه بحضرموت ففر الى وج ولحق بثقيف وأقام بها وحالف مسعود بن معتب الثقفي أحد من قيل فيه انه المراد من الآية : على رجل من القريتين عظيم . وكان له مال عظيم . فقال لهم : هل لكم أن أبني لكم طوفا عليكم يطيف ببلدكم يكون لكم ردءا من العرب . فقالوا : نعم فبناه وهو الحائط المطيف المحدق به . وهذا القول نقلـه السهيلي في الروض عن البكري وأعرض عنه . وذكر ابن الكلبي ما يوافق هذا القول . وقد خصت الطائف بتصانيف . وذكروا هذا الخلاف الذي ساقه المصنف وبسطوا فيه ، أورد بعض ذلك الحافظ ابن فهد الهاشمي في تاريخ له خصه بذكر الطائف) ، تاج العروس (١٨٤/٦) ، (طوف) .

وأبني لكم طوفاً عليكم مثل الحائط لا يصل اليكم أحد من العرب ، فوافقوا على ذلك ، وبنى لهم طوفاً عليهم ، فسميت الطائف ، فزوّجوه [1] .

وقد كان لأهل الطائف معبد يحجّون اليه ، هو معبد (اللات) . وكانوا يعظّمونه ويتبركون به . ويذكر أهل الأخبار ان اللات كان صخرة مربعة يلتّ يهودي عندها السَّويق . وكان سَدَنته (بنو عتاب بن مالك) وهم من ثقيف . وقد بنوا له بناءً ضخماً . وكانت العرب ، ومنها قريش ، تعظمه ، وتحجّ اليه وتطوف به . وقد هُدم في الإسلام ، عند فتح الطائف ودخول أهلها فيه . وقد هَدم الصنم : المغيرةُ بن شعبة ، وأحرقه بالنار . ويقع موضعه تحت منارة المسجد ، الذي بني على أنقاض ذلك المعبد ، وهو مسجد المدينة . فمسجد الطائف إذنْ هو معبد اللات القديم ، وهو في الطائف نفسها [2] .

ويُرجع أهل الأخبار زمان الطائف الى العمالقة ، ويقولون : انها انما سميت (وَجّاً) بوجّ بن عبد الحيّ ، من العماليق ، وهو أخو (أجأ) الذي سُمي به جبل (طيّ) . ثم غلب عليها (بنو علوان بن عمرو بن قيس بن عيلان ابن مُضَر) ، ثم غلبهم (بنو عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر هَوازن) ، وذلك بعد قتال شديد . ثم استغلّت ثقيف الظروف ، فاستـ عليها ، وأخذتها من (بني عامر) ، فارتحل (بنو عامر) عنها ، ونز الى تهامة ، وتحكم بها بنو ثقيف [3] .

١ البلدان (٦/١٠ فما بعدها) ،

٢ ابن الكلبي ، الأصنام (١٦ وما بعدها) ، القزويني ، آثار البلاد ، (٦٤ وما بعـ

٣ الكامل ، لابن الأثير (١/٤٢٠ وما بعدها) ، ابن قتيبة ، المعارف (٩١) ، (
اسم واد بالطائف بالبادية (؟) سمي بوج بن عبد الحي من العمالقة وقيل من خز
قال عمرو بن حزام :

أحقاً يا حمامة بطن وج ... بهذا النوح انك تصدقينا
غلبتك بالبكاء لأن كيلي ... أواصله وأنك تهجعينا
وإني ان بكيت بكيت حقاً ... ولكني أسرّ وتعلنينا
فنوحي يا حمامة بطن وج ... فقد هيجت مشتاقاً حزينا

قرأت هذه الأبيات في الحماسة لأبي تمام . والذي ذكرت هنا رواية المعجم ، وبينهـ
تفاوت قليل) ، تاج العروس (٢/١١٠) ، (الوج) ، (ووج موضع بالبادية
وقيل : هي الطائف) ، (وفي الحديث صيد وج وعضاهه حرام محرم ؛ قال : هو=

ويذكر بعض أهل الأخبار ان أول من ملك الطائف (عدوان بن عمرو بن قيس ابن عيْلان بن مضر) . فلما كثر (بنو عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر ابن هوازن) ، غلبوهم على الطائف بعد قتال شديد[1] . وقد كانت مواطن (بني عامر) بنجد . وكانوا يصيفون بالطائف ، حتّى غلبتهم ثقيف . فخرجوا الى تهامة . وكان منهم (عامر بن الظرب العدواني) أحد الحكماء العرب[2] .

وقد ورد في بعض الأخبار ان قوم ثمود هم الذين نزلوا بالطائف بعد العماليق ، فأخذوهـا منهم ، وذلك قبل ارتحالهم عنها الى وادي القُرى ، بسبب منازعـة القبائل لهم ، ومن ثم ربط رواة هذه الأخبار نسب ثقيف بثمود . وقـد صيّر بعض أهل الأخبار ثقيفاً مولى من موالي هوازن ، ونسبهم آخرون الى إياد[3] .

وجاء في رواية أخرى ان أقدم سكان الطائف هم بنو مهلائيل بن قينان ، وهم الذين عمروها وغرسوها وأحيوا مواتها . وقد سكنرها قبل الطوفان . فلما وقـع الطوفان ، كانوا في جملة من هلك فيه من الأمم الباغية . فخلت الطائف منهم ، وسكنها بعدهم بنو هانىء بن هذلول بن هوذلة بن ثمود ، فأعادوا بناءها وعمروها حتّى جاءهم قوم من الأزد على عهد (عمرو بن عامر) ، فأخرجوهم عنها ، وأقاموا بها وأخذوا أماكنهم ، ثم توالى عليها العرب حتّى صارت في أيدي ثقيف[4] .

وصيّر بعض أهل الأخبار ثقيفاً رجلاً منتشرداً ، اتفق مع ابن خاله النَّخَع على الهجرة في طلب الرزق والعيش ، فذهب النَّخَع الى اليمن ، فنزل بهـا ، وذهب (ثقيف) الى وادي القُرى ، فنزل على عجوز يهودية لا ولد لهـا ، واتخذها ثقيف أماً له . فلما حضرها الموت ، أوصت له بما كان عندها من دنانير وقضبان ، ثم دفنها وذهب نحو الطائف . فلما كان على مقربة منها ، وجد أمةً

= موضع بناحية الطائف وبحتمل أن بكون حرمه في وفت معلوم ثم نسخ . وفي حدبث كعب : ان وجا مفدس ، منه عرج الرب الى السماء) ، اللسان (٢/٣٩٧) ، (وجج) .

١ الكامل ، لابن الأثير (١/ ٤٢٠ وما بعدها) .

٢ ابن خلدون (٥/٦٣) .

٣ ابن خلدون (٢/٦٤١ وما بعدها) .

٤ الهمداني ، صفه (١/٣١٢ وما بعدها) ، البلدان (٣/٤٩٨ وما بعدها) ، اللسان (٩/٢٢٥) ، صورة الأرض (٣٩) .

حبشية ترعى غنماً ، فأراد قتلها ليستولي على ماشيتها ، فارتابت منه ، وأخبرته بأن يصعد الى الجبل . فيستجير بـ (عامر بن الظَّرِب العَدْواني) فإنه سيجيره ويغنيه ، ويربح أكثر من ربحه من استيلائه على هذه الغنم . فذهب اليه ، وأجاره ، وأغناه ، وأنزله عنده ، وزوّجه ابنة له ، وبقي مقيماً في الطائف ، وتكاثر ولده ، حتى زاحموا بني عامر ، وتلاحيا ثم اقتتلا ، فتغلبت ثقيف على بني عامر ، واستولت على الطائف[1] .

ويذكر هؤلاء الرواة ان ثقيفاً اتفقوا مع (بني عامر) على ان يأخذوا الطائف لهم ويرحل بنو عامر عنها ، فيدفعوا لهم نصف ما يحصلون عليه من غلات . وقد بقوا على ذلك أمداً ، حتى ثبّتت ثقيف نفسها في الطائف وقوّت دفاعها وأحكمت مواضعها ، ثم امتنعت عن دفع أي شيء كان لبني عامر ، فوقع قتال بين الطرفين انتهى بانتصار ثقيف . وصارت بذلك سيدة الطائف بلا نزاع .

وقد حسدهم طوائف من العرب ، وقصدوهم لما صار لهم من مركز ومن رزق رغد وأثمار وجنان ، ولكنهم لم يتمكنوا من الظفر بطائل ، وتركوهم على حالهم[2] .

وذكر بعض أهل الأخبار ان (عبد ضخم) كانوا فيمن سكن الطائف . وقد كانوا من عاد الأولى ، وهلكوا فيمن هلك من عاد ومن أقوام بائدة .

وذكر انه كان بالطائف قوم من يهود ، طُردوا من اليمن ومن يثرب ، فجاؤوا الى الطائف ، وسكنوا فيها ، ودفعوا الجزية لساداتها ، ومن بعضهم ابتاع (معاوية) أمواله بالطائف[3] .

وقد كان لوقوع الطائف على مرتفع ، ولحائطها المزود بأبراج واستحكامات

---

١ البلدان (٣/٤٩٨ وما بعدها) ، (وثقيف كأمير ، أو قبيلة من هوازن ، واسمه قسي بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان . وقد يكون ثقيف اسما للقبيلة والأول أكثر . قال سيبويه : وأما قولهم هذه ثقيف فعلى ارادة الجماعة . وانما قال ذلك لغلبة التذكير عليه . وهو مما لا يقال فيه من بني فلان) ، تاج العروس (٦/٥١ ، (ثقف) .

٢ البلدان (٣/٤٩٨ وما بعدها) .

٣ البلاذري ، فتوح (٦٨) .

الفضل بالطبع في صدّ الاعراب ومنعهم من نهبها وغزوها . والظاهر ان اهل الطائف كانوا قد اقتفوا اثر اليمن في الدفاع عن مدنهم وقراهم ، حيث كانوا يبنونها على المرتفعات في الغالب ، ثم يحيطون ما يبنونه بأسوار ذات ابراج لمنع العدوّ من الدنوّ منها ، ولا سيا الاعراب الذين لم يكونوا بحكم طبيعة معيشتهم في ارض منبسطة مكشوفة ، ولفقرهم وعدم وجود اسلحة حسنة لديهم يستطيعون مهاجمة مثل هـــذه التحصينات ، وأخذها على غِرّة حيث تقفل ابواب الأسوار وتغلق ليلاً ، وفي اوقات الخطر – فلا يكون في استطاعة احد ولوجها ، لذلك صارت هذه التحصينات من اثقل الاعداء على قلوب الاعراب .

ولما هَمّ (أبرهة) بالسير الى مكة ، كانت الطائف في جملة المواضع التي نزل بها في طريقـــه اليها . وقد خرج اليه مسعود بن معتب في رجال ثقيف ، فأتوه بالطاعة ، وبعثوا معه (أبا رغال) دليلاً ، فانزله المغمّس بين الطائف ومكة ، فهلك (ابو رغال) هناك وقبره في ذلك الموضع .

وعند ظهور الاسلام كان أغلب سكان هذا الموضع ينتسبون الى قبيلة ثقيف . وترجع هذه القبيلة نسبها مثل القبائل الاخرى الى جدّ أعلى ، يقولون ان اسمـــه (قسيّ بن منبه) ، ويقول الأخباريون انما دعي قسيّـــاً لأنه قتل رجلاً ، فقيل قسا عليه ، وكان غليظاً قاسياً .[1]

والنسابون يختلفون في نسبه ، فمنهم من ينسبه الى إياد ، فيجعله قسيّ بن نبت ابن منبه بن منصور بن مقدم بن أفصى بن دُعْميّ بن إياد بن معدّ ، ومنهم من يجعله من هوازن ، فيقول : قسيّ بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور ابن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان .[2]

ونحن اذا درسنا ما رواه اهل الاخبار عن نسب ثقيف ، وعن القبائل التي اتصلت بها ، نجد انها كانت ذات صلة وثيقة بقبائل (قيس عيلان) من مجموعة مضَر . ومعنى هذا انها كانت على مقربة منها ، وانها كانت من قبائل مضر . كما نجد في الوقت نفسه انها كانت على صلات وثيقة مع بعض قبائل اليمن . وقد

---

١ الاشتقاق (١٨٣) .

٢ ابن الأثير ، الكامل (١/٢٨٨) ، الأغاني (٤/٧٤) ، البلاذري ، انساب الاشراف (٢٥ وما بعدها) ، Ency., IV, P. 734.

فسرت هذه الصلات بوجود نسب لثقيف باليمن . وهذا النسب المزدوج ، هو كناية عن الصلات التي كانت تربط بين (ثقيف) ومجموعة (مضر) ، وبينها وبين قبائل اليمن . وهو تعبير عن موضع الطائف المهم الوسط ، الذي يربط بين اليمن والحجاز والطرق المارة الى نجد . مما جعله وسطاً وموضعاً للاحتكاك بين قبائل هذه الأرضين .

وصيروا ثقيفاً في رواية اخرى ابناً لأبي رغـال ، ثم رفعوا نسب الابن والأب الى قوم ثمود ، وجعله حمّاد الرواية ملكاً ظالماً على الطائف ، لا يرحم احداً ، مرّ في سنة مجدبة بامرأة ترضع صبيّاً يتيماً بلبن عنزٍ لها ، فأخذهـا منها فبقى الصبي بلا مرضعة ، فمات ، فرماه الله بقارعة فأهلكه ، فرجمت العرب قبره ، وصار رجم قبره سُنة للناس .[1] فهل تجد رجلاً ألأم من هذا الرجل على هذا الوصف ؟ .

وقد قيل في (ابي رغال) انه كان رجلاً عشّاراً في الزمن الأول ، جائراً ، وقيل كان عبـداً لشعيب ، وقيل : اسمه (زيد بن مخلف) عبدٌ كان لصالح النبيّ ، وأنه ارسله الى قوم ليس لهم لبن الا شاة واحدة ، ولهم صبي قد ماتت أمه يغذونه بلبن تلك الشاة ، فأبى ان يأخذ غيرها ، فقالوا : دعها نحايي بها هذا الصبي ، فأبى ، (فيقال : انه نزلت به قارعة من السماء ، ويقال : بل قتله رب الشاة . فلما فقده صالح ، قام في الموسم ينشد الناس ، فأخبر بصنيعه ، فلعنه ، فقبره بين مكة والطائف يرجمه الناس) .[2]

١ الأغانـي (٤/٧٤) .

٢ (عن أنس . قال : سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حين خرجنا معه الى الطائف فمررنا بقبر ، فقال : هذا قبر أبي رغال ، وهو أبو ثقيف . وكان من ثمود ، وكان بهذا الحرم يدفع عنه ، فلما خرج منه أصابته النقمة التي اصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه . الحديث . وأورده القسطلاني هكذا في المواهب في وفادة ثقيف . وبسطه الشراح . وقول الجوهري والصاغاني كذلك انه كان دليلا للحبشة حين توجهوا الى مكة حرسها الله تعالى ، فمات في الطريق بالمغمس . قال جرير :

اذا مات الفـرزدق فارجمـوه … كما ترمون قبـر ابي رغـال

غير جيد . وكذا قول ابن سيده كان عبدا لشعيب على نبينا وعليه الصلاة والسلام . وكان عشّارا جائرا فقبره بين مكة والطائف يرجم اليوم . وقال ابن المكرم : ورايت في هامش الصحاح ما صورته: أبورغال اسمه زيد بن مخلف عبد كان لصالح النبي-

وفي رأيي ان معظم هذه الروايات التي يرويها الاخباريون عن ثقيف انما وضعت في الاسلام ، بغضاً للحَجاج الذي عرف بقسوته وبشدته ، فصيروا ثقيفاً عبداً لأبي رغال ، وجعلوا اصله من قوم نجوا من ثمود . وأبو رغال نفسه جاسوس خائن في نظر الاخباريين ، حاول إرشاد أبرهة الى مكة ، فكيف يكون اذن حال رجل من قوم فَسَقَة كَفَرة ، ثم صار عبداً لجاسوس لئيم ! وقد رأيت ان من اهل الاخبار من صيّر (ثقيفاً) رجلاً مهاجراً ، هاجر في البلاد يلتمس العيش حتى جاء وادي القُرى ، فتبنّته عجوز يهودية ، وعطفت عليه ، حتى اذا ما ماتت اخذ مالها ، وهاجر الى الطائف ، وكان لئيماً فطمع في غنم لأَمة حبشية ، وكاد يقتلها لولا اشارتها عليه باللجوء الى (عامر بن الظَّرِب) ، الجواد الكريم وصاحب الطائف ، فأعطاه وحباه ، ولكن أبى لؤم ثقيف الا ان ينتقل الى ولده ، فتنكروا لبني عامر وأخرجوهم عن الطائف ، واستبدوا وحدهم بها .

وبنو ثقيف حزبان : الأحلاف ومنهم : (غيلان بن سلمة) و (كنانة بن عبد ياليل) و (الحكم بن عمرو بن وهب بن معتب) ، و (ربيعة بن عبد ياليل) و (شرحبيل بن غيلان بن سلمة) و (عثمان بن أبي العاص) و (أوس بن عوف) و (نُمير بن خرشة بن ربيعة) ، وقد ذهب هؤلاء الى الرسول وأسلموا ، فاستعمل عليهم (عثمان بن ابي العاص) . وأما القسم الثاني ، فعرف بـ (بني مالك) ، وقد ذهب نفر منهم مع هذا الوفد الى الرسول ، فضرب لهم قبة في المسجد . واما الاحلاف ، فنزلوا ضيوفاً على (المغيرة بن شعبة) وهو من ثقيف .[1]

= عليه السلام بعثه مصدقا ، انه أتى قوما ليس لهم لبن الا شاة واحدة ولهم صبي قد ماتت أمه ، فهم يعاجونه بلبن تلك الشاة ، يعني يغذونه ، فأبى ان يأخذ غيرها . فقالوا : دعها تحايي هذا الصبي ، فأبى . فيقال انه نزلت به قارعة من السماء . ويقال : بل قتله رب الشاة ، فلما فقده صالح عليه السلام ، قام في الموسم ينشد الناس ، فاخبر بصنيعه ، فلعنه ، فقبره بين مكة والطائف يرجمه الناس) ، تاج العروس (٣٤٨/٧) ، (رغل) ، (والمغمس كمعظم ومحدث ، الأول هو المشهور عن أهل مكة والثاني نقله الصاغاني ، وقال لغة فيه بطريق الطائف بالقرب من مكة . فيه قبر أبي رغال دليل أبرهة الحبشي الى مكة ويرجم الى الآن . قال أمية بن أبي الصلت :

حبس الفيل بالمغمس حتى ظل فيه كأنه معقور) ، تاج العروس (٢٠٣/٤) ، (غمس) .

١ ابن سعد ، طبقات (١ /٣١٢ وما بعدها) .

ومن الاحلاف في الاسلام : المختار بن أبي عبيد ، والحجاج بن يوسف .

ومن زعماء الاحلاف عند ظهور الاسلام : اميّة بن ابي الصلت ، والحارث ابن كلدة ، ومعتب ، وعتاب ، وأبو عتبة ، وعتبان .[1]

ويذكر اهل الاخبار ان حرباً وقعت بين (مالك) والاحلاف ، فخرجت الاحلاف تطلب الحلف من اهل يثرب على (بني مالك) ، وعلى رأسها (مسعود ابن معتب) رأس الاحـــلاف . فقدم على (احيحة بن الحلاّج) ، احد بني عمرو بن عوف من (الأوس) . فطلب منه الحلف . فأشار عليه (احيحة) ، ان عليه ان يعود الى الطائف ويصالح اخوانه ، فان احداً لن يبر له اذا حالفهم . فانصرف (مسعود) عن (عتبة) بعد ان زوّده بسلاح وزاد وأعطاه غلاماً يبني الاسوار . فلما وصل ، أمر الغلام ببناء سور حول الطائف . فبناه له ، وأحيطت الطائف بسور قوي حصين ، وأمنت بذلك على نفسها من غارات الاعراب .[2]

ويختلف اهل الطائف عن اهل مكة ، وعن الاعراب من حيثُ ميلُهم الى الزراعة واشتغالهم بها وعنايتهم بغرس الاشجار . وقد عرفت الطائف بكثرة زبيبها وأعنابها واشتهرت بأثمارها . وقد كان اهلها يُعنون بزراعة الأشجار المثمرة ، ويسعون الى تحسين انواعها وجلب انواع جديدة لها ، فقد استوردوا اشجاراً من بلاد الشام ومن أماكن أخرى وغرسوها ، حتى صارت الطائف تموّن مكة وغيرهـــا بالأثمار والخضر .

وثقيف حضر مستقرون متقدمون بالقياس الى بقية اهل الحجاز . فاقوا غيرهم في الزراعة اذ عنوا بها كما ذكرت ، واستفادوا من الماء فائدة كبيرة ، وأحاطوا المدينة ببساتين مثمرة ، كما فاقوا في البناء فبيوتهم جيدة منظمة ، وكان لهم حذق ومهارة في الأمور العسكرية . وقد تجلى ذلك في دفاعهم عن مدينتهم يوم حاصرها الرسول وتحصنهم بسورهم ، ورميهم المسلمين بالسهام وبالنار من فوق سورهم ، يوم لم يكن لمكة ولا للمدينة سور ولا خنادق .

كذلك اختلف اهل الطائف عن غيرهم من أهل الحجاز في ميلهم الى الحرف

١ المعارف (٩١) .
٢ ابن الأثير ، الكامل (١/ ٤٢٠ وما بعدها) .

اليدوية مثل الدباغة والنجارة والحدادة ، وهي حرف مستهجنة في نظر العربي ، يأنف من الاشتغال بها . ولكن أهل الطائف احترفوها ، وربحوا منها ، وشغّلوا رقيقهم بها . وقد استفادوا من خبرة الرقيق ، فتعلموا منهم ما لم يكن معروفاً عندهم من اساليب الزراعـة وأعمال الحرف ، فجددوا وأضافوا الى خبرتهم خبرة جديدة .

وقد عاش أهل الطائف في مستوى هو أرفع من مستوى عامة أهل الحجاز ، فقد رزقوا فواكه أكلوا منها ، وجففوا بعضا منها مثل (الزبيب) ، وأكلوا وصدروا منه ما زاد عن حاجتهم ، كما اقتاتوا بالحبوب واللحوم . حتى حظ فقراء الطـائف ، هو أرفع وأحسن درجة من حظ فقراء المواضع الأخرى من الحجاز .

وقد ذهب المفسرون الى أن كلمة القريتين الواردة في القرآن الكريم ، تعني مكة والطائف . (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) .[1]

وكان رؤساؤها من المثرين الكبار ، لهم حصون يدافعون بها عن انفسهم وعن أموالهم ، ولهم علم بالحرب . ولحماية مدينتهم أقاموا حصوناً على مسافات منها ، وحوّطوا مدينتهم بسور حصين عال ، يردّ من يحاول دخولها ، وجمعوا عندهم كل وسائل المقاومة الممكنة التي كانت معروفة في ذلك العهد ، مثل أوتاد الحديد التي تحمى بالنـار لتلقى على الجنود المختفين بالدبابات ، وغير ذلك من وسائل المقاومة والدفاع ، كما كانوا قد تعلّموا من أهل اليمن مثل مدينة « جرش » صناعة العرادات والمنجنيق والدبابات .[2]

وكان أغنياء (الطائف) ، كأغنياء مكة وأغنياء المواضع الاخرى من جزيرة العرب أصحاب ربا ، ولمـا اسلموا اشترط عليهم الرسول أن لا يرابوا ، ولا يشربوا الخمر . وكتب لهم كتاباً .[3] وكانت لهم تجارة مع اليمن ، ولكننا لا نسمع

١ الزخرف ، الآية ٣١ ، الطبرسي ، مجمع (٤٦/٥) ، تفسير الطبري (٣٩/٢٥) .
٢ ابن سعد ، طبقات (٣١٢/١) (بيروت ١٩٥٧ م) ، السيرة الحلبية (١٣١/٣ وما بعدها) .
٣ البلاذري ، فتوح (٦٧) .

شيئاً عن قوافل كبيرة كقوافل أهل مكة ، كانت تتاجر مع بلاد الشام أو العراق . ولعلهم كانوا يساهمون مع تجار مكة في اتجارهم مع تلك الديار .

وقد اشتهرت الطائف بدباغة الجلود ، وذكر أن مدابغها كانت كثيرة ، وأن مياهها كانت تنساب الى الوادي ، فتنبعث منها روائح كريهة مؤذية .[1] واشتهرت بفواكهها وبعسلها .[2]

وقد استغل أثرياء قريش أموالهم في الطائف ، فاشتروا فيها الأرضين وغرسوها واستثمروها ، واشتروا بعض المياه ، وبنوا لهم منازل في الطائف ليتخذوها مساكن لهم في الصيف ، وأسهموا مع رؤساء ثقيف في أعمال تجارية رابحة ، وربطوا حبالهم بحبالهم ، وحاولوا جهد امكانهم ربط الطائف بمكة في كل شيء .[3]

ولما فتحت مكة ، وأسلم أهلها طمعت ثقيف فيها ، حتى اذا فتحت الطائف أقرت في أيدي المكيين ، وصارت أرض الطائف مخلافاً من مخاليف مكة .[4]

وقد كان بين أهل مكة وأهل الطائف تنافس وتحاسد ، وقد حاول أهل الطائف جلب القوافل اليهم ، وجعل مدينتهم مركزاً للتجار يستريحون فيه ، وقد نجحوا في مشروعهم هذا بعض النجاح يوم استولى الفرس على اليمن ، وتمكنوا فيه من طرد الحبش عن العربية الجنوبية ، فصارت قوافل (كسرى) التجارية و (لطائم) ملوك الحيرة تذهب الى اليمن وتعود منها من طريق الطائف ، ونغصت بذلك عيش أهل مكة ، غير أن أهل مكة تمكنوا من التغلغل الى الطائف ومن بسط سلطانهم عليها ، باقراض سادتها الأموال ، وبشراء الأرضين. فبسطوا بذلك سلطانهم عليها ، وأقاموا بها أعمالاً اقتصادية خاصة ومشتركة ، وهكذا استغل أذكياء مكة هذا الموضع المهم ، وحولوه الى مكان صار في حكم التابع لسادات قريش .

ومن سادات الطائف : (عبد ياليل) وإخوته (حبيبا) و (مسعودا) و (ربيعة) و (كنانة) وهم (بنو عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن

١ البلدان (٦/١٠ وما بعدها) .
٢ البلاذري ، فتوح (٦٨ وما بعدها) .
٣ البلاذري ، فتوح (٦٨) .
٤ البلاذري ، فتوح (٦٨) .

غيرة الثقفي) ، وكانوا أثرياء أجواداً يطعمون بالرياح [1] . وأمهم (قلابة بنت الحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج) الثقفي [2] . وبيت (بني عـلاج) من البيوت القديمة المعروفة بالطائف [3] .

وقد لقي الرسول مقاومة عنيفة من أهل الطائف حين حاصرها وأحاط بها ، فقد تحصن أهلها بحائطهم وبحصونهم ، وأغلقوا عليهم أبواب مدينتهم ، وصنعوا الصنائع للقتال . اما من كان حول الطائف من الناس ، فقد أسلموا كلهم . ولما ضيق المسلمون الحصار عليهـا ، وقربوا من الحائط ، دخـل نفر من أصحاب رسول الله تحت دبّابة ، ثم زحفوا بها الى جدار الطائف فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار ، فخرجوا من تحتها ، فرمتهم ثقيف بالنبل ، وقتلوا رجالاً ، فأمر رسول الله بقطع أعناب ثقيف ، كي يحملهـم على فتح أبواب مدينتهم ومهادنة الرسول ، للإبقاء على أموالهم ، غير انهم لم يبالوا بما رأوا من قطع أعنابهم وتخريب بساتينهم ، وبقوا على عنادهم ، مما حمل الرسول على ترك حصارهم والرحيل عنهم انتظاراً لفرصة أخرى [4] .

ويذكر أهل الأخبار ، ان (سلمان الفارسي) ، اتخذ منجنيقاً نصبه المسلمون على الطائف ، وان المسلمين كانت لهم دبّابة ، جاء بهـا (خالد بن سعيد بن العاص) من (جرش) [5] .

ويذكر الطبري ان عروة بن مسعود ، وهو من وجوه الطائف ، كان قـد تعلم مع غيلان بن سلمة صنعة الدبابات والضّبور والمجانيق من أهل جرش [6] . وقد اشتهرت هذه المدينة بصنع آلات الحرب .

ولما انصرف الرسول عن الطائف ، اتبع أثره (عروة بن مسعود بن معتب) حتى أدركه قبل ان يصل الى المدينة ، فأسلم . فلما رجع الى الطائف على أمـل

---

١ المحبر (٤٦٠) .
٢ المحبر (٤٦٠) .
٣ الاشتقاق (١٨٥) .
٤ الطبري (٣/٨٢ وما بعدها) (غزوة الطائف) .
٥ البلاذري ، أنساب (١/٣٦٦) .
٦ الطبري (٣/٨٢) .

اقناع أهلها بالدخول في الإسلام ، لمكانته فيهم ، رموه بالنبل من كل وجـه ، فأصابه سهم فقتله . ثم أقامت ثقيف بعد مقتل عروة أشهراً ، ثم انهم ائتمروا بينهم ألا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب ، فأرسلوا وفداً الى المدينـة لمفاوضة الرسول على الدخول في الإسلام . فلما دخلوا عليـه أبوا ان يحيّوه إلا بتحية الجاهلية ، ثم سألوه ان يدع لهم (الطاغية) ، وهي اللات لا يهدمها الى أجل ، لأنهم أرادوا بذلك (فيما يظهرون ان يسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم ، ويكرهون ان يروّعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام . فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك إلا ان يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدماها . وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية ان يعفيهم من الصلاة ، وان يكسروا أوثانهم بأيديهم ، فقال رسول الله : أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه . وأما الصلاة ، فلا خير في دين لا صلاة فيه . فقالوا : يا محمد ، أمـا هذه فسنؤتيكها وإن كانت دناءة)[1] .

فلما وصل الوفـد ومعه أبو سفيان والمغيرة بن شعبة ، الى الطائف ، وأرادا هدم الصنم ، (أراد المغيرة ان يقدم أبا سفيان ، فأبى ذلك أبو سفيان عليه ، وقال : ادخل أنت على قومك ، وأقام أبو سفيان بماله بذي الهرم[2] ، فلما دخل المغيرة بن شعبة ، علاها يضربها بالمعول ، وقام قوم دونه — بنو مُعتب — خشية ان يرمى أو يصاب ... وخرجن نساء ثقيف حسّراً يبكين) (ويقول أبو سفيان والمغيرة يضربها بالفأس : واهاً لك . فلما هدمها المغيرة ، أخذ مالها وحُليّها ، وأرسل الى أبي سفيان وحليّهـا مجموع ، ومالها من الذهب والجزع ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أبا سفيان ان يقضي من مال اللات دين عروة والأسود ابني مسعود ، فقضى منه دينهما)[3] .

وذكر عن (عروة بن مسعود الثقفي) انه كان من الرجـال الذين كانوا عندهم عشر نسوة عند مجيء الاسلام[4] ، وانه نادى على سطحه بالطائف بالأذان

١ الطبري (٣/٩٩ وما بعدها) .
٢ (الهدم) .
٣ الطبري (٣/٩٩ وما بعدها) .
٤ المحبر (ص ٣٥٧) .

أو التوحيد ، فرماه رجل من أهل الطائف فقتله ، وان الرسول قال فيه : (مثله مثل صاحب ياسين)[1] . (ويقال إنه الذي ذكره الله عز وجل في التنزيل من القريتين عظيم . وذكر بعض أهل العلم ان أربعة اتصل سؤددهم في الجاهلية والإسلام : عروة بن مسعود ، والجارود واسمه : بشر بن المعلى ، وجرير بن عبد الله ، وسراقة بن جعشم المُدْلِجي)[2] .

وثقيف أقرب في الواقع الى اليمن منهم الى أهل الحجاز . وتكاد تكون ثقافتهم ثقافة يمانية ، وحياتهم الاجتماعية حياة اجتماعية من النوع المألوف في اليمن . حتى في الوثنية نجد لهم معبداً خاصاً بهم ، يتقربون اليه ويحجون له . ولعلّ هذه الاختلافات وغيرها هي من جملة العوامل التي صيّرت ثقيفاً مجتمعاً خاصاً معارضاً لمجتمع مكة ، وجعلت أهل الطائف يكرهون أهل مكة الذين امتلكوا أملاكاً في الطائف ، وكانوا يأتون اليها في الصيف هرباً من جوّ مكة المحرق .

ومن بطون ثقيف ، (بنو الحطيط) و (بنو غاضرة) . ومن (بني الحطيط (مالك بن حطيط) ، وكان من ساداتهم في الجاهلية ، ومن ثقيف الشاعر أمية بن أبي الصلت . (وكان بعض العلماء يقول لولا النبي صلى الله عليه وسلم ، لادعت ثقيف ان أمية نبيّ ، لأنه قد دارس النصارى وقرأ معهم ودارس اليهود وكل الكتب قرأ . ولم يسلم ورثى قتلى بدر[3] . ومن رجالهم (أبو محجن) ، كان شاعراً فارساً شجاعاً شهد يوم القادسية ، وكان له فيها بلاء عظيم ، وقد شهد يومئذ (عمرو بن معد يكرب) وغيره من فرسان العرب ، فلم يبل أحد بلاءه . و (الأخنس بن شريق) ، وتزعم ثقيف انه أحد الرجلين اللذين ورد ذكرهما في القرآن ، على رجل من القريتين عظيم : (الأخنس بن شريق والوليد بن المغيرة . وقد كان حليفاً لبني زهرة . وقد خنس ببني زهرة يوم بدر[4] .

ومن ثقيف (بنو علاج) ، ومنهم (الحارث بن كلدة) . (كان طبيب

١ المحبر (ص ١٠٦) .
٢ الاشتقاق (١٨٦) .
٣ الاشتقاق (١٨٤) .
٤ الاشتقاق (١٨٥) .

العرب في زمانه وأسلم ومات في خلافة عمر)[1] . والمغيرة بن شعبة[2] .

ومن بني ثقيف عثمان والحكَم ابنا أبي العاص بن بشر بن دهمان الثقفي ، كانا شريفين عظيمي القدر ، ولى (عمر) عثمان عمانَ والبحرين وأقطعه الموضع المعروف بالبصرة بـ (شط عثمان) . ومنهم (تميم بن خَرَشة بن ربيعة) ، أحد وفد ثقيف الى رسول الله ، ومن فرسانهم في الجاهلية : (أوس بن حذيفة) وأدرك الإسلام ، و (ضبيس بن أبي عمرو) ، و (همام بن الأعقل) وآخرون[3] .

---

١ الاشتقاق (ص ١٨٥ وما بعدها) .

٢ الاشتقاق (١٨٦) .

٣ الاشتقاق (١٨٤) .

الفصل الرابع والأربعون

مجمل الحالة السياسية في جزيرة العرب عند ظهور الاسلام

استعرضنا في الفصول المتقدمة من هذا الكتاب حالة العرب السياسية قبل الاسلام على قدر ما أدّى اليه بحثنا ، وساعفتنا عليه الموارد . أما في هـذا الفصل وهو خاتمة فصول القسم السياسي ، فنستعرض حالة العرب السياسية في القرن السادس للميلاد بوجه عام .

والقرن السادس للميلاد ، فترة من الفترات المهمة في تأريخ البشرية ، فيه ظهرت أمارات الشيخوخة على الانبراطورية الساسانية التي شيدها (أردشير الأول) على أثر الثورة التي انـدلعت عام (٢٢٤ م) أو (٢٢٦ م) ، ثم لم تلبث ان انهارت في القرن السابع للميلاد بسرعة عجيبة ، وبأيد لم يحسب لوجودها حساب ، ومن مكان لم يكن له قبل ظهور الاسلام أثر ما فعال في السياسة العالمية . وفي هذا القرن أيضاً برزت الأمراض العديدة التي ألمّت بالقيصريـة ، والأملاك التي كانت خاضعة لها ، وهي أمراض لم تنج منها إلا ببتر بعض أطرافهـا في القرن التالي له . فخرجت من ردهة العمليات تئن من فاجعة الألم الذي حل بها ، ومن هول ما أصيبت به بذلك البتر .

وفي النصف الثاني من هذا القرن وُلدَ الرسول ، وبميلاد الرسول ظهر حدث تأريخي خطير للبشرية في النصف الأول من القرن السابع للميلاد ، يكفي ان أثره

قائم حتى الآن ، وانه سيقوم الى ما شاء الله ، وانه أوجد مفاهيم خلقية جديدة للبشرية ، وانه بشر برسالة قائمة على ان الدين لله ، وان الناس أمامه سواء ، لا فرق بين فرد وآخر وجنس وجنس ، ولا تمييز للون على آخر ، ثم لم يلبث ان انتشر بسرعة عجيبة لم ينتشر بمثلها دين من الأديان ، فقضى على إحدى الانبراطوريتين العظيمتين في عالم ذلك العهد ، واستأصل الأعضاء الثمينة من الانبراطورية الأخرى ، وأوجد من أشتات سكان جزيرة العرب أمة ، ومن قبائلها المتنازعة حكومة ذات سلطان ، وفاض على سداد الجزيرة ، وسقى ما وراءها من أرضين ، ثم وحد بين أقوام عديدين وجمعهم في صعيد دين الله .

وقد ابتلي هذا القرن والنصف الأول من القرن التالي له بأوبئة وبآفات وبمجاعات زادت في مشكلاته الكثيرة التي ورثها من القرون السابقة له ، ففيه انتشرت أوبئة ابتلعت بضع مئات من البشر في كل يوم من أيام انتشارها ، كانت كالعواصف تنتقل من مكان الى مكان مكتسحة من تجده أمامها من مساكن ، وتعود بين الحين والحين لتبتلع ما يسدّ حاجتها من البشر والحيوانات . وفيه مُني العالم بزلازل وبنقص كبير في الغلات أوجد قحطاً ومجاعةً وفقراً في كثير من الأقطار ، حتى اضطر كثير من الناس الى هجر الأماكن المنكوبة والارتحال عنها الى أماكن أخرى فيها النجاة والسلامة .

ولا ريب ان ظروفاً هذه حالتها ، لا بد ان تتولد منها مشكلات اجتماعية وسياسية واقتصادية للحكومات وللرعية ، فاختل الأمن خاصة في المناطق الواقعة تحت أقدام الجيوش ، فيوماً تكتسحها جيوش الفرس فتهدم كل ما تجده أمامها من قرى ومدن ، ويوماً تغزوها جيوش الروم فتستولي على ما تجده أمامها من حاصلات زراعية ومن أموال . وفي ظروف هذه شأنها لا بد ان يجد الخارجون على النظام والطامعون في الربح السهل الحرام فرصاً مواتية لا يفرّط فيها للكسب والظفر بما يرغبون فيه ، فتأثرت بذلك حالة سكان هذه الأرضين ، كما تعرضت التجارة للأخطار ، واضطر التجار الى سلوك طرق نائية ليكونوا بمأمن من شر قطاع الطرق وفسادهم . وترك أكثر الناس مزارعهم وقراهم فراراً من هذا الوضع الى المدن الكبيره البعيدة عن مواطن الغزو والأخطار ، فتحولت خيرة الأرضين الخصبة الى أرضين مجدبة ، نتيجة لهذه الهجرة ، ولتراكم الأتربة في شبكات

الري . ولكن هذا القرن لم يعدم مع ذلك حُكّاماً حاولوا جهد امكانهم إصلاح الخطأ ، وأناساً كان لهم حسّ وشعور بما وصلت اليه الحالة ، فنادوا بالإصلاح . ولكن صيحاتهم لم تكن ذات أثر خطير في قوم قلقين حائرين ، وليس في أيديهم زمام أمورهم ، وقد اعتراهم ذهول جعلهم لا يعرفون كيف يتصرفون . ثم ان الحمل كان ثقيلاً ، والأخطاء كثيرة ، والأمراض عديدة لا يقومها طبيب واحد أو أطباء معدودون .

لقد عزم (كسرى) الأول (٥٣١ – ٥٧٩ م) المعروف بـ (كسرى أنو شروان) ، على إصلاح الحال في مملكته ، فأمر بوضع دستور جديد للجباية يخفف عن كاهل الدافعين بعض الثقل ، وأمر باصلاح الأرض وتوزيعها على شعبه بالعدل وبالإنصاف بين الناس حتى عرف للملك بالعادل ، واستعان بمستشارين حكماء كانوا يعظونه ويرشدونه بطريقة الحكم والأمثال والعظات الى كيفية سياسة الرعية وتدبير أمورها ، كما ولى النواحي الروحية عنايته كذلك ، فأعاد الزردشتية القديمة ، وقاوم الحركة المزدكية التي قام بها (مزدك) في عهد والده (قباذ الأول) (٤٨٣ – ٥٣١ م) (٤٨٨ – ٥٣١ م)[١] ، وهي حركة تدعو الى الغاء الملكية ، والى الإباحية ، والى القضاء على امتيازات النبلاء ورجال الدين على ما تقوله الموارد التأريخية العربية المستندة الى موارد (فهلوية) شجعها (قباذ) لما وجد فيها من مبادىء توافق سياسته الرامية الى مقاومة تلك الطبقات المتنفذة التي عارضت في انتقال العرش اليه ، والتي اجتمعت كلمتها برئاسة (موبذان موبذ) والعظماء على انزاله من عرشه ، لما بدا لهم من ازوراره عنهم وانحرافه عن الزردشتية الى تعاليم مزدك المناهضة للموابذة ولعظماء المملكة الذين كانوا يتمتعون في المملكة بنفوذ واسع حدّ من سلطان (شاهنشاه) .

ورسالة مزدك وتعاليمه ، غامضة ، لا نعلم من حقيقتها شيئاً ، فقد أبيدت كتبهم وطمست معالم دينهم في عهد (أنو شروان) ، ولم يبق منها إلا هذه النتف المدوّنة في الكتب العربية عن موارد (فهلوية) دُوّنت في أيام محنة المزدكية وبعدها . ويظهر من هذه النتف انها حركة دينية اجتماعية سياسية تدعو الى توزيع الثروات بين الناس بالتساوي . والى انتزاع الأموال والأرضين من الأغنياء لاعطائها

١ Ency., IV, P. 178.

للمقلّين ، حتى من كان عنده جملة نساء تؤخذ منه لتعطى لغيره من المحتاجين ، فهي على هذا التعريف فكرة اشتراكية متطرفة عارضت النظم الاجتماعية القائمه ، وهددت الدين القائم ، وجرّأت العامة على تلك الطبقات ، كان الملك في حاجة اليها للإنتقام ممن عارضه فأيدها [1] .

هذا وحيث أننا قد تعلمنا من التجارب التي تجري في الوقت الحاضر ومن دراستنا للموارد التأريخية القديمة ، ان ما يكتب عن قوم غضب الحاكمون عليهم لا يمكن ان يكون مرآة صافية يعبر عن وجه أولئك القوم وعن ملامحهم الحقيقية ، لذا فإننا لا نستطيع ان نقول ان ما وصل الينا عن المزدكية يمثل رأيها وعقيدتها تمام التمثيل ، إذ يجوز ان يكون منه ما هو مصنوع موضوع حمل عليهم ، وان رواة الأخبار قد غرفوا منه ، ودوّنوه على نحو ما وصل الينا في كتبهم . لذلك يجب الانتباه الى هذه الملاحظة .

وحمل عدل الملك الساساني وحلمه وتسامحه مع رعيته ومساعدته للخارجين على الكنيسة الرومية الرسمية (من الفلاسفة والمثقفين بالثقافة الإغريقية القديمة ممن كانوا هدفاً لهجمات الكنيسة الأرثودكسية في الانبراطورية البيزنطية) على الهجرة الى المملكة الساسانية ، طامعين في عدل الملك وحمايته ، وفي بيأة تكون فيها الحرية الفكرية مكفولة مضمونة ، لا ضغط فيها ولا إكراه . ولكنهم ما لبثوا ان وجدوا ان الزردشتية التي نصرها وأيدها (كسرى أنوشروان) ، وهي ديانة المملكة غير ملائمة للفلسفة ، وانها ليست أرحب صدراً من (الأرثودكسية) ، وانهم لم يكونوا على صواب بمجيئهم الى هذه الأرض ، فرجوا من (ملك الملوك) الترفق بهم ، بالسماح لهم بالعودة الى بلادهم . فلما كانت الهدنة ، طلب (كسرى) من قيصر في سنة ٥٤٩ م إباحة العودة الى ديارهم والتلطف بهم والعفو عما بدر منهم من الذهاب الى مملكته [2] .

---

١ الطبري (٨٧/٢ وما بعدها) ،
Nöldeke, Geschichte der Perser, S., 455, A. Christensen, Le Regne du Roi Kawadh I et le Communisme Mazdakite In der Kongl. Danske, Videnskalernes Selskab., Copenhagen, 1935.

٢ H. G. Wells, The Outline of History, P. 564.

وكان مما فعله (كسرى أنو شروان) أن هاجم الامبراطورية البيزنطية وقيصرها في عهد (يوسطفيان) (يسطنيانوس) (جستنيان) (٥٢٧ – ٥٦٥ م) ، واشتبك معها في جملة حروب ، ووسع حدوده في الشرق ، وساعد الاحزاب المعارضة للروم ، وأرسل حملة الى اليمن بناء على طلب الأمراء المعارضين لحكم الحبشة عليها ، ساعدتهم في وضع خطة لازاحة الحبشة عنها .[١] والحبش هم حلفاء البيزنطيين واخوانهم في الدين وهم الذين حثّوا النجاشي على فتح اليمن بعد ان يئسوا من الاستيلاء عليها ومن الاستيلاء على الحجاز وبقية جزيرة العرب .

واتبع (كسرى الثاني) (٥٩٠ – ٦٢٨ م) المعروف بـ (كسرى أبرويز) ، وهو ابن (هرمز بن كسرى أنو شروان) ، خطوات جدّه وأسلافه الملوك الماضين في الحرب مع البيزنطيين ، فبلغ (خلقيدونية) ثلاث مرات ، واستولى على بلاد الشام ، ودخلت جيوشه القدس في سنة (٦١٤ م) . ثم استولى على مصر في سنة (٦١٩ م) ودوّخ بفتوحاته الروم الى أن عاجله ابنه بخلعه ، فاستراح الروم منه ، ثم لم يلبثوا أن استردوا من الفرس أكثر ما أخذوه منهم في تلك الحروب .

وقد اضعفت هذه الحروب المتوالية الحكومة الساسانية وآذت الشعوب التي خضعت لحكمها وأفقرتها ، وأثرت على الأمن الداخلي وعلى الأوضاع الاقتصادية والعمرانية تأثيراً كبيراً ولا سيما في البلاد التي صارت ساحة تعبئة وتلاحم جيوش ، وهي بلاد العراق . ولم يعد الانسان يأمن على حياته وعلى ماله ، وصار سواد الناس وكأنهم أبقار واجبها اعطاء الحليب وأداء الاعمال الأخرى للحكام ، والذبح للاستفادة من لحومها ومن جلودها وعظامها حينما تنتفي الحاجات الأخرى منها . وتأسد المرازبة وقادة الجيوش في الحكم ، حتى صار الحكم حكم عواطف وأهواء ومصالح ، و (الشاهنشاه) عاجز عن عمل كل شيء لأن (الشاهنشاهية) ، لم تعد متقيدة بالوراثة القديمة وبالآداب السلطانية ، بل صارت لمن يستعين بأصحاب العضلات وعشيري الفتن والاضطرابات . أضف الى ذلك أن من بيده مفتاح الدفاع عن الدولة ، وهم الجنود ، والضباط الصغار ، شعروا أنهم يقاتلون لا في سبيل وطن ودين وعقيدة ، بل يقاتلون لأنهم يساقون الى القتال قسراً ، وهم في حالة سيئة ووراءهم عوائلهم لا تملك شيئاً ، وقد جيء بهم الى الجيش قسراً وعلى

---

١ الطبري (٩٣/٢ وما بعدها) .

طريقة (السخرة) . وهم يحاربون ولا سلاح لهم ، لأن الحكومة لا تملك سلاحاً ، ولا نظام لهم ، لأنهم لم يدربوا على القتال ولم يتعلّموا أصوله ، أجسامهم تقاتل ، وقلوبهم مشغولة في مصير أولادهم وزوجاتهم وبيوتهم ، وهم المعيلون لهم ، ليس لهم غيرهم من معين .

وحكومة هذا شأنها ، لا يمكن لها أن تحافظ على حدود طويلة مفتوحة سهلة تقيم عليها قبائل غازية ، تترقب الفرص لتجد فرصة تهتبلها لتغير فيها على الحضر ، فتنتزع منهم ما قد تقع أيديهم عليه من أي شيء . فصار الاعراب يغيرون على الحدود من كل مكان فيه نفوذ وجنود للساسانيين ، ولا سيما بعد معركة (ذي قار) التي منحتهم قوة معنوية عالية ، وعلمتهم مواطن الضعف عند الساسانيين . فلما جاء الاسلام من جزيرة العرب صاروا عونـاً له في تقويض تلك الدولة ، ودالة ساعدته في تفهم مواطن الضعف فيها ، ومنها نفذ الاسلام الى ما وراء البحار ، وقوض الحكومة الضخمة بسرعـة عجيبة وبمحاربين لم يكونوا قد عرفوا من قبل أساليب القتال المنظم ، ولا المعارك الضخمة التي صادفوها لأول مرة في حروبهم مع السـاسانيين والبيزنطيين .

وقد طمعت القبائل في حكومة الحيرة أيضاً ، هذه الحكومة التي ظهر عليها الوهن كذلك . فأخذت تغير عليها وتتعرض لحدودها ، وتتحرش بقوافلها التي كان يرسلها ملوكها للإتجار في أسواق الحجاز واليمن . حتى صارت الطرق التي تسلكهـا خطرة غير آمنة ، لا يتمكن رجالها من المرور بها بسلام . ولم يستطع الساسانيون من مساعدتها وحمايتها ، لأن أوضاعهم الداخلية ، كانت كما ذكرتُ على غير ما يرام . وهذا مما زاد في تصميم القبائل على مهاجمة ملوك الحيرة وحدود الفرس في آن واحد . ولعل هذه الغارات ، كانت في جملة الأسباب التي حملت (كسرى) على القضاء على النعمان وعلى انهاء حكم (آل نصر) ، اما بسبب ما رآه (كسرى) من عدم تمكن الملك (النعمان) من تأديب القبائل ومن ضبط الطرق والأمن ؛ فارتأى استبداله بعربي آخر أو برجل قوي من قادة الجيوش الفرس . واما لظنه أو لما وصل الى علمه من خبر يفيد بأن النعمان قد أخذ يفاوض سادة القبائل الكبار لارضائهم وضمهم اليه . وفي هذا العمل تهديد لمصالح الفرس ومحاولة للابتعاد عنهم . فأراد للملك القضاء عليه وعلى الأسرة الحاكمة ، قبل أن

يتمكن من الحصول على تأييـــد أولئك السادة الذين أدركوا نواحي الضعف في حكومة الساسانيين .

وهناك روايات يشمّ منها أن (النعمان) ، قال لسادات القبائل : (انما انا رجل منكم ، وانما ملكتُ وعززتُ بمكانكم وما يتخوف من ناحيتكم ... ليعلم أن العرب على غير ما ظن وحدث) . [1] وروايات تفيد أن (كسرى) انما قتل (النعمان) ، لأنه وسائر أسرته سايروا سادات القبـــائل وتواطئوا معهم على الساسانيين . [2] ولعل عجز ملوك الحيرة عن حماية قوافل الفرس الذاهبة الى اليمن والآيبة منها ، وعن حماية الطرق البرّية المهمة التي توصل العراق باليمن ، ثم عجز ملك الحيرة من منع الاعراب من الاغارة على حدود الساسانيين ، ثم اضطرار الملك (النعمان) على الاتصال بسادات القبـــائل لترضيتهم ولضمهم اليه لتأييده ولتقوية ملكه الضعيف ، الذي كان يهدده خصوم له . لعلّ هذه الأسباب وغيرها ، كانت في جملة العوامل التي حملت (كسرى) على القضاء على (النعمان) وعلى استبدال الأسرة الحاكمة بأسرة أخرى ، أو تسليم أمور الحيرة نهائياً الى قائد فارسي ، يحكمها حكماً عسكرياً . [3]

وقد نصب الفرسُ حاكماً منهم على الحيرة ، لكنه لم يتمكن من سد أبواب الحدود الطويلة وغلقها ، ومنع الاعراب من دخولها . لقد اجتازوها ثم جاوزوها الى مسافات بعيدة في الاسلام ، أوصلت العرب الى الصين والهند وتركستان الصينية . ذلك لأن الفرس كانوا منهوكي القوى في الداخل وفي الخـــارج ، وقد أتعبتهم الأوجاع ، بينما جاء العرب بايمان برسالة ، وبعزم وتصميم ، وباعتماد على النفس ، من أن النصر سيكون لهم حتماً . لقد بدأ هذا العزم قبل (ذي قار) ، ثم تجسم في (ذي قار) ، فكان نصر المعركة في هذا الموضع ، ناقوس النصر ، و (الهرمون)

---

١ ابن عبد ربه ، العقد (١/١٦٩) ،
M. J Kister, In Journal of the Economic and Social History of the Orient, Vol., VIII, Part : II, November 1965, P. 114.

٢ Rothstein, PP. 116, Kister, P. 115.

٣ Nöldeke, Geschichte der Perser, S. 332, Rothstein, S., 116, Levi Della Vida, In The Arab Heritage, P. 50, Brockelmann, History of the Islamic Peopl., P. 8, Kister, P. 114.

الذي بعث الحيوية في جسم القبائل ، فجعلها تشعر أن في استطاعتها أن تفعل شيئاً ، لو وحدت نفسها ، وعملت عملاً ايجابياً منتظماً ، بعد دراسة وتفكير ، وباعدت نفسها عن الهياج والحماس والكلام الكثير ، الذي يذهب بعد تكلمه مع الهواء .

ولم تكن مشكلات الروم أقل خطورة أو عدداً من مشكلات الساسانيين . لقد تمكنت النصرانية ، بعد عنت واضطهاد ومقاومة ، أن تكون ديانة رسمية للحكومة والشعب . وكان المأمول أن تتوحد بذلك صفوف الأمة ، غير أن التصدع الذي أصاب هذه الديانة لم يحقق لها ذلك الأمل ، فتدخلت المذهبية في السياسة ، في المذهبيات . وتولدت من هذا التدخل مقاومة رسمية من الحكومة للمذاهب المعارضة ، واضطهاد لكل من يعارض مذهب القيصر . وظهرت كنيسة شرقية وكنيسة غربية ، وتجزأ النصارى الشرقيون الى شيع وفرق عُدّ بعضها خارجاً على تعاليم الحق والايمان ، هي في نظر (الأرثودكسية) مذاهب الحادية باطلة ، فعوملت كما عاملت وثنيةُ روما النصرانية حين ظهورها ، فحوربت بغير هوادة واضطر الكثير من المخالفين الى التكتم أو الهرب الى مواضع ليس للبيزنطيين عليها سلطان .

والحروب المتوالية التي شنها الفرس على البيزنطيين ، والبيزنطيون على الفرس ، وانقسام الإنبراطورية الى حكومتين : حكومة روما وحكومة القسطنطينية ، ثم مهاجمة الملوك والأقوام الساكنة في أوربة لهاتين الحكومتين من الشمال والغرب ، كل هذه انتجت مشكلات خطيرة للعالم الغربي عامة وللروم خاصة . وقد كان ازعاج الروم واقلاقهم ، مما يفيد بالطبع منافسيهم الفرس ويسرهم ، فكانوا يشجعون الثائرين ويتحالفون معهم لأن في ذلك قوة لهم ، كما كان الروم أنفسهم يشجعون الاحزاب المعارضة للفرس ويحرضونها على الثورة على الساسانيين والتمرد عليهم ، وعلى مهاجمة حدودهم نكاية بأعدائهم وللانتقام منهم حتى صارت الحروب بين الانبراطوريتين تقليداً موروثاً ، لا يتركها احد الطرفين الا اضطراراً ، ولا تعقد هدنة بينهما الا بدفع جزية تكون مقبولة لدى الطرف الغالب تغنيه عن المكاسب التي يتأملها من وراء الحرب . يدفعها المغلوب صاغراً بسبب الاحوال الحرجة التي هو فيها ، آملاً تحسن الموقف للانتقام من الخصم . فتأريخ الساسانيين والروم ، هو تأريخ هدن وحروب عادت الى بلاد الطرفين بأفدح الاضرار . وما الذي يكسبه الانسان من الحروب غير الضرر والدمار ؟

لقد وجد (كسرى أنوشروان) (٥٣١ – ٥٧٩ م) في انشغال (يوسطنيان) (جستنيان) (Justinian) (٥٢٧ – ٥٦٥ م) بالحروب في الجبهات الغربية فرصة مواتية للتوسع في المناطق الشرقية من الإنبراطورية البيزنطية ، فتحلل من (الهدنة الأبدية) التي كانت قد عقدت بين الفرس والروم ، وهاجم الإنبراطورية متنحلاً أعذاراً واهية ، واشترك في قتال دموي مر بجيوش الروم . ولم يفلح مجيء القائد (بليزاريوس) (Belisarius) من الجبهات الايطالية لايقاف تقدم الفرس ، فسقطت مدن الشأم وبلغت جيوش الفرس سواحل البحر المتوسط ، وبعد مفاوضات ومساومات طويلة تمكن الروم من شراء هدنة من الفرس أمدها خمس سنوات بشروط صعبة عسيرة ، وبدفع أموال كثيرة . ثم مددت هذه الهدنة على أثر مفاوضات شاقة مع الفرس خمسين عاماً حيث عقد الصلح في سنة (٥٦١) أو (٥٦٢ م) . تعهد الروم لكسرى بدفع إتاوة سنوية عالية ، وتعهد الفرس في مقابل ذلك بعدم اضطهاد النصارى ، وبالسماح للروم في الإتجار في ممالكتهم على شرط معاملة الروم لرعايا الفرس المعاملة التي يتلقاها تجار الروم في أرض الساسانيين [1] .

و (يوسطنيان) معاصر (كسرى أنوشروان) شخصية فـذة مثل شخصية معاصره ، ذو آراء في السياسة وفي الملك ، من رأيه ان الملك يجب ان يكون دليلاً وقدوة ونبراساً للناس ، وانه لا يكون عظيماً شهيراً لحروبه ولكثرة ما يملكه من سلاح وجند ، إنما يكون عظيماً بقوته وبقدرته وبالقوانين التي يسنها لشعبه للسير عليها ، تنظيماً للحياة . فالملك في نظره قائد في الحروب ومرشد في السلم ، حام للقوانين ، منتصر على أعدائه . وكان من رأيه ان الله قـد جعل الأباطرة ولاته على الأرض ، وأدلة للناس ، قوامين على الشريعة . ولذلك فإن من واجب كل انبراطور ان يقوم بأداء ما فرضه الله عليه بسن القوانين وتشريع الشرائع ، ليسير الناس عليها . ولما كانت القوانين التي سارت عليها الانبراطورية الرومانيـة كثيرة جداً ، حتى صعب جمعها وحفظها ، تطرق اليها الخلل ، وتناقضت

A. A. Vasiliev, History of the Byzantine Empire, 1952, PP. 138, K. Guterbock, Byzanz und Persien in ihren Diplomatischen Volkerrechtlichen Beziehungen in Zeitalter Justinians, S, 57, 105, Bury, Later Roman Empire, II, PP. 120.

الأحكام . لذلك رأى ان من واجبه جمعها وتنسيقها وتهذيبها واصدارها في هيأة دستور انبراطوري يسير عليه قضاة الانبراطورية في تنفيذ الأحكام بين الناس ، وعهد بهذا العمل الشاق الى (تريبونيان) (Tribonian) من المشرعين المعروفين في أيامه [1] . فجمع هذا المشرع البارع القوانين في مدوّنات ، ورتبها في كتب وأبواب ، وصان بتدوينه هذا بعض القوانين البيزنطية والرومانية من الضياع ، وأورث المشرعين ذخيرة ثمينة من ذخائر البشرية في التشريع .

ويعد هذا العمل من الأعمال العظيمة في تأريخ التشريع ، ولم يكن (يوسطنيان) أول من فكر في جميع القوانين السابقة في مدوّنة ، ولكنه كان أول من أقدم على تنسيقها وجمع ما تشتت منها وتيسيرها للمشرعين ، وقد وحد بذلك قوانين الانبراطورية ، فعُدَّ صنيعه هذا اصلاحاً كبيراً يدل على شعور الملك وتقديره للعدالة في مملكته . وقد أدخل معاصره (كسرى أنو شروان) اصلاحات على قوانين الجباية ، فعد القرن السادس من القرون المهمة في تأريخ التشريع . ولكن الذي يؤسفنا اننا لا نملك موارد تفصل اصلاحات (كسرى) وهل هي نتيجة شعور بضرورة ملحة وحاجة ، أو هي صدى للعمل الذي قام به (يوسطنيان) ، ثم أي مدى بلغته تلك الإصلاحات ؟

وفكرة اخضاع الانبراطورية لقانون واحد نابعة من أصل عام كان يدين به (يوسطنيان) ، يتلخص في دولة واحدة وقانون واحد وكنيسة واحدة . كان يوسطنيان يرى ان الدولة المنظمة هي الدولة التي يخضع فيها كل أحد لأوامر القيصر ، وان الكنيسة إنما هي سلاح ماض يعين الحكومة في تحقيق أهدافها ، لذلك سعى لجعلها تحت نفوذ الحكومة وفي خدمة أغراضها ، فتقرب الى رجال الدين ، وساعد على انشاء كنائس جديدة ، واستدعى الى عاصمته رؤساء الكنيسة (المنوفيزيتية) (Monophysites) القائلين بالطبيعة الواحدة واليعاقبة وأتباع (آريوس) (Ariaus) وغيرهم من المعارضين لمباحثتهم ولعقد مناظرات بينهم وبين الكنيسة الرسمية للتقريب فيما بينهم وايجاد نوع من الاتفاق يخدم أهداف الملك المذكور . ولكن هذه المحاولة لم تنجح ، ومحاولات التوفيق لم تثمر ، ولتحقيق نظريته في الكنيسة الواحدة اضطهد أصحاب المذاهب المعارضة وكذلك اليهود .

---

١ Vasiliev, PP. 142.

واضطر بعضهم الى ترك الانبراطورية والهجرة الى مملكة الساسانيين والى المحلات التي ليس للحكومة عليها سلطان[1] .

وزادت نظريته المذكورة في الدولة وفي الكنيسة في حدة المشكلات التي ورثها من أسلافه وجاءت بنتائج معاكسة لما كان يريد منها . فمحاولة تقربه من (البابا) وتأييــده له ، اصطدمت بفكرة كانت مسيطرة عليه ، هي ان علمه باللاهوت لا يقل عن علم رجال الدين به ، وان من حقه التدخــل في أمور الكنائس وفي تسيير المجامع الكنيسية ، لتوحيد الكنائس واعادتها الى أصلهــا ، فأزعج بذلك (البابا) ، وصار من أضداده ، وأزعج أصدقاءه ومعارضوه من رجال المذاهب الأخرى ، لأنه خالفهم ، وجاء بتفسيرات لم ترضي أي مذهب منها . واضطر أخيراً على الخضوع لعقيدته المهيمنة على عقله ، وهي ان ما يراه في الدين ، هو الصحيح ، وهو الحــل الوسط للنزاع الكنسي ، وهو الأصلــح للدولة . فخلق معارضين له . وأغلق (جامعــة أثينا) ومدارس البحث ، واصدر أمــراً بمنع الوثنيين وكل من ليس نصرانياً من الاشتغال في الدولة . وهكذا ولدت نظريته في (أنا الدولة) مشكلات خطيرة لدولته ولدولة من جاء بعده من قياصرة .

وكانت لدى الروم مثل هذه المشكلة التي كانت عند الفرس : مشكلة تهرب كبار الملاكين والمتنفذين من دفع الضرائب ، وزيادة نفوذهم وسلطانهم في الدولة . فعزم (يوسطنيان) على الحــدّ من سلطانهــم ، والتشديد في استيفاء الضرائب لمعالجة الوضع الحربي الناتج من قلة المال اللازم للانفاق على جيش كبير ، ممــا اضطر الحكومة الى تقليص عدد الجنود . فأصدر أوامر عديدة بالتشديد في جمع الضرائب ، وباجراء الإصلاحات في الإدارة ، غير ان اصلاحاته هذه لم تنفذ ، إذْ لم يكن في مقدور الحكومة تنفيذها لعدم وجود قوة لديها تمكنها من الحدّ من نفوذ المتنفذين ورجال أكفاء أقوياء يقومون بالتنفيذ .

واهتم (يوسطنيان) بأمر التجارة . والتجارة مورد رزق للدولة كبير ، ولا سيما مع الأقطار الشرقية ، فقد كانت بضائعها مرغوباً فيها في أوربة ومطلوبة ، تجني الحكومة منها أرباحاً كثيرة ، وفي مطلع قائمة هذه البضائع النفيسة الأموال

---

١ Vasiliev, PP. 150, Knecht, Die Religions Politik Kaiser Justinianus, S, 36.

التي ترد الى الانبراطورية من الصين والهند ، فقد كانت تلاقي اقبالاً كبيراً من أثرياء الانبراطورية ومن أثرياء انبراطورية روما الغربية وبقية أنحاء أوربة .

وأثمن بضاعة في قائمة البضائع الواردة من الصين مادة الحرير ، ولثمن الحرير الباهض حرص الصينيون على ألا يسمحوا لأي غريب كان ان ينقل معه البيض أو الديدان التي تتولد منه الى الخارج ، خشية المزاحمة والمنافسة التي تلحق بهم أفدح الأضرار . وتلي هذه المادة البضائع النفيسة الأخرى مثل العطور والقطن الوارد من الهند والتوابل وأمثالهـا من المواد التي كان يعجب بها أصحاب الذوق في ذلك الزمن . كل هذه يشتريها تجار الروم ، وبعد ان تأخذ الدولة البيزنطية الضرائب المفروضة ، تسمح للتجار بالتصرف فيها وبيعها على بقية الأوربيين .

وأسعار هذه المواد عالية باهظة الى درجة كبيرة صارت مشكلة من مشكلات الدولة البيزنطية ، ولهذا كانت تتصل دوماً بالانبراطورية الساسانية لمحاولة الاتفاق على تحديد الأسعار ، وتعيين مقدار الضرائب ، وذلك بسبب ورود أكثرها من هذه الانبراطورية ، إذْ كان التجار يأتون بالأموال من أسواق الصين تنقلها القوافل التي تجتاز أرض الدولة الساسانية لتسلمها الى حدود الانبراطورية البيزنطية ، ومنها الى العاصمة لتوزع في الأسواق الأوربية .

هذا طريق . وهناك طريق آخر هو طريق البحر . يحمل تجار الصين أموالهم على سفن توصلها الى جزيرة (تبروبانة) (Taprobane) وهي جزيرة (سيلان) ثم تفرغ هناك ، فتُحمل في سفن تنقلها الى خليج البصرة ، ثم تحمل في سفن أخرى تمخر في دجلة والفرات الى حدود الروم .

ولما كانت علاقات الروم بالساسانيين غير مستقرة ، والحرب بين الانبراطوريتين متوالية صارت هذه التجارة معرضة للتوقف والإنقطاع طوال أيام الحروب ، وهي كثيرة ، فترتفع أسعارها هناك ، كما ان الساسانيين كانوا يزيدون في أسعار البيع وفي ضريبة المرور ، فتزيد هـذه في سعر التكليف ، ولهـذا فكر (يوسطنيان) في التحرر من تحكم الساسانيين في مورد مهم من موارد رزقهـم ، وذلك باستيراد

بضائع عن طريق البحر الأحمر ، وهو بعيد عن رقابة الساسانيين [1] .

والخطة التي اختطها (يوسطنيان) لتحرير التجارة البيزنطية من سيطرة الساسانيين عليها ، هي الإتصال بالأسواق الرئيسية المصدرة ، ونقل المشتريات الى الانبراطورية بالبحر الأحمر الذي كان يسيطر الروم على أعاليه . لقد كان ميناء (أيلة) في أيدي البيزنطيين ، وكان هذا الميناء موضعاً لتفريغ السفن الموسقة بالبضائع المرسلة من الهند الى فلسطين وبلاد الشأم ، كما كان ميناء (القلزم) (Clysma) في أيديهم كذلك ، تقصده السفن التي تريد ارسال حمولتها الى موانىء البحر المتوسط . أما جزيرة (أيوتابة) (Iotabe) وهي جزيرة (تاران) (تيران) ، فقد كانت مركزاً مهماً لجباية الضرائب من السفن القادمة من الهند ، وكانت في أيدي بعض سادات القبائل ، فأمر (يوسطنيان) باقامة موظفي الجباية البيزنطيين بها ، ليقوموا بالجباية . وأما ما بعد هذه المنطقة حتى مضيق المنادب والمحيط الهندي فلم يكن للبيزنطيين عليه نفوذ [2] .

ولتحقيق هذه الخطة ، كان عليه وجوب السيطرة على البحر الأحمر والدخول منه الى المحيط الهندي ، للوصول الى الهند وجزيرة (سيلان) . ولا يمكن تحقيق هذه الخطة إلا بعملين : عمل عسكري يعتمد على القوة ، وعمل سياسي يعتمد على التقرب الى الحبشة الذين كانوا قد استولوا على اليمن ، فصار مدخل البحر الأحمر : (مضيق باب المندب) بذلك في أيديهم . ثم بالتودد الى سادات القبائل العربية النازلة في العربية وفي بادية الشأم ، لضمهم الى صفوف البيزنطيين ، ولتحريضهم على الفرس ، وبذلك يلحق البيزنطيون ضرراً بالغاً بالفرس ويكون في استطاعتهم نقل التجارة نحو الغرب عن جزيرة العرب والبحر الأحمر الى أسواقهم بكل حرية وأمان .

أما العمل العسكري ، فلم يكن في وسع البيزنطيين القيام به في ذلك الوقت ، لعدم وجود قوات برية كبيرة كافية . لتتمكن من اجتياز العربية الغربية للوصول

١ Vasiliev, P. 163, Bulletin of the School of Oriental and African Studies University of London, Vol., XVI, Parts 3, 1954, P. 425.

٢ W. Heyd, Histoire du Commerce du Lavant au Moyen Age, I, 10, 1885, (1935 2 end.), Vasiliev, P. 167.

الى اليمن ، حيث الحبش هناك ، اخوان البيزنطيين في الدين . وقد علموا من التجارب السابقة ، أن الجوع والعطش يفتكان بالجيش فتكاً ، وان القبائل لا يمكن الاطمئنان اليها والوثوق بها أبداً ، لذلك تركوا هذا المشروع . فلم يبق أمامهم غير تنفيذه من ناحية البحر ، وقد وجدوا ان هذا التنفيذ غير ممكن أيضاً ، لأن أسطولهم في البحر الأحمر لم يكن قوياً ، ولم يكن في استطاعته السيطرة عليه سيطرة تامة . فتركوه ، ولو الى حين ، مفضّلين عليه العمل السياسي .

أما العمل السياسي ، فقد تم بالاتصال بالحبش ، وقد كان ملكهم على النصرانية ، لذلك كان من الممكن جلبه الى البيزنطيين بالتودد اليه باسم الاخوّة في الدين . كما تم بالتقرب الى سادات القبائل المتنصرين ، والتودد اليهم باسم الدين ايضاً . وتم بارسال المبشرين الى جزيرة العرب ، وبتشجيعهم على المعيشة بين الأعراب وفي البوادي لتنصير سادات القبائل ، وللتأثير عليهم بذلك . وباقامة الكنائس وارسال المال وعمال البناء لبنائها باسلوب يؤثر في عقول الوثنيين ، فيجعلها تميل الى النصرانية ، ولتكون هذه المعابد معاهد تثقيف تثقف بالثقافة البيزنطية كما تفعل الدول الكبرى في هذه الأيام .

وأرسل (يوسطنيان) — كما سبق ان بينا ذلك [1] — رسولاً عنه يدعي (يوليانوس) (جوليانس) (Julianus) الى النجاشي والى (السميفع أشوع) (Esimphanus) حاكم اليمن في ذلك العهد ، ليتودد اليها ، وليطلب منهما باسم (العقيدة المشتركة) التي تجمعهم ان يكوّنا مع الروم جبهة واحدة في محاربة الساسانيين ، وان يقوما مع من ينضم اليهم من قبائل العرب بمهاجمتهم ، وحمل السفير الى (السميفع أشوع) رجاء آخر ، هو موافقته على تعين رئيس عربي اسمه (Kaisos أي (قيس) عاملاً (فيلارخ) (Phylarch) على قبيلة عربية تدعى (معديني) (Maddeni) ، أي قبيلة (معد) ، ليشترك معه ومع عدد كبير من أفراد هذه القبيلة بمهاجمة الساسانيين .

وقد رجع السفير فرحاً مستبشراً بنجاح مهمته ، معتمداً على الوعود التي أخذها من العاهلين . غير أنهما لم يفعلا شيئاً ، ولم ينفذا شيئاً ما مما تعهدا به

---

١ الجزء الثاني والثالث من هذا الكتاب .

للسفير ، فلم يغزوا الفرس ، ولم يعين (السميفع أشوع) (قيساً) (فيلارخاً) عاملاً على قبيلة معدّ .

وورد أيضاً ان القيصر جدّد في أيام (ابراموس) (Abramos) الذي نصب نفسه في مكان (Esimiphaeus) ، طلبه ورجائه في محاربة الفرس ، فوافق على ذلك وأغار عليهم ، غير انه تراجع بسرعة[1] .

ويظهر ان اتصال البيزنطيين بـ (ابراموس) (Abramos) كان بعد القضاء على (السميفع أشوع) الذي لم يتمكن من مهاجمة الفرس إذْ كان من الصعب عليه اجتياز أرض واسعة بعيدة وطرق بعيدة تمرّ بصحارى وقفار لمحاربة أناس أقدر من رجاله على القتال[2] . فلما تمكن (ابراموس) من التحكم في شؤون اليمن ومن تنصيب نفسه حاكماً عاماً على اليمن وصارت الأمور بيديه تماماً ، فكر البيزنطيون في الاستفادة منه بتحريضه على الساسانيين ، وذلك باسم الأخوة في الدين .

وقد تحرش (ابراموس) بالفرس ، غير انه لم يستمر في تحرشه بهم . فما لبث ان كفّ قواته عنهم[3] . ولم يذكر المؤرخ (بروكوبيوس) كيف هاجم (ابراموز) الساسانيين ، ومن أين هاجمهم ومتى هاجمهم . لذلك أبقانا في جهل بأخبار هذا الهجوم .

و (ابراموس) هو (أبرهة) الذي تحدثت عنه في أثناء كلامي عن اليمن . أما ما أشار اليه (بروكوبيوس) من تحرشه بالفرس ومن تركه لهم بعد قليل ، فقد قصد به حملته على (مكة) على الغالب ، وهي حملة قصد بها (أبرهة) على ما يظهر الاتصال بالبيزنطيين عن طريق البر ، واخضاع العربية الغربية بذلك الى حكمه وهو من المؤيدين البيزنطيين . وبذلك تؤمن حرية الملاحة في البحر الأحمر ، ويكون في إمكان السفن البيزنطية السير به بكل حرية . ولعلّه كان يقصد بعد ذلك مهاجمة الفرس من البادية بتحريض القبائل المعادية للساسانيين عليهم ، وبتأليف حلف من قبائل يؤثر عليها فيهاجم بها الفرس .

١ Procopius, I, XX, 1-13, ZDMG., (1881), S., 36

٢ Procopius, I, XX, 9-13.

٣ Procopius, I, XX, 9-13.

اما (Kaisos) (Caisus) ، فكان كما وصفه المؤرخ (بروكوبيوس) شجاعاً ذا شخصية قوية مؤثرة حازماً من أسرة سادت قبيلة (معدّ) . وقتل أحد ذوي قرابة (السميفع أشوع) (Esimaphaios) (Esimiphaeus) ، فتعادى بذلك معه ، حتى اضطر الى ترك دياره والهرب الى مناطق صحراوية نائية . [1] فأراد القيصر الشفاعة له لدى (Esimaphaios) ، والرجاء منه الموافقة على اقامته رئيساً (Phylarch) على قبيلته قبيلة معدّ .

ولا يعقـــل بالطبع توسط القيصر في هذا الموضوع ، لو لم يكن الرجل من أسرة مهمة عريقة ، لها عند قومها مكانة ومنزلة ، وعند القيصر أهمية وحظوة . ولشخصيته ومكانة أسرته أرسل رسوله الى حاكم اليمن لاقناعه بالموافقة على اقامته رئيساً على قومه . وبهذا يكتسب القيصر رئيساً قوياً وحليفاً شجاعاً يفيده في خططه السياسية الرامية الى بسط نفوذ الروم على العرب ، ومكافحة الساسانيين .

ونحن لا نعرف من أمر (قيس) هذا في روايات الاخباريين شيئاً غير أن هناك رواية لابن اسحاق جاء فيها أن أبرهة عين محمد بن خزاعى عاملاً له على مضر ، وأن (قيساً) كان يرافق أخاه محمداً حين كان في أرض كنانة . فلما قتل (محمد) ، فرّا الى (ابرهة) . [2] وقد ورد نسب (محمد) على هذه الصورة : (محمد بن خزاعي بن علقمة بن محارب بن مرّة بن هلال بن فالج ابن ذكوان السلمي) في بعض الروايات ، وذكر أنه كان في جيش أبرهـــة مع الفيل . [3]

فهل قيس هذا هو قيس الذي ذكره (بروكوبيوس) ؟ . اتصل مع اخيه محمد بأبرهة ، وصار من المقربين لديه ؟ أو هو رجل آخر لا علاقة له بـ (قيس) الذي يذكره (ابن اسحاق) ؟

وقد زار والد (نونوسوس) (Nonnosos) (قيساً) هذا مرتين ، وذلك قبل سنة (٥٣٠ م) وزاره (نونوسوس) نفسه في اثناء حكمه . وأرسل (قيس)

---

١ Procopius, I, XX, 9-13.

٢ Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol., XVI, Part : 3, 1954, PP. 434.

٣ المحبر (١٣٠) .

ابنه (معاوية) الى (يوسطنيان) ، ثم أعطى أخاه ثم ابنه الامارة . وعينه القيصر عاملاً (Phylarch) على فلسطين . [١]

وكانت للقيصر (يوسطنيان) صداقة مع رئيس آخر اسمه (أبو كرب) (Abochorabus) ، يقع ملكه في أعالي الحجاز وفي المناطق الجنوبية من فلسطين . عرف هذا الرئيس بالحزم والعزم فخافه الأعداء ، واحترمه الأتباع ، واتسع لذلك ملكه ، وتوسع سلطانه حتى شمل مناطق واسعة ، ودخلت في تبعيته قبائل عديدة أخرى على القانون الطبيعي في البادية الذي يحتم دخول القبائل طوعاً وكرهاً في تبعية الرئيس القوي .

أراد هذا الرئيس أن يتقرب الى القيصر ، وأن يبالغ في تقربه اليه وفي اكرامه له ، فتنزل له عن أرض ذات نخيل كثيرة ، عرفت عند الروم بـ (فوينيكون) (Phoinikon) (واحة النخيل) ، أو (غابة النخيل) . وهي أرض بعيدة لا تبلغ الا بعد مسيرة عشرة أيام في أرض قفرة . فقبل القيصر هذه الهدية الرمزية ، اذ كان يعلم ، كما يقول المؤرخ (بروكوبيوس) عدم فائدتها له ، وأضافها الى أملاكه ، وعين هذا (الشيخ) عاملاً (فيلارخا) على عرب فلسطين . [٢]

وقد قام ملك هذا الرئيس على ملك رئيس آخر كانت له صلات حسنة بالروم كذلك ، هو (امرؤ القيس) (Amorkesos) وكان (Amorkesos) في الأصل من عرب المناطق الخاضعة للفرس ، ثم هجر دياره لسبب لا نعرفه الى الأرضين الخاضعة لنفوذ الرومان ، وأخذ يغزو الاعراب ، حتى هابته القوافل ، فتوسع نفوذه ، وامتد الى العربية الصخرية ، واستولى على جزيرة (تاران) (Iotaba) وترك رجاله فيها يجبون له الجباية من السفن القادمة من الهند ، حتى حصل على ثروة كبيرة ، وعزم في سنة (٤٧٣ م) على ارسال الأسقف (بطرس) أسقف الاعراب التابعين له الى القسطنطينية ، ليتصل بالقيصر ، وليتوسط لديه هناك أن يوافق على تعيينه عاملاً (Phylarch) على الاعراب المقيمين في العربية الحجرية

١ Bulletin, Vol., XVI, Part : 3, P. 435, Muller, Fragmenta Historicorum, Graecorum IV, 179.

٢ Procopius, I. XIX. 2-16, Bulletin, Vol., XVI, 1954, P. 428, Musil, Hegaz, P. 307.

والخاضعين لنفوذ الروم مقابل دخوله في حلف معهم ، فاستجاب القيصر (ليون) (Leo) الى طلب (بطرس) ، فأرسل دعوة الى (امرىء القيس) لزيارة القسطنطينية ، فذهب اليها بالرغم من وجود شرط في معاهدة الصلح التي كانت قد عقدت بين الفرس والروم لا يسمح بموجبه لعربي ما من سكنة المناطق الخاضعة لنفوذ الامبراطورية الساسانية بالذهاب الى مناطق الروم . ولما وصل الى القسطنطينية ، رحب به البيزنطيون ترحيباً جميلاً واستقبلوه استقبالاً حسناً . فأعلن هناك دخوله في النصرانية . وأغدق عليه القيصر الهدايا والألطاف ، ومنحه لقب (فيلارخ) (Phylarch) ، وثبته على المواضع التي أرادها وعلى جزيرة (تاران) (Iotaba) . [1]

وكان دخل البيزنطيون كبيراً من الضرائب التي يجبيها موظفو الكمارك المقيمون في جزيرة (تاران) (Iotaba) . وكان لهؤلاء الموظفين واجب آخر ، هو واجب مكافحة التهريب والقبض على كل مهرب يريد ادخال التجارة خلسة الى بلاد الشام أو مصر ، ومصادرة الاموال التي يحملها معه . ولهم حق مكافأة المخبرين الذين يرشدونهم للقبض على المهربين . [2]

و (غابة النخيل) التي ذكرناها ، تجاور ارض قبيلة (معدّ) (Maddenoi) ، وكانت معدّ خاضعة لحكم حمير . وقد رأينا كيف أن القيصر (يوسطنيان) توسط لدى (السميفع أشوع) ليوافق على تعيين (قيس) رئيساً على معدّ . وقد تمردت هذه القبيلة على (أبرهة) فسير اليها قوة لتأديبها ، كما يظهر ذلك من كتابة أمر (أبرهة) بكتابتها لهذه المناسبة : أدّبها بقوة ، سيرها اليها في شهر (ذو ثبّن) من شهور فصل الربيع ، فانهزمت معد ، وأنزلت القوة بها خسائر فادحة . وبعد أن أدبت وخضعت ، اعترف (أبرهة) بحكم (عمرم بن ملذن) عليهـــا ، وتراجعت القوة عنها . [3]

و (عمرم بن مذرن) ، أي (عمرو بن المنذر) ، هو (عمرو بن المنذر) ملك الحيرة . وقد كانت (معدّ) في حكم ملوك الحيرة . وعلى هذا تكون هذه الغزوة (غزوتن) التي قام بها (أبرهة) على قبيلة (معد) موجهة الى (عمرو

---

١ Malchus of Philadelphia, (Muller Ed.), PP. 112, Musil, Hegaz P. 300
٢ Bury, Later Roman Empire, Vol. II, P. 8, Runciman, P. 105
٣ Le Muséon, LXVI, 1953, 3-4, P. 277, Ryckmans, 506

ابن المنذر) حليف الفرس . بمعنى أنه تعرض لجماعة كانت في جانب الساسانيين . فهل الغزاة التي أشار اليها المؤرخ (بروكوبيوس) هي هذه الغزاة ؟

و (Maddenoi) هي قبيلة (معداية) (Ma'addaye) التي ذكرها (يوحنا الأفسوسي) (John of Ephesus) مع (طياية) (طيايا)) (طيايه) (Tayaye) (Taiyaya) في كتابه الذي وجهه الى أسقف (بيت أرشام) (Beth Arsham) ، ويظهر من هذا الكتاب أنها كانت مقيمة في فلسطين .

وقد تحدثتُ سابقاً عن ورود اسم قبيلة (معدّ) في نص النمارة الذي يرجع عهده الى سنة (٣٢٨ م) حيث ورد أن (امرىء القيس بن عمرو) ملك العرب ملك على (معدّ) وعلى قبائل أخرى ذكرها النص ، منها أسد ونزار ومذحج . ويربط الاخباريون في العادة بين ملوك الحيرة وقبيلة معدّ ، وطالما ذكروا أن ملوك الحيرة غزوا بمعدّ ، مما يدل على وجود صلة تأريخية متينة بين الحيرة وهذه القبيلة المتبدية التي كانت تمعن في سكنها مع البادية .

ويظهر من روايات اهل الاخبار أنه قد كان للتبابعة شأن في تنصيب سادات على معدّ . فهي تذكر أنهم هم الذين كانوا يعينون أولئك السادة ، فينصّبونهم (ملوكاً) على معدّ . وذلك بسبب تنازع سادات معد فيما بينهم وتحاسدهم وعدم تسليم بعضهم لبعض بالزعامة . ولهذا كانوا يلجأوون الى التبابعة لتنصيب (ملوك) عليهم . يضاف الى ذلك أن معدّاً كانت قبـائل متبدية : منتشرة في أرضين واسعة تتصل باليمن ، وقد كان أهل اليمن المتحضرون أرقى منهم ، وجيوشهم أقوى وأنظم نسبياً من محاربي معدّ ومقاتليهم الذين كانوا يقاتلون قتال بدو ، لا يعرفون تنظيماً ولا تشكيلاً ولا توزيعاً للعمل . وكل ما عندهم هو كَرّ وفرّ ، اذا وجدوا خصمهم أشطر منهم وأقدر على القتال هربوا منه .

وقد منيت الانبراطورية البيزنطية بانتكاسات عديدة بعد وفاة (يوسطنيان) ، فاشتدّ الاضطهاد للمذاهب المخالفة للمذهب الارثودكسي ، وعادت الفوضى الى الحكومة بعد أن سعى القيصر الراحل في القضاء عليها ، وتجددت الحروب بين البيزنطيين والساسانيين ، وعاد الناس يقاسون الشدائد بعد فترة من الراحة لم تدم طويلاً . وبعد حروب متتالية دخل الساسانيون بلاد الشام . وفي سنة (٦١٤ م) ، احتل اتباع ديانة زرادشت عاصمة النصرانية القدس ، فأصيبت المدينة بخسائر كبيرة

في أبنيتها التأريخية وفي ثروتها الفينة التي لا تقدَّر بثمن . ثم أصيبت الانبراطورية بنكبة عظيمة جداً هي استيلاء الفرس على مصر ، وبلوغ جيوش الساسانيين في هذه الأثناء الساحلَ المقابل للقسطنطينية عاصمة الانبراطورية [1] .

لقد وقعت هذه الأحداث ونزلت هذه الهزائم بالروم في وقت كان أمر الله قد نزل فيه على الرسول بلزوم ابلاغ رسالته للناس . والرسول إذْ ذاك بمكة ، يدعو أهلهـا الى دين الله . فلما جـاء الخبر بظهور فارس على الروم ، فرح المشركون ، وكانوا يحبون ان يظهر أهل فارس على الروم لأنهم واياهم أهـل أوثان . وكان المسلمون يحبون ان تظهر الروم على فارس لأنهم أهـل كتاب . فلقي المشركون أصحابَ النبي ، فقالوا : إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ، ونحن اميون . وقد ظهر اخواننا من أهل فارس على اخوانكم من أهل الكتاب ، وانكم إن قاتلتمونا لَنَظهرن عليكم ، فأنزل الله : (الم غُلبت الروم . في أدنى الأرض ، وهم من بعد غَلَبهم سيغلبون . في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ؛ ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) [2] . وفرح المسلمون بنزول هذه الآيات المقوية للعزمة وأيقنوا ان النصر لا بد آت ، وانهم سينتصرون على أهل مكة أيضاً ويغلبونهم باذن الله . وخرج أبو بكر الى الكفّار (فقال : أفرحتم بظهور اخوانكم على اخواننا . فلا تفرحوا ولا يقرّنَّ الله أعينكم ، فوالله لَيظهرن الروم على فارس أخبرنا بذلك نبينا ، صلى الله عليه وسـلم ، فقام اليه أُبيّ بن خلف . فقال : كذبت يا أبا فضل . فقـال له أبو بكر ، رضي الله عنه : أنت أكذب يا عدوّ الله . فقال أناحبك على عشر قلائص مني وعشر قلائص منك ، فإن ظهرت الروم على فارس غرمت ، وإن ظهرت فارس على الروم غرمت الى ثلاث سنين . ثم جاء أبو بكر الى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فأخبره ، فقال : ما هكذا ذكرت إنما البِضع مـا بين الثلاث الى التسع ، فزايدْه في الخطر ومادَّه في الأجـل . فخرج أبو بكر فلقي أبيّـاً ، فقال : لعلك ندمت ؟ فقال لا . فقال : أزايدك في الخطر وأمادك في

---

١ Vasiliev, PP. 193.

٢ سورة الروم ، الآية ١ وما بعدها ، تفسير الطبري (٢١/١١ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (١٤/١ وما بعدها) .

الأجل ، فاجعلها مائة قلوص لمائة قلوص الى تسع سنين . قال قد فعلت)[1] .

لقد وقعت هذه الهزائم الحربية الكبيرة في عهد القيصر (هرقل) (Heraclius) (٦١٠ — ٦٤١ م) . ففي عهده ، اقتطعت بلاد الشأم ومصر من جسم الانبراطورية ، وهي أعضاء رئيسية في ذلك الجسم . غير ان طالع هذا القيصر لم يلبث ان تحسن بعد سنين من النحس ، فاستعاد تلك الأملاك في المعارك التي نشبت بين سنة ٦٢٢ وسنة ٦٢٨ م . في هذه الفترة نال هرقل أعظم نصر له في ثلاث معارك كبيرة . ولكن نصره الأكبر جاءه يوم قتل (كسرى أبرويز) صاحب هذه الفتوحات بيد ابنه (شيرويه)[2] . فورد طائر السعد على القيصر بهذا الخبر المفرح ، ثم تحققت البشرى بالصلح الذي عقد بين القيصر وبين (شيرويه) . وفيه نزل الفرس عن كل ما غنموه ، ورضوا بالرجوع الى حدودهم القديمة قبل الفتح . فعادت الشأم وفلسطين ومصر الى البيزنطيين ، وأعيد الصليب المقدس الى موضعه في القدس في موكب حافل عظيم[3] .

وسُر المسلمون وهم بالمدينة بانتصار الروم على الفرس ، وزاد أملهم في قرب مجيء اليوم الذي ينتصر فيه المسلمون على المشركين ، وقويت عزيمتهم في التغلب على قريش . (وأسلم عند ذاك ناس كثير)[4] . وتضعضعت معنويات قريش ، وغلب (أبو بكر) أبيّاً) على الرهان ، وكسبه ، أخذه من ورثته ، لأنه كان قد توفي من جرح أصيب به ، فلم يدرك زمن طرد من تعصب له من بلاد الشأم وخسارته الإبل التي تراهن عليها .

وشاء ربك ألا يكون النصر في هذه المرة لا للروم ولا للفرس ، بل للمسلمين . وشاء ألا يبقى الروم في بلاد الشأم إلا قليلاً ، إلا سنين ، إذ تهاوت مدن بلاد الشأم ثم مصر فشمال إفريقية ، الواحدة بعد الأخرى ، في أيدي أناس لم يخطر ببال الروم أبداً انهم سيكونون شيئاً ذا خطر في هذا العالم ، أعني بهم أبناء مكة ويثرب ومن تبعهم من أهل جزيرة العرب . تهاوت بسرعة عجيبة لا تكاد

---

١ تفسير الطبري (١٣/٢١) ، تفسير القرطبي (١/١٤ وما بعدها) .

٢ الطبري (١٠٨/٢ وما بعدها) .

٣ Vasiliev, P. 198.

٤ تفسير القرطبي (٢/١٤) .

تصدق ، وبطريقة تشبه المعجزات . وقد بدأ هذا الانهيار بكتاب يذكر أهل السِّيَر والاخبار ان الرسول أرسله الى (هرقل عظيم الروم) ، يدعوه فيه الى الاسلام ، فإن أبى وبقي على دينه فعليه تبِعته ، فلما لم يسلم ، جاءه الانذار ، قوات صغيرة لا تكاد تكون شيئاً بالنسبة الى جيوش الروم الضخمة ، أخذت تُمَهِّد الطريق لنشر الايمان في بلاد رفض حكامها الدخول فيه . طهرت الارض الموصلة الى الحدود من المخالفين ، ثم أخذت تتحرش ببلاد الشام ، ولم يأخذ الروم ذلك التحرش مأخذاً جدّياً ، اذ تصوّروه غزواً من غزو العرب المألوف يمكن القضاء عليه بتحريك عرب بلاد الشام من الغساسنة ومن لفّ لفهم عليهم ، أو بإرشاء رؤسائهم بالهدايا والمال وتنصيبهم ملوكاً على عرب بلاد الشام في موضع الغساسنة كما كانوا يفعلون مع القبائل القوية الكبيرة التي كانت تتحرش بالحدود ، وينتهي بذلك الغزو وتصفو الأمور .

ولم يعلم البيزنطيون أن المسلمين يختلفون عن الجاهليين ، يختلفون عنهم في أن لهم عقيدة ورسالة ، وأن من يسقط منهم يسقط شهيداً في سبيل إعلاء كلمة ربّه ، وله الجنة ، وأن من يعيش منهم وينجو فلن يركن الى الدعة والحياة الهادئة والرجوع الى البادية بل لا بد له من أحد أمرين : اما نصر حاسم ، واما موت شريف في سبيل الله ورسوله . وبقوا في جهلهم هذا الى أن نبهتهم الضربات العنيفة التي وقعت بينهم وبين العرب في (أجنادين) (Gabatha) وفي (اليرموك) (Hieromax) بأن المعارك التي وقعت ليست غزواً من الغزو المألوف ، بل خطة مهيأة لطرد الروم الذين لا يؤمنون برسالة الرسول من كل بلاد الشام وما وراءها من أرضين . وعندئذ جمعوا جموعهم ، وألفوا قلوب (العرب المستعربة ، أي العرب النصارى القاطنين في بلاد الشام ، بالمال وباسم الدين ، وجعلوهم معهم وتحت قيادتهم في جيوشهم الضخمة لمقابلة المسلمين الذين لم يعرفوا الحروب الكبيرة ، ذات العدد الضخم من المحاربين ، والاسلحة المتنوعة الحديثة ، بالنسبة الى اسلحتهم المكوّنة من سيوف وسهام ورماح وحجارة وخناجر . وهنا وقعت غلطة فنية حربية أخرى من الروم ، اذ قابلوا المسلمين بجيوش ضخمة ، يسيرها قوّاد كبار تعودوا الحرب بأساليبها النظامية وبالطرق المدرسية الموروثة عن الرومان ، وتزوّدوا بالخبرة الفنية العالية التي كسبوها من حروبهم مع الفرس ومع الاوربيين ، فظنوا ان الحرب مع

المسلمين شيئاً بسيطاً ، بل ابسط من البسيط ، حتى أن كبار القادة وجدوا أن من المهانة الاهتمام بأمر أولئك البدو الغزاة ، فتركوا الأمر لمن دونهم في الدرجات يديرونها مع العرب ، الذين أظهروا ذكاءاً فطرياً عظيماً في هذه الحروب ، بتجنبهم الالتحام بالجيوش ، اذ لا قبل لهم بمقاتلتها ، وباتخاذهم خطة المناوشات والكرّ والفرّ بقوات غير كبيرة العدد ، وبذلك تتوفر لهم السرعة في العمل ومباغتة الجيوش الضخمة من ورائها ومن مجنباتها ، وبغزو خاطف كالبرق يلقي الفزع في القلوب . وبذلك أفسدوا على الروم خطتهم بالهجوم على العرب ، بجيوش نظامية كبيرة مُدَرّبة على القتال يكون في حكم المحال بالنسبة للعرب الوقوف أمامها لو أنهم حاربوهم حربهم ، ووقفوا أمامهم وجهاً لوجه . وبركون العرب الى هذه الخطة المبتكرة ، وبمعاملتهم من خضع لهم واستسلم لأمرهم معاملة حسنة ، وبتحريض (العرب المستعربة) ، (العرب المتنصّرة) ، وسكان بلاد الشام من غير الروم ، بل ومن الروم على الانضمام اليهم ، غلبوا البيزنطيين ، وحصلوا ما حصلوا عليه من أرضين .

وعند ظهور الاسلام كانت اليمن في حكم الساسانيين كما رأينا ، غير أن حكمهم لم يكن في الواقع حكماً تاماً فعلياً ، بل كان حكماً شكلياً اسمياً ، محصوراً في صنعاء وما والاها . أما الاطراف والمدن الاخرى ، فكان الحكم فيها لسادات اليمن من حضر ومن أهل وبر . وهو حكم نسمّيه حكم (اصحاب الجاه والنفوذ) . وقد شاء بعض منهم أن يظهر نفسه بمظهر الملوك المنفردين بالحكم والسلطان والجاه ، فلقبوا أنفسهم بلقب (ملك) وحملوه افتخاراً واعتزازاً ، ولم يكن أولئك الملوك ملوكاً بالمعنى المفهوم ، انما كانوا سادات ارض وقبائل ، جمّلوا أنفسهم بالقاب الملك :

فقد نعتت كتب التواريخ والسير سادات حمير في أيام الرسول : الحارث بن عبد كلال ، وشريح بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ، و (النعمان قيل ذي رعين وهمدان ومعافر) ، و (زرعة ذو يزن) (زرعة بن ذي يزن) بـ (ملوك حمير) ، وذكرت أنهم أرسلوا الى الرسول رسولاً يحمل اليه كتاباً منهم يخبرونه فيه باسلامهم ، وقد وصل اليه مقفله من تبوك ، ولقيه بالمدينة ، فكتب الرسول اليهم جوابه ، شرح لهم فيه ما لهم وما عليهم ، وما يجب عليه

مراعاته من أحكام .[1] ويذكر (ابن سعد) أن هذا الرسول هو (مالك بن مُرارة الرهاوي) (مالك بن مرة الرهاوي) ، وقد وصل المدينة في شهر رمضان سنة تسع ، وذلك بعد رجوعه من أرض الروم .[2]

ودوّن (ابن سعد) صورة كتاب ذكر أن الرسول أرسله الى (الحارث) و (مسروح) و (نعيم) أبناء (عبد كلال) من حمير . حمله اليهم (عياش ابن أبي ربيعة المخزومي) . وأوصاه بوصايا ليوصي بها أبناء (عبد كلال) ان أسلموا . منهـــا أنهم اذا رطنوا (فقل ترجموا) ، حتى يفقه كلامهم . واذا أسلموا ، فليأخذ (قضبهم الثلاثة التي اذا حضروا بها سجدوا . وهي من الأثل قضيب ملمع ببياض وصفرة ، وقضيب ذو عجر كأنه خيزران ، والأسود البهيم كأنه من سام . ثم اخرجها فحرّقها بسوقهم . فذهب اليهم ووجدهم في دار . ذات ستور عظام على أبواب دور ثلاثة . فكشف الستر ودخل الباب الاوسط ، وانتهى الى قوم في قاعة الدار . ففعل بمثل ما أمره به الرسول .[3]

ويظهر من قوله : (فاذا رطنوا فقل ترجموا) ، أنهم لم يكونوا يحسنون عربية أهل مكة . وأنهم كانوا يتكلمون فيما بينهم بلهجاتهم الخاصة بهم . وأن معنى تحريق القضب الثلاثة ، هدم ما كان لهم من عزة وسلطان وتكبر على الرعية ، لأن الاسلام قد أمر باجتثات ذلك . وبأن يكون الحكم للرسول وحده . ولما كانت تلك القضب رمزاً للحكم والسلطان ، وقد جعل الاسلام الحكم للرسول وحده ، لهذا أمر الرسول بكسر تلك القضب ، وفي كسرها اشعار لهم بأن حكمهم القديم قد زال عنهم ، وأن الحكم الآن للرسول .

ويظهر من نص الكتاب الذي وجهه الرسول الى (زرعة بن ذي يزن) ، وفيه : (اما بعد ، فإن محمداً يشهد أن لا إلّه الا الله وأنه عبده ورسوله ، ثم ان مالك بن مرة الرهاوي قد حدثني أنك أسلمت من اول حمير ، وقتلت

١ الطبري (٣/١٢٠ وما بعدها) (دار المعارف) ، ابن الأثير (٢/١٢١) ، ابن خلدون (٢/٥٢) (القسم الثاني) (الوفود) ، الطبري (٣/١٥٣ ، ١٥٦) ، البلاذري ، فتوح (٨١) ، (اليمن) ، (وشرح بن عبد كلال) ، (ونعمان قيل ذي يزن) ، (وزرعة ذي رعين) ، ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٤) ، نهاية الأرب (١٨/١١٨) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٣٥٦) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٣) .

المشركين .... الخ) ،[1] أن (زرعة) هذا كان رأس حمير ، والمطاع فيها ، ولهذا ارسل اليه رسولاً خاصاً به هو (مالك بن مرة الرهاوي) ، واستلم جواباً خاصاً من الرسول كتب باسمه ، ولم يذكر اسمه في الجواب الذي ارسله الى الباقين بصورة مشتركة .

وذكر (ابن سعد) أن رسول الله كتب كتاباً الى (بني عمرو) من حمير ، ولم يذكر من هم (بنو عمرو) ، وأشار الى أن في الكتاب : (وكتب خالد ابن سعيد بن العاصي) ،[2] ما يدل على أنه كان كاتب ذلك الكتاب . ويشير (ابن سعد) ايضاً الى ان الرسول ارسل (جرير بن عبـد الله البجلي) الى (ذي الكلاع بن ناكور بن حبيب بن مالك بن حسان بن تبع) والى (ذي عمرو) ، يدعوهما الى الاسلام ، فأسلما وأسلمت (ضريبة بنت ابرهة بن الصباح) امرأة (ذي الكلاع) . وتوفي رسول الله ، وجرير عندهم ، فأخبره (ذو عمر) بوفاته .[3]

ويشير نسب (ذو الكلاع) المذكور الى انه من الأسرة التي كانت تحكم اليمن قبيل غزو الحبش لها . فهو من الأسر الشريفة الحميرية في اليمن . وقد عرف بـ (ذي الكلاع الأصغر) عند اهل الاخبار تمييزاً له عن (ذي الكلاع الأكبر) الذي هو في عرفهم (يزيد بن النعمان الحميري) من ولد (شهال بن وحاظة بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد بن شدد بن زرعة بن سبأ الأصغر) .

وأما صاحبنا (ذو الكلاع) الأصغر الذي راسله الرسول ، وأسلم . فهو أبو (شراحيل سميفع بن ناكور بن عمرو بن يعفر بن ذي الكلاع الأكبر) . قال اهل الأخبار : والتكلّع الحلف (وبه سُمّي ذو الكلاع الأصغر ، لأن حمير تكلّعوا على يده . أي تجمعوا ، الا قبيلتين : هوازن وحراز ، فانهما تكلعتا على ذي الكلاع الأكبر : يزيد بن النعمان) .[4]

وذكر نسب (ذو الكلاع الاصغر) على هذا الشكل : (سميع بن ناكور

---

١ الطبري (٣/١٢١ وما بعدها) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٥) ، نهاية الأرب (١٨/١٦٨) .
٣ ابن سعد ، طبقات (٨/٢٦٥ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (٥/٤٩٦) ، (كلع) .

ابن عمرو بن يعفر بن يزيـد بن النعمان الحميري) . و (يزيد) هـذا هو (ذو الكلاع الأكبر) . وذكر ان (أبا شراحيل) هو الرئيس في قومه المطاع المتبوع ، أسلم في حياة النبي ، فكتب اليه النبي على يد جرير بن عبد الله البجلي كتاباً في التعاون على الأسود ومسيلمة وطليحة . وكان القائم بأمر معاوية في حرب صفين ، وقتل قبل انقضاء الحرب ، ففرح معاوية بموته ، وذلك انـه بلغه ان (ذا الكلاع) ثبت عنده ان علياً بريء من دم عثمان ، وان معاوية لبّس عليهم ذلك ، فأراد التشتيت عليه فعاجلته منيته بصفين وذلك سنة سبع وثلاثين [1] .

ويكون (ذو الكلاع) الأصغر ، قد تزوج بنتاً من بنات أبرهة هي (ضريبة) [2] .

ونسب الى النابغة قوله :

أتانـا بالنجاشـة مجلبوهـا وكندة تحت راية ذي الكلاع

يريد تميماً وأسداً وطيـاً اجلبوا الجيش على بني عامر مع أبي يكسوم وذو الكلاع كان معه أيضاً [3] .

وذكر ان رسول الله كتب الى (معد يكرب بن أبرهة) ان له مـا أسلم عليه من أرض خولان [4] . ولم يشر (ابن سعد) الى بقية اسم أبرهـة أو الى شهرته ، لذلك لا ندري إذا كان قصد (أبرهة) المعروف ، أم شخصاً آخر اسمه (أبرهة) . ولكننا نعرف اسم قيل عرف بـ (معد يكرب) اسم والده (أبو مرة الفياض) ذو يزن ، كان متزوجاً من (ريحانة) ابنة (ذي جدن) ، فولدت له (معـد يكرب) المذكور . ثم انتزعهـا منه (الأشرم) ، ونشأ (معد يكرب) مع أمه (ريحانة) في حجر (أبرهة) [5] ، فلعلّه نسب اليه ، لذلك قال له (ابن سعد) (معد يكرب بن أبرهة) .

وكان للفرس وللجيل الجديد الذي ظهر في اليمن من تزاوجهم باليمانيين ، وهو

---

١ تاج العروس (٣٨٩/٥) .
٢ ابن سعد ، طبقات (٢٦٦/١) .
٣ تاج العروس (٤٩٦/٥) .
٤ ابن سعد ، طبقات (٢٦٦/١) .
٥ الطبري (١٤٢/٢ وما بعدها) .

الجيل الذي عرف بـ (الأبناء) نفوذ كبير في اليمن ، وقد تحدثت عنه في الجزء السابق من هذا الكتاب . والى هذا الجيل أرسل الرسول (وبر بن يُحنس) ، يدعوه الى الإسلام ، فنزل على بنات (النعمان بن بزرج) فأسلمن ، وبعث الى فيروز الديلمي فأسلم ، والى مركبود وعطاء ابنه ، ووهب بن منبه . وكان أول من جمع القرآن بصنعاء ابنه عطاء بن مركبود ووهب بن منبه [1] .

وقد كان الفرس الذين أقاموا باليمن مثل سائر الفرس على المجوسية ، ولما دخل أهل اليمن في الإسلام دخل بعض هؤلاء فيه . وأقام بعض آخر على دينه ، وفرض الرسول على من بقي على دينه جزية [2] . وقد نفر منهم بعض سادات اليمن من الأسر القديمة ، بسبب انهم غرباء عن اليمن ، جاؤوا الى اليمن فحكموها ، ولهذا انضم بعض منهم الى (الأسود) في ردّته . لأن (الأسود العنسي) ، كان كارهاً للأبناء ، حاقداً عليهم . يرى انهم عصابة دخيلة ، استأثرت بحكم اليمن [3] . وقد شاءت الأقدار ان تكون نهايته بأيديهم . إذْ كان قاتله منهم فكأن قلبه كان يعلم بما سيفعلونه به ، ولهذا كرههم .

وكانت الأزد من القبائل المعروفة في اليمن ، وقد جاء وفد منهم الى الرسول على رأسه (صرد بن عبد الله) في بضعة عشر ، فأسلم ، وأمره ان يجاهد بمن أسلم من أهل بيته المشركين من قبائل اليمن ، وكان أول ما فعله انه حاصر (جرش) ، وكانت قد تحصنت وضوت اليها خثعم ، فلما وجد ان من العسير عليه فتحها بالقوة آوى الى جبل (كشر) ، فظن أهل جرش ، انه إنما ولى عنهم منهزماً ، فخرجوا في طلبه ، حتى اذا أدركوه عطف عليهم فقتلهم قتلاً . ثم أسلم من نجا منهم . وحمى الرسول لهم حمى حول قريتهم على أعلام معلومة للفرس ، وللراحلة ، وللمثيرة تثير الحرث ، فمن رعاها من الناس سوى ذلك فماله سحت [4] .

وكتب الرسول كتاباً الى (خالد بن ضماد الأزدي) ان له ما أسلم عليه من

---

١ الطبري (١٥٨/٣) .

٢ البلاذري ، فتوح (٨٣) .

٣ البلاذري ، فتوح (١١٣ وما بعدها) .

٤ الطبري (١٣٠/٣ وما بعدها) ، (دار المعارف) ، ابن سعد ، طبقات (٣٣٧/١ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٩٦/١٨ وما بعدها) .

أرضه ، وكان كاتب كتابه (أبَيّ)[1] . وكتب مثل ذلك لجنادة الأزدي وقومه ، وكان كاتب هذا الكتاب (أبَيّ) كذلك[2] . وكتب الرسول الى (أبي ظبيان الأزدي) من (غامد) يدعوه ويدعو قومه الى الإسلام . فأجابه في نفر من قومه بمكة . وكانت لأبي ظبيان صحبة ، وأدرك عمر بن الخطاب[3] .

وذكر ان (ضماد بن ثعلبة) الأزدي ، كان صديقاً للرسول في الجاهلية ، وكان يتطبب ويرقي من هذه الرياح ، ويطلب العلم ، فقدم مكة قبل الهجرة ، واجتمع بالرسول وكلّمه ، ثم أسلم . وهو من (أزد شنوءة) .[4]

ونجد (ابن سعد) يدوّن صورة كتاب ذكر ان الرسول كتبه لبارق من الأزد . نظم فيه حقوقهم مثل ان لا تُجذّ ثمارهم وان لا ترعى بلادهم في مربع ولا مصيف إلا بمسألة من بارق . وغير ذلك . وكتب الكتاب (أبَيّ بن كعب) ، وشهد عليه أبو عبيدة بن الجراح وحذيفة بن اليمان[5] .

ويجاور الأزد من الشرق (خثعم) و (مذحج) و (مراد) و (همدان) و (بلحارث) ، ويجاورهم في غربهم (بنو كنانة) و (بنو عك) . وأما من الجنوب ، فتتصل ديارهم بديار (همدان) و (حمير) .

وتجمع بعد وفاة النبي قوم من الأزد وبجيلة وخثعم ، عليهم حميضة بن النعمان وذلك بـ (شنوءة) ، وعلى أهل الطائف (عثمان بن ربيعة) ، فبعث عليهم (عثمان بن أبي العاص) ، عامل النبي على الطائف بعثاً التقى بهم بشنوءة ، فهزموا تلك الجُمّاع ، وتفرقوا عن (حميضة) ، وهرب وفسدت ثورة هؤلاء المرتدين[6] .

وتمرد قومٌ من (خثعم) على (أبي بكر) حينما بلغهم نبأ وفاة الرسول وخرجوا غضباً الى (ذي الخلصة) يريدون إعادته ، فأمر (أبو بكر) (جرير

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٧) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٠) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٠) .
٤ نهاية الأرب (١٨/٧ وما بعدها) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٧) .
٦ الطبري (٣/٣٢٠) ، (دار المعارف) .

ابن عبد الله) ان يدعو من قومه من ثبت على أمر الله ، وان يستنفر (مُقويهم) ، فيقاتل بهم خثعم ، فنفذ أمره فتتبعهم وقتلهم وعاد الى الإسلام من تاب [1] . وكان الرسول قد بعث سنة تسع للهجرة (قطبة بن عامر بن حديدة) الى خثعم بناحية (تبالة) ، فتغلب عليهم [2] .

وبقيت (همدان) قبيلة قوية من قبائل اليمن ، وقد أسلمت كلها في يوم واحد ، أسلمت يوم مقدم (علي بن أبي طالب) الى اليمن على رأس سرية أمر الرسول بارسالها الى هناك . وقد فرح الرسول باسلامها ، وتتابع أهل اليمن على الاسلام [3] .

وقد كانت همدان بطون عديدة ، من بطونها (بنو ناعط) ، ومن رجالهم (حمرة ذو المشعار بن أيفع) ، وكان شريفاً في الجاهلية ، والظاهر انه كان صاحب موضع (المشعار) [4] . وهو (أبو ثور) . وقد وفد على الرسول ، ووفد معه (مالك بن نمط) و (مالك بن أيفع) ، و (ضمام بن مالك السلماني) ، و (عميرة بن مالك الخارفي) ، فلقوا رسول الله بعد مرجعه من تبوك ، وعليهم مقطعات الحبرات والعمائم المعدنية ، برحال المَيْس على المهرية والأرحبية [5] .

ويذكر أهل الأخبار . ان الوفد لما وصل المدينة ، ارتجز (مالك بن نمط) رجزاً ، ثم خطب بين يدي الرسول ، ذاكراً له ان نصيّة ، أي أخياراً أشرافاً من همدان ، يريد رجال الوفد ، قدمت الى الرسول ، وهي (من كل حاضر وبادٍ) أي من أهل الحضر ومن أهل البادية ، ومن أهل مخلاف خارف ويام وشاكر ، ومن أهل الإبل والخيل ، قدموا اليه ، بعد ان عافوا الأصنام واعتنقوا الإسلام . فأثنى الرسول عليهم ، وشكرهم وكتب لهم كتاباً ، وجهه (لمخلاف خارف وأهل جناب الهضب ، وحقاف الرمل مع وافدها ، ذي المشعار : مالك بن نمط ، ومن أسلم من قومه) ، ثم بين لهم ما عليهم وما لهم [6] .

١ الطبري (٣/٣٢٢) .
٢ نهاية الأرب (١٧/٣٥٠) .
٣ الطبري (٣/١٣١ وما بعدها) .
٤ الاشتقاق (ص ٢٥١) .
٥ نهاية الأرب (١٨/١٠ وما بعدها) .
٦ نهاية الأرب (١٨/١١ وما بعدها) .

وورد ان (قيس بن مالك بن سعد بن لأي الأرحبي) قدم على رسول الله وهو بمكة ، فعرض رسول الله عليه الإسلام فأسلم ، ثم خرج الى قومه فأسلموا بإسلامه ، ثم عاد الى الرسول فأخبره بإسلامهم ، فكتب له عهداً على قومه (همدان) . وذكر ان رجلاً مرّ بالرسول ، وهو من (أرحب) من (همدان) ، اسمه (عبد الله بن قيس بن أم غزال) ، فعرض عليه الرسول الإسلام ، فأسلم ، فلما عاد الى قومه قتله رجل من (بني زُبَيْد)[1] ، وجاء وفد آخر من (همدان) الى الرسول فأسلم على يديه ، وكان فيه (حمزة بن مالك) من (ذي مشعار) ، وكان على الوفد مقطعات الحبرة مكففة بالديباج ، فكتب الرسول لهم كتاباً ، وأوصاهم بقومهم من بقية بطون همدان[2] .

وورد ان الرسول كتب لـ (قيس بن مالك بن سعد الأرحبي) ، عهداً ثبته فيه على قومه (همدان : أحمورها وعربها وخلائطها ومواليها ان يسمعوا له ويطيعوا)[3] . وذكر ان الأحمور : قدم ، وآل ذي مران ، وآل ذي لعوة ، وأذواء همدان . وقيل : حمورها : أهل القرى . وأرى ان المراد بالأحمور هم بقايا حمير الناطقون بالحميرية وهم سكان القرى والمدن. ذُكروا وخصوا بالذكر ، لانهم اختلفوا عن غيرهم ممن كان يتكلم بلهجات أخرى ، ولهذا ميزوا عن (عربها) ، أي عرب همدان ، وهم الأعراب ، وعن الخلائط وهم الذين يكونون أخلاط الناس وعن الموالي . وذهب بعض الباحثين ، الى ان (عربها) بالغين ، أي (غربها) ويراد بهم : أرحب ، ونهم ، وشاكر ووداعة ، ويام ، وموهبة ، ودالان ، وخارف ، وعذر ، وحجور[4] .

وأما (بنو زُبَيْد) ، فكان على رأسهم (عمرو بن معد يكرب الزبيدي) ، وكان قد قدم على الرسول في أناس من قومه ، ليعرض عليه الإسلام . فأسلم وأسلم من كان معه[5] . وقد نعت بالشجاعة فدعي بـ (فارس العرب)[6] ، وهو

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤٠ وما بعدها) ، نهاية الأرب (١٨/٩ وما بعدها) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤٠ وما بعدها) .
٣ نهاية الأرب (١٨/٩) .
٤ الطبري (٣/١٣٢ وما بعدها) ، (دار المعارف) .
٥ الاشتقاق (ص ٢٤٥) .
٦ الطبري (٣/١٣٤ وما بعدها) ، ابن سعد ، طبقات (١/٣٢٨) .

لقب يلقب به الشجعان الفرسان . وأقام في قومه من بني زُبَيْد . وعليهم (فروة بن مسيك المُرادي) ، الذي كان قد استعمله الرسول على مراد وزبيد ومذحج كلها : فلما توفي رسول الله ارتد عمرو بن معديكرب . ووثب (قيس بن عبد يغوث) على (فروة بن مسيك) ، وهو على مراد ، فأجلاه ونزل منزله [1] .

وكان (عمرو بن معديكرب) قد لقيَ (قيس بن مكشوح المرادي) حين انتهى اليه أمر رسول الله ، فعرض عليه ان يذهب معه الى رسول الله حتى يعلم علمه ، فإن كان نبيّاً ، فإنه لا يخفى أمره عليهم ، وإن كان غير ذلك علم علمه أيضاً وتركه ، فلم يأخذ (قيس) برأيه وسفّه فكرته . ثم أوعد (قيس) (عمرو بن معد يكرب) يوم سمع بذهابه الى الرسول وباعتناقه الإسلام . وقال : (خالفني وترك رأيي) [2] .

وكان (فروة بن مسيك المُرادي) من (بني مُراد) [3] . وقد عدّه (ابن حبيب) في جملة الجرارين ، أي الذين قادوا الفاً [4] . وقد كان مفارقاً للملوك كِندة ، ومعانداً لهم . وقد شهد يوم الرزم ، وهو يوم كان بين مراد قوم فروة وبين همدان ، انتصرت فيه همدان على مراد . وقد نسبوا شعراً لفروة ذكروا انه قاله يعتذر فيه عن الهزيمة التي أصابت مراداً في ذلك اليوم ، وكان الذي قاد همدان فيه (مراد الأجدع بن مالك) [5] .

ولما وصل (فروة) المدينة ، نزل على (سعد بن عبادة) ، وقد أكرمه الرسول ، واستعمله على مراد وزبيد ومذحج ، وبعث معه (خالد بن سعيد بن العاص) على الصدقات [6] .

والى بني الحارث بن كعب أرسل الرسول خالد بن الوليد يدعوهم الى الاسلام ،

---

١ الطبري (٣/١٨٥) .
٢ الطبري (٣/١٣٢ وما بعدها) ، (قدوم وفد زبيد) ، نهايه الأرب (١٨/٨٥) .
٣ الاشتقاق (ص ٢٤٦) .
٤ المحبر (ص ٢٥٢) .
٥ الطبري (٣/١٣٤ وما بعدها) ، (دار المعارف) .
٦ ابن سعد ، طبقات (١/٣٢٧) ، نهاية الأرب (١٨/٨٤ وما بعدها) .

أو البقاء على دينهم وهو النصرانية مع دفع الجزية . فأسلم أكثرهم ، وذهب وفد منهم فيه (قيس بن الحصين بن يزيد بن قنان ذي الغصة) ، و (يزيد بن عبد المدان) ، و (يزيد بن المحجل) ، و (عبد الله بن قريظ الزيادي) ، و (شدّاد بن عبد الله القناني) ، و (عمرو بن عبد الله الضبابيّ) ، فقابل الرسول ، وكان السواد غالباً على لونهم ، فقال الرسول لما رآهم : من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال من الهند ؟ . قيل : يا رسول الله ، هؤلاء بنو الحارث ابن كعب[1] . وأمر رسول الله (قيس بن الحصين) على (بني الحارث بن كعب) . كما زار الرسول (عبدة بن مسهر الحارثي) في المدينة ، وأسلم على يديه[2] .

وكتب الرسول لبني الضباب من (بني الحارث بن كعب) ان لهم ساربة ورافعها ، لا يُحاقّهم فيها أحد ما داموا مسلمين ، وكتب كتابهم هذا المغيرة[3] . وكتب لبني قنان بن وعلة من بني الحارث كتاباً ان لهم محبساً وانهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، كتبه له المغيرة ايضاً . وأمر الرسول كاتبه : الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي ، ان يكتب لعبد يغوث بن وعلة الحارثي ، ان له ما أسلم عليه من أرضها وأشيائها ، أي نخلها ما دام يقوم بما يفرضه الاسلام عليه من واجبات . وكتب له (علي بن أبي طالب) ان لبني زياد بن الحارث جمّاء وأذنبة . وأمر رسول الله المغيرة بن شعبة ان يكتب ليزيد بن المحجل الحارثي ، ان له ولقومه نمرة ومساقيها ووادي الرحمان من بين غابتها . وانه على قومه من (بني مالك) و (عقبة) لا يغزون ولا يحشرون[4] .

وأمر الرسول ان يكتب كتاباً لـ (قيس بن الحصين ذي الغصة) أمانة لبني أبيه بني الحارث ولبني نهد حلفاء بني الحارث ، يؤمنهم على أموالهم ما داموا مسلمين . وكتب كتاباً يشهد بإسلام (بني قنان بن يزيد) الحارثيين ، ويؤمنهم فيه ايضاً ان لهم مِذْوداً وسواقيه . وكتب مثل ذلك لعاصم بن الحارث الحارثي ،

١ الطبري (٣/١٣٦ وما بعدها) (دار المعارف بمصر) ، ابن سعد ، طبقات (١/٣٣٩ وما بعدها) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤٠) .
٣ ابن سعد (١/٢٦٧ وما بعدها) .
٤ ابن سعد (١/٢٦٨) .

ان له نجمة من راكس لا يُحاقّه فيها أحد[1] .

وكان (عوز بن سُرير الغافقي) في جملة من وفد من (غافق) على الرسول ، كما كان فيهم (جليحة بن شجار بن صُحار الغافقي)[2] .

وقد آلم ولا شك خروج الحبش من اليمن البيزنطيين كثيراً ، وأصيبوا بخروجهم منها بخسارة من الوجهة العسكرية والاقتصادية ، غير ان مما خفف من هذه المصيبة ان الفرس لم يكن لديهم آنذاك أسطول قوي يستطيع الهيمنة على مضيق المندب ، مدخل البحر الأحمر ، بل ولا سفن كافية يكون في وسعها حماية سواحل اليمن والعربية الجنوبية . لذلك لم يهدد دخولهم اليمن السواحلَ الافريقية المقابلة لسواحل جزيرة العرب وهي مهمة بالنسبة للروم ، ثم انهم عوّضوا عن خسارتهم الكبيرة الفادحة التي نزلت بهم باحتلال الفرس لبلاد الشأم ، بطردهم الفرس واجلائهم عن كل الأرضين التي استولوا عليها وباعادتهم (الصليب المقدس) الى مكانه . فرفعوا بذلك من معنوياتهم في الشرق الأوسط وفي افريقية .

وقد سُرَّ اليهود من خروج الحبش من اليمن ومن استيلاء الفرس عليها . إذْ صاروا في حكم حكومة لا تحقد عليهم ، حكومة لا يهمها أمر اليهود لعدم وجود علاقة لها بها . بل ربما ساعدتها لأنها تناهض الروم ، على عكس النصرانية التي كانت قد وجدت في الحبشة نصيراً ومساعداً ، لذلك قلَّ أتباعها وانحسروا تدريجياً ، وبقيت متمركزة بمدينة نجران .

ولنجران وضع خاص . فقد تمتعت باستقلال ذاتي في الغالب . وقد تحرشتُ بتأريخها في مواضع متعددة من هذا الكتاب وبحسب المناسبات . ولما استولى الفرس على اليمن لم تدخل في طاعتهم ولم تخضع لحكم (عاملهم) ، بل أخذت تدير شؤونها بنفسها وبمجلس تنفيذي حصر أمور البلد في أيدي سادات ثلاثة اختص أحدهم بالحكم المدني ، واختص ثانيهم بالنظر في أمور الدين ، واختص الثالث في شؤون الأمن والدفاع عن المدينة . وقد عرفوا بالعاقب والسيد والأسقف . وقد قدموا على الرسول وباهلوه ؛ وكتب لهم كتاب الصلح وذلك سنة عشر للهجرة .

١ ابن سعد ، طبقات (٢٦٨/١) .
٢ ابن سعد ، طبقات (٣٥٢/١) .

واشترط عليهم في جملة ما اشترطه فيه ، ان لا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به [1]
وكتب الكتاب : المغيرة [2] .

وذكر ان الوفد الذي خرج الى الرسول من نجران كان مؤلفاً من أربعة عشر رجلاً من أشرافهم نصارى . فيهم : العاقب ، وهو عبد المسيح ، رجل من كندة ، وأبو الحارث بن علقمة ، رجل من بني ربيعة ، والسيد وأوس إبنا الحارث ، وزيد بن قيس ، وشيبة ، وخويلد ، وخالد ، وعمرو ، وعبيد الله ، وفيهم ثلاثة نفر يتولون أمورهم ، والعاقب ، وهو أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم ، والسيد ، وهو صاحب رحلهم . فتقدمهم (كرز) أخو (أبو الحارث) ، ثم قدم الوفد بعده ، فدخلوا المسجد عليهم ثياب الحبرة ، وأردية مكفوفة بالحرير ، ثم كلّموا الرسول ، وصالحهم على شروط ، ثم عادوا الى ديارهم ، ثم عاد السيد والعاقب الى المدينة فأسلما ، وبقي الآخرون على دينهم الى زمن (عمر) فأجلاهم ، لانهم أصابوا (الربا) وكثر بينهم . واشترى عقاراتهم وأموالهم ، فتفرقوا ، فنزل بعضهم الشأم ونزل بعضهم (النجرانية) بناحية الكوفة [3]

وكان الحكم في نجران لـ (بني الأفعى) ، ثم تحول الى (بني الحارث بن كعب) ، فلما ظهر الاسلام كان حكامها من بني الحارث بن كعب . أما بنو الأفعى فكانوا كثرة فيها . غير ان الحكم لم يكن في أيديهم [4] .

ولما توفي رسول الله ، كان عامله (عمرو بن حزم) بنجران [5] . ولما قام (ذو الحمار عبهلة بن كعب) وهو (الأسود) ، بعامة ملحج على الاسلام في حياة الرسول وكان كاهناً شعباذاً ، يري الناس الأعاجيب ، ويسبي قلوب من سمع منطقه ، أخرج (عمرو بن حزم) من نجران ، واستولى عليها ثم سار

---

١ الطبري (٣/١٣٩) ، (دار المعارف) ، البلاذري ، فتوح (٧٥ وما بعدها) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٦) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٣٥٨ وما بعدها) ، البلاذري ، فتوح (٧٧ وما بعدها) ، نهاية الأرب (١٨/١٢١ وما بعدها) .
٤ الطبري (٣ /٣٢١ وما بعدها) .
٥ الطبري (٣/١٣٠) .

(عبهلة) الى صنعاء فأخذها ، وأخذ يدعو الناس اليه ، حتى قضى عليــه .[١] وأرسل الرسول قبل وفاته بقليل (وبر بن يُحنس) الى (فيروز) و (جُشيش الديلمي) و (داذويه الاصطخري) ، و (جرير بن عبــد الله) الى (ذي الكلاع) و (ذي ظليم) ، و (الاقرع بن عبد الله الحميري) الى (ذي زود) و (ذي مران) وذلك للقضاء على (الاسود) وعلى من استجاب اليه ، فقتل . قتله : (فيروز الديلمي) و (قيس بن مكشوح المرادي) ، وعاد من ارتد واتبعه الى الاسلام ، ولم يكن الرسول قد فارق الدنيا بعد .[٢]

وكان النبيّ حين وفاته قد نصب عمالاً على عمالات تمتد من مكة الى اليمن ، فكان على مكة وأرضها (عتاب بن أسيْد) و (الطاهر بن أبـي هالة) . عتاب على بني كنانة والطاهر على علك . وعلى (الطائف) وأرضها (عثمان بن أبـي العاص) و (مالك بن عوف النصريّ) . (عثمان) على اهل المدر ومالك على أهل الوبر أعجاز هوازن . وعلى نجران وأرضها عمرو بن حزم وأبو سفيان بن حرب . عمرو بن حزم على الصلاة ، وأبو سفيان بن حرب على الصدقات ، وعلى ما بين (رمع) و (زبيد) الى حد (نجران) خالد بن سعيد بن العاص . وعلى همدان كلها (عامر بن شهر) ، وعلى (صنعاء) فيروز الديلمي يسانده داذويه وقيس بن المكشوح ، وعلى الجند يعلى بن امية ، وعلى مأرب أبو موسى الأشعري ، وعلى الأشعريين مع علك الطاهر بن ابـي هالة ، ومعاذ بن جبل يعلم القوم ، يتنقــل في عمل كل عامل . بقي الحال على هذا المنوال حتى نزا بهم الأسود الكذّاب .[٣]

وورد في رواية اخرى ، ان رسول الله وجه (خالد بن سعيد بن العاص) أميراً الى صنعاء وأرضها ، وذكر انه ولى (المهــاجر بن ابـي امية بن المغيرة المخزومي) صنعاء ، فقبض وهو عليهــا . وقال آخرون انما ولى (المهاجر) (أبو بكر) ، وولى (خالد بن سعيد) مخاليف اعلى اليمن . وذكر ايضاً ، ان رسول الله ولى (المهاجر) كندة والصدف ، فلما قبض رسول الله ، كتب

١ الطبري (٣/١٨٥) ، (ثم دخلت سنة احدى عشرة) .
٢ الطبري (٣/١٨٧ ، ٢٢٧ وما بعدها) ، (بقية الخبر عن أمر الكذاب العنسي) .
٣ الطبري (٣/٣١٨ وما بعدها) .

ابو بكر الى (زياد بن لبيد البياضي) من الانصار بولاية كندة والصدف الى ما كان يتولى من حضرموت . وولى المهاجر (صنعاء) . والذي عليه الاجماع ان رسول الله ولى (زياد بن لبيد) حضرموت . [1]

ولما ارتد (قيس بن عبد يغوث المكشوح) ردته الثانية ، وعمل في قتل فيروز وداذويه وجشيش ، وكتب الى (ذي الكلاع) وأصحابه : (ان الأبناء نُزّاع في بلادكم ، وثقلاء فيكم ، وأن تتركوهم لن يزالوا عليكم ، وقد أرى من الرأي أن اقتل رؤوسهم ، وأخرجهم من بلادنا) ، كتب (ابو بكر) الى (عمير ذي مران) والى (سعيد ذو زود) والى (سميفع ذي الكلاع) والى (حوشب ذي ظلم) ، والى (شهر ذي يناف) ، يأمرهم بالتمسك بالاسلام ، وبمقاومة (قيس) والمرتدين . فكاتب (قيس) (تلك الفالة السيارة اللحجية ، وهم يصعدون في البلاد ويصوّبون ، محاربين لجميع من خالفهم) (وأمرهم ان يتعجلوا اليـه ، وليكون امره وأمرهم واحداً ، وليجتمعوا على نفي الابناء من بلاد اليمن) ، فاستجابوا له ، ودنوا من صنعاء . وعمد الى الحيلة لقتل (فيروز) ، و (داذويه) ، و (جشيش) . وتمكن من (داذويه) ، فقتله . فأحسّ (فيروز) و (جشيش) بالمكيدة ، فهربا الى (خولان) ، وهم اخوال (فيروز) ، وامتنع (فيروز) بأخواله . فثار (قيس) بصنعاء ، وجمع (فيروز) من تمكن جمعه من الابناء ، وكتب الى (بني عقيل بن ربيعة بن عامر بن صعصعة) والى (علك) يستنصرهم ويستمدهم على (قيس) . فساروا اليه ووثبت (علك) وعليهم (مسروق) ، وسار (فيروز) بهم نحو (قيس) ، فهرب في قومه والتحق بفلول (العنسي) التي تذبذبت بعد مقتله ، وسار فيما بين صنعاء ونجران . وانضم الى (عمرو بن معديكرب) . وكان (عمرو) قد فارق قومه (سعد العشيرة) في (بني زبيد) وأحلافها وانضم الى (العنسي) .

ولما ارسل (ابو بكر) مدداً الى من ارسله الى اليمن ، انضم اليه قوم من (مهرة) وسعد زيد والأزد وناجية وعبد القيس وحُدبان من بني مالك ، وقوم من العنبر والنخع ، وحمير ، واختلف (قيس) مع (عمرو بن معديكرب) ،

---

١ البلاذري ، فتوح (٨٠) .

وإنفلّ من كان معها وأُخذا أسيرين الى ابي بكر ، فعفى عنها . وانتهت بذلك ردة هذين المرتدين .[1]

ومن (بني خُشَيْن) (ابو ثعلبة الخشني) ، وقد وفد على الرسول وأسلم ووفد عليه نفر من (خشين) فنزلوا عليه وأسلموا وبايعوه ورجعوا الى قومهم.[2]

وكان من جملة وفود اهل اليمن الى الرسول ، وفد (بهراء) ، جاؤوا الى المدينة فأسلموا ، وقد نزلوا على (المقداد بن عمرو) .[3]

ومن قبائل اليمن قبائل (مذحج) ، وتقع منازلها جنوب منازل (خثعم) وفي شمال ديار (فهد) . ومن بطونها (الرهاويون) ، وهم حيّ من مذحج ، قدم وفد منهم على الرسول سنة (عشر) للهجرة فأسلموا . وقدم رجل منهم اسمه (عمرو بن سبيع) على الرسول فأسلم ، فعقد له رسول الله لواءً .[4]

وأرسل (النخع) رجلين منهم الى النبيّ : (ارطاة بن شراحيل بن كعب) من (بني حارثة بن مالك بن النخع) و (الجهيش) واسمه (الأرقم) من (بني بكر بن عوف بن النخع) فأسلما ، وعقد لأرطاة لواء على قومه ، وجاء وفد آخر من وفد النخع من اليمن سنة احدى عشرة ، وهم مائتا رجل ، وكان فيهم (زرارة بن عمرو) ، وقيل هو (زرارة بن قيس بن الحارث بن عداء) ، وكان نصرانيـــاً ، فأسلموا ، وبايعوا الرسول ، وكانوا قد بايعوا (معاذ بن جبل) باليمن .[5]

وقدم (جرير بن عبد الله البجلي) سنة عشرٍ المدينةَ على رأس وفد من قومه (بجيلة) ، فأسلموا وبايعوا الرسول . وقدم وفد آخر منهم فيه (قيس بن عزرة الأحمسي) فأسلموا وعادوا الى ديارهم .[6]

---

١ الطبرى (٣/٣٢٣ وما بعدها) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٣٢٩) ، نهاية الأرب (١٨/٢٣) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤٤ وما بعدها) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٣٣١) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤٦) ، (زرارة بن قيس بن الحارث بن عدي بن الحارث ابن عوف) ، نهاية الأرب (١٨/١١٠) .
٦ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤٧) .

وجاء وفد (خثعم) وفيه (عثعث بن زحر) و (أنس بن مدرك) ، فأسلموا ، وكتب النبي لهم كتاباً . [1] وقد دوّن (ابن سعد) صورة كتاب ذكر أن الرسول كتبه لـ (خثعم) (من حاضر بيشة وباديتها) ، وأن الذي كتبه له وشهد عليه (جرير بن عبد الله) ومن حضر . [2] ودوّن (ابن سعد) صورة كتاب آخر ، أمر الرسول بكتابته لـ (مطرف بن الكاهن الباهلي) . جاء فيه : (هذا كتاب من محمد رسول الله لمطرف بن الكاهن ولمن سكن بيشة من باهلة) . [3] ويظهر منه أن (مطرفا) المذكور وقومه من باهلة كانوا يقيمون اذ ذاك بـ (بيشة) . ودوّن (ابن سعد) صورة كتاب آخر كتبه الرسول الى (نهشل بن مالك الوائلي) من (باهلة) . [4] ولم يذكر الكتاب مواضع منازلهم .

وكان من رجال (جُعْفى) الذين وفدوا على الرسول : (قيس بن سلمة ابن شراحيل) ، و (سلمة بن يزيد) ، فأسلما ، وأستأذنا الرسول بالعودة الى منازلهما . فلما كانا في الطريق ، لقيا رجلاً من اصحاب رسول الله ، معه إبل من ابل الصدقة ، فطردا الابل ، واوثقا الراعي . ومن (جعفى) ، (ابو سبرة) ، وهو (يزيد بن مالك بن عبد الله الجعفي) وابناه (سبرة) و (عزيز) ، قدم بهما أبوهما على الرسول ، وأسلموا . [5]

وأما (تهامة) ، فكان بها عكّ والأشعرون . وكانوا قد ارتدوا بعد سماعهم خبر وفاة الرسول ، ولكنهم غُلبوا على امرهم ، وعادوا الى الاسلام . [6]

ولما توفي الرسول ، كان اول منتقض بعد النبي بتهامة عكّ والأشعرون ، وذلك انهم حين بلغهم موت النبي ، تجمعوا واقاموا على الاعلاب طريق الساحل . فسار عليهم (الطاهر بن ابي هالة) ومعه (مسروق المكّي) ، فهزمهم وقتلهم كل قِتلَة ، وعرفت الجموع من عكّ ومن تأشب اليهم : الأخابث ، وسُمّي

١ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤٨) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٦) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٤) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٤) .
٥ نهاية الأرب (١٨/٨٣ وما بعدها) .
٦ الطبري (٣/٣٢٠ وما بعدها) .

الطريق الذي تجمعوا به (طريق الأخابث) . [1]

وجاء وفد من الأشعريين ، فيه (أبو موسى الاشعري) ، ومعه رجلان من (عكّ) قدم في سفن في البحر ، ثم نزلوا الساحل وذهبوا برّاً الى المدينة ، فرأوا الرسول وبايعوه . [2]

وأرسلت (جيشان) نفراً الى المدينة فيهم (ابو وهب الجيشاني) ، فأسلموا . [3]

وكان الحكم في حضرموت الى الاقيال كذلك . وفي ايام الرسول قدم عليه (وائل بن حجر) راغباً في الاسلام ، وكانت له مكانة كبيرة في بلده ، وقد نعته كتاب الرسول الذي كتبه اليه بـ (قيل حضرموت) . [4] وقد كان لكندة والسكاسك والسكون والصدف اثر كبير في تأريخ حضرموت في هذا العهد الذي نتحدث عنه .

وذكر (ابن سعد) ، ان الرسول كتب الى اقيال حضرموت ، وعظمائهم ، كتب الى (زرعة) و (فهد) و (البسّي) و (البحيري) و (عبد كلال) و (ربيعة) و (حجر) . [5]

وكانت كندة هي القبيلة المتنفذة بحضرموت ، كان (الاشعث بن قيس بن معديكرب الكندي) من رؤساء هذه القبيلة البارزين ، وقد مدح الأعشى (قيس ابن معديكرب) بقوله :

وجلنـــداء في عُمان مقيماً ثم قيساً في حضرموت المنيف [6]

وكان (الأشعث بن قيس) على رأس وفد كندة الذي وفد على الرسول سنة عشر ، فأسلم مع قومه على يديه . [7] وقد كان رجال الوفد قد رجّلوا جمعهم واكتحلوا ، ولبسوا جبـــاب الحبرة قد كفّوها بالحرير ، وعليهم الديباج ظاهر مخوص بالذهب ، فأمرهم الرسول بترك ذلك . فألقوه . [8]

١ الطبري (٣/٣٢٠ وما بعدها) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤٨) ، نهاية الأرب (١٨/٢٣) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٣٥٩) .
٤ ابن خلدون (٢/٥٦ وما بعدها) ، (القسم الثاني) ، (الوفود) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٣ وما بعدها) .
٦ ديوان الأعشى (القصيدة ٦٣ ، البيت ١٥) .
٧ الطبرى (٣/١٣٨ وما بعدها) ، (قدوم الأشعث بن قيس في وفد كندة) ، نهايه الأرب (١٨/٨٧ وما بعدها) .
٨ ابن سعد ، طبقات (١/٣٢٨) .

وذكر (أبو عبيدة) ، ان (الأشعث بن قيس) لم يكن كندياً ، وإنما صار في كندة بالولاء . وزعم ان والد (قيس) وهو (معد يكرب) كان علجاً من أهل فارس إسكافاً اسمه (سبيخت بن ذكر) ، قطع البحر من توج الى حضرموت . وللفرزدق شعر في ذلك قاله في حق (عبد الرحمن) حين خالف عبد الملك بن مروان . كما زعم ان (وردة بنت معد يكرب) عمة الأشعث كانت عند رجل من اليهود ، فماتت ولم تخلف ولداً ، فأتى الأشعث (عمر بن الخطاب) يطلب ميراثها ، فقال له عمر : لا ميراث لأهل ملتين[1] .

وقد عرف ملوك كندة الذين راسلهم الرسول بـ (بني معاوية)[2] ، وهم الذين عرفوا بـ (بني معاوية الأكرمين) ، في شعر ملحوا به .

وكان مخوص (مخوس) ومشرح وجمد (حمدة) وأبضعة بنو معديكرب ابن وليعة بن شرحبيل بن معاوية من الرؤساء الملقبين بلقب ملك ، لأن كل واحد منهم قد اختص بواد ملكه ، ولقب نفسه بلقب ملك[3] . وقد نزلوا المحاجر ، وهي أحماء حموها ، وقد عرف هؤلاء بالملوك الأربعة من بني عمرو بن معاوية وقد لعنهم النبي[4] . وعرفوا بـ (بني وليعة) ملوك حضرموت وقد جاؤوا الى الرسول مع وفد كندة فأسلموا[5] .

ووفد رئيس آخر من رؤساء حضرموت على الرسول اسمه (وائل بن حجر) ، ويظهر انه كان ذا منزلة كبيرة عند قومه ، فلما وصل المدينة أمر الرسول (معاوية بن أبي سفيان) باستقباله وبانزاله منزلاً خاصاً بـ (الحرة) ، وأمر بأن ينادى ليجتمع الناس : الصلاة جامعة ، سروراً بقدومه ، ولما أراد الشخوص الى بلاده كتب له الرسول كتاباً دعاه فيه بـ (قيل حضرموت) ، وذكر فيه انه جعل له في يديه من الأرضين والحصون . ولما أمر الرسول معاوية بأن ينزل (وائلاً) بالحرة ، مشى معاوية معه ووائل راكب ، فقال معاوية : الق إلي

---

١ ابن رسته ، الأعلاق (٢٠٥) .
٢ ابن سعد ، طبقات (٢٦٥/١) .
٣ البلدان (٢٩٤/٣) (حضرموت) ، ابن خلدون (٥٦/٢) ، (القسم الثاني) ، (الوفود) البلاذري ، فتوح (١٠٩) .
٤ ابن الاثير (١٥٨/٢ وما بعدها) .
٥ ابن سعد ، طبقات (٣٤٩/١) .

نعليك أنوقى بهما من الحرّ ، فقال له : لا يبلغ أهل اليمن ان سوقة لبس نعل ملك ، ولما قال له : فأردفني ، قال : لستَ من أرداف الملوك ، ولكن إن شئتَ قصرت عليك ناقتي فسرتَ في ظلها ، فأتى معاوية النبي ، فأنبأه بقوله ، فقال رسول الله : إن فيه لعبيّة من عُبيّة الجاهلية [1] .

وكان (الأشعث الكندي) وغيره من (كندة) نازعوا (وائل بن حجر) على وادٍ بحضرموت فادعوه عند رسول الله ، فكتب به رسول الله ، لوائل ابن حجر . بعد ان شهد له أقيال حمير وأقيال حضرموت . فكتب له بذلك ، وأقره على ما في يده من الأرضين [2] .

ومن قِرى حضرموت : تريم ومشطة والنجير وتنعة وشبوة وذمار [3] .

وكان الرسول قد استعمل (المهاجر بن أبي أميــة) على كندة والصدف و (زياد بن لبيد البياضي) من (بني بياضة) على حضرموت ، و (عكاشة ابن محصن) على (السكاسك) و (السكون) [4] . ولما توفي الرسول ، خرج (بنو عمرو بن معاوية) ، الى محاجرهم ، ونزل (الأشعث بن قيس الكندي) محجراً ، و (السمط بن الأسود) محجراً ، وطابقت (معاوية) كلها على منع الصدقة وأجمعوا على الردة ، إلا ما كان من (شرحبيل بن السمط) وابنه ، فإنهما خالفوهم في رأيهم ، فهجم المسلمون على المحاجر ، وقتلوا الملوك الأربعة . وساروا على (الأشعث) ومن انضم اليه من (كندة) ، والتقوا بمحجر الزرقان فهزمت كندة وعليهم الأشعث : فالتجأت الى حصن النجير ، ومعهم من استغووا من السكاسك وشذاذ من السكون وحضرموت والنجير ، فلحقتهم جيوش المسلمين ، ومنعت المدد عنهم ، وأخضعت من بقرى (بني هند) الى (برهوت) ، وأهل الساحل وأهل (محا) ، فخاف من بالحصن على نفسه ، واستسلم الأشعث وانتهت

---

١ ابن سعد ، طبقات (٢٨٧/١) .

٢ ابن سعد ، طبقات (٣٤٩/١ وما بعدها) .

٣ المحبر (ص ١٨٥) .

٤ المحبر (ص ١٨٦ وما بعدها) ، الطبري (٣٣٠/٣) ، (ذكر خبر حضرموت في ردتهم) .

فتنته [1] . وأُخذ الى المدينة ، فحقن (أبو بكر) دمه ، وزوّجه أخته ، ثم سار الى الشأم والعراق غازياً ومات بالكوفة [2] .

وكان (شرحبيل بن السمط) الكندي مقاوماً للأشعث بن قيس الكندي في الرئاسة ، وانتقل العداء الى الأولاد [3] .

وينسب (الصدف) الى الصدف بن مالك بن مرتع بن معاوية بن كندة) ، فهم إذن من كندة .

وذكر ان من سادات حضرموت في هـذا العهد : (ربيعة بن ذي مرحب الحضرمي) . وقد كتب اليه الرسول كتاباً أقره فيه وأقر أعمامه وإخوته وكل (آل ذي مرحب) على أرضهم وأموالهم ونحلهم ورقيقهم وآبارهم ونخلهم وشجرهم ومياههم وسواقيهم ونبتهم وشراجعهم وان (أموالهم وأنفسهم وزافر حائط الملك الذي كان يسيل الى آل قيس) هو لهم . وكتب الكتاب للرسول معاويـة بن أبـي سفيان [4] .

وكان يتنازع على رئاسة مهرة رجلان منهم عند ظهور الاسلام ، أحدهما (شخريت) وهو مـن (بني شخراة) ، وكان بمكان من أرض مهرة يقال له : (جَيْروت) الى (نضلون) . وأما الآخر فبالنّجد . وقد انقادت مهرة جميعاً لصاحب هذا الجمع ، عليهم (المصبح) أحد بني محارب ، والناس كلهم معه ، إلا ما كان من شخريت ، فكانا مختلفين ، كل واحد من الرئيسين يدعو الآخر الى نفسه : وقد قتل (المصبح) في أثناء ردة مهرة ، أما شخريت الذي كان قد أسلم ثم ارتد ، فقد سلم على نفسه بعودته الى الاسلام ، وأرسل مـع الأخماس الى (أبي بكر) [5] .

ويذكر أهل الأخبار ان بعض رجال (مهرة) وفدوا على الرسول ، منهم (مَهْرى بن الأبيض) ، وقد كتب له الرسول كتاباً ، و (زهير بن قِرْضم

١ الطبري (٣/٣٣٢ وما بعدها) .
٢ البلاذري ، فتوح (١١٠) .
٣ البلاذري ، فتوح (١٤٣) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٦) .
٥ الطبري (٣/٣١٦ وما بعدها) ، (ذكر خبر مهرة بالنجد) .

ابن العُجيل بن قباث بن قومي) ، وقد أسلم ، وكتب له الرسول كتاباً حين هم بالانصراف الى قومه[1] .

ومن مواضع (مهرة) (رياض الروضة) ، بأقصى أرض اليمن من مهرة ، و (جيروت) و (ظهور الشحر) و (الصبرات) و (ينعب) و (ذات الحيم)[2] .

وأما عمان ، فكان المتنفذ والحاكم فيها (الجلندى بن المستكبر) ، وكان قد نصب نفسه ملكاً عليها ، ويفعل في ذلك فعل الملوك ، فيُعشّرُ التجار في سوق (دبا) و (سوق صحار) . وكانت سوق دبا من الأسواق المقصودة المشهورة ، يأتي اليها البائعون والمشترون من جزيرة العرب ومن خارجها ، فيأتيها تجار من السند والهند والصين[3] .

وورد في باب الرسل الذين أرسلهم رسول الله الى الملوك، انه أرسل (عمرو بن العاص) الى (جيفر بن جلندى) و (عباد بن جلندى) (عبيد) (جيفر بن جلندى بن عامر ابن جلندى) (عبدا) الأزديين صاحبي عمان[4] . مما يدل على انهما كانا همـا الحاكمين على عمان في هـذا الوقت . وتعني لفظة (جلنداء) الواردة في شعر الأعشى في مدح (قيس بن معديكرب) (الجلندى) صاحب عمان[5] . وتذكر الروايات ان (جيفر) ، كان هو الملك منهما : وكان أسن من أخيه[6] .

وكان يُسامي (الجلندى) (ذو التاج) (لقيط بن مالك الأزدي) ، وقد ارتد وادعى بمثـل ما ادعى من تنبـأ : وغلب على عمان ، والتجأ (جيفر) و (عباد) الى الجبال . فأرسل (أبو بكر) اليهما مدداً ، فتغلبا عليه وعلى من

---

١ ابن سعد ، طبقات (٣٥٥١ وما بعدها) .
٢ الطبري (٣١٧/٣) .
٣ المحبر (ص ٢٦٥ وما بعدها) ، البلاذري (٨٧) ، (عمان) .
٤ الطبري (٦٤٥/٣) ، المحبر (ص ٧٧) ، الطبري (٣ /٢٩) (دار المعارف) .
٥ وجلنـداء في عمان مقيمـا ثم قيسا في حضرموت المنيف
ديوان الأعشى (٣١٢) (طبعة الدكتور م. محمد حسين) ، القصيدة ٦٣ ، البيت ١٥ ، البلاذري ، فتوح (٨٧) ، ابن الأثير ، الكامل (٢٥٢/٢) ، تـاج العروس (٣٢٣/٢) ، (جلد) .
٦ نهاية الأرب (١٦٧/١٨ وما بعدها) .

التف حوله[1] . ويظهر ان (لقيطاً) كان ينافس (آل الجلندى بن المستكبر) على السلطان ، وقد اعتصم (آل الجلندى) بالاسلام . وانتصروا بفضل المدد الذي وصل اليهم عليه . وقد قتل (لقيط) وسُبي أهل (دبا) .

وكلمة (الجلندي) على ما يظهر من روايات الأخباريين ليست اسماً لشخص ، وإنما هي لقب ، وقد تعني (لقباً) أو (قيلاً) أو (كاهناً) في لهجات أهل عمان . ويؤيد ذلك ما ورد من انه (ادعى به من كان نبيّاً)[2] .

وارتدت طوائف من أهل (عمان) ، ولحقوا بالشحر ، وارتد جمع من (مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة) ، فجهز عليهم (أبو بكر) (عكرمة بن أبي جهل بن هشام المخزومي) و (حذيفة بن حصن البارقي) من الأزد ، فتغلبا عليهم جميعاً ، وعادوا عن ردتهم الى الاسلام[3] .

ودوّن (ابن سعد) صورة كتاب ذكر أن الرسول كتبه لرجل من (مهرة) اسمه (مهري بن الأبيض) . كتبه له : (محمد بن مسلمة الأنصاري)[4] .

وغالب أهل عمان من الأزد . وهم من (القحطانيين على رأي أهل الأنساب . من نسل (أزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن كهلان بن سبأ) . وقد عرفوا بـ (أزد عمان) ، تمييزاً لهم عن أزد شنوءة وأزد السراة وعن أزد غسان . وذكر ان أصل كلمة (أزد) هي (أسد) ، وان (أسد) (أفصح من (أزد)[5] . وان الأزد نزلت عمان بعد سيل العرم ، فغلبت على من كان بها من ناس[6] . واما أزد (شنوءة) فقد اتجهوا نحو الشمال ، فذهب قوم منهم الى العراق ، ذكر انهم سُموا (شنوءة) لشنآن ، أي تباغض وقع بينهم أو لتباعدهم عن بلدهم[7] . وإذا أخذنا بهذا التفسير ، قلنا إنه يعني ان هذه الجماعة من الأزد ، كانت مستبدية أعرابية ، عاشت متباغضة يقاتل بعضها بعضاً ، وهذا ما دفع فلولها على الارتحال

---

١ الطبري (٣/٢١٣ وما بعدها) ، (دار المعارف) ، ابن الأثير (٢/١٥٦ ، ٢٥٢) .
٢ الطبري (٣/٣١٤) .
٣ البلاذري ، فتوح (٨٧ وما بعدها) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٦) .
٥ اللسان (٣/٧١ وما بعدها)، الاشتقاق (٢٨٣) ، تاج العروس (٢/٣٨٩) .
٦ السالمي ، تحفة الأعيان (١/٧) .
٧ تاج العروس (١/٨٢) .

عن مواضعهـــا الاصلية وعلى الانتشار والتفكك والذهاب الى أماكن بعيـــدة عن مواطنها شأن الأعراب المتقاتلين المتخاذلين .

ثم نراهم يذكرون ان أول من لحق بعمان من الأزد : (مالك بن فهم بن غـــانم بن دوس بن عبـــد الله بن زهران بن كعب بن الحارث بن عبـــد الله ابن مالك) وكان سبب خروجه عن قومه الى عمان : ان كان له جـــار وكان لجاره كلبة ، وكان بنو أخيه (عمرو بن فهم بن غانم يسرحون ويروحون على طريق بيت ذلك الرجل ، وكانت الكلبة تعوي عليهم وتفرق غنمهم ، فرماهـــا أحدهم بسهم فقتلها . فشكا جار مالك اليه مـــا فعل بنو أخيه ، فغضب مالك وقال : لا أقيم في بلد ينال فيه هذا من جاري . ثم خرج مراغماً لأخيه عمرو ابن فهم . ثم لحقت به قبائل أخرى من الأزد)[1] .

ويذكر الأخباريون ان (عمان) نسبة الى رجل اسمه (عمان بن قحطان) : وكان أول من نزلها بولاية أخيه يعرب ، وذكر أيضاً ان (عمان) اسم واد ، كان ينزل الأزد عليه حين كانوا بمأرب ، وان الفرس كانوا يسمون (عماناً) (مزون)[2] . وذكر ان العرب كانت تسمي (عمان) المزون . وذكـــر ان (أردشير بابكان) جعل الأزد ملاحين بشحر عمان قبل الاسلام بستمائـــة سنة . وقيل ان المزون ، قرية من قرى عمان يسكنها اليهود والملاحون ليس بها غيرهم[3] .

ونزل بعمان ناس من غير الأزد . منهم جمع من (بني تميم) ، ومنهـــم (آل جذيمة بن حازم) ، وقوم من (بني النبيت) من الأنصار ، ومنازلهم في قرية يقال لها (ضنك) من أعمال (السر) ، و (بنو قطن) من أهـــل يثرب كذلك ، ومنازلهـــم (عبرى) و (السليف) و (تنعم) من أرض السر ، وقوم من (بني الحارث بن كعب) ، وآخرون من (قضاعـــة) ، وفروع من (عبس)[4] .

وكان في جملة من وفـــد من أزد عمان على الرسول ، (أســـد بن يبرح

١ السالمي ، تحفة الأعيان (١/٩) .
٢ اللسان (١٣/٢٨٩) ، السالمي ، تحفة الأعيان (١/٧)
٣ اللسان (١٣/٤٠٧) .
٤ السالمي ، تحفة الأعيان (١/٩) .

الطاحي ، خرج في وفد ، فبايعوا الرسول ، وطلبوا منه ان يرسل اليهم رجلاً يقيم أمرهم ، فأمر رسول الله (مخربة العبدي) ، واسمه (ملدك بن خوط) بأن يذهب اليهم ، ويعلمهم القرآن والأحكام . وجاء بعده وفد آخر فيه (سلمة ابن عياذ (عباد) الأزدي)[1] .

ومن عمان (صحار) ، وقد اشتهرت بسوقها . و (قلهات) ، وهي فرضة عمان على البحر ، اليها ترفأ أكثر سفن الهند[2] . و (دبا) (دما) و (مهرة)[3] . ويعقد سوق صحار في أول يوم من رجب ، ولا يختفر فيها بخفير ، ثم يرتحلون الى سوق دبا ، فيعشرهم (آل الجلندى)[4] .

ودوّن (ابن سعد) صورة كتاب ذكر ان الرسول كتبه الى وفد (ثمالة) و (الحُدّان) . جاء فيه (هذا كتاب من رسول الله لبادية الأسياف ونازلة الأجواف مما حاذت صُحار) ، ثم ورد بعدها ما وضع عليهم الرسول من حقوق . وقد كتب الصحيفة (ثابت بن قيس بن شماس) ، وشهد عليها : سعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة .

وأما البحرين ، فجلّ سكانها من (بني عبد القيس) وبكر بن وائل وتميم . وهم بين أهل شرك أو نصرانية وبين شراذم من يهود ومجوس . أما الوالي عليها في أيام ظهور الرسول ، فكان (المنذر بن ساوى)[5] . وهو من بني عبد الله ابن زيد) من (بني تميم) . وكانوا ملوك المشقر بهجر ، وكانت ملوك الفرس قد استعملتهم عليها[6] . و (عبد الله بن زيد) هذا هو (الأسبذي) ، نسبة الى قرية بـ (هجر) يقال لها (الأسبذ) ، ويقال انه نسب الى (الأسبذيين) ، وهم قوم كانوا يعبدون الخيل بالبحرين[7] .

---

١ ابن سعد ، طبقات (٣٥١/١) ، نهاية الأرب (١١٥/١٨) .
٢ السالمي ، تحفة الأعيان (٨/١) ، البكري ، معجم (١٠٩/٣) .
٣ البلاذري ، فتوح (٨٨) .
٤ السالمي ، تحفة الأعيان (٨/١) .
٥ ابن الأثير (٨٩/٢) ، الطبري (١٦١/٢ وما بعدها) ، البلدان (٧٤/٢) ، المحبر (ص ٢٦٥) .
٦ المحبر (ص ٢٦٥) .
٧ البلاذري ، فتو) (٨٩) ، تاج العروس (٥٦٤/٢) ، (السبذة) .

و (المشقر) حصن آخر من حصون البحرين المعروفة ، وهو من الحصون العادية لذلك نسب بعض أهل الأخبار بناءه الى (سليمان بن داوود) على عادتهم في ارجاع نسب الأبنية العاديـة اليه في الغالب عند عجزهم عن معرفـة أصل الأبنية . وذكر بعض آخر انه من بناء (طسم) . وقد كان لعبد القيس ، ولهم حصن آخر يليه اسمه (الصفا) قبل مدينة (هجر) . وبين الصفا والمشقر نهر يجري يقال له (العين) . ويذكر أهـل الأخبار ان (بني عبد القيس) لمـا جاؤوا بها (إياداً) ، فأخرجوهم عنها قهراً ، وأخذوا مكانهم . وان (كسرى) حبس (تميماً) بهذا الحصن ، وفيه فتك (المكعبر) والي (كسرى) ، ببني تميم . وعرف الموضع لذلك بـ (فج بني تميم)[1] .

وقد ورد اسم هذا الحصن في شعر (لبيد بن ربيعة العامري) ، إذْ قال :

وأعوصن بالدوميّ من رأس حصنه   وانزلن بالأسباب رب المشقر

وقـد ذكر شارح الديوان ان الشاعر (لبيد) قصد بالدوميّ ملك دومـة الجندل . وان المشقر حصن بالبحرين . (قال أبو عمرو : وكان ربّه رجلاً من الفرس)[2] . وجاء في هامش التحقيق ان (المشقر : قصر بالبحرين بنـاه معاوية بن الحارث بن معاوية الملك الكندي ، وكانت منازلهـم ضرية ، فانتقل أبوه الحارث الى الغمر ، وبنى ابنه المشقر ، وقال ابن الأعرابي : المشقر بمدينة قديمة في وسطها قلعة ، وهي مدينة هجر)[3] .

وتقع ديار (عبد القيس) الى الشمال من ديار (أزد عمان) ، وهي تشرف على الخليج ، وتمتد نحو الشمال حتى تصل الى منازل قبائل (بكر بن وائل) ، وقد خالطتها قبائل أخرى . وسكنت الى الغرب من ديار (عبد القيس) قبائل (تميم) ، التي تمتد ديارها موازية لديار (بني عبد القيس) الواقعة الى شرقها حتى تصل الى ديار (بكر بن وائل) وديار (أسد) التي تؤلف الحدود الشمالية الغربية لها . وأما القبائل النازلة الى الغرب من ديار تميم ، فهي : أسد وهوازن

---

١ وهناك مواضع أخرى عرفت باسم (المشقر) ، البلدان (٤/٦١٥) (طهران) ، القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد (٧٣) ، مراصد الاطلاع (٣/١٢٧٥) ، البكري ، معجم (٣/١٢٣٢) .

٢ شرح ديوان لبيد (ص ٥٦) .

٣ شرح ديوان لبيد (ص ٥٦) ، هامش رقم (١) .

و (غني) و (باهلة) ، وأما القبائل النازلة الى الجنوب من بلاد تميم ، فهي (أزد عمان) و (عبد مناة) و (ضبّة) .

ويظهر من دراسة الروايات التي يرويها أهل الأخبار عن هجرة القبائل ، ان (بني عبد القيس) ، لما جاؤوا الى البحرين ، كانت البلاد إذْ ذاك لإياد ، فجلت إياد من البحرين ونزحت نحو العراق ، فكان ما كان لها من مواقف هناك مع الفرس[1] .

وسبب غدر (المكعبر) ببني تميم ، هو وثوبهم على قافلة كانت محملة بالطرف والأموال أرسلها (وهرز) عامل كسرى على اليمن الى كسرى ، فاغتاظ (كسرى) من ذلك ، وأراد ارسال جيش عليهم ، فأخبر ان بلادهم بلاد سوء ، قليلة الماء ، وأشير اليه ان يرسل الى عامله بالبحرين ان يقتلهم ، وكانت تميم تصير الى هجر للميرة . فلجأ العامل الى الغدر بهم ، فأمر مناديه ان ينادي لا تطلق الميرة إلا لتميم ، فأقبل اليه خلق كثير ، فأمرهم بدخول المشقر وأخذ الميرة ، والخروج من باب آخر ، فدخل قوم منهم فقتلهم . ثم أجهز على الباقين ، وبعث بذراريهم في سفن الى فارس[2] .

وذكر ان (المكعبر) واسمه (فيروز بن جشيش) ، تحصن بـ (الزارة) وانضم اليه مجوس كانوا تجمعوا بالقطيف ، وامتنعوا عن أداء الجزية ، فحاصرها (العلاء) وفتحها في أول خلافة (عمر) . وفتح (العلاء) (السابون) و (دارين) في الساحل المقابل من الخليج[3] .

وتميم من القبائل الكبيرة التي كان لها شأن عند ظهور الاسلام . وقد سكنت في مواضع متعددة من جزيرة العرب وفي العراق وبادية الشأم . وكان من أشرافها عند ظهور الاسلام : عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس التميمي ، والأقرع ابن حابس ، والزبرقان بن بدر ، وعمرو بن الأهتم ، وقيس بن عاصم[4] ،

١ الأغاني (٢٣/٢٠) ، البكري (٦٧/١ ، ٨٢) ، البلاذري ، أنساب (٢٥/١) ، الجاحظ ، البيان (١٢١/١) .
٢ آثار البلاد (ص ٧٣) .
٣ البلاذري ، فتوح (٩٥ وما بعدها) .
٤ الطبري (١١٥/٣) ، (قدوم بني تميم ونزول سورة الحجرات) ، نهاية الأرب (٣٢/١٨ وما بعدها) .

وربيعة بن رفيع ، وسبرة بن عمرو ، والقعقاع بن معبد ، ووردان بن محرز ، ومالك بن عمرو ، وحنظلة بن دارم ، وفراس بن حابس [1] ، وقيس بن الحارث ، ونعيم بن سعد ، ورباح بن الحارث [2] . و (سفيان بن الحارث بن مصاد) [3] .

وكان (الزبرقان بن بدر) على الرباب وعوف والأبناء ، وقيس بن عاصم على (مقاعس) والبطون ، و (صفوان بن صفوان) على (بهدى) ، و (سبرة بن عمرو) على (خضم) من (بني عمرو) . و (بهدى) و (خضم) قبيلتان من (بني تميم) . و (وكيع بن مالك) و (مالك بن نويرة) على (بني حنظلة) : (وكيع) على (بني مالك) و (مالك) على (بني يربوع) . ولما وقعت (الردة) ، ارتبك موقف زعماء (تميم) ، وكانوا متخاصمين غير متفقين فيما بينهم ، وبينهم تحاسد وتباغض ، منهم من أدى الصدقة ومنهم من امتنع ، وتخاصموا فيما بينهم بسبب ذلك . وزاد في ارتباكهم هذا قدوم (سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان) من الجزيرة ، وكانت ورهطها في (بني تغلب) تقود أفناء (ربيعة) ، ومعها (الهذيل بن عمران) في (بني تغلب) و (عقة بن هلال) في النمر ، و (تاد) في إياد ، و (السُّليل بن قيس) في (شيبان) ، وحاروا في أمرهم ، منهم من انضم اليها ومنهم من خالفها وقاتلها ، ثم اتجهت نحو (مسيلمة) باليمامة واتفقت معه ، ثم غادرته راجعة الى قومها [4] .

ولما امتنع (مالك بن نويرة) عن دفع الصدقة ، سار عليه (خالد بن الوليد) الى (البطاح) ، وكان قد فَرَّقَ قومه ، وأمرهم بعدم التعرض والمقاومة ، ولكنه قتل . وانتهى بذلك أمر تميم [5] .

وكان (الاقرع بن حابس بن عقال) المجاشعي الدارمي في جملة المؤلفة

---

١ الطبري (١٥٧/٣) .
٢ ابن سعد ، طبقات (٢٩٣/١ وما بعدها) .
٣ ابن سعد ، طبقات (٢٦٧/٣ وما بعدها) .
٤ الطبري (٢٦٧/٣ وما بعدها) .
٥ الطبري (٢٧٦/٣ وما بعدها) ، (ذكر البطاح وخبره) ، الميداني ، مجمع الأمثال (١٣٩/٢) ، العقد الفريد (٢٦٤/٣) ، زهر الآداب (٧٦١/٣) ، تاريخ خليفة بن خياط (٧٠/١) .

قلوبهم .[1] وهو من سادات تميم . وذكر انه كان على دين المجوس .[2]

ولقبيلة تميم صلات بملوك الحيرة ، وقد كانت (الردافة) اليها . وهي مكانة ودرجة مهمة جداً ، لا تعطى الا للقبائل المتنفذة القويّة . ومع ذلك فقد وقعت بينها وبينهم خطوب ومعارك . لما في طبع القبائل من شق عصا الطاعة عند شعورها بوجود وهن في الحــكم . وبأن في امكانها الانفراد بنفسها في الحكم . كما كانت لها صلات متينة برجال مكة التجار ، ولها معهم اعمال وتجارة وعهود وحبال . لحماية قوافل قريش ولتأمين وصولها سالمة الى الاماكن التي كانت تقصدها .

ونجد تميماً تحارب (بكر بن وائل) ومن يشد ازرها ويعاونها من (الاساورة) وذلك يوم (الصليب) . وقد انتصر (بنو عمرو) وهم من تميم على (بني بكر) ، وقتل (طريف) (رأس الاساورة) .[3] وقد كانت (بكر بن وائل) من القبائل المؤيدة للساسانيين . وكان الفرس يقومونهم ويجهزونهم . ويشرف على تجهيزهم عاملهم على (عين التمر) .[4]

وتظهر صلات (تميم) الطيبة بقريش من اخبار اهل الاخبار عن تجارة قريش وعن الطرق التي كان يسلكها تجارهم لوصولهم الى الاسواق ، مثل سوق دومة الجندل والمشقر والاسواق الاخرى . لقد كانت الطرق المؤدية الى تلك الاسواق تمر بأرضين هي لاحياء من تميم . ولم تكن هذه الاحياء تتعرض لتجار مكة او للتجار المتحالفين معهم والذين يتاجرون باسمهم ، بأي سوء . على العكس كانت تحترمهم وتقدم لهم المعونة ، لوجود حبال وعهود عقدها ساداتهم مع سادات قريش . ونظراً الى ما كان من حلف بين (كلب) و (تميم) ، فقد صار في وسع تاجر مكة ومن هو في حلفه او يتاجر بحماية تجار مكة ، المرور في منازل (كلب) بأمن وسلام .[5]

ومن ديار تميم (الحزن) ، وهو لـ (بني يربوع) . وهو مرتع من مراتع

١ تاج العروس (٦/٤٤) ، (الف) .
٢ الأعلاق النفيسة (٢١٧) .
٣ M. J. Kister, VIII, II, November, 1965, P. 114.
٤ النقائض (٥٨١) . Kister, P. 114.
٥ Kister, P. 128.

العرب ، فيه رياض وقيعان . وقيل هو صقع واسع نجدي بين الكوفة وفيد . وقيل : هو قف غليظ ، ومربع من مرابع العرب ، بعيد عن المياه ، فليس ترعاه الشياه ولا الحمر . فليس فيها دمن ولا ارواث .[١] وعرف بأنه بلاد بني يربوع . وهناك حزن آخر ما بين زبالة فما فوق ذلك مصعداً في بلاد نجد. وفيه غلظ وارتفاع. وقد ورد ذكر (الحزن) في شعر للأعشى ، حيث يقول :

ما روضة من رياض الحزن ، معشبة خضراء جاد عليها مُسبل هطل

وذكر انه موضع كانت ترعى فيه إبل الملوك ، وهو من ارض (بني اسد) .[٢]

وكانت قوافل قريش اذا قصدت (دومة الجندل) ، وسلكت السبل التي تمر بـ (الحزن) ، فانها تكون آمنة مطمئنة ، لانها تمر ببلاد مضر . ولا يتحرش مضريّ بمضريّ . وكانت اذا عادت وأرادت سلوك مواضع الماء ، مرّت بديار كلب ، فتكون عندئذ آمنة مطمئنة ، لأن لكلب حلفاً مع (تميم) و (تميم) من مضر ولها صلات وعلاقات بمكة . واذا مرت بحزن اسد ، فانها تكون آمنة كذلك ، لأن (بني اسد) من مضر . واذا دخلت ديار (طيء) ، صارت آمنة ايضاً ، لأن لطيء حلفاً مع بني اسد .[٣]

ويظهر انه قد كانت لتميم صلات بقريش وبمكة تعود الى ايام سابقة على الاسلام . اذ نجد في روايات اهل الاخبار ان نفراً منهم كانوا يذهبون الى مكة ومنهم من كان يذهب اليها للاتجار . فقد ذكر ان تميمياً كان متجره بمكة ، وقد اختلف مع (حرب) ، فاعتدى عليه (حرب) . فذهب التميمي الى (بني هاشم) واستجار بهم ، فأجاره (الزبير بن عبد المطلب) ، رئيس (بني هاشم) ،[٤] وذكر ان نفراً من (بني دارم) كانوا في جوار رجال من (بني هاشم) .[٥]

بل يظهر انه قد كان لهذه القبيلة علاقة بمكة نفسها وبسوق عكاظ . وهو

١ اللسان (١١٣/١٣) ، (حزن) ، تاج العروس (١٧٤/٩) ، (حزن) .
٢ اللسان (١١٣/١٣) ، (حزن) ، تاج العروس (١٧٤/٩ وما بعدها) ، (حزن) .
٣ المرزوقي ، الأمكنة (١٦٢/٢) .
٤ ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة (٤٦٥/٣) ، ابن عساكر ، تاريخ ، (٣٢٩/٧)، Kister, P. 130. سيرة ابن دحلان (٢٢/١) .
٥ Kister, P. 131.

سوق مهم تقصده قريش ، وكانت تتحكم في شؤونه . فلتميم صلة بـ (الإفاضة) ، ولها صلة بالحكومة في سوق عكاظ ، وقد ذكر اهل الاخبار اسماء عدد من حُكّام تميم حكموا بعكاظ . وكانت هي وقريش وكنانة ، تدير مراسم الحج وتحافظ على شعائره . مما يدل على انها كانت ذات صلة قديمة بمكة ، ولا سيما بعض احياء منها ، مثل (بنو دارم) ، الذين ظهروا على اكثر احياء تميم . ولعل ابتعادها عن مكة وارتحال احيـــائها الى مواطن بعيدة عن مكة ، قد باعد فيما بينها وبين قريش ، وقلل من صلاتها بهم .

وتتجلى هذه العلاقة في تزوّج قريش من (تميم) ، مع ما عرف عن قريش من الامتناع من التزوج من غير قريش . وقد روى اهل الاخبار اسماء جماعة من اشراف مكة ، كانت أمهاتهم من (تميم) . ونجد في مكة رجالاً من تميم تحالفوا مع رجال من مكة . فصاروا من حلفائهم . [1]

وقيام (تميم) بمهمة (الحكومة) في سوق عكاظ ، وبـ (الإجازة) ، يدل على اهمية مركز هذه القبيلة بالنسبة لقريش . وما كانت قريش تعطي (الإجازة) لتميم ، لولا ما كان لها من نفوذ ومن علاقات طيبة بقريش . وقد افتخر (بنو تميم) ، بالحكومة في (عكاظ) وبالاجازة في الجاهلية وفي الاسلام . [2]

وكان (بنو عبد القيس) من قبائل البحرين المتنفذة . وكانت غالبيتهم على النصرانية ، ومنهم كان (الجارود بن عمرو بن حنش بن المعلي) ، الذي قدم في وفد عبد القيس الى الرسول ، فأسلم على يديه . وقد رفض الدخول فيما دخل فيه قومه من الردة عن الاسلام والعودة الى النصرانية وتأييد (الغرور) : المنذر ابن النعمان بن المنذر . [3] وكان في جملة الوفد الذي قدم على الرسول عام الفتح : (عبد الله بن عوف الأشج) و (منقذ بن حيّان) ، وهو ابن اخت الأشج ، فأسلما وعادا الى ديارهما . [4]

ودوّن (ابن سعد) صورة كتاب ذكر ان الرسول وجهه الى (الأكبر بن عبد القيس) . ولم يشر الى المراد من (الاكبر بن عبد القيس) . ومما جاء فيه

١ المصعب الزبيري ، نسب قريش (٢٦٧) ، Kister, P. 157

٢ Wellhausen, Peste, S., 57, Grunebaum, Mohammadan Festivals, P. 32. F., Kister, P. 155.

٣ الطبري (٣/١١٣٦) ، (قدوم الجارود في وفد عبد القيس) .

٤ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤١) ، نهاية الأرب (١٨/٦٥ وما بعدها) .

ان (العلاء بن الحضرمي) (امين رسول الله على برّها وبحرها وحاضرها وسراياها وما خرج منها ، وأهل البحرين خفراؤه من الضيم وأعوانه على الظالم وأنصاره في الملاحم) :[1]

وكان الرسول قد ارسل (العلاء بن الحضرمي) سنة ثمان قبل فتح مكة الى (المنذر بن ساوي العبدي) ، يدعوه الى الاسلام ، فأسلم ، فهلك بعد وفاة الرسول بشهر ، وارتد بعده أهل البحرين .[2] واجتمعت (ربيعة) بالبحرين وارتدت ، وملكوا عليهم (المنذر بن النعمان بن المنذر الغرور) ، وكان يعاونه (الغرور بن سويد) اخي النعمان بن المنذر ، ويسمى (المنذر بن سويد بن المنذر) ،[3] وكان رأس اهل الردة (الحطم بن ضُبَيْعة) أخو بني قيس بن ثعلبة ، فجمع من اتبعه من بكر بن وائل ، حتى نزل القطيف وهجر ، واستغوى الخط ومن فيها من الزط والسيابجة ، وبعث بعثاً الى (دارين) وبعث على (جواثي) فحصرهم .[4] وكان قد منى (سويد بن المنذر) بأن يجعله كالنعمان بالحيرة ، غير انه فشل وغلب المسلمون اهل الردة ، وقتل (الحطم) .[5]

وكان (المنذر بن النعمان) يسمى (الغرور) ، فلما ظهر المسلمون ، قال : لست بالغرور ولكني المغرور ، ولحق هو وفُلّ (ربيعة) بالخط ، فأتاها (العلاء) ففتحها وقتل المنذر ومن معه . وذكر انه نجا فدخل الى (المشقر) ، ثم لحق بسليمة فقتل معه . وذكر انه قتل (يوم جواثا) ، وذكر انه استأمن ثم هرب فلحق فقتل .[6] وقيل انه اسلم .

والمنذر بن ساوى هو رجل عربي من (بني تميم) من (بني دارم) على رأي اكثر أهل الاخبار . وقد ذهب بعضهم الى انه من (بني عبد القيس) . ولكن اكثرهم على انه (المنذر بن ساوى بن الاخنس بن بيان بن عمرو بن عبد الله ابن زيد بن عبد الله بن دارم التميمي الدارمي) .[7] وكان هو المتولي على البحرين في ايام الرسول .

١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٣) .
٢ الطبري (٣/١٣٦) وما بعدها ، (٣٠) ، البلاذري ، فتوح (٨٩) .
٣ الطبري (٣٠٤٣/٣٠٩ وما بعدها) .
٤ وهو حصن بالبحرين ، البلاذري ، فتوح (٩٤) .
٥ الطبري (٣/٣٠٤ وما بعدها) .
٦ البلاذرى ، فتوح (٩٥) .
٧ أسد الغابة (٤/٤١٧) .

ونجد في طبقات ابن سعد صورة كتاب أرسله الرسول الى (المنذر بن ساوى) ، يذكر فيه ان رسُل رسول الله قد (حمدوك ، وانك مها تصلح أصلح اليك واثبتك على عملك وتنصح لله ولرسوله) ، كما نجد للرسول كتاباً آخر ، يخبر (المنذر) فيه انه قد بعث اليه (قدامة) و (أبا هريرة) ، و (فادفع اليهما ما اجتمع عندك من جزية أرضك) . وأرسل كتاباً مثله الى (العلاء بن الحضرمي) يخبره فيه ، انه بعث الى المنذر بن ساوى من يقبض منه ما اجتمع عنده من الجزية ، فعجله بها . وابعث معها ما اجتمع عندك من الصدقة والعشور) . وكاتب الكتابين أُبي[1] . وكتب المنذر كتاباً الى الرسول ، جاء فيه : (إني قرأت كتابك على أهل هجر ، فمنهم من أحب الاسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه)[2] .

وفي طبقات ابن سعد ، كتاب من الرسول ، ذكر انه أرسله (الى الهلال صاحب البحرين) ، فيه دعوة لهلال الى الاسلام والى عبادة الله وحده والدخول في الجماعة فان ذلك خير له[3] . ويظهر ان هلالاً هذا كان أحد سادات البحرين في هذا الوقت ، وانه كان قد تأخر عن (الجماعة) أي قومه في الدخول في الاسلام ، فكتب الرسول له ذلك الكتاب .

وأما (هجر) ، فكان عليها عند ظهور الاسلام مرزبان يدعى (سيبخت) وإليه ذهب أيضاً العلاء بن الحضرمي يدعوه الى الاسلام ، فأسلم وأسلم معه جميع العرب وبعض العجم[4] . وأما أهل الأرض هناك من اليهود والنصارى والمجوس ، فقد صالحوا العلاء على الجزية[5] . وهَجَر سوق من أسواق الجاهلية ، يؤمها (بنو محارب) من (عبد القيس)[6] . ويظهر من كتاب أمر رسول الله بتدوينه اليه ، انه لما أسلم وصدق أرسل الى رسول الله رسولاً يخبره بذلك اسمه (الأقرع) ، فكتب اليه الرسول كتاباً حمله اليه الأقرع صاحبه ، ويذكر رسول الله فيه انه

---

١ ابن سعد ، طبقات (٢٧٦/١) .
٢ نهاية الأرب (١٦٧/١٨) .
٣ ابن سعد ، طبقات (٢٧٥/١) .
٤ البلدان (٧٤/٢) ، البلاذري ، فتوح (٨٩ وما بعدها) .
٥ أسد الغابة (٧/٤) ، فتوح البلدان (٨٦) ، البلدان (٧٢/٢) .
٦ صفة (١٣٦ وما بعدها) (ابن بليهد ١٩٥٣ م) .

علم بما جاء في كتاب (سيبخت) اليه ، وانـه يحثه ويدعوه الى القيام بشعائر الاسلام [1] .

وقد ذهب بعض أهل الأخبار الى ان هجراً كانت قاعـدة البحرين ، وقال بعض آخر انها اسم لجميع أرض البحرين . وقـد اشتهرت بالتمر ، فقيل في المثل : كمُبضِـع التمر الى هجر ، كما عرفت بأوبئتها ، وقـد روي ان الخليفة عمر قال : (عجبت لتاجر هجر وراكب البحر) ، كأنـه أراد ذلك لكثرة وبائها ، فعجب من تاجر يذهب لذلك اليها ، كما عجب من راكب البحر ، لأنه سواء في الخطر . ويظهر انها كانت كثيرة المياه ذات مستنقعات ، لذلك تفشت بها الأوبئة . وذكر الأخباريون انها عرفت بـ (هجر) ، نسبة الى (هجر بنت المكفف) ، وكانت من العماليق ، أو من العرب المتعربة ؛ وكان زوجها : محلم ابن عبد الله صاحب النهر الذي بالبحرين ، ويقال له : نهر محلم وهناك عين ماء عرفت بعين هجر وبعين محلم [2] .

وذكر أهل الأخبار ان (ملك هجر) ، ولم يشيروا الى اسمه ، كان قـد سوّد (زُهرة بن عبد الله بن قتادة بن الحوية) ، ووفّده على النبي ، وانـه كان في جيش (سعد بن أبي وقاص) الذي أرسله الى العراق ، فجعله (سعد) من (أمراء التعبية) [3] . ولعلهم قصدوا بذلك المرزبان (سيبخت) ، الذي ذهب اليه (العلاء بن الحضرمي) بأمر الرسول ليدعوه الى الاسلام ، فأسلم على يديه .

ويعرف الساحل المقابل لجزيرة (أوال) من جزر البحرين ، بـ (السيف) سيف البحر . والسيف في اللغة ساحـل البحر [4] . ويليه (الستار) : (ستار البحرين) [5] .

و (كاظمة) جوّ على سيف البحر ، وفيها ركايا كثيرة وماؤها شروب [6] .

١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٥) .
٢ تاج العروس (٣/٦١٣ وما بعدها) ، البكري ، معجم (٣/٣٤٦) ، البلدان (٥/٣٩٣) ، المعاني الكبير ،لا بن فتيبة (٢/٩٥٤) .
٣ الطبري (٣/٤٨٨) .
٤ اللسان (٩/١٦٧) .
٥ صفة (١٣٦ وما بعدها) ، (طبعة ابن بليهد) ، اللسان (٤/٣٤٥) .
٦ اللسان (١٢/٥٢١ وما بعدها) .

وعرفت بـ (كاظمة البحور) [1] . وقد أكثر الشعراء من ذكرها [2] . وهي موضع مجهول في الوقت الحاضر ، يظن ان مكانه على ساحل الجون المقابل لموضع (الجهرة) . ويعرف ذلك الموضع بـ (دوحة كاظمة) [3] .

وكان على الأبلة وما والاها (قيس بن مسعود بن خالد) ، فلما علم بما فعله كسرى بملك الحيرة ، تفاوض سراً مع بكر ، واتفق معها على مساعدتها . فلما انتهت معركة (ذي قار) لم يجرأ كسرى ان يلحق به أذى ما هو في أرضه ، فعمد الى الحيلة للانتقام منه ، بأن كتب اليه يطلب منه المجيء لرؤيته . فلما ذهب اليه ، قبض عليه وحبسه في قصره بالأنبار أو بساباط [4] . وقد عدّه أهل الأخبار في المعدودين من (أجواد الجاهلية) . ذكروا انه كانت له مائة ناقة مُعدّة للأضياف إذا نقصت أتمها . وقد مدحه لذلك الشعراء . وعدّ من (ذوي الآكال) . وذكر ان كسرى كان قد أطعمه (الأبلة) وثمانين قرية من قراها [5] .

وكان على اليمامة (هوذة بن علي الحنفي) ، وكان ملكاً على دين النصرانية ، واليه أرسل رسول الله (سليط بن عمرو) (سليط بن قيس بن عمرو الأنصاري) يدعوه الى الاسلام . فأرسل (هوذة) وفداً الى الرسول ليقول له : (إن جعل الأمر له من بعده أسلم ، وسار اليه ونصره ، وإلا قصد حربه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ، ولا كرامة) [6] . ثم مات بعد قليل . وذكر انه كان شاعر قومه وخطيبهم ، وكانت له مكانة عند العرب [7] .

وذكر انه كان من (قُرّان) من مواضع اليمامة ، وأهلها أفصح بنو حنيفة .

١ صفة (١٣٦ وما بعدها) ، (ابن بليهد) .
٢ البلدان (٤/٤٣١) ، (بيروت ١٩٥٧ م) ، صبح الأعشى (٣/٢٤٧) ، تقويم البلدان (٥/٥٦) ، البكرى (٤/١١٠) ، شرح مقامات الحريري (٢/٣٥٩) ، (الشريشي) .
٣ التحفة النبهانية في تأريخ جزيرة العرب ، لخليفة بن أحمد آل نبهان (٨/٥٧) .
٤ ديوان الأعشى (القصيدة ٢٦) ، (ص ١٢٨) ، (طبعة كاير) ، Geyer
٥ المحبر (ص ١٤٣ وما بعدها ، ٢٥٣) .
٦ ابن الأثير (٢/٨٩) ، البلاذري ، فتوح (٩٧) .
٧ (سليط بن عمرو العامري) ، نهاية الأرب (١٨/١٦٦) .

وانه كان من وجهاء قومه . وقد نسب على هذه الصورة : (هوذة بن عليّ بن ثمامة بن عمرو الحنفي) من بكر بن وائل [1] . وورد ان تميماً كانت قد قتلت والد (هوذة) ، وان هوذة كان يكره بني تميم كرهاً شديداً حتى ان كسرى حين سأله عنهم أجابه : (بيني وبينهم حساء الموت ، فهم الذين قتلوا أبي) . وورد ان كسرى سأل هوذة عــن عيشه وعن ماله ، فقال : (أعيش عيشة رغيدة ، واغزو المغازي ، واحصل على الغنائم) [2] . ولكن الظاهر انه لم يكن كفؤاً لبني تميم . وان ملكه لم يتجاوز حدود اليمامة .

وزعم أهل الأخبار ان (كسرى) تَوَجَّهَ الى اليمامة ، أو انه سمع بجوده وكرمه ، فاستدعاه اليه ، ولما وجد فيه عقلاً وسياسةً ورجاحة رأي تَوَّجه بتاج من تيجانه ، ولذا لقب هوذة بـ (صاحب التاج) ، وأقطعه أموالاً بـ (هجر) ، وكان نصرانياً . وقيل إن كسرى دعا بعقد من الدُرّ فعقــد على رأسه وكساه قباء ديباج مــع كسوة كثيرة ، فمن ثم سُمّي هوذة ذا التاج . وذكر ان سبب استدعاء كسرى له ، انه أكرم رجــال العير التي حملت الطاف وهدايا وأموال (وهرز) التي أرسلهــا من اليمن الى (كسرى) ، وكانوا قد انتُهبوا حتى لم يبق عندهم شيء ، فصاروا الى (هوذة) ، فأكرم مثواهم وآواهم وكساهم : وزَوّدهم وحباهم ، وسار معهــم اليه ، فأكرمه كسرى على النحو المذكور [3] . وقيل إنه لم يكن صاحب تاج ، وإنما كان يضع على رأسه إكليلاً رصعه بأحجار ثمينة كأنه التاج تشبها بالملوك [4] .

ويروي أهل الأخبار ان الشاعر الأعشى قال في حق هوذة :

له أكاليل بالياقوت فصّلهــا   صوّاغها لا ترى عيبا ولا طبعا

١ البكري ، معجم (ص ١٠٦٣) ، (وقران كرمان باليمامة . وهي وملهم لبني سحيم من بنى حنيفة) ، تاج العروس (٣٠٩/٩) ، (قرن) .

٢ الكامل ، لابن الأثير (٣٧٨/١) ، المعارف ، لابن قتيبة (٩٧ وما بعدها) ، الأغاني (٧٥/١٦ وما بعدها) .

٣ الأغاني (٧٥/١٦ وما بعدها) ، العمدة ، لابن رشيق (٢٠٦/٢) ، الطبـري (١٦٩/٢ وما بعدها) (طبعة دار المعارف بمصر) .

العقد الفريد (٢٤٣/٢) .

وذكر انه كان أول معدّيّ لبس التاج ، ولم يلبس التاج معديّ غيره [1] .

ويظهر من روايات أهل الأخبار عن يوم الصفقة وعن يوم المشقر ، ان نفوذ (هوذة) لم يكن واسعاً بعيداً ، بل كان محدوداً بحدود قبيلته ، وانه لم يكن في مستوى ملوك الحيرة أو آل غسان ، بل كان سيد قومه إذْ ذاك ، حتى انه لما طمع في الجعالة التي كان الفرس يعطونها لمن يتولى خفارة قوافلهم الآتية من اليمن الى العراق أو الذاهبة من العراق الى اليمن ، ووافق الفرس على ان يعطوه ما أراد ، وسار مع القافلة خفيراً لها من (هجر) حتى (نطاع) ، وبلغ (بنو سعد) ما صنعه (هوذة) ، خرجوا عليه وأخذوا ما كان مع الأساورة والقافلة وما معه ، وأسروه ، حتى اشترى منهم نفسه بثلاثمائة بعير ، وقد عُيّر في ذلك ، وتغنى شاعر (بني سعد) بذلك اليوم ، الذي سيق فيه هوذة ، وهو مقرون اليدين الى النحر ، فلما استلم بنو سعد الإبل المذكورة جاؤوا به الى اليمامة فأطلقوه [2] .

ويذكر أهل الأخبار ان هوذة سار مع من تبقى من الأساورة وبقية فلول القافلة الى (كسرى) ، ليخبره بما حدث له ، وعما فعلت به بنو تميم ، ودخل على ملك الفرس فأكرمه ، وأمر باسقائه بكأس من ذهب ، ثم أعطاه إياه وكساه قباءاً له ديباج منسوج بالذهب واللؤلؤ وقلنسوة قيمتها ثلاثون ألف درهم وحباه ثم عاد الى بلاده . ولو كان هوذة قد جاء كسرى بخبر انتصار وانقاذ للقافلة جاز لنا أخذ هذا الوصف على محمل الصدق ، أما وأن الرواية هي في موضوع هزيمة واندحار ، فإن من الصعب علينا التصديق بها ، ولا سيما وان ملوك الفرس كانوا أصحاب غطرسة وكانوا إذا جاءهم أحد بخبر هزيمة قابلوه بالازدراء والتبكيت وبإنزال اللعنات عليه في الغالب . وليس في هذا الموقف ما يدعو الى اسقاء هوذة بكأس من ذهب .

ويذكر أهل الأخبار ان اليمامة من نجد ، وقاعدتها (حجر) ، وكانت

١ وكل زوج من الديباج يلبسه ... أبو قدامة مجبورا بذاك معا
له أكاليل بالياقوت زينها ... صواغها ، لا ترى عيبا ولا طبعا
الأمالي ، للمرتضى (١٧٢/٢) ، ديوان الأعشى (٨٦) .

٢ الأغاني (٨/٥) ، الطبري (٥٨١/١) .

تسمى (جـدا) في الأصل ، كما عرفت بـ (جو) . وذكروا انهـا سميت (يمامة) نسبة الى (اليمامة بنت سهم بن طسم) ، وكانت منازل طسم وجديس في هذا المكان . وقد تناولتها الأيدي حتى صارت في أيدي (بني حنيفة) عند ظهور الاسلام في قصص من قصص أهل الأخبار [1] .

واليمامة من الأماكن الخصبة في جزيرة العرب . وبها (وادي حنيفة) . وبه مياه ومواضع كانت عامرة ثم خربت ، وهي اليوم خراب أو آثار . وقد اشتهرت قراها ومزارعها ، وكانت من أهم الأرضين الخاضعة لمملكة كندة . ويظهر ان سيلاً جارفاً أو سيولاً عارمة اكتسحت في الاسلام بعض قراها ، فهجرت إذ ترى في هـذا اليوم آثار أسس بيوت مبنية من اللبن ومن الطين ، يظهر انهـا اكتسحت بالسيول وجاءت الرمال فغطتها بغطاء لتستر بقاياها عن رؤية النور [2] . وقد ذكر أهل الأخبار ان اليمامة كانت من (أحسن بلاد الله أرضاً وأكثرها خيراً وشجراً ونخيلاً) [3] . وبها مياه كثيرة . وقد عرف أهلها بالنشاط وبالتحضر ، وذلك بسبب وجود الماء بها ، إذ أغرى سحر الماء الناس على الإقامة عند مواضع المياه ، فنشأت مستوطنات كثيرة . ولا زال أهل اليمامة يعدّون من أنشط سكان المملكة العربية السعودية .

وحدود اليمامة من الشرق البحرين ومن الغرب تنتهي الى الحجاز ، وأما من الشمال فتتصل بوادٍ متصل بالعذيب والضرية والنباج وسائر حدود البصرة وجنوبها بلاد اليمن . هذا على تعريف (ابن رسته) . وتبعـد (جو) وهي الخضارم من حجر يوماً وليلة [4] . ومن مواضع اليمامة (منفوحة) ، وهي قرية مشهورة ، كان يسكنها الأعشى ، وبها قبره . وهي لبني قيس بن ثعلبة بن عكابة [5] . ومن مواضع اليمامة الأخرى (المعلاة) من قرى (الخرج) [6] .

١ البلدان (٥/٤٤١) ، فتوح البلدان (١١٨) ، البكري ، معجم (١/٨٣) ، المعاني الكبير لابن قتيبة (٢/١٠٤١) ، الهمداني ، صـفة (١٤١) ، تاج العـروس (٩/١١٤ وما بعدها) (يمم) .
٢ Naval, R., 233.
٣ تاج العروس (٩/١٥) ، (يمم) .
٤ ابن رستة ، الأعلاق (١٨٢) ، تاج العروس (٩/١١٥) ، (يمم) .
٥ تاج العروس (٢/٢٤٢) ، (نفح) .
٦ تاج العروس (١٠/٢٥٠) ، (علا) .

ومن أبرز قبائل اليمامة في أيام الرسول ، (بنو حنيفة) . و (حنيفة) لقب (أثال بن لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل) . ويذكر أهل الأخبار ، ان (الأحوى بن عوف) المعروف بجذيمة ، لقى أثالاً فضربه فحنفه ، فلقب حنيفة . وضربه أثال فحذمه جذيمة . فقال جذيمة :

فإن تك خنصري بانت فإني   بها حنَّفت حاملتي أثال[1]

وقد وفد وفد منهم ، فيه (مسيلمة بن حبيب) الذي عرف بـ (الكذّاب) لادعائه النبوة ، وكان قد طلب من الرسول ان يشركه معه في الأمر . وادعى النبوة ، ثم قتل . وكان يسجع السجعات مضاهاة للقرآن[2] . وممن كان في هذا الوفد : (رحال بن عنفوة) ، وقد شهد لمسيلمة ان رسول الله أشركه في الأمر فافتتن الناس به ، و (سلمي بن حنظلة السحيمي) و (طلق بن علي بن قيس) و (حمران بن جابر بن شمر) و (علي بن سنان) و (الأقعس بن مسلمة) و (زيد بن عبد عمرو) ، وعلى الوفد (سلمي بن حنظلة)[3] .

ويذكر ان (سجاحاً) ، وهي (سجاح بنت أوس بن العنبر بن يربوع) التميمية التي تكهنت وادعت النبوة ، أتت (مسيلمة الكذّاب) ، وهو بـ (حجر) ، فتزوجته ، وجعلت دينها ودينه واحداً . وكان قد اتبعها قوم من (بني تميم) وقوم من أخوالها من (بني تغلب)[4] .

ومن (بني حنيفة) ، (عُمير) و (قُرين) ابنا (سلمي) . وكان (عُمير) أوفى العرب ، قتل أخاه (قرينا) بقتيل قتله من جيرانه[5] . ومنهم (مجاعة بن مرارة بن سلمي) ، وكان رسول الله قد أقطعه (الغورة) و (غرابة) و (الحبل) ، ثم أقطعه (أبو بكر) (الخضرمة) ثم أقطعه (عمر) (الرياء) ، ثم أقطعه (عثمان) قطيعة أخرى[6] .

١ تاج العروس (٦/٧٨) ، (حنف) .
٢ الطبري (٣/١٣٧ وما بعدها) ، (دار المعارف) ، (قدوم وفد بني حنيفة وفيهم مسيلمة) .
٣ ابن سعد ، طبقات (٣١٦ وما بعدها) .
٤ البلاذري ، فتوح (١٠٨) .
٥ الاشتقاق (ص ٢٠٩) .
٦ البلاذري ، فتوح (٩٨ ، ١٠٢ وما بعدها) .

ومن رجال اليمامة (محكم بن الطفيل بن سبيع) الذي يقال له (محكم اليمامة) ، وقد ارتد وقتل مع من قتل من المرتدين[1] .

ومن قبائل اليمامة : بنو باهلة بن أعصر ، وبنو نمير وأحياء من تميم . واستقرت بطون من بكر وعنزة وضبيعة في القسم الشرقي من اليمامة حتى البحرين ، واتصلت منازل بطون منها بالعراق[2] . كما كان بها (بنو هزان) ، وهم من قطنة اليمامة القدامى : إذ نجد أهل الأخبار يرجعون تأريخهم بها الى أيام طسم ، أي الى أيام العرب العاربة أو العرب البائدة الأولى . والظاهر ان أهل الأخبار قد حاروا في أمر (هزان) . فجعلوهم من العرب البائدة ودعاهم الهمداني بـ (هزان الأولى)[3] ، وجعلوهم من اليمن ونسبوهم الى (قحطان) وجعلوهم من (معدّ) . وهم الذين بقوا في ديارهم اليمامة الى الاسلام وفي الاسلام[4] . ويظهر من روايات أهل الأخبار ، انهم قصدوا قبائل مختلفة لا قبيلة واحدة هي (هزان) التي ظلت باقية ولها بقية في اليمامة حتى اليوم . ولكننا نستبعد كون القبائل الثلاث قبيلة واحدة في الأصل . بدليل ان أهل الأخبار يذكرون ان هزان اليمانية الأصل كانت تقيم في اليمامة ، وان هزان (معدّ) هم من أهل اليمامة أيضاً ، أي ان مواطن القبيلتين واحدة ، بل ان منهم من يرجع مواطن هزان الأولى الى اليمامة كذلك . وهذا ما يحملنا على القول إن الهزانين كلهم من قبيلة واحدة ، بقيت فروعها في مواطنها القديمة اليمامة حتى اليوم . ولا قيمة لما يرويه أهل الأنساب من سرد نسب كل قبيلة من القبائل الثلاث الى العرب البائدة أو الى العرب العاربة أو الى العرب المستعربة .

والظاهر ان (بني حنيفة) ضغطوا على الهزانين ، فاغتصبوا معظم أرضهم باليمامة ، فقلّ بذلك شأنهم ، وصاروا دون (بني حنيفه) في القوة . ومن (بني هزان) تزوج الأعشى ، ثم أكرهوه على تطليقها ، فطلقها حين ضربوه ، وأصروا عليه بلزوم تخليه عنها ففعل ، فقال في ذلك شعراً ، رواه الرواة .

---

١ البلاذري ، فتوح (٩٨) ، الاشتقاق (٢١٠) .
٢ البكري ، معجم (٨٥/٤ وما بعدها) .
٣ الاكليل (٧٣/١ وما بعدها) .
٤ العرب ، الجزء السابع ، السنة الثالثة ، نيسان ١٩٦٩م . الرياض .

ومنهم نفر أسروا (الحارث بن ظالم المرّيّ) ، ولم يكونوا يعرفونه ، وظنوه صعلوكاً ، ثم باعوه الى نفر من القيسيين بزق خمر وشاة ، وقيل من بني سعد. ومنهم كان قاتل حيان بن عتبة بن جعفر بن كلاب. وهو المعروف بصاحب الرداع [1] .

ومن مواطن (هزان) العلاة ، وهو جبل من جبال اليمامة ، وبرك ، ونعام ، وشهوان ، وماوان ، والمجازة . ويلاحظ ان أخلاطاً من قبائل أخرى جاورت (بني هزان) ، وسكنت معهم. منهم (بنو جرم) و (بنو جشم) ، و (الحارث بن لؤي بن غالب بن فهر) من قريش ، و (ربيعة) وهم من اليمن [2] .

وأما منازل طيء عند ظهور الاسلام فجبّلا طيء : أجأ وسلمى . غير ان هناك بطوناً من طيء كانت قد انتشرت في أماكن أخرى ، فنزلت في العراق وفي بلاد الشأم وفي أماكن أخرى في جزيرة العرب .

وطيء من القبائل التي كان لها شأن كبير قبل الاسلام . ولعلّها كانت من أشهرها وأعرفها قبيل الميلاد وفي القرون الأولى للميلاد . بدليل اطلاق السريان كلمة (طيايا) على كل العرب ، من أي قبيلة كانوا . أي انها استعملت عندهم بمعنى (عرب) ، وأصلها من اسم القبيلة التي نتحدث عنها وهي قبيلة (طيء) .

ولم تكن طيء متصافية فيما بينها متحابة ، فوقعت بين عشائرها حروب ، حتى تداخل (الحارث بن جبلة) الغساني فيما بينها ، فأصلح حالها ، فلما هلك عادت الى حربها ، فالتقت جديلة وغوث بموضع تحاربت فيه ، قتل فيه قائد بني جديلة ، وهو أسبع بن عمرو بن لأم ، وأخذ رجل من سنبس أذنيه فخصف بهما نعليه ، فعظم ما صنعت الغوث على أوس بن خالد بن لأم ، وعزم على لقاء الغوث بنفسه ، وحلف ألا يرجع عن طيء حتى ينزل معها جبليها أجأ وسلمى ، وتجبى له أهلها ، وكان لم يشهد الحروب المتقدمة ، لا هو ولا أحد من رؤساء طيء ، كحاتم ، وزيد الخيل ، وغيرهم من الرؤساء . فلما اقبلت جديلة وعلى

---

١ الاشتقاق (٣٢١) ، العرب ، نيسان (١٩٦٩م) (ص ٦٦٥ وما بعدها) .
٢ العرب ، نيسان ١٩٦٩م (٢٦٢ وما بعدها) .

رأسها أوس بن حارثة بن لأم ، وبلغ الغوث جمع أوس لها ، اوقدت ناراً على ذروة أجأ ، وذلك في اول يوم توقد فيه النار ، فأقبلت قبائل الغوث ، كل قبيلة وعليها رئيسها ، ومنهم زيد الخيل ، وحاتم ، وتلاحمت بجديلة في يوم اليحاميم ويعرف ايضاً بقارات حوق ، اللذي انتهى بهزيمة منكرة حلت بجديلة ، فلم تبق لها بقية للحرب ، فدخلت بلاد كلب ، وحالفتهم وأقامت معهم .[1]

وكان سيد طيء في ايام الرسول ، (زيد الخيل بن مهلهل الطائي) .[2] وهو ممن قدم على الرسول في وفد طيء . وقد قطع له الرسول فيداً وأرضين معه ، وكتب له بذلك ، ولكنه توفي في موضع يقال له (فردة) من بلاد نجد من حمى علقت به اثناء اقامته بيثرب ، فلما يبلغ مكانه .[3] وقد مدحه الرسول وأثنى عليه .[4] و (زيد الخيل) الذي سمّاه الرسول (زيد الخير) ، هو من (بني نبهان) من (طيء) . وكان في الوفد رجال آخرون منهم : (وزر بن جابر ابن سدوس) من (بني نبهان) ، و (قبيصة بن الاسود بن عامر) من (جرم طيء) ، و (مالك بن عبد الله بن خيبري) من (بني معن) ، و (قُعين ابن خليف بن جديلة) .[5]

ومن (طيء) الرجل الذي ضرب بجوده المثل ، والذي لا زال الناس يذكرون اسمه على انه المثل الأعلى في الكرم ، وهو (حاتم الطائي) . مقري الضيوف ومغيث الفقراء . فمدحه لجوده الشعراء : عبيد بن الأبرص والنابغة الذبياني وبشر ابن ابي حازم وغيرهم . وكان مضربه ملجأ للمحتاجين ولمن يسلك الطريق يريد (الحيرة) . ونظراً لجوده وكرمه هابته العرب وصارت له دالة ومكانة عند ملوك الحيرة وعند آل غسان .[6] وذكر انه (اذا أسر اطلق . ومرّ في سفره على عنزة وفيهم اسير ، فاستغاث به الأسير ، ولم يحضره فكاكه فاشتراه من العنزيين ،

١ ابن الأثير (١/٣٨٨) ايام العرب (٦٠) .
٢ المحبر (ص ٢٣٣) .
٣ الطبري (٣/١٤٥) .
٤ الاشتقاق (٢٣٦) ، الطبري (٣/١٤٥) ، (قدوم زيد الخيل في وفد طيء) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/٣٢١ وما بعدها) .
٦ الأغاني (١٦/٩٣ وما بعدها ، ١٠٤ وما بعدها) ، العقد الفريد (١/٣٣٢) (طبعة اللجنة) .

وأقام مكانه في القدّ حتى أدي فداؤه .[1]

وقد توفي (حاتم الطائي) قبل الاسلام ، وانتقلت رئاسة طيء منه الى ابنه (عدي بن حاتم طيء) ، وكان نصرانياً يسير في قومه بالمرباع ، وكان بمثابة الملك فيهم ، فلما جاءت خيل الرسول سنة تسع بلاد طيء ، قرر اللحوق بأهل دينه من النصارى بالشام ، ثم ترك الشام ولحق بالمدينة فأسلم وأكرمه الرسول .[2] وعينه الرسول على صدقة طيء وأسد .[3]

وذكر ان (عمرو بن المسبح بن كعب بن عمرو بن عصر بن غنم) ، الذي كان ارمى العرب ، وهو الذي ذكره (امرؤ القيس) في شعره وأشار اليه ، هو من (طيء) ، كان قد ادرك الرسول ، ووفد عليه .[4]

وقد وقع بين طيء نزاع ادى الى وقوع حروب وأيام بينها ، ومن بينها يوم عرف بـ (يوم اليحاميم) . وقد كان (الحارث بن جبلة الغساني) قد اصلح بين قبائلها ، فلما هلك عادت الى حروبها . فالتقت جديلة والغوث ، فقتل (اسبع ابن عمرو بن لأم) ، وهو من جديلة وقائدها ، قتل في موضع يقال له (غرثان) ، وأخذ رجل من (سنبس) اذنيه فخصف بهما نعليه ، فغضبت (بنو جديلة) ، واقسم (اوس بن خالد بن لأم) على الانتقام من (الغوث) ومنهم (بنو سنبس) ، وأخذ في حشد قومه (جديلة) ، وبلغ الغوث ذلك ، فأوقدت النار على (اجأ) ، فأقبلت قبائل الغوث ، وعلى رأسها ساداتها ومنهم (زيد الخيل) و (حاتم الطائي) ، ووقع القتال بين جديلة والغوث في موضع يقال له (قارات حوق) ، فانهزمت جديلة ، وقتل فيها ابرح القتل ، حتى لم تبق لها بقية للحرب ، فدخلت بلاد كلب وحالفوا كلباً واقاموا معهم . وعرف هذا اليوم بـ (يوم اليحاميم) .[5]

وكتب الرسول كتباً الى جماعة من (طيء) . منهم (بنو معاوية بن جرول) ،

---

١ الشعر والشعراء (ص ١٢٣) .

٢ الطبري (٣/١١٢ وما بعدها) ، (دار المعارف) ، نهاية الأرب (١٨/٧٧ وما بعدها) .

٣ الطبري (٣/١٤٧) ، (خروج الأمراء والعمال على الصدقات) ، ابن سعد ، طبقات (١/٣٢٢) (وفادات أهل اليمن : وفد طيء) .

٤ ابن سعد ، طبقات (١/٣٢٢ وما بعدها) .

٥ ابن الأثير ، الكامل (١/٢٦٦) .

و (عامر بن الأسود بن عامر بن جوين الطائي) ، وجماعة من (بني جوين) ، و (لبني معن) الطائيين .[1]

وتقع الى الشرق من ديار (طيء) منازل (اسد) . والى الشمال من ديار اسد منازل (بكر) ، واما الى الجنوب من منازل (اسد) فديار (هوازن) و (غطفان) . وتتاخم ديار اسد من الشرق قبائل (عبد القيس) و (تميم) .

ولما اخذت الوفود تترى على المدينة لمبايعة الرسول والدخول في الاسلام ، كان وفد (اسد) في جملة الوفود التي بايعت الرسول ودخلت في الاسلام، وذلك سنة تسع للهجرة . وكان فيه (حضرمي بن عامر) و (ضرار بن الأزور) و (وابصة ابن معبد) و (قتادة بن القايف) و (سلمة بن حبيش) و (طلحة بن خويلد) و (نقادة بن عبد الله بن خلف) ، ومعهم قوم من (بني الزنية) وهم من (مالك بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن اسد) .[2]

وكتب رسول الله كتاباً الى (بني اسد) كتبه له (خالد بن سعيد) ، ورد فيه : (الا يقربن مياه طيء وارضهم فانه لا تحل لهم مياههم ولا يلجن ارضهم من اولجوا . وأمّر عليهم (قضاعي بن عمرو) وهو من (بني علر) ، بأن جعله عاملاً عليهم .[3] وكتب الرسول الى (حصين بن نضلة الأسدي) (ان له اراما وكسّة ، لا يحاقه فيها احد) .[4]

ومن ديار (بني اسد بن خزيمة) ، (قطن) ، وهو جبل بناحية (فيد) به ماء . وأمر الرسول (ابا سلمة بن عبد الاسد المخزومي) بغزوه ، لما بلغه ان (طليحة) و (سلمة) ابني (خويلد) قد سارا في قومهما ومن اطاعهما يدعوانهم الى حرب الرسول ، فذهب الى (قطن) ، ثم عاد ، ومعه إبلٌ وشاء .[5]

وتقع الى الشمال الغربي من ديار (طيء) ، ديار (بكر) ، وهي (بكر ابن وائل) . وهي قبائل ضخمة ذات فروع عديدة ، سكنت في مواضع عديدة اخرى غير هذه المواضع .

١ ابن سعد ، طبقات (٢٦٩/١) .
٢ ابن سعد ، طبقات (٢٩٢/١ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٣١/١٨) .
٣ ابن سعد ، طبقات (٢٧٠/١) .
٤ ابن سعد ، طبقات (٢٧٤/١) .
٥ نهاية الأرب (١٢٧/١٧ وما بعدها) .

وذكر في خبر فتوح السواد، ان (المثنى بن حارثة الشيباني) كان يغير على السواد، فبلغ (أبا بكر) خبره، فسأل عنه، فقال له قيس بن عاصم بن سنان المنقري : هذا رجل غير خامل الذكر، ولا مجهول النسب، وأثنى عليه. ثم ان المثنى قدم على (ابي بكر)، فقال له : يا خليفة رسول الله، استعملني على من اسلم من قومي اقاتل هذه الأعاجم من اهل فارس، فكتب له ابو بكر في ذلك عهداً، فسار حتى نزل (خفان) ودعا فيه الى الاسلام فأسلموا. ثم ان ابا بكر امر (خالد بن الوليد) بالمسير الى العراق، وكتب الى (المثنى بن حارثة) يأمره بالسمع والطاعة له وتلقيه. وكان (مذعور بن عدي العجلي)، قد كتب الى ابي بكر يعلمه حاله وحال قومه ويسأله توليته قتال الفرس، فكتب اليه يأمره ان ينضم الى خالد ويسمع له بالطاعة.[1]

و (خفان)[2] مأسدة وموضع أشبّ الغياض كثير الأسد، أو اجمة قرب (الكوفة).[3]

ونجد في موارد اخرى ان (المثنى بن حارثة الشيباني) و (سويد بن قطبة العجلي)، وكلاهما من (بكر بن وائل) كانا يغيران على الدهاقين، فيأخذان ما قدرا عليه. فاذا طُلبا امعنا في البرّ فلا يتبعهما احد، وكان المثنى يغير من ناحية الحيرة، و (سويد) من ناحية (الأبلة). فكتب الى (ابي بكر)، يعلمه ضراوته بفارس ويعرفه وهنهم، ويسأله ان يمدّه بجيش، فكتب اليه (ابو بكر) يخبره انه مرسل اليه (خالد بن الوليد) وان يكون في طاعته، فكره (المثنى) ورود خالد عليه، وكان ظن ان ابا بكر سيوليه الأمر، ولكنه لم يتمكن ان يفعل شيئاً فانضم الى خالد.[4]

ومن (بني عجل) (فرات بن حيّان للعجلي)، كان دليل (ابي سفيان)

١ البلاذري، فتوح (٢٤٢).
٢ (وخفان كعفان) بتشديد الفاء، تاج العروس (٩٣/٦)، (خف).
٣ قال الأعشى :
وما مخدر ورد عليه مهابة أبو أشبل أضحى بخفان حاردا
تاج العروس (٩٣/٦)، اللسان (٨١/٩)، (خفف).
٤ الأخبار الطوال (١١١ وما بعدها).

الى الشام .[1] وذلك ان قريشاً خافوا طريقهم الذي كانوا يسلكون الى الشام حين وقعة (بدر) ، فكانوا يسلكون طريق العراق ، فخرج بهم دليلهم (فرات) ، في السنة الثالثة من الهجرة ، ومعه ابو سفيان وصفوان بن امية ، وحويطب بن عبد العزّى ، وعبد الله بن ابي ربيعة ، ومعهم مال كثير ، فيه فضة كثيرة ، وهي اعظم تجارتهم ، فلما بلغوا موضع (القردة) ، وكان (فرات) قد سلك بهم على ذات عرق ، اعترض (زيد بن حارثة) القافلة ، وكان الرسول قد ارسله للتحرش بها ، يوم بلغه امر القافلة ، فهرب اعيانها واستولى زيد على العير ، وجاء بها الى الرسول . وأسر فرات ، فأسلم .[2]

ويذكر اهل الاخبار ان قبائل مضر كانت تنزع الى العراق ، وكان اهل اليمن ينزعون الى الشام . وانه لم يكن احد من العرب اجرأ على فارس من ربيعة وقد قيل لها لذلك : ربيعة الأسد ، وكانت العرب في جاهليتها تسمى : فارسُ الاسد .[3]

وقد قدم وفد من (بكر بن وائل) على الرسول ، فيه (بشير بن الخصاصية) و (عبد الله بن مرثد) ، و (حسّان بن حوط ، (خوط) ، فأسلموا وعادوا الى ديارهم .[4] وذهب (حريث بن حسان الشيباني) في وفد من (بكر بن وائل) الى الرسول ، فأسلم على يديه .[5] وذكر ان (عبد الله بن اسود بن شهاب بن عوف بن عمرو بن الحارث بن سدوس) ، قدم مع الوفد المذكور ، وكان ينزل اليمامة ، فباع ما كان له من مال باليمامة واستقر بالمدينة .[6]

وذكر ان رسول الله كتب كتاباً الى (بكر بن وائل) ، فما وجدوا رجلاً يقرؤه حتّى جاءهم رجل من (بني ضبيعة بن ربيعة) فقرأه . وكان الذي اتاهم بكتاب رسول الله : (ظبيان بن مرثد السدوسي) .[7]

وخرج (خالد) الى العراق ، فمرّ بـ (فيد) و (الثعلبية) وأماكن اخرى

---

١ الاشتقاق (ص ٢٠٨) .
٢ نهاية الأرب (٩٧/٨٠) .
٣ الطبري (٣/٤٨٧) ، (دار المعارف) .
٤ طبقات ابن سعد (١/٣١٥) .
٥ طبقات ابن سعد (١/٣١٨ وما بعدها) .
٦ نهاية الأرب (١٨/٦٧) .
٧ ابن سعد ، طبقات (١/٨١ ، وما بعدها) .

منها (العذيب) و (خفان) ، ثم سار قاصداً (الحيرة) وهي اهم موضع للعرب في العراق . فخرج اليه ساداتها في هذا الوقت : (عبد المسيح بن عمرو ابن قيس بن حيّان بن بقيلة) ، وهو من الأزد ، وصاحب القصر الذي يقال له : (قصر بني بقيلة) بالحيرة . وهو من (بني سبين) . وكان من المعمرين .[1] و (هانىء بن قبيصة بن مسعود الشيباني) ، ويقال (فروة بن اياس) . وكان (اياس) عامل كسرى ابرويز على الحيرة ، بعد النعمان بن المنذر ، و (عدي ابن عدي بن زيد العبادي) ، وأخوه (عمرو بن عدي) ، و (عمرو بن عبد المسيح) و (حيرى بن أكّال) ، وهم نقباء اهل الحيرة . فصالحوه على دفع الجزية وعلى ان يكونوا عيوناً للمسلمين على اهل فارس .[2]

وفيد موضع مهم بطريق مكة في نصفها من الكوفة ، به حصن عليه باب حديد ، وعليه سور دائر . كان الناس يودعون فيه فواضل ازوادهم وما ثقل من امتعتهم الى حين رجوعهم . وذكر ان فيداً فلاة في الارض بين أسد وطيء في الجاهلية . فلما قدم (زيد الخيل) الفارس المشهور على رسول الله اقطعه فيداً . وذكر اهل الاخبار ، ان فيداً ، انما سميت فيد بفيد بن حسام اول من نزلها . والظاهر انها من المواضع القديمة وقد ورد اسمها في الشعر الجاهلي والاسلامي .[3]

و (العذيب) ، اذ ذاك مسلحة كانت للفرس على طريق البادية ، ومن القادسية التي تبعد عن الكوفة (١٥) ميلاً الى العذيب (٦) اميال ، ويؤدي الطريق من العذيب الى البرية .[4] وكان لبني تميم .[5] وذكر اهل الاخبار ان (محلم بن سويط الضبي) أخا بني صباع ، قاد الرباب كلها . وهو الرئيس الأول : اول من سار في ارض مضر برئاسة ، وغزا العراق وبه كسرى حتى بلغ العذيب . فجعلت الإبل تتهيب خرير الماء . ويظهر من شعر لبعض الضبّيين ان العذيب كان احساءاً ، يخرج الماء فيه من باطن الارض ويندفع مكوّناً خريراً ،

١ الاشتقاق (٢٨٥) ، الطبري (٣/٣٤٥ ، ٣٦٤) ، (دار المعارف) ، البلاذري ، فتوح (٢٤٤) .

٢ البلاذري ، فتوح (٢٤٤) ، الطبري (٣/٣٦٤) ، (دار المعارف) .

٣ تاج العروس (٢/٤٥٧) ، (فاد) .

٤ ابن رسته ، الأعلاق (١٧٥) .

٥ تاج العروس (١/٣٧٠) ، (عذب) .

لذلك هابته الإبل ، فكانت تتخوف من الشرب منه .[1] وبعد العذيب ، نهاية حدّ نجد في الشمال .[2]

ويذكر (ابن رسته) ان (البطانية) ، هو (قبر العبادي) [3] ، وسمّاه بعضهم (بطان) . وذكر (اليعقوبي) ان هذا الموضع من ديار (بني اسد) .[4]

وكان للثعلبية شأن يذكر ، فقد ذكر انها كانت موضعاً معروفاً ، بل ذكر انها مدينة عامرة عليها سور وفيها حمامات وسوق ، وهي على ثلث الطريق للقادم من بغداد الى مكة . وقد صار لها شأن في صدر الاسلام فما بعد ، لأنها تقع على طريق التجارة والحاج . وهي على جادة مكة من الكوفة ، ومن منازل اسد ابن خزيمة .[5]

وكان اهل الحيرة قد تحصنوا بقصورهم : في القصر الابيض ، وهو قصر (النعمان بن المنذر) وقصر ابن بقيلة ، قصر العدسيين ، والعدسيون من (كلب) نسبوا الى امهم ، وهي كلبية ايضاً .[6] وذكر انه كان في طرف الحيرة ، لبني عمار بن عبد المسيح بن قيس بن حرملة بن علقمة بن عدس الكلبي ، نسبوا الى جدتهم (عدسة بنت مالك بن عوف الكلبي) ، وهي (أم الرماح) و (المشظ) ابني عامر المذم .[7]

وعدة قصور الحيرة ثلاثة على ما ورد في بعض الروايات . وهي عدة الحيرة وملاجئها ايام الخطر ، فاذا سقطت ، سقطت الحيرة ، لأنها هي المكونة لها . وقد صالحت (خالد بن الوليد) لما وجدته ان ليس في استطاعتها الصمود امام المسلمين .[8] ولم يكن لها على ما يظهر من روايات اهل الاخبار سور .

ومن مواضع الحيرة ، (ربيعة بني مازن) ، لقوم من الأزد من بني عمرو

---

١ المحبر (٢٤٨) .
٢ شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري (٨١) .
٣ ابن رستة ، الاعلاق (١٧٥) .
٤ اليعقوبي ، البلدان (٣١١) .
٥ ابن رسته ، الاعلاق (١٧٥) ، اليعقوبي ، البلدان (٣١١) .
٦ البلاذري ، فتوح (٢٤٥) .
٧ البلاذري ، فتوح (٢٨٤) .
٨ الاخبار الطوال (١١٢) ، تاج العروس (٣/١٦٥) (حارة) .

ابن مازن من الأزد ، وهم من غسان .[1] و (دير هند) ، لأم (عمرو بن هند بن ماء السماء) ، و (ربيعة بني عدي بن الذميل) من لخم .[2]

وقد هدمت قصور الحيرة التي كانت لآل المنذر واستخدمت حجارتها وأنقاضها لبناء المسجد الجامع بالكوفة ولأبنية اخرى ، وقد عوض اصحاب القصور عنها . وفقاً لما جاء في (قراطيس هدم قصور الحيرة) .[3] وقد هدم بعض الخلفاء العباسيين قصور الحيرة وأزالوا بذلك من معالمها . منهم الخليفة (ابو جعفر المنصور) ، فقد هدم (الزوراء) ، وهي دار بناها النعمان بن المنذر على ما يذكره اهل الاخبار .[4]

وذكر (اليعقوبي) ان الحيرة (هي منازل آل بقيلة وغيرهم) ، وان عليّة اهل الحيرة نصارى ، منهم من قبائل العرب من بني تميم ومن (سليم) ومن (طيء) وغيرهم . وان (الخورنق) بالقرب منها مما يلي المشرق ، وبينه وبين الحيرة ثلاثة اميال ، والسدير في برية .[5]

وكان الفرس يستعينون بعرب الحيرة في امر الترجمة فيما بينهم وبين العرب . ومن هؤلاء أسرة (عدي بن زيد العبادي) على نحو ما ذكرت . وترجمان كان يترجم لـ (رستم) اسمه (عبود) . وكان عربياً من اهل الحيرة .[6] كما استخدم المسلمون تراجمة ، ليترجموا ما كان يدور بينهم وبين الفرس من حوار ، او بينهم وبين من يقبضون عليه من اسرى الفرس ، من هؤلاء رجل اسمه (هلال الهجري) . واستخدموا كتبة لكتابة الكتب والاخبار ، ذكروا منهم (زياد بن ابي سفيان) .[7]

وقد استعان الفرس ببعض (آل لخم) لمحاربة العرب ولاشغالهم ، في معارك

---

١ البلاذري ، فتوح (٢٨٠) .
٢ البلاذري ، فتوح (٢٨٢) .
٣ البلاذري ، فتوح (٢٨٤) .
٤ تاج العروس (٣/٢٤٦) ، (زار) .
٥ البلدان (٣٠٩) ، (مع ابن رسته) ، تاج العروس (٣/٢٦١) ، (سدر) . (٦/٣٣٢) .
٦ الطبري (٣/٥٢٤) .
٧ الطبري (٣/٤٨٩) .

صغيرة ، من هؤلاء (قابوس بن قابوس بن المنذر) ، وقد كلفه (الآزاذبة مرد بن الآزاذبة) بالذهاب الى (القادسية) لاشغال المسلمين ، وأن يكون للفرس كما كان آباؤه قبله من النصر والعون ، فنزل القادسية ، وكاتب بكر بن وائل ، بمثل ما كان النعمان يكاتبهم به ، فلما بلغ خبره المسلمون حاصروه .[1]

والقادسية موضع مهم جداً من الوجهة العسكرية ، وقد قال عنه الخليفة (عمر) في كتابه الذي وجهه الى (سعد) بأنه (باب فارس) وأجمع ابوابهم لمادتهم .[2] وقد وضعوا ما بعده الحصون والقناطر والانهار لحماية مواقعهم من وقوعها في ايدي من قد يأتي اليهم من البادية . وأهله من العرب ، وكان الفرس قد اقاموا فيه مسالح عبئت بجنود من فارس ، للدفاع عن خطوطهم الامامية ، ولمشاغلة الغزاة الى حين وصول المدد الكبير .

وممن ساعد الفرس ودافع عنهم (النعمان بن قبيصة) ، وهو ابن (حيّة الطائي) ابن عم (قبيصة بن اياس بن حيّة الطائي) صاحب الحيرة ، وكان مرابطاً في قصر (بني مقاتل) ، وكان منظرة له . وقد قتله (سعد بن عبد الله بن سنان الأسدي) لما سمعه يستخف بقريش وبالقريشيين . فلما سأل عن (سعد بن ابي وقاص) ، وقيل له انه من قريش ، قال : (اما اذا كان قرشيّاً فليس بشيء ، والله لأجاهدنه القتال ، انما قريش عبيد من غلب ، والله ما يمنعون خفيراً ، ولا يخرجون من بلادهم الا بخفير) .[3]

ونجد في (فتوح الشام) للواقدي ، خبراً مفاده ان (سعد بن ابي وقاص) لما وجهه الخليفة (عمر) الى العراق قدم ارض (الرحبة) ، فاتصلت الاخبار بـ (اليعمـور بن ميسرة العبسي) ، فكتب الى كسرى يخبره بمجيئه الى هذا المكان ، وان (سعداً) لما ارتحل من (الرحبة) الى (الحيرة البيضاء) في ثلاثين ألفاً من بجيلة والنخع وشيبان وربيعة واخلاط العرب ، وجد هناك جيش (النعمان بن المنذر) ، وقد ضرب خيامه والسرادقات الى ظاهرها ، وهو في ثمانين ألفاً من جميع عرب العراق ، فكتب (النعمان) الى (كسرى) بمجيئهم

---

١ الطبرى (٣/٤٨٩) .
٢ الطبرى (٣/٤٩١) .
٣ الطبري (٣/٥٧٢ وما بعدها) .

وحثّ عربه على الصمود وعلى مقاومة سعد قائلاً لهم : (إن هؤلاء عرب وأنتم عرب وهلاك كل شيء من جنسه) (وليس لأصحاب محمد فخر يفتخرون به علينا ، ولكن نحن لنا الفخر عليهم . وهم يزعمون ان الله بعث فيهم نبيّاً وأنزل عليهم كتاباً يقال له القرآن ، ونحن لنا الإنجيل وعيسى بن مريم ، وجميع الحواريين ، ولنا المذبح ، ولنا القسوس والرهبان والشمامسة ، وعلى كل حال ديننا عتيق ودينهم محدث ، فاثبتوا عند اللقاء وكونوا عند ظن الملك كسرى بكم)[1] .

ويذكر رواة هذا الخبر ان عم (النعمان بن المنذر) ، وكان صاحب حرسه ، دخل اليه وقال له : إن أعداءنا قد أنفذوا الينا رسولاً ، فأمر بادخاله عليه ، وكان الرسول (سعد بن أبي عبيد القاري) ، فلما وقف بين يدي النعمان صاح به الحجاب والغلمان : قَبِّل الأرض للملك فلم يلتفت اليهم ، وقال : إن الله أمرنا ان لا يسجد بعضنا لبعض . ولعمري إن هذه كانت العادة المعروفة في الجاهلية قبل ان يبعث الله نبيّه محمداً ، فلما بعث جعل تحيته السلام ، وكذا كانت الأنبياء من قبله . وأما السلام ، فهو من أسماء الله تعالى ، وأما تحيتكم هذه ، فهي تحية جبابرة الملوك . فقال النعمان : لسنا من الجبابرة ، بل نحن أجلّ منكم ، لأنكم توحدون في دينكم وتقولون إن الله واحد وتجحدون ولده عيسى بن مريم) . ويذكرون ان (سعداً) جادل (النعمان) في طبيعة (المسيح) ، فأعجب بكلامه . ثم كلمه في الاسلام أو دفع الجزية ، فغضب (النعمان) ، وقال له : (يا ويح قومك ، فليس عندنا جواب إلا السيف)[2] .

وتقدمت جيوش المسلمين حتى التحمت بجيش (النعمان) بظاهر الحيرة ، وان (القعقاع بن عمرو التميمي) أو (بشر بن ربيعة التميمي) ، أحدهما التقى بالنعمان في كبكبة من الخيل والازدهارات على رأسه ، فحمل القعقاع أو بشر على الكبكبة ففرقها ، وعلى الكتيبة فمزّقها وعلى النعمان بطعنة في صدره فقتل . فلما نظرت جيوش الحيرة الى الملك النعمان مجندلا ولوا الادبار يريدون القادسية نحو جيش الفرس . وأخذ المسلمون أسرى وغنائم ، واحتوى (سعد) على قصر الخورنق والسدير ، وترك جميع ما أخذه بالحيرة . وتحرك نحو القادسية . وكانت أخبار هزيمة النعمان

---

١ الواقدي ، فتوح الشام (٢/١٨٥ وما بعدها) .
٢ الواقدي ، فتوح الشام (٢/١٨٦) .

قد وصلت الفرس وهم بالقادسية ، وقد وصلت اليهم الفلول المنهزمة من جيش النعمان ، فوقع التشويش في عسكر الفرس ، وخارت قواهم ، مما أدى الى انتصار المسلمين عليهم في هذا المكان [1] .

ولا نجد هذا الخبر في أيّ مورد آخر من موارد أهل الأخبار ، فقد نصت جميع الموارد الأخرى على ان النعمان كان قد لقي مصرعه على نحو ما تحدثت عنه في أثناء كلامي على مملكة الحيرة . فلعل (النعمان) هذا هو أحد أبناء (آل لخم)، واستعان به الفرس للدفاع عن الحيرة ومنّوه في مقابل مساعدته لهم بالملك ، كما استعانوا بـ (قابوس بن قابوس) . وقد يكون خبره من صنع أهل الأخبار ، أقحموا اسمه إقحاماً ، وما فطنوا الى انه كان قد توفي قبل هذا الوقت بسنين ، على كل ففي الخبر كلام منمق وحوار وجدل ينبئك لونه ان فيه تكلفاً وصنعة ، وان الخبر قد وضع وضعه أناس ، لغايات لا مجال للبحث عنها في هذا المكان .

وسار (خالد) من (الحيرة) الى الأنبار ، فحاصرها ، وكان أصحاب النعمان وصنائعه يعطون أرزاقهم منها ، ثم صالحهم ، ثم أتى (خالد) بعد مواقع أخرى (عين التمر) [2] .

وكان على رأس العرب الذين عاونوا الفرس وانحازوا اليهم : (عقة بن أبي عقة) و (هلال بن عقة بن قيس بن البشر) النمري ، على النمر بن قاسط بعين التمر ، و (عمرو بن الصعق) و (بجير) أحد بني عتبة بن سعد بن زهير ، والهذيل بن عمران ، ومعهم رجال من قبائلهم [3] . ولكنهم لم يتمكنوا من الوقوف أمام (خالد بن الوليد) ، إذْ انهزم جندهم ، وأسرَ (عقة) و (عمرو بن الصعق) ، وكان (عقة) خفير القوم ، وسقط حصن عين التمر في الاسلام [4] . وورد في خبر آخر ان (خالد) قتل (هلال بن عقة) (هلال بن عقبة) ، وصلبه . وكان من (النمر بن قاسط) ، وكان خفيراً بعين التمر [5] .

---

١ الواقدي ، فتوح الشام (١٨٧/٢ وما بعدها) .
٢ البلاذري ، فتوح (٢٤٦ وما بعدها)
٣ البلاذري ، فتوح (٢٤٩) .
٤ الطبري (٣٧٦/٣ وما بعدها) .
٥ الاخبار الطوال (١١٢) .

وتعرف (عين التمر) بـ (شفاثا) (شفاثى) وبـ (عين شفته) ، وقد اشتهرت بالقسب والتمر ، وكانت تصلرهما الى البادية والى أماكن أخرى ، ويقصدها الأعراب للامتيار . وبها حصن يتحصن به وعين ماء . ولما اقترب المسلمون منها ، كان بها (مهران بن بهرام جوبين) في جمع عظيم من الفرس للدفاع عنهـا ومعه جمع عظيم من النمر وتغلب واياد ومن لافّهم، ولكنهم غلبوا على أمرهم ، وفر الفرس[1] . وكان بعين التمر مسلحة لأهل فارس[2] .

وقد وجد (خالد) في كنيسة (عين التمر) جماعة سباهم ، ووجد أولاداً كانوا يتعلمون الكتابة في الكنيسة ، وقـد اشتهر وعرف عدد من هؤلاء الذين سبوا ، واشتهر أولادهم أيضاً . وقد كان من هؤلاء من كان من (بني النمر ابن قاسط) النازلين بعين التمر[3] .

وكانت قُريّات السواد وهي : بانقيا وباروسما وأُلّيس خليط من العرب ومن النبط وسواد العراق ، وقد صالح أهلها (خالد بن الوليد) حينما ظهر أمامها ، صالحوه على الجزية ، وكان الذي صالحه عليها (ابن صلوبا السوادي) المعروف بـ (بصبرى ين صلوبا) ، ومنزله بشاطىء الفرات . وقد ورد في كتاب الصلح الذي أعطاه (خالد بن الوليد) له ، (وقد أعطيتَ عن نفسك وعن أهـل خرجك وجزيرتك ومن كان في قريتك — بانقيا وباروسما — ألف درهم)[4] .

وذكر (البلاذري) ان الخليفة (عمر) وَجّهَـه (أبا عبيدة الثقفي) الى العراق ، فلما وصل الى هناك ، وهزم (جابان) بالعذيب ، ثم هزم الفرس في معارك أخرى ، حتى بلغ (باروسما) ، صالحه (ابن الأنذر زعر) (ابن الأنذر زعر) عن كل رأس على أربعة دراهم[5] . ولم يشر الى الصلة التي كانت بين (ابن صلوبا) و (ابن الأنذر) .

ويرجع أهل الأخبار تأريخ (بانقيا) الى أيام (ابراهيم) ، فهم يذكرون

١ الطبري (٣/٣٧٦) ، (دار المعارف بمصر) .
٢ الاخبار الطوال (١١٢) .
٣ البلاذري ، فتوح (٢٤٩) ، تأريخ خليفة بن خياط (١/٨٦) .
٤ الطبري (٣/٣٤٤ ، ٣٤٦) .
٥ البلاذري ، فتوح (٢٥١) ، تأريخ خليفة (٩٢) .

انه كان ينزل بها . وان اليهود كانوا يدفنون موتاهم بها . ويذكرون انها أرض بالنجف دون الكوفة ، وان سكانها كانوا على النصرانية عند ظهور الاسلام . وان الساسانيين كانوا هم الذين يدافعون عنها ويتولون أمر إدارتها ، أما شؤونها المحلية فكان أمرها بيد ساداتها ورؤسائها[1] .

وكانت عشائر (إياد) من العشائر التي نزحت الى العراق قبل الاسلام بوقت طويل . نزل بعضهم بـ (عين أبّاغ) ونزل بعض منهم بسنداد . فأمروا هناك ، وكثروا ، واتخذوا بسنداد بيتاً ذا شرفات تعبّدوا له . ثم انتشروا ، وغلبوا على ما يلي الحيرة . وصار لهم (الخورنق) و (السدير) . فلهم (أقساس مالك) . وهو مالك بن قيس بن زهر بن إياد . ولهم دير الأعور ، ودير السواء ، ودير قرة ، ودير الجماجم . وإنما سُمّي دير الجماجم لأنه كان بين إياد وبهراء القين حرب ، فقتل فيها من إياد خلق ، فلما انقضت الحرب ، دفنوا قتلاهم عند الدير . فكان الناس بعد ذلك يحفرون فتظهر جماجم . فسمي دير الجماجم[2] . وقيل غير ذلك ، مما لا مجال للذكره في هذا الموضع .

وكانت إياد تغير على السواد وتفسد . فجعل (سابور) ذو الأكتاب مسالح بالأنبار وعين التمر وغير هاتين الناحيتين . لحماية الحدود منهم . ثم ان إياداً أغارت على السواد في ملك كسرى أنوشروان ، فوجه اليهم جيوشاً كثيفة . فخرجوا هاربين ، واتبعوا ، فغرق منهم بشر ، وأتى فُلُّهم (بني تغلب) ، فأقاموا معهم على النصرانية ، فأساءت (بني تغلب) جوارهم ، فصار قوم منهم الى الحيرة ، ودخل منهم في جند ملوك الحيرة ، ولحق جُلّهم بغسّان بالشأم . فلما جاء الاسلام دخل بعضهم بلاد الروم ، ودخل منهم قوم في خثعم وفي تنوخ وفي قبائل أخرى .

ويقال إن مواطن إياد قبل نزوحها الى العراق ، كانت بالبحرين ، واجتمعت عبد القيس والأزد على إياد ، فأخرجوا عن الدار فأتت العراق[3] .

---

١ البلدان (١/٣٣١) (طبعه بيروت) ، البكري ، معجم (١/٢٢١) (طبعة السقا) ، اليعقوبي (١/١٣١) ، مراصد الاطلاع (١/١٢٣) .
٢ البلاذرى ، أنساب (١/٢٦) .
٣ البلاذري ، أنساب (١/٢٩) .

وقد وصف (ابن قتيبة) إياداً على هذا النحو : (وكانت إياد أكثر نزار عدداً وأحسنهم وجوهاً وأمدهم وأشدهم ، وأمنعهم . وكانوا لقاحـاً لا يؤدون خرجاً . وهم أول معدّي خرج من تهامة ، ونزلوا السواد وغلبوا على ما بين البحرين الى سنداد والخورنق) . فاصطدموا بالساسانيين لأنهم أغاروا على أموال فأخذوها ، فهزموهم الى الجزيرة ، ووجه اليهم (كسرى) ستين ألفـاً فكتب اليهم (لقيط) يُنبههم . وانتصر عليهم كسرى ، وانقسموا ثلاث فرق . فرقة لحقت بالشأم ، وفرقة أقامت بالجزيرة ، وفرقة رجعت الى السواد[1] .

ولما سار (خالد) من (عين التمر) أتى (صندوداء) وبها قوم من كندة وإياد والعجم . وتركها واتجه نحو جمع من (تغلب) كانوا بـ (المضيح) و (الحصيد) مرتدين عليهم ، (ربيعة بن بجير) ، فأتاهم فقاتلوه فهزمهم . ثم أغار (خالد) على (قراقر) ، وهو ماء لكلب ، ثم فوّز منه الى (سُوى) ، وهو ماء لكلب أيضاً . ومعهم فيه قوم من (بهراء) ، فقتل (حرقوص بن النعمان البهراني) ؛ من (قضاعة) . وكان المسلمون لما انتهوا الى (سوى) وجدوا (حرقوصاً) وجماعة معه يشربون ويتغنون فهجموا عليهم وقتلوا (حرقوصاً) . وخرج خالد من (سوى) الى (الكواثل) ، ثم أتى (قرقيسيا) وانحاز الى البرّ ، وأتى (أركة) (أرك) ، فأغار على أهلها ، وفتحها ، وسار منها نحو (دومـة الجندل)[2] .

وذكر (ابن سعد) ان الرسول كتب الى (نفاثة بن فروة بن الدئلي ملك السماوة)[3] . ولم يشر الى موضع ملكه من بادية السماوة ومقداره في البادية .

وكانت (دومة الجندل) عند ظهور الاسلام في ملك (أكيدر بن عبد الملك الكندي السكوني) . والسكون من كنـدة ، فهو كندي النسب أيضاً . وكان يتنقل في البادية فيصل الى الحيرة والى أرض الغساسنة ، ويقال إنه ملك (دومة الحيرة) ونزل بها قبل جلائه عن (دومـة الجندل) أو بعده على رأي أهـل الأخبار . وكان مثل أكثر رؤساء القبائل في العراق وفي البادية وبلاد الشأم على

---

١ الشعر والشعراء (٩٧ وما بعدها) .
٢ البلاذري ، فتوح (١١٩) ، الواقدي ، فتوح الشأم (١/ ٣٠) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/ ٢٨٤) .

النصرانية ، وله عقود ومعاهدات مع القبائل العربية الشمالية الضاربة في البادية ، تأتي الى مقره في الموسم أيام افتتاح السوق لتمتار ولبيع ما تحمله من تجارات .

وكان لأكيدر بن عبد الملك أخ اسمه (بشر بن عبد الملك) ، يذكر أهل الأخبار انه ذهب الى الحيرة ، وتعلم بها الخط ، ثم رجع الى مكة فتزوج (الصّهباء بنت حرب) أخت أبي سفيان[1] .

وقد أرسل الرسول خالد بن الوليد الى دومة الجندل ليفتحها ، فسار خالد على رأس خيل الى (دومة) ، فلما بلغها وجد الأكيدر خارج حصنه يصطاد مع نفر من قومه فيهم أخ له يقال له : حسان ، فهجم رجال خالد على الأكيدر وأسروه ، وقتل حسان ، وأخذ خالد قباء (أكيدر) وكان من ديباج مخوص بالذهب ، وبعث به الى الرسول ليقف عليه المسلمون ، فلما رأوه عجبوا منه وجعلوا (يلمسونه بأيديهم ، ويتعجبون منه ، فقال رسول الله : أتعجبون من هذا . فوالذي نفس محمد بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا)[2]. وقد زاد عجبهم حين وصل خالد ومعه أسيره (أكيدر) ، فحقن له دمه ، وصالحه الرسول على الجزية ، ثم خلى سبيله ، فرجع الى قريته[3] .

ويذكر الرواة ان الرسول استقبل خالداً ومعه أسيره (الأكيدر) في المدينة ، فعرض الرسول الاسلام على الأكيدر ، فقبله وحقن الرسول دمه وكتب له كتاباً، وعاد الى (دومة) . فلما قبض النبي منع الصدقة وارتد الى النصرانية ديانته الأولى . وخرج من دومة الجندل فلحق بالحيرة وابتنى بها بناءً على مقربة من (عين التمر) سمّاه (دومة) أو (دومة الجندل) على اسم موضعه ، وسكن هناك . ثم عاد الى (دومة الجندل) ، وتحصن بها ، فأمر (أبو بكر) خالد بن الوليد بالتوجه اليه ، فسار اليه وقتله . أما أخوه (حريث بن عبد الملك) فقد أسلم ، وحقن دمه . وقد تزوج (يزيد بن معاوية) إبنة له[4] .

---

١ جمهرة (ص ٤٠٣ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢٥٧/٢) .

٢ الطبري (١٠٨/٣ وما بعدها) (طبعة دار المعارف) ، ابن هشام (٣١٩/٢) ، البلاذري فتوح (٧٢ وما بعدها) .

٣ الطبري (١٠٨/٣) ، البكري ، معجم (٥٦٤/٢ وما بعدها) ، فتوح البلدان (٢٢٣) الكامل (١٩٢/٢) (المنبرية) ، تاج العروس (٥١٨/٣) . (كدر) .

٤ فتوح البلدان (٢٢٣) ، البلدان (٦٢٥/٢ وما بعدها) ، البلاذري ، فتوح (٧٣) ، تأريخ خليفة بن خياط (٥٦/١) ، (تحقيق أكرم ضياء العمري) .

وتذكر رواية أخرى ان (الأكيدر) بعد ان نقض الصلح وعاد الى نصرانيته ، أجلاه (عمر) من (دومة) فيمن أجلى من مخالفي الاسلام الى الحيرة ، فأقام في موضع قرب (عين التمر) ، ابتناه فسمّاه (دومة) وقيل (دوماء) باسم حصنه[1] . وهي رواية لا تتفق مع المشهور بين أهل الأخبار من ان خالداً قتل (الأكيدر) في السنة الثانية عشرة أو السنة الثالثة عشرة من الهجرة ، وذلك في أيام (أبي بكر) بعد ان أمره الخليفة بالتوجه اليه . وهي رواية أقوى من الرواية المتقدمة في نظر المؤرخين .

ويظهر ان أهل (دومة الجندل) كانوا قد سمعوا بخبر مسير (خالد اليهم ، فأرسلوا الى حلفائهم وأحزابهم من بهراء وكلب وغسان وقبائل تنوخ والضجاعم ليساعدوهم في الوقوف أمامه . فأتاهم (وديعة) في (كلب) وبهراء ، وسانده (رومانس بن وبرة بن رومانس) الكلبي ، وجاءهم (ابن الحدرجان) في الضجاعم ، و (جبلة بن الأيهم) في طوائف من غسان وتنوخ . وكذلك (الجودي بن ربيعة الغساني) . وكان من المتزعمين في (دومة) ، وقد احتمى أهل (دومة) بحصنهم وخلف أسوار المدينة ، والتفت حول السور من الخارج نصارى العرب الذين جاؤوا لمساعدة أهلها . وقد تمكن (خالد) يساعده (عياض) من التغلب على أهل المدينة وحلفائهم ، وقتل رؤساءهم ، ودخل المدينة منتصراً ، فغنم جيشه غنائم كثيرة وقُتِلَ من أهلها خلق كثير . وسبى ابنة (الجوديّ) . وكان الأكيدر في جملة القتلى[2] .

وكان الرسول قد غزا (دومة الجندل) بنفسه ، وذلك في شهر ربيع الأول من السنة الخامسة من الهجرة ، وبلغها ، ولم يلق كيداً . كان سبب غزوه لها ، ان رسول الله أراد ان يدنو الى أراضي الشأم ، لأن ذلك مما يفزع الروم ، ثم ان أهل دومة الجندل كانوا يظلمون من يمر بهم وينزل عندهم ، ومن يحل بسوقهم للبيع والشراء ، وقد كان الناس يذهبون اليها ويعودون الى المدينة ، فقرر غزوها ، فلما وصل الرسول كان أهلها قد فرّوا وتركوا قريتهم ، فنزل بها

---

١ البلدان (٢/٦٢٥ وما بعدها) .

٢ الطبري (٢/٥٧٨ وما بعدها) ، (القاهرة ١٩٣٩ م) ، الكامل (٢/٢٧٠) ، الطبري (٣/٣٧٨ ، ٣٨٥) (دار المعارف) ، البلاذري ، فتوح (٧٤) .

ولم يجد احداً ، فرجع عنها ، وذلك قبل غزو خالد لها .[1]

وورد في سبب غزو الرسول لها ، ان جمعاً من قضاعة ومن غسان تجمعوا ، وهمّوا بغزو الحجاز . فسار في ألف انتخبهم ، فلما انتهى الى موضعهم ألفاهم قد تفرقوا أو هربوا ، لم يلق كيداً .[2]

وفي هذه الغزوة وادع رسول الله (عيينة بن حصن) على ان يرعى بـ (تغلمين) وما والاه الى (المراض) .[3]

ويفهم من حديث بعض اهل الاخبار عن (دومة الجندل) ، انها كانت قرية عادية ، الا ان الدهر كان قد لعب بها ، فخربت وقتّل عدد من كان بها ، الى ان نزل بها (أكيدر) ، فأعاد اليها رواءها ، وغرس الزيتون بها ، فتوافد اليها الاعراب . ويذكر هؤلاء ان (أكيدر) ، كان ينزل مع اخوته قبل مجيئه الى (دومة) (دومة الحيرة) ، ولما جاء يزور اخواله من (كلب) ونزل بخرائب (دومة الجندل) أعجبته فنزل بها ، وأمر باعادة بناء ما تهدم من حائطها وبعث الحياة بها حتى صارت قرية عامرة يقصدها الاعراب للبيع والشراء .[4] وصار (اكيدر) يتردد بينها وبين (دومة الحيرة) .[5]

ويحمي (دومة) سور قديم ، بني قبل (اكيدر) في زمان لا يحيط علم اهل الاخبار به . يقولون انه بني من (الجندل) ، وانه هو الذي جعل الناس يسمون الموضع بـ (دومة الجندل) . ويذكرون انه كان في داخل السور حصن منيع يقال له (مارد) ، وهو حصن (اكيدر بن عبد الملك بن الحي بن أعيا ابن الحارث بن معاوية بن خلاده بن ابامه بن سلمة بن شكامة بن شبيب بن السكون بن اشرس بن شور بن عفير ، وهو كندة) فهو سكوني كندي .[6]

١ الطبري (٢/٥٦٤) ، (دار المعارف) ابن عساكر ، التأريخ الكبير (١/١٧) ، ابن خلدون القسم الاول من المجلد الثاني (ص ٧٧٣) ، ابن هشام (٢/٦٦٨) (الطبعة الاوربية) ، شرح المواهب (٣/٣٦٠) ، الكامل (٢/٢٧٠ وما بعدها) .

٢ البلاذري ، أنساب (١/٣٤١) .

٣ نهاية الارب (١٧/١٦٣) ، (غزوة دومة الجندل) .

٤ البلاذري ، فتوح (ص ٢٢٣) (بيروت ١٩٥٧ م) .

٥ البلدان (٢/٦٢٥ وما بعدها) (طهران ١٩٦٥ م) ، (٤/١٠٦) (طبعة ١٩٠٦) .

٦ البلدان (٢/٦٢٥ وما بعدها) (طبعه طهران ١٩٦٥ م) .

وحصن (مارد) ، حصن شهير له ذكر بين اعراب الشمال بُني قبل ايام (اكيدر) . قال عنه بعض اهل الاخبار انه حصن عادي ، اي من الحصون الجاهلية القديمة . وقد رأينا فيما سلف ان (دومة) من المواضع المعروفة التي يعود عهدها الى ما قبل الميلاد . وذكر اهل الاخبار ، ان سكانها كانوا اصحاب نخل وزرع ، يسقون على النواضح ، وحولها عيون قليلة وزرعهم الشعير . وانها (دوماء الجندل) ايضاً .[1]

وكان اكثر سكان (دومة الجندل) من (بني كنانة) من (كلب) . ويعدّها بعض اهل الاخبار من (القريّات) ويقصدون بمصطلح (القريات) : دومة وسكاكة وذو القارة .[2] وتحيط بدومة مستوطنات وقرى تحتمي بسلطان حاكم (دومة) . وكان (اكيدر) يلقب نفسه بلقب (ملك) على عادة ذلك الوقت في تلقيب سادات المواضع انفسهم بهذا اللقب ، وان كان لا يعني في الواقع اكثر مما يعنيه مصطلح (شيخ) في الوقت الحاضر .

وكان اهل (دومة) على النصرانية ، شأنهم في ذلك شأن اكثر اهل القرى في العراق وفي بادية الشام وبلاد الشام . وكان اهل (اكيدر) على هذه الديانة ايضاً . اذ ورد ان الرسول ارسل (عبد الرحمن بن عوف) على رأس جيش الى دومة ، فذهب اليها ودخلها ، وأسلم (الأصبغ) ، وتزوج عبد الرحمن ابنته (تماضر) ، اذ كان الرسول قد كتب اليه ان يتزوج ابنة ملكها ، اي ملك (دومة) ، وهو (الأصبغ) .[3] فيظهر من هذا الخبر ، ان (الأصبغ) كان يلقب نفسه بلقب (ملك) ايضاً ، وأنه كان يحكم (دومة) في ايام الرسول . في نفس الوقت الذي كان فيه (الأكيدر) يحكم (دومة) ، ويلقب نفسه بلقب (ملك) .

---

١ التاريخ الكبير ، لابن عساكر (٨٩/١ وما بعدها) (مطبعة روضة الشأم) ، تاج العروس (٢٩٧/٨) ، (دوم) .

٢ البلدان (٦٢٥/٢ وما بعدها) (طهران ١٩٦٥ م) ، مراصد الاطلاع (٥٤٢/٢ وما بعدها) .

٣ التاريخ الكبير ، لابن عساكر ، (٨٩/١ وما بعدها) ، البكري ، معجم (٥٦٤/٢ وما بعدها) ، المحبر (ص ١٢٠) .

وذكر بعض الأخباريين ان اهــل دومة الجندل كانوا من عُباد الكوفة.[1] ويقصدون بذلك انهم كانوا نصارى، فقد كانت عادتهم اطلاق لفظة (عباد) على النصارى العرب، عرب الحيرة بصورة خاصة. وقصدوا بالكوفة، الحيرة، لأن الكوفة لم تكن موجودة في الجاهلية، اذ بنيت في ايام الخليفة (عمر).

ويظهر من اهل الاخبار ان (اكيدر السكوني) لم يتمكن من تثبيت ملكه على (دومة الجندل) بصورة دائمة، اذ كان ينافسه زعماء كلب الأقوياء. فقد ذكر (محمد بن حبيب) ان ملكها كان بين (اكيدر العبادي ثم السكوني وبين قنافة الكلبي. فكان العباديون اذا غلبوا عليها وليها اكيدر، واذا غلب الغسانيون ولّوها قنافة. وكانت غلبتهم ان الملكين كانا يتحاجيان فأيما ملك غلب صاحبه باخراج ما يلقى عليه، تركه والسوق فصنع فيها ما شاء. ولم يبع بها احد شيئاً الا باذنه حتى يبيع الملك كلما اراد بيعه مع ما يصل اليه من عشورها).[2] ويؤيد هذا الخبر ما ذكرته من وجود ملك آخر على دومة، هو (الأصبغ) الكلبي المتقدم الذكر.

وهناك خبر آخر يفيــد ان (الجودي بن ربيعة)، كان مثل (الاكيدر) رئيساً على (دومة)، وان الإثنين كانا رئيسين عليها.[3] وورد انه كان من غسان وأن اسمه (عدي بن عمرو بن أبي عمرو الغساني)، وأن (عبد الرحمن ابن ابـي بكر)، (كان يختلف الى الشام في تجارة قريش في الجاهلية، فرأى هناك امرأة يقال لها : ابنة الجودي من غسان، فكان يهذي بها، ويذكرهــا كثيراً في شعره)، (وأصيبت حين غزو الروم ليلى ابنة الجودي، فبعثوا بها الى عبد الرحمن بن ابي بكر لذكره اياها).[4] فهو اذن على هــذه الرواية من غسان.

ويظهر من غربلة روايات الاخباريين ان هنالك موضعاً آخر عرف بـ (دومة) و (دوماء). يقع في العراق على مقربة من (عين التمر)، ذكر الاخباريون

---

١ البلاذري، فتوح (٧٤).
٢ المحبر (ص ٢٦٣ وما بعدها)، الازمنة والامكنة (٢/١٦١ وما بعدها).
٣ الكامل (٢/٢٧٠ وما بعدها).
٤ نسب قريش (٢٧٦).

ان اسمه (دومة) و (دوما) و (دومة الجندل) . ونسبوا كما ذكرت قبل قليل بناءه الى (الاكيدر) . وهو موضع لا نعرف من امر تأريخه شيئاً يذكر .

وذكر ان (حارثة بن قطن) ، و (حمل بن سعدانة بن حارثة بن مغفل) ، وهما من (كلب) قدما الي رسول الله وأسلما ، فكتب رسول الله لحارثة كتاباً (لأهل دومة الجندل وما يليها من طوائف كلب مع حارثة بن قطن) ، ثم بين ما على المذكورين من حقوق وواجبات ، وما عليهم من احكام فرضهـا الاسلام على المسلمين .[1]

وترك (خالد) (دومة الجنـدل) ، ثم اتى (قصم) ، فصالحه (بنو مشجعة بن التيم بن النمر بن وبرة بن ثعلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة) ، وكتب لهم اماناً . ثم اتى (تدمر) ، فأمنهم ، ثم اتى (القريتين) ، ثم (حوارين) من (سنير) ، ثم اتى (مرج راهط) ، فأغار على (غسان) .[2]

وكان (حاضر) (قنسرين) لتنوخ ، من اول ما تنخوا بالشام ، نزلوه وهم في خيم الشعر . ثم ابتنوا به المنازل . فدعاهم (ابو عبيدة) الى الاسلام ، فأسلم بعضهم وأقام على النصرانية (بنو سليح) . وكان بهذا الحاضر قوم من (طيء) ، نزلوه بعد حرب الفساد التي كانت بينهم حين نزلوا الجبلين . فلما ورد (ابو عبيدة) عليهم اسلم بعضهم وصالـح كثير منهم على الجزية ، ثم اسلموا بعد ذلك .[3]

وقضاعة قبائل عديدة ، منها (بنو جرم بن ربّان) و (بنو سليح) و (تزيد) ابنا (عمران بن الحاف بن قضاعة) و (كلب بن وبرة) ، وهو قبيل عظيم . منهم (الأسبع) ، ومن قبائل قضاعة (عذرة بن زيد اللآت) و (العبيد بن زيد اللآت) ، و (بنـو كنانة) ، و (بنو جناب بن هبل) ، و (بنو عليم بن جناب) ، و (بنو مصاد) ، و (بنو حصن) ، و (بنو معقل) . ومن (بني جناب) (بحدل بن أنيف) ، جدّ (يزيد بن معاوية) لأمه . ومن رجالهم (ابن الجلاّح) ، وكان قائداً للحارث بن ابي شمر الجفني ،

---

١ نهاية الارب (١٨/٩٣ وما بعدها) .
٢ البلاذري ، فتوح (١١٨ وما بعدها) ، الطبري (٣/٤١٧) ، تأريخ خليفة (١/٨٧) .
٣ البلاذري ، فتوح (١٥١) .

واسمه (النعمان) . وهو الذي اغـــار على (بني فزارة) و (بني ذبيان) ، فاستباحهم وسبى (عقرب) بنت النابغة ، ومَنّ عليها ، فمدحه (النابغة) . [1]

وقد انتشرت بطون (كلب) في ارضين واسعة ، شملت دومة الجندل وبادية السماوة والاقسام الشرقية من بلاد الشام . ولما أُخرج الروم عن ديار الشام ، لعبت بطون كلب دوراً بارزاً في السياسة ، اذ أيدت الامويين ، وتزوّج (معاوية) (ميسون) أم (يزيد) وهي كلبية ، فصارت كلب في جانب الامويين .

ومن قبائل (قضاعة) ، (بنو عامر الاجدار) . ومن رجال (بني وبرة) غير كلب ، (بنو القيس بن جسر) ، و (بنو مصاد بن مذعور) و (بنو زهير بن عمرر بن فهم) . ومن قبـــائل (جرم بن ربان) : (بنو اعجب) و (بنو طرود) و (بنو شميس) . ومن بطون (جرم) : (بنو خشين) ، ومن رجالهم (رأس الحجر) ، وقد رأس في الجاهلية وأخذ المرباع . ومن رجال (جرم) ، (عصام بن شهبر) ، حاجب النعمان . وكان النعمان اذا اراد ان يبعث بألف فارس بعث بعصام . [2]

وقد ذهب وفد من (جرم) الى المدينة ، فيه (الاصقع بن شريح بن صريم) و (هوذة بن عمرو) ، فأسلما ، وكتب الرسول لهما كتاباً . [3] وذهب وفد آخر ، اخبر الرسول باسلام حواء من جرم ، كان عليه (سلمة بن قيس الجرميّ) ومعه ابنه (ابو زيد عمرو بن سلمة بن قيس الجرمي) . [4]

وقد ساعد الغساسنة الروم في حروبهم مع المسلمين ، وكان على رأسهم (جبلة ابن الايهم الغساني) ، الذي حارب مع مقدمة جيش الروم في مستعربة الشام من غسان ولخم وجذام وغيرهم يوم اليرموك . ثم انحاز (جبلة) الى المسلمين ، وأظهر الاسلام ، ثم عاد ، ففرّ الى بلاد الروم ، واستقر بها ، وبها مات . [5] وقد استمر (المستعربة) يناصرون الروم ، فلما تراجع قوادهم نحو الشمال لضغط

---

١ الاشتقاق (٣١٣ وما بعدها) .

٢ (عصام بن شهبر الجرمى ، حاجب النعمان بن المنذر ملك العرب . ومنه قولهـــم : ما وراءك يا عصام ؟ يعنون به اياه) ، تاج العروس (٨/٣٩٩) ، (عصم) .

٣ ابن سعد ، طبقات (١/٣٣٥) ، (الاسقع) ، نهاية الارب (١٨/ ٩٤ وما بعدها) .

٤ ابن سعد ، طبقات (١/٣٣٦ وما بعدها) .

٥ البلاذري ، فتوح (١٤٠ وما بعدها) . (٢) البلاذري ، فتوح (١٦٩) .

المسلمين عليهم ، التحق بهم هؤلاء (المستعربة) من غسان وتنوخ وإياد ، وقد التحموا بالمسلمين في (درب بغراس) [1] .

ويذكر الأخباريون ان (دمشق) كانت منازل ملوك غسان . وبها آثار لآل جفنة . والظاهر ، انهم كانوا قد اشتروا وابتنوا بها قصوراً ، عاشوا فيها ، ومنها كانوا يتصلون بكبار الموظفين الحاكمين البيزنطيين . فإذا أرادوا الاتصال بقومهم الغساسنة عادوا الى قصورهم بين قومهم . وكانت الغوطة : غوطة دمشق من المناطق التي سكن بها الغساسنة [2] .

ويظهر من رواية يرجع سندها الى (محمد بن بُكير الغساني) عن قومه (غسان) ان الغساسنة لم يقبلوا على الاسلام إقبال غيرهم من العرب ، وانهم لم يسلموا إلا بعد فتوح الشأم . ولما ذهب ثلاثة نفر منهم الى المدينة ، وأسلموا وبايعوا الرسول ، لم يستجب قومهم لهم في دعوتهم الى الاسلام ، فكتموا أمرهم عنهم ، خوفاً من بطش قومهم بهم [3] .

وورد في أخبار الرسل الذين أرسلهم الرسول الى الملوك يدعوهم الى الاسلام ، ان الرسول أرسل (شجاع بن وهب) الى (الحارث بن أبي شمر الغسانيّ) من غسان ، وكان يقيم إذْ ذاك بغوطة دمشق في قصر منيف ، ليدعوه الى الاسلام ، فلما دفع (شجاع) كتاب رسول الله الى (الحارث) رمى به ، ولم يدخل في الاسلام وبقي على النصرانية حتّى توفي عام الفتح [4] .

وكان (جبلة) مع الروم يوم (اليرموك) ومعه (المستعربة) من غسّان وقضاعة وذلك سنة (١٥) للهجرة ، وكان قد انضم الى المسلمين بعض لخم وجذام ، فلما وجدوا جدّ القتال فرّوا ونجوا الى ما كان قربهم من القرى وخذلوا المسلمين [5] .

وقد كان (جبلة بن الأيهم) على رأس (العرب المتنصرة) يحارب مع

١ البلاذري ، فتوح (١٦٩) .
٢ ابن رستة ، الاعلاق (٣٢٦) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٣٣٨ وما بعدها) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦١) ، نهاية الارب (١٨/١٦٥) .
٥ الطبري (٣/٥٧٠ وما بعدها) .

الروم ، لمنع المسلمين من التقدم نحو (قنسرين) ، ويذكر أهـل الأخبار ان محاورات جرت بينه وبين المسلمين في موضوع اشتراكه مع الروم ، ومنها محاورات مع (خالد بن الوليد) صاغوها باسلوب قصصي منمق ، وذكروا انه كان جالساً (على كرمي من ذهب أحمر وعليه ثياب الديباج الرومي وعلى رأسـه شبكة من اللؤلؤ وفي عنقه صليب من الياقوت)[1] . وكان ذلك بعد ارتداده عن الاسلام[2] ، فلما غلب الروم ، (كان جبلة أول من انهزم والعرب المتنصرة أثره)[3] .

ومن الغساسنة (شرحبيل بن عمرو الغساني) ، الذي قتل رسولَ رسول الله (الحارث بن عمير الأزدي) ، الذي كان الرسول قد بعثه الى ملك (بصرى) . فلما نزل (مؤتة) قتله (شرحبيل) . فأمر رسول الله بارسال حملة عليه ، سنة ثمان للهجرة جعل أميرها (زيد بن حارثة) . ولما سمع بها (شرحبيل) جمع جمعاً من قومه وتقدم نحوهم ، وكانوا قد نزلوا (معان) . وبلغ المسلمين ان (هرقل) كان قد نزل (مآب) من أرض البلقاء في جمع من بهراء ووائـل وبكر ولخم وجذام والقين ، عليهم (مالك بن رافلة) الأراشي من (بلي) ، فانحازوا الى (مشارف) ، ولما دنا العدو انحازوا الى (مؤتة) ، وقتل فيهـا فيهـا (جعفر بن أبي طالب) ، و (عبد الله بن رواحـة) و (ثابت بن رواحة) و (ثابت بن أرقم) ، ثم (زيد بن حارثـة) ، ثم تراجعوا الى المدينة . وقتل من العرب الذين كانوا مع الروم (مالك بن رافلة) (زافلة)[4] . واعتزل بعض (حدَس) وهم (بنو غنم) الحرب ، لاشارة كاهنتهم عليهم بذلك ، فأخذوا بقولها ، فاعتزلوا عن (بني لخم) وصلم الحرب بعض منهم ، وهم (بنو ثعلبة)[5] .

وكان بقرب (حلب) حاضر ، عرف بـ (حاضر حلب) ، جمع أصنافاً من العرب من تنوخ ، فصالحهم (أبو عبيدة) على الجزية[6] . ويرجع هـذا

---

١ الواقدي ، فتوح الشام (١٠٦/١) ، (ذكر فتح قنسرين) .
٢ الواقدي (١١٠/١) .
٣ الواقدي (١١٤/١) .
٤ نهاية الأرب (٢٧٧/١٧) ، (سرية مؤتة) .
٥ الطبري (٤١/٣) ، ذكر الخبر عن غزوة مؤتة) .
٦ البلاذري ، فتوح (١٥١) .

الحاضر الى أيام الجاهلية ، فقد كان العرب قد توغلوا الى هذه الديار قبل ظهور الاسلام ، وأقاموا في الحواضر بظواهر المدن يتعيشون من اتصالهم بأهل تلك المدن .

ولم تكن الرابطة الدينية التي ربطت بين أكثر عرب بلاد الشأم والبيزنطيين ، هي العامل الوحيد الذي جعل أولئك العرب ينضمون الى صفوف الروم في الدفاع عنهم وفي مقاومة جيوش المسلمين ، بل كانت هنالك عوامل أخرى ، مثل المنافع المادية التي كان يجنيها سادات الأعراب من البيزنطيين ، حيث كانوا ينالون هدايا ورواتب منهم في مقابل حماية الحدود والمحافظة عليها من غارات الأعراب وفي مقابل الغارات التي كان البيزنطيون يكلفونهم بها لغزو حدود العراق لازعاج أعدائهم الفرس وقت الحاجة والضرورة ، ومثل التسهيلات التي كانوا ينالونها من البيزنطيين في الإتجار مع مدن الشأم وفي معاملات البيع والشراء والرواتب السخية التي تدفع للأعراب إذا خدموا في صفوف العساكر المتطوعة ، وهي رواتب سخية إذا قيست بالنسبة لحالة أهل البادية المنخفضة من الناحية المادية كثيراً بالنسبة الى حالة سكان بلاد الشأم .

وكان (الحيار) : (حيار بني القعقاع) بلداً معروفاً قبل الاسلام . وبه كان مقيل (المنذر بن ماء السماء) اللخمي ، ملك الحيرة . فنزله (بنو القعقاع) من (عبس بن بغيض) [1] .

وكانت البلقاء في أيدي قبائل من العرب مثل لخم وجذام وبلقين وبهراء وبليّ ، وهي قبائل يطلق عليها المؤرخون اسم (المستعربة) [2] . وكانوا على النصرانية في الغالب ، لذلك كان هواهم الى جانب الروم . فكانوا معهم في غزوة (مؤتة) يقاتلون مع (هرقل) ضد المسلمين وعليهم (مالك بن رافلة) وهو من (بليّ) ثم أحد إراشة . وكان المسلمون إذْ ذاك في (معان) . وهي من أعمال البلقاء يستعدون للروم [3] . وكان صاحب هذه المدينة في أيام الرسول رجلاً من (جذام) ، هو (فروة بن عمرو الجُذاميّ) . وكان عاملاً للروم على من

---

١ البلاذري ، فتوح (١٥١ وما بعدها) .
٢ الطبري (٣/٣٧) (دار المعارف) .
٣ ابن الاثير (٢/٩٧) ، الطبري (٣/١٠٨) ، (غزوة مؤتة) ، البلدان (٨/٩٣) ، (معـــان) .

يليهم من العرب ، ومنزله بمعان . فلما أرسل فروة رسولاً عنه الى الرسول يبلغه بإسلامه ، قبض الروم عليه وحبسوه ، ثم ضربوا عنقه وصلبوه[1] .

ومن (لخم) (بنو الدار بن هانىء) . وقد قدم وفد منهم على رسول الله منصرفه من (تبوك) ، فيه : (تميم بن أوس بن خارجة الداريّ) و (نعيم ابن أوس بن خارجة) ، و (يزيد بن قيس بن خارجة) ، و (الفاكه بن النعمان بن جبلة بن صفارة) ، و (جبلة بن مالك بن صفارة) ، و (أبو هند) و (الطيب) إبنا (ذر) . وهو (عبد الله بن رزين بن عِميّت بن ربيعة درّاع) ، و (هانىء بن حبيب) و (عزيز) و (مُرّة) إبنا (مالك بن سواد بن جذيمة) ، فأسلموا ، وأهدى (هانىء بن حبيب) لرسول الله ، راوية خمر وأفراساً وقباءاً مخوصاً بالذهب . فقبل الأفراس والقباء . وقال تميم : لنا جيرة من الروم لهم قريتان يقال لإحداهما (حِبرى) والأخرى (بيت عينون) ، فإن فتح الله عليك الشأم فهبهما لي . فوهبهما رسول الله له . فلما توفي الرسول وقام أبو بكر أعطاه ذلك وكتب له كتاباً[2] .

ولما أمر الرسول (أسامة بن زيد بن حارثة) ان يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، تجهز معه المهاجرون الأولون ، ولكن وفاة الرسول لم تمكنه من السفر ، فكان أول ما فعله خليفته (أبو بكر) ان أمره بتنفيذ ما أمره به رسول الله[3] . ولكنه لم يتقدم كثيراً ، بل بلغ الموضع الذي قتل أبوه زيد بن حارثة فيه ، وهو من أرض الشأم فرجع ، لأن الرسول أمره في حياته بالمسير اليه[4] .

و (الداروم) قلعة بعد غزة للقاصد الى مصر . يجاورها عربان بني ثعلبة بن سلامان بن ثعل من بني طيء . وهم درماء وزريق[5] .

١ ابن الاثير (٢/١٢٤) ، البكري (٤/١٢٤٢) (معان) ، ابن سعد ، طبقات (١/٢٦١ وما بعدها) .

٢ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤٣ وما بعدها) .

٣ الطبري (٣/١٨٤ وما بعدها) ، (ثم دخلت سنة احدى عشرة) .

٤ الطبري (٣/٢٤١) ، نهاية الارب (١٧/٣٧٠) .

٥ تاج العروس (٨/٢٨٨) ، (درم) .

وكانت (جذام) نازلة في (حسمى) عند ظهور الإسلام. وهي من مواطن (ثمود) . و (جُذام) من نسل (جذام) شقيق (عاملة) و (لخم) أبناء (عدي بن الحارث بن مرّة بن كهلان) . واسم (جذام) الحقيقي في رأيهم (عمرو) [1] . وتقع أرض جذام في الأقسام الجنوبية من بلاد الشأم ، وتصل الى (أيلة) ثم تمتد مع الساحل حتّى تبلغ (ينبع) [2] .

ويرجع بعض النسابين نسب ُجذام الى اليمن ، ويرجعها بعض آخر الى مضر ، وتوسط قوم فقالوا إنهم كانوا من مضر في الأصل ، ثم غادروا ديار مضر ، فذهبوا الى اليمن ، وعاشوا بين قبائل قحطان ، فنسوا أصلهم بتقادم العهد ، وعُدّوا في القحطانيين . ويظهر ان هذا الرأي هو محاولة للتوفيق بين الرأيين السابقين . أما الذي عليه غالبية جُذام ، فهو انها من قحطان [3] .

وقد وفد رجال من (جذام) على رسول الله ، منهم (رفاعة بن زيد بن عمير بن معبد الجُذامي) ثم أحد (بني الضبيب) ، فأسلم وكتب الرسول له كتاباً . أما (فروة بن عمرو بن النافرة) الجُذامي ، فقد كان كما سبق ان ذكرت عاملاً الروم على ما يليهم من العرب ، وكان منزله (معان) وما حولها أو على (عمان) ، فلما بلغهم انه كاتب الرسول وانه أسلم أخذوه فحبسوه ، ثم ضربوا عنقه [4] . ويذكر أهل الأخبار ان (فروة) كتب الى الرسول كتاباً أرسله مع (مسعود بن سعد) ، وبعث اليه ببغلة وفرس وحمار ، وأثواب لين ، وقباء سندس مخوص بالذهب [5] . وان الرسول كتب الى فروة جواب كتابه . ويذكر أهل الأخبار ان الروم لما قبضوا على (فروة) ، قال شعراً يذكر فيه

١ البلدان (٣/٢٧٦) ، الاشتقاق (٢٢٥) ، المعارف (ص ٥٠) .

٢ صفة (١٢٩) .

٣ (وجذام قبيلة من اليمن تنزل بجبال حسمى ، وراء وادي القرى . وهو لعب عمرو ابن عدي بن الحرث بن مرة بن أدد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان . وهو أخو لخم وعاملة وعفير . ويقال اسم جذام عوف وقيل عامر . والاول أصح . ونزعم نساب مضر أنهم من معد بن عدنان) ، (وانما سمي جذام جذاما ، لان أخاه لخما وكان اسمه مالكا، اقتتل واياه، فجذم اصبع عمرو. فسمي جذاما. ولخم عمرو مالكا فسمي لخما) ، تاج العروس (٨/٣٢٣) ، (جذم) .

٤ طبقات ابن سعد (١/٣٥٤ وما بعدها) .

٥ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨١) .

نفسه والرسول ، وقال مثل ذلك لما نقله الروم الى موضع يقع على ماء لهم بفلسطين اسمه (عفراء) ، فلما أرادوا ضرب عنقه ، قال بيتاً من الشعر في إسلامه وفي إيمانه [١] .

وقد انتشرت النصرانية بين كلب ، كما انتشرت بين أكثر القبائل النازلة بديار الشأم . والظاهر انها كانت على مذهب القائلين بالطبيعة الواحدة (Monophysitles) [٢] .

وفي جوار (الحجر) وفي شرق (حرة ليلى) ، أقامت بنو عذرة ، وهي من قبائل قضاعة ، وتنسب الى (عُذرة بن سعد بن هُذيم بن زيد بن ليث بن أسلم بن الحاف بن قضاعة) [٣] . ولا نعلم من تأريخ هذه القبيلة في الجاهلية شيئاً يذكر . ولم يرد اسمها كثيراً في الأيام ، والظاهر ان ذلك لقلّة شعرائها ، فإن شعر الشعراء هو الذي خلد أسماء القبائل عند الأخباريين . ويظن انها قبيلة (Adritai) (Adraetai) التي ذكرها (بطلميوس) [٤] .

أما ديار هذه القبيلة ، فكانت في وادي القرى وتبوك . ولكنها امتدت حتّى بلغت قرب أيلة ه ويذكر الأخباريون ان هذه القبيلة هاجرت مع من هاجر من قبائل قضاعة بعد حربها مع حمير ، فنزلت في هذه الديار [٥] . وتعاهدت مع قوم من يهود على مجاورتهم ، والا تتحرش بهم وبنخيلهم وبساتينهم . وتجاور ديار عذرة ديار قبائل أخرى من قضاعة مثل نهد وجهينة وبليّ وكلب ، كما جاورت من الشمال قبيلة غطفان [٦] .

ولعذرة حلف مع عدد من بطون سعد هذيم ، مثل بني ضنة ، ويعدهم النسابون بطناً من عذرة ، وكذلك مع بني سلامان . وقد عرفوا بصحار . وكان لهم حلف مع جهينة ، ويرجع الأخباريون عهد هذا الحلف الى أيام حرب قضاعة ، وهي الحرب المساة بـ (حرب القريض) [٧] .

---

١ نهاية الارب (١٨/٢٩) .
٢ Ency., II, P. 689.
٣ Ency., II, P. 989.
٤ Sprenger, Geographie, S., 205, 333.
٥ البكري (١٨ ، ٢٢ ، ٢٧) ، الاغاني (١٦/١٦١) .
٦ Ency., IV, P. 988.
٧ البلدان (٣/٣٦٨) ، وهم أبناء (صحار) ، الاشتقاق (٣٢٠) ، Ency., IV, P. 988.

وهنالك جملة قبائل ذكر الأخباريون أربعاً أو خمساً قالوا انهـا كانت تعرف بـ (عذرة) [1] . وقد سبب تعدد هذه الأسماء للنسابين بعض التشويش .

ويظهر من روايات الأخباريين انه كان لهذه القبيلة صلة بقريش ، فزعموا ان أم (قصي) تزوجت رجلاً من (بني عذرة) ، وان أخاه من أمه (رزاح ابن ربيعة بن حرام) اشترك مع قريش في الدفاع عن الكعبة وفي طرد خزاعـة عنها . ورووا أيضاً انه كان لها صلة بالأوس والخزرج كذلك ، لأن أم القبيلتين ، وهي (قيلة بنت كاهل أو بنت هالك) ، كانت من هذه القبيلة [2] .

ولما قدم وفد (عذرة) على الرسول في صفر سنة تسع ، وفيه (حمزة بن النعمان العذري) و (سليم) و (سعد) ابنا مالك ، و (مالك بن أبي رباح) ، سلّموا على الرسول (بسلام أهل الجاهلية ، وقالوا : نحن إخوة قصي لأمه ، ونحن الذين أزاحوا خزاعة وبني بكر عن مكة ، ولنا قرابات وأرحام) . وكان من رجال عذرة الذين وفدوا على الرسول : (زمل بن عمرو العذري) [3] .

وذكر (ابن سعد) ان الرسول كتب الى (عـذرة) في (عَسيب) ، وبعث به مع رجل من (بني عذرة) ، فعدا عليه (ورد بن مرداس) أحد (بني سعد هذيم) ، فكسر العسيب وأسلم واستشهد مع (زيد بن حارثة) في غزوة وادي القرى أو غزوة القردة [4] .

وكانت مواطنها عند ظهور الاسلام في منطقة مهمة جداً تقع بين الحجاز وبلاد الشأم ومصر ، فتمتد من منازل (كلب) في الشمال حتى منطقة المدينة . وكانت بطونهـا منتشرة في (وادي القرى) وحول (تبوك) وعنـد (أيلة) وفي طور سيناء . ولمرور طريق القوافل منها ، تولى رجالها حراستها وجبايـة رسوم المرور منها . ولما رأى بعض المستشرقين انها تقطن منطقة كان يسكنها (أهـل

١ محمد بن حبيب ، مختلف القبائل (ص ٣٧) ، (طبعة وستنفلد) ، Ency., IV, P. 289.

٢ Ency., IV, P. 989, Wustenfeld, Genealo, I, 24.

٣ ابن سعد ، طبقات (١/٣٣١ وما بعدها) .

٤ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٤) .

مديـن) وكذلك النبط ، ذهبوا الى انهـا من نسل (مديـن) أو من بقايا (النبط)[1] .

ومن المستشرقين من يرى ان (بني النضير) هم فرع من جُذام ، دخلوا في دين يهود ، ودليلهم على ذلك انتشار اليهودية بين بعض بطون جذام التي تقع منازلها على مقربة من (يثرب) . وكانت النصرانية قد وجدت لها سبيلاً بين جذام ، وذلك باتصالها ببلاد الشأم ومصر . وقد كانت مـع (المستعربة) أي النصارى العرب ، تحارب المسلمين مع الروم في حروب بلاد الشأم[2] .

وفي أرض جـذام موضع يقـال له (السلاسـل) ، وقعت غزوة عرفت بـ (ذات السلاسل) . وقد قام بها (عمرو بن العاص) ، وكان الرسول قد بعثه الى أرض (بليّ) و (عذرة) يستنفر الناس الى الشأم[3] .

ومن جذام (رفاعة بن زيد الجذامي) ثم (الضُبيبي) ، وكان قـد قدم الى الرسول فأسلم ، وكتب الرسول له كتاباً ، وذهب الى قومه ، ونزل الحرة : حرة الرجلاء[4] . و (ضبيب) بطن من جُذام . ولما أغار (الهُنيد بن عوص) ، وهو من (الضليع) ، بطن من جُذام على (دحية بن خليفة الكلبي) ، حين قدومه من بلاد الشأم ، وكان رسول الله بعثه الى (قيصر) صاحب الروم ومعه تجارة له ، فأصاب كل شيء كان مع (دحية) نَفَرَ (رفاعةُ) وقومه ممن أسلم ، الى (الهنيد) ، فاستنقذوا ما كان في يده ، فردّوه على (دحية) . وكان المعتدون يقيمون بحسمى[5] .

ومن (جـذام) (زنباع بن روح بن سلامـة بن حُداد بن حديدة) ، وكان عشّاراً ، مرّ به (عمر بن الخطاب) في الجاهليـة تاجراً الى الشأم ، فأساء اليه في اجتيازه وأخذ مكسه ، فقال (عمر) فيه شعراً يتوعده ويهجوه ، فبلغ ذلك (زنباعا) فهجز جيشاً لغزو مكة ، فنهي عن ذلك وأشير عليه بعدم تمكنه منها ، فكَفّ عنها[6] .

١ Ency., I, P. 1058.
٢ Ency., I, P. 1058.
٣ الطبري (٣/٣٢) .
٤ الطبري (٣/١٤٠) ، (قدوم رفاعة بن زيد الجذامي) .
٥ نهاية الارب (١٧/٢٠٧) .
٦ بلوغ الارب (١/٣٦١ وما بعدها) ، الاشتقاق (٢٢٥) .

وكانت (أيلة) في ايام الرسول ، في ايدي (يوحنا بن رؤبة) (يحنة بن رؤبة) . ولما سمع (يوحنا) بمجيء الرسول مع جيش الى (تبوك) ، جاء اليه ، وصالحه على الجزية ، وصالحه اهل (جرباء) و (اذرح) على الجزية ايضاً . كما صالح اهل (مقنا) على ربع كروعهم وغزولهم وحلقتهم وعلى ربع ثمارهم ، وكانوا يهوداً .[١] وقد دوّن (ابن سعد) صورة كتاب ذكر ان الرسول كتبه لـ (يحنة بن رؤبة) (يحنة بن ربّة) وأهل ايلة (لسفنهم وسيارتهم في البر والبحر ... ولمن كان معهم من اهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر) .[٢]

وأورد (ابن سعد) نص كتاب ارسله الرسول الى (يوحنا بن رؤبة) (يحنة ابن ربّة) و (سَرَوات) اهل ايلة : جاء فيه ان رسول الله قد ارسل اليه رسلاً هم : (شرحبيل) و (ابيّ) و (حرملة) ، و (حريث بن زيد الطائي) . و (أن حرملة) قد شفع له ولأهل ايلة لدى الرسول وأن عليه ان يكسو (زيداً) كسوة حسنة . وأنه قد اوصى رسله بهم . ويظهر من هذا الكتاب ، ان حامله كان (زيداً) ، وجاء فيه (وجهزوا اهل مقنا الى ارضهم) .[٣]

وكتب الرسول كتباً الى اهل (اذرح) و (جربا) ولأهل مقنا ، وذكر ان اهل مقنا ، كانوا يهوداً على ساحل البحر . وأهل جربا واذرح يهود ايضاً .[٤]

اما (كلب) التي كانت ديارها تتاخم ديار جذام ، فينسبها النسابون الى (كلب بن وبرة) ، وهي من القبائل التي كانت تنزل ديار الشام عند ظهور الاسلام . غير اننا لا نعرف من تأريخها شيئاً يذكر قبل الاسلام .[٥]

وتتصل بديار كلب من الشرق ارض الحيرة وديار (بني بكر) ، ومن الجنوب ديار طيء ، ومن الغرب ديار (بنو بليّ) و (جذام) ، ومن الشمال (بنو بهراء) وقبائل غسان .

ويرجع نسب (كلب) في عرف النسّابين الى قبائل (قضاعة) . ومن كلب

١ الطبري (٣/١٠٨) ، البلاذري ، فتوح (٧١) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٩) ، نهاية الارب (١٧/٣٥٧) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٨) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/٢٩ وما بعدها) .
٥ Ency., II, P. 688.

الأسبع : وهي بطون ثعلب وفهد ودب والسيد والسرحان وبرك . ومن قبائلها : ثور وكلب ورفيدة وعوذي وعرينة وقبائل اخرى يذكرها النسابون .[1]

وينسب الى هـذه القبيلة (زهير بن جناب الكلبي) ، وهو في جملة من يذكرهم الاخباريون من المعمرين . ويذكرون انه كان رئيساً من رؤساء هذه القبيلة ، وأنه كان شاعراً ، وأنه كان في ايام (كليب وائل) و (المهلهل بن ربيعة) ، ومعنى ذلك انه عاش في القرن السادس للميلاد .[2]

وقد ذكر الاخباريون اسماء رجال برزوا في الجاهلية ، ينتمون الى بطون هذه القبيلة ، منهم (هوذة بن عمرو) ، نعتوه بـ (رب الحجاز) ،[3] وهذا النعت يدل على منزلة الرجل ومكانته التي كان عليها قبل الاسلام . وهو من (حَرْدش) وقد مدحه (النابغة الذبياني) . وقد نسب الاخباريون هوذة الى (عص) او (عيثر بن لبيد) ، وهو في زعمهم من المعمرين في الجاهلية .[4]

وقد وفد رجل من (كلب) على الرسول اسمـه (عبد عمرو بن جبلة بن وائل بن الجلّاح الكلبي) ، ومعه (عاصم) ، من (بني وقاش) من (بني عامر) ، فأسلما . ووفد (حارثة بن قطن بن زائر بن حصن بن كعب بن عليم الكلْبي) و (حمل بن سعدانة بن حارثة بن مغفل بن كعب بن عليم) ، فأسلما . وكتب الحارثة بن قطن ، كتاباً ، لأهل دومة الجندل وما يليها من طوائف كلب ، دوّن فيه أوامره لهم ونواهيه وشروطه ان ارادوا الدخول في الاسلام .[5]

وأورد (ابن سعد) صورة كتاب ، ذكر ان الرسول كتبه (لبني جناب) من كلب وأحلافهم ومن ظاهرهم . وقد بين فيه الامور التي يجب عليهم مراعاتها من حقوق وأحكام . وأشهد عليه فيه : سعد بن عبادة ، وعبد الله بن انيس ، ودحية الكلبي .[6]

---

١ الاشتقاق (ص ٣١٤ وما بعدها) .
٢ الاشتقاق (ص ٢٠٤) . Ency., IV, P. 1237.
٣ الاشتقاق (٣٢٠) .
٤ الاشتقاق (٣٢٠) . Ency., IV, P. 989.
٥ ابن سعد ، طبقات (١/٣٣٤ وما بعدها) .
٦ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٦) .

ولعذرة عدة بطون ، منها : بنو الجلحاء ، وبنو جلهمة ، وبنو زقزقة ، وبنو ضنة ، وبنو حردش ، وبنو حنّ ، وبنو مدلج .[1] ويظهر من ابيات للشاعر النابغة ان (النعمان بن حارث الغساني) لما هم بغزوّ (بني حنّ) في موضعهم بـ (برقة صادر) ، نهاه عن ذلك ، غير انه لم ينته ، فاصيب غزوه بهزيمة .[2] وحنّ ، هم الذين قتلوا (الجلاس بن وهب بن قيس بن عبيد) من طيء ، في الحجر . وكان الجلاس ممن اجتمعت عليه جديلة طيء .[3]

وتبوك هي من جملة مواضع بني عـذرة ، وهي موضع (Thapaua) الذي ذكره (بطلميوس) ،[4] ولا نعرف من امرها قبل الاسلام شيئاً يذكر . وقد ذكرت في الفتوح ، اذ وصل الرسول اليها ، وصل الرسول ، وصالح اهلها على الجزية ، مما يدل على ان سكانها كانوا من اهل الكتاب .[5]

وكان غزو الرسول لها سنة تُسع للهجرة ، اذ بلغه ان الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام ، وانهم قد جمعوا اليهم جمعاً من لخم وجذام وعاملة وغسان وقدموا مقدماتهم الى البلقاء ، فأراد الرسول مباغتتهم قبل ان يباغتوه ، فلما وصل اليها ، وجد ان الروم بعيدون عنه فرجع .[6]

ويذكر اهل الاخبار ان (بني عذرة) نصروا قصيّاً وساعدوه ، لوجود صلة له بهم . ويظهر انه قد كان عند القدامى من (بني عُذرة) كتاب في اخبارهم كانوا يرجعون اليه اذا احتاجوا الى الوقوف على خبر يخص هذه القبيلة . فقد ذكر (ابو عمرو بن حريث العذري) ، انه رجع الى كتاب من كتب آبائه في امر (وفد عذرة) الذي ذهب الى الرسول .[7]

---

١ الاشتقاق (٣٢٠) ، Ency., IV, P. 989

٢ الاشتقاق (٣٢٠) ، البلدان (١٤٣/٢) .

٣ البلدان (٧٤/٧) ، (قرى) .

٤ Ptolemy, Geography, VI, 7, 27.

٥ البلدان (٨٢٤/١) ، ابن هشام (٩٠٢) ، الطبري (١٦٩٢/١) ، غزوة تبوك ، فتوح البلدان (٥٩) ، شمال الحجاز ، تأليف الويس موسل ، ترجمة : الدكتور عبد المحسن الحسيني ، سنة ١٩٥٢ م ، (ص ١٤٠ وما بعدها) .

٦ نهاية الارب (٣٥٢/١٧ وما بعدها) .

٨ (عن أبي عمرو بن حريث العذري قال : وجدت في كتاب آبائي ، قالوا...) ، ابن سعد ، طبقات (٣٣١/١) .

وتقع ديار (غطفان) جنوب (طيء) ، وشمال (هوازن) و (خيبر) والى الغرب من بليّ وديار سعد . وهم من القبائل الكبيرة التي يرجع النسابون نسبها الى (سعد بن قيس بن مضر) . فهي من القبائل المضرية في اصطلاح أهل الأنساب . وهم قبائل : منهم : ريث وبغيض وأشجع ، ومن بغيض ذبيان ، وهو والد عبس ، وانما أجداد قبائل كبيرة[1] . وتقع ديار أشجع على مقربة من المدينة ، وأما ديار (بغيض) فتقع عند شربة والربذة ، وتجاورها (خصفة بن قيس عيلان) ، وسليم الذين تقع ديارهم في جنوبهم .

ومن رجال (أشجع) (مسعود بن رخيلة بن نويرة بن طريف) ، وقد وفد على الرسول على رأس وفد قوامه مئة رجل ، وادّعوا رسول الله ، ثم أسلموا[2] .

وقد كانت بين (غطفان) وبين (بني عامر بن صعصعة) وهم بطن من هوازن حوادث وأيّام . من ذلك (يوم النفراوات) ، وفيه قتل خالد بن جعفر ابن كلاب العامري زهير بن جذيمة سيد عبس . وكانت هوازن تخضع لزهير . وتقدم له الإتاوة كل سنة في سوق عكاظ . فلما استبد بهم زهير ، ولم يرع لهم حرمة ، ولم ينصفهم ، نقموا عليه . وأقسم جعفر ليقتلنه ، وقد وفى بقسمه في يوم (النفراوات) .[3]

وقد غزا الرسول قوماً من (غطفان) ، هم من (بني محارب) و (بني ثعلبة) ، حتّى نزل نخلاً فلقي جمعاً من (غطفان) ، ولم تقع بينهم حرب ، وعرفت الغزوة بـ (غزوة ذات الرقاع)[4] . وكانت هذه الغزوة في أول السنة الثالثة من الهجرة . وعرفت أيضاً بـ (غزوة ذي أمر) ناحيــة (النخيل) . وكان قد جمعهم رجل يقال له : (دعثور بن الحارث) من (بني محارب) ، وهم من الأعراب ، فلما وصل الرسول اليهم ، هربوا في رؤوس الجبال ، ثم

١ الاشتقاق (١٦٤ وما بعدها) ، ابن حزم ، جمهرة (ص ٢٣٧ وما بعدها) ، Ency., II, P. 144.

٢ نهاية الارب (٢٢/١٨) .

٣ العقد الفريد (٣٠٤/٣) ، الاغاني (١٠/١٠) .

٤ الطبري (٥٥٥/٢ وما بعدها) .

أسلم (دعثور) ودعى قومه الى الاسلام[1] .

وقـد تجمع جمع من غطفان بالجناب ، وأرادوا مباغتة المسلمين ، فوصلت الأنباء بذلك الى الرسول ، فأرسل سرية عليهم فلت ذلك الجمع[2] .

وقد استجابت (غطفان) لدعوة سادات (بني النضير) أمثال : (سلام ابن أبي الحقيق) ، و (حيي بن أخطب) و (كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق) ، ودعوة نفر من (بني وائل) ، فيهم (هوذة بن قيس الوائلي) و (أبو عمار الوائلي) ، ولزعماء مكة وعلى رأسهم (أبو سفيان) ، فخرجت وقائدها (عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري) في بني فزارة ، و (الحارث بن عوف بن أبي حارثة المُرّي) في (بني مُرّة) و (مسعود (مِسْعَر) بن رخيلة بن نويرة ين طريف بن سحمة الأشجعي) فيمن تابعه من أشجع . واستجابت لهم (بنو سليم) ، يقودهم (سفيان بن عبد شمس) وهو أبو (أبي الأعور السلمي) ، وانضمت اليهم (بنو أسد) يقودهم (طليحة بن خويلد الأسدي) ، وكوّنوا الأحزاب . وساروا باتجاه المدينة ، فوجدوا المسلمين وقد حفروا خندقاً حولها ، حال بينهم وبين اقتحامها ، ووقعت مناوشات ، انتهت برجوع الأحزاب . ونجاح المسلمين في الدفاع عن أنفسهم[3] .

ومن رجال (عبس) الذين وفدوا على الرسول : (ميسرة بن مسروق) و (الحارث بن ربيع) وهو الكامل ، و (قنان بن دارم) ، و (بشر بن الحارث بن عبادة) و (هِدْم بن مسعدة) ، و (سباع بن زيد) ، و (أبو الحصن بن لقمان) ، و (عبد الله بن مالك) ، و (فروة بن الحصين بن فضالة). وذكر ان رسول الله سأل نفراً من (عبس) عن (خالد بن سنان)، فقالوا : لا عقب له ، فقال : نبيّ ضيعه قومه ، ثم أنشأ يحدث أصحابه حديث خالد[4] .

---

١ نهاية الارب (٧٧/١٧ وما بعدها) .
٢ الطبري (٢٣/٣) .
٣ الطبري (٥٦٤/٢ وما بعدها) ، (عزوة الخندق) ، نهاية الارب (١٦٦/١٧ وما بعدها) .
٤ طبقات ابن سعد (٢٩٥/١ وما بعدها) ، نهاية الارب (١٧/١٨) .

وقد كتب الرسول الى (بني زهـير بن أقيش) كتابـاً ، أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم[1] . و (بنو أقيش) هم حيّ من (عكل) . و (عكل) من (الرباب) . وهم (تيم) و (عدي) و (عكل) و (مزينة) . وذكر ان الرسول كتب لبني أقيش في ركية بالبادية[2] .

ومن ديار (هوازن) ، (تربة) ، وهي ناحيـة (العبلاء) على طريق صنعاء ونجران . وتقع في (عجز هوازن) . وقد أرسل الرسولُ عليهم سريـة بقيادة (عمر) وذلك سنة سبع للهجرة[3] . وتقع ديار هوازن بغور تهامـة الى الى بيشة والسراة وحنين وأوطاس[4] .

وفي جنوب شرقي (حسمى) أقـامت بطون (فزارة)[5] ، وتنسب الى (فزارة بن ذبيان بن بغيض بن غيث بن غطفان) . وقد اشتركت في حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان ، وفي معارك أخرى ، وتعاونت مع يهود خيبر ضد الرسول[6] . ومن رجـال (فزارة) (خارجة بن حصن) ، وكان فيمن وفد على النبي من وفد (بني فزارة) سنة تسع للهجرة[7] .

ومن (بني فزارة) في أيام الرسول (عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر) ، أغار على لقاح رسول الله وهي ترعى بالغابة ، وهي على بريد من المدينة ، فوجه رسول الله جمعاً عليه ، قتل (مسعدة بن حَكَمَة بن مالك بن حذيفة بن بدر الفزاري) و (حبيب بن عيينة) ، ثم لحقهـم الرسول بـ (ذي قـرد) ، فوجدهم قد مضوا[8] . وقد نعت النبي (عيينة) بـ (الأحمق المطاع في قومه)[9] . ومن بني فزارة الذين وفدوا الى الرسول بعد رجوعه من تبوك سنة تسع للهجرة ،

١ ابن سعد ، طبقات (٢٧٩/١) .
٢ الاشتقاق (١١٣/١١١) .
٣ نهاية الأرب (٢٧٠/١٧) .
٤ البكري ، معجم (٨٨/١) .
٥ Musil, Hegaz, P. 315.
٦ Ency., II, P. 93.
٧ الطبري (١٢٢/٣) .
٨ البلاذري ، أنساب (٣٤٨/١ وما بعدها) .
٩ الاشتقاق (١٧٣) .

(خارجة بن حصن) و (الحرّ بن قيس بن حصن [1] . وذكر ان (عيينة بن حصن) كان من المؤلفة قلوبهم . شهد حنيناً والطائف . وكان أحمق مطاعاً دخل على النبي بغير إذن وأساء الأدب ، فصبر النبي على جفوته وأعرابيته . وقد ارتد وآمن بطليحة ، ثم أسر ، فمنّ عليه الصدّيق ، ثم لم يزل مظهراً للإسلام . وكان يتبعه عشرة آلاف قناة . وكان من الجرارة . واسمه حذيفة ولقبه عيينة لشتر عينه [2] .

ولما خرج (زيد بن حارثة) في تجارة له الى الشأم ، ومعه بضائع لأصحاب رسول الله ، وكان دون (وادي القرى) لقيه ناس من (فزارة) من (بني بدر) ، فضربوه وأخذوا ما كان معه ، فعاد (زيد) الى المدينة وأخبر الرسول بما حدث . فأعاده مع سرية لغزوهم ، فحاصرهم ، ولكنهم كانوا قد هربوا ، فأسر منهم (فاطمة بنت ربيعة بن بدر) وابنتها (جارية بنت مالك بن حذيفة ابن بدر) ، وقُتل (النعمان) و (عبد الله) ابنا (مسعدة بن حكمة بن مالك ابن بدر) [3] .

وعلى السُنّة الجارية بين القبائل ، تشتّت شمل عشائر غطفان بسبب الحروب التي نشبت بينها من جهة ، وبينها وبين بطون خصافة من جهة أخرى . ونعني بخصافة هوازن وسليماً . وقد استمر التنافس بين عشائر غطفان وعشائر خصافة الى ظهور الإسلام ، وتميز بحوادث الفتك والاغتيالات ، وبرز في هذا النزاع اسم (دريد بن الصمة) وهو من هوازن ، ومعاوية وصخر أخوي الخنساء وهما من سُليم [4] .

ولما انتقل الرسول الى جوار ربه ، ارتد كثير من غطفان ، وأيد بعضهم طليحة ، ولم يرجعوا الى الإسلام إلا بعد انتصاره على المرتدين .

وكان من وجوه (بني عامر بن صعصعة) ، عامر بن الطفيل ، وأربد بن قيس بن مالك بن جعفر ، (أربد بن ربيعة بن مالك بن جعفر) ، وجبار بن

---

١ ابن سعد ، طبقات (٢٩٧/١) ، نهاية الأرب (٢٠١/١٧ وما بعدها) ، (٤١/١٨) .
٢ تاج العروس (٤٥/٦) ، (ألف) و (عين) .
٣ نهاية الارب (٢١٠/١٧ وما بعدها) .
٤ Ency., II, P. 145.

سلمى بن مالك ، وكان هؤلاء رؤوس القوم وشياطينهم . وقد وفدوا على الرسول . ولم يسلم (عامر بن الطفيل) ، بل رجع كافراً ومات على الشرك[1] . وكان معجباً بنفسه ، جريئاً على الناس[2] ، من الفرسان[3] . طلب من الرسول ان يجعل الأمر له من بعده في مقابل إسلامه ، أو ان يقتسم معه الحكم على الناس مناصفة ، فيكون للرسول حكم أهل المدر ، وله حكم أهل الوبر . فلما قال له الرسول : « لا ، ولكني أجعل لك أعنة الخيل فإنك امرؤ فارس » قال : أوليست لي ؟ لأملأنها خيلاً ورجالاً . ثم ولى ، فلما كان في طريقه الى منازله مرض وهلك[4] .

وكان (أبو براء عامر بن مالك بن جعفر) المعروف بـ (ملاعب الأسنة الكلابي) ، بعث الى رسول الله ان ينفذ اليهم قوماً يفقّهونهم ويعرضون عليهم الإسلام وشرائعه ، فبعث اليهم قوماً من أصحابه . فعرض لهم (عامر بن الطفيل) يوم بئر معونة فقتلهم أجمعين . واغتمّ (أبو براء) لاخفار عامر بن الطفيل ذمته في أصحاب رسول الله ، ثم توفي بعد ذلك بقليل . وكان سيد (بني عامر ابن صعصعة) في أيامه[5] . و (بئر معونة) ، أرض بين أرض (بني عامر) و (حرة بني سُليم) ، وهي الى حرة بني سليم أقرب[6] . وقد استصرخ (عامر بن الطفيل) جماعة من (بني سليم) و (عصية) و (رعلا) و (ذكران) فنفروا معه على المسلمين[7] .

ولما أرسل (أبو بكر) (خالد بن الوليد) الى (بني عامر بن صعصعة) ، لم يقاتلوه ودفعوا الصدقة . وكان (قرة بن هبيرة) القشيري امتنع من أداء الصدقة ، وأمدّ (طليحة الأسدي) ، فأخذه خالداً ، فحمله الى (أبي بكر) فحقن أبو بكر دمه[8] .

---

١ الطبري (١٤٤/٣) ، (وفد بني عامر بن صعصعة) .
٢ مروج (٣٢٨/٢) ، (دار الاندلس) .
٣ الاشتقاق (١٨٠ ، ٢١٥) .
٤ نهاية الارب (٥١/١٨ وما بعدها) .
٥ المحبر (٤٧٢) ، الطبري (٥٤٥/٣) ، (ذكر خبر بئر معونة) .
٦ الطبري (٥٤٦/٢) .
٧ نهاية الارب (١٣٠/١٧ وما بعدها) .
٨ البلاذري ، فتوح (١٠٦) .

ومن بني (عامر بن صعصعة) ، بنو (رؤاس بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة) . ومنهم (عمرو بن مالك بن قيس) الذي وفد على الرسول فأسلم[1] . ومنهم (بنو البكّاء) . ووفد وفد من (بني البكّاء) على الرسول كان فيه (معاوية بن ثور بن عبادة بن البكّاء) و (الفُجيع بن عبد الله بن جندح بن البكّاء) و (عبد عمر البكّائي) ، وهم الأصم[2] .

وتقع ديار (بني عامر بن صعصعة) في الأقسام الغربية من نجد وتمتد الى الحجاز . وذكر انهم كانوا يصيفون بالطائف لطيب هوائها ، فلما اشتدّ عود ثقيف وقوي أمرهم ، منعوهم منها ، واستقلوا بها وحدهم[3] .

ويرجع نسب (بني سليم) الى (قيس عيلان) ، وتقع منازلها في مواطن حرار ذات مياه ومعادن عرفت بـ (معدن سُليم) . وكانوا يجاورون عشائر غطفان وهوازن وهلال . ولخيرات أرضهم ووقوعها في منطقة مهمة تهيمن على طرق التجارة ، صارت بنو سليم من القبائل الغنية . وكانت صلاتها حسنة بيهود يثرب ، كما كانت صلاتها وثيقة بقريش . وقد تحالف عدد كبير من رجالات مكة مع بني سليم ، واشتغلوا معهم في الاستفادة من المعادن والثروة في أرض سليم[4] .

وقد قدم رجل من (بني سليم) اسمه (قيس بن نسيبة) ، على الرسول فأسلم ، ذكر انه كان على علم بلسان الروم وبهينمة الفرس ، وبأشعار العرب ، وانه كان ذا حظ بثقافة ذلك اليوم . فلما رجع الى قومه ، وكلمهم بالإسلام ، اقتنعوا بحديثه فأسلم منهم عدد كبير ، وذهب وفد عنهم الى الرسول ، فيه (العباس بن مرداس) و (أنس بن عياض بن رعل) و (راشد بن عبد ربه) ، فأسلموا على يديه . وكان (راشد) يسدن صنماً لبني سليم . وكان اسمه (غاوي) ، وكان قد رأى ثعلبين يبولان على صنمه فشدّ عليه فكسره ، ثم جاء مع الوفد الى الرسول فأسلم ، وسمّاه الرسولُ (راشدا) على طريقته في تغييره

---

١ ابن سعد ، طبقات (٣٠٠/١) .

٢ ابن سعد ، طبقات (٣٠٤/١) .

٣ البكري ، معجم (٧٧/١ وما بعدها) .

٤ البلدان (٢٥٠/٢) ، (٩٤/٨) ، Ency., IV, P. 518.

أمثال هذه الأسماء . وأعطاه الرسول (رهاطاً) ، وفيها عين ماء .

ويذكر أهل الأخبار ، ان سيداً من سادات (بني سليم) ، اسمه (قدْر ابن عمّار) ، كان قد قدم على النبي بالمدينة فأسلم ، وعاهده على ان يأتيه بألف من قومه ، فلما ذهب الى قومه ، وعاد ليأتي الى الرسول برجاله ، نزل به الموت ، فأوصى الى رهط من (بني سليم) بالذهاب الى الرسول ، هم (عباس ابن مرداس) و (جبار بن الحكيم) و (الأخنس بن يزيد) وأمّر كل واحد منهم على ثلاثمائة ، ليقدموا على الرسول ، ثم جاء من بعدهم (المنقع بن مالك ابن أمية) وهو على مائة رجل ، فصار عددهم ألفاً[1] .

وكتب الرسول الى (سلمة بن مالك بن أبي عامر) السلمي) من (بني حارثة) ، انه أعطاه مَدْفَوّاً لا يحاقّه فيه أحد[2] . وأعطى (العباس بن مرداس) (مَدْفَوّاً) ، لا يحاقه فيه أحد ، كتبه له العلاء بن عقبة ، وشهد عليه[3] . ويظهر ان (سلمة بن مالك السلمي) ، الذي ذكر (ابن سعد) ان الرسول (أعطاه ما بين ذات الحناظى الى ذات الأساور)[4] ، هو (سلمي بن مالك بن أبي عامر) المتقدم .

وكان العباس بن مرداس يهاجي (خفاف بن ندبة السلمي) أحد الشعراء المعروفين . ثم تمادى الأمر الى ان احتربا ، وكثرت القتلى بينهما ، ولما تماديا في هجائهما ، ولم يسمعا نصيحة (الضحاك بن عبد الله السلمي) ، وهو يومئذ صاحب أمر بني سليم ، ولـجّا في السفاهة ، خلعتهما بنو سليم . ثم أتاهما (دريد ابن الصمة) و (مالك بن عوف النصري) رأس هوازن ، وأصلحا بينهما . واستراح منهما بنو سليم[5] .

وأسلم (العباس بن مرداس) قبل فتح مكة وحضر مع النبي يوم الفتح في جمع من (بني سليم) بالقنا والدروع على الخيل . وله ولد اسمه جلهمة ، روى

١ ابن سعد ، طبقات (١/٣٠٧ وما بعدها) ، نهاية الارب (١٨/٢٤) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٣) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٣) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٥) .
٥ ابن قتيبة ، الشعر والشعراء (ص ٤٦٧ وما بعدها) .

عن النبي [1] . ويروى ان العباس بن مرداس ، شهد حُنيناً على فرسه العُبيد ، فأعطاه النبي أربع قلايص ، فقال العباس : أتجعل نهبي ونهب العبيد بين عيينة والأقرع ، فقال النبي : (اقطعوا عني لسانه ، فاعطوه ثمانين أوقية فضة) [2] . وكان فيمن اشترك مع العباس بن مرداس من قومه في فتح مكة : (أنس بن عباس بن رعل) و (راشد بن عبد ربه) ، وقد طلب العباس وقومه من الرسول ، ان يجعل لهم لواءً أحمر ، وشعاراً مقدماً ، ففعل ذلك بهم [3] . وكان للعباس أخ اسمه (عمرو بن مرداس) ، ويعدّ مثل أخيه في جملة المؤلفة قلوبهم كذلك [4] .

وأعطى الرسول (هوذة بن نبيشة السلمي) من (بني عُصيّة) . (ما حوى الجفر كله) [5] . وكتب للأجبّ رجل من (بني سليم) (انه أعطاه فالساً) ، وكتب كتابه وشهد عليه (الأرقم) [6] . وأعطى الرسول (راشد بن عبد السلمي) (غلْوتين بسهم . وغلوة بحجر برهاط) (لا يحاقه فيها أحد) [7] . كما أعطى (حرام بن عبد عوف) من (بني سليم) (إذاماً وما كان له من شواق) [8] .

ومن (بني سُليم) (نبيشة بن حبيب) ، قاتل (ربيعة بن مكدّم) الكناني . وكان فارس كنانة [9] .

ويذكر ان الردة لما وقعت بوفاة الرسول ، جاءت (بنو سليم) الى (أبي بكر) ، فطلبوا منه ان يمدهم بالسلاح لمقاتلة المرتدين ، فأمر لهم بسلاح ، فأقبلوا يقاتلون (أبا بكر) : فبعث أبو بكر خالد بن الوليد عليهم ، وجعلهم في حظائر ثم أضرم عليهم النيران [10] .

١ ابن قتيبة ، الشعر (ص ٤٦٧ وما بعدها) ، المعارف (٣٣٦) .
٢ الإشتقاق (١٨٨) .
٣ نهاية الارب (١٨/٢٤) .
٤ تاج العروس (٦/٤٥) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٣) .
٦ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٣ وما بعدها) .
٧ المصدر نفسه (١/٢٧٤) .
٨ المصدر المذكور .
٩ الاشتقاق (١٨٩) .
١٠ تاريخ خليفة بن خياط (١/٦٨) .

ومن ديار (بني سُليم) معدن بني سُليم ، وهو منزل كثير الأهل فيه اعراب بني سليم ، وماؤه من (البرك) ، وهي قرى قديمة . [1] وقد غزا الرسول على رأس ثلاثة وعشرين شهراً من مُهاجَره (قرقرة الكدر) (قراقرة الكدر) ، ناحية معــدن (بني سليم) بينه وبين المدينة ثمانية بُرُد ، وذلك لما سمع ان بهذا الموضع جمعاً من (بني سليم) و (غطفان) ، فلما لم يجد احداً ، اخذ ما عثر عليه من جمال تعود اليهم ، كانت ترعى هناك ، ورجع الى المدينة . [2] وغزا الرسول في السنة الثالثة من الهجرة موضعاً آخر من مواضع (بني سليم) اسمه : (بحران) من ناحية الفرع ، وهي قرية من ناحية المدينة ، لما بلغه ان بها جمعاً كثيراً من (بني سليم) . [3]

وكانت منــازل عجز هوازن بموضع شربة . [4] ومن رجال (هوازن) في ايام الرسول (مالك بن عوف النصري) احد بني نصر . وهو الذي جمع جموع هوازن وثقيف وأقبل عامداً الى النبي ، حتى وافاه بـ (حنين) فوقعت غزوة حنين . وقد جمعت نصر وجشم كلها وسعد بن بكر وناس من بني هلال ، وهم قليل ، ولم يشهدها من قيس عيلان الا هؤلاء وغابت عنها فلم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب . وفي جشم (دريد بن الصمة) ، شيخ كبير ، ليس فيه شيء الا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب . وكان شيخاً كبيراً مجرباً ، وفي ثقيف سيدان لهم في الاحلاف : قارب بن الاسود بن مسعود ، وفي بني مالك ذو الخمار سبيع بن الحارث وأخوه الأحمر بن الحارث في بني هلال . [5]

وبنو سليم ايضاً قبائل ، منها : بنو ذكوان ، وبنو بهثة ، وبنو سمّال ، وبنو بهز ، وبنــو مطرود ، وبنو الشريد ، وبنو قنفذ ، وبنو عُصيّة ، وبنو ظفر . [6] وقد نجلت هذه القبائل رجالاً عرفوا في الجاهلية والاسلام ، منهم : العباس بن مرداس الشاعر الشهير ، ممن شهدوا معركة حنين مع الرسول ، ومجاشع بن مسعود

١ ابن رسته ، الاعلاق (١٧٩) .
٢ نهاية الارب (٧١/١٧ وما بعدها) .
٣ نهاية الارب (٧٩/١٧) .
٤ الطبري (٢٢/٣) ، (دار المعارف) ، نهاية الارب (٣٢٣/١٧ وما بعدها) .
٥ الطبري (٧٠/٣ وما بعدها) .
٦ الاشتقاق (١٨٧ وما بعدها) .

ممن قاد الجيوش . وهو من المهاجرين ، والعباس بن انس الأصم من فرسان الجاهلية ، ورجال آخرون . ولسليم شقيق في عرف النسابين اسمه (مازن) . اما ابوهما فهو منصور .[1]

و (جهينة) بطن مثل (بليّ) و (بهراء) و (كلب) و (تنوخ) من بطون (قضاعة) ، كانت ديارها في نجد ، ثم هاجرت الى الحجاز ، فسكنت على مقربة من يثرب في المنطقة التي بين البحر الأحمر ووادي القرى ، عند ظهور الاسلام . وقد دخلت في الاسلام في حياة الرسول ولم تشترك مع من اشترك في الردة بعد وفاته .[2] وينسب النسابون جهينة الى صحار والد جهينة ، ومن بطونها بنو حميس .[3]

ومن ديار (جهينة) ، موضع (بواط) ، وهو من (جبال جهينة) من ناحية (رضوى) قريب من (ذي خشب) مما يلي طريق الشام . وبين (بواط) والمدينة نحو اربعة برد . ويمر به طريق الى بلاد الشام . ولما سمع الرسول ، وهو على رأس ثلاثة عشر شهراً من مهاجره ، ان قافلة لعير قريش : فيها امية بن خلف الجمحي ومئة من رجال قريش وألف وخمسمائة بعير ، تمر من هناك ، خرج في مئتين لاعتراضها ، ولكنها فرت ونجت ، فلم تقع في الأسر .[4]

وكان في جملة من وفد على الرسول من جهينة : (عبد العزّى بن بدر بن زيد بن معاوية الجهني) من (بني الربعة بن رشدان بن قيس بن جهينة) ، ومعه أخوه لأمه (أبو روعة) . وكان لهم واد اسمه (غويّ) . ومن (بني جهينة) (بنو دهمان) ومنهم (عمرو بن مرّة الجهني) ، وكان سادن صنمهم ، فأسلم وكسر الصنم ، وقدم المدينة ، واعلن اسلامه امام الرسول .[5]

وقد كتب الرسول كتاباً لبني زرعة وبني الربعة من جهينة ، أمنهم فيه على انفسهم وأموالهم .[6] كما كتب لعوسجة بن حرملة الجهني من (ذي المروة) ،

---

١ الاشتقاق (١٨٩) ، الصفة (١٣٢ ، ١٥٤ ، ١٧٠) .

٢ Ency., I, P. 1060.

٣ الاشتقاق (ص ٣١٩ وما بعدها) .

٤ نهاية الأرب (١٧/٤ وما بعدها) .

٥ طبقات ابن سعد (٣٣/١ وما بعدها) ، نهاية الأرب (١٨/١٨ وما بعدها) .

٦ ابن سعد ، طبقات (٢٧٠/١) .

وقد (أعطاه ما بين بلكثة الى المصنعة الى الجفلات الى الجدّ جبل القبلة لا يحاقه أحد) ، وشهد على صحة الكتاب وكتبه (عقبة) [1] كما كتب الرسول كتاباً لقوم آخرين من جُهينة ، هم من (بني شنخ) ، وقد (أعطاهم ما خطّوا من صفينة وما حرثوا) ، وكتب الكتاب وشهد عليه (العلاء بن عقبة) . [2] كما كتب الرسول كتاباً لبني الجرمز بن ربيعة ، وهم من (جهينة) ، كتبه المغيرة . [3] وكتب كتاباً لـ (عمرو بن معبد الجهني) و (بني الحرفة) من جهينة وبني الجرمز ، أهم ما جاء فيه (وما كان من الدين مدوّنة لأحد من المسلمين قضى برأس المال وبطل الربا في الرهن . وأن الصدقة في الثمار العشر) . [4] ويظهر من ذلك أن هذا الكتاب قد دُوّن بعد نزول الأمر بتحريم الربا .

وبليّ من قبائل قضاعة كذلك ، وتنسب الى بليّ بن عمرو بن الحاف بن قضاعة . وتقع ديارها على مقربة من تيماء بين ديار جهينة وديار (جُذام) ، وهي مثل اكثر قبائل قضاعة ، لا نعرف من تأريخها في الجاهلية شيئاً يذكر . أما في أول ظهور الاسلام ، فقد اشتركت مع القبائل النصرانية في جانب الروم ضد المسلمين . [5] ومنهم (مالك بن رافلة) ، قاتل (زيد بن حارثة) يوم (مؤتة) . [6]

وفي سنة ثمان من الهجرة ارسل الرسول (عمرو بن العاص) الى ارض (بليّ) و (عـذرة) ، فلما بلغ موضع (السلاسل) خاف ، فبعث الى رسول الله يستمدّه ، فأمده بجماعة من المهاجرين الأولين ، فيهم (ابو عبيدة بن الجراح) و (ابو بكر) و (عمر) وقد عرفت تلك الغزوة بـ (ذات السلاسل) . [7]

وقد دخل دين يهود فرع من بليّ ينسب الى (حشنة بن اكارمة) ، وسكن

١ ابن سعد ، طبقات (١/ ٢٧١) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/ ٢٧١) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/ ٢٧١) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/ ٢٧١ وما بعدها) .
٥ الطبري (١/ ١٦٠٤ ، ١٦١٠ وما بعدها) ، ابن هشام (٧٩٢) ، الاشتقاق (٣٢٢)، Ency., I, P. 618, Caussin de Perceval, Essai., III, 212, Blau, in ZDMG., XXII, 664, XXIII, 573.
٦ الاشتقاق (ص ٣٢٢) .
٧ الطبري (٣/ ٣٢) .

على مقربة من تيماء مع يهود ، وظل في هذا الدين وفي هذه الديار الى ان امر (عمر) باجلائهم عنها في الاسلام .[1]

وقد وفد نفر من (بليّ) على الرسول ، وكان (شيخ الوفد) (ابو الضباب) (ابو الضبيب) فأسلم وأسلم من كان معه ، ثم عادوا الى ديارهم .[2]

وتقع الى الجنوب من ديار (بليّ) ديار (مزينة) ، وهي في الشرق من منازل (جُهينة) والى الغرب من ديار (سعد) والى الشمال من بلاد (خزاعة) . ويرجع نسب (مُزينة) الى (مضر) . وقد وفد قوم منهم الى الرسول فيهم (خزاعي بن عبد نهم) فبايع الرسول على قومه مزينة ، وقدم معه جماعة من اعيان مزينة منهم : (بلال بن الحارث) و (النعمان بن مقرن) و (عبيد الله ابن بردة) ، و (عبد الله بن درة) ، و (بشر بن المحتقر) . و (خزاعي) هو الذي حمل لواء مزينة يوم الفتح ، وكانوا يومئذ ألف رجل ، وهو أخو المغفل ابي عبد الله بن المغفل وأخو عبد الله ذي البجادين .[3]

وأما وادي القرى ، فهو واد كثُرت قراه ، لذلك قيل له وادي القرى وأهله عرب ويهود . وهو من المواضع المعروفة بالخصب في جزيرة العرب ، وبه عيون وآبار .. لذلك اشتهر بالعمار منذ ايام ما قبل الميلاد . فنزلت به قبائل عديدة ، منها قوم ثمود . وقد جلب خصب هذا الوادي انظار من نزح اليه من اليهود ، فحفروا فيه الآبار وأساحوا العيون ، وزرعوا فيه النخيل والحبوب ، وعقدوا بينهم حلفاً وعقداً . ودفعوا عنه قبائل بليّ بن عمرو بن الحاف بن قضاعة ، وغيرهم من القبائل .[4] وعقدوا لهم احلافاً مع القبائل القوية ، لتحميهم ولتدافع عنهم ، مقابل جعل سنوي .

وقد غزا الرسول بعد فراغه من خيبر هذا الوادي ، فقاتله اهله ، ففتحه

---

١ Ency., I, P. 618.

٢ ابن سعد ، طبقات (٣٣٠/١) ، نهاية الأرب (٩٠/١٨) .

٣ طبقات ابن سعد (٢٩١/١ وما بعدها) ، (دار صادر) ، نهاية الأرب (١٩/١٨ وما بعدها) .

٤ البكري ، معجم (٤٥/١١ وما بعدها) .

عنوة ، وترك الرسول النخل والارض في ايدي اليهود ، وعاملهم على نحو ما عامل عليه اهل خيبر . [1]

وكانت (فدك) حكومة مستقلة كسائر الواحات والقرى في اعالي الحجاز ، اهلها من اليهود ، وعليهم في ايام الرسول (يوشع بن نون اليهودي) ، واليه بُعث (مُحيصة بن مسعود) لدعوته ولدعوة قومه الى الاسلام . [2] وبها قوم من (بني مُرّة) . [3] وقوم من (بني سعد بن بكر) . [4]

وكان اهل خيبر من يهود كذلك . يتحكم فيهم رؤساء منهم ، ولهم حصون وآطام تحمي اموالهم ومساكنهم ، فتحت في ايام الرسول بسبب معاداة اهلها للاسلام واتفاقهم مع المشركين . وكان يظاهرهم (غطفان) . ومن حصونهم (حصن ناعم) و (حصن القموص) ، حصن (ابي الحقيق) ، و (الوطيح) و (السلالم) ، وكان آخر حصون خيبر و (الشق) و (النطاة) . [5]

وكاتب الرسول (بني غاديا) ، وهم قوم من يهود . وكتب كتاب رسول الله اليهم : (خــالد بن سعيد) . [6] وكتب (خالد) كتاباً آخر الى (بني عريض) وهم ايضاً قوم من يهود ، حدد لهم الرسول ما فرضه عليهم ، يؤدونه لحينه في كل عام . [7]

وكان يهود (بنو قينقاع) ، قد تحالفوا مع الأوس والخزرج ، تحالفوا مع (عبد الله بن ابي سلول) ، كما تحالفوا مع (عبادة بن الصامت) ، وكانوا صاغة ، ولهم سوق عرف بـ (سوق بني قينقاع) ، وكانوا أشجع يهود . فلما كانت وقعة (بدر) ، اظهروا ميلاً الى قريش ، فحاصرهم الرسول ، ثم غلبهم فأجلاهم عن ديارهم ولحقوا بأذرعات . [8]

١ البلدان (٨/٢٧٥) (وادي القرى) ، (٥/٣٤٣) (بيروت ١٩٥٧) ، تاريخ الخميس (٢/٥٨) ، البلاذري ، فتوح (٤٧) .
٢ ابن الأثير (٢/٩٣) ، البلدان (٦/٣٤٣ وما بعدها) .
٣ الطبري (٣/٣٢) ، (ذكر مقاسم خيبر وأموالها) ، نهاية الأرب (١٧/٢٧٢) .
٤ نهاية الأرب (١٧/٢٠٩) .
٥ الطبري (٣/٩ وما بعدها) .
٦ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٩) .
٧ المصدر نفسه .
٨ نهايه الأرب (٦٧/٦٧) ، (ذكر غزوة بني قينقاع) .

ومن منازل (بني لحيان) موضع (غُران) ، وادٍ بين أمج وعُسفان الى بلدٍ يقال له (ساية) . وهو موضع مرتفع غزاه الرسول غزوته التي عرفت بـ (غزوة بني لحيان) في سنة ست للهجرة [1] . وكان بنو لحيان ومن لافهم من غيرهم قد استجمعوا ، فلما بلغهم إقبال الرسول اليهم هربوا ، فلم يلق كيداً [2] . واعتصموا في رؤوس الجبال ، فلم يقدر منهم على أحد . ولم تستطع السرايا ان تقبض على أحد منهم ، فرجع الرسول [3] .

وأقام (القُرطاء) ، وهم (بنو قرط) ، (قريط) من (بني كلاب) ، بناحية (ضرية) ، فبعث رسول الله عليهم (محمد بن مسلمة) ، فاستاقَ إبلاً وغنماً منهم ، وهرب القرطاء [4] . وقد أرسل الرسول (أبا بكر) لغزو (بني كلاب) بنجد ، وذلك سنة سبع للهجرة ، وذكر انه غزا (بني فزارة) [5] . وأرسل عليهم سنة تسع (الضَحّاك بن سفيان الكلابي) ، ومعه (الأصيد بن سلمة بن قرط) ، فلقيهم (بالزجّ) موضع بنجد ، وتغلب على (القرط) [6] .

ولما غزا الرسول غزوة (الأبواء) ، وهي غزوة (ودّان) ، وكانت أول غزوة غزاها الرسول ، وادعه (مخشي بن عمرو الضميري) ، وكان سيد (بني ضمير) (بني الضمير) في ذلك الوقت . والأبواء قرية من أعمال (الفرع) من المدينة ، بينها وبين (الجحفا) مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً [7] .

وتقع ديار (بني مدلج) بناحية (ينبع) ، ومن أرضهم (ذو العشيرة) ، وهو لبني مدلج . وقد غزاهم الرسول غزوته المعروفة بـ (ذي العشيرة) على رأس ستة عشر شهراً من مُهاجَره ، فوادعهم ووادع حلفاءهم من (بني ضمرة) [8] .

---

١ الطبري (٢/٥٩٥) .
٢ البلاذري ، أنساب (١/٣٤٨) .
٣ نهاية الأرب (١٧/٢٠٠ وما بعدها) .
٤ نهاية الأرب (١٧/٢٠٠) .
٥ نهاية الأرب (١٧/٢٧١) .
٦ نهاية الأرب (١٧/٣٥٠ وما بعدها) .
٧ نهاية الأرب (١٧/٤) .
٨ نهاية الأرب (١٧/٦) .

ويظهر ان هذا الموضع إنما سمي بـ (ذي العشيرة) ، نسبة الى الصنم (ذو العشيرة) ، كان له معبد في هذا المكان ، فعرف به .

ومن القبائل التي أقامت على مقربة من مكة (خزاعة) ، ومن رجالهم عند ظهور الإسلام ، (عمرو بن الحمق) الكاهن ، صحب النبي وشهد المشاهد مع (عليّ) وقتله (معاوية) بالجزيرة . وكان رأسه أول رأس نصب في الاسلام [1] . و (عمرو بن سالم الخزاعي) ، الذي جاء الى الرسول يشكو تظاهر (بنو بكر ابن عبد مناة بن كنانة) وقريش على خزاعة ، ونكث قريش عهدهم الذي قطعوه للرسول ألا يظاهروا أحداً على خزاعة ، فكان ذلك من عوامل فتح مكة [2] .

ومن رجال خزاعة (بديل بن ورقاء بن عبد العُزّى) ، شريف كتب اليه النبي يدعوه الى الاسلام ، وكان له قدر في الجاهلية بمكة [3] . ومن بطون خزاعة (بنو المصطلق) ، وعرفوا بـ (بلمصطلق) أيضاً ، وقد كانوا ينزلون بـ (المريسيع) ، وهو ماء لهم ، من ناحية (قُديد) الى الساحل . وقد كان قائدهم وسيّدهم (الحارث بن أبي ضرار) ، أبو (جويرية) ، التي تزوجها النبيّ بعد ان خرج اليهم في غزوة (بني المصطلق) من سنة ست . وهم من (خزاعة) [4] . وكان (الحارث) قد سار في قومه ومن قدر عليه من العرب ، ودعاهم الى حرب الرسول . فلما وصل الرسول الى (المريسيع) ، تفرق من كان مع الحارث من العرب . وتغلب الرسول على (بني المصطلق) وأخذ منهم أسرى وغنائم ، وكانت (جويرية) في جملة من وقع في الأسر فتزوّجها الرسول . ومن بطون خزاعة (بنو الملوّح) ، وكانوا بـ (الكديد) [5] .

وكان في جمله من يقيم بتهامة (بنو جذيمة بن عامر بن عبد مناة) ، ومن مياههم (الغميصاء) [6] . ولما توفي الرسول تجمعت بتهامة جموع من مدلج ،

١ الاشتقاق (٢٧٩) .
٢ الطبري (٣/٤٢) ، الاشتقاق (٢٨٠) ، البلاذري ، انساب (١/٣٥٣) .
٣ الاشتقاق (٢٨٠) .
٤ الطبري (٢/٦٠٤) ، (دار المعارف) ، ارشاد السارى (٦/٣٣٦) .
٥ الطبري (٣/٢٧ وما بعدها) ، الاشتقاق (٢٨٠ وما بعدها) .
٦ الطبري (٣/٦٦ وما بعدها) .

تأشب اليهم شذاذ من خزاعة وأفناء من كنانة ، عليهم جندب بن سلمي ، أحد (بني شنوق) ، من بني مدلج ، فحاربهم (خالد بن أسيد) وشتّت شملهم ، وأفلت جندب ، ثم ندم على ما صنع [1] .

وكتب الرسول لقوم من (أهل تهامة) : بديل وبسر وسَرَوات بني عمرو ، ذكر فيه انه لم يأثم مالهم ، ولم يضع في جنبهم ، ثم قال لهم : (وان أكرم أهل تهامة عليّ وأقربهم رحماً مني أنتم ومن تبعكم من المطيبين) . ثم أخبرهم ان (علقمة بن علاثة) قد أسلم . وأسلم (ابنا هوذة وهاجرا وبايعا على من تبعهم من عكرمة) [2] .

وينقل (ابن سعد) صورة كتاب كتبه (أبيّ بن كعب) وجهه (لجماع كانوا في جبل تهامة قد غصبوا المارة من كنانة ومزينة والحكم والقارة ومن اتبعهم من العبيد) ، فلما ظهر رسول الله ، وقوي أمره ، وفد منهم وفد على النبي ، فكتب لهم كتاباً جاء فيه : (هذا كتاب من محمد النبي رسول الله لعباد الله العتقاء . انهم إن آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فعبدهم حرّ ومولاهم محمد . ومن كان منهم من قبيلة لم يرد اليها . وما كان فيهم من دم أصابوه أو مال أخذوه ، فهو لهم . وما كان لهم من دين في الناس رد اليهم ، ولا ظلم عليهم ولا عدوان) [3] .

ويظهر من مضمون هذا الكتاب ، ومن بيان أهل الأخبار عن الذين كانوا قد اعتصموا في جبل تهامة ، انهم كانوا من الخارجين على الأعراف ، ومن الرقيق الآبق ، تجمعوا في هذا المكان المرتفع وتحصنوا وأخذوا يغتصبون منه المارة . وبقوا على ذلك حتى ظهر الرسول على أعدائه ، فوجدوا إذْ ذاك انهم لن يتمكنوا بعد ظهور الرسول من الاستمرار في التحرش بالمارة والتحرز بهذا الجبل ، وان ظروفاً جديدة قد ظهرت ، ستؤمن لهم سبل العيش ، وان الرسول سيعفو عنهم

١ الطبري (٣/‏٦٧ وما بعدها) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/‏٢٧٢) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/‏٢٧٨) .

ويغفر لهم ما وقع منهم قبل الإسلام ، فجاؤوا اليه وأسلموا عنده . وكتب لهم كتاب أمان بذلك .

ومنازل (كنانة) بتهامة ، وهم فيها قبل الإسلام بأمدٍ طويل .

و (علقمة بن علاثة) : هو (علقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص بن جعفر بن كلاب) [1] . وهو الذي نافر (عامـر بن الطفيل) عند (هرم بن قطبة بن سنان) [2] .

وأما (ابنا هوذة) فهما : العدّاء وعمرو ابنا خالد بن هوذة من بني عمرو ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة [3] .

وأما (عكرمة) ، فعكرمـة بن خصفة بن قيس عيلان . وذكر ان مراد الرسول بـ (ومن تبعـكم من المطيبين) ، (بنو هاشم) وبنو زهرة ، وبنو الحارث بن فهر ، وتيم بن مرة ، وأسد بن عبد العزّى [4] .

وكتب الرسول الى (العدّاء بن خالد بن هوذة) ، ومن تبعه من (عامر ابن عكرمة) ، انه (أعطاهم ما بين المصباعة الى الزّح ولوابة) . يعنى لوابة الحرّار . وكتب لهم الكتاب : خالد بن سعيد [5] .

ومن منازل (هذيل) (الرجيع) ، وهو ماء لهم [6] . ويقع الى الشرق من (هذيل) ديار (ضَبّة) وديار (عبد مناة) ، وأما في جنوبهـا فتقع ديار (خثعم) وثقيف ، وتمتد ديارها في الشمال حتّى تتصل بديار (بني سُليم) ، ومن (هذيل) (سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي) ، وكان قـد جمع جمعاً ليغزو بـه الرسول ، وكان قـد نزل (نخلة) أو (عرنة) ، موضع بقرب عرفة ، أو قرية بوادي عرفة ، فأرسل رسول الله اليه (عبد الله بن أنيس)

١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٢) .
٢ المحبر (١٣٥) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٣) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٣) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٣) .
٦ البلاذري ، أنساب (١/٣٧٥) .

فقتله[1] . ومن القبائل المجاورة لهذيل : (فهم) و (عدوان) وكانت ديارهم بالسراة[2] .

وممن كتب اليهم الرسول ، ودوّن (ابن سعد) صور كتبه اليهم : (سعيد ابن سفيان الرعلي) ، وقد أعطاه الرسول (نخل السوارقية وقصرها ، لا يحاقه فيها أحد) . وكتب الكتاب وشهد عليه (خالد بن سعيد)[3] . و (عتبة بن فرقد) ، وقد أعطاه الرسول موضع دار بمكة ، يبنيها مما يلي المروة[4] .

على هذا النحوا كان الوضع السياسي في جزيرة العرب عند ظهور الإسلام وفي أوائل أيامه : قوى مستقلة تخشى القبائل المحيطة بها . وأذواء وأقيال في اليمن وحضرموت ورؤساء قبائل يتحكمون في مناطق نفوذ قبائلهم ، ويعيشون على ما يأخذونه من أتباعهم من حق الرئيس على المرؤوس في السلم وفي الحرب ، وهم فيما بينهم في خصام وتنافس ، لم تتركهم الخصومة من الانصراف الى شؤون رعيتهم ، وهم أنفسهم لم يفكروا في الانصراف الى ذلك . فتدهورت الأحوال ، وظهر أفراد ينادون باصلاح الحال ، وبالتفكير في تحسين الأوضاع وبالتعقل . وكان الصراع بين الفرس والروم ، قد جسّر الأعراب على الدولتين . وأخذت النصرانية ترسل المبشرين الى العرب ، لنشر النصرانية بينهم . وتغلب القلم المتصل الحروف ، الذي صار قلم العرب والإسلام على القلم المنفصل الحروف . قلم العرب القديم ، القلم المسند . وانتشر في مكة ويثرب . ونادى الأحناف بنبذ الوثنية والأوثان . ونزل الوحي على الرسول في أول العشر الثاني من القرن السابع للميلاد . وظهر الإسلام داعياً العرب وغيرهم الى الإيمان بإله واحد خالق لهذا الكون . وبرسالة رسوله وبما جاء به من أوامر وأحكام . فكان ظهوره نهاية للجاهلية ، وبداية لعهد جديد ، عهد الإسلام .

وبظهور الإسلام على أعدائه في جزيرة العرب ، وبقضائه على أهل الردة ، أوجد لجزيرة العرب وجهاً جديداً من وجوه الحياة ، لم تشهده في حياتها ولم

---

١ نهاية الأرب (١٢٨/١٧ وما بعدها) .
٢ البكري ، معجم (٨٨/١) .
٣ ابن سعد ، طبقات (٢٨٥/١) .
٤ ابن سعد ، طبقات (٢٨٥/١) .

تعرفه . فقد أوجد الإسلام لأهلها موارد غنية من موارد الرزق ، وبسط لهم الأرض من الصين الى المحيط (الاطلانطي) وأخرج سكانها من ديارهم الفقيرة وأنزلهم في ديار غنية كثيرة السكان . وعرفوا بذلك نظماً لم تكن مألوفة عندهم ، وأمماً لم يسمع أكثرهم بها ، وخرج المؤمنون الأولون والمؤلفة قلوبهم ومن دخل الإسلام وقلبه غير مطمئن به ، الى خارج جزيرة العرب يحكمون باسم الإسلام. حدث كل ذلك في مدة لا تعدّ طويلة بالنسبة الى ما وقع فيها من أحداث .

فالإسلام ، إذنْ نهاية حياة قديمة ، وبداية حياة جديدة ، تختلف عن الحياة الأولى كل الاختلاف .

الفصل الخامس والأربعون

المجتمع العربي

المجتمع العربي : بدو وحضر . أهل وبر وأهل مدر ، يتساوى في هذه الحال عرب الشمال وعرب الجنوب وعرب جميع أنحاء جزيرة العرب الأخرى .

وقسّم بعضهم عرب الجاهلية الى ملوك وغير ملوك . وقسموا سائر الناس بعد الملوك الى طبقتين : أهل مدر وأهل وبر . فأما أهل المدر ، فهم الحواضر وسكان القرى، وكانوا يعيشون من الزرع والنخل والماشية والضرب في الأرض للتجارة . وأما أهل الوبر ، فهم قطان الصحارى يعيشون من ألبان الإبل ولحومها ، منتجعين منابت الكلأ ، مرتادين لمواقع القَطر ، فيخيمون هنالك ما ساعدهم الخصب وأمكنهم الرعي ، ثم يتوجهون لطلب العشب وابتغاء المياه ، فلا يزالون في حلّ وترحال [1] .

ويعرف الحضر ، وهم العرب المستقرون بـ (أهل المدر) ، عرفوا بذلك لأن أبنية الحضر إنما هي بالمدر . والمدر : قطع الطين اليابس . قال (عامر للنبي ، صلى الله عليه وسلم : لنا الوبر ولكم المدر) ، فعنى به المدن أو الحضر [2] . ومن هنا قيل للحضر : بنو مدراء [3] . وورد في حديث (الجسّاسة والدجال) :

---

١ ابن العبري ، مختصر الدول ، (١٥٨ وما بعدها) .
٢ اللسان (٥/١٦٢) ، (مدر) .
٣ اللسان (٥/١٦٢) ، (مدر) .

(تبعه أهل الحجر وأهل المدر ، يريد أهل البوادي الذين يسكنون مواضع الأحجار والرمال ، وأهل المدر ، أهل البادية)[1] . ويظهر من روايات أخرى ان (أهل المدر) هم أهل البادية . ولكن أكثرها ان (أهل المدر) ، هم الحضر ، لأن اتخاذ بيوت المدر لا يكون في البادية ، بل في الحضر .

وورد أن أهل البادية إنما قيل لهم (أهل الوبر) ، لأن لهم أخبية الوبر . تمييزاً لهم عن أهل الحضر الذين لهم مبانٍ من المدر ، ومن هنا قيل للقرية (المدرة) ، لأنها مبنية بالطين واللبن ، وذكر ان (المدرة) القرية والمدينة الضخمة أيضاً ، لأن المدن تبنى بالمدر أيضاً . ومن هنا قيل للحضر عموماً : بنو مدراء[2] .

ويذكر علماء اللغة ان الحضر والحاضرة والحضارة خلاف البادية والبداوة والبدو . والحضارة الإقامة في الحضر . والحاضر والحضر هي المدن والقرى والريف ، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار[3] . وقد عرفوا بأهل القارية ، وذلك في مقابل أهل البادية ، لأهل البدو[4] .

و (أهل القرار) ، هم الحضر ، لأنهم اختاروا القرار وأحبوا الاستقرار والإقامة في مكان واحد . ولأن الطبيعة حبتهم بكل شيء يغري على الارتباط بالأرض ، ولو ولد الأعرابي بين الحضر وتوفر لديه ما يؤمن له رزقه الدائم في مكانه الذي ولد فيه ، لما تنقل وارتحل ، ولصار حضريّاً من دون شك مثل سائر أهل الحضر . ولكن الطبيعة حرمته من نعم الاستقرار ، فصار بدوياً يتتبع العشب والماء . فالطبيعة هي المسؤولة عن البداوة وعن انتشارها في جزيرة العرب .

ومن هنا قيل للحضري الذي لا ينتجع ويكون من أهل الأمصار (القراري) . ولما كان أكثر (أهل القرار) ، هم من الصناع ، قيل لكل صانع (قراري) .

---

١ اللسان (٤/١٦٦) ، (حجر) .
٢ تاج العروس (٣/٥٣٥) ، (مدر) .
٣ تاج العروس (٣/١٤٦) ، (حضر) .
٤ اللسان (١٥/١٧٨) ، (قرا) .

وذكر بعض علماء اللغة ان (القراري) : الخياط . واستشهدوا على ذلك ببيت شعر للأعشى ، هو :

يشق الأمـور ويجتابهـا كشق القراري ثوب الردن

وذكر بعض آخر انه القصّاب . وقد تجوّز الناس فيما بعد ، فقالوا : خياط قراري ، ونجّار قراري[1] .

ويقال لساكن القرية القاريّ ، كما يقال لساكن البادية البادي . والقارية سكنة القرى أي خلاف البادية والأعراب . والقرية كل مكان اتصلت به الأبنية واتخذ قراراً . وتقع على المدن وغيرها[2] . وسكانها من الحضر . ويذكر علماء اللغة ان (المدينـة من مَدَنَ ، بمعنى أقام بمكان . ويراد بهـا الحصن يبنى في اصطمة الأرض[3] . وتقابلها لفظة (مدينتو) في الارميـة[4] . و (هكرن) (هكر) (هجر) في العربية الجنوبية . وأما (البلدة) ، فذكر علماء اللغة انهـا كل موضع أو قطعة من الأرض مستحيزة عامرة أو عامرة ؛ خالية أو مسكونة[5] . فالبلدة ، إذن من مواطن الحضر أيضاً .

وقد كان من الصعب التمييز عند الشعوب القديمة بين القرى والبلدان والمدن . وكل بلدة أو مدينة كانت قرية في الأصل ، أي مستوطنة صغيرة غير محصنة ، وعندما ازداد عدد سكانها ، وكثر عمرانها ومالها لأسباب عديدة ، توسعت وحصن أهلها أنفسهم بحصون وبأطم أو بسور وخندق يحيط بـه لمنع العدوّ من الدنوّ منها[6] . وبهذه التحصينات وبكثرة عدد السكان تميزت هذه المستوطنات السكنية بعضها عن بعض ، ولهذا كانت الشعوب القديمة لا تطلق لفظة (مدينـة) إلا على القرى المحصنة المسوّرة ، وفي ضمن هذه الشعوب العرب .

وتطلق لفظة (عرب) على أهل المدر خاصة ، أي على الحضر و (الحاضر)

---

١ تاج العروس (٤٩٠/٣) ، (قرر) .
٢ تاج العروس (٢٩٠/١٠) ، (قرى) .
٣ تاج العروس (٣٤٢/٩) ، (مدن) .
٤ غرائب اللغة (٢٠٥) .
٥ تاج العروس (٣٠٥/٢) ، (بلد) .
٦ قاموس الكتاب المقدس (٣٢١/٢) ، (مدينة) ،
Hastings, P. 143, 944, 958.

و (الحاضرة) من العرب ، اما اهل البادية ، فعرفوا بـ (اعراب) . مع ان كلمة (العرب) قد أطلقت في لغتنا لتشمل العربين : عرب الحاضرة وعرب البادية .[1] ويظهر ان هذا الاطلاق انما وضع قبيل الاسلام . فقد سبق لي أن بينت في الجزء الاول من هذا الكتاب تأريخ كلمة (عرب) ، وبينت كيف تطورت اللفظة الى ظهور الاسلام ، وقد رأينا أنها كانت تعني اهل البادية ، أي الاعراب في الأصل . أما الحضر فعرفوا بأسماء أماكنهم أو قبائلهم ، وآية ذلك أن التوراة والكتابات الآشورية والبابلية بل والجاهلية ، أي الكتابات العربية التي تعود الى ما قبل الاسلام ، كانت كلها اذا ذكرت الحضر ، ذكرتهم بأسمائهم ، ولم تطلق عليهم لفظة (عرب) ، أما اذا ذكرت أهل البادية ، فانها تستعمل لفظة (عرب) و (عربي) ، أي أعراب وأعرابي مع أسمائهم ، وذلك مثل (جندب) ، وهو رئيس قبيلة ، وقد حارب الآشوريين ، فقد دعي في الكتابات الآشورية بـ (جندب العربي) ، أو (جندب الأعرابي) بتعبير أصح ، ومثل (جشم) الذي نعت في سفر (نحميا) من أسفار التوراة بـ (جشم العربي) اشارة الى كونه من الاعراب ، لا من الحضر ، وهو من الملوك كما سبق أن تحدثت عنه في الجزء الاول من هذا الكتاب .[2] الى غير ذلك من أمثلة تحدثت عنها في أثناء حديثي عن لفظة عرب .

اما (يقطن) وهو (قحطـــان) : ونسله مثل : سبأ وحضرموت . واما (اسماعيل) ونسله ، وأما اهل (تيماء) و (مدين) وأمثالهم ، فلم تطلق التوراة عليهم لفظة (عرب) ، لأنهم لم يكونوا اعراباً ، بـــل كانوا حضراً ، ولهذا ذكرتهم بأسمائهم ، فاستعمال (عرب) اذن بمعنى اهل الحاضر والحاضرة ، او اهل المدر ، هو استعمال متأخر ، ظهر بعد الميلاد .

لقد ذهب علماء العربية كما سبق ان بينت في الجزء الاول من هذا الكتاب ، الى ان العربية هي لغة (يعرب) ، وهو اول من اعرب بلسانه على حدّ قولهم ، وذهبوا الى ان العـــدنانيين متعربون ، ولم يكونوا عرباً في الاصل ، ثم تعلموا

---

١ بلوغ الارب (١/١٢) .
٢ (ص ٦٤٦ وما بعدها) .

واختلطوا بالعرب حتى صاروا طبقة خاصة منهم.[1] وذهبوا الى ان التبابعة كانوا عرباً ينظمون الشعر بالعربية التي نظم بها الشعراء الجاهليون شعرهم. ثم ذهبوا الى ان (حمير) كانت تتكلم بلسان غريب عدّه بعض العلماء غير عربي.[2] مع انها من لبّ العرب الصرحاء على حسب رأيهم ، ولم يبينوا كيف وقع ذلك عندهم ، الى آخر ما نراه عندهم من آراء ، لم تبن على دراسات تأريخية اصلية ونصوص جاهلية .

ولو كان المذكورون احياء في هذا اليوم ، ولو كانوا قد وقفوا على النصوص الجاهلية المختلفة وقرأوها ، لغيّروا رأيهم حتماً من غير ريب ، ولقالوا قولاً آخر غير قولهم المتقدم في العربية وفي سبب تسميتها . فعربية القرآن الكريم هي عربية اهل مكة وما والاها ، وهي عربية الاعراب ، اي عربية اهل البادية . اما عربية اهل اليمن ، وهم صلب القحطانية ، فعربية اخرى . وان اردتَ قولاً اصح تعبيراً وأدق تحديداً ، فقل : عربيات اخرى. فعربية يعرب ان تجوزت وجاريت رأي اهل الانساب والاخبار وقلت قولهم في وجود جدّ وهو يعرب ، يجب ان تكون عربية اخرى ، بل عربيات مخالفة لعربية اهل مكة ، وذلك استناداً الى النصوص الجاهلية المدوّنة بأقلام ابنائه وحفدته والواصلة الينا . ولما كانت اللغة العربية ، هي عربية القرآن الكريم في رأي علماء اللغة ، وهي عندهم وحدها اللغة الفصحى ، وأشرف لغات العرب ، اذن فلغة يعرب على هذا القياس لغة اعجمية غير عربية ، او عربية من الدرجات الدنيا ان اردنا التساهل في القول . وعندئذ يكون يعرب هو العربي المتعرب ، ويكون نسله على وفق هذا المنطق ، هم العرب المستعربة ، لا العرب العدنانيين .

ويكون العدنانيون هم أصل العرب ولبّها والعرب العاربة الأولى ، أي عكس ما يراه ويزعمه اهل الاخبار . أحكي هذا القول بالطبع متجوزاً أو مجارياً رأي اهل الاخبار ولا أحكيه لأني أراه ، فأنا لست من المؤمنين بمثل هذه الاقاصيص التي يقصها علينا القصّاص ، ولا سيما قُصّاص اهل اليمن من امثال وهب بن منبه وابن اخته ، أو ابن الكلبي ، وبعض القصّاص الذين هم من اصل يهودي

---

١ تاج العروس (٣٧١/١) ، (عرب) .

٢ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (١٥/١ وما بعدها) .

مثل وهب المذكور ومحمد بن كعب القرظي. فرأيي أن كل لغات العرب الجاهلية هي لغات عربية ، وأنها كانت متباينة عديدة ، وبعضها لغات وصلت مرحلة التدوين مثل المعينية والسبئية والقتبانية والحضرمية وغيرها. ولغاتٌ تصل الى درجة التدوين عند المتكلمين بها ، لا يمكن أن تعدّ لغات سوقة ولهجات عامة .

وبعد فلست أرى أن بين (يعرب) المزعوم ، وبين لفظة (العربية) والعرب أية رابطة أو صلة ، وأن الصلة المزعومة المذكورة التي يذكرها أهل الاخبار في تفسير اللفظة ، هي صلة خلقت خلقاً وصنعت صنعاً ، لكي يجد صانعوها لهم مخرجاً في تفسيرها ، وليس تفسيرهم هذا هو أول تفسير أوجدوه ، فلدينا مئات من التفاسير المصنوعة ، لألفاظ أشكل أمرها على الرواة وأهل الاخبار ، فوضعوا لها تفسيرات على هذا النمط ، ليظهروا أنفسهم مظهر العالمين بكل شيء .

هذا وقد قلنا ان العربية هي بمعنى الاعرابية ، أي البداوة في لغة الأعاجم وفي لغات أهل جزيرة العرب أنفسهم ، وهي نسبة الى العرب ، والعرب هم الأعراب في البدو في لغات المذكورين. فتكون العربية اذن بمعنى عربية الاعراب : اي لغة اهل الوبر ، وقد نسبت اليها ، لا الى يعرب بن قحطان . وهي بالطبع لم تكن لهجة واحدة ، أي عربية واحدة ، بل كانت لهجات . قيل لها عربية ، لأن الاعراب وان كانوا قبائل ، تجمع بينهم رابطة واحدة ، هي رابطة البداوة ، فكأنهم طبقة واحدة ، تقابلهم طبقة (اهل المدر) ، وهم الحضر . لذلك نعت لسانهم بلسان عربي . ولما كانت البداوة أعم من الحضارة في بادية الشام وفي طرفي الهلال الخصيب ونجد والحجاز والعربية الشرقية ، صار لسانها اللسان الغالب في هذه الأرضين ، وبلسانها نظم الشعراء شعرهم ، وبلسان عرب الحجاز نزل القرآن الكريم ، فصار لسانهم لسان الوحي والاسلام .

ومن ثَمّ صار اعتماد اوائل علماء العربية في دراستهم لقواعد اللغة من نحو وصرف ومن استشهاد بشواهد على (العرب) ، أي أهل الوبر من ابناء البادية ، من الاعراب المعروفين بصدق لسانهم وبصحة اعرابيتهم وبعدم تأثر ألسنتهم بألسنة الحضر من اهل الحواضر ، بل لم يكتف اولئك العلماء بألسنة هؤلاء الاعراب القادمين عليهم من البوادي ، لأسباب لا مجال لذكرها هنا ، فركبوا ابلهم وذهبوا بأنفسهم الى صميم البوادي البعيدة عن الحضر ، ليأخذوا اللغة صافية نقية من افواه رجالها الأصلاء الذين لم يتعلموا خدع اهل الحاضرة وغشهم وكذبهم ، ولم تنحرف

ألسنتهم عن ألسنة أجدادهم ، ولم تتأثر بأحرف الأعاجم المندسين في القرى والمدن والأرياف . فكان (سيبويه) مثلاً اذا استشهد بشاهد أشار الى أنه من (العرب الذين ترضى عربيتهم) أو من (العرب الموثوق بعربيتهم) [١] ، أو من (العرب الموثوق بهم) ، أو من (فصحاء العرب) . وكان يرى أن لسان اهل الحجاز هو (الأول والأقدم) [٢] . وكان علماء اللغة اذا اختلفوا في شيء من اللغة من ألفاظ أو قواعـد ، حكّموا أهل البادية ، اي الأعراب فيما شجر بينهم من خلاف ، حتى وإن كان اولئك العلماء من اوثق الناس علماً بعلم العربية ، فحكموا الاعراب مثلاً في المناظرة اللغوية التي وقعت بين سيبويه والكسائي والأخفش في حضرة (يحيى بن خالد) مع أنهم اعلم الناس بعلوم العربية[٣] . وقد اورد (ابن النديم) اسماء عدد من (الاعراب) كان علماء العربية يلجؤون اليهم في الملمّات ، ويأخذون عنهم ، ويحكّمونهم فيما يقع بينهم من خلاف . فهم (حُكّام) ذلك الزمن وقضاته ، يحكمون في منازعات الناس في اللغة . [٤]

والحد الفاصل بين الحضارة والبداوة ، هو طراز الحياة ونوعها ، فالحضر اهل قرار . والاعراب ينتجعون ويتتبعون مساقط الغيث يرعون الكلأ والعشب اذا اعشبت البلاد ، ويشربون (الكرع) وهو ماء السماء ، فلا يزالون في النجع الى ان يهيج العشب من عام قابل وتنش الغدران ، فيرجعون الى محاضرهم على إعداد المياه . [٥] وحياتهم على الإبل فلا يعتنون بتربية ماشية غيرها . ومن هنا اقترنت البداوة بالبادية وبتربية الإبل ، التي تنفرد عن غيرها من الحيوانات بقابليتها على المعيشة في البادية وبقوة صبرها على تحمل الجوع والعطش اياماً ، بينما تقصر همم الحيوانات الاخرى عن مجاراتها في هذا الباب . ومن هنا نقصد بالاعراب : البدو الحقيقيين ابنـاء البادية وأصحاب الجمال الذين ينتجعون ويتتبعون مساقط الغيث ويشربون الكرع ويكون تماسهم بالحضارة والحضر قليلاً . [٦]

١ الكتاب (١/٩٣ ، ١٥٣ ، ٤٥١) ، (٢/٢٦٤ ، ٤٢٣ ، ٤٥١) .
٢ الكتاب (٢/٤١ ، ٤٢٤) ، يوهان فك ، العربية : دراسات في اللغة واللهجات والاساليب ، (ص ٥٠ وما بعدها) ، (تعريب عبد الحليم النجار) .
٣ الفهرست (٨٢ وما بعدها) .
٤ الفهرست (ص ٧١ وما بعدها) .
٥ تاج العروس (٥/٥١٩) ، (نجع) .
٦ De Vaux, Ancient Israel, P. 3.

وما أقوله يخص اعراب نجد وبادية الشام بالدرجة الأولى . أما أعراب العربية الجنوبيـة ، فإن وضعهم يختلف عن وضع هؤلاء الاعراب . فهم وان عدّوا اعراباً ونُص عليهم بـ (اعرب) (أعراب) في نصوص المسند . لكنهم لم يكونوا اعراباً نقّلاً ، يعيشون على تربية الإبل والغارات وعلى بعض الزراعة وكره الاشتغال بالحرف ، بل كانوا شبه مستقرين سكنوا خارج المـدن والقرى في مستوطنات متجمعة مؤلفة من بيوت وأكواخ وعشش من طين . ومارسوا تربية الإبل والماشية الاخرى ، واشتغلوا بالزراعة وبالحرف اليدوية لم يجدوا في ذلك بأساً . وكانوا يغيرون على الحضر ان وجدوا فرصة مؤاتية ولم يكونوا اقوياء بالنسبة الى الحضر ، لوجود حكومات منظمة ، في استطاعتها ضربهم ان تحرشوا بأهل المدن والقرى . ولهذا لا نجد للأعراب ذكراً في نصوص المسند القديمة ولم يظهر اسمهم فيها كقوة ضاربة الا بعد الميلاد وقبيل الاسلام . حين ارتبك الوضع السياسي في العربية الجنوبية ، وتدخل الحبش في شؤونها ، وولع بعض ملوكها مثـل الملك (شمر يهرعش) في اثارة الحروب . مما أفسح المجال للأعراب فجربوا حظهم بالدخول في لعب الحروب . فلما وجدوا لهم حظـاً حسنـاً وربحاً طيباً ، مارسوها مع هذا الحاكم أو ذاك ، وظهر اسمهم عندئذ في المسند . بل دخل في اللقب الرسمي الذي حمله الملوك فصار اللقب : (ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت وأعرابها في الهضاب وفي التهائم) . وطمع أعراب نجد في الحصول على مغانم في العربيـة الجنوبية فارتحلوا نحوها ، وزاد بذلك عدد الاعراب . ومن هؤلاء كندة الذين تركوا ديارهم بنجد بعد نكبتهم وانضموا الى اخوانهم في العربية الجنوبية فصار لهم فيها شأن كبير ، حتى ذُكروا في النصوص ، ومنها نصوص أبرهة .

ومعاش الحضر ، على الارض يزرعونها ويعيشون عليها ، أو على التجارة أو على الحرف اليدوية ونحوها . ومن طبيعة أهل الحضر الاستقرار في أرض تكون وطناً ثابتاً لهم ، ومقاماً يقيمون فيه فيحبونه ويموتون في سبيله . أما أهل الوبر ، فهم رُحّل ، يتنقلون طلباً للماء والكلأ والامتيار ، فوطنهم متنقل فلق غير مستقر . الارض كلها وطنهم ، ولكنها الارض التي يكونون فيها ، فاذا ما ارتحلوا عنها ، صارت الارض الجديدة وطنـاً لهم جديداً . أما الارض القديمة فتكون وطنـاً لمن يحل فيها من طارىء جديد أو طارىء قديم .

والمشهور عند العرب وعند الأعاجم ، أن العرب قوم يكرهون الزراعة والاشتغال

بالحرف والصناعات . ويستخفون بشأن من يشتغل بها ويزدرونه ، فلا يتزوجون منه ولا يزوّجونه منهم . وينطبق هذا القول على الاعراب وعلى بعض الحضر الى حد ما . لكنه لم ينطبق على كل العرب . فالعرب الحضر ، الذين وُجد الماء بغزارة عندهم ، غرسوا الأشجار أيضاً وزرعوا ، لم يجدوا في ذلك خسّة ولا دناءة . والعرب اللذين توفرت لهم مواد العمل وظروف العمل ، اشتغلوا بالحرف وبالصناعات ، كما هو شأن الطائف والعربية الجنوبيــة بل وبعض رجال مكة ايضاً . أما الذين ازدروها وكرهوها فهم الذين لم تتوفر لهم الاسباب التي تغريهم على الاشتغال بالحرف والصناعات ، ولم تتوفر لديهم المواد الأولية ولا الظروف المساعدة على قيام الحرف . لذلك كرهوها كره من يكره شيئاً لأنه لا يملكه ولا يناله ، أو لأن يده لا تصل اليه ، ولو ملكه لغيّر حكمه عليه من غير شك .

وقد أشار (أمية بن خلف الهذليّ) الى اشتغال أهل اليمن بالحرف ، بقوله :

يمانياً يظل يشدّ كيراً ويَنفخ دائباً لهب الشواظ [1]

وقد أمدّ أهــل اليمن الحجاز وأماكن أخرى من جزيرة العرب بالسيوف وبمصنوعات المعادن وبالبرد والأنسجة الأخرى . كما عرفوا باتقانهم البناء والنجارة وغير ذلك من حرف الحضر ، التي أشير اليها في الشعر الجاهلي .

وقد عيب على اهل اليمن اشتغالهم بالحرف : كالحدادة والحياكة والصياغة وما شاكل ذلك من حرف ، على نحو ما تحدثت عن ذلك في فصل : (طبيعة العقلية العربية) . ولكنّ مَنْ عابهم كان عالة عليهم وعلى غيرهم من أهل الحرف في أكثر الأمور التي كانت تخصّ شؤون حياتهم اليومية ، كالسيوف والخناجر الجيدة مثلاً التي هي عماد المحافظة على حياة الانسان في البادية . كما اعترف لهم بالتفوق على مَنْ كان يزدري الصناعة والحرف . فكانوا يخافونهم في الحروب ، ويهابونهم عند القتال ، لامتلاكهم أسلحة لا يملكونها هم . وكانوا يلجئون اليهم لتنصيب رئيس منهم عليهم . تهابه القبائل لصعوبة انصياع القبائل لقيــادة رئيس منها ، بسبب التحاسد القبلي ، كما كانوا يخضعون لحكم أهل اليمن بسبب تفوقهم عليهم في السلاح وفي الثقافة الى غير ذلك من أسباب ترجع في الواقع الى الطبيعة التي

---

[1] تاج العروس (٩/٣٧١) ، (يمن) .

عطفت على اليماني وعلى العربي الجنوبي ، ففوّقته على الاعراب .

ولما كانت طبيعة الجفاف هي الغالبة على جزيرة العرب ، كان لهذه الطبيعة أثرها في حياة العرب ، فغلبت البداوة على الاستقرار ، وأثرت في النظم والآراء السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحربية وفي سائر نواحي الحياة الأخرى . لقد حالت دون قيام المجتمعات الكبرى القائمة على الاستقرار والاستيطان واستغلال الارض ، وجعلت من الصعب قيام الدول الكبيرة في هذه البلاد ، وتكوين حكومات تقوم على احترام حقوق جميع أبناء الحكومة دون نظر الى البيوتات والعشائر والقبائل والرئاسات .

وفي الأماكن التي توافرت فيها المياه ، المياه النابعة من الارض او النازلة من السماء ، نشأت مجتمعات مستقرة ؛ وظهرت حكومات ، غير أنها حكومات اختلف طابعها وشكلها باختلاف المحيط الذي ظهرت فيه ، والاحوال الطبيعية التي ألمت بها ، والقدرة المادية التي تيسرت لديها . فيها الحكومات الصغيرة التي قد تكون حكومات (قرية) ، أو رئاسات عشائر ، وفيها ما يمكن أن يعبر عنه بحكومات مدن ، إن جاز اطلاق مصطلح (المدن) عليها ، وفيها حكومات أكبر وأوسع مثل حكومات الحيرة والغساسنة ، وفيها حكومات مثل حكومات العرب الجنوبيين ، وهي حكومات كبيرة اذا قيست الى الحكومات التي كونها سادات القبائل في أنحاء أخرى من جزيرة العرب ، ولم تعمر طويلاً ، بل كانت مثل رغوة الصابون ، لا تكاد تنتفخ حتى تزول ، وذلك لأسباب وعوامل لا يتسع لها صدر هذا المكان .

فالطبيعة هي التي صيّرت العرب على هذا الحال ، وهي التي غلبت عليهم البداوة . إذ حرمتهم من الماء وجادت عليهم برمال تلفح الوجوه ، وبسموم مؤذية وبحرارة شديدة ، وبأرض متسعة تظهر وكأنها بحر من رمل لا حدّ له ، صيّرت من وُلد فيها انساناً قلقاً هائماً على وجهه ، يتنقل من مكان الى مكان بحثاً عن ماء وأكل . خلا الأماكن السخية التي خرجت منها دموع جرت فوق الأرض بقدر وبمقدار ، أو مواضع قَرُبَ الماء فيها من سطح التربة فاستنبطه الانسان ، أو أماكن انهمرت من سمائها العاشقة للأرض دموع حبها في مواسم من السنة فأصابت الأرض بطلّ ، فاستهوت الانسان ، واستقر بها وتحضر . وصار العرب من ثم بدواً وحضراً ، أهل بادية وأهل حاضرة .

ومن آيات ذلك ، أننا نجد قبيلة واحدة ، فيها بادية وفيها حاضرة ، استقرت وتحضرت وسكنت في بيوت ثابتة ، لا يهمنا أكانت بيوتها من صخر أو من حجر أو من مدر أو من بيوت شعر ، إنما المهم انها بيوت ثابتة ارتبطت بالأرض ، شعر قطانها ان لهم صلة بهذه الأرض وان لهم بها رابطة ، لا يحل عقدها إلا الموت أو الضرورات القصوى . فقريش حاضرة وبادية . وجهينة حضر ، أقاموا بينبع وقرية (الصفراء) ، وأعراب هبطوا رضوى و (عَزْوَرَ)[1] . و (همدان) حاضرة وبادية . ونهد حضر ، وهم من سكن الصفراء منهم ، وأهل وبر ، وهم من سكن دون المدر في جبلي رضوى وعَزْوَرَ[2] . وتنوخ حضر ، وتنوخ أهل بادية وتنقل . الى غير ذلك من قبائل ، استقرت أحياء منها ، وتبدت أحياء أخرى منها .

ثم إننا نجد قرى منتشرة في مواضع من العربية الغربية وفي نجد والعربية الشرقية أو العربية الجنوبية ، وقد سكنها قوم عرب حضر زرعوا وحفروا لهم الآبار وتعهدوا العيون بالرعاية ليستفيدوا من مياهها ، وجاؤوا بأشجار من الخارج لزرعها هناك . وفي كتب (الهمداني) و (عرام) ، وكتب غيرهما ممن بحث عن جزيرة العرب أسماء قرى ومدن جاهلية ، كانت ذات مزارع وحدائق ، أما اليوم ، فبعضها أثر ، وبعض منها قد زال وذهب مع الذاهبين ، لم يترك له حتى بقية من أثر . وتلك المواضع هي دليل في حد ذاته على ان الماء إذا وجد في مكان ما أكره سكانه على الاستقرار به ، وأجبر قسماً من أهله على الاشتغال بالزرع . ولم ينضب الماء من تلقاء نفسه عن المواضع التي اندثرت وماتت وإنما وقعت أحداث لا مجال لي للبحث عنها في هذا المكان ، ومنها الهجرة الى خارج جزيرة العرب بالفتح وتحول الطرق التجارية العامة وإعراض الحكومات عن الاهتمام بشؤون جزيرة العرب ونحوها ، فأكرهت السكان على الارتحال عنها ، فأهملت آبارها وترستها الرمال فجفت وذهب ماؤها عنها .

وفي تلك المواضع التي توفرت فيها المياه من مطر وعيون وآبار ومياه جوفية

---

١ بفتح العين وسكون الزاي وفتح الواو ، اللسان (٥٦٣/٤) ، (عزر) ، عرام ، أسماء جبال تهامة (٨ وما بعدها) .

٢ عرام (٧) .

قريبـة من سطح الأرض ظهرت الحضارة على شكل قرى ومستوطنات وأسواق موسمية ، كان لها كلها أثر خطير في حياة العرب عموماً من عرب وأعراب . لما كان يقع فيها من اتصال ومن تبادل آراء بين الحضر والبدو ، وبين هؤلاء جميعاً وبين الأعاجم الذين كانوا يؤمونها للاتجار بها بصورة مؤقتة أو دائمة ، حيث كانوا يقيمون بها اقامة طويلة أو أبدية ، وبالأعاجم الذين كانوا يقيمون فيها رقيقـاً مملوكاً لمن اشتراهم من الملاكين . وبذلك حدث نوع من التلقيح في الآراء والأفكار وفي شؤون الحياة : تلقيح مهما قيل فيه وفي درجته ، فإنه تلقيح على كل حال [١] . وهذه المواضع هي التي كونت وخلقت تأريخ العرب فيما قبل الإسلام .

وقد نبّه (الجاحظ) الى الاختلاف بين البدوي والحضري ، والسهلي والجبلي ، فأشار الى اختلاف ما بين الطائي الجبلي والطائي السهلي ، والى اختلاف ما بين من نزل البطون وبين من نزل الحزون ، وبين من نزل النجود وبين من نزل الأغوار ، ثم الى ما ترك هذا الاختـلاف في المواضع والمكان من أثر في اختلاف اللغة ، فتحالفت عليا تميم ، وسُفلى قيس ، وعجز هوازن وفصحاء الحجـاز في اللغة . وهي في أكثرهـا على خلاف لغة حمير ، وسكان مخاليف اليمن . (وكذلك في الصورة والشمائـل والأخلاق . وكلهم مع ذلك عربـي خالص) . وأشار الى ما تركه هذا السكن من أثر في أخلاق العرب ، حتى ليقال : (إن هذيـلاً أكراد العرب) [٢] . بسبب طباعهم وصبرهم على تحمل القتال .

كما أشار (الجاحظ) الى ان هذا الاختلاف ظاهر في العرب جميعاً ، قحطانيين وعدنانيين . ومع ذلك فهـم كلهم عرب ، لأنهم استووا في التربـة وفي اللغة والشمائل والهمة وفي الأنفة والحمية ، وفي الأخـلاق والسجية ، فسبكوا سبكاً واحداً ، وأفرغوا افراغاً واحداً [٣] .

وكان من أثر اختلاف طبيعة الجو والأرض والضغوط الجوّية في أهل جزيرة العرب ، ان صار لأهل المدر مجتمع يختلف في شكله وتكوينه عن مجتمع أهـل الوبر ، وان صار مجتمع أهل المدر جملة مجتمعات اختلفت في تكوينها باختلاف

١ Hastings, Dictionary of the Bible I, P. 133.

٢ رسائل الجاحظ (١/١٠ ، ٧١) ، (مناقب الترك) .

٣ رسائل الجاحظ (١/١٠ وما بعدها) ، (مناقب الترك) .

الظروف المؤثرة التي تحدثت عنها ، وباختلاف المؤثرات الخارجية المحيطة بها أو المجاورة لها والقريبة منها في ظروف تلك المجتمعات . وصار من ثم مجتمع العرب الجنوبيين ، ولا سيما مجتمع اليمن ، مجتمعاً خاصاً له طبيعة خاصة وشخصية مستقلة متأثرة بظروف اليمن الكلية من طبيعة أرض وطبيعة جوّ ، وصار لأهل مكة وهم أشبه بأهل الحضر مجتمع خاص له طابع متميز ، وصار لأهل الحيرة طابع خاص بهم ، وصار لأهل يثرب كذلك مجتمع وطبيعة خاصة متميزة ، وهكذا قل عن بقية المجتمعات الحضرية .

فمجتمع اليمن مثلاً مجتمع خاص نجد فيه صفات المجتمع الحضري أكثر مما نراه في أي مجتمع حضري آخر في جزيرة العرب، مجتمع يختلف حتى (عربه) أي بدوه وهم الطبقة الثانية من هذا المجتمع ، عن أعراب بقية جزيرة العرب . فهم بالقياس الى بدو الجزيرة شبه أعراب ، ووسط بين البداوة الصرفة وبين أدنى درجات الحياة الحضرية الساذجة ، المستندة الى الاستقرار والتعلق بالأرض . ومجتمع اليمن الحضري مجتمع استغل عقله ويده في سبيل تكييف حياته واسعاد أيامه في الدنيا ، فاستغل الأرض وكيفها بحسب قدره واستعداده في انتاج الغلة الزراعية وفي انتاج المعادن وفي تربية الحيوان ، وأقام له قصوراً وحصوناً ، واستورد آلات حية يستعملها وتيسر له ما يحتاج اليه — استوردها من كل الأنحاء من الشمال ومن العراق ومن بلاد الشأم ، واستوردها من إفريقية . وسخرها في استغلال الأرض وفي إقامة الأبنية وفي أداء الأعمال اليدوية التي تحتاج الى حذق ومهارة ، فتفوق هذا المجتمع من ثمّ وبمزايا إقليمه من جوّ وأرض على المجتمعات العربية الأخرى ، وأنتج حضارة لا نجد لها مثيلاً في بقية أنحاء جزيرة العرب .

فعرف اليمن في جاهليته واشتهر بمهارته وبحذقه بحرف وبمنتجات بقي ذكرها خالداً الى الإسلام ، وتميز عن غيره بحسن الذوق وبالبراعة في استعمال أنامله . وحين برع بقية عرب الجزيرة في التعبير عن أحاسيسهم بكلام منظوم ، نجد عرب اليمن وبقية العربية الجنوبية يعبرون عن أحاسيسهم بنقشها على المرمر وعلى بقية الأحجار وعلى المعادن والخشب ، ونجد السيوف اليمانية ، ولها شهرة وخبر ، ونجد بُسُطَ اليمن وبرودهم واكسيتهم مشهورة لها صيت في كل مكان ، لا يدانيه صيت أي صنف مما ينتج في مكان آخر من أمكنة جزيرة العرب ، ونجد لهم ذكراً في الصياغة وفي سوق الأحجار الكريمة والعطور ، وغير ذلك من المنتجات التي تحتاج الى يد وفكر .

ومجتمع اليمن المتحضر ، مجتمع طبقي ، تكوّن من طبقات : طبقات رفيعة ذات منزلة ومكانة عالية ، تتلوها طبقات أخرى أقل درجة ومنزلة حتى تنتهي بالطبقات الدنيا التي تكون قاعدة لهرم هذا المجتمع وسواد الناس . وهي طبقات تكاد تكون مقفلة ، أو شبه مقفلة إن صح هذا التعبير ، ولا سيما بالقياس الى الطبقات الدنيا ، التي تجنبت الطبقات التي هي فوقها التصاهر معها والاتصال بها ، للفروق المنزلية التي تشعر بوجودها فيما بينها . ثم إن الناس فيهما يرثون منازل آبائهم ودرجاتهم ، فابن النجار نجار ، وابن الحداد حداد في الغالب ، وابن التاجر يرث عمل والده ، ويستطيع تغيير حرفته وتحسين حاله ، إذْ ليس لديهم قوانين الزامية تجبر الناس على البقاء في طبقتهم الى أبد الآبدين ، ولكن مثل هذا التغيير لا يقع إلا إذا كان الشخص ذا استعداد وكفاية وطموح ، فيشق طريقه بنفسه هاتكاً ستور الأعراف والعادات .

وما زالت الحياة الاجتماعية في العربية الجنوبية ، تستمد قوتها وحياتها من جذور الحياة الاجتماعية القديمة التي كانت عليها قبل الإسلام . فقد نشأت هذه الحياة ونبتت من حاصل ظروف ذلك المجتمع الذي تحدثت عنه ، وحافظ على خصائصه الى هذا اليوم ، لأنه عاش في عزلة عن العالم الخارجي ، أو في شبه عزلة ، ولهذا بقي يعيش على ما تغذيه به بقايا جذور تلك الأيام من غذاء[1] .

والحضر ، وان استوطنوا واستقروا في أماكن ثابتة ، لم يكونوا حضراً بالمعنى المفهوم من اللفظة عندنا ، فلم يكونوا على شاكلة حضر الروم أو الفرس ، ولا على شاكلة حضر العراق أو حضر بلاد الشأم من غير العرب . انهم حضر من ناحية السكنى والاستقرار ، أي من ناحية تعلقهم بالأرض ونزولهم بها واستيطانهم فيها ، وعدم ارتحالهم عنها على نحو ما يفعل الأعراب ، واتخاذهم مساكن دائمة في مكان ما . أما من ناحية التفكير وطراز المعيشة ونظم الحياة الاجتماعية : فقد بقوا مخلصين لِمُثُل البوادي ولطبيعتها في الحياة . فهم في قراهم ومدنهم (بيوت) و (بطون) ، يقيمون في (شعاب) ولهم عصبية . وهم مثل الأعراب في أكثر مألوف حياتهم . وما زال هذا الطابع الأعرابي بادياً على حياة من نسميهم الحضر في جزيرة العرب وفي خارجها ، مؤثراً في حياتهم السياسية والاجتماعية بل

---

١ Naval, P. 405

في عقلية من نسميهم (المثقفين) الدارسين من مدنيين وعسكريين ، ذلك لأن عقول هؤلاء المثقفين وإن حُشيت بالمعلومات وبالعلوم ، لم تتمكن مع ذلك من التخلص من إرث البداوة المستمدة من طبيعة الجوّ وأثرها في الناس ، في الماضي السحيق وفي الحاضر ، ومن طبيعة المجتمع الذي خلقته هذه الطبيعة وجبلت الناس عليه . ومن أهم صفاته : العنجهية ، والتغني بذكريات الماضي : والابتعاد عن الواقع وعن مشكلات الحياة العلمية ، واللجوء الى العواطف والخيال ، والاسراف في تمجيد النفس الى حد أدى الى ازدراء كل ما هو غير عربي من إنسان ومن نتاج إنسان . أضف اليها (العصبية) بأنواعها : العصبية للأهل والعصبية للعشيرة ثم القبيلة فالحلف في حالة الأعرابية ، والعصبية للأهل والبيوت والشعاب ثم للقرية أو المدينة والقبيلة التي يرجع أهل القرى نسبهم اليها في الأخير ، وذلك بالنسبة الى أهل المدن . ثم الفردية المفرطة التي جعلت من الصعب على الفرد الانقياد لغيره والخضوع لأحد إلا اذا وجد نفسه أمام مصلحة خاصة أو أمام قوة ، ذلك لأنه يرى نفسه أشرف الناس ، وان من المذلة خضوعه لحكم أحد ، ولا سيما اذا كان من يحكمه من أناس هم دون أهله ، ومن عشيرة دون عشيرته . ثم ليس هو هو من أهل الجاه ولا من أهل المال ، فكيف يسلم أمره اليه ؟

الرعـاة :

وندخل في الحضر الرعاة : رعاة الغنم والمعز والبقر ، ذلك لأنهم اضطروا بحكم طبيعة حياة حيواناتهم الى شيء من الاستقرار ، والى عدم التنقل مسافات بعيدة طويلة في البوادي على نحو ما يفعل الأعراب . ثم انهم يعيشون على الآبار وبرك الماء وعلى مقربة من الحضر ، وفي وضع يجعلهم شبه مستقرين في أكثر أيام حياتهم . وهم (أعراب الضواحي) ، وعنصر مهم من عناصر تكون القرى والمستوطنات ، إذْ ان قربهم من الحضر واعتماد حياتهم عليهم ، يحملانهم على التأثر بهم ، وعلى التقرب منهم ومن مستوطناتهم . فتصير (الخيمة) بيتاً مستقراً ، ثم تصير (كوخاً) من طين أو من أغصان شجر ، ثم تتحول بيتاً من بيوت قرية أو حيٍّ من أحياء مدينة ، لما في المدينة من وسائل معاشية تستهوي الناس ، لا تتوافر في الضواحي البعيدة ، فتحول الرعاة قطّان مدن .

ولا يشترط في الرعاة الاقتصار في حياتهم على تربية الغنم ، إذْ فيهم من يربي الإبل أيضاً ، وهم (رعاة الإبل)[1] . والفرق الوحيد بينهم وبين الأعراب وهم رعاة الإبل ، ان الرعاة يلازمون أرضهم واذا تنقلوا طلباً للماء والكلأ فلا يذهبون الى مسافات بعيدة ولا يمعنون في اختراق البوادي ، لأنهم لا يستطيعون الابتعاد عن الماء كثيراً ولا يستطيعون الاكتفاء بكلأ البادية لوجود ماشية أخرى عندهم لا تستطيع الصبر على الجوع طويلاً ، كما ان اتصالهم بالحضر أكثر من اتصال الأعراب بهم . ومنازلهم هي في الغالب خليط من بيوت مدر ومن بيوت وبر . ولكنها ثابتة على العموم وحياتهم وسط بين البداوة والحضارة . والأرض التي يقيمون بها تكون ذات آبار وعيون ومتجمعات أمطار ، وهم لا يبتعدون عنها كثيراً ولا يفارقونها لارتباط معيشتهم بها . بينما تكون حياة الأعراب على الغيث في الغالب ، وعلى الآبار والتنقل .

وفي العربية لفظة (جشر) . ذكر علماء اللغة انها تعني القوم يبيتون مع الإبل في المرعى لا يأوون بيوتهم . والقوم يخرجون بدوابهم الى المرعى ويبيتون مكانهم لا يأوون البيوت . والمال الذي يرعى في مكانه لا يرجع الى أهله بالليل . وان تخرج بخيلك فترعاها أمام بيتك[2] . الى آخر ذلك من معان تدل على ان الجشر رعاة يخرجون الى المجاشر ، أي المراعي لرعي إبلهم أو خيلهم بعض الوقت ، اذا شبعت إبلهم واكتفت ، عادوا بها الى بيوتهم فأقاموا بها .

الأعراب :

أما أهل الوبر ، وهم الأعراب ، فحياتهم حياة تنقل وارتحال ، وعماد حياتهم (الإبل) ، ولولا هذا الحيوان الصبور لما تمكن الاعرابي أن يقهر البوادي ، وأن يوسع تنقله في أنحائها ، وأن يعيش في هذه الأرضين المقفرة الشحيحة التي يشح فيها سقوط المطر ، ويضطر الانسان فيها الى ضرب الارض بأرجل جمله بحثاً عن الكلأ والماء . ولهذا صار (الجمل) (المال) الوحيد الذي يملكه

١ تاج العروس (١٠/١٥٢) ، (رعي) .
٢ اللسان (٥/٢٠٧) ، تاج العروس (٣/١٠٠) ، (جشر) .

الاعرابي ، به يقدر الأسعار ، وبه يقدر (الصِداق) وثراء الانسان .

وقد سبق لي أن تحدثت عن معنى (عرب) ، وعن المراد منها الى قبيل الاسلام ، فلا حاجة لي هنا الى اعادة الكلام عن شيء سبق ان تكلمت عنه . أما مصطلح (أهل الوبر) ، فمعناه (عرب) ، أي أعراب بالمعنى الجاهلي القديم . وذلك لأن الأعراب قوم نقل ، يتنقلون من مكان الى مكان ، حاملين بيوتهم وما يملكونه معهم ، وبيوتهم هي الخيام ، وهي مصنوعة من (الوبر) : وبر الإبل في الغالب ، ولذلك عرفوا بها [1] . وعرفوا في الموارد اليونانية بـ (أهل الخيام) وبـ (سكنة الخيام) ، وقد استعمل أعراب العراق وبادية الشأم وأعراب بلاد الشأم الخيام المصنوعة من شعر الماعز ، وهي خيام لونها السواد ، وقد أشير اليها في التوراة وفي موارد تأريخية أخرى .

وذكر علماء اللغة ان العرب : سكان القرى والمدن أي الحضر، أهل الحاضرة . أما الأعراب ، فهم سكان البادية من هذا الجيل . ويقال للرجل أعرابياً اذا كان بدوياً همه البحث عن الكلأ وتتبع الغيث والرعي . وأما من ينزل الريف ويستوطن القرى والمدن ، فهو عربي ، وان كان دون الأعراب في الفصاحة وفي سلامة اللغة . ويقال للأعراب (الأعاريب) ، وذلك جمع للاعراب . فالأعرابي البدوي ، وهو صاحب نجعة وانتواء وارتياد للكلأ ، وتتبع لمساقط الغيث، وسواء كان من العرب أو من مواليهم [2] . ومن نزل البادية ، أو جاور البادين وظعن بظعنهم ، وانتوى بانتوائهم : فهم أعراب . ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها مما ينتمي الى العرب : فهم عرب ، وان لم يكونوا فصحاء [3] .

ويذكر علماء اللغة ان البادية من البروز والظهور . قيل للبرية لكونها ظاهرة بارزة . وان البادية اسم للأرض التي لا حضر فيها ، وهي خلاف الحاضرة

١ تاج العروس (٣/٥٩٤) ، (وبر) .
٢ روح المعاني ، للألوسي (١١/٤) ، (المنيرية) ، اللسان (١/٥٨٦) ، (صادر) (عرب) .
٣ اللسان (١/٥٨٦) (صادر) ، (عرب) ، تاج العروس (١/٣٧١) ، (عرب) .

والحضارة . وقيل لسكان البادية البدو والبداة[1] . ومن هذا الأصل جاءت لفظة (Bedouin) في الإنكليزية وفي عدد من اللغات الأوربية الأخرى ، بمعنى أعراب .

والأعرابي بالمعنى العلمي المفهوم من اللفظة ، هو — كما قلت قبل قليل — المتبدي ، أي الذي قطن البادية وعاش معظم حياته فيها وانقطع معظم حياتــه عن القرى والمدن . مكتفياً باتخاذ الإبل شريكة له في حياته هذه . قاطعاً البوادي الجافـة التي يقل معدل سقوط الأمطار فيها عن (٤) عقد في السنة ، للبحث عن الكلأ والماء[2] . قانعاً بحياته التي يحياها والتي أحبها وتعلق بها على مــا فيها من قساوة وضراوة وفقر وشح في العيش . حتى صار لا يفارقها لأنه ولد بها . فهو لا يعرف دنيا غيرها ، ولا يعرف ان في الدنيا مكاناً أطيب من وطنه الذي يعيش فيـه . وكل مولود على ما يولد عليه .

وتعيش بين الحضر والبادية قبائل ، صيرتها اقامتها بين العالمين عالماً وسطاً ، لا هو مجتمع حضري ولا هو بدوي أصيل ، حافظ على خصائصه البدوية الموروثة من البادية ، واكتسب باحتكاكه بالحضر ما يلائم طبعه ومــا فرضه عليه محيطه الجديد من حياة أهل الحضر . فصار يزرع بعض الزرع ويرعى البقر والخيــل والأغنام والمعز ويأتي الى القرى والمدن للامتيار ، ويستخدم موادّ لا يستخدمهــا الأعراب لعدم وجود حاجة لهم بها ، ولفقرهم الذي لا يسمح لهــم بشرائها ، وأخذ يبيع لأهل الحضارة ما يفيض عن حاجته من الألبان والزبد والجلود والأصواف والحيوانات . فأهل هذا العالم إذنْ هم عالم وسط عالمين ، وقنطرة تربط بــين العتبة الأولى من عتبات الحضارة والدرجة الأولى من درجات البداوة . وخير مثل على هؤلاء هم عرب مشارف الشأم ، وعرب مشارف العراق . ويراد بالمشارف القرى والمستوطنات والمضارب القائمة على ما بين بلاد الريف وبين البوادي[3] .

و (الريف) في رأي بعض علماء اللغة الخصب والسعة في المأكل والمشرب وما قارب الماء من الأرض . أو حيث يكون الخضر والميــاه والزرع . ولهــذا قيل : (تريف) اذا حضر القرى وهي المياه ، و (راف البدويّ) يريف

١ De Vaux P. 3:
٢ تاج العروس (٣٢/١٠) ، (بدا) .
٣ تاج العروس (١٥٤/٦) ، (شرف) .

اذا أتى الريف . ومن هنا عرف البدويّ بأنه جوّاب بيداء ، لا يأكل البقل ولا يريف[1] .

وورد في الحديث : (كُنّا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف . أي إنا من أهل البادية لا من أهل المدن)[2] . ولكن المفهوم من لفظة (ضرع) ، انها لفظة تطلق على الماشية ذوات الظلف والخف ، أو للشاء والبقر[3] ، ولهذا فيجب تفسيرها ، بإنا من أهل ذوات الظلف والخف ، أي من الرعاة لا أهل الزرع ، والرعاة هم قُطّان المشارف ، القريبين من القرى والريف ، ولا يقيمون في البادية ، لأن الشاء والبقر وبقية الماشية باستثناء الإبل لا تعيش في البادية وإنما ترعى الأماكن الخصبة من الماء والريف .

والحاضرة خلاف البادية ، وهي القرى والمدن والريف ، سمّوا بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار . وذكر ان كل من نزل على ماء عدّ ولم يتحول عنه شتاءً ولا صيفاً ، فهو حاضر ، سواء نزلوا في القرى والأرياف وبيوت المدر أو بنوا الأخبية عند المياه فقرّوا بها ورعوا ما حواليها من الكلأ . ولهذا قالوا : الحاضر : القوم نزول على ماء يقيمون به ولا يرحلون عنه . وقد يكون ذلك في البوادي . إذْ يقيمون حول بئر أو ماء دائم ، ولا يرتحلون عنه . فهذا نوع من أنواع الحاضرة في جزيرة العرب[4] . وهم بهذا حضر جزيرة العرب ، فهم سكان مستوطنات صغيرة ظهرت في مواضع الماء وعند مفترق الطرق ، في هذه البوادي الجافة الواسعة .

وفي هذه الحواضر التي أسعفها الحظ بالماء ، ظهرت مجتمعات متحضرة ، أي مستقرة ، استفادت من الماء فبنت بعض البيوت وزرعت بعض النخيل والأشجار. ومقياس هذه الحواضر ، هو الماء . فاذا وجد بغزارة أو كان قريباً من سطح الأرض توسعت به رقعة الحضارة ، بمقدار سعة الماء وسعد الناس بالعيش في بيوت

١ جواب بيداء بها غروف لا يأكل البقل ولا يريف
ولا يرى في بيته القليف
اللسان (١٢٨/٩ وما بعدها) ، (ريف) ، تاج العروس (١٢٣/٦) ، (تريف) .
٢ اللسان (١٢٨/٩) ، (ريف) .
٣ اللسان (٢٣/٨) ، (ضرع) ، تاج العروس (٤٣٠/٥) ، (ضرع) .
٤ اللسان (١٩٧/٤ وما بعدها) ، (حضر) .

مستقرة دائمة ثابتة ، أما اذا كانت الارض ضشحيحة بخيلة ، لا تسعف من يعيش فوقها بماء ، فان الانسان يتحاشاها بالطبع ويبتعد عنها خلال أيام الغيث . وحواضر البوادي هي المواضع التي يجب أن نوجه اليها أنظارنا للبحث فيها عمّا قد يكون الدهر قد خبأه فيها من كنوز وآثار . وهي منتشرة في مواضع عديدة من جزيرة العرب ، لا سيما عند الأودية وقرب الحسي والجعافر والعيون .

و (عرب الضاحية) أو (عرب الضواحي) ، هم العرب النازلون بظواهر الريف والحضارة وبظواهر البادية . و (الضاحية) الظاهرة الخارجة من الشيء التي لا حائل دونها ، و (الضامنة) ما أطاف بالشيء مثل سور المدينة ، أي ما كان داخل شيء . وضواحي الروم : ما ظهر من بلادهم وبرز .[1] ويراد بـ (عرب الضاحية) ، عرب مشارف العراق وعرب مشارف الشام ، لأنهم أقاموا ضواحي العراق وبلاد الشام ، وعلى تخوم البادية .[2] وقد تأثر أكثر الاعراب الساكنين بأطراف الحضارة وبأخلاق الحضر ، ودخلوا مثلهم في النصرانية ، بحكم تأثرهم بهم وبعوامل التبشير والسياسة ، الا أن نصرانيتهم كانت نصرانية أعرابية مكيفة بالعقيـدة الوثنية الموروثة من السنين الماضية التي كونتها طبيعة البداوة في عقلية أهل الجاهلية .

وسوف نجد في بحثنا عن اللغة ، أن لغة (أهل المشارف) أو (أهل الضواحي) و (عرب الارياف) ، قد تأثرت بلهجات (إرم) العـراق وبلاد الشام ، فظهرت في لغتهم رطانة ، وبرزت فيها ألفاظ ارمية وأعجمية ، وانحازت في النطق بعض الانحياز عن عربيات أهل البوادي ، وكتبوا بقلم نبطي وبلهجات عربيـة ، لا تقرّها عربية القرآن الكريم ، التي صارت لسان الاسلام . ولهذا حذر علماء اللغة من الاستشهاد بشعر شعراء القرى والريف وأهل المشارف والضواحي ، لاعوجاج لسانهم بالنسبة الى لسان الاسلام .

فأعراب الضواحي ، أو عرب الضاحية ، هم أعراب أيضاً ، لكنهم لم يعزلوا أنفسهم عن العالم الخارجي ، وانما عاشوا على مقربة منه ومن مواطن الحضر ، فصار حالهم أحسن من حال الاعراب الأقحاح ، وارتفع مستواهم العقلي عن اولئك

---

١ اللسان (٤٧٤/١٤ وما بعدها) ، (ضحا) .
٢ تاريخ الطبري (٣٥٣/٣) ، (ذكر وقعة الولجة) .

المعنيين في حياة الاعرابية . سبب اتصالهم بالأجانب وأخذهم عنهم واحتكاكهم بالحضر ، الذين هم ارقى من الاعراب بكثير . فأخذوا عنهم وتعلّموا منهم أشياء كثيرة ، من مادية ومعنوية . سأتحدث عنها في المواضع المناسبة من أجزاء هذا الكتاب .

وقد عرفت الارض التي تقع بين الفرات وبين برّيّة العرب بـ (العبر) قال علماء اللغة : (والعبر بالكسر ما أخذ على غربي الفرات الى برّيّة العرب) . لأنها المعبر الذي يعبر عليه للوصول الى البادية ، أو الدخول من البادية الى الفرات . وقد تكونت بها قرى عربية لعبت دوراً مهماً في تأريخ العراق لموقعها العسكري المهم ، ولأنها الخط الامامي الذي كان يواجه الاعراب الغزاة ومن كان يحكم بلاد الشام من حكام . ولكونه المنطلق الذي تنطلق منه الجيوش التي تريد غزو بلاد الشام ، أو صدّ القوات الزاحفة على العراق من الغرب .

والبداوة هي التي أمدت العراق وبلاد الشام وسائر جزيرة العرب بالحضر ، فقد كان الاعراب يأتون الحواضر وينيخون هناك ، ويستقرون ثم يتحولون الى حضر . لذلك تكون البادية المنبع الذي يغذي تلك الارضين بالعرب الحضر .

عبية الجاهلية :

ولقد تحدثت في الجزء الأول من هذا الكتاب عن العقلية العربية بصفة عامة : عقلية العرب أي الحضر وعقليـة الاعراب . وأعود في هذا الموضع الى الحديث عن عقلية الاعراب وما رماهم به أهل الحضر من الغلظة والجفاء والجهالة والعنجهية والكبر الى غير ذلك من نعوت عرفت عند العلماء بـ (عبية الجاهلية) . وذلك لما لهذه العبية من صلة بهذا الموضوع في هذا المكان .

واذا اردت الوقوف على عنجهية الجاهلية وتكبر سادات القبائل وعلى نظرتهم الى من هم دونهم في ذلك الوقت ، فخذ ما روي من قصة وقعت لمعاوية بن أبي سفيان على ما يرويه أهل الاخبار . فقد رُوي أن الرسول أمر معاوية بانزال (وائل بن حجر) الحضرمي منزلاً بالحـرة ، فمشى معه ووائل راكب وكان

تاج العروس (٣/٣٧٧) ، (عبر) .

النهار حاراً شديد الحرارة . فقال له معاوية : ألق اليّ نعلك ، قال : لا ، اني لم اكن لألبسها وقد لبستها . قال فأردفني ، قال : لست من أرداف الملوك . : قال : ان الرمضاء قد أحرقت قدمي ، قال : لا يبلغ اهل اليمن أن سوقة لبس نعل ملك . ولكن ان شئت قصرت عليك ناقتي فسرت في ظلها . فأتى معاوية النبيّ ، فانبأه . فقال : (ان فيه لَعُبِّيَّةً من عُبِّيَّة الجاهلية) .[1]

و (العُبِّيَّة) الكبر والفخر . (وعُبِّيّة الجاهلية : نخوتها . وفي الحديث : ان الله وضع عنكم عُبِّيَّة الجاهلية ، وتعظمها بآبائها ، يعني الكِبَر) . وقد وصفت (قريش) ونعتت بتكبرها حتى قيل : (هذه عُبِّيَّة قريش) .[2] ونجد في القرآن الكريم اشارات الى عبية زعماء قريش وفخرهم على غيرهم بالآباء وبالأحساب وبأمور لا تستوجب فخر مفاخر ، لانها لا تتناول عمل انسان ليحمد أو ليذمّ عليه . وقد ذمها الاسلام ونهى المسلمين عن عبية الجاهلين .

ونظراً الى ما للبداوة من فقر وقساوة وغلظ في المعاش ، ومن ضيق أفق في المدارك وقصر نظر في شؤون هذا العالم الخارجي وفي فهم الحياة — نظر العربي الى الاعرابي نظرة استجهال وازدراء ، ونظر الى نفسه نظرة فيها علو واستعلاء . فورد أن الاعرابي اذا قيل له : يا عربي . فرح بذلك وهشّ له ، والعربي اذا قيل له : يا اعرابي ! غضب له .[3] لما بين الحياتين من فروق وتضاد . فقد جبلت البادية ابناءها على أن يكونوا غرباء عن العالم الحضر وعن عقلية أهل القرى والمدن . متغطرسين مغرورين على فقرهم وفقر من يحيط بهم . فخورين بأنفسهم الى حدّ الزهو والاعجاب والخروج عن الحدّ ، فكانوا اذا تكلموا رفعوا اصواتهم ، وظهرت الخشونة في كلماتهم ، واذا تعاملوا مع غيرهم ظهر الحذر عليهم ، خشية الغدر بهم . ولهذا قال الحضر : (اعرابي جلف) ، أي جاف .[4] وفي الحديث : (من بدا جفا) ، أي غلظ طبعه لقلة مخالطة الناس .[5] وقالوا : (اعرابي قحّ) و (اعرابي قُحاح) ، وهو الذي لم يدخل الامصار ولم يختلط

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤٩ وما بعدها) ، (وفد حضرموت) .
٢ تاج العروس (١/٥٧٤ وما بعدها) ، (عبب) .
٣ اللسان (١/٥٨٦) ، (صادر) ، (عرب) .
٤ تاج العروس (٦/٦٠) ، (جلف) .
٥ تاج العروس (٦/٧٤) ، (جفا) .

بأهلها .[1] ولهذه الخشونة التي خلقتها طبيعة البادية في الاعرابي ، وهو لا دخل له بها بالطبع ، كما انه لا يشعر بها ولا يرى أن فيه شيئاً منها ، كان العرب اذا تحدثوا عن شخص فيه عنجهية وخشونة ، قالوا عنه : فيه اعرابية . كالذي ذكروه مثلاً عن (عيينة بن حصن الفزاري) ، من أنه كان أحمق مطاعاً ، دخل على النبيّ من غير اذن وأساء الأدب فصبر النبي (على جفوته وأعرابيته) .[2] الى غير ذلك من نعوت تصف الاعرابي بالغلظ والقسوة والانانية وما شاكل ذلك من نعوت تحدثت عنها في الجزء الاول من هذا الكتاب . وهي حاصل هذا المحيط الذي ولد فيه وعاش ، والظروف التي ألمت به ، فعزلته عن العالم الخارجي ، وأبعدته عن التحسس بتنوع مظاهر الطبيعة وبتغيرها ، فلم ير الثلج في حياته وهو يتساقط من السماء . ولم يتعود على رؤية الامطار وهي تتساقط عليـــه على نحو ما يقع في عالم أوربة أو في البلاد الحارة ذات الامطار الموسمية الواضحة ، حتّى يستفيد منها في استغلال ارضه ، ولم تعطه الطبيعة انهاراً ومياهاً جارية ، الى غير ذلك من امور تحدثت عنها اثناء كلامي على العقلية العربية في الجزء الاول من هذا الكتاب .

ووصف الاعرابي بالجهـــل ، بل بالجهل المطبق . فهو وثني ولكنه لا يفهم شيئاً من امور الوثنية ، وهو نصراني ، لكنه نصرانيّ بالاسم ، لا يعرف عن النصرانية في الغالب شيئاً ، وهو مسلم ولكنه لا يعرف عن الاسلام الا الاسم . ونجد في كتب اهل الاخبار والأدب قصصاً مضحكاً يمثل هذا الجهل الذي رُمي به الاعراب في بعضه حق وفي بعضه باطل لأنه موضوع حمل عليهم حملاً للانتقاص منهم وليكون قصصاً وتفكهةً وتسليةً يتسلى بها الحضر في مجالسهم في اثنـــاء قتلهم للوقت .

وهو حقود ، لا يرى ان يغفر ذنب من اساء اليه . بل يظل في نفسه حاقداً عليه حتّى يأخذ بثأره منه . (قيل لاعرابي : أيسرك أن تدخل الجنة ولا تسيء الى من أساء اليك ؟ فقال : بل يسرني أن أدرك الثأر وأدخل النار) .[3]

ويذكر ان الرسول كان يميز بين الاعراب وبين البادية ، وهم الذين كانوا

١ تاج العروس (٢٠٢/٢) ، (قح) .
٢ تاج العروس (٤٥/٦) ، (الف) .
٣ نهاية الأرب (٦٧/٦) .

ينزلون أطراف القارة (القارية) وحولهم . فلما أهدت (أم سنبلة) الأسلمية لبناً الى بيت رسول الله ، أبت عائشة قبـولـه ، لأن الرسول قد نهى أهله عن قبول هدية اعرابيّ . وبينما كانت أم سنبلة في بيته ، دخل رسول الله ، فقال : ما هذا ؟ قالت عائشة : يا رسول الله ، هذه أم سنبلة أهدت لنا لبناً ، وكنت نهيتنا ان نقبل من أحد من الاعراب شيئاً . فقـال رسول الله : خذوها ، فان أسلم ليسوا بأعراب ، هم أهل باديتنا .[1] ويفهم من هذا الخبر ، ان الرسول فرّق بين العرب البادية المقيمين حول (القارية) أهل الحاضرة ، الذين هم على اتصال دائم بالحضر ، وبين الاعراب ؛ وهم البادون البعيدون عن أهل الحواضر . وهم الذين نهى الرسول عن قبـول هدية منهم . وذلك بسبب جفائهم على ما يظهر ولأنهم لا يهدون شيئاً الا طمعوا في ردّ ما هو أكثر منهم لغلظ معاشهم وضيق تفكيرهم . وآية ذلك ما ورد عنهم في القرآن الكريم .

فأهل البادية المجاورون للحضر أخف على النفس من الاعراب ، لتأثرهم بحياة الحضر . ولعل منهم من شارك أهل الحضر في التعاطي والتعامل . ونرى اهـل الاخبار يروون ان أهل القرى كانوا اصحاب زرع ونخيل وفواكه وخيل وشاء كثير وإبل ، يقيم حولهم أناس بادون . كالذي كان حول مكة ويثرب والطائف وقرى الحجاز واليمن وغير ذلك ، فان هؤلاء لم يكونوا اعراباً اي بدواً صرفاً ، هجروا الحـواضر وأقاموا في البوادي البعيدة ، بل هم وسط بين الحضر وبين الاعراب . فأخلاقهم ألين من اخلاق الاعراب وطباعهم أرق . ويمكن الاعتماد عليهم نوعاً ما ، بينما لا يمكن الركون الى قول اعرابي .

وقد بلغ من استعلاء الحضر على اهل البادية ، ان الاعراب لما أرادوا التسمّي بأسماء المهاجرين قبل أن يهاجروا ، منعوا من ذلك ، فأعلموا ان لهم أسماء الاعراب لا أسماء المهاجرين ، وعليهم التسمّي بها .[2]

والاعراب أهل منة ، اذا فعلوا معروفاً بقوا يتحدثون عنه ، ويمنّون بصنعه على من قدموه له . وهم يريدون منه صنع اضعاف ما صنعوه له . وهم خشنون اذا تكلّموا رفعوا أصواتهم . وقد وبّخهم القرآن وأنّبهم لفعلهم هذا . فجاء فيه :

١ ابن سعد ، الطبقات (٨/٢١٥) .
٢ تفسير الطبري (٢٦/٩) .

(يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيّ ولا تجهروا له بالقولِ كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . ان الذين يغضون أصواتهم عند رسولِ اللهِ أولئك الذين امتحن اللهُ قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) [1] . وأمر المسلمين بالتأدب بأدب الاسلام . فقال : (واقصد في مشيك واغضض من صوتك . ان انكر الاصوات لصوت الحمير .) [2] وقد كانوا يجهرون له بالكلام ويرفعون اصواتهم ، فوعظهم اللهُ ونهاهم عن ذلك) ، يقول تعالى ذكره (يا ايها الذين صدقوا اللهَ ورسوله لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت رسول اللهِ تتجهموه بالكلام وتغلظون له في الخطاب) . [3]

وكان من خشونتهم وأعرابيتهم ان احدهم اذا جاء الرسول فوجده في حجرته نادى : يا محمد يا محمد ؟ وذكر ان وفداً من (تميم) وفد على رسول اللهِ ، فوجده في حجرته ، ونادى منـاديه : اخرج الينا يا محمد ؟ فان مدحنا زين وذمّنا شين . او : يا محمد ! ان مدحي زين وان شتمي شين . فأنزل اللهُ : (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون . ولو انهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيراً لهم . والله غفور رحيم) . [4]

وقد اتهم الأعرابي بماديته المفرطة وبطمعه الفظيع . فهو يحارب معك ، ثم ينقلب عليك ويصير مع خصمك ، اذا وجد ان في الجانب الثاني حلاوة ، وانه مستعد لاعطائه أكثر مما أعطيته . حاربوا مع الرسول ثم صاروا عليـه وانتهبوا عسكره ، وجاؤوا اليه فعرضوا عليه الإسلام ، فلما أرادوا العودة الى بلادهم وهم مسلمون ، وجدوا رعاءً للرسول ، فانتهبوه وقتلوا حماته مع علمهم بأنه له ، وان انتهاب مال المسلم حرام ، فكيف بهم وهم ينتهبون مال رسول الله . وقد ندد القرآن الكريم بطمعهم في الآية : (قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا) . فهؤلاء قوم من بوادي العرب قدموا على النبيّ ، صلى الله عليه وسلم ، المدينة ، طمعاً في الصدقات ، لا رغبة في الإسلام ، فسمّاهم الله تعالى

١ الحجرات ، الآية ٢ وما بعدها .
٢ لقمان ، الآية ١٩ .
٣ تفسير الطبري (٢٦/٧٤ وما بعدها) .
٤ الحجرات ، الآية ٤ ، تفسير الطبري (٢٦/٧٦ وما بعدها) .

الأعراب . ومثلهم الذين ذكرهم الله في سورة التوبة ، فقال : (الأعراب أشد كفراً ونفاقاً)[1] . وذكر عن (قتادة) قوله : (قالت الأعراب آمنّا ، قل : لم تؤمنوا ، ولعمري ما عمت هذه الآية الأعراب . إنّ من الأعراب مَنْ يؤمن بالله واليوم الآخر ، ولكن إنما أنزلت في حيّ من أحياء الأعراب امتنوا باسلامهم على نبيّ الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان . فقال الله تعالى : لا تقولوا آمنّا ولكن قولوا أسلمنا)[2] . (وقال آخرون : قيل لهم ذلك لأنهم منّوا على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، باسلامهم . فقال الله لنبيّه ، صلى الله عليه وسلم ؛ قل لهم لم تؤمنوا ولكن استسلمتم خوف السباء والقتل)[3] .

ولا يعرف الأعرابي شيئاً غير القوة ولا يخضع إلا لسلطانها . وبموجب هذه النظرة بنى أصول الحق والعدل ، وما يتبعها من حقوق . كما سأتحدث عن ذلك فيما بعد . وهو فخور بنفسه متباه بشجاعته ، لكنه لا يصبر اذا طال القتال وجدّ ، ولا يتحمل الوقوف طويلاً في ساحة المعركة ، لا سيما اذا شعر ان القتال غير متوازن ، وان أسلحة خصمه أمض وأقوى في القتال من أسلحته ، فيولي عندئذ الادبار ، ولا يرى في هروبه هذا من المعركة شيناً ولا عيباً . وفي تأريخ معارك الجاهلية ولا سيما في معاركهم مع الأعاجم ومع القوات النظامية العربية أمثلة عديدة من هذا القبيل . ففي الحروب التي وقعت بين المسلمين والفرس أو الروم ، خذلت بعض القبائل المسلمين ، وتركتهم لما رأت جد القتال وان لا فائدة مادية ستحصل عليها منه . (وقد كان انضم الى المسلمين حين ساروا الى الروم ناس من لخم وجذام ، فلما رأوا جد القتال فرّوا ونجوا الى ما كان قربهم من القرى ، وخذلوا المسلمين)[4] . فروا وهربوا لأنهم وجدوا ان القتال قد طال وانه قتال جد ، ولا قبل للقبائل على القتال الطويل الشديد الجد . فاختاروا الهروب دون ان يفكروا في عقدهم الذي عقدوه مع اخوانهم في الجنس على القتال معهم والاستمرار فيه حتّى النهاية ، فإما نصر وإما هزيمة وموت وهلاك . ولكن طبيعة الأعراب لا تقيم

١ اللسان (٥٨٦/١) ، (عرب) .
٢ تفسير الطبري (٩٠/٢٦) .
٣ تفسير الطبري (٩٠/٢٦) .
٤ الطبري (٥٧١/٣) ، (دار المعارف) .

وزناً ولا تعطي أهمية للعقود في مثل هذه المواقف . إنْ رأت هواها في القتال قد تغيّر وتحول ، وان الأمل في كسب مغنم قد تضاءل ، انسحبت منه بعذر قد يكون تافهاً وبغير عذر أيضاً . وقد لا تنسحب ، وإنما تبدل الجبهة ، بأن تذهب الى الجانب الآخر فتحارب معه ، وتقاتل عندئذ من كانت تقاتل معه . لأنها وجدت ان الربح من هذا الجانب مضمون ، وان ما ستناله منه من فائدة أكثر . وذلك بعد مفاوضات سرية تجرى بالطبع . وهذا ما أزعج الروم والفرس ، وجعلهم لا يطمئنون الى قتال العرب معهم وفي صفوفهم ، فرموهم بالغدر . فكانوا اذا كلفوهم بالحرب معهم عهدوا اليهم القيام فيها بأعمال حربية ثانوية ، أو الانفراد بحرب الأعراب الأعداء الذين هم من أنصار الجانب الآخر . فقد حدث مراراً ان هرب الأعراب من ساحة القتال حين سعرت نار الحرب ، وارتفع لهيبها ، فأحدث هروبهم هذا ارتباكاً في جانب من كان يقاتلون معه أدى الى هزيمته هزيمة منكرة ، لما أحدثه فرارهم هذا من فجوة في صفوف المقاتلين . وقد أشارت الى هذه الحوادث مؤلفات الكتاب اليونان واللاتين .

وهو صارم عبوس ، اذا ضحك ضحك بقدر ، وكأنه يدفع بضحكته هذه ضريبة فرضت عليه . يكره الدعابة ، ويرى فيها تبذلاً لا يليق صدوره من إنسان كريم . بقي هذا شأنه حتى في الإسلام . فلما وصف (أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري) (عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق) قال عنه : (كان امرءاً صالحاً ، وقد كانت فيه دعابة) [1] . حتى ان من العلماء من عدّ (الدعابة) من الشوائب التي تنقص المروءة ، وتؤثر في صاحبها ، وتطعن فيه ، فلا تجعله أهلاً لأن يؤخذ عنه الحديث . أي جعلوه شخصاً غير موثوق به .

وقد بحث (غوستاف لبون) و (رينان) و (الأب لامانس) في عقلية الاعرابي . وما رأوه فيه من وجود (فردية) متطرفة عنده ، الى درجة تجعله يقيس كل شيء بمقياس الفائدة التي يحصل عليها من ذلك الشيء . ثم ما وجدوه فيه في الوقت نفسه من خوفه من الامعان في القسوة ، ومن الامعان في القتل ، لما يدركه من رد الفعل الذي سيحدث عند اعدائه ضده اذا تمكنوا منه ، ومن

١ نسب قريش (٢٧٨) .

نتائج الأخذ بالثأر . كما بحثوا عن ميل الاعرابي الى المبالغة . المبالغة في كلامه والمبالغة في اعطائه اذا أعطى ، والمبالغة في مدح نفسه ، والتباهي بشجاعته وبكرمه وبشدة صبره الى غير ذلك ، مع وجود تناقض فيه بالنسبة الى دعاويه هذه . وهو يحب المديح كثيراً ، وهو على حدّ قولهم اذا اعطى ، صور ذلك غاية الجود ، وبالغ فيه ، ويظل يذكره في كل وقت ويحب ان يطرى عليه ، لا سيما اذا كان من شاعر وهو صحافي ومذيع ذلك الوقت[1] .

وللفوارق الموجودة بين العرب والأعراب ، بين الحضر وبين أهل البوادي رأى (الأزهري) وجوب التفريق بين الاثنين . إذْ قال : (والذي لا يفرق بين العرب والأعراب والعربي والأعرابي ، ربما تحامل على العرب ، بما يتأوله في هذه الآية . وهو لا يميز بين العرب والأعراب . ولا يجوز ان يقال للمهاجرين والأنصار أعراب ، إنما هم عرب ، لأنهم استوطنوا القرى العربية ، وسكنوا المدن . سواء منهم الناشيء بالبدو ، ثم استوطن القرى والناشيء بمكة ، ثم هاجر الى المدينة . فان لحقت طائفة منهم بأهل البدو بعد هجرتهم واقتنوا نعماً ورعوا مساقط الغيث بعد ما كانوا حاضرة أو مهاجرة . قيل : قد تعربوا أي صاروا أعراباً بعد ما كانوا عرباً . وفي الحديث تمثل في خطبته مهاجر ليس بأعرابي . جعل المهاجر ضدّ الأعرابي . قال والأعراب ساكنو البادية من العرب الذين لا يقيمون في الأمصار ولا يدخلونها إلا لحاجة . وقال أيضاً المستعربة عندي قوم من العجم دخلوا في العرب فتكلموا بلسانهم وحكوا هيآتهم وليسوا بصرحاء فيهم . وتعربوا مثل استعربوا[2]) . وقد ذهب هذا المذهب (ابن خلدون) ، إذْ رأى ان الأعراب يختلفون عن العرب . ولذلك فإن ما أشار اليه (ابن خلدون) من ان العرب اذا دخلوا بلداً أسرع اليه الخراب انما قصد به الأعراب . لا العرب الحضر .

ولكي نكون منصفين في الأحكام عادلين غير ظالمين علينا التفريق بين الأعراب وبين العرب . فما يقال عن الأعراب يجب ألا يتخذ قاعدة عامة تطبق على العرب . لما بين العرب والأعراب من تباين في الحياة وفي النفسية والعقل . ثم علينا لكي

١ المشرق عدد (٢) سنة ١٩٣٢ (ص ١٠١ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (١/ ٣٧١) ، (عرب) .

نكون منصفين أيضاً ان نفرق بين عرب وعرب . لما أصاب عرب كل أرض من أرض العرب من أثر تركه الأجانب فيهم ، ومن امتزاج الأعاجم في العرب ودخولهم فيهم واندماجهم بهم حتى صاروا منهم تماماً . والامتزاج والاندماج يؤثران بالطبع في أخلاق أهل المنطقة التي وقعا فيها ، أضف الى ذلك عوامل البيئة والمحيط . ولهذا يرى المرء تبايناً بيّناً بين عرب كل قطر ، تبايناً يلمسه حتى الغريب . فبين أهل العراق وأهل بلاد الشأم العرب ، تباين وفروق في الملامح الجسمية وفي المظاهر العقلية والاجتماعية وغيرها ، مع انهم جميعاً عرب يفتخرون بانتسابهم الى العروبة . وبين عرب العربية الجنوبية وبين عرب عالية نجد فروق واضحة جليّة . وهكذا قل عن بقية بلاد العرب . بل نجد هذا التباين أحياناً بين أجزاء قطر واحد . فاذا كان هذا هو ما نراه ونلمسه في الجاهلية وفي الإسلام ، فهل يجوز لأحد التحدث عن عقلية عامة جامعة تشمل كل العرب ؟

وقد أدرك المتقدمون علينا بالزمن اختلاف العرب في الصفات والشمائل ، فتحدثوا عن (حلم قريش) ، وعن لينها ورقة ذوقها وعن براعتها في التجارة ، وتحدثوا عن عمق تفكير أهل اليمن وعن اشتهارهم بالحكمة ، حتى قيل : الحكمة يمانية . وورد ان (علي بن أبي طالب) ، لما وافق على اختيار (أبي موسى الأشعري) ليكون ممثله في التحكيم ، قال له (أبو الأسود الدؤلي) : (يا أمير المؤمنين لا ترضَ بأبي موسى ، فإني قد عجمت الرجل وبلوته ، فحلبت أشطره ، فوجدته قريب القعر ، مع انه يمان)[1] .

الحنين الى الأوطان :

ومع فقر البادية وغلظ معاشها وشحها ، فإن الأعرابي يحن اليها ، ولا يصبر عن فراقها حتى وان أخذ الى جنان الريف . قال الجاحظ : (وترى الأعراب تحن الى البلد الجدب ، والمحل القفر ، والحجر الصلد ، وتستوخم الريف)[2] . (واعتل أعرابي في أرض غربة ، فقيل له : ما تشتهي ؟ فقال : حسل

١ أمالي المرتضى (٢٩٢/١) .
٢ رسالة في الحنين الى الأوطان ، من (رسائل الجاحظ) (٣٨٨/٢) ، (تحقيق عبد السلام هارون) .

فلاة ، وحسو قلات)[1] . ويروى ان (ميسون بنت بحدل) الكلبية ، زوجة معاوية ، كانت تحن الى وطنها ، وقد سمعها زوجها وهي تنشد أبياتاً فيها شوق وحنين الى البادية ، فخيمتها التي تلعب الأرياح بها ، خير عندها وأحب لها من العيش في قصر منيف ، ورجل من بني عمها نحيف أحب اليها من (علج عليف) ، أي حضري سمين من كثرة الأكل[2] . وانتقل أعرابي من البداوة الى الحضارة ، فرأى المكاء في الحضر ، فقال يخاطبه : فارق هذا المكان ، فإنه ليس لك فيه الشجر الذي تعشش عليه ، وأشفق من ان تمرض كما مرضت[3] .

والعربي الذي ألف الحضارة وأمعن في الترف وتفنن في العيش بالمدن ، لا يفقه سحر البادية الذي يجلب اليه أهل البادية . لأنه يرى ان كل ما فيها ضيق وجوع وحرّ شمس وفقر . فيسخر من الأعرابي ويضحك عليه لحنينه الى باديته . ولما استظرف (الوليد بن عبد الملك) أعرابياً واستملحه ، فأبقاه عنده وسأله عن سبب حنينه الى وطنه أجابه جواباً خشناً ، مثّل جفاء الأعراب وصلفهم . فقال الوليد ، وهو يضحك : أعرابي مجنون[4] . ولم يتأثر منه ، لأنه أعرابي ، والأعرابي في حكم المجانين . وقد سقط حكم القلم عنه .

ويروي أهل الأخبار حديثاً لكسرى أنوشروان مع وفد وفدَ عليه فيه بعض خطباء العرب . فسألهم عن سبب تفضيلهم السكن بالبادية وعن حياتهم بها وعن طبائعهم الى غير ذلك من أسئلة وأجوبة دوّنوها على انها اسئلة كسرى وأجوبة العرب عليها[5] . وفيها أمور مهمة عن حياة الأعراب . وقد يكون الخبر قصة موضوعة ، غير اننا لا ننظر اليها من جهة تأريخية ، إنما نأخذها مثالاً على ما كان يدور في خلد من صنعها عن نفسية الأعراب وعن نظرة الحضر الى أهل البوادي .

وللمسعودي كلام في اختيار العرب سكنى البادية وسبب ذلك ، كما تحدث

١ المصدر المذكور (٢/٣٩٠) .
٢ بلوغ الأرب (٣/٤٢٦ وما بعدها) .
٣ بلوغ الأرب (٣/٤٢٨) .
٤ رسالة في الحنين الى الاوطان (٢/٣٩٧) .
٥ بلوغ الأرب (٣/٤٣٣) .

عن أثر البوادي في صحة أجسام العرب وفي تكوين أخلاقهم ، مما جعلهم يختلفون بذلك عن بقية الناس .

والعرب وإن عرفوا بالترحل والتنقل ، بسبب البداوة ، إلا انهم يحنون الى أوطانهم ، ولا ينسون موطنهم القديم . يستوي في ذلك العربي والأعرابي . وهم يرون ان في الغربة كربة ، وان الانسان اذا صار في غير أهله ناله نصيب من العذل [1] . (وكانت العرب اذا غزت وسافرت حملت معها من تربة بلدها رملاً وعفراً تستنشقه عند نزلة أو زكام أو صداع) [2] . (وقيل لأعرابي : كيف تصنع في البادية اذا اشتد القيظ وانتعل كل شيء ظلّه ؟ قال : وهل العيش إلا ذاك ، يمشي أحدنا ميلاً فيرفض عرقاً ، ثم ينصب عصاه ويلقي عليها كساءه ، ويجلس في فيئه يكتال الريح ، فكأنه في ايوان كسرى) [3] .

وجاء ان (الوليد بن عبد الملك) استظرف أعرابياً فاحتسبه عنده وحباه ، فمرض فبعث اليه (الوليد) بالأطباء ، وعالجوه ، ورأى من الخليفة كل رعاية . لكن هواه بقي في وطنه ، ولم يطق على هذه المعيشة الراضية الطيبة صبراً ، فهلك بعد قليل [4] . الى غير ذلك من قصص وشعر ورد في الحنين الى الأوطان ، وفي تفضيل الوطن على كل منزل آخر ، ولو كان آية في الجمال ومثالاً من الراحة والاطمئنان .

وهو يعجب من لغة اهل الحضر ، ولا سيما حضر ريف العراق وريف بلاد الشام ومن الاكرة الذين لا يفهم عنهم ولا يستطيع افهامهم ، فكان يجد نفسه وكأنه في سجن مطبق ، يريد الخلاص منه . حدث ذلك حتى في الاسلام ، وقد ذكر (ابو عثمان الجاحظ) ، انه رأى اعرابياً ، وكان عبداً حبشياً لبني أسيد ، وقد صار (ناظوراً) ، وكأنه اصيب بمس من الجن ، فلما رآه ، قال له : لعن الله ارضاً ليس بها عرب [5] .

١ رسالة في الحنين الى الأوطان (٢/٣٩٠ وما بعدها) .
٢ رسالة في الحنين الى الأوطان (٢/٣٩٢) .
٣ المصدر نفسه .
٤ رسالة في الحنين الى الأوطان (٢/٣٩٧ وما بعدها) .
٥ رسائل الجاحظ (٢/٤٠٣ وما بعدها) .

حياة الاعراب :

وحياة الاعراب حياة تكاد تكون حياة واحدة لا تغير فيها ولا تبدل ، فهي على وتيرة واحدة . على تعدد القبائل ، وابتعاد مواضع بعضها عن بعض . ذلك لأن الظروف المخيمـــة عليهم ، ظروف واحدة لا اختلاف فيها ولا تبدل . الا ما كان منها بالنسبة الى اعراب الضواحي والحواضر ، فان ظروفهم تختلف عن هؤلاء ، ومجال تفكيرهم اوسع من مجـــال تفكير الاعراب . بسبب نوع المعيشة المتغير ، المتصل بالارض ، وقربهم من الحضر . ولو درسنا حياة القبائل في الجاهلية ، وجمعنا دراستنا من المرويّ عنها في الكتب ، وجدنا ان بين الماضي البعيد وبين الحاضر شبهاً في نمط الحياة ، وان ما ذكرته عن قبائل الجاهلية يكاد ينطبق على حياة قبائل البادية في وقتنا هذا ، ذلك لأن الظروف والمؤثرات بالنسبة الى حياة الاعراب الممعنين في البادية لا تزال كما كانت عليه . ولكنها سوف لن تبقى على ما هي عليه والى أبد الآبدين بالطبع ، لأن التقدم الحضاري والاكتشافات المادية ، قد اخذت تغزو الاعراب وتضيق الخناق عليهم ، لتغير من حالهم . فبعد ان كان البدو قوم غزو ، أكرهتهم الحكومات القوية على الابتعاد عن الغزو ونبذه ، حتى اضطروا الى توديعـــه الى الأبد او كادوا وصاروا مغزوّين ، تغزوهم الحضارة الحديثة والآليّات بما لا قبل لهم بمقاومته ، لتفوق الغزو الجديد عليهم . وهم سيكونون ولا شك بمرور الوقت على شاكلة النصف الآخر من العرب . أي اخوانهم الحضر . يوائمون انفسهم مع التطور الجديد . وسوف يبدل هذا من حياتهم ولا شك ، ومن اهم ما سيفعله فيهم ، تحويل حياتهم من حياة غير مرتبطة بالارض ، الى حياة ترتبط بها ارتباطاً وثيقاً ، فتتحول البداوة عندئذ الى حضارة ، وسيشعر الاعرابي عندئذ انه مواطن له ارض ووطن وقوم هم إخوة له يشعرون بشعوره . وأن من يعزل نفسه عن العالم ، فلن يعزل بذلك الا نفسه ، ولن يُضر الا بصالحه . وان الانسان بغير عمل ولا انتاج ، انسان تافه لا قيمة له . وأن العنتريات والعُبـِّيّة الجاهلية من جملة مؤخرات الحياة في كل الأزمنة والأوقات .

ملامح العرب :

والعرب وان كانوا من الجنس السامي ، الا انهم يختلفون عن بقية (ابناء سام) في الملامح الجسمانية وفي فصائل الدم ، وفي امور اخرى . ذلك لأن السامية ،

كما سبق ان قلت – جنسية ثقافية ، اما من الناحية (البيولوجية) وهي تتعلق بالملامح وبأمور بيولوجية اخرى فليست بجنسية خاصة يمكن تمييزها من بين قبائل الاجناس البشرية ، لما نراه فيما بين شعوبها من تباين. ثم ان بين العرب انفسهم ، تبايناً واختلافاً في الملامح ، بسبب قرب العرب وبعدهم من الأعاجم ، وأثر فعل الرقيق والأسرى في امتزاج الدم بينهم ، ثم اثر فعل الطبيعة وعملها في الانسان ، وما تقدمه له من غذاء ونوع ماء وحرّ وبرد ومطر وضغط جوّي ونوع تربة .

واليهود هم من الجنس السامي ، جنس خليط كذلك في القديم وفي الحديث فقد دخل اليهود دم غريب ايضاً ، ونجد في التوراة وفي اسفار المكابيين والكتب العبرانية الاخرى ، اكراه اليهود للشعوب التي استولوا على ارضها على التهود . فدخلت في اليهـودية ، وهي ليست من اصل يهودي ، وصارت من يهود وقد دخلت اليهودية في حمير وبني كنانة وبني الحارث كعب وكندة ، وهم من العرب .[1] ودخل آخرون في اليهودية ، وصاروا يهوداً فاليهود مثل غيرهم ، فيهم اليهودي الخالص ، وفيهم اليهودي الغريب ، وفي ملامحهم المتباينة ما هو دليل على وجود الاختلاط في الدم .

وأنا اذ اتكلم عن ملامح العربي ، فإني لا ازعم ان لديّ او لدى الباحثين مقاييس خاصة ثابتة نستطيع ان نقيس بها ملامح العرب ، بحيث نحددها في حدود ونرسم لها رسوماً ، لا تتعداها ولا تتخطاها . فحدود مثل هذه لا يمكن ان توجد ولا يمكن ان ترسم ، لأن بين العرب تبايناً وتنابزاً في الصور وفي الملامح بحيث يكون من الصعب علينا وضع حدود ثابتة لملامح العرب ، يخضع لها كل العرب او اكثرهم . وسبب ذلك اتساع جزيرة العرب ، ووجود سواحـل طويلة جداً تقابل قارتين : قارة سوداء هي افريقية ، وقارة اخرى هي آسية ، لون بشرة سكان سواحلهـا الجنوبية الشرقية السواد والسمرة الغامقة . وهي سواحل مفتوحة غذّت جزيرة العرب بعناصر ملوّنة اختلط دمها بالدم العربي حتى اثر ذلك اللون في سحن الناس هناك فبان السواد او اللون الداكن على السواحل العربية المقـابلة لسيلان وللهند. وظهرت الملامح الافريقية على سحن الساحل الغربي لجزيرة العرب من تهامة فيما بعد حتى ساحل عمان . وظهرت سحن وملامح اقوام بيض من روم

[1] الأعلاق النفيسة (٢١٧) .

ورومان وأهــل فارس في مواضع اخرى من جزيرة العرب ، بسبب سياسة الحكومات القـاضية بالتهجير نكاية بالمهجرين ، او بسبب تنقـلات الجيوش والحروب ، او التجارة ، او الخطط العسكرية القاضية بحماية المصالح الاقتصادية . وذلك بوضع حاميات عسكرية على سواحل الجزيرة لحماية السفن من غارات الاعراب ولصوص البحر . ثم يحدث ان تنقطع الاسباب برجال تلك الحاميات ، وتنقطع صلاتهم بالأم لعوامل عديدة ، فيستقرون في مواضعهم ويتعربون حتى صاروا عرباً . نسوا أصلهم وعدّوا من خلص العرب . ولكن العرق دساس كما يقول الناس ، فبقي أثره بارزاً ظاهراً عــلى الوجوه ، نراه حتى اليوم في تغاير وتمايز سحن سكان السواحل فيما بينها ، وفي تغايرها عن سحن أهل باطن جزيرة العرب تغايراً ملحوظاً . وقد أشرت في كتابي (تأريخ العرب قبل الاسلام) وفي الجزء الأول والثاني من هذا الكتاب الى أثر المستعمرات اليونانية في سحن العربُ ، كما هو الحال في جزيرة (فيلكة) في الكويت والى أثر الرقيق والتجارة في باطن جزيرة العرب مما يجعلني في غنى عن اعادة الكلام عن ذلك مرة اخرى .

وقد ذكر اهل الاخبار ان الروم سكنت في الجاهلية جبل (ملكان) وهو جبل في بلاد طيء .[1] فلا يستبعد بقاء هؤلاء فيه وسكنهم فيه ، وتحولهم الى عرب بتعربهم كما تعرب غيرهم من اليونان ممن نزل المستوطنات اليونانيـــة في بلاد العرب .

ونجد بمكة ويثرب وبمواضع اخرى من جزيرة العرب موالي اصلهم من الفرس او الروم برز منهم بعض الصحابة مثل : (سلمان الفارسي) و (رومان الرومي) ، وهو من موالي الرسول ،[2] وغيرهم . وقد ترك هؤلاء الموالي اثراً في ملامح الناس ولا شك .

ثم يلاحظ ان اجسام سكان السواحل اقصر من اجسام ابناء الجبال والنجاد . وان اهل التهائم والسواحل الجنوبية لجزيرة العرب اقصر قامة من اهل نجـــاد اليمن او اهل نجد . كما نجد اختلافاً بين ملامح القبائل لا زال بارزاً حتى اليوم . اختلافـاً يتحدث عن طبيعة الامتزاج الذي وقع في الدم في ايام الجاهلية ايضاً ،

---

١ تاج العروس (١٨٤/٧) ، (ملك) .
٢ تاج العروس (٣٢٠/٨ ، (روم) .

لاختلاط الدماء وامتزاجها بالعوامل التي ذكرتها، وان ذهب البعض الى ان جزيرة العرب كانت في عزلة عن العالم، فهذه العزلة التي يتحدثون عنها، هي عزلة لم تكن عامة ولا يمكن ان نسميها عزلة صحيحة الا بالنسبة للقبائل المتبدية التي عاشت في صميم البوادي، غير ان تلك القبائل لم تتمكن مع ذلك من عزل نفسها عن الرقيق والأسرى الغرباء.

ثم نجد فروقاً بين العرب والاعراب، سببه اختلاف المحيط والظروف والغذاء. فالعربي ممتلىء الجسم بالقياس الى الاعرابي الرشيق القليل اللحم، الدقيق العظم. وتظهر هذه النحافة في وجه الاعرابي ايضاً، فوجهه ممشوق قليل اللحم، دقيق ممتد ذو ذقن بارز، وأنف دقيق، وعينان براقتـان. وتعد الرشاقة في جسم العربي من محاسنه لأنها تجعله معتدل القوام. خفيف الحركة. وقد مدح (امرؤ القيس) الغـلام الخف، اي الخفيف الجسم، السريع الحركة الذي يتزل عن صهواته ويلوي بأثواب العنيف المثقل. اي الثقيل الجسم السمين. وقيل: الخفيف في الجسم والخفاف في التوقد والذكاء.[1] ويعد ثقل الجسم من المعيبات. ومن المجاز التخفيف ضد التثقيل والخفيف ضد الثقيل. وقد اعتبروا الثقل ذمّاً في الانسان. فقيل: هو ثقيل على جلسائه، وهو ثقيل الظل، ويقال مجالسة الثقيل تضني الروح، حتى ألف بعض العلماء في اخبار الثقلاء.[2]

و (الربع) من الرجال، اي المتوسط القـامة، النموذج الأوسط للانسان وحدّ الكمال في الجسم عند العرب. ويقال له: (ربعة) و (مربوع). وقد نعت رسول الله بأنه (ربعة) من الرجال، وورد أنه كان أطول من المربوع وأقصر من المشذب.[3] والوسط عند العرب هو بين الجيد والرديء. وأوسط الشيء افضله وخيـاره. ومنه الحديث: خيار الامور اوساطها.[4] وقد هابت العرب اصحاب الطول في الجسم، والكبر في الرأس، واحترموا اصحاب الهيبة والتأثير في النفس، وقد ذكر بعض منهم في كتب اهل الاخبار. وقد رموا القصير

١ تاج العروس (٦/٩٢ وما بعدها)، (خفف).
٢ (قال الراغب: الثقيل في الانسان يستعمل تارة في الذم وهو أكثر في التعارف. وتارة في المدح)، تاج العروس (٧/٢٤٥)، (ثقل).
٣ تاج العروس (٥/٣٣٨)، (ربع).
٤ تاج العروس (٥/٢٤٠ وما بعدها)، (وسط).

بالمكر والخديعة ، ولكنهم اعتبروا القصر في الجسم من العيوب ، لا سيما اذا كان ذلك القصير غليظ البطن . وقد عرف الانسان الموصوف بهذه الصفة بالدحداح وبالدحاح وبالدودح وبالدحداح[1] . والدودحة القصر مع السمن[2] . وأما (الدرحاية) ، فالرجل الكثير اللحم القصير السمين البطين ، اللئيم الخلقة . وعرف الرجل المسنّ الذي ذهبت أسنانه بـ (الدردح)[3] .

واعتبر العرب طول العنق من سمات المدح . ولذلك وصف رؤساء العرب بطول العنق . وعُبّر عن الرؤساء والكبراء والأشراف بـ (الأعناق) و (أعناق). وعبّر عن الجماعة الكثيرة بـ (الأعناق) كذلك[4] . وذكر الشاعر (عروة بن الورد) عنق الآرام في شعر له في وصفه للناشئات الماشية بتبختر . إذ قال :

والناشئات الماشيات الخوزرى   كعنق الآرام أوْفى أو صرى[5]

والعرب مثل غيرهم لا يحبون الصلع . ويكثر ظهوره بين العجزة والمسنين والأشراف . وقد ذكر ان أكثر الأشراف من العرب كانوا من الصلع ، وتفسير ذلك ان أكثر الأشراف هم من ذوي الأسنان ، وان الإنسان إذا تقدمت به السن ، أخذ الصلع يجد له مكاناً في رأسه فيلعب فيه . ومن ذلك قول الناس يوم بدر : (ما قتلنا إلا عجائز صلعاً) أي مشايخ عجزة عن الحرب . وأنشد (ابن الاعرابي) : (يلوح في حافات قتلاه الصلع) أي يتجنب الأوغاد ولا يقتل إلا الأشراف[6] .

وهم يفضلون (الأفرع) على الأصلع . والأفرع هو الكثير الشعر . وكان (أبو بكر) أفرع ، وكان عمر أصلع . وكان رسول الله أفرع ذا جمة[7] . والصلع خير من (القرع) ، لأن القرع داء يصيب الرأس ، فيؤثر في منظره

١ تاج العروس (٢/١٣٥) ، (دح) .
٢ تاج العروس (٢/١٣٦) ، (دودحة) .
٣ تاج العروس (٢/١٣٦) ، (دردح) .
٤ تاج العروس (٧/٢٦) ، (عنق) .
٥ اللسان (٤/٢٣٧) ، (خزر) .
٦ تاج العروس (٥/٤١٦) ، (صلع) .
٧ تاج العروس (٥/٤٤٩) ، (فرع) .

ويسبب سقوط شعره وحدوث أثر دائم فيه ، وقد تنبعث رائحة كريهة منه [1] . وقد ذكر الأخباريون أسماء عدد من الأشراف عرفوا بقرعهم .

وقد اشتهر بعض العرب بطول القامة ، حتى زعم ان بعضاً منهم كان اذا ركب الفرس الجسام خطت ابهاماه في الارض . وذكروا من هؤلاء : (جذيمة ابن عاقمة بن فراس) ، المعروف بـ (جذل الطعان) الكناني ، و (ربيعة بن عامر بن جذيمة بن علقمة بن فراس) ، وكان يماشي الظعينة فيقبلها ، فسُمّي (مقبل الظعن) . و (زيد الخيل بن المهلهل الطائي) ، و (أبو زيد حرملة ابن النعمان الطائي) ، وعديّ بن حاتم بن عبد الله الطائي ، وقيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ، وأبوه سعد بن عبادة ، وسعد بن معاذ ، وعبد الله بن أُبَـي ابن سلول ، وبشير بن سعد ، أخو بني الحارث بن الخزرج ، وجبلة بن الأيهم الغساني ، وحمـل بن مرداس النخعي ، ومالك الأشتر بن الحـارث النخعي ، وعبد الله بن الحصين ذي الغصة الحارثي ، وعامر بن الطفيل الجعفري ، وقيس ابن سلمة بن شراحيل بن أصهب الجعفي [2] .

العرب أفخر الأمم :

يرى الجاحظ ان العرب أفخر الأمم ، وأرفعها وأحفظها لأيامهـا ، وينسب ذلك الى طبيعة بلادهم . إذْ (كانوا سكان فيافٍ وتربية العراء ، لا يعرفون الغَمق ولا اللثق ، ولا البخار ولا الغلظ ولا العفنٍ ، ولا التخم ، أذهان حِداد ، ونفوس منكرة ، فحين حملوا حدّهم ووجهوا قولهم لقول الشعر وبلاغة المنطق ، وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام ، بعد قيافـة الأثر وحفظ النسب ، والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآفاق ، وتعرّف الأنواء ، والبصر بالخيل وآلة الحرب ، والحفظ لكل مسموع والاعتبار بكل محسوس ، وإحكام شأن المثالب والمناقب ، بلغوا في ذلك الغاية ، وحازوا كل أمنية . وببعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر ، وهممهم أرفع من جميع الأمم وأفخر ، ولأيامهم أحفظ وأذكر) [3] . وهم

١ تاج العروس (٥/٤٦٣) ، (قرع) .
٢ المحبر (ص ٢٣٣ وما بعدها) .
٣ مناقب الترك ، من رسائل الجاحظ (١/٧٠) .

لطبيعة الأرض التي ولدوا بها صاروا على هذه الحال ، ولم يصيروا كاليونان في الحكمة وفي العلوم ، ولا كالصين في السبك والصياغة والإفراغ والاذابة والأصباغ العجيبة ، وأصحاب الخرط والنحت والتصاوير ، ولا كالهنود أو الفرس [1] .

وقد وصف الأعرابي بالتفاخر وبالتباهي ، فهو فخور معجب بنفسه مترفع عن غيره حتى لكأنه النمر . مع انه من أفقر الناس . ولهذا صاروا اذا أرادوا وصف شخص متغطرس متجبر مع انه لا يملك شيئاً يفوّق به نفسه على غيره ، قالوا عنه : (نبطيٌ في حبوته . أعرابي في نمرته ، أسد في تامورته) . [2]

العجـــم :

ويطلق العرب على غيرهم ممن لا ينتمون الى العرب ، لفظة (أعاجـــم) . و (العجم) عندعم خلاف العرب . والرجل الواحد (أعجمي) . ولعلماء اللغة آراء في تفسير هذه اللفظة [3] . وهي من الألفاظ الجاهلية ، لورودهـــا في القرآن الكريم . ففيه : (لسان الذي يلحدون اليه أعجمي) [4] . و (أأعجمي وعربي . قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) [5] ، و (لو جعلناه قرآناً أعجميّـــاً ، لقالوا لولا فصلت آياته) [6] ، و (لو نزلنـــاه على بعض الأعجمين فقرأه عليهـــم ما كانوا بـــه مؤمنين) [7] . ففي هذه الآيات دلالة واضحة على ان المراد من (أعجمي) خلاف العربي ، وان هذا المصطلح كان معروفاً عند العرب قبل الإســـلام .

ويطلق العرب على العجم (الحمراء) لبياضهم ولأن الشقرة أغلب الألوان عليهم . وكانت العرب تقول للعجم الذين يكون البياض غالبـــاً على ألوانهم مثل الروم والفرس ومن صاقبهم : انهم الحمراء . والعرب اذا قالوا : فلان أبيض

١ مناقب الترك من رسائل الجاحظ (١/٦٦ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٣/٥٨٥) ، (نمر) .
٣ تاج العروس (٨/٣٨٩ وما بعدها) ، العقد الفريد (٣/٢٢٩) .
٤ النحل ، الآية ١٠٣ .
٥ فصلت ، الآية ٤٤ .
٦ فصلت ، الآية ٤٤ .
٧ الشعراء ، الآية ١٩٨ .

وفلان بيضاء ، فمعناه الكرم في الأخلاق لا لون الخلقة . واذا قالوا : فلان أحمر وفلانة حمراء عنوا بياض اللون . والعرب تسمي الموالي : الحمراء [1]. جاء في الحديث : (بعثت الى الأحمر والأسود) ، أي الى العجم والعرب كافة [2] .

وورد ان العرب تقول : جاء بغنمه حمر الكلى وجاء بها سود البطون ، معناهما المهازيل . وهو مجاز [3] . ويذكرون ان معنى حمر الكلى الامتلاء والسمن ، والسواد بمعنى الهزال والرشاقة . ولما كان الأعاجم ممتلئي الجسم بالنظر الى العرب ، قالوا لهم (الحمراء) . وقد كان العرب يطلقون على الموالي (الحمراء) ، واذا سبّوا أحدهم قالوا ، (يا ابن حمراء العجان أي يا ابن الأمة . كلمة في السب والذم [4]) . ولعلّهم فعلوا ذلك بسبب امتلاء أجسام الموالي ولا سيما العجان ، الذين لا يتحركون ولا يتنقلون من أماكنهم ، ويأكلون الخبز فامتلأت لذلك بطونهم وتكرشوا .

ولم يشرح علماء العربية الاسباب التي حملت العرب على تلقيب العجم بـ (رقاب المزاود) (رقاب المزود) [5] . وقد ذكر بعض العلماء ، ان العرب إنما لقبت العجم بـ (رقاب المزاود) ، لطول رقابهم أو لضخامتها كأنها ملأى [6] .

ويكنى العرب بـ (السبط) عن العجمي وبـ (الجعد) عن العربي [7] . وذلك لان سبوطة الشعر هي الغالبة على شعور العجم من الروم والفرس وجعودة الشعر هي الغالبة على شعور العرب . ولكنهم كانوا يفرقون بين جعودة شعر العرب وجعودة شعر الزنج والنوبة . لأنهم ينظرون الى الزنج والسود على انهم دونهم في المنزلة والمكانة . ولهذا قالوا ان العرب تمدح الرجل إذ تقول رجل جعد ، أي كريم جواد كناية عن كونه عربياً سخياً ، لان العرب موصوفون بالجعودة ، وتذم الرجل أيضاً حين تقول : رجل جعد ، إذ يقصدون بذلك

١ اللسان (٤/٢١٠) ، (حمر) ، تاج العروس (٣/١٥٤) ، (حمر) .
٢ تاج العروس (٣/١٥٤) ، (حمر) .
٣ تاج العروس (٣/١٥٨) .
٤ تاج العروس (٣/١٥٨) .
٥ اللسان (ز/و/د) ، (٣/١٩٨) .
٦ تاج العروس (٢/٣٦٦) ، (زاد) .
٧ تاج العروس (٥/١٤٩) ، (سبط) .

رجلاً لئيماً لا يبض حجره ، وقد يراد به رجل قصير متردد الخلق . فهو من الأضداد . لذلك فالجعد في صفات الرجال يكون مدحاً وذماً . واذا قالوا رجل جعد السبوطة فدح ، الا ان يكون قططا مفلفل الشعر فهو حينئذ ذم[1] .

ومن المجاز قول العرب : الأعداء صهب السبال وسود الأكباد ، وان لم يكونوا كذلك ، أي صهب السبال ، فكذلك يقال لهم . ورد في الشعر :

جـاؤا يجرون الحديث جرّاً صهـب السبال يبتغون الشرّا

وانما يريدون ان عداوتهم كعداوة الروم . والروم صهب السبال والشعر ، والا فهم عرب والوانهم الأدمة والسمرة والسواد[2] .

ويذكر علماء اللغة ان العرب تصف ألوانهـا بالسواد ، وتصف ألوان العجم بالحمرة . وقـد افتخر الشعراء بذلك في الجاهلية وفي الإسلام . من ذلك قول الفضل بن عباس بن عتبة اللهبي :

وأنـا الأخضر مـن يعرفني أخضر الجلدة في بيت العرب

يقول : أنا خالص لأن ألوان العرب السمرة . ومن ذلك قول مسكين الدارمي :

أنـا مسكين لمـن يعرفـني لوني السمرة ألوان العرب[3]

قال (الجاحـظ) : (والعرب تفخر بسواد اللون .. وقد فخرت خُضر محارب بأنها سود ، والسود عند العرب الخضر) . ثم ذكر أمثلة من أمثلة افتخار بعض القبائل والأشخاص بكونهم (خضراً) . حتى قال : (وخضر غسان بنو جفنة الملوك ؟ قال الغساني :

إن الخضارمة الخضر الذين ودّوا أهل البريص ثماني منهم الحكم

وقد ذكر حسان أو غيره الخضر من بني عُكيم ، حين قال :

ولستَ من بني هاشم في بيت مكرمة ولا بني جمحِ الخضر الجلاعيد

١ تاج العروس (٢/٣٢٠ وما بعدها) ، (جعد) .
٢ تاج العروس (١/٣٤٢) ، (صهب) .
٣ تاج العروس (٣/١٧٩ وما بعدها) ، (خضر) ، رسائل الجاحظ ، كتاب فخر السودان على البيضان (١/٢٠٧) ، (تحقيق عبد السلام هارون) .

قالوا : وكان ولد عبد المطلب العشرة السادة دُلماً ضخماً ، نظر اليهم عامر ابن الطفيل يطوفون كأنهم جمال جون ، فقال : بهؤلاء تمنع السدانة .

وكان عبد الله بن عباس أدلم ضخماً ، وآل أبي طالب أشرف الخلق ، وهم سود وأدم ودلم)[1] .

واشتهر بعض سودان العرب بالشجاعة والاقدام ، منهم أربعة عرفوا بـ (أغربة العرب) وذؤبان العرب . منهم : عنترة وخفاف بن ندبة السلمي ، سرى فيه السواد من قبل أمه ، وهو من حرّة بني سليم . أدرك النبي ، وكان شاعراً شجاعاً ، وقل ما يجتمع الشعر والشجاعة في واحد . ومنهم السليك بن السلكة[2] .

وهناك قبائل غلب على لونها السواد ، حتى عبر عنها بـ (دلم) . والدلم الرجل الشديد السواد[3] . جاء اليها السواد ، لكون أصلها من افريقية على ما يظهر ، وكانت قد استقرت بجزيرة العرب وتعربت ، حتى عدت من العرب . أما الأسر والأفراد الدلم ، فقد ظهر السواد على لونهم بالتزاوج من الملونين . فقد كان من عادة الأشراف الاتصال بالإماء السود ، فاذا ولدن منهم أولاداً نجباً شجعاناً ألحقهم آباؤهم بهم ، ونسبوهم اليهم كالذي كان من أمر عنترة العبسي . وقد مال قوم من قريش الى التزوّج بالإماء السود ، وقد ظهرت هذه النزعة بين السادات والأشراف .

وقد ذكر (الجاحظ) في معرض حجج السودان على البيضان ، وعلى لسان الزنج قولهم للعرب : (من جهلكم أنكم رأيتمونا لكم أكفاء في الجاهلية في نسائكم ، فلما جاء عدل الإسلام رأيتم ذلك فاسداً ، وما بنا الرغبة عنكم . مع ان البادية منا ملأى بمن قد تزوج ورأس وساد ، ومنع الذمار ، وكنفكم من العدوّ)[4] . وفي هذا القول اشارة الى التزاوج الذي كان بين العرب والزنج ، أي السودان المجلوبين من افريقية ، في أيام الجاهلية . والى انصراف العرب عنه

١ فخر السودان ، للجاحظ (١/٢٠٧ وما بعدها) ، من (رسائل الجاحظ) ، تحقيق عبد السلام هارون) .
٢ الثعالبي ، ثمار (١٥٩ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٨/٢٩٢) ، (دلم) .
٤ من رسائل الجاحظ (١/١٩٧) .

في الإسلام ، ما خلا البادية ، وذلك بسبب اقبالهم على التزوج بالفارسيات والروميات وبغيرهن على ما يظهر ، بسبب الفتوح وتوسع أسواق النخاسة في هذا الوقت . وارتفاع مستوى الوضع الاقتصادي للعرب في الإسلام عنه في الجاهلية ، مما مكنهم من التزوّج بالأجنبيات البيض الجميلات وتفضيلهن على السودانيات . وظهور نظرة الازدراء الى السودان في الإسلام ، بسبب الأعاجم المسلمين الذين كانوا يزدرون العبيد وينظرون اليهم على انهم دونهم في المنزلة ، فانتقلت هذه النظرة منهم الى العرب .

ويظهر من رسالة الجاحظ : (فخر السودان على البيضان) ، ان نزاعاً كان قد دبّ بين السودان والعرب في الإسلام ، بسبب نظرة الازدراء التي أخذ الفاتحون ينظرون بها اليهم فصاروا يترفعون عنهم ولا يخالطونهم . وهذا مما أغاضهم ، وحملهم على نبش الماضي ، والاتيان بالأخبار وبالأشعار عن دور الحبش في جزيرة العرب قبل الاسلام ، وكيف انهم كانوا قد ملكوا (بلاد العرب من لدن الحبشة الى مكة)[1] ، وهزموا ذا نواس ، وقتلوا أقيال حمير ، فملكوا العرب ولم يملكهم العرب[2] . الى غير ذلك من دعاوي تجدها في قصيدة الشاعر الزنجي (الحيقطان) ، التي يفتخر فيها بالحبش على العرب ، على نحو فخر الشعوبية بأصولهم على العرب . وهي قصيدة شهيرة ، قالها يوم سمع (جرير) يسخر منه بشعر قاله في وصفه . فرد عليه رداً شديداً بقصيدته هذه التي نظمها وهو باليمامة[3] .

وقد عُرفت بعض القبائل ببياض بشرتها ، واشتهرت نساؤها ببياض البشرة ، ورد (في الحديث انه لما خرج من مكة قال له رجل : إن كنت تريد النساء البيض والنوق الأدم فعليك ببني مدلج)[4] . ويقال للمرأة التي يغلب على لونها البياض (الحمراء) ، وقد لقب الرسول زوجته (عائشة) بـ (الحميراء) ، لبياض لونها .

١ رسائل الجاحظ (١/١٩٣ وما بعدها) .
٢ المصدر نفسه .
٣ رسائل الجاحظ ١/ ١٨٠ ، ١٨٢ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (٨/١٨١ وما بعدها) ، (ادم) .

القبيلة :

والقبيلة هي عماد الحياة في البادية ، بها يحتمي الأعرابي في الدفاع عن نفسه وعن ماله ، حيث لا (شُرَط) في البوادي تؤدب المعتدين ، ولا سجون يُسجن فيها الخارجون على نظام المجتمع ، وكل ما هناك (عصبية) تأخذ بالحق و (أعراف) يجب ان تطاع .

والرابط الذي يربط شمل القبيلة ويجمع شتاتها هو (النسب) . ويفسر ذلك بارتباط أبناء القبيلة كلها بنسب واحد وبدم واحد وبصلب جدّ أعلى من صلبه انحدر أفراد القبيلة في اعتقادهم . ولهذا نجد أهل الأنساب يرجعون نسب كل قبيلة الى حدّ أعلى ، ثم يرجعون أنساب الجدود ، أي أجداد القبائل الى أجداد أقدم ، وهكذا ، حتى يصلوا الى الجدّين للعرب : قحطان وعدنان .

وقد حفظت الكتابات العربية الجنوبية أسماء عدد كبير من القبائل ، لم يعرف أسماء أكثرها أهل الأخبار . وهي تفيدنا من هذه الناحية فائدة كبيرة في الوقوف على هذه القبائل ، وبعضها كان قد هلك وانحلّ واختلط في القبائل الأخرى قبل الميلاد وبعضها بعد الميلاد وقبل الإسلام بأمد .

وتتألف القبيلة من بيوت ، يختلف عددها باختلاف حجم القبيلة ، وباختلاف المواسم . ففي مواسم الربيع ، تضطر أحياء القبيلة على الانتشار والابتعاد ، لتتمكن إبلها من الرعي ومن املاء بطونها بالعشب . فتتجمع على شكل مستوطنات يتراوح عدد بيوت كل مستوطنة منها ما بين الخمسين والمائة والخمسين بيتاً . أما في المواسم الأخرى ، حيث تنحبس الأمطار وتجف الأرض ، فتعود أحياء القبيلة الى تكتلها وتجمعها ، فتكون كل مجموعة حوالى (٥٠٠) بيت أو أكثر . تتجمع حذر وقوع غزو عليها ، وللتعاون فيما بينها عند الشدة والعسر [١] .

والقبيلة في عرف علماء اللغة جماعة من أب واحد ، والقبائل في نظرهم من قبائل الرأس لاجتماعها ، أو من قبائل الشجرة وهي أغصانها [٢] ، فهي إذنْ جماعة من الناس تضم طوائف أصغر منها ، وهي تنتمي كلها الى أصل واحد وجذر

---

١ W. Caskel, Die Bedeutung der Beduinen, S., 8.

٢ تاج العروس (٧٢/٨) ، (قبل) .

راسخ ، ولها نسب مشترك يتصل بأب واحد هو أبعد الآباء والجد الأكبر للقبيلة . فالرابط الذي يربط بين أبناء القبيلة ويجمع شملها ويوحد بين أفرادها هو (الدم) ، أي النسب . والنسب عندهم هو القومية ورمز المجتمع السياسي في البادية . والقبيلة هي الحكومة الوحيدة التي يفقهها الأعرابي ، حيث لا يشاهد حكومة أخرى فوقها . وما تقرره حكومته هذه من قرارات يطاع وينفذ ، وبها يستطيع ان يأخذ حقه من المعتدي عليه .

وهذه النظرة الخاصة بتعريف القبيلة ، هي التي حملت أهل الأنساب والأخبار على اطلاق لفظة (القبيلة) على الحضر أيضاً . مع انهم استقروا وأقاموا . فقريش عندهم قبيلة ، والأوس ، والخزرج قبيلة ، وثقيف قبيلة . ذلك لأن هؤلاء الناس وان تحضروا واستقروا وأقاموا ، وتركوا الحياة الأعرابية ، إلا أنهم بقوا رغم ذلك على مذهب أهل الوبر ودينهم في التمسك بالانتساب الى جد أعلى والى أحياء وبطون . وفي اجابة النخوة والعصبية ، وما شابه ذلك من سجايا البداوة ، فعدّوا في القبائل ، وان صاروا حضراً وأهل قرار ، وقد طلقوا التنقل وانتجاع الكلأ .

وتشارك الشعوب السامية العرب في هذه النظرة . لأن نظامها الاجتماعي القديم هو كالنظام العربي قائم على القبيلة . والقبيلة عندها جماعة من بيوت ترى انها من أصل واحد ، وقد انحدرت كلها من صلب جدّ واحد . فهم جميعاً أبناء الجدّ الذي تتسمى به القبيلة . وهم مثل العرب في النداء وفي النسب . قد يذكرون الاسم فقط ، فيقولون مثلاً : أدوم ومؤاب واسرائيل ويهوذا ، أو أبناء اسرائيل وأبناء يهوذا ، وبنو اسرائيل وبنو يهوذا . وقد يقولون : بيت اسرائيل وبيت يوسف وبيت خمرى وبيت اديني ، بمعنى أبناء المذكورين . تماماً كما نقول : غسان ، وآل غسان ، وأبناء غسان وأولاد غسان ومن غسان ، وغساني ، وما شاكل ذلك ، ويريدون بها شيئاً واحداً ، هو النسب . أي الانتماء الى جد واحد به تسمى القبيلة واليه يرجع نسبها .

وهم يشعرون كالعرب ان أبناء القبيلة هم إخوة وهم من دم واحد ، ومن لحم ودم ذلك الجد . وهم يخاطبون بعضهم بعضاً بقولهم : (أنت من لحمي ودمي) . وفي التوراة أمثلة عديدة من هذا القبيل . فلما ذهب (ابو مالك بن

يربعل) الى عشيرة أمه خاطب أبناءها بقوله : (أيما خير لكم ! أن يتسلط عليكم سبعون رجلاً جميع بني يربعل ، أم ان يتسلط عليكم رجل واحد. واذكروا أني أنا عظمكم ولحمكم)[1] . وقد اعتبر (داوود) جميع أبناء عشيرته إخوة له[2] . وخاطب (شيوخ يهوذا) بقوله : (أنتم إخوتي ، أنتم عظمي ولحمي)[3] . فأبناء القبيلة هم إخوة من دم واحد . يسري في أجسامهم جميعاً ما دامت القبيلة حية باقية . ووحدة الدم هذه هي الرابط الذي يجمع شمل القبيلة . وهي صلة رحم ، وعصبية ، والحكومة الصحيحة التي يجب ان تطاع .

والعربي مثل بقية الساميين لم يفهم الدولة إلا انها دولة القبيلة . وهي دولة صلة الرحم التي تربط الأسرة بالقبيلة . دولة العظم واللحم ، دولة اللحم والدم ، أي : دولة النسب . فالنسب هو الذي يربط بين أفراد الدولة ويجمع شملهم . وهو دين الدولة عندهم وقانونها المقرر المعترف به . وعلى هذا القانون يعامل الإنسان . وبالعرف القبلي تسير الأمور . فالحكام من القبيلة ، وأحكامهم احكام تنفذ في القبيلة ، واذا كانت ملائمة لعقلية القبيلة والبيئة ، وهذا هو ما يحدث في الغالب ، تصير سنة للقبيلة ، نستطيع تسميتها بـ (سنة الأولين) . ووطن القبيلة هو بالطبع مضارب القبيلة حيث تكون ، وحيث يصل نفوذها اليه ، فهو يتقلص ويتوسع بتقلص وبتوسع نفوذ القبيلة .

وقد واجه المسلمون في أيام الفتوح صعوبة كبيرة في فتوحهم بسبب العقلية القبلية وضيق أفقها ، وعدم تمكنها من التخلص من مثلها الجاهلية بسهولة . فقد كان على القائد ان يقاتل عدوّه بجيش يحارب على شكل كتل قبائل ، تتكون كل كتلة من مقاتلي قبيلة واحدة ، لا من جنود ينتمون الى أمة هي فوق الكتل والقبائل . وكان على رأس كل وحدة مقاتلة رؤساء من القبيلة التي ينتمي اليها الجنود. وقد واجه الإمام (عليّ) صعوبة حينما حارب في معركة الجمل وفي معركة صفين وغيرها ، إذ اشترطت عليه القبائل المحاربة ، ألا تحارب إلا رجال قبيلتها الذين يكونون ضده ، فالهمدانيون الذين معه يحاربون الهمدانيين الذين يحاربون مع خصمه . وهكذا فعلت بقية القبائل ، للعصبية القبلية ، لأنهم لم يكونوا يستطيعون رؤية قبيلة غريبة تفتك

---

١ سفر القضاة ، الاصحاح التاسع ، الآية ٢ .
٢ صموئيل الأول ، الاصحاح ٢٠ ، الآية ٢٩ .
٣ صموئيل الثاني ، الاصحاح التاسع عشر ، الآية ١٣ .

بإخوانهم من قبيلتهم ، وهم ينادون بشعار العصبية ، شعار القبيلة . أما هم فإن قاتلوا إخوانهم من قبيلتهم ، فإن قتالهم هذا يختلف عن قتال الإخوة حين يقتتلون قتالاً قد يكون أشد ضراوة من قتال الغرباء ، لا يلتفت فيه الى وجود دم واحد بين المتقاتلين ، والى أنهم من بيت أب وأم ، يحتم عليهم التكتل والتعصب ، إذْ لا غريب هنا أمامهم في هذا القتال .

ولست بحاجة وأنا في هذا المكان ، لتكرار قول سبق ان قلته في الجزء الأول من هذا الكتاب — من ان أسماء القبائل لا تعني بالضرورة انها أسماء أجداد حقيقيين عاشوا وماتوا . فبينها كما سبق ان قلت أسماء مواضع ، مثل غسان ، وبينها أسماء أصنام مثل (بنو سعد العشيرة) وبينها أسماء أحلاف مثل (تنوخ) وبينها نعوت وألقاب .. الى آخر ذلك من أسماء قبائل وصلت الى علم علماء الأنساب ، فأوجدوا لها معاني واعتبروها أسماء رجال حقيقيين تزوّجوا ونسلوا ومنهم من كان عاقراً فلم ينسل ، فذهب أثره ، ولم تبق له بقية [1] .

والمفهوم من لفظة (القبيلة) في العادة : القبائل التي تتألف من عمائر ومـا وراء العمائر من أقسام . فاذا ذكرت القبيلة انصرف الذهن الى آلاف من البيوت تجتمع تحت اسم تلك القبيلة . ولكن الناس يتجوزون في الكلام وفي الكتابة أحياناً فيطلقونها على عدد قليل من الناس قد يبلغ ثلاثة نفر أو أربعة مثل : (بنو عبد الله ابن أفصى بن جديلة) ، و (بنو جساس بن عمرو بن خويّة بن لوذان) ، من (بني فزارة) ، و (كليب بن عديّ بن جناب بن هبل) ، و (بنو شقرة) من تميم . وقد يطلقونها على أكثر من ذلك ، ولكن على عدد قليل من الناس أيضاً ، كأن يكون خمسين رجلاً أو ستين [2] . وهذا الاستعمال ، هو على سبيل التجوز لا الاصطلاح .

ويرى علماء العربية ان هناك تجمعات ، هي في نظرهم أكبر حجماً من القبيلة أطلقوا عليها (الشعوب) . فذكروا ان الشعوب فوق القبائـل ، ومثاله : بنو قحطان ، وبنو عدنان ، فكل منها شعب . وما دونها قبائـل . وذهب بعض منهم الى ان (الشعوب) للعجم ، فإن الشعوب بالنسبة لهـم ، مثل القبائـل

---

١ راجع الجزء الأول من كتابي (ص ٢٩٤ وما بعدها) .
٢ المحبر (ص ٢٥٦) ، (القبائل التي لا يزيد عددها) .

للعرب ، ومنه قيل للذي يتعصب للعجم (شعوبي) ، وقيل : بل هي للعرب وللعجم . والذي عليه أكثر علماء الأنساب ، ان الشعب أكبر من القبيلة ، وان الشعب أبو القبائل الذي ينتسبون اليه ، أي يجمعهم ويضمهم [1] .

ويظهر ان مردّ هذا الاختلاف هو ما ورد في القرآن الكريم من قوله : (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) [2] . فقدم (الشعوب) على القبائل . فذهب أكثر المفسرين والعلماء الى ان هذا التقديم يعني ان الشعب أكبر من القبيلة ، وان الشعوب الجمّاع والقبائل البطون ، أو الشعوب الجمهور والقبائل الأفخاذ ، أو الشعوب : النسب البعيد ، والقبائل : دون ذلك ، كقولك فلان من بني فلان ، وفلان من بني فلان . وتأول بعض آخر هذا المعنى ، فذهبوا الى ان هذا التقديم أو التأخير ، لا علاقة له بالكبر ، أي بحجم الشعب أو القبيلة ، والآية لا تريد ذلك ، وانما تريد الأنساب ، وانها نزلت في بيان ان الإنسان لا بنسبه ، وانما بعمله . وعلى هذا ، فإن الشعب ، في نظرهم دون القبيلة في الترتيب . والشعب بعد القبيلة في الدرجة [3] .

وقد أخذ العلماء بالتأويل الأول للفظة (الشعب) ، حتى صار هذا المعنى هو المعنى المفهوم منها عند الناس في الإسلام . فهي انما تعني اليوم جنساً من أجناس البشر له خصائصه ومميزاته ، كالشعب العربي والشعب اليوناني والشعب التركي والشعب البريطاني والشعب الاميركي ، وهكذا . أو جزءاً كبيراً مستقلاً من أجزاء أمة واحدة ، كأن نقول : الشعب العراقي ، والشعب السوري ، والشعب السعودي ، والشعب المصري ، أي وحدة جغرافية سياسية ذات كيان .

ولفظة (الشعب) ، من الألفاظ الواردة في نصوص المسند . وهي فيها بمعنى قبيلة ، وتكتب (شعبن) ، بمعنى (الشعب) . وحرف النون في أواخر الأسماء أداة للتعريف في العربيات الجنوبية . فهي إذن مرادف (قبيلة) بالضبط . والجمع (اشعب) ، أي (شعوب) . ورد (سباواشعبهمو) ، أي (سبأ وشعوبهم) ،

١ تاج العروس (٣١٨/١) ، الخوارزمي ، مفاتيح العلوم (٧٤) .
٢ سورة الحجرات ، السورة رقم ٤٩ ، آية ١٣ ، تفسير الطبري (٨٨/٢٦) ، تفسير الالوسي (١٤٧/٢٦) .
٣ تفسير الطبري (٨٨/٢٦) .

أو (سبأ وقبائلهم) بتعبير أدق وأصح . وورد (شعبن معن) ، أي (قبيلة معين) ، و (شعبن همدان) ، أي (قبيلة همدان) . والظاهر ان أهل مكة ، وقفوا في الجاهلية على هذه اللفظة أيضاً فاستخدموها ، وان قبائل حجازية مجاورة لمكة ، كانت تستعمل لفظة (شعب) و (الشعب) ، بمعنى قبيلة ، ونظراً لورودهما معاً في القرآن الكريم ، فرّق العلماء بين اللفظتين ، باعتبار ان ذكرهما معاً ، يعني وجود بعض الاختلاف في المراد منهما . فوقع من ثمّ بين المسلمين هذا التمييز ، وصارت لفظة (الشعب) تدل على معنى يختلف عن معنى كلمة (قبيلة) و (القبيلة) .

ويلي الشعب في اصطلاح أهل النسب : القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة . فالشعب النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان ، والقبيلة مثل ربيعة ومضر ، والعمارة مثل قريش وكنانة ، والبطن مثل بني عبد مناف وبني مخزوم ، ومثل بني هاشم ، وبني أميّة ، والفصيلة مثل بني أبي طالب وبني العباس[1] . وجعل (ابن الكلبي) مرتبة بين الفخذ والفصيلة هي مرتبة العشيرة ، وهي رهط الرجل[2] .

وورد ان البطن دون القبيلة أو دون الفخذ وفوق العمارة . وذكر بعضهم ان أول العشيرة : الشعب ثم القبيلة ثم الفصيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ[3] . وذلك على رأي من جعل العشيرة : العامة . مثل : بني تميم وبني عمرو بن تميم . أي الجماعة العظيمة[4] .

وزاد بعض العلماء الجذم قبل الشعب ، وبعد الفصيلة العشيرة ، ومنهم من زاد بعد العشيرة الأسرة ، ثم العترة . ورتبها آخرون على هذه الصورة ، جذم ، ثم جمهور ، ثم شعب ، ثم قبيلة ، ثم عمارة ، ثم بطن ، ثم فخذ ، ثم عشيرة ،

١ اللسان (٥٧/١٤) ، (١٩٩/١٦) ، بلوغ الأرب (١٨٧/٣ وما بعدها) ، تاج العروس (٧٢/٨) ، السيرة الحلبية (٣٧/١) ، العمدة (١٩١/٢) ، (محمد محي الدين عبد الحميد) ، تاج العروس (١٤١/٩) ، (بطن) .
٢ العقد الفريد (٢٨٣/٣ فما بعدها) ، المقريزي ، النزاع والتخاصم (٦٥) ، نهاية الأرب للنويري (٢٦٢/٢ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (١٤١/٩) ، (بطن) .
٤ تاج العروس (٤٠٣/٣) ، (عشر) .

ثم فصيلة ، ثم رهط ، ثم أسرة ، ثم عترة ، ثم ذرية . وزاد غيرهم في أثنائها ثلاثة هي : بيت ، وحيّ ، وجماع .[1] وذكر بعض علماء اللغة أن (الجذم) ، الأصل في كل شيء . فيقال : جذم القوم أهلهم وعشيرتهم . ومنه حديث حاطب ، لم يكن رجل من قريش الا له جذم بمكة .[2]

وذكر بعض العلماء ان العمارة الحيّ العظيم يقوم بنفسه .[3] وان الفرق بين الحيّ والقبيلة هو ان الحيّ لا يقال فيه بنو فلان نحو قريش وثقيف ومعدّ وجذام . والقبائل يقال فيها بنو فلان مثل بني نعيم وبني سلول[4] . وذكر ايضاً ان العمارة : الحيّ العظيم الذي يقوم بنفسه ، ينفرد بظعنها واقامتها ونجعتها . وقيل هو اصغر من القبيلة . وفي الحديث : انه كتب لعمائر كلب وأحلافها كتاباً . قال التغلبي :

لكل اناس من معدٍّ عمــارة عروضٌ ، اليها يلجأون ، وجانب[5]

وقسم (النويري) النظام القبلي عند العرب الى عشر طبقات[6] . وابتــدأ بـ (الجذم) وهو الاصل : وهو قحطان وعدنان ، والطبقة الاولى . ثم الجماهير ، وهي الطبقة الثانية ، ثم الطبقة الثالثة : الشعوب ، والطبقة الرابعة القبيلة ، وهي التي دون الشعب تجمع العمائر ، ثم الطبقــة الخامسة : العمائر ، وهي التي دون القبائل ، وتجمع البطون ، ثم الطبقة السادسة : البطون ، وهي التي تجمع الأفخاذ ، والطبقة السابعة : الأفخاذ . وهي اصغر من البطن . والفخذ تجمع العشائر . والطبقة الثامنة : العشائر ، واحدها عشيرة ، وهم الذين يتعاقلون الى اربعة آباء . والطبقة التاسعة : الفصائل ، واحدها فصيلة ، وهم اهل بيت الرجل وخاصته ، والطبقة العاشرة : الرهط ، وهم الرجل واسرته .[7]

١ اللسان (١٨/٢٣٥) ، نهايــة الأرب ، للنويري (٣/٢٦٢ فما بعدها) ، الخوارزمي ، مفاتيح العلوم (٧٤) .
٢ تاج العروس (٨/٢٢٢) .
٣ المفضليات (ص ٤١٤) ، القاموس (٢/٩٥) .
٤ الخوارزمي ، مفاتيح (ص ٧٤) .
٥ اللسان (٤/٦٠٦) ، (عمر) .
٦ نهاية الأرب (٢/٢٧٧) ، (الباب الرابع من القسم الاول من الفن الثاني في الإنساب) .
٧ نهاية الأرب (٢/٢٨٤ وما بعدها) .

ما ذكرته يمثل مجمل آراء علماء النسب عند العرب في موضوع كيان القبيلة وفروعها التي تتفرع منها درجة درجة ، حتى تصل الى البيت ، الذي يتكون من الأب والأم وأولادهما . وقد رأينا انهم قد اختلفوا فيما بينهم وتباينوا في الترتيب وفي العدد . منهم من يقدم ، ومنهم من يؤخر ، ومنهم من يزيد ، ومنهم من ينقص . واختلافهم هذا فيما بينهم ، هو دليل يشعرنا ان التقسيم المذكور لم يكن تقسيماً ثابتاً عند كل القبائل وأنه لم يكن تقسيماً جاهلياً بل كان تقسيماً محلياً اختلف بين قبيلة وأخرى ، وأن اسماء اجزاء القبيلة ، لم تكن اسماء عامة متبعة عند الجميع ، أي اسماء مقررة عند كل قبيلة ، بل هي اسماء اخذها العلماء من هنا وهناك ، ولهذا وقع بينهم هذا الاختلاف ، ولو كان عند الجاهليين تقسيم واحد لاجزاء القبيلة فما كان من المعقول ان يقع علماء النسب واللغة فيما رأينا من تباين واختلاف ، ولوجب اتفاقهم في الترتيب وفي العدد . فالتقاسيم المذكورة اذن ، هي من وضع وترتيب وجمع علماء النسب واللغة في الاسلام .

وأصغر وحدة من وحدات القبيلة هي : الأسرة ، اي (البيت) . فهي نواة القبيلة وبذرتها وجرثومتها ، ومن نموها ظهرت شجرة القبيلة — التي يختلف حجمها وتختلف كثرة اغصانها وفروعها باختلاف منبت الشجرة والظروف والعوامل التي أثرت في تكوينها . من بذرة جيدة ومن تربة صالحة وماء كاف . والبيت هو نواة القبيلة عند العرب ، وهو نواة القبيلة عند كل الشعوب القبلية . بل هو نواة المجتمع في كل مجتمع انساني .

القحطانية والعدنانية :

تحدثت في الجزء الاول من هذا الكتاب عن القحطانية والعدنانية بما فيه الكفاية [1] ، وأعود هنا فأقول ان ما ذكرته عن اهل المدر وأهل الوبر ، اي عن الحضر والبدو او الاعراب وهم اهل البادية ، لا يعني ان الحضر هم القحطانيون ، وان الاعراب هم العدنانيون . كما ذهب الى ذلك بعض المستشرقين باعتبار ان غالبية من نسميهم القحطانيين هم حضر ، او اقرب من غيرهم الى الحضر ، وأن غالبية العدنانية

---

١ (٤٩٣/١ وما بعدها) .

اعرابية متبدية. والصواب عندي ان في القحطانيين عرباً واعرابا ، وفي العدنانيين حضراً وبادية ، وان غلبت البداوة على العدنانيين . لأن من وجد الماء الدائم تنخ عليه وتحضر ، قحطانياً كان النازل أم عدنانياً ، فالحضارة تنبت حيث يكون الماء ، والماء لا يعرف النسب والقبائل . من وجده وظفر به وأقام عليه تحضر واستقر ، فصار حضرياً .

ولهذا نجد في حضر جزيرة العرب اقواماً يحشرهم اهل الانساب في قحطان ، ونجد في حضرها اقواماً يرجعون نسبهم الى عدنان .

ونحن اذا ما رسمنا خارطة لكيفية توزع الحضر والاعراب ، أو لكيفية انتشار القبائل ، فاننا نجد ان منازل القبائل متداخلة مشتبكة . ليست بينهـا حدود ولا اسوار حاجزة تحجز القبائل القحطانية عن القبائل العدنانية . الا في العربية الجنوبية حيث يرجع النسابون نسب اكثر قبائلها الى أصل قحطاني . أما في الاماكن الاخرى ، فان القبائل القحطانية وكذلك القبائل العدنانية منتشرة ، انتشاراً لا يدل على وجود تكتل وتحزب . بل نجد القحطانية تجاور العدنانية وتخالطها ونجد القحطانية في جوار القحطانية ، والعدنانية في جوار العدنانية ، مما يدل على ان هذا التوزيع لم يقم ولم يستند على عنصرية وحزبية وعلى هجرات منتظمة ، وانما قام على حق القوة وتحكم القوي في الضعيف ، مهما كان عنصر القوي وأصله . وأن التكتل قد حدث بدوافع سياسية عسكرية لعبت دوراً خطيراً في تكون النسب .

وظاهرة اخرى نراها عند القبائل ، تتجلى في ان القبائل وان تنقلت وارتحلت من مكان الى مكان ، سعياً وراء الماء والكلأ ، كما يذكر اهل الاخبار ، الا ان ذلك لا يعني ان هذه الحركة هي حركة دائمية مستمرة ، وان القبـائل كانت تتنقل دوماً من مكان الي مكان . بحيث صار الترحل لها سنة دائمة لازمة . فلو ثبتنا منازل القبائل على (خريطة) صورة جزيرة العرب ، استناداً الى روايات اهل الاخبار عنها ، وجدنا ، ان منازل القبائل لم تتبدل الا للضرورات ولأسباب قاهرة تكره القبيلة على ترك ديارهـا والارتحال عنها الى منازل جديدة . كأن تغزوها قبائل كثيرة العدد أقوى منها او ينحبس عنها المطر سنين ، تهلك الضرع ، او تحاربها قوة نظامية اقوى منها ، كالذي وقع لـ (إياد) ، حيث ازاحهـا (بنو عبد القيس) عن مواطنها في البحرين ، ثم شتتت الفرس شملها في العراق فعندئذ تضطر القبيلة وهي مكرهة مجبورة على ترك ديارها للبحث عن ديار اخرى

جديدة . وتكاد تكون اكثر اسباب هجرات القبائل وارتحالها من اماكنها الى اماكن اخرى هي الأسباب المذكورة .

وطراز حياة القبائل في جزيرة العرب باستثناء العربية الجنوبية ، متشابه ، بحيث يصعب ان نجد فروقاً واضحة ظاهرة بين القبائل التي ينسبها النسابون المسلمون الى قحطان او الى عدنان ، فهي متشابهة وعلى وتيرة واحدة . وأما اللغة ، فاننا لا نجد فيما بين القبائل العدنانية والقحطانية اي خلاف يذكر على ما يظهر من روايات علماء اللغة . بل نجد ان لهجات القبائل القحطانية الشمالية هي لهجات عدنانية ، مخالفة للهجات اهل اليمن المعروفة التي كانت سائدة في اليمن الى ظهور الاسلام . فلهجات اهل اليمن من الحميرية وغيرها ، بعيدة عن لهجات القبائل القحطانية والعدنانية بعداً متساوياً ، حتى بالنسبة الى القبائل اليمانية التي غادرت اليمن في عهد متأخر ، كما سأبحث عن ذلك فيما بعد ، وفي القسم الخاص بلغات اهل الجاهلية . ولهذه الظاهرة اهمية كبيرة بالنسبة الى دراسة اللغة والنسب عند العرب الجاهليين .

وعندي أن ما يذهب اليه المستشرقون من تقسيم العرب الى عرب جنوبيين وعرب شماليين ، هو تقسيم لا يمكن اعتباره تقسيماً علمياً . فان ما نشاهده من فروق في الملامح والمظاهر بين اهل العربية الجنوبية من اهل اليمن وحضرموت ومسقط وعمان وبين اهل الحجاز ونجد ، والعرب الشماليين الآخرين ، وان كان واضحاً ظاهراً ولا مجال الى نكرانه ، الا ان هذه الفروق لا يمكن اعتبارها مع ذلك حداً فاصلاً يقسم العرب الى مجموعتين : مجموعة شمالية ومجموعة جنوبية ، لسبب بسيط جداً سبق ان بينته في الجزء الاول من هذا الكتاب ، وتحدثت عنه في مواضع اخرى منه . وهو ان كل مجموعة من المجموعتين لا تكون في نفسها وحدة متناسقة متجانسة ، بل تتألف من مجموعات يختلف بعضها عن بعض في السحن وفي الملامح ، بسبب عوامل الاتصال بالعالم الخارجي ، وبسبب اختلاف الظروف الطبيعية التي يعيش بها افراد كل مجموعة . فأهل جبال اليمن والجبال المتصلة بها الممتدة الى عمان ، يختلفون اختلافاً بيناً عن اهل السواحل والارضين المنخفضة ، ليس في الملامح والسحن فحسب ، بل وفي العمل وفي النشاط وفي المدارك ايضاً . وأهل السراة في العربية الغربية يختلفون عن اهل تهامة وبقية ساحل البحر الأحمر ، وأهل نجد يختلفون عن اهل ساحل الخليج . يختلفون عنهم في السحن والملامح كما

يختلفون عنهم في المدارك وفي حدة الذهن . وهذا الاختلاف هو شيء واقعي بين للعيون ، يراه كل انسان حين يزور بلاد العرب . وهو في حدّ ذاته شاهد على فساد نظرية المستشرقين في تقسيم العرب الى مجموعتين .

وبعد ، فهذه الطبيعة طبيعة جزيرة العرب — من جوّ وأرض ، من انحباس مطر ومن ارتفاع في درجات الحرارة . ومن يبوسة في الهواء ، وقلة في الرطوبة ؛ ومن اختلاف في ضغط الجوّ اختلافاً يخل بتوازنه فيثير فيه اعاصير وعواصف ، تعتدي على حرمة التربة الهادئة الراقدة ، فترفع رمالها الى ارتفاعات متباينة ، وتلفح الأوجه والأجسام بـ (سموم) وبما شاكله من اهوية مزعجة ، تثير الغضب وتلهب العصب ، وتجعل الجوّ داكناً اظلم مغبراً ، اضف الى ذلك ما تراه من نور ساطع وأشعة لامعة تحمل أمواجاً غير مرئية تؤثر في خلايا البشرة وفي النفس ، ثم هذه الرطوبة المفرطة المتحكمة في التهائم ، وهذه الندرة في الانهار ، والاسراف في ظهور البوادي والصحارى ، وتحكم الطبيعة تحكماً جائراً في توزيع النبات والحيوان على اهل جزيرة العرب : كل هذه الامور وامثالها أثرت اثراً كبيراً في نفس اهل جزيرة العرب ، وفي شكل اجسامهم ، وفي حالة معيشتهم ، فجعلتهم يختلفون عن غيرهم بأمور ، ويتباينون فيما بينهم بأمور ، وذلك لاختلاف طبيعة اجزاء الجزيرة نفسها . ونحن لن نستطيع فهم العرب فهماً صحيحاً دقيقاً ، الا اذا درسنا هذه الامور المذكورة وأمثالها دراسة علمية دقيقة . وعندئذ فقط نستطيع فهم سبب تفشي البداوة بين العرب ، وسبب تطبع العرب بطباع خاصة ، واتسامهم بسمات وعلامات خاصة وبملامح ومظاهر جسمية متباينة ، وأمثال ذلك مما تعرضت له في بحث الجنس والسامية وفي بحث طبيعة العقلية العربية وما قيل في حقها من اقوال ، وما ورد في العرب من مدح او ذم ومن وصف صادق او كاذب .

اركان القبائل :

يرجع كل العرب من حيث النسب الى ركن من (اركان القبائل) . فقد اصطلح علماء النسب على ان للنسب عند العرب بعد قحطان وعدنان أربعة أركان :

ربيعة ومضر ويمن وقضاعة.[1] وذلك على رأي من جعل قضاعة ركناً قائماً بذاته. ولا يمكن ان يخرج نسب عربي أصيل عن أصل من هذه الأصول.

وورد ان العرب في النسب على أربع طبقات : خندفي وقيسي ، ونزاري ، ويمني[2] . ويمن هي قحطان . وكان العرب يتعززون بانتسابهم الى اليمن ، فكان من ينقلب على نسبه يتخذ لنفسه نسباً يمانياً . (وأكثر العزوة لمن ينقلب عن نفسه الى اليمن ، لأجل أن الملوك كانت في اليمن : مثل آل النعمان بن المنذر من لخم ، وآل سليح من قضاعة ، وآل محرق ، وآل العرنج ، وهو حِمْيَر الاكبر ابن سبأ كالتبابعة والأذواء وغيرهم . والعرب يطلبون العز ولو كان في شامخات الشواهق ، وبطون الامالق البوائق ، فينتسبون الى الأعز لحماية الحميّة واباءة الدنية ..)[3]

ورجع بعض النسابين المعروفين نسب العرب الى ثلاث جراثيم : نزار ، واليمن وقضاعة[4] . ويمثل رأيهم هذا رأي القائلين بالأركان الاربعة للقبائل بالضبط ، لأن نزاراً هو في عرفهم والد ربيعة ومضر ، وكل ما فعلوه هنا ، هو انهم حذفوا اسمي الولدين وأحلوا اسم والدهما في محلهما .

ورجع (المأمون) الخليفة العباسي ، اصول العرب الى قيس ويمن وربيعة ومضر . فلما تعرض عربيّ بالمأمون وهو في زيارته لبلاد الشام ، ولامه في تقديم أهل خراسان على العرب ، بقوله : (يا امير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان) ، أجابه الخليفة : (أكثرت عليّ يا أخا اهل الشام ، واللهِ ما انزلت قيساً عن ظهور الخيل الا وأنا ارى انه لم يبق في بيت مالي درهم واحد . وأما اليمن فواللهِ ما احببتها ولا أحبتني قط . وأما ربيعة فساخطة على ربّها منذ بعث اللهُ نبيّه من مضر ، ولم يخرج اثنان الا خرج احدهما شارياً ، اعزب عني فعل الله بك ...)[5]

فأركان العرب في رأي المأمون اربعة : قيس ويمن وربيعة ومضر . وهي كتل

---

١ بلوغ الأرب (٣/٢٠٣) .
٢ نهاية الأرب (٣/٢٧٨) .
٣ نهاية الأرب (٢/٢٨٣) .
٤ الانباه (٦٣) .
٥ الاسلام والمشكلة العنصرية ، لعبد الحميد العبادى (ص ٩٠ بعدها) .

كانت على عادة العرب متنافسة متحاسدة متباغضة ، ترى كل واحدة منها نفسها وكأنها أمة دون سائر الأمم » و (يمن) كناية عن العرب الجنوبيين من همدان وحمير وكندة وأمثالها ، وأما قيس وربيعة ومضر ، فكناية عن تكتلات وتجمعات العرب من غير اليمن .

وذهب (ابن حزم) الى ان جميع العرب من أب واحد ، سوى ثلاث قبائل ، هي : تنوخ ، والعُتق ، وغسان ، فان كل قبيلة منها مجتمعة من عدة بطون . وذلك ان تنوخاً اسم لعشر قبائل اجتمعوا وأقاموا بالبحرين ، فسُمّوا تنوخاً ، والعتق جمعٌ اجتمعوا على النبي ، فظهر بهم فأعتقهم فسُمّوا بذلك ، وغسان عدة بطون نزلوا على ماء يسمى غسان فسمّوا به .[1]

ولما جاء (خالد بن الوليد) الى العراق كان جيشه من (ربيعة) و (مضر)[2] ومن قبائل يمانية . ومعنى هذا وجود ثلاثة اركان قبائل محاربة . ولما قال (خالد ابن الوليد) لـ (عديّ بن عديّ بن زيد العباديّ) : (ويحكم ! ما انتم ! أعرب ؟ فما تنقمون من العرب ! أو عجم ! فما تنقمون من الانصاف والعدل ! فقال عديّ : بل عرب عاربة واخرى متعربة ، فقال : لو كنتم كما تقولون لم تحادّونا وتكرهوا امرنا ؟ فقال له عديّ : ليدلك على ما نقوله انه ليس لنا لسان الا بالعربية ، فقال : صدقت)[3] ولا تعني جملة (بل عرب عاربة واخرى متعربة) معنى : ان العرب عربان،عرب عاربة وعرب متعربة ، على النحو المفهوم منها عند اهل الاخبار . بل هي تعبر عن واقع اصل اهل الحيرة . فقد كان اهلها بين عرب صرحاء وبين عرب متعربة اي جماعة لم تكن عربية في الأصل وانما كانت من اصل عراقيّ وفارسيّ اقامت في الحيرة ، وتأثرت بأهلها العرب فتكلمت العربية حتى صارت العربية لسانها ، فهي من العرب المتعربة . وقد كان كل عرب العراق على هذا النحو في ذلك الوقت . فهم بين عرب خلّص وبين عرب متعربة ، لم تكن اصولها من منبت عربيّ ، وانما دخلت في العرب فتطبعت بطباعهم وأخذت لسانهم حتى نسيت ألسنتها القديمة ، وصارت من العرب .

---

١ بلوغ الأرب (١٩١/٣) .
٢ الطبري (٣٤٧/٣) ، (مسير خالد الى العراق وصلح الحيرة) .
٣ الطبري (٣٦١/٣) .

وقد ذكر بعض المؤرخين ان العرب من (نزار) ملكتهم الفرس . وأن العرب من غسان ملكتهم الروم [1] . فجعل (نزاراً) في مقابل غسان . ولم يكن كل عرب العراق من (نزار) . يدلك على ذلك ان ملوك الحيرة على رأي اهل الاخبار من قحطان . والذي يلاحَظ من كيفية توزيع القبائل على حسب رواية اهل الاخبار ان معظم قبائل العراق ، هي من قبائل (نزار) او من (ربيعة) و (مضر) بتعبير آخر . اما معظم قبـائل بلاد الشام فهي من (يمن) . اي على عكس الحال في العراق . فهل يمثل هذا التقسيم توزيعاً تأريخياً صحيحاً ؟ بمعنى ان اكثر قبائل العراق ، قد وردت العراق من العربية الشرقية والعربية الوسطى ، اي من سواحل الخليج ونجد ، وان عرب بلاد الشام انما جاؤوا الى هناك من اليمن ، عن طريق الحجاز ونجد . او انه تقسيم سياسي اصطلاحي ، نشأ قبل الاسلام بعهد طويل من المنافسة التي كانت بين العراق وبلاد الشام ، المنافسة التي ظلت باقية في الاسلام . فقد كان بين العراق وبين بلاد الشام عداء وتباغض ، لعوامل لا مجال للبحث فيها في هذا المكان . وقد استولت حكومات العراق من حكومات وطنية وأجنبية على بلاد الشام مراراً ، مما ولد مرارة وأوجد حقداً بين اهل العراق وأهل الشام ، فانتقل ذلك الى عرب القطرين ايضاً . فحارب عرب العراق عرب بلاد الشام ، حتى وصل هـــذا العداء الى دعوى وجود فرق بين اصل عرب العراق وأصل عرب بلاد الشام . فصارت اكثر قبائل العراق في عرف اهل الانساب من ربيعة ومضر ونزار ، وصار معظم بلاد الشام في عرفهم من اليمن . قياساً على ما كان عليه العرب عند ظهور الاسلام من انصار ومهاجرين ، او من يمن وعدنان ، او قحطان وعدنان وما شابه ذلك من اسماء . اما رأيي ، فان لأهل الاخبار يداً طولى في هذا التقسيم الذي ظهر واينع في الاسلام . وان الجاهلية لم تكن تخلو من تجمعات وتكتـــلات قبلية ، لكنها كانت تختلف عن التجمعات التي اثارتها النعرة القبلية الجديدة التي برزت في الاسلام ، والتي اثرت على ظهورها عوامل عديدة الى ان ثبتت ودُوّنت في كتب اهل الانساب والاخبار .

وجعل بعض اهل الاخبار العرب يمناً ونزاراً . وذكر ان اليمن اصحاب بحر وبني نزار اصحاب بر [2]. وقصدوا باليمن اصحاب الساحل ، الذين عركوا البحر

---

١ المعاني الكبير (٢/ ٩٤١ وما بعدها) .
٢ المعاني الكبير (٢/ ٦٤٠) .

وخبروه . عكس (نزار) ، عرب البر ، وهم قوم لا علم لهم بالبحر ، انهم لم يتعودوا على ركوبه . اذ سكنوا البرّ ولم يعركوا البحر ، فخافوا منه وتجنبوه .

والآراء المتقدمة في تقسيم العرب الى اركان وكتــل ، هي آراء عربية محضة أخذت من واقع الحال ، ولم تستمد من التقسيم المألوف للعرب الى قحطانيين وعدنانيين ، التقسيم المأخوذ من التوراة على نحو ما شرحت ذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب . ذلك لأن الحياة في بلاد العرب هي حياة تكتل وتحزب ، فكان لا بد للقبائل من عقد احلاف فيما بينها للمحافظة على نفسها من افتراس القبــائل الكبيرة لها ، ومن استذلالها وأخذ ما تملكه . وبهذه الاحلاف حافظت القبائل الضعيفة على حياتها ، وحدّت من طمع القبائل الضخمة في القبائل الهزيلة ، وصار في الامكان السيطرة على الأمن والتقليل من حمى غزو القبائل بعضها بعضاً .

وحاجة الاعراب الى الاحلاف اكثر وأشد من حاجة الحضر اليهــا ، وذلك بسبب ان الغزو في البادية ضرورة من ضرورات الحياة لفقر البادية وشحها ، لانبساط ارضها وعــدم وجود حواجز طبيعية تعوق الغزو وتحمي المغزو منه . فاضطرت القبائل على خلق حماية طبيعية لها هي الاحلاف . والاحلاف هي لغاية حماية المال والنفس في الغالب ، ولكبح جماح المعتدين اذن . اما الاحلاف الهجومية التي تعقد لتحقيق اغراض هجومية مثل غزو حلف حلفاً آخر او قبيلة ضخمة قبيلةً ضخمة اخرى ، فانها لا تعمر طويلاً كما تعمّر الاحلاف الدفاعية ، لأن اسباب انعقادها تزول بتنفيذ ما اتفق عليه ، وقد يتحطم الحلف بسبب ظهور اختلافات مصالح لم تكن في حسبان المتحالفين يوم عقدوا حلفهم ، فيتصدع بنيان الحلف ويتهدم ويزول الحلف ليظهر محله حلف آخر جديد .

اما الحضر ، فان لهم من حماية ارضهم لهم ، ومن طبيعة الحياة التي يحيونها ما يخفف من حاجتهم الى الحلف القبلي ، ويجعل احلافهم احلافاً من طراز آخر . فقد منحت الطبيعة الحضر حجراً صلداً بنوا به ابراجاً وحصوناً ومعاقل حموا بها مستوطناتهم ، من طمع الطامعين فيهم ، ولا سيما من الاعراب الذين لا يسهل عليهم اقتحام الحصون ولا تهديمها لعدم وجود اسلحة تؤثر فيها ؛ ومنحتهم تربة صار من الممكن عمل الاجر او اللبن منها لبناء المحافد والآطام وما شاكل ذلك من وسائل الدفاع ، كما امدتهم بمواد بناء مكنتهم من انشاء الحيطان والأسوار حولها ،

وهي مانع يصد الأعراب عن الحضر . وهم بالاضافة الى ذلك أقدر على الدفاع عن أنفسهم وعلى اللجوء الى الحيل للتخلص من الأعراب بسبب تحضرهم وتقدمهم في التفكير على عقلية الفطرة التي جبل البدو عليها . وغاية ما فعله الحضر من الأحلاف ، هو تحالفهم مع من أحاط بهم من الأعراب لضمان عدم تحرشهم بهم أو لمنع الأعراب الآخرين من التحرش بهم . وعقد حبال مع القبائل لمرور تجارهم من أرضها بأمن وسلام مقابل هدايا أو أرباح أو أموال تعين ، تدفع الى ساداتها تأليفاً لقلوبهم وضماناً منهم لهم بعدم تحرش أحد بهم .

ولما تقدم انحصرت الأحلاف الكبرى أو التكتلات القبلية الضخمة بالأرضين المكشوفة التي غلب عليها الطابع الصحراوي . وبين القبائل التي غلبت البداوة عليها . والأحلاف الكبرى ، هي في نظري كناية عن النسب الاكبر عند العرب. فربيعة ومضر وإياد وأنمار وقضاعة ، هي في الواقع تكتلات قبيلة تكونت من قبائل غلبت البداوة على طبعها ، وقد ظهرت خارج العربية الجنوبية ، أي خارج الأرضين التي غلب على سكانها طابع الارتباط بالارض والقرار . اما القبائل القحطانية ، التي هي في التوراة كناية عن قبائل عربية جنوبية مستقرة ، فكتل أخذت أسماءها من الأرضين التي كانت تحكمها أو من اسم القبيلة التي سميت باسمها . وبين أسماء القبائل وأسماء الأرضين صلة متينة ، بحيث يصعب الحكم فيما اذا كانت الارض قد أخذت اسمها من اسم القبيلة ، أو ان القبيلة أخذت اسمها من اسم الأرض .

وقد لعبت فكرة (قحطان) و (عدنان) دوراً مهماً في حصر الأنساب عند العرب في الإسلام . يذكر الجاحظ ان رجلاً اسمه (شويس الساسي التميمي العدوي) ، المعروف بـ (أبي فرعون) ، كان قد قدم البصرة ، فذهب الى رجل منها اسمه (كهمس) يلتمس العون منه ، فأعطاه رغيفاً من الخبز الحواري ، ثم ذهب الى رجل آخر اسمه (عمر بن مهران) ، فلم يعطه ما كان يريد ، فضاق ذرعاً من هذا الرغيف ، وذهب الى حلقة (بني عدي) فوقف عليهم وهم مجتمعون ، وأخرج الرغيف من جرابه وألقاه في وسط المجلس ، وقال : يا بني عدي ، استفحلوا هذا الرغيف ، فإنه أنبل نتاج على وجه الأرض ! ثم قال شعراً سخر فيه من أهل البصرة ومن تشدقهم في الانتساب الى قحطان

أو عدنان ، وفحش بهما ومن انتساب الناس اليها ، بينما الناس هنالك ما بين نبط أو خوزان [1] .

ومن أهم القبائل القحطانية التي كان لها شأن يذكر عند ظهور الإسلام ، وفي الإسلام . حمير وكهلان . ومن مجموعة حمير قضاعة ، في رأي من جعل قضاعة من اليمن . ومن قضاعة كلب وأسد ومن أسد تنوخ . واما مجموعة كهلان ، فتتألف من الأزد وهمدان ومذحج وطيء، ومن الأزد: غسان والأوس والخزرج .

وربيعة من القبائل العربية الكبيرة العدد ، وقد سبق ان تحدثت عنها في مواضع من الأجزاء السابقة من هذا الكتاب . وقد عرفت (ربيعة) بـ (ربيعة الفرس) . ويعلل أهل الأخبار اشتهارها بذلك بقولهم : (وربيعة الفرس . هو ابن نزار بن معدّ بن عدنان ، أبو قبيلة . وإنما قيل له ربيعة الفرس لأنه أعطي من ميراث أبيه الخيل ، وأعطي أخوه مضر الذهب . فسمّي مضر الحمراء . وأعطي أنمار أخوهما : الغنم ، فسمي أنمار الشاة [2] . وذكروا أيضاً : ان نزاراً لما حضرته الوفاة ، آثر إياداً بولاية الكعبة ، وأعطى مضر ناقة حمراء ، فسمّي مضر الحمراء ، وأعطى ربيعة فرسه ، فسمّوا ربيعة الفرس ، وأعطى أنمار جارية له تسمى : بجيلة فحضنت بنيه ، فسمّي بجيلة أنمار) [3] . وذكر أيضاً ان نزاراً لما حضرته الوفاة قسم ماله بين بنيه ، (وهم أربعة : مضر وربيعة وإياد وأنمار . وقال : يا بني ، هذه القبة وهي من أدم حمراء وما أشبهها من المال لمضر، وهذا الخباء الأسود وما شبهه من المال لربيعة ، وهذه الخادم وما أشبهها من المال لإياد ، وهذه البدرة والمجلس لأنمار يجلس فيه) . ولما مات توجهوا الى (الأفعى بن الأفعى الجرهمي) وكان ملك نجران ، وصادفوا في طريقهم أعرابياً ضل بعيره ، فوصفوه له ، فقال لهم دلّوني عليه ، ولما حلفوا له أنهم لم يروه وإنما وصفوه من أثره ، لم يصدقهم بل أخذهم الى (الأفعى) ليحلفوا أمامه انهم لم يروه ، فلما بلغوه قصّوا قصتهم مع الأعرابي ، وذكروا انهم إنما وصفوه من أثره على الارض . فحكم لهم (الأفعى) بأنهم صادقون ، وانهم لم يشاهدوه ، ثم احتفل بهم بعد ان عرفهم وجرب ذكاءهم ، وحكم بأن لمضر القبة الحمراء والدنانير

---

١ كتاب البغال ، من رسائل الجاحظ (٢/٣١٤ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٥/٣٤٣) ، (ربع) .
٣ نهاية الأرب (١٦/١٠) .

والإبل ، وهي حمر فسميت : مضر الحمراء ، وان لربيعة الخباء الأسود من دابة ومال ، فصارت له الخيل ، وهي دهم ، فسميت ربيعة الفرس . ثم قال : وما اشبه الخادم ، وكانت شمطاء ، فهو لإياد ، فصارت له الماشية البلق من الخيل وغيرها ، وقضى لأنمار بالدراهم والارض[1] .

و (مضر) من القبائل الكبيرة . وقد عرفت بـ (مضر الحمراء) كما ذكرت . وفسر علماء اللغة والنسب اشتهار (مضر) على نحو ما ذكرت قبل قليل ، وفسره بعضهم بقوله ومضر الحمراء ، لأنه أعطي الذهب من ميراث أبيه . وأخوه ربيعة أعطى الخيل . فلقب بالفرس . أو لأن شعارهم في الحرب الرايات الحمر[2] . وقال بعض علماء اللغة ، وإنما سُمّي مضر بمضر : (لولعه بشرب اللبن الماضر أو لبياض لونه) ، (والعرب تسمي الأبيض أحمر ، فلذلك قيل مضر الحمراء)[3] . وذكر بعض أهل الاخبار ان مضر مضران : مضر الحمراء لسكناها قباب الأدم ، ومضر السوداء لسكناها المظالّ[4] .

ويظهر من هذه التفسيرات ، ان (مضر) كانت قد نعتت بـ (الحمراء) قبل ظهور الاسلام . وان (ربيعة) كانت قد عرفت بـ (ربيعة الفرس) ، ولعل هذا بسبب ، ان (مضر) كانت إذْ ذاك قبائل ذات إبل وتجارة ومال ، ومنها (قريش) التي عرفت بتجارتها وبما جمعته من مال ، فقالوا (مضر الحمراء) . واما (ربيعة) ، فكانت قبائل متبدية غازية محاربة ، لها خيل وفرسان لهذا عرفت بـ (ربيعة الفرس) .

وقد أشار الشاعر (لبيد) الى ربيعة ومضر في شعره حين تعرض لذكر الموت ، فقال :

تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر[5]

١ الدميري ، حياة الحيوان (١/٣١) (الافعى) .
٢ تاج العروس (٣/١٥٨) ، (حمر) .
٣ تاج العروس (٣/٥٤٤) ، (مضر) .
٤ نهاية الأرب (٩١٦) .
٥ ديوان لبيد (١/٢٨) ، (٢/١) .

أراد : هل أنا إلا من أحد هـذين الجنسين ، فسبيلي ان أفنى كما فنيا[1] .
ونسب اليه قوله :

فإن لم تجد من دون عدنان والداً ودون معدّ فلترعك العواذل[2]

فأشار بذلك الى (عدنان) و (معد) .

ومن أشهر قبائل مضر (قريش) ، حتى ان الناس كانوا إذا قالوا : مضري انصرف ذهنهم الى قرشي . على سبيل الشهرة ، لاشتهار قريش بالمضرية . فلما رأى رجل (أبا سفيان) واقفاً بباب (عثمان بن عفان) ينتظر الإذن بالدخول عليه . قال له : (يا أبا سفيان ، ما كنت أرى ، ان تقف بباب مضري ، فيحجبك ! فقال أبو سفيان : لاعدمت من قومي من أقف ببابه فيحجبني)[3] .

القبائل القوية :

والقبائل مثل الدول ، أنماط ودرجات . منها قبائل قويـة نشطة تعتمد على نفسها في الدفاع عن كيانها ، ومنها قبائل أقل من هذه القبائل شأناً وقوة تتحالف مع غيرها في الدفاع عن نفسها ، لتكون من الحلف كتلة قبلية مهابة . وقبائـل صغيرة ليست لها قدرة على الدفاع عن حياضها لوحدها ، لذلك تركن الى التحالف مع قبائل أخرى أقوى منها لتحافظ بذلك على وجودها .

والقبائل القوية هي القبائل الكثيرة العدد والموارد . واذا ترأسها سادات ذوو كفاءة وقدرة ، هابتها القبائل الأخرى ، وسادت على غيرها ، وكونت منهـا ومن القبائل التي تستولي عليها مملكة ، كالذي فعلتـه كندة . ولم يورد العلماء شروطاً في الحد الأدنى أو الحد الأكبر للقبيلة . وذلك من ناحية عـدد العشائر والبطون والأفخاذ ، فلم نعثر على حد معين إذا بلغته جماعة من الناس وجب اطلاق لفظة (قبيلة) عليها . بل نجد علماء النسب يطلقونها أحياناً على بطون وأفخاذ ،

---

١ أمالي المرتضى (١٧١/١) ، (٥٥/٢) ، (تود ابنتاي) .
٢ امالي المرتضى (١٧١/١) .
٣ نهاية الأرب (٨٨/٦) .

فيقولون : قبائل قريش ، ويذكرون أسماءها ، بينما هي في الواقع (آل) أو أرهاط وبطون .

ويقال للقبائل التي تستقل بنفسها وتستغني عن غيرها (الأرحى)[1] . وعرفت القبيلة التي لا تنضم الى أحد بـ (الجمرة) . ذكر انها القبيلة تقاتل جماعة قبائل . وكل قبيل انضموا فصاروا يداً واحدة ولم يحالفوا غيرهم ، فهم جمرة . وقيل : الجمرة : كل قوم يصبرون لقتال من قاتلهم لا يحالفون أحداً ولا ينضمون الى أحد . تكون القبيلة نفسها جمرة تصبر لقراع القبائل كما صبرت عبس لقبائل قيس . ولما سأل (عمر) الحطيئة) عن عبس ومقاومتها قبائل قيس . قال : (يا أمير المؤمنين كنا ألف فارس كأننا ذهبة حمراء ، لا نستجمر ولا نحالف ، أي لا نسأل غيرنا ان يجتمعوا الينا لاستغنائهم عنهم) . والجمرة اجتماع القبيلة الواحدة على من ناوأها من سائر القبائل[2] .

وذكر ان (الجمرة) ألف فارس ، أي القبيلة التي يكون فيها ذلك العدد من الفرسان ؛ وقيل ثلثمائة فارس أو نحوها . والذي يستنتج من آراء علماء اللغة والنسب في تعريف (الجمرة) ، انها القبائل المقاتلة القوية التي تعتمد على نفسها في القتال ، ولا تركن الى غيرها ، ولا تحالف غيرها لتستفيد من هذا الحلف في قراع القبائل[3] .

ومن مفاخر هذه القبائل كثرة ما عندها من فرسان ، والفرسان في ذلك اليوم هم عماد حركة الجيوش ، ومن أسباب القوة والانتصار . وقد عدّوا القبيلة التي يكون فيها ثلاثمائة فارس أو نحوها جمرة ، وقيل الجمرة : ألف فارس[4] .

ومن جمرات العرب : ضبّة بن اد ، وعبس بن بغيض ، والحارث بن كعب ، ويربوع بن حنظلة[5] . وذكر بعض العلماء ان جمرات العرب ثلاث

١ اللسان (٣١٤/١٤) ، (صادر) ، (رحا) ، تاج العروس (١٤٦/١٠) ، (رحا) .
٢ اللسان (١٤٥/٤) ، (صادر) ، (جمر) ، الحصري ، زهر الآداب (٢٥/١) .
٣ تاج العروس (١٠٧/٣) ، (جمر) .
٤ اللسان (١٤٥/٤) ، (صادر) ، (جمر) .
٥ المحبر (ص ٢٣٤) .

جمرات : بنو ضبّة بن اد بن طابخة بن الياس بن مضر ، وبنو الحارث بن كعب ، وبنو نمير بن عامر . فطفئت منهم جمرتان . طفئت ضبّة ، لأنها حالفت الرباب وطفئت بنو الحارث ، لأنها حالفت مذحج . وبقيت (نمير) لم تطفأ ، لانها لم تحالف . وورد ان الجمرات : عبس بن ذبيان بن بغيض ، والحارث بن كعب ، وضبّة بن اد ، وهم إخوة لأم . لأن أمهم امرأة من اليمن . تزوجها (كعب بن عبد المدّان يزيد بن قطن ، فولدت له : الحارث بن كعب ، وهم أشراف اليمن . ثم تزوجها (بغيض بن ريث بن غطفان) ، فولدت له عبساً وهم فرسان العرب ، ثم تزوّجها (اد) فولدت له ضبّة . فجمرتان في مضر ، وهما عبس وضبّة وجمرة في اليمن ، وهم بنو الحارث بن كعب . وذكر بعض آخر ان الحارث ، هم بنو كعب بن علة بن جلد . ومنهم من عدّ تميماً من الجمرات [1] .

(قال الخليل : الجمرة كل قوم يصبرون لقتال من قاتلهم ، لا يحالفون أحداً ، ولا ينضمون الى أحد ، تكون القبيلة نفسها جمرة تصبر لمقارعة القبائل كما صبرت عبس لقيس كلها) [2] .

واذا تأملت كلام العلماء في جمرات العرب ، تجده يصادم بعضه بعضاً حتى ان الواحد منهم يذكر عدداً ، ثم يذكر عدداً غيره في موضع آخر من كتابه . وقد اعتذر عن ذلك بعض العلماء إذْ قال : (قلت فاذا تأملت كلامهم تجده مصادماً بعضه مع بعض) ، ثم ذكر أمثلة من أمثلة هذا التصادم ، ثم خلص الى هذه النتيجة ، واعتذر عنهم بقوله : (واذا تأملت كلامهم علمت انه لا مخالفة ولا منافاة ، إلا ان البعض فصل والبعض أجمل) [3] .

وعندي ان للعواطف القبلية دخل في هذا الاضطراب ، فمن النسّابين من تعصب لقبيلة ، فجعلها من الجمرات ، بسبب صلته بها ، ومنهم من تعصب لغيرها ، ومنهم من تعصب على هذه القبيلة أو تلك ، فأخرجها من الجمرات ، فمن هنا وقع هذا الارتباك عند العلماء حين سألوا نسابي القبائل ورواة الأخبار عن أيام

١ تاج العروس (١٠٧/٣) .
٢ الثعالبي ، ثمار (١٦٠) .
٣ تاج العروس (١٠٧/٣) .

الجاهلية ، وعن الألساب والقبائل ، وهي من أهم الامور حساسية عند العرب ، فظهرت العصبية في مؤلفات أهل النسب والاخبار حين شرعوا بالتدوين .

وعرفت القبائل القوية الكبيرة التي تفرعت منها جملة قبائل بـ (أم القبائل) . ومن هذه القبائل (بكر بن وائل) [١] . وسبب ذلك ان القبيلة القوية تكبر بسبب انضمام القبائل الصغيرة ، فاذا توسعت وتضخم عددها صار من الصعب عليها البقاء في منازلها ، فتضطر عندئذ على التوسع والانتشار في أرضين جديدة . وقد تغادر أحياء منها منازلها لتجد لها منزلاً طيباً جديداً ، فتبتعد بذلك عن القبيلة الكبيرة التي جمعت تلك الأحياء . فتكون بمثابة الأم للقبائل النازحة . تربطها بها رابطة ذكرى الأمومة ، التي تتحول الى نسب تحفظه ذاكرة حفاظ الأنساب .

وعرفت أربع قبائل بشدتها وبأسها ، فقيل لها : (رضفات العرب) . وهي : (شيبان وتغلب وبهراء وإياد) [٢] .

وقيل لـ (كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان) من قضاعة ، و (طيء ابن ادد) ، و (حنظلة بن مالك بن زيد مناة) من (تميم) ، و (عامر بن صعصعة بن معاوية) من (هوازن) ، (جماجم العرب) [٣] . وذكر ان (الجماجم) السادات والرؤساء ، وان القبائل المذكورة ، كانت من جماجم القبائل ، أي من رؤسائها ، وقد دعيت بـ (جماجم) ، لأنها بمنزلة جمجمة الرأس بالنسبة للإنسان [٤] . أي ان هذه القبائل من القبائل الرئيسة عند الجاهليين .

وبين القبائل ، قبائل دعاها (ابن حبيب) (أثافي العرب) . وهي (سليم) و (هوازن) من (قيس عيلان) ، و (غطفان) ، و (أعصر) و (محارب ابن خصفة) [٥] . و (الإثفية) العدد الكثير والجماعة من الناس [٦] . والظاهر انها إنما عرفت بذلك لكثرة عددها .

١ المعارف (ص ٩٦) ، (بكر بن وائل) .
٢ تاج العروس (٦/١١٩) ، (رضف) ، المحبر (٢٣٤) .
٣ المحبر (ص ٢٣٤) .
٤ تاج العروس (٨/٢٣٣) .
٥ المحبر (٢٣٤) .
٦ تاج العروس (٦/٣٧) (اثف) ، الثعالبي ، ثمار (١٦١) .

ومن مفاخر القبائل اعتزالها القبائل الاخرى وعدم مخالطتها قبيلة ثانية . وتفخر الاحياء بجردها ايضاً . فيقـــال (حي حريد منفرد) ، ومعناه معتزل من جماعة القبيلة لا يخالطهم في ارتحاله وحلوله لعزته ، لأنه لا ينزل في قوم من ضعف وذلة لما هو عليه من القوة والكثرة [1] .

وذكر أن القوم الذين يكون امرهم واحداً يعرفون بـ (الخليط) . وذلك انهم كانوا ينتجعون ايام الكلأ ، فتجتمع منهم قبائل شتى في مكان واحد ، فتقع بينهم ألفـــة ، ويكونون يداً واحدة . فاذا افترقوا ورجعوا الى اوطانهم ساءهم ذلك وريعوا [2] .

وهناك قبائل ضعيفة ، لم تتمكن ان تعيش لوحدها ، لذلك تحالفت مع غيرها من قبائل اقوى منها ، واندمجت بها . كما يندمج الاشخاص بالقبائل ، بالحلف أو بالجـــوار او بالموالاة . وعند انضمام الاحياء والعشائر والقبائل الضعيفة الى الاقوى منها ، بطريقة من الطرق ، يتم ذلك ، بطقوس دينية على نحو ما سأتحدث عنه في عقد الاحلاف . بسبب ان العقود في نظر العرب تستوجب البرّ بها والوفاء ، ولهذا تعقد في ظروف خاصة امام الكهنة وفي المعابد .

القاب بعض القبائل :

ولقد لقبت بعض القبائل بألقاب . فقد قيل : مازن غسان ارباب الملوك ، وحمير ارباب العرب ، وكندة كندة الملوك ، ومذحج الطعان ، وهمدان احلاس الخيل ، والأزد اسد البأس ، والذهلان : احدهما ذهل شيبان بن ثعلبة ويشكر ، والآخر ضبيعة وذهل بن ثعلبة ، واللهزمتان : احداهما عجل وتيم اللآت ، والأخرى قيس بن ثعلبة وعنزة ، وكلهم من بكر بن وائل ، الا عنزة بن ربيعة [3] .

١ وفي هذا المعنى قول جرير :
نبني على سنن العدو بيوتنا   لا نستجير ولا نحل حريدا
تاج العروس (٢/٣٣٣ وما بعدها) ، (حرد) .

٢ ديوان بشر بن أبي خازم (١٢٩) ، (تاج العروس (٥/١٣٢) ، (خلط) ، نهاية الأرب (٩/١٨) .

٣ العمدة (٢/١٩٤) .

وبعض هذه الالقاب ألقاب حسنة جميلة ، وبعضها ألقاب تشير الى قوة وبأس وشدة ، وبعض منها مقبول لا بأس به . وهي القاب كانت القبائل الملقبة بها تفاخر وتتباهى بها ، او تقبلها ولا ترى فيها أي بأس . وهي على العموم اما ان تكون قد نبعت من القبيلة ، كأن ينعت سيد قبيلة قبيلته بنعت ، فتتمسك به ، او ان ينعتها بذلك شاعر منها او شاعر من قبيلة اخرى ، فيذهب هذا النعت بين الناس ، ويصير سمة للقبيلة . غير ان في الألقاب بعض آخر يشير الى استصغار شأن القبيلة التي نعتت به ، مثل (القين) [1] و (الأجارب) [2] و (الأقارع) [3] ، و (قراد) [4] ، وما شاكل ذلك من ألقاب ، تحولت الى مسميات . اي تحول اللقب فصار اسم علم . وهي نعوت يظهر ان مصدرها شعر الهجاء والقبائل المعادية المتنابزة بالألقاب . وقد شاعت وثبتت لأنها أثرت في القبائل المهجوة وآلمتها ، فتمسك قائلوها بها ، وشاعت بين الناس حتى نسي سبب قولها ، وصارت اسم علم للقبيلة ، ولم ير من جاء بعد ذلك بأساً من الانتماء الى القبيلة المنبوزة به .

وقد رمت بعض القبائل قبيلة إياد بالفسو ، وعيّرتها به ، حتى اذا كان أحد رجالها بعكاظ ، ومعه بردا حبرة ، قام فقال : من يشتري مني عار الفسو بهذين البردين ؟ فقام عبد الله بن بيدرة احد (مَهْو) حيّ من عبد القيس ، فقال : هاتها ، واشهدوا اني اشتريتُ عار الفسو من إياد لعبد القيس بالبردين . فلما أتى رحله وسئل عن البردين ، قال : اشتريت لكم بهما عار الدهر ، فوثبت عبد القيس ، وقالت :

ان الفساة قبلنا إياد ونحن لا نفسو ولا نكاد

وتفرق الناس عن عكاظ بابتياع عبد القيس عار الفسو . ثم ان هذا العار زال عن اياد ولصق بعبد القيس ، فهجوا به كثيراً . وضرب المثل بـ (عبد الله بن بيدرة) ، فقيل : (شيخ مَهْو) ، ضرب به المثل في الخسران . وقيل : أخسر صفقة من شيخ مهو [5] .

١ تاج العروس (٣١٦/٩) ، (قان) .
٢ تاج العروس (١٨١/١) ، (جرب) .
٣ تاج العروس (٤٦٦/٥) ، (قرع) .
٤ تاج العروس (٤٦٥/٢) ، (فرد) .
٥ الثعالبي ، ثمار (١٠٦)

وبعض هذه النعوت قيل في الاسلام،من ذلك رمي (تميم) بالبخل واللؤم ، بسبب هجاء الطرماح لها وقوله فيها :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت سبل المكارم ضلت [1]

ونجد لجرير وللفرزدق وللأحابيش ولغيرهم ذماً في قبائل الشعراء المتهاجين.

ومن القبائل الملقبة : الأحابيش ، وقد تحدثت عنهم ، والمطيبون والأحلاف ، وهم من قريش ، وقد تحدثت عنهم ايضاً ، والأراقم ، وهم : جشم ، ومالك ، وعمرو بن ثعلبة ، ومعاوية ، والحارث ، بنو بكر بن حبيب بن غنم بن ثعلب ابن وائل [2] . وهم احياء من ثعلب ، جعلهم بعضهم ستة . هم : جشم ومالك وعمرو وثعلبة ومعاوية والحرث بنو بكر بن حبيب بن غنم بن ثعلب بن وائل . وقال بعض علماء اللغة ، الأراقم : بطون من بني تغلب يجمعهم هذا الاسم . قيل سمّوا بذلك لأن ناظراً نظر اليهم تحت الدثار وهم صغار ، فقال : كأن أعينهم اعين الأراقم ، فلج عليهم اللقب [3] .

وعرفت بعض القبائل بـ (البراجم) ، وهم خمسة بطون من بني حنظلة : قيس ، وغالب ، وعمرو ، وكُلفة ، والظليم ، وهو مرّة . قيل انهم انما سموا بذلك ، لأنهم تبرجموا على اخوتهم يربوع وربيعة ومالك ، وكلهم ابوهم حنظلة ابن مالك بن زيد مناة بن تميم بن مرة [4] . وذكر ايضاً انهم انما سموا البراجم ، وذلك لأن اباهم قبض اصابعه ، وقال كونوا كبراجم يدي هذه . اي لا تفرقوا ، وذلك اعز لكم . وقيل : لا ، وانما سموا بذلك ، لأنهم تحالفوا ان يكونوا كبراجم الأصابع في الاجتماع [5] .

وعرف (الثعلبات) بهذه التسمية ، لأنهم بطون ، اسم كل بطن منهم (ثعلبة) . وهم : ثعلبة بن سعد بن ضبّة ، وثعلبة بن سعد بن ذبيان ، وثعلبة بن عديّ

١ امالي المرتضى (٢٨٩/١) .
٢ العمدة (١٩٤/٢) .
٣ تاج العروس (٣١٧/٨) ، (رقم) .
٤ العمدة (١٩٥/٢) .
٥ تاج العروس (١٩٩/٨) ، (البرجمة) .

فزارة ، وأضاف اليهم قوم : ثعلبة بن يربوع [1] . ويقال لهم (الثعالب) ايضاً . وهم قبائل شتى ، فثعلبة في (بني اسد) ، وثعلبة في تميم ، وثعلبة في ربيعة ، وثعلبة في قيس . ومنها الثعلبتان من طيء . وهما ثعلبة بن جذعاء بن ذهل بن رومان بن جندب بن خارجة بن سعد بن قطرة من طيء . وثعلبة بن رومان بن جندب المذكور . وذكر ان الثعالب في طيء يقال لهم مصابيح الظلام ، كالربائع في تميم . [2]

وأما (الرباب) ، فهم ضبّة بن أد بن طابخة ، وتيم ، وعديّ ، وعوف ، وهوعكل ، وثور ، وكل هؤلاء بنو عبد مناة بن أد بن طابخة [3] . قيل انهم انما سمّوا بذلك لتفرقهم ، وقيل : سمو رباباً لترابهم ، اي تعاهدهم وتحالفهم على تميم . وقيل : سمّوا بذلك لأنهم أدخلوا أيديهم في رُبّ وتعاقدوا وتحالفوا عليه فصاروا يداً واحدة [4] .

واما (الأجارب) ، فهم : خمس بطون من (بني سعد) ، وهم : ربيعة ، ومالك ، والحارث ، وعبد العزى ، وبنو حمار [5] . وورد الأجارب حيّ من بني سعد بن بكر من قيس عيلان ، واذا قيل : الأجربان ، فهما : عبس وذبيان [6] .

و (الحرام) ، هم : بنو كعب بن سعد بن زيد مناة [7] . وذكر ان في العرب بطوناً ينسبون الى (آل حرام) . منهم بطن في تميم وبطن في جذام وبطن في بكر بن وائل . وهناك بطون اخرى عرفت بـ (حرام) [8] .

وأما (الضباب) ، فهم (بنو عمرو بن معاوية بن كلاب) ، قال بعض اهل الانساب انهم اربعة بطون من (بني كلاب) . وقال بعض آخر . انهم اكثر ، وأوصلوهم الى اربعة عشر بطناً [9] .

---

١ العمدة (١٩٥/٢) .
٢ تاج العروس (١٦٥/١) ، (ثعلب) .
٣ العمدة (١٩٥/٢) .
٤ تاج العروس (٢٦٤/١) ، (ربب) .
٥ العمدة (١٩٥/٢) .
٦ تاج العروس (١٨١/٢) ، (جرب) .
٧ العمدة (١٩٥/٢) .
٨ تاج العروس (٢٤٣/٨) ، (حرم) .
٩ العمدة (١٩٥/٢) ، تاج العروس (٣٤٥/١) ، (ضبب) .

واشتهرت بعض القبائل والعشائر والبيوت بنعوت لازمتها في الجاهلية وامتدت الى الاسلام ، فقد عرف بنو مخزوم وبنو جعفر بن كلاب بالتّيه والكبر ، حتى قيل : (اربعة لن يكونوا ومحال ان يكونوا : زبيديّ سخيّ ، ومخزوميّ متواضع ، وهاشميّ شحيح ، وقريشيّ يحب آل محمد) [1] .

واشتهرت (طيء) بالجود . لكون حاتم وأوس بن حارثة بن لأم منهم[2] . وعرفت (باهلة) باللؤم ، حتى ضرب بها المثل في اللؤم ، فقيل : لؤم باهلة[3] . واشتهر (بنو ثعل) بالرمي ، وذكروا بذلك في شعر لامرىء القيس[4] . واكتسبت (مدلج) شهرة واسعة في القيافة ، اذ اختصت بها من بين سائر العرب[5] . وبرز (بنو لهب) في العيافة . فهم أزجر العرب وأعينهم[6] . وعرفت (إياد) بخطبائها ، وملوك غسان بثريدهم ، الذي قيل له : (ثريدة غسان)[7] . وعرفت كندة بغلاء مهور بناتهم[8] ، وعرفت (خزاعة) بالجوع والأحاديث ، قيل لزهمان : ما تقول في خزاعة ؟ قال جوع وأحاديث[9] . اي فقر ودعاوى فارغة وأضغاث أحلام .

وعرفت بعض القبائل بـ (الضبيعات) . وهي (ضبيعة بن قيس بن ثعلبة) ، أشرفهن . و (ضبيعة أضجم بن ربيعة بن نزار) ، و (ضبيعة بن عجل بن لجيم)[10] . وذكر أيضاً أن في العرب قبائل تنسب الى (ضبيعة) : (ضبيعة ابن ربيعة بن نزار) ، وهو المعروف بـ (الأضجم) ، و (ضبيعة بن اسد ابن ربيعة) ، قال بعضهم انما ضبيعة أضجم ، و (ضبيعة بن قيس بن ثعلبة ابن عكابة بن صعب بن بكر بن وائل) ، وهو ابو رقاش أم مالك وزيد مناة ابني شيبان ، وهم رهط الأعشى : ميمون بن قيس . و (ضبيعة بن عجل بن

---

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (١١٧) .
٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (١١٧) .
٣ المصدر نفسه (١١٩) .
٤ كذلك (١٢٠) .
٥ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٢٠ وما بعدها) .
٦ المصدر نفسه (١٢١) .
٧ كذلك (١٢٢ وما بعدها) .
٨ كذلك (١٢٣) .
٩ البيان (١/٩) ، (لجنة) .
١٠ المحبر (٣٣٥) .

لجيم بن صعب بن بكر بن وائل ، رهط الوصاف . و (ضبيعة بن فريد) . بطن من الأوس من بني عوف بن عمرو ، وضبيعة بن الحارث العبسي [1] .

وذكر (ابن حبيب) اسماء قبائل عرفت بـ (الربائع) . هي في (تميم) . وهي : (ربيعة الجوع بن مالك بن زيد مناة بن تميم) ، و (ربيعة بن حنظلة ابن مالك بن زيد بن تميم) ، و (ربيعة بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم) ، كل واحد منهم عم صاحبه . و (ربيعة بن كعب بن سعد ابن زيد مناة) ، وهم (الحباق) [2] . وورد : في تميم ربيعتان : الكبرى وهي ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، وتدعى : ربيعة الجوع . والصغرى وهي : ربيعة بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة من تميم [3] .

اسماء اجداد القبائل :

ولكلّ قبيلة – كما ذكرت – جد تنتمي اليه وتفاخر وتباهي به . وقد يكون هذا الجـد جداً حقيقياً ، اي انساناً عاش ومات ، وساد القبيلة . وترك اثراً كبيراً في قبيلته ، حتى نسبت القبيلة اليه . وقد يكون الجد اسم حلف تكوّن ، وتألف من قبائل عديدة ، حتى عرفت به ، ودعيت بذلك الحلف ، وصار وكأنه اسم جد وانسان عاش . ومن هذا القبيل اسم (تنوخ) على حد زعم أهـل الاخبار ، فقد رووا ان تنوخ قبائل عديدة ، اجتمعت وتحالفت ، وأقامت في مواضعها [4] .

وقد يكون اسم موضع ، اقامت قبيلة به ، فنسبت اليـه . كما يذكر اهل الاخبار من اسم (غسان) . وقد يكون اسم إلّه عبد ، فنسب عباده اليه مثل (بنو سعد العشيرة) ، و (تالب ريام) جد قبيلة (همدان) ، وقد يكون اسم حيوان أو نبات أو ما شابه ذلك ، مما يدخل في دراسة أصول الأسمـاء

---

١ تاج العروس (٤٢٧/٥) ، (ضبع) .
٢ المحبر (٢٣٥) .
٣ تاج العروس (٣٤٢/٥) ، (ربع) .
٤ تاج العروس (٢٥٤/٢) ، (تنخ) .

ومصادرها واشتقاقها ، وهو شيء مألوف نراه عند غير العرب ايضاً ، فليس العرب بدعاً وحدهم في هذه الأمور .

وما يذكره ويرويه اهل الاخبار عن ازمنة اجداد القبائل ، فيه اغلاط وأوهام. فقد يرفعون زمان رجل فيبعدونه كثيراً عن الإسلام ، بينما هو من الرجال الذين عاشوا قبيل الإسلام . وقد يجعلون الرجل من الجاهلية القريبة من الإسلام ، بينما يجب وضعه قبل الإسلام بقرون . ثم هناك أخطاء فاضحة في سرد سلاسل النسب ، وفي اسماء الاشخاص ، ولا سيما في الانساب القديمة ، بحيث يصعب على الباحث الأخذ بها والتأكد منها . اما بالنسبة الى الأنساب القريبة من الإسلام ، فان وضعها يختلف عن وضع الأنساب المذكورة ، اذ يغلب عليها طابع الصحة والضبط .

وقد ذهب المستشرق (بلاشير) الى ان طريقة النسابين بالنسبة الى الارهاط ، هي طريقة ايجابية مقبولة ، ولكنها لا تستند الى اسس صحيحة بالنسبة للقبائل والاحلاف . بسبب ان تحالف القبائل وتكتلها ، راجع الى عوامل المصلحة الخاصة والمنافع السياسية ، وهي تتغير دوماً بتغير المصالح ، تتولد تبعاً لذلك احلاف لم تكن موجودة وتموت احلاف قديمة . وتظهر قبائل كبيرة وتموت غيرها . ولهذا التغير فعل قوي في تكوين الانساب وفي نشوئها اذ تتبدل وتتغير الانساب تبعاً لذلك التغير ، ومن ثم فلا يمكن الاعتماد على الانساب الكبرى ، التي دونها علماء النسب وجمعوها في مجموعات ، وشجروها حفدة وآباء وأجداداً [١] .

والمصالح السياسية للقبائل لا تقيم وزناً للأخوة وللنسب . فاذا اختلفت المصلحة ، فلا تجد القبائل عندئذ اي غضاضة في الانفصال عن قبيلة مؤاخية لها لتتحالف مع قبيلة غريبة عنها في النسب ، ومحاربة اختها التي انفصمت عنها . فعبس مثلاً تحالفت مع (بني عامر) في حرب البسوس على (ذبيان) ، وهي اختها ، وتحالفت ذبيان مع (تميم) على (عبس) ، مع ما بين (تميم) و (عبس) و (ذبيان) من عداء قديم . وقد وقعت ايام بين (تغلب) و (بكر) مع

---

١ بلاشير ، تأريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) تعريب الدكتور ابراهيم كيلاني (ص ٢٥ وما بعدها) .

صلة الرحم والقرابة القوية التي ربطت بين القبيلتين الاختين [1] . وقع كل ذلك وحدث بسبب تغير المصالح التي كانت تربط فيما بين هذه القبائل .

ارض القبيلة :

ولكل قبيلة ارض تعيش عليها وتنزل بها وتعتبرها ملكاً لها ، تنتشر بها بطونها وعشائرها ، ولا تسمح لغريب النزول بها والمرور بها الا بموافقتها وبرضاها . وقد اختص كل بطن منها بناحيته فانفرد بها واعتبرها ارضاً خاصة به .

وتكون الارض التي تحل القبيلة بها (منزلاً) لها ، و (منازل) لأبنائها الذين ينزلون بها . يضربون بها خيامهم . فتكون الارض مضارب لها . تستوطنها وتقيم بها وتصير وطناً لها ، اي دار اقامة ، ما دامت تقيم بها . وموضع بيوتها . لذلك يعبر عن الارض التي تقيم بها القبيلة بـ (بيوت القبيلة) و بـ (بيوت العشيرة) ، لأنها مضرب البيوت .

وتمتد ارض القبيلة الى المواضع التي تصل بيوتها اليها . فما يقع الى الداخل فهو من موطن القبيلة ، وما وقع خارج حدود نفوذ القبيلة خرج عن مواطنها . وتعين الحدود بالظواهر الطبيعية البارزة ، مثل تلال أو أودية أو رمال أو ما شاكل ذلك . ونظراً الى عدم تثبيت القبائل لحدودها على الارض برسم معالم بارزة لها ، صارت الحدود سبباً من اسباب النزاع المستمر والقتال الدائم بين القبائل .

وتكون مواضع الماء في ارض القبيلة قبلة ابنائها ، يستقون منها ما يحتاجون اليه من (اكسير الحياة) . وتكون هذه المواضع آباراً او عيون ماء او حسياً وما شاكل ذلك . وتتفق القبيلة فيما بينها على حقوق السقي . ويؤدي الاخلال بحقوق السقي الى وقوع نزاع ، قد يؤدي الى قتال ، ولا سيما في ايام القيظ وانحباس المطر ، حيث تشتد الحاجة الى الماء ، ويصير افتقاده سبباً لهلاك الانفس والمال . والقاعدة ان ماء القبيلة مشاع في القبيلة . اما المياه المحمية : المياه التي تحمى للسادة والرؤساء ، والمياه الخاصة ، كالآبار التي يحفرها اصحابها ، فتكون خاصة بهم . لا يجوز الاستقاء منها الا باذن .

١ بلاشير (٢٥) .

ولكل قبيلة حق حماية ارضها . شأنها في ذلك شأن الدول . واذا اراد غريب اجتياز ارضها فلا بد من ان يكون في حماية انسان منها . واذا كان المجتاز جماعة ، كأن يكون قافلة او قبيلة او حيّاً يريد التنقل الى ارض اخرى ، ولا بد له من المرور بأرض هـــذه القبيلة للوصول الى هدفه ، فعليه اخذ اذن من القبيلة يخوله جواز المرور بها ، والا تعرض للمنع والقتال . لذا كان لا بد للتجار من ترضية سادات القبائل للسماح لهم بالمرور ، بدفـــع حق المرور ، وهي اتاوات تعارفت القبائل آنذاك على اخذها من المارة .

سادات القبائل :

وسيد القبيلة بالنسبة للقبيلة ، مثـــل ملك مملكة بالنسبة لمملكته . فهو الرئيس والمرجع والمسؤول عن أتباعه في السلم والحرب . يقصده ذوو الحاجات من ابناء القبيلة ان احتاجوا الى حاجة . وقد يجمع هذا الرئيس شمل جملة قبائل ، ويترأسها ، وقد ينصب نفسه ملكاً عليها ، كالذي فعله ملوك كندة من بني (آل اكل المرّار) وغيرهم من الملوك . وقد لا نخطىء اذا ما قلنا ان اكثر مؤسسي الأسر المالكة في بلاد العرب ، كانوا سادات قبائل في الأصل ، استغلوا مواهبهم وقابلياتهم ، وامكانية قبيلتهم ، وسخروها في سبيل الحصول على الملك ، وعلى التلقب بلقب (ملك) ، فنالوه .

ويقال للسيد : المسوّد . ويذكر علماء اللغة ان السيد يطلق على الربّ والمالك والشريف والفاضل والكريم والحليم ومحتمل أذى قومه والزوج والمقدم والرئيس . وسيد القبيلة هو رئيسها . تقول العرب : (فلان سيدنا) اي رئيسنا والذي نعظمه ، وتقول (ساد قومه) [1] . وهي من الألفاظ المستعملة عند عرب الحجاز ونجد والعراق وبلاد الشام ، اما العربية الجنوبية ، فقد استخدمت ألفاظاً اخرى بدلاً عنها .

ويقال لسيد القبيلة (رئيس القبيلة) . والرئيس ، سيد القوم . والرياسة : السيادة . ويقال فلان رأس ورئيس القوم [2] . ورؤساء القبائل هم سادات القبائل

---

١ اللسان (٣/٢٢٨ وما بعدها) ، (سود) .
٢ اللسان (٦/٩٢) ، (راس) .

والمتولون لامورها . كما يقال فلان : ساد قومه ، وهو سيد القوم وسيدهم . فاللفظتان مترادفتان وفي معنى واحد . ووردت لفظة (زعيم) بمعنى سيّد القوم ورئيسهم والمتكلم عنهم . والجمع زعماء . كما وردت الزعامة ، الشرف والرياسة على القوم وحظ السيد من المغنم [1] . غير ان استعمال (زعيم القبيلة) ، أقل في الكلام من استعمال (سيد) و (رئيس) .

وأنا حين استعمل (سيد قبيلة) ، اقصد بها الرئيس الفعلي لقبيلة ، المسؤول عنها ، والمدبر لامورها والمرجع الاخير لها ، والذي يكون كالملك او الحاكم بالنسبة لقبيلته لأن هناك سادات آخرين سادوا في القبيلة وقد عرف خبرهم في كل مكان ، وربما اشتهر ذكرهم اكثر من اشتهار اسم سيد قبيلتهم ، ومع ذلك فانهم لا يُعدون رأس تلك القبيلة . لأن الرأس المسؤول عن القبيلة رأس واحد ، الا ان العرف ان يسود الرؤساء في القبائل ، هو كما يترأس الاشراف امر مدينة ، بان يترأسوا عمائر القبيلة ثم فروعها الدنيا التي تلي العمائر ، فهم رؤساء في قبيلة بالمعنى المجازي ، الذي جوز اطلاق لفظة (القبيلة) حتى على الأفخاذ والبطون ، بل والبيوت . بأن يزوا الرئيس بالخصال الحميـــدة ، التي تجلب لهم الشهرة والسيادة ، وتجعل اسمهم يعلو اسم رئيس القبيلة في كثير من الاحايين .

صفات الرئيس :

وعلى من يسود في قومه ان يتحلى بخلال حميدة وسجايا طيبة ، تجعل الناس يعترفون بسيادته عليهم ، كأن يتحمل أذى قومه ، ولذلك قيل للسيد (محتمل أذى قومه) ، وأن يكون شريفاً في افعاله حليماً كريماً ، يغض نظره عن اعمال الحمقى والجهلة ، وأن يتجاهل السفلة والسفهاء الجاهلين . فلا يغضب ولا يثور ، وأن يكظم غيظه . جاء في المثل : (احلم تسد) [2] . وان يحترم الناس مهما كانت منازلهم ، وأن يؤلف بينهم ويكتسب محبتهم ، وأن يكون ملاذهم ، وأن يجعل

١ تاج العروس (٣٢٤/٨ وما بعدها) ، (زعم) ،
Goldziher, Muh. Stud., II, S., 52.

٢ بلوغ الأرب (٩٩/١ وما بعدها) .

بيته بيتاً للجميع ومضيفاً لكل من يفد اليه من كبير أو حقير أو صغير ، وأن يفتح قلبه للجميع [1] .

وعلى الرئيس ان يكون في مقدمة القوم في الحروب والغزو ، وأن يكون شجاعاً لا يهاب الموت ، حتى يكسب النصر لنفسه ولقومه ، وعليه ان يكون قائد قبيلته وواضع خطط الحرب . لأنه رمز القبيلة ورمز النصر وباعث الهمم في نفوس ابنائه ، وهو أب القبيلة . واذا لا يكون قدوة لأبنائه في ساعات الشدة والخطر ، فترت همم ابناء القبيلة . ولا يثير القبائل الا الشعارات والنخوة وإلهاب المشاعر ، حتى تندفع اندفاعاً في القتال . والرئيس هو روح القبيلة وشعارها ، فاذا اصيب بمكروه أو جبن في القتال ، واذا خرّ صريعاً في المعركة ، هربت قبيلته في الغالب ، وتراجعت القهقرى ، الا اذا وجد في القبيلة من يؤجج فيها نار الحماسة ويبث فيها العزيمة للوقوف والصمود . ويكون مثل هذا الرجل من الشجعان الأقوياء اصحاب الارادة القوية الذين يعرفون نفسية قبيلتهم ، والا فليس من السهل على رجل التأثير على قبيلة وهي في مثل هذا الوضع .

ولأثر الرئيس في مصير الحرب ، كان الفرسان يوجهون كل قوتهم نحو الرؤساء ، لأنهم على علم بأنهم ان تمكنوا من الرئيس فقتلوه ، غلبوا عدوّهم في الغالب وقضوا عليه . فهو الروح المعنوية عند الاعراب . يليه حامل اللواء فاذا سقط حامل اللواء قتيلاً أسرع من عُين ليكون خليفته في التقاط الراية وحملها ، واذا سقط هذا ايضاً اسرع من يأتي بعده ، وهكذا . فان سقوط الراية معناه هزيمة منكرة ستحيق بمن سقطت رايته ، ولهذا كانوا يختارون رجالاً شجعاناً يولونهم أمر اللواء ، بحيث اذا سقط احدهم اخذ من يليه مكانه ، وهكذا حتى النصر .

صعوبة انقياد القبائل :

وليست قيادة القبيلة بأمر سهل يسير ، لا سيما اذا كانت القبيلة قبيلة كبيرة ذات عشائر وأرهاط منتشرة في مواضع متباعدة . فان رؤساء العشائر يستغلون فرصة ابتعادهم عن ارض الأم ، ويعلنون انفصالهم عنها ، وتوليهم امرهم بأنفسهم .

---

[1] لامانس ، مجلة المشرق ، ١٩٣٢م عدد ٢ (١١٠) .

فيحدث الانفصام والانقسام ، وقد يعلن الرئيس حرباً على العشيرة العاقة المنشقة ، ولهذا يعد سيّد القبيلة الذي تجتمع له رئاسة قبيلة كبيرة من السادات المحظوظين . وحظه هو ثمرة ذكائه ومواهبه وقابلياته ولا شك . ومن هؤلاء المحظوظين الذين دوّن اهل الاخبار اسماءهم : (جَحْدَر بن ثعلبة اليشكري) ، سيد (بكر بن وائل) ، فقد اجتمعت (بكر) حوله ، و (عمرو بن شيبان بن ذهل) ، و (عمرو بن قيس الأصم) و (الكلح) و (بشر بن عمرو بن مسعود) ، و (همام بن مرة) و (الحارث بن عباد) [1] ، وقد اجتمعت حولهم (بكر ابن وائل) ، وانضوت تحت لوائهم ، وذلك في مناسبات أشار اليها اهل الأخبار ، مثل وقوع بعض الايام . ولولا هذه الايام ، وتلك المناسبات التي اضطرت القبيلة على التكتل والتجمع فيها حول زعيم واحد ، ليخلّصها من المخاطر ، لما تجمعت حوله ، لأن التجمع لا يلتئم مع طبع أهل البادية ، الذين جبلتهم الطبيعة على التشتت والتفرق .

وذكر اهل الأخبار ان (خالد بن جعفر بن كلاب) ، و (عروة الرحال ابن عتبة بن جعفر) ، و (الأحوص بن جعفر) ، و (عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب) ، هم اربعة اجتمعت عليهم (هوازن) ، ولم تجتمع (هوازن) كلها في الجاهلية الا على هؤلاء الاربعة . وهم كلهم من (بني جعفر بن كلاب) [2] . مما يدل على صعوبة انقياد عشائر (هوازن) لزعامة رجل واحد . وهذا مثل واحد من أمثلة صعوبة انقياد القبائل لرئاسة رئيس ، لأن الانقياد لرئيس واحد ، معناه في نظر رؤساء العشائر ، خضوعهم لغيرهم واستذلالهم له وتنازلهم عن حريتهم وعن استقلالهم في ادارة شؤون عشائرهم لغيرهم ولو كان هذا الرئيس منهم ، أضف الى ذلك الخسائر المادية التي قد يصابون بها من هذا الانقياد .

وقد عرفت قبائل (ربيعة) خاصة بتخاصمها وبتباغضها وبتحاسد رؤسائها ، لذلك لم تقبل في الغالب بتملك رئيس منها عليها . بل كان سادتها يراجعون التبابعة على ما يقوله اهل الاخبار لتمليك سيد منهم عليهم . كانوا يراجعون اليمن كلما اختلفوا فيما بينهم على تمليك ملك عليهم . وقد ذكر اهل الاخبار ان من جملة

١ المحبر (ص ٢٥٤) .
٢ المحبر (٢٥٣ وما بعدها) .

اسباب تعيين والد الشاعر (امرىء القيس) الكندي ملكاً على بني اسد وتعيين أعمامه ملوكاً على القبائل الاخرى ، هو تناحر سادات ربيعة فيما بينهم ، وتباغضهم وتفرق كلمتهم ، حتى كان كل واحد منهم يرى انه أولى من غيره بالملك ، فدبّ الخلافُ بين القبائل ، وتطاول السفهاء على الاشراف وأهل البيوتات ، وعندئذ وجد سادات القبائل ان الأمن لا يرجع اليهم الا بذهابهم الى كندة لتنصيب ملوك منها عليهم . فكان ما كان من تنصيب والد الشاعر على (بني اسد) وتنصيب أعمامه على القبائل الاخرى . الا ان الأمن لم يستتب ولم يستقرّ طويلاً بين هذه القبائل المتنازعة ، اذ قرر الرحيل عنها ، وعاد الخصام داء (ربيعة) الى وطنه . وعادت حليمة الى عادتها القديمة على ما يقوله اهل الامثال .

وقد أشار اهل الاخبار الى رجال ذكروا انهم تمكنوا من حكم معدّ وربيعة . ومعنى ذلك انهم كانوا من ذوي الشخصيات القوية . وبذلك تمكنوا من فرض انفسهم على هذه القبائل المتباغضة . من هؤلاء : حذيفة بن بدر . وهو من سادات غطفان وبيتهم . وهو والد (حصن) ابو عيينة . وقد ادرك (عيينة) النبيّ ، فأسلم ثم ارتد وأسلم بعد ذلك على يد ابي بكر [1] . وقد قاد (حذيفة) (بني فزارة) و (مرّة) يوم النّسار ، ويوم الجفار ، وفي حرب داحس حتى قتل فيها يوم الهباءة . وقد عرف بـ (ربّ معدّ) [2] . وما كان ليعرف بذلك لو لم يكن من اصحاب القوة والمكانة حتى ساد قبائل معدّ .

ومن سادات (ربيعة) (الأفكل) ، و (عمرو بن جعيد) من (بني الديل) . وكان ذا بغي ، فسارت اليه (بنو عَصَر) فقتلوه [3] . و (الحارث الأضجم بن عبد الله بن ربيعة بن دوفن) ، من (بني دوفن) . قديم السؤدد فيهم كانت تجبى اليه اتاوتهم [4] . و (عامر الضحيان بن سعد بن الخزرج بن تيم بن النمر بن قاسط) ، وكان سيد (النمر بن قاسط) في الجاهلية وصاحب مرباعهم [5] .

١ ابن دريد ، الاشتقاق (١٧٣) .
٢ المحبر (٢٤٩) ، (٤٦١) ، جمهرة (٢٤٣) .
٣ الاشتقاق (١٩٧) .
٤ الاشتقاق (١٩٣) ، جمهرة (٢٧٥) .
٥ الاشتقاق (٢٠٢) ، جمهرة (٢٨٣) .

وكان (القُدار بن الحارث) رئيس ربيعة في أول الإسلام [1] . وورد ان (القدار بن عمرو بن ضبيعة) ، كان رئيس ربيعة ، يلي العزّ والشرف فيهم [2] .

ويمتاز سيد القبيلة عن سائر رجال قبيلته ببيته الكبير ، المكوّن من خيمة ضخمة ، والّتي قد تتكون من جملة قطع من النسيج خيطت بعضها الى بعض لتتكون منها خيمة كبيرة . تكون مضيفاً للرئيس ومجلساً للقوم ، يؤمه سادات القبيلة وأشراف الأحياء . وموئلاً لذوي الحاجات من الناس . وله خيام أخرى ، أعدت لحريمه ولأهله . فهي منازل رئيس القبيلة الخاصة به وبأفراد أسرته .

وامتاز الرئيس عن أفراد قبيلته بكثرة عدد نسائه . فسيد القبيلة مزواج في الغالب ، عنده المال ، وعنده الجاه والرئاسة ، فلا يجد صعوبة في الحصول على زوجات صغيرات السن لينجبن له أولاداً ، يكونون له حصناً حصيناً وأمناً له على ماله ، وعوناً له على القبيلة . فيحمي بهم نفسه ممن قد يطمع في الرئاسة وفي انتزاع السيادة منه بالقوة .

ومن واجب الرئيس الاشراف على تقسيم الغنائم ، ومن حقه المرباع إن كان من ذوي المرباع ، وله ان ينفق من جيبه على الضيوف ، وان يفتح بيته للقادمين اليه من مختلف الناس ، وان يستقبل ضيوف القبيلة بوجه فرح بشوش . وان يرعى شؤون قبيلته ، ويسأل عن أبنائها ، وعليه ان يسعى لفك من يقع من أبناء عشيرته أسيراً في أيدي قبيلة أخرى ، وان يشارك قومه في تحمل الديات ، حين يعجز رجال القبيلة عن حملها ، وعليه ان يعين أتباعه في كل جناية يجنونها ، فهي وان صدرت من غيره لكنها تقع في النهاية على رأس سيد القبيلة . فعليه وحده ايجاد حل لها ومخرج . ومن هنا كَنَّت العربُ عن سيد القبيلة بقولها (سيد معمم) ، يريدون ان كل جناية يجنيها أحد من عشيرته معصوبة برأسه [3] .

رئاسة القبائل :

لا نملك نصاً جاهلياً فيه شيء عن الشروط الّتي يجب ان تتوفر في الرجل كي

١ الاشتقاق (١٩٥) .
٢ تاج العروس (٤٨٣/٣) ، (قدر) .
٣ عيون الأخبار (٢٢٦/١) .

يكون رئيساً على قبيلة . ولا نجد في روايات أهل الأخبار أخباراً واضحة صريحة عن طريقة تولي الرئاسة عند الجاهليين . لذا لا نستطيع البت في موضوع شروط انتقال الرئاسة من رئيس قبيلة متوفى أو مخلوع الى رئيس جديد . وهل كانت الرئاسة وراثية على طريقة انتقال العروش في النظام الملكي ، أم كانت اختياراً وانتخاباً وشورى ، بمعنى ان اختيار الرئيس يكون برأي من رؤساء القبيلة ، وليس بسنة الارث . والذي ظهر لنا من دراسة أخبار أهل الأخبار في هذا الموضوع ان الجاهليين كانوا قد ساروا على سنة الارث في تولي الرئاسة كما ساروا على طريقة الاختيار .

أما انها كانت رئاسة وراثية ، فلأنها رئاسة مثل سائر الرئاسات عند العرب ، كرئاسة المكربين والملوك والأقيال والأذواء والأقيان وكل الرئاسات الجاهلية الأخرى . وقد كانت هذه الرئاسات رئاسات وراثية في الأغلب ، لذا كانت رئاسة القبيلة بالوراثة أيضاً . تنتقل الرئاسة من الأب الى الابن الأكبر . ويؤيد هذا الاستنتاج ما نجده في أكثر روايات القبائل ، وتولي الأبناء رئاستها بعد الآباء .

وأما انها بالنص والتعيين ، فكالذي ذكروه من أمر اختيار (حصن بن حذيفة ابن بدر) ابنه (عيينة) لرئاسة قومه من بعده . ولم يكن عيينة أليق من غيره بأن يكون سيد قومه ، فاستدعى أولاده وقال لعيينة : أنتَ خليفتي ورئيس قومك من بعدي . ثم قال لقومه (بني بدر) : لوائي ورياستي لعيينة ، ثم أوصاهم بما يجب ان يفعلوه على عادة السادات عند اشتداد المرض بهم وشعورهم بدنوّ أجلهم . من وجوب التكتل والتهيؤ للقتال وعدم التجرؤ على الملوك ، فان أيديهم أطول من أيدي الرعية . فسمعوا له وأطاعوا ، واختاروه رئيساً عليهم [1] .

وأما انها شورى ورأي ، فعند عدم وجود عقب للرئيس المتوفى ، أو عند وجود تنافس وتباغض بين أبناء الرئيس المتوفى بسبب كونهم من زوجات مختلفات فيما بينهن ، فيخشى عندئذ من انقسام القبيلة على نفسها ، ويحسم الخلاف باختيار أحزم الأبناء أو تنصيب رجل قريب أو بعيد عن الرئيس ، يجدونه أهلاً وكفؤاً لتولي الرئاسة فيولونها إياه . وقد يلجأون الى الرأي في حالة تشتت شمل القبيلة ، بظهور رجال أشراف فيها ، لهم كفاءات وقابليات وشهرة تفوق شهرة أسرة

---

١ أمالي المرتضى (١/٥٣١) .

الرئيس المتوفى ، يطمعون في الرئاسة ، فينتخبون اكفأهم وأقواهم ليكون الرئيس الجديد .

وقد لا تجتمع كلمة المتنافسين على الرئاسة ، ولا تتفق على اختيار رئيس ، فلا يكون أمام القبيلة في مثل هذه الحالة سوى اللجوء الى الملوك في الغالب لتعيين رئيس عليهم يختارونه من جماعتهم وينصبونه سيداً عليهم . وقد كان هذا شأن قبائل (معدّ) في الغالب ، إذْ كانت قبائلها متبدية متنافرة ، ذات رؤساء متحاسدين ، لا يقرون برئاسة واحد منهم ، لذلك كانوا يلجأون الى ملوك اليمن لتعيين رئيس من غيرهم عليهم ، وبذلك يحل الخلاف .

ونجد في شعر (عامر بن الطفيل) ، وهو أحد مشاهير فرسان العرب . تغنّياً بفعاله وبشجاعته وبدفاعه عن قومه ، وتبجحاً بسيادته على قومه : واعتزازاً بأن سيادته هذه لم تأت اليه عن وراثة ، وانما جاءته بفعاله وبدفاعه عن قومه وذبّه عن حماهم ، فسوّدوه لهذه الخلال عليهم ، ولم يسوّدوه لانه (ابن سيد عامر) ، وفي هذا الشعر دلالة على ان الرئاسة كانت بالوراثة ، وان والد (عامر) كان سيّداً ، فأراد (عامر) ان يتبجح بنفسه على غيره ، بأنه ليس من أولئك الرؤساء الذين يرثوا السيادة إرثاً ، فلا دخل لهم بمجيئها اليهم ، وانما أخذها عن جدارة واستحقاق ، ولو لم يكن أبوه سيّداً ، لجاءته السيادة تركض اليه ، لما فيه من محامد ومكارم . فسيادته سيادة وراثة لانه ورثها عن أبيه ، وسيادة جدارة جاءته لما فيه من خصال السادة الأشراف [1] .

خصال السادة :

يذكر أهل الأخبار ان أهل الجاهلية كانوا لا يسوّدون إلا من تكاملت فيه ست خصال : السخاء والنجدة والصبر والحلم والتواضع والبيان وقالوا : قيل :

١ انى وان كنت ابن سيد عامر وفارسها المشهور في كل موكب
فما سودتني عامر عن وراثة أبي الله ان اسمو بأم ولا أب
ولكنني أحمي حماها وأتقي أذاها وأرمي من رماها بمنكب
الشعر والشعراء (١٩٢) ، البلاذري ، أنساب (١٧٩/٢) ، ابن قتيبة ، عيون الأخبار (٢٢٧/١) .

لقيس بن عاصم بم سدت قومك؟ قال ببذل الندى وكفّ الأذى ونصرة المولى ، وتعجيل القِرى . وقد يسود الرجل بالعقل والعفة والأدب والعلم . ووصف بعضهم السؤدد : بأنه اصطناع العشيرة واحتمال الجريرة . وقد سئل أحد السادات بأي شيء سدت قومك ؟ فقال : (إني — والله — لأعفو عن سفيههم ، وأحلم عن جاهلهم ، وأسعى في حوائجهم وأعطي سائلهم ، فن فعل فعلي فهو مثلي ، ومن فعل احسن من فعلي فهو أفضل مني ، ومن قصر عن فعلي فأنا خير منه)[1] .

وذكر أهل الأخبار أيضاً ، ان العرب كانت تسوّد على أشياء . فكانت مضر تسود ذا رأيها . وأما ربيعة فن أطعم الطعام ، وأما اليمن فعلى النسب[2] .

والرئيس الناجح ، هو الرئيس الذكي الفطن الذي تكون له قدرة وقابلية على التصرف بذكاء وبحذر وفقاً لعقلية القبائل . فيعرف كيف يعامل كل شخص يأتي اليه المعاملة التي تلائمه وتليق به ، بحلم وصبر وأناة . وبقساوة وغلظة أحياناً من أجل اخافة أتباعه ، لخوف القبائل من البطاش الظالم . على ألا يسرف في ظلمه ويمعن في غيّه ، فيقع له ما وقع لكليب وائل ولأمثاله من الذين أسرفوا في الاعتماد على أنفسهم وعلى قابلياتهم ، فأهلكوا أنفسهم . ولهذا كان من شأن عقلاء سادات القبائل عرض المنازعات والخصومات القبلية للحكم فيها . وبذلك يخلصون أنفسهم من مشكلات صعبة كانت ستقع تبعتها على أكتافهم فيما اذا انفردوا بالنظر بها دون سائر الرؤساء .

ومن أعراف الحكم عند القبائل ، ان سيد القبيلة يستمد رأيه من رأي أشراف قبيلته ووجوهها في الامور الهامة التي تخص حياة القبيلة . ليستنير برأيهم ، وليعرف رأي أتباعه في معالجتها . وتساعد هذه المشورة سادات القبائل مساعدة كبيرة في التمكن من ادارة القبيلة ادارة حسنة ترضي الغالبية . وقد توصل الرئيس الى النجاح والنصر في الغزو . فيرتفع اسمه ويعلو نجمه . ولا زال سادات القبائل يستمعون الى مشورة رؤساء القبيلة ، ويقيمون لرأيهم وزناً الى يومنا هذا . ورأيهم هذا هو مجرد مشورة ونصح . بمعنى انه لا يلزم سيد القبيلة بوجوب العمل بموجبه . فقد ينبذه ويعمل برأيه وبقراره ، لا سيما اذا كان قوي الشخصية متجبراً عنيداً .

---

١ بلوغ الأرب ٢/١٨٧ وما بعدها) .
٢ بلوغ الأرب (٢/١٨٧) .

وقد يكون النجاح حليفه ، فتزداد بذلك هيبته على أتباعه ، وقد يمنى بخسارة فادحة ، فتقضي عليه وعلى رئاسته وربما تقضي على حياته أيضاً . والنظام القبلي بعد ، هو نظام استشاري ، الرأي فيه لأصحاب الرأي فقط ، أما الأفراد أي أبناء القبيلة وسوادها ، فلا رأي لهم في تسيير الأمور ، إلا اذا برز أحدهم وظهر في قبيلته بمواهب يعترف بها ، كالحكمة أو الشرف ، فقد يدخل في عداد أولي الرأي ، ويكون له عندئذ عندهم رأي مسموع .

وعلى الرغم من استبداد بعض السادة برأيهم ، وحكمهم بما يوحي اليه به حسهم وشعورهم ، وتصرفهم في الأمور تصرفاً كيفياً ، فانهم كانوا يقيمون مع كل ذلك وزناً للرأي ، وقد يكون هذا الرأي رأي رجل مغمور من عامة أبناء القبيلة ، أو رأي شاعر أو خطيب أو أي شخص آخر من أبناء القبيلة . فالحكم عند القبائل بهذا ، حكم فردي استشاري يتوقف الرأي فيه على شخصية وكفاءة رئيس القبيلة ، وعلى شخصية وكفاءة رؤساء البطون والأحياء .

وقد أدت غطرسة وعنجهية بعض سادات القبائل بهم الى الموت فقد لجأوا الى القسوة والقهر في الحكم واستبدوا برأيهم استبداداً فرّق بينهم وبين رؤساء قبيلتهم ، مما دفع بعض فرسان القبيلة وشجعانها على قتلهم للتخلص منهم ، كالذي كان من أمر (كليب وائل) ، الذي تعسف في حكمه وتجبر فاختار خيرة الأرضين الخصبة ، فجعلها حمى له ، لا يحق لأحد الرعي بها ، إلا باذن منه . فأزعج عمله هذا من خضع لحكمه ، فكانت عاقبته القتل .

والحلم عند العرب من أهم الصفات التي تؤهل الإنسان لحكم الناس . وهو عندهم الأناة والعقل ، وقيل ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب[1] . ومعالجة الأمور بهدوء وضبط أعصاب . وهو أحزم سياسة تلائم طبع الحكم . وقد عدّوه من خلال الحكماء .

وممن عرف واشتهر أكثر من غيره بالحلم : (الأحنف بن قيس) . حتى ضربت العرب به المثل . فقالت : هو أحلم من الأحنف . وقد نسب أهل الأخبار

---

١ تاج العروس (٨/٢٥٦) ، (حلم) .

له حكماً كثيرة وأمثالاً ، هي من الأمثال التي ينسبونها في العادة الى الحكماء[1] . وذكروا من أمثلة حلمه انه كان قاعداً يوماً بفناء داره محتبيا بحمائل سيفه يحدث قومه ، حتى أتي بمكتوف ورجل مقتول ، فقيل له : هذا ابن أخيك قتل ابنك ، فما قطع كلامه حتى انتهى ، ثم كلم ابن أخيه وأنبه وعفى عنه ، ثم قال لابن آخر له : وار أخاك وحلّ كتاف ابن عمك وسق الى أمك مائة ناقة دية ابنها فإنها غريبة . الى قصص آخر من هذا القبيل[2] .

النسب :

النسب هو جرثومة العصبية وأساسها ولهذا حرص العربي على حفظ نسبه ، ولا يزال يحرص عليه ، فيروي لك شجرة نسبه حفظاً ويرفعها الى جملة أجداد .

وقد وجد السياح أعراباً سردوا لهم نسبهم سرداً من غير كتاب مكتوب الى عشرات من الأجداد ، وقد تأكدوا بعد فحوص واختبارات ان ما قيل لهم وسرد عليهم كان صحيحاً في الغالب .

واما أهل المدر ، فإن حرصهم على حفظ نسبهم ، وإنْ لم يكن حرص أهل الوبر ، غير ان فيهم من يحفظ شجرة نسبه ، وفيهم من يحتفظ بها مكتوبة ، وقد شهد على صحتها جماعة من النسّابين . وفي جملة من يعتني بنسبه اعتناءً كبيراً ، ويأبى الزواج من غير الأسر الكفوءة له ، السادة المنتمون الى الرسول ، من ذوي الجاه والحسب والنسب ، والأشراف السادات من أهل الحضر والوبر .

وحفظ النسب هذا هو استمرار لما كان عليه الجاهليون من حرص على حفظ أنسابهم . واذا كُنّا لا نملك اليوم جرائد جاهلية في النسب ، فإن في بعض الكتابات الجاهلية تأييداً لما نقول . فبين أيدينا في هذا اليوم كتابات جاهلية ذكرت أسماء جملة أجداد لأشخاص دوّنوا أسماءهم في تلك الكتابات . وقد دوّن على شاهد قبر (معنو) (معن) ، اسم أبيه وجدّين من أجداده[3] ، كما عثر على

١ الفاخر (٢٤٢) ، الثعالبي ، ثمار (٩٢،٨٥،٤) .
٢ نهاية الأرب (٦/٥٠ وما بعدها) .
٣ F. Altheim und R Stiehl, Die Araber. I, S., 280

أسماء عشرة أجداد في بعض الكتابات الصفوية[1] . وهنالك امثلة أخرى من هـذا القبيل ، تثبت عناية العرب في الجاهلية بتدوين أنسابهم وحفظها . وهي من أهم المزايا التي حافظ عليها العرب الى هذا اليوم .

ويبدأ النسب بالأب في الغالب ، وبـ (الأم) في الأقـل في حالات تتغلب فيها شهرة الأم على شهرة الأب ، ويكون (البيت) إذنْ جرثومـة النسب . وحين ينسب إنسان يقول انـه : (ابن فـلان) . ويشمل نسب البيت الأب والأولاد والبنات والزوجة أو الزوجات ، وهم أكثر الناس التصاقاً بالأب . وقد يقال انه من (بيت فلان) تعبيراً عن الانتساب الى رئيس ذلك البيت . وقـد عرف بعض علماء اللغة النسب : انه القرابـة ، أو هو في الآباء خاصة ، وان النسب ان تذكر الرجل فتقول : هو فلان ابن فلان ، وذكر انـه يكون من قبل الأم والأب[2] .

والبيت هو بيت أب . ولما كان المجتمع مجتمع بيوت ، صار النظام فيه نظاماً أبوياً . السلطة العليا فيه للأب ، اليه يُنتسب وهو المسؤول قانونـاً عن العائلة . يتساوى في ذلك مجتمع الحضر ومجتمع أهل الوبر .

ويذكر أهل الأخبار ان العرب تنسب ولد المرأة الى زوجها الذي يخلف عليها بعد أبيهم . وذلك عنى حسان بن ثابت بقوله :

ضربوا عليّاً يوم بدر ضربـة   دانت لوقعتها جميـع نزار

أراد بني عليّ هؤلاء من كنانة . وهم بنو عبد مناة . وانما قيل لهم بنو عليّ عزوة الى عليّ بن مسعود الأزدي . وهو أخو عبد مناة لأمه ، فخلف على أم ولد عبد مناة . وهم : بكر وعامر ومرة وامهم : هند بنت بكر بن وائـل النزارية فرباهم في حجره فنسبوا اليه[3] .

واذا توفي والد وله مولود في بطن زوجته ، أو كان طفلاً رضيعاً وكان له

١ Littmann, Thamud und Safa, 1940. S, 98, Inschriften, 4, 5, S., 121, Die Araber, I. S, 280.

٢ تاج العروس (٤/٢٦٠ وما بعدها) (طبعة الكويت) ، (ن س ب) .

٣ تاج العروس (١٠/٢٥٣) ، (علو) .

أعمام ، تركه أعمامه عند أمه حتى يكبر ، ثم يأخذه أعمامه . وقد تأتي أمه معه . ولكن العادة ان الأم تبعُ أهلها أي عشيرتها ، فاذا توفي زوجها وهي من عشيرة أخرى ، تركت عشيرته لتعود الى عشيرتها ، فاذا كبر المولود خُيّر بين البقاء مع أمه أو الالتحاق بأعمامه ، أي بعشيرة والده . والأغلب ان يختار الولد عشيرة الوالد ، لأن نسب الولد من نسب والده . فيلتحق المولود بعشيرة الأب . وتقدّم عشيرته على عشيرة الأم . إذْ يشعر ان عشيرة أمه وان كانت قريبة منه ، إلا ان قربه منها ليس كقربه من عشيرة والده ، وقد يعير باختياره عشيرة أمه عشيرة له . ولدينا أمثلة تشير الى تعيير الأولاد أولاداً آخرين ، لالتحاقهم بعشيرة أمهم وتركهم عشيرة والدهم ، كالذي كان ، من أمر عبد المطلب يوم كان طفلاً ، إذْ عيره أطفال عشيرة أمه بلجوئه الى عشيرتهم ، إذْ لا عشيرة له . ولو كانت له عشيرة للحق بها . مما حمله على ترك يثرب والرجوع الى أعمامه بمكة . فالعم في نظرهم بمنزلة الوالد . وهو أقرب الناس اليه ، وهو وريثه في العصبات . . وبهذه الحجة احتج العباسيون على العلويين في تقدمهم عليهم بحق الخلافة .

ومن هنا نجد العرب يوصون بأولاد العم خيراً ، والا يتهاتروا معهم ولا يختلفوا مهما وقع بينهم من خلاف . وفي هذا المعنى يقول أبو الطمحان :

إذا كان في صدر ابن عمك إحنة فلا تستثرها سوف يبدو دفينها [1]

وللخؤولة مكانة كبيرة في العصبة عند العرب . قد تقوى على العمومة ، فاذا هلك انسان ، وكان إخوته على خلاف مع زوجته أو كان حالهم ضعيفاً ، قامت الخؤولة مقام العمومة في رعاية الأولاد وحمايتهم ومدّهم بالعصبية . بل قد نجد ان عصبية الخؤولة أقوى عند العرب في الغالب من عصبية العمومة . وفي تأريخ الجاهلية والإسلام أمثلة كثيرة على ذلك .

ومن حسن حظ الإنسان في الجاهلية ان يكون له أعمام وأخوال كثيرون ، خاصة اذا كانوا أصحاب جاه وسيادة . لأنه سيعتز بهم ، ويفتخر بكثرتهم . وكان الجاهليون يقولون : رجل معم ورجل مخول وأخول ، اذا كان له أعمام

١ أمالي المرتضى (٢٥٩/١) .

وأخوال. ويقال: كريم الأعمام والأخوال، على سبيل المدح والتقدير [1] ومنه قول امرىء القيس: مجيدٌ معمٌّ في العشيرة مخول. وقول الشاعر:

تروح بالعشيّ بكـــل خرق | كريم الأعمين وكل خـــال [2]

والنسب، نسب أهل، ويقوم على الدم القريب، ونسب قبيلة، ويقوم على العصبية للدم الأبعد. دم جد القبيلة يجري في عروق المنتسبين اليه.

والعرب من حيث النسب صرحاء. وحلفاء وجيران وموالي وشركاء يستلحقون بالنسب. أما الصريح، فهو المحض من كل شيء، والخالص النسب. ويقال جاء بنو فلان صريحة اذا لم يخالطهم غيرهم [3].

والنسب إذن، نسب آباء، وهو نسب الصرحاء الخلص من العرب المنحدرين من صلب جد القبيلة، على حد تعبير أهل الأنساب، ونسب حلف أو جوار، أي نسب استلحاق. والغالب ان يتحول نسب الاستلحاق الى نسب صريح، حين تطول اقامة الدخيل بين من دخل بينهم: فينسى أصله، ويأخذ أحفاده نسب من دخل جدهم فيهم. ويشمل ذلك نسب القبائل أيضاً. ونجد في كتب أهل الأخبار أمثلة كثيرة من أمثلة تحول الأنساب، حيث نجدهـــا تنص على دخول نسب فلان في نسب بني فلان، ونسب قبيلة في نسب قبيلة أخرى.

ويقال للقوم الذين ينتسبون الى من ليسوا منهم (الدخل). والدخيـــل هو الرجل الغريب الذي ينتسب الى قوم ليس هو بواحد منهـــم. وذكر أيضاً ان (الدخل) بمعنى الخاصة، وأيضاً الحشوة الذين يدخلون في قوم وليسوا منهم، أي في المعنى المتقدم [4].

وفي كتب أهل الأخبار أمثلة عديدة على تنقل الأنساب واثبات نسب قوم في قوم ليسوا منهـــم لغاية ومأرب. وقـــع ذلك في الجاهلية وفي الإســـلام. قال (الكندي): (كان أبو رجب الخولاني وفلان وفلان يتحرشون أهل الحرس

١ تاج العروس (٣١٢/٧)، (خول).
٢ تاج العروس (٤٠٩/٨ ح، (عمّ).
٣ اللسان (٥٠٩/٢)، (صرح)، بلوغ الارب (١٩١/٣ وما بعدها).
٤ تاج العروس (٣٢٠/٧ وما بعدها)، (دخل).

ويؤذونهم ، فمشى أهـل الحرس الى زكريا بن يحيى كاتب العمري ، فقالوا له حتى متى نؤذى ويطعن في أنسابنا . فأشار عليهم زكريا بجمع مال يدفعونـه الى العمري ليسجل لهم سجلاً باثبات أنسابهم ، فجمعوا له ستة آلاف دينار ، فلما صار المال الى العمري لم يجسر على ان يسجل لهم ، وقال : ارفعوا الى الرشيد في ذلك ، فخرج وفد منهم الى العراق وانفق مالاً عظيماً هناك ، وادعى الوفد ان المفضل بن فضالة قد كان حكم لهم باثبات أنسابهم وانهم بنو خوتكة بن الحاف ابن قضاعة ، ثم عاد الوفد بكتاب محمد الأمين الى العمري بالتسجيل لهم ، فدعاهم العمري الى اقامة البينة عنده على أنسابهم فأتوا بأهل الجوف الشرقي وأهل الشرقية . وقدم جماعة من بادية الشأم ، فشهدوا انهم عرب فسجل لهم العمري . ثم تجدد نظر القضية فيما بعد وفسخ حكم القاضي العمري . ورد أهل الحرس الى أصلهـم القبطي)[1] .

وأشار أهل الأخبار الى قبائل كانت تتنقل من قوم الى قوم ، فتنتمي اليهم ، قالوا لها : (النواقل) . والنواقل من انتقـل من قبيلة الى قبيلة أخرى فانتمى اليها[2] . والتنقل دليل على ان النسب لم يكن من الصرامة والشدة على نحو ما يصوره لنا النسابون المتأخرون .

وفي الذي يذكره علماء النسب عن أنساب القبائل ، أمور لا يمكن لنا قبولها ، لا سيما ما يتعلق منها بالتعصب القبلي وبسرد الأنساب وتشجيرهـا وفي تفرعها . وأنساب القبائل موضوع لم يبحث بعد بحثاً علمياً ، وهو يحتاج الى تفرغ وتتبـع والى مقارنة ما جاء عند العرب فيه بما جاء عند غيرهم من الساميين وغيرهـم عنه . فقد لعبت الأنساب دوراً خطيراً عند البشرية ، لانها كانت الحماية والوقاية للإنسان ، قبل ان تتولد الحكومات الكبيرة التي رعت الأمن وبسطت سلطانها ، وبذلك خففت من غلواء النسب والانتساب .

الاستلحاق :

والاستلحاق ، هو ان يستلحق انسان شخصاً فيلحقه بنسبه ، ويجعله في حمايته

١ كتاب قضاة مصر (٢٩٧) ، العبادي ، الاسلام والمشكلة العنصرية (٨٨) .
٢ تاج العروس (٨/١٤٣) ، (نقل) .

ورعايته ، أي في عصبيته . وقد يكون الرجل صريحاً معروف النسب ، وقد يكون أسيراً أو مولى أو عبداً ، فيسميه مولاه وينسبه اليه .

ومن هذا القبيل ما كان يفعله أهل الجاهلية من استلحاق أبناء الإماء البغايا بهم . وذلك انه كان لأهل الجاهلية إماء بغايا وكان سادتهن يلمّون بهن ، فاذا جاءت احداهن بولد ربما ادعاه السيد والزاني ، فيقع خلاف بينهما على الولد . وقد وقع مثل هذا الخلاف في أيام الرسول ، في أول زمان الشريعة ، فقضى الرسول بالحاقه بالسيد ، لأن الأمة فراش كالحرة ، فان مات السيد ولم يستلحقه ثم استلحقه ورثته بعده لحق بأبيه . وفي ورثته خلاف [1] .

الدعيّ :

ويقال للمستلحق (الدعيّ) . والدعيّ المنسوب الى غير أبيه . و (الدعوة) [2] في النسب ان ينتسب الانسان الى غير أبيه وعشيرته وقد كانوا يفعلونه فنهي عنه وجعل الولد للفراش . ومن هذا القبيل المتبنّى الذي تبناه رجل فدعاه ابنه ونسبه الى غيره ، وكان النبي ، تبنى (زيد بن حارثة) ، ثم الحقه بنسبه ، بعد ان نزل الوحي عليه (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم) [3] . وقال : (ما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلك قولكم بأفواهكم) [4] .

ويكون حكم الدعيّ من الناحية القانونية في حكم النسب الصحيح والبنوة الشرعية عند الجاهليين ، لذلك كان الجاهليون يورثونه كما يورثون الأبناء [5] .

ويقال للدعيّ ينتمي الى قوم : منوط مذبذب ، سمّي مذبذباً لأنه لا يدري الى من ينتمي [6] . وقد يكون الرجل دعي أدعياء ، فيكون هو دعيّاً في رهطه ،

---

١ اللسان (٣٢٨/١٠) ، (صادر) ، (لحق) ، تاج العروس (٦٠/٧) ، (لحق) .
٢ الدعوة بكسر الدال .
٣ سورة الأحزاب ، الرقم ٣٣ الآيه ٥ ، اللسان (٢٦١/١٤) .
٤ سورة الأحزاب ، الرقم ٣٣ ، الآيه ٤ ، اللسان (٢٦١/١٤) ، (صادر) ، (دعا) .
٥ الأغاني (٩٤/١٧) .
٦ اللسان (٤٢٠/٧) ، (صادر) ، (نوط) .

ورهطه دعي في قبيلة مثل (ابن هرمـة) ، فقد كان دعيـّاً في الخلج وكان الخلج دعيـّاً في قريش[1] . ويقال للدعي (ملصقا) ، والملصق ، هو المقيم في الحي وليس منهم بنسب[2] .

وقد ورد في حديث (علي بن الحسين) : المستلاط لا يرث ، ويُدعى له ويدعى به ، المستلاط المستلحق في النسب ، ويدعى له ، أي ينسب اليه؛ فيقال : فلان بن فلان ، ويدعى به أي يكنى ، فيقال : هو أبو فلان ، وهو مع ذلك لا يرث لأنه ليس بولد حقيقي[3] . ومن ذلك قولهم : (لاط القاضي فلانا بفلان ألحقه به) ، وورد ان أناساً في الجاهلية كانوا يليطون الأولاد بآبائهـم ، أي يلحقونهم[4] . والظاهر ان استلحاق الأبناء بالآباء ، كان معروفـاً بين الجاهليين بسبب الاتصال بالإماء وببعض الأعراف الأخرى التي حرمت في الإسلام .

ويقال للدعيّ : المخضرم . وقيل هو من لا يُعرف أبوه أو أبواه ورجـل مخضرم أسود وأبوه أبيض ، أو هو من ولدته السراري . وذلك ذم في الانسان[5] .

ويقال رجل (خلط ملط) ، بمعنى : مختلط النسب . وذكر ان الملط الذي لا يعرف له نسب ولا أب . وأما خلط ، فإما بمعنى المختلط النسب ، وإما بمعنى ولد الزنا . والخليط المشارك في حقوق الملك كالشرب والطريق ونحو ذلك . ومنه الحديث : الشريك أولى من الخليط ، والخليط أولى من الجار . والشريك المشارك في الشيوع . والخليط القومُ الذين أمرهم واحد[6] .

و (الأهل) أهل الرجال وأهل الدار ، وأهل الرجل أخص الناس بـه . وأهل الدار أهل البيت . و (آل الرجل) أهله . ويقال في النسب : هو من آل فلان[7] .

١ الأغاني (٣/٧٦) .
٢ تاج العروس (٧/٦١) ، (لزق) ، (ألصق) .
٣ اللسان (١٤/٢٦٢) ، (دعا) .
٤ تاج العروس (٥/٢١٨) ، (لاط) ، اللسان (٧/٣٩٥) ، (لوط) .
٥ تاج العروس (٨/٢٨١) ، (الخضرم) .
٦ تاج العروس (٥/١٣٢) ، (خلط) ، (٥/٢٢٦) ، (ملط) .
٧ اللسان (١١/٢٨ وما بعدها) ، (صادر) (أهل) .

وينتهي النسب بجد القبيلة الأكبر . فلكلّ قبيلة جدّ أكبر تنتمي اليه ، وتتسمى به ، وله ابن ينتسب اليه أو أبناء ينتسبون اليهم ، ويكون هذا الجدّ محور (النسب) و (العصبية) للقبيلة . ونجد هذا النوع من النسب معروفاً عند غير العرب أيضاً .. عند العبرانين والآراميين وعند الإغريق والرومان مثلاً .

الجوار :

وللجوار صلة كبيرة بـ (النسب) وبالعصبية عند العرب ، فقد يتوثق الجوار ، وتتقوى أواصره فيصير نسباً ، فيدخل عندئذ نسب (المستجير) بنسب (المجير) ، ويصير وكأنه نسب واحد ، هو نسب (المجير) . وقد اندمجت بـ (الجوار) أنساب كثيرة من القبائل الصغيرة ، أو القبائل التّي تشعر بخوف من قبيلة أخرى أكبر منها ، فتضطر الى طلب (جوار) قبيلة أكبر منها ، لتدافع عنها ، ولتكون بذلك قوة رادعة تحمي حياتها وتحافظ على نفسها ومالها بهذا الجوار .

وهو من السنن التّي حافظ عليها الجاهليون ، واعتدّوها كالقوانين . فاذا استجار شخص بآخر ، أو استجارت قبيلة بأخرى ، اكتسب هذا الجواز صيغة قانونية ، ووجب على المجير المحافظة على حق الجوار . والا ، نزلت السبة بالمجير ، وازدراه الناس .

ويكتسب الجوار حكمه بإعلان الطرفين قبولهم له على الملأ ، في أماكن الاجتماع في الغالب ، في مثل المواسم من حج أو سوق . فاذا أعلن ذلك ، وعلم الناس الخبر ، صار المجار في ذمة المجير ، وترتب على المجير ان يكون مسؤولاً عن كل ما يقع على المجير وما يصدر منه .

وقد ورد في القرآن الكريم ، (والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل) [1] . والجار ذو القربى هو نسيبك النازل معك في الحواء ، ويكون نازلاً في بلدة وأنت في أخرى ، فله حرمة جوار القرابة . والجار الجنب ان لا يكون له مناسب فيجيء اليه ويسأله ان يجيره ، أي يمنعه فينزل معه ،

١ النساء ، الآية ٣٦ .

فهذا الجار الجنب له حرمة نزوله في جواره ومنعته وركونه الى أمانه وعهده . لأنه جاوره وان كان نسبه في قوم آخرين ولا قرابة له به .

وكان سيّد العشيرة إذا أجار عليها إنساناً لم يخفروه [1] . وإذا دخل قبته أو خباءه أو دار حول خيمته ، ونادى بالجوار والأمان صار آمناً . وقد وجب على صاحب القبة أو الخباء أو الخيمة حمايته ، حتى وان كان من سائر أبناء القبيلة .

والجار والمجير والمعيذ واحد . ومن عاذ بشخص استجار به [2] . ومن هذا القبيل استجارة أهل الجاهلية بالجنّ . (قيل : إنّ أهل الجاهلية كانوا اذا نزلت رفقة منهم في وادٍ ، قالت : نعوذ بعزيز هذا الوادي من مردة الجن وسفهائهم . أي نلوذ به ونستجير) [3] .

وللجوار حرمة كبيرة عند الجاهليين . فإذا استجار شخص بشخص آخر ، وقبل ذلك الشخص ان يجعله جاراً ومستجيراً به ، وجبت عليه حمايته ، وحق على المجار الدفاع عن مجيره : والذبّ عنه . وإلا عدّ ناقضاً للعهد ، ناكثاً للوعد ، مخالفاً لحق الجوار . وعلى القبائل استجارة من يستجير بها . والدفاع عنه دفاعها عن أبنائها . ويقال للذي يستجير بك (جار) . والجار الذي أجرته من ان يظلمه ظالم . وجارك المستجير بك ، والمجير هو الذي يمنعك ويجيرك . وأجاره : أنقذه من شيء يقع عليه [4] .

وقد أوصوا بالجار خيراً ، ورجوا من الجار ان يكون كذلك قدوة حسنة في جواره ، فلا يسيء الى جاره او الى جيرانه ، وعلى الجار ان يغض نظره عن عيوب جاره ، وأن يكون يقظاً في حفظ حقوق جاره ، فطناً في الدفاع عنه .

١ اللسان (١٥٥/٤) ، (جور) .
٢ اللسان (١٥٥/٤) ، (جور) .
٣ اللسان (٥٠٠/٣) ، (عوذ) .
٤ اللسان (١٥٤/٤ وما بعدها) ، (جور)

ليس له أن يتملص من حقوق الجوار اذا استحقت ووجبت ، لأن للجار حقاً عليك .[1]

وكان يقال في الجاهلية للرجل اذا استجار بيثرب : قوقل في هذا الجبل ثم قد أمنت . فاذا فعل أحد ذلك ، وجب على اهل يثرب قبول جواره والدفاع عنه . وذكر ان (قوقل) رجل من الخزرج ، اسمه (غنم بن عوف بن عمرو ابن عوف بن الخزرج) ، سمّي به (لأنه كان اذا اتاه انسان يستجير به او بيثرب قال له : قوقل في هذا الجبل ، وقد أمنت . أي ارتق) . وقيل : (لانهم كانوا اذا أجاروا أحداً أعطوه سهماً . وقالوا : قوقل به حيث شئت . أي سر به حيث شئت) . وذكروا ايضاً أن (القوقل) اسم أبي بطن من الانصار ، اسمه تعلبة بن دعد بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن عوف بن الخزرج . وقالوا : هو النعمان بن مالك بن ثعلبة .[2]

والغاية من الجوار طلب الحماية والمحافظة على النفس والأهل والمال ، لذلك لا يطلبه في العادة الا المحتاج اليه . ولا يشترط في الجوار نزول الجار قرب المجير ، أو في جواره أي أن يكون بيته ملتصقاً ببيته . فقد يكون على البعد كذلك . لأن الجوار حماية ورعاية ، وتكون الحماية حيث تصل سلطة المجير ، وتراعى فيه حرمته وذمته . ويكون في امكانه الدفاع عن جاره . ولهذا كان على الجار أن يعرف حدود (الجوار) ، وقد يعلقانه بأجل احترازاً وتحفظاً من الجوار المطلق ، الذي لا يعلق بزمن وانما يكون عاماً .

ولا يجير أحد انساناً الا اذا أحس ان في امكانه اداء امانة الجوار . والا عرض نفسه وأهله وقبيلته للأذى والسبّة ، ان قبل شخصٌ جوار أحد ، وهو في وضع لا يمكنه من الوفاء بحقوق الجوار . ولا يطلب رجل مجاورة رجل آخر الا اذا شعر أن من سيستجير به هو كفؤ لأن يجيره . والا فما الفائدة من الاستجارة برجل ضعيف قد يكون هو نفسه في حاجة الى الاستجارة بأحد .

ولا يشترط في الجوار أن يكون جوار أحياء . فقد يستجير انسان بقبر ، فيصير

١ قال قيس بن عاصم :
لا يفطنون لعيب جارهم   وهم لحفظ جواره فطن
المرزوقي ، شرح الحماسة (٤/٥٨٤) .
٢ المعارف (ص ٥٠) ، تاج العروس (٨/٨٤) ، (القوقل) .

في جواره وفي حرمة ذلك القبر . وعلى أصحاب ذلك القبر الذبّ عن هذا الجار والدفاع عنه . ومن هذا القبيل استجارة الناس بقبر (عامر بن الطفيل) . فقد ذكر أن قومه من (بني عامر) ، وضعوا حول قبره أنصاباً على مسافة منه ، اذا اجتازها اللاجيء ودخل (الحرم) المحيط بالقبر ، صار آمناً على ماله ونفسه ، لا يخشى خشية أحد ، يريد انزال سوءٍ به . وقد منعوا دخول حيوان اليه أو مرور راكب به ، احتراماً لحرمة صاحبِ هذا القبر .[1] وكالذي كان من أمر قبر (تميم بن مرّ) جدّ قبيلة تميم في عرف النسابين .

وقد يستجير الانسان بمعبد أو بأي موضع مقدس ، فيكون في جوار وحرمة ذلك المكان . وعلى اصحابه اداء حقوق الجوار . ومن هذا القبيل جوار مكة . فمن دخل حرم (البيت) صار في جواره ، آمناً مطمئناً لا يجوز الاعتداء عليه ولا اخافته ، لانه في حرمة (البيت) وعلى قريش الذبّ عنه .

وقد كان لآل (محلم بن ذهل) قبة بوادي (عوف) عرفت بـ(قبة المعاذة) ، من لجأ اليها أعاذوه . و (آل عوف) من اشرافهم في الجاهلية ومن رجالهم (عوف) الذي يضرب به المثل : لا حرّ بوادي عوف .[2] والعوذ الالتجاء . ولهذا عرفت بتلك التسمية . وهو (عوف بن محلم بن ذهل بن شيبان) . وقد ضرب به المثل في الوفاء . فورد : (هو أوفى من عوف) . وذلك لأن عمرو ابن هند طلب منه مروان القرظ . وكان قد أجاره فمنعه عوف وأبى أن يسلمه ، فقال عمرو : لا حرّ بوادي عوف . أي أنه يقهر من حل بواديه وكل من فيه كالعبيد له لطاعتهم إيّاه . وهو من أمثال العرب في الرجل العزيز المنيع الذي يعز به الذليل ويذل به العزيز . وقيل ان كل من صار في ناحيته خضع له . أو قيل ذلك لأنه كان يقتل الأسارى .[3] ولما توفي (عوف) دفن بواديه، وأقاموا قبة على قبره صارت ملاذاً لمن يطلب الجوار .

ومن طرق الجوار ، أن يأتي رجل الى رجل ليستجير به فلا يجده ، فيعقد

---

١ الاغاني (١٨٤/٢) ، (١٤٩/١٥) .
٢ الاشتقاق (٢١٥) .
٣ تاج العروس (٢٠٦/٦) ، (نعوف) .

طرف ثوبه الى طنب البيت ، فاذا فعل ذلك عدّ جاراً ، ووجب على صاحب البيت أن يجيره .[1]

والجوار جواران : جوار جماعة كجوار بيت أو فخذ أو بطن أو ظهر أو عشيرة أو قبيلة ، وجوار أفراد . وللجوارين حرمة وقدسية ليس أحدهما دون الآخر في الحرمة والوفاء.

واذا نزل انسان على انسان آخر جاراً ، فان من المتعارف عليه أن تكون حرمة جواره ثلاثة أيام ، : (وكانت خفرة الجار ثلاثاً)[2] فاذا انتهت ، انتهت مدة الجوار . وعلى الجار الارتحال ، الا اذا جدد (المجير) جواره له ، وطلب منه البقاء في جواره . فيكون عندئذ لهذا الجوار حكم آخر ، اذ يبقى الجوار قائماً ما دام عقده باقياً . وقد استفاد من حق الجوار الغرباء والمسافرون ، والمحتاجون وأمثالهم . فقد أمنوا على راحتهم ورزقهم وهم في محيط صعب ، كما أمنوا على حياتهم ، حتى أن المجير ليغفر لجاره ما قد يبدر منه من سوء بسبب حكم الجوار . قال مجير لجاره : (لولا أنك جار لقتلناك)[3] . ويشمل هذا الجوار المسافر والضيف .

ومن عاداتهم في الجوار ، أن أحدهم اذا خاف ، فورد على من يريد الاستجارة به ، نكس رمحه ، فاذا عرفه المجير ، رفع رمحه . فيصير في جواره . فلما هرب (الحارث بن ظالم المرّي) من ملك الحيرة ، وأخذ يتنقل بين القبائل حتى وصل عكاظ وبها (عبد الله بن جدعان) ، نكس رمحه أمام مضرب (ابن جدعان) ، ثم رفعه حين عرفوه ، وأمن . وأقام بمكة ، حتى أتاه أمان ملك الحيرة .[4]

وقد يحدد الجوار بحدوده . كأن يذكر من يطلب الاستجارة لمن يريد ان يستجير به ، ان استجارته به من قبيلة كذا أو من القبائل الفلانية أو من الشخص

---

١ الأغاني (١٨٤/٢) .
٢ الفاخر (٢٢٠) .
٣ الفاخر (٢٢٠) .
٤ البلاذري (٤٢/١ وما بعدها) .

الفلاني. فاذا قبل المجير ذلك حدد جواره بما حدد في عقد الجوار. فاذا اعتدت على المستجير قبيلة أخرى لم تذكر في نص الجـوار ، فلا ذمة للمستجير على المجير ، وليس من حقه طلب مساعدته له. كما قد يحدد الجوار بزمن ، كاقامة شخص في مكان ، أو ايصاله من موضع الى موضع ، أو تعيين أمد له .

والخفارة الخفرة : الأمان ، والخفير : المجير ، والخفارة : الذمة. ويقال : خفرت الرجل : أجرته وحفظته ، وتخفرت به اذا استجرت به. وأخفرت الرجل اذا نقضت عهده وذمامه .[1] بأن يعلن ذلك ليقف عليه الناس ، والا بقيت التبعة في عنق الخفير .

وعلى من أعطى خفارته لأحد ، الوفاء بما أعطى ، والوفاء بما ألزم نفسه به عليه ، والا عد ناكثاً للعهد حقيراً .[2]

المؤاخاة :

وتكون المؤاخاة بين الأفراد كما تكون بين الجماعات ، كالعشائر والقبـائل . وهي تدعو الى العناصر والمؤازرة والمساعدة. وتؤدي الى الموارثة. وخير مثل على المؤاخاة ، ما فعله الرسول يوم مقدمه المدينة من مؤاخاته بين الأنصار والمهاجرين لتوحيد الكلمة وليساعد بعضهم بعضاً .[3]

ولا يشترط في المؤاخاة أن تكون بين أعراب وأعراب ، أو بين حضر وحضر ، اذ يجوز أن تعقد ايضاً بين العرب والأعراب ، اي بين الحضر والبدو . لأن المؤاخاة عقد ، والعقد يقع بين كل الناس ، كما قد تقع بين عربي وأعجمي ، فقد آخى الرسول بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء.

١ اللسان (٢٥٣/٤ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (١٨٦/٣) ، (خفر) .
٣ تاج العروس (١١/١٠) ، (أخا) .

الموالي :

والمولى : الولي والعصبة والحليف وابن العم والعم والأخ والابن وابن الأخت والعصبات كلهم والجار والشريك[1] . فاللفظة إذنْ معان عديدة ، أهمهـا بالنسبة لنا ، ان المولى : العبد ، أي المملوك الذي يمنّ عليه صاحبه ، بأن يفك رقبته ، فيعتقه ، ويصير المملوك بذلك مولى لعاتقه . وسوف نرى ان الموالي أنواع . وهم الذين نبحث عنهم في هذا المكان .

و (الموالي : العصبة . هم كانوا في الجاهلية الموالي ، فلما دخلت العجم على العرب لم يجدوا لهم اسماً ، فقال الله تبارك وتعالى : فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم . فسمّوا الموالي .. والمولى اليوم موليان : مولى يرث ويورث ، فهؤلاء ذوو الأرحام ، ومولى يورث ولا يرث . فهؤلاء العتاقة)[2] .

والعرب تسمّي ابن العم المولى ، ومنه قول الشاعر :

ومولى رمينا حوله وهو مدغـل بأعراضنا والمندبـات سروع

يعني بذلك وابن عمّ رمينا حوله . ومنه قول الفضل بن العباس :

مهلاً بني عـمّنا ، مهلاً موالينا لا تظهرنّ لنا ما كان مدفونا[3]

والموالي أنواع · موالي عتق وموالي عتاقة ، وهو الرقيق أو الأسير الذي تفك رقبته بعتقه . كأن يشتري رجل مملوكاً فيشتريه فيعتقه[4] . وفي جملة مـا كان يفعله الجاهليون في مقابل فك رقبة المملوك اشتراطهم على المملوك عملَ عملٍ يعيّن له ، فإنْ قام به وأتمه ، اعتقت رقبتـه . ويصير مولى لمعتقه إنْ شاء ، وله الخيار في ان يختار غير سيده مولى له ، إن اشترط ذلك على سيده ، أو اشترط

١ اللسان (١٥/٤٠٨ وما بعدها) ، (صادر) ، (ولي) · قال الشاعر :
هم المـولى وإن جنفـوا علينـا وأنـا من لقـائهم لـزور
يعني بني العم · وقال اللهبي يخاطب بني أمية :
مهـلا بنـي عمنا مهـلا موالينـا أمشوا رويـدا كما كنتم تكونونا
تاج العروس (١٠/٣٩٩) ، (ولي) ·
٢ تفسير الطبري (٥/٣٣) ·
٣ تفسير الطبري (٥/٣٢) ·
٤ اللسان (١٠/٢٤٣) ، (عتق) ·

سيده عليه ذلك الشرط . وقد يقع الاختيار على ذلك بعد وقوع العتق .

ومن الموالي : موالي مكاتبة (موالي المكاتبة) وذلك ، بأن يشترط في عقد البيع ، ان العبد يكاتب على نفسه بثمنه ، فإذا سعى وأداه عتق . وذكر أيضاً ان المكاتبة ، ان يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه اليه منجّماً ، فاذا أداه صار حرّاً . والعبد مكاتب . وقيل : المكاتبة : ان يكاتب الرجل عبده أو أمته على مال ينجّمه عليه ، ويكتب عليه انه اذا أدى نجومه في كل نجم كذا وكذا ، فهو حرّ ، فإذا أدى جميع ما كاتبه عليه ، فقد عتق ، وولاؤه لمولاه الذي كاتبه . وذلك ان مولاه سوغه كسبه الذي هو في الأصل لمولاه ، فالسيد مكاتب ، والعبد مكاتب اذا عقد عليه ما فارقه عليه من أداء المال . سميت مكاتبة لما يكتب للعبد عليه على السيد من العتق اذا أدى ما فورق عليه ، ولما يكتب للسيد على العبد من النجوم التي يؤديها في محلها ، وان له تعجيزه اذا عجز عن أداء نجم يحلّ عليه [1] .

والأصل في ولاء المكاتبة ، ان من أعتق عبداً كان ولاؤه له ، فينسب اليه . واذا مات كان هو وارثه . وقد لا يتحول الولاء للولي ، اذا اشترطوا أولاً ألا يكون ولاؤه لمعتقه ، بل لمن يؤدي ثمن المكاتبة مثلاً . وقد يعتق المملوك ولا يكون لأحد ولاء عليه . وتكون العتاقة عندئذ (سائبة) . و (السائبة) : العبد يعتق على ان لا ولاء له ، أي عليه . ويحق عندئذ ان يضع ماله حيث يشاء [2] .

ومن أسباب العتاقة : التدبير . وهو ان يعلق المالك عتق مملوكه على شرط ، هو بعد وفاته . كأن يقول له : أنت حرّ بعد موتي . فلا يرثه أهله [3] .

واما مولى العقد ، ويقال له مولى حلف ومولى اصطناع ، فيكون بانتماء رجل الى رجل آخر بعقد ، أو قبيلة الى قبيلة أخرى بحلف . وذلك بأن يتعاقد ضعيف مع قوي على ان يساعده ويعاضده ، ويقوم في مقابل ذلك بأداء ما اتفق عليه من شروط . وينتسب المولى عندئذ الى سيده ، أي مولاه الذي قبل ولاءه . ومن هذا القبيل يهود يثرب ، فقد كانوا في ولاية الأوس والخزرج ، لجأ كل بطن

١ اللسان (١/٧٠٠) ، (كتب) .
٢ تاج العروس (١/٣٠٥) .
٣ تاج العروس (٣/٢٠٠) ، (دبر) .

منهم الى بطن من الأوس أو الخزرج يتعززون بهم، وصاروا موالي لهم. اذا وقع عليهم ضيم لجأوا الى من انتموا اليه بالولاء للدفاع عنه. ولما ظهر الإسلام كان من دخل في ولاء (عبد الله بن أبي) ، ومنهم من دخل في ولاء (سعد بن معاذ) ومنهم من كان في ولاء (عبادة بن الصامت) . وكان عليهم في مقابل ذلك ، العون والنصرة لمن دخلوا في ولائه أو ولائهم ، والدفاع عنهم ، وان يكونوا بمثابة العون لهم .

وكان من موالي الحلف ، قوم من اليهود والنصارى والمجوس . ولما ظهر الإسلام ، أبطل عن تولي أهل الكتاب [1] . إذْ جعلهم في ذمة المسلمين . ويدخل في هذا الولاء ولاء قبائل وعشائر صغيرة لقبائل أكبر منها . وذلك في سبيل الحصول على حمايتها لها ودفاعها عنها . فيتوجب عليها أداء ما شرط عليها من شروط عند طلبها الولاء ، من العصبية والعقل وما شاكل ذلك من حقوق .

أما مولى الرحم ، فيكتسب الولاء بالزواج من موالي بعض القبائل ، فينسب الى القبيلة التي تزوج من مواليها [2] .

وذكر بعض أهل الأخبار ان الموالي ثلاثة : مولى اليمين المحالف، ومولى الدار المجاور ، ومولى النسب ابن العم والقرابة . وقد ذكرت هذه الأنواع في هذا البيت :

نبئت حيّاً على نعمان أفرادهم   مولى اليمين ومولى الدار والنسب [3]

وقد ذكر (الجاحظ) (ان الموالي أقرب الى العرب في كثير من المعاني ؟ لأنهم عرب في المدّعي ، وفي العاقلة ، وفي الوراثة . وهذا تأويل لقوله : مولى القوم منهم ، ومولى القوم من أنفسهم . والولاء لحمة كلحمة النسب) [4] . ولهذا عدّ الموالي في نسب من دخلوا في ولائه . وتعصبوا وتحزبوا لولاء المولى .

والموالي مهما كانوا : عرباً أم عجماً ، كانوا أقل شأناً في مجتمعهم من

---

١ المائدة ، الآية ٥١ ، تفسير الطبري (١٧٧/٦) ، الألوسي ، تفسير (١٤٠/٦) .
٢ تاريخ التمدن الاسلامي (٣١/٤) .
٣ العمدة (١٩٨/٢) .
٤ مناقب الترك (١٢/١) ، من رسائل الجاحظ ، (تحقيق عبد السلام هارون) .

الأحرار . إذ نظر اليهم على انهم دون العرب الأحرار في المكانة . ولهذا فقلما زوج الأحرار بناتهم للموالي . حتى ضرب بهم المثل في القلة والذلة ولا سيما اذا كان الانسان مولى موالي . فقيل : (مولى الموالي) ، قيل ذلك في الاسلام أيضاً . ورد في الشعر :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا [1]

وقد بقيت نظرة الازدراء المذكورة حتى في الاسلام . فمع مساواة الاسلام للعرب بغيرهم واتيانه بمقياس جديد في تفضيل الخلق بعضهم على بعض هو مقياس العمل الصالح ، المتجسم في قوله : (أيها الناس إنّ الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ليس لعربيّ على عجميّ فضل إلا بالتقوى) [2] . أو قوله : (الناس في الاسلام سواء ، الناس طف الصاع لآدم وحواء . لا فضل لعربيّ على عجميّ ، ولا عجميّ على عربيّ إلا بتقوى الله) ، (لا تأتوني بأنسابكم وأتوني بأعمالكم ، فأقول للناس هكذا ولكم هكذا) [3] ، نجد ان العرب بقيت في الاسلام أيضاً تأنف من تزويج بناتها الى الموالي بسبب شرط (الكفاءة) الذي كان سنة من سنن أهل الجاهلية في الزواج : كفاءة النسب والمنزلة والحرفة . واذا تزوج مولى بنتاً عربية ، عُيرت القبيلة به . وقد هجا الشاعر (أبو بجير) (عبد القيس) ، لتزويجهم بناتهم للموالي [4] . وذهب البعض الى قاعدة : (الكفاءة في النسب والدين والصنعة والحرية ، ولا تزوج عربية بأعجمي ولا قرشية بغير قرشي ، ولا هاشمية بغير هاشمي ، ولا عفيفة بفاجر) [5] . وان (قريشاً بعضهم أكفاء لبعض بطن ببطن ، والعرب بعضهم أكفاء لبعض ، قبيلة بقبيلة ، والموالي بعضهم أكفاء لبعض رجل برجل) [6] .

١ الثعالبي ، ثمار (٦٩٠) .
٢ العبادي ، الاسلام والمشكلة العنصرية (٥٨) .
٣ اليعقوبي (٢/١٠٠) ، (حجة الوداع) ، وتروى الخطبة بصور مختلفة .
٤ العقد الفريد (٣/٢٣٢) .
٥ العبادي ، الاسلام والمشكلة العنصرية (٦٧) ، أبو اسحاق الشيرازي كتاب التنبيه في الفقه على مذهب الامام الشافعي (٩٥) .
٦ العبادي ، الاسلام والمشكلة العنصرية (٦٦) .

أما كفاءة النسب ، فيراد بها النسب العربي ، أي ان الرجل لا يزوج بنتاً عربية إلا اذا كان عربيّاً . وأما المنزلة ، فيراعى فيها الكفاءة في المكانة ، كأن يراعى في اختيار الزوجة ان تكون من عائلة ليست منزلتها دون منزلة الزوج ، وإلا عيّر بزواجه ، وأما الحرفة ، فان يتزوج الرجل بنتاً من بنات حرفتـه ، فلا يتزوج الرجل ابنة صائغ مثلاً وإلا عيّر ابنها به ، كالذي كان من أمـر (النعمان بن المنذر) ملك الحيرة ، فقد عيّره الناس بأمه لأنها ابنة صائغ ، ثم لأنها يهودية . وكان هذا العرف صارمـاً في اليمن ، فحصروا الزواج بأصحاب الحرف على نحو ما سأتحدث عنه في باب الزواج .

ونظراً الى ازدراء العرب لشأن الموالي ، وما كان يجلبـه الولاء من ازدراء العرب بعضهم بعضاً لهذا السبب ، بسبب ولاء العتق أو ولاء الموالاة ، فقد أمر الخليفة (عمر) بإبطال الولاء بين العرب ، وجوز بقاءه فيما بين العرب وغـير العرب [١] ، فاقتصر الولاء على هذا النوع وحده في الاسلام .

الأحـلاف :

وكان للأحلاف شأن خطير في حيـاة الجاهليين . والحلف في اصطلاح علماء اللغة العهدُ بين القوم ، والحلف والمحالفة : المعاهدة ، وأصله اليمين الذي يأخذ بعضهم من بعض بها العهد ، ثم عُبّر به عن كل يمين . والمحالفة ان يحلف كل للآخر [٢] . فمعنى الحلف في الأصل المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعـد والاتفاق . وتحالفوا بمعنى تعاهدوا وعقدوا اتفاقاً وعهداً ، وتآخوا على العمل يداً واحدة ، وقد حالف الرسول بين المهاجرين والأنصار ، أي آخى بينهم [٢] .

وفي كلمة الحلف شيء من الدلالة على الشعائر والأيمان والمعاني الدينية ، ولذلك قيل للحلف اليمين ، لأن من عادتهم عند عقد الحلف بسط أيمانهـم إذا حلفوا

١ العبادي ، الاسلام والمشكلة العنصرية (٧٤) .
٢ المفردات (ص ١٢٨) ، اللسان (٩/٥٣) (بيروت) ، تاج العروس (٦/٧٥) ، المخصص (١٣/١٠٩) ، روح المعاني (١٦/١٢٥) .
٣ تاج العروس (٦/٧٥) ، اللسان (٩/٥٣) ، الصحاح (١/٥١٢) ، اللسـان (١٢/٤٠٣) ، الصحاح (٤/١٣٤٦) ، اساس البلاغة (١/١٩٣) .

وتحالفوا وتعاقدوا وتبايعوا[1] . وكانوا ينظرون اليها على ان لها قداسة خاصة وحرمة ، والحانث بيمينه ينظر اليه بأشد أنواع التحقير والازدراء . ويُعد الحنث باليمين من الموبقات ومن الكبائر التي لا يغتفر صدورها من شخص في شريعة الجاهليين . وقد أمر الإسلام بالوفاء بالعهد[2] .

و (العهد) بمعنى الحلف أيضاً وقيل : العهد كل ما عوهد عليه ، وكل ما بين الناس من المواثيق . وهو أيضاً الموثق واليمين . ولذلك ورد : (على عهد الله) و (أخذت عليه عهد الله) ، و (ولي العهد) ، لأنه وليّ الميثاق الذي يؤخذ على من بايع الخليفة . وعلى من يعطي العهد الوفاء به : (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم)[3] . (وما وجدنا لأكثرهم من عهد)[4] ، أي من وفاء[5] . ووردت لفظة (عاهدتم) بمعنى التحالف والتعاقد في مواضع من كتاب الله[6] .

ويرد (الميثاق) بمعنى العهد . والمواثقة المعاهدة . وأما (التواثق) ، فالتحالف والتعاهد . وفي القرآن الكريم : (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق)[7] (فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق)[8] ، (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه)[9] . وقد قال العلماء في الميثاق إنه : عقد مؤكد بيمين

---

١ اللسان (١٧/٣٥٦) ، (١٣/٤٦٢) (بيروت) ، تاج العروس (٦/٧٥) .
٢ تفسير ابن كثير (٢/٥٠٩) ، تفسير الرازي (٢/١٤٧) ، تفسير الطبري (١/١٨٢) ، جامع أحكام القرآن ، للقرطبي (١/٢٤٦) ، (٩/٣٠٧) ، تفسير ابن حيان الأندلسي: البحر المحيط (١/١٧٤) ، تفسير الطبرسي (١/٤٠) ، تفسير ابن مسعود (١/٧٦) ، تفسير الخازن (١/٦١) ، تفسير البيضاوي (١/٨٣) .
٣ النحل ، الآية ٩١ ، الكشاف (١/٤١) ، تفسير الطبري (٣/٣١٩) ، (١/١٨٢)، تفسير الطبرسي (٢/٣٧٩) .
٤ الأعراف ، الآية ١٠٢ .
٥ اللسان (٣/٣١١) .
٦ التوبة ، الآية ١ ، ٤ ، ٧ النحل ، ٩١ ، تفسير الرازي (٥/٤٧) ، شرح صحيح البخاري (١١/٢٠٣) ، النهاية لابن الأثير (٣/١٥٩) ، تفسير الخازن (١/٤٢٣).
٧ الرعد ، الآية ٢٠ .
٨ الأنفال ، الآية ٧٢ .
٩ الرعد ، الآية ٢٥ .

وعهد[1] . والحلف الذي نتحدث عنه هو (ميثاق) ، لأنه عهد يؤخذ بحلف مؤكد بيمين .

وتكون بين المتحالفين مواثيق على الوفاء بالالتزامات التي نص عليها ، واتفق الطرفان المتعاقدان أو الأطراف المتعاقدة على الوفاء بها كاملة غير منقوصة .

ويكون الحلف بين الأفراد ، كما يكون بين الجماعات والحكومات ، فيتحالف الأفراد بعضهم مع بعض ، ويعلن ذلك الحلف ليكون معلوماً بين الناس ، وتتحالف القبائل بعضها مع بعض ، ويعلن حلفها هذا ليكون معلوماً عند أفرادها وعند القبائل الأخرى ، وتتحالف الحكومات : حكومات عربية مع حكومات عربية ، أو حكومات عربية مع حكومات أعجمية . وفي المسند أمثلة عديدة على محالفات الحكومات العربية بعضها مع بعض ، أو محالفتها لحكومة أجنبية مثل : الحبشة ، كما في الكتابات الآشورية وفي مؤلفات اليونان واللاتين ، وفي كتب أهل الأخبار أمثلة من محالفات العرب مع غيرهم ، أو محالفاتهم بعضهم مع بعض .

والفكرة التي حملت العرب على عقد الأحلاف ، هي نفس الفكرة التي تدفعهم اليوم على عقد الأحلاف بينهم أو مع غيرهم . وهي الضرورة والدفاع عن مصالح خاصة أو عامة ، أي نفس الفكرة التي تدفع الدول على التكتل والتحزب وعقد الأحلاف الدولية ، في هذا اليوم ، أو في المستقبل . وهناك أحلاف عقدت لأغراض هجومية ، وأحلاف عقدت لمصالح اقتصادية ، مثل أكثر أحلاف قريش مع القبائل . وأحلاف لتثبيت نظم واقرار قوانين وأخذ حقوق وردع ظالم وانصاف مظلوم .

وقد تعقد الأحلاف لأغراض معينة ، فتكون لها آجال محددة ، كأن تسعى قبيلة لعقد حلف مع قبيلة أخرى لمساعدتها في صد غزو سيقع عليها أو لمساعدتها في غزو قبيلة أخرى ، أو الوقوف موقف حياد تجاه الغزو . أو مساعدة قبيلة قبيلة أخرى للأخذ بثأر من قبيلة لها ثأر معها . ومثل هذه الأحلاف لا تعمر طويلاً ، إذ ينتهي أجلها بانتهاء الغاية التي من أجلها عقد الحلف .

---

١ المفردات (٥٢٢) ، اللسان (١٢/١٥٤) ، الصحاح (٤/١٥٦٤) ، الكشاف (١/١٧) ، البيضاوي (٧/١٦١) ، تفسير الطبري (٣/٣٢٩) ، اللسان (١٠/٣٧٠) (بيروت) ، تفسير الطبرسي (٦/١٥٧) .

والغالب ان الضعيف هو الذي يبحث عن حليف يحالفه ، ليقوّي بهذا التحالف نفسه ، ويعز به مكانه . قال البكري : (فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة ، وتنافس الناس في الماء والكلأ ، والتماسهم المعاش في المتسع ، وغلبة بعضهم بعضاً على البلاد والمعاش ، واستضعاف القوي للضعيف ، انضم الذليل منهم الى العزيز وحالف القليلُ منهم الكثير ، وتباين القوم في ديارهم ومحالّهم ، وانتشر كل قوم فيما يليهم)[١] .

لقد دفعت الضرورات قبائل جزيرة العرب الى تكوين الأحلاف ، للمحافظة على الأمن وللدفاع عن مصالحها المشتركة كما تفعل الدول . واذا دام الحلف أمداً ، وبقيت هذه الرابطة التي جمعت شمل تلك القبائل متينة ، فإنّ هذه الرابطة تنتهي الى نسب يشعر معه أفراد الحلف أنهم من أسرة واحدة تسلسلت من جدّ واحد ، وقد يحدث ما يفسد هذه الرابطة ، أو ما يدعو الى انفصال بعض قبائل الحلف ، فتنضم القبائل المنفصلة الى أحلاف أخرى ، وهكذا نجد في الجزيرة أحلافاً تتكون ، وأحلافاً قديمة تنحل أو تضعف[٢] .

لم يكن في مقدور القبائل أو العشائر الصغيرة المحافظة على نفسها من غير حليف قوي يشدّ أزرها إذا هاجمتها قبيلة أخرى ، أو أرادت الأخذ بالثأر منها . لقد كانت معظم القبائل داخلة في هذه الأحلاف ، إلا عدداً قليلاً من القبائل القوية الكثيرة العدد ، وكانت تتفاخر بنفسها ، لأنها لا تعتمد على حليف يدافع عنها ، بل كانت تأخذ بثأرها وتنال حقها بالسيف . ويشترك المتحالفون في الغالب في المواطن ، وقد تنزل القبائل على حلفائها ، وتكون الهيمنة بالطبع في هذه للقبائل الكبيرة[٣] .

وقد عرفت مثل هذه الأحلاف عند سائر الشعوب السامية كالعبرانيين مثلاً ، وطالما انتهت تلك الأحلاف كما انتهت عند العرب الى نسب ، فيشعر المتحالفون انهم من أسرة واحدة يجمع بينهم نسب واحد[٤] . ويقال للحلف (تكلع)

---

١ معجم ما استعجم (١/٥٣) .

٢ Goldziher, Muh. Stud., I, S., 64.

٣ الأغاني (١٢/١١٨ ، ١٢٣ وما بعدها) .

٤ Keunen, De Godsdienst van Israel, I, P. 113, Noldeke, in ZDMG., XI, S. 15.

عند اليمانيين [1] . (وبه سمّي ذو الكلاع ، وهو ملك حميريّ من ملوك اليمن من الأذواء ، وسُمّي ذا الكلاع ، لأنهم تكلعوا على يديه أي تجمعوا ، واذا اجتمعت القبائل وتناصرت فقد تكلعت) [2] .

ولما كانت المصالح الخاصة هي العامل المؤثر في تأليف الأحلاف ، كان أمد الحلف يتوقف في الغالب على دوام تلك المصالح . وقد تعقد الأحلاف لتنفيذ شروط اتفق عليها ، كأن تعقد لغزو قبيلة ، أو للوقوف أمام غزو محتمل ، أو لأجل معين . ومتى نفذت أو تلكأ أحد الطرفين في التنفيذ ، انحل الحلف . وتعدّ هذه الناحية من النواحي الضعيفة في التاريخ العربي ، فإن تفكير القبائل لم يكن يتجاوز عند عقدهم هذه الأحلاف مصالح العشائر أو القبائل الخاصة ، لذلك نجدها تتألف للمسائل الداخلية التي تخص قبائل جزيرة العرب ، ولم تكن موجهة للدفاع عن بلاد العرب والمقاومة أعداء العرب . ولا يمكن ان نطلب من نظام يقوم على العصبية القبلية ان يفعل غير ذلك . فإن وطن القبيلة ضيق بضيق الأرض التي تنزل فيها ، فاذا ارتحلت عنها ، ونزلت بأرض جديدة ، كانت الأرض الجديدة هي الموطن الجديد الذي تبالغ القبيلة في الدفاع عنه . ولما كانت هذه النزعة الفردية هي هدف سياسة سادات القبائل ، أصبحت حتّى اليوم من أهم العوائق في تكوين الحكومات الكبيرة في جزيرة العرب ، ومن أبرز مظاهر الحياة السياسية للأعراب .

وخير مثال للقبائل التي اقتضت مصالحها التكتل والتحالف بينها ، هو الحلف الذي قيل له (تنوخ) . فقد اجتمع بالبحرين قبائل من العرب ، وتحالفوا وتعاقدوا على التناصر والتساعد والتآزر فصاروا يداً واحدةً ، وضمهم اسم (تنوخ) [3] . وحلف (فرسان) ، وهو حلف آخر قديم تكوّن من انضمام قبائل عديدة بعضها الى بعض للتناصر والتآزر [4] . ولما لم يعرف أهل الأخبار واللغة شيئاً من تلك الأمور العادية ، أوجدوا تلك القصص والأخبار والأنساب المدوّنة

١ المخصص (٣/١٠٩) .
٢ اللسان (٨/٣١٣) ، (كلع) .
٣ تاريخ ابن الأثير (١/١٣٥) ، تاريخ الطبري (١/٧٤٦) (طبعة لندن) ، الاغاني (١١/١٥٥) .
٤ الاشتقاق (ص ٨) ، Muh. Stud., I, S. 66.

عن تنوخ وأمثال تنوخ[1] .

ومن هذا القبيل ، الحلف الذي قيل له : (البراجم) . وهو من عمرو وظليم وقيس وكلفة وغالب . زعم أهل الأخبار ، ان (حارثة بن عمرو بن حنظلة) ، قال لهم : أيتها القبائل التي قد ذهب عددها ، تعالوا فلنجتمع ولنكن كبراجم يدي هذه . فقبلوا ، فقيل لهم البراجم . وهم يد مع عبد الله بن دارم . فنحن أمام حلفٍ من أحياء قلّ عددها وذهب أمرها ، وخافت على نفسها ، فلم تجد أمامها منّ وسيلة للمحافظة على حياتها سوى التحالف ، فكان من ذلك حلف البراجم[2] .

ونجد لفظة (الحليفان) للدلالة على تحالف قبيلتين ، أو (الأحلاف) تعبيراً عن حلف عقد بين قبيلتين أو أكثر ، تردد في كتب أهل الأنساب والأخبار . وقد قصد بها أحلاف عديدة . فقد قيل لأسد وغطفان (الحليفان) ، لأنهما تحالفا وتعاقدا وعقدا حلفاً بينهما على التناصر والتآزر ، كما قيل لهما (الأحلاف) . والأحلاف أسد وغطفان[3] . وقيل لقوم من ثقيف : (الأحلاف) . والظاهر أنهم كانوا في الأصل طوائف لم تتمكن من البقاء وحدها في وسط عالم لا يعيش فيه إلا القويّ ، فتحالفت للدفاع عن نفسها ، ويقال لأسد وطيء (الحليفان) ولِفَزارة وأسد (حليفان) ، لأن خزاعة لما أجلت بني أسد عن الحرم ، خرجت فحالفت طيّئاً ، ثم حالفت بني فزارة[4] .

ولما تحالفت غطفان وبنو أسد وطيء ، قيل لهم : الأحاليف ، لعقدهم حلفاً على التناصر والتآزر[5] .

١ Muh. Stud., I. S., 66.

٢ خلق الانسان (٢٣٠ وما بعدها) ، تاج العروس (١٩٩/٨) ، (البرجمة) .

٣ قال زهير :

فمن مبلغ الأحلاف عني رسالة … وذبيان : هل أقسمتم كل مقسم ؟

وفي رواية (ألا أبلغ الأحلاف عني رسالة) ، اللسان (٤٠٠/١٠) ، ديوان زهير (ص ١٨) ، اللسان (٥٤/٩) ، شرح القصائد العشر ، للتبريزي (٢١٩) ، الصحاح (١٣٤٦/٤) .

٤ اللسان (٤٠١/١٠) .

٥ قال ربيعة بن مقروم :

اذا حل أحياء الأحاليف حوله … بذي لجب هداته وصواهله

المفضليات (ص ٣٦٤) ، تاج العروس (٧٥/٦) ، شرح ديوان زهير (١٨) .

وقد ورد في معلقة (الحارث بن حلزة اليشكري) اسم (حلف ذي المجاز) الذي عقد بين بكر وتغلب بوساطة (عمرو بن هند)، وقد أخذ فيه عمرو بن هند العهود والمواثيق والكفلاء من الطرفين حذر الجور والتعدي.[١]

وتكون الهيمنة في الاحلاف التي تعقد بين قبائل غير متكافئة للقبائل القوية، أي للقبائل التي لجأت اليها القبائل الضعيفة لعقد حلف معها. فتكون الكلمة عندئذ لسادات القبائل البارزة في هذا الحلف. وعلى القبائل الضعيفة دفع شيء للقبائل القوية في مقابل حمايتها لها وبسط سلطانها عليها، ومنع ما قد يقع من اعتداء من قبائل اخرى عليها.

وقد كانت هذه الاحلاف تدوم ما دامت المصالح متشابهة، فاذا اختل التوازن بين المتحالفين، أو وجد أحد الطرفين أن مصالحه تقتضي الانضمام الى حلف آخر، فسخ ذلك العقد، وعقد حلفاً آخر، وحالف قبائل أخرى قد تكون معادية لقبائل الحلف السابق، ويقال لفسخ الأحلاف (الخلع).[٢]

وهكذا كانت الحياة السياسية في الجاهلية: أحلاف تتكون وأخرى قديمة تنحل. ولا سيما اذا كانت قد تكونت من قبائل لا رابطة دموية بينها ولا اشتراك في المواطن، وانما كانت عوامل مؤقتة وأحوال طارئة اقتضت تكتلها، ثم اقتضت انحلالها لزوال تلك الأسباب.

وتعقد الاحلاف احياناً بين عشائر وبطون قبيلة واحدة، تعقد على نمط الأحلاف التي تعقد بين القبائل. وقد يعقد الحلف بين عشائر وبطون قبيلة، وبين عشائر وبطون قبائل غريبة. وذلك بسبب حدوث مشاحنات ومنافسات بين عشائر وبطون القبيلة، فتتكتل العشائر والبطون وتتحزب وقد تتقاتل، وتضطر عندئذ الى تأليف أحلاف بينها لتتغلب بها على العشائر والبطون المنافسة. ومثل هذه الاحلاف تضعف القبيلة وتؤدي الى تصدعها ما لم يتدارك أمرها أصحاب الرأي والسداد فيتولوا

١ وادكروا حلف دي المحاز وما قد م فيه العهود والكفلاء
شرح المعلقات السبع، للزوزني (ص ١٦٦).
٢ Muh. Stud., I. S., 68.

اصلاح ما قد وقع بين رجال القبيلة من فساد وتهدئة الحال حفظاً لمصلحة القبيلة. ونجد أمثلة من هذا القبيل عند أهل الاخبار.

ولم يكن من الواجب على كل أحياء قبيلة، الاشتراك في الاحلاف التي تعقدها غالبية أحياء تلك القبيلة. فقد اعتزلت (حنيفة) الحلف الذي عقدته قبائل (بكر) في الجاهلية. لأنها كانت من أهل المدر، وكان الحلف في أهل الوبر. فلما جاء الاسلام، دخلت في (عجل)، وصارت لهزمة.[1]

وكان في العرف الجاهلي أن الاحياء التي تتحضر من قبيلة ما، لا تدخل في الاحلاف التي تعقدها الاحياء المتبدية، لاختلاف الحالة، لا سيما اذا كانت المواطن بعيدة. فالحضارة تبعد الاعراب عمن يتحضر منهم. الا اذا وجدت مصالح خاصة، والمصالح اساس التعامل.

ونظراً الى ما للحلف من قدسية في النفوس، أصبح من المعتاد عقده في مراسيم مؤثرة ورد وصفُ بعضها في الاخبار، مثل حلف (المطيّبين) الذي عقد في مكة بعد اختلاف بني عبد مناف وهاشم والمطلب ونوفل مع بني عبد الدار بن قُصَيّ، واجماعهم على أخذ ما في أيدي بني عبد الدار مما كان قُصَيّ قد جعله فيهم من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة، فعقد كل قوم على أمرهم حلفاً مؤكداً، على ألا يتخاذلوا، ولا يسلم بعضهم بعضاً (ما بَلّ بحرٌ صوفةً)، فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً، فيزعمون أن بعض نساء بني عبد مناف أخرجتها لهم، فوضعوها لاحلافهم في المسجد عند الكعبة، ثم غمس القوم أيديهم فيها، فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم، ثم مسكوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم، فسُمُّوا المطيبين، وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند الكعبة حلفاً مؤكداً على ألا يتخاذلوا، ولا يسلم بعضهم بعضاً، فَسُمّوا الاحلاف.[2]

١ النقائض (٧٢٨)، تاج العروس (٩/٦٩)، (لهزم).

٢ ابن هشام (١/١٤٣ وما بعدها)، ابن الأثير، الكامل (١/١٨٣)، الطبري (١/١١٣٨) (ليدن)، اللسان (١٠/٤٠٠)، المعارف (٢٠٤) (طبعة وستنفلد)، اليعقوبي (١/٢٨٧) (هوتسما)، التنبيه (١٨٠) (طبعة الصاوي)، تاج العروس (٦/٧٥)، (حلف).

(والأحلاف ست قبائل : عبـد الدار ، وجمح ، ومخزوم ، وبنو عدي ، وكعب ، وسهم) . [1]

ومن هـذا القبيل حلف الفضول ، اذ تداعت قبائل من قريش الى حلف وتعاهدوا وتعاقدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من اهلها ومن غيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عنه مظلمته ، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول . [2] وهو من الاحلاف التي ظل الناس يحترمون أحكامها حتى في الاسلام . وقد عقد على هذه الصورة : اجتمعت بنو هاشم وأسد وزهرة وتيم في دار عبد الله بن جدعان ، وصنع لهم طعاماً كثيراً ، ثم (عمدوا الى ماء من ماء زمزم فجعلوه في جفنة ، ثم بعثوا به الى البيت فغسلت به أركانه ، ثم أتوا به فشربوه) . [3]

وأضيف الى هذه الاحلاف ، حلف (الرباب) . وهو حلف عقـد بين المتحالفين بادخال أيديهم في (رُبّ) وتحالفوا عليه ، أو لانهم جاؤوا بربّ فأكلوا منه ، وغمسوا أيديهم فيه ، وتحالفوا عليه . فصاروا يداً واحدة ، وقيل : لأنهم اجتمعوا كاجتماع الربابة ، وهم : تيم وعديّ وعُكْل ومُزَيْنَة وضبّة ، او : ضبّة وثور ، وعُكْل ، وتيم ، وعديّ . [4]

ومن تلك الاحلاف ، حلف لَعَقَة الدم . وقد عقد على أثر تخاصم القبائل من

١ اللسان (٩/٥٤) ، ابن هشام ، سيرة (١/٨٤) ، البداية والنهاية (٢/٢٠٩) ، ابن الأثير ، الكامل (١/٢٦٧) ، المسعودي ، التنبيه (١٨٠) ، المروج (٢/٥٩) ، ابن خلدون (٢/٦٩٤) ، المحبر (١٦٦) ، تاج العروس (٦/٧٥) ، القاموس (٣/٢٨٠) ، النويري ، نهاية الأرب (١٦/٣٥) ، المعارف (ص ٢٠٤) (طبعة هوتسما) ، دائرة المعارف الاسلامية (٨/٤٩) (الترجمة العربية) ، لسان العرب(٩/٥٤) .
Caetani, Annali, Vol., I, Intro., 120, 2, I, Anno., 8, 20-21, Ency.; 2; P. 307.

٢ ابن هشام (١/١٤٥) ، الأغاني (١٦/٦٤ وما بعدها) ، المعارف (٢٠٤) (طبعة هوتسما) ، الاشتقاق (١١١) (طبعة وستنفلد) ، العقد الفريد (٢/٤١) ، اللسان (١٠/٣٩٩) ، السيرة الحلبية (١/١٤٦) ، تاريخ الخميس (١/٢٦١) ، المحبر (١٦٧) ، عيون الأثر (١/٥٢) .

٣ الأغاني (١٦/٦٤) .

٤ الاشتقاق (١١١) ، الصحاح (١/١٣١) ، اللسان (١/٣٨٨ ، ٤٠٣) ، تاج العروس (١/٢٦٤) ، الأغاني (٩/١٤) ، العقد (٢/٥٩) .

قريش في وضع الحجر الأسود في موضعه . فلما استعدت للقتال (قربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لُؤيّ على الموت ، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة ، فسموا (لَعَقَة الدم) .[1] ويظهر أن عقد الحلف بادخال الأيدي في الدم من المراسيم المعروفة . وقد عرف قوم من بني عامر بن عبد مناة بن كنانة بلعقة الدم . وكانوا ذوي بأس شديد .[2] وجاء أن خَثْعَماً انما سُموا خثعماً لانهم غمسوا ايديهم في دم جزور .[3]

وتعقد الاحلاف على النار كذلك ، وقد وصف (هيرودوتس) طريقة من طرق التحالف والمؤاخاة والمحافظة على العهود عند العرب ، فذكر أن العرب محافظون على العهود والمواثيق محافظة شديدة ، لا يشاركهم في ذلك أحد من الأمم ، ولها قداسة خاصة عندهم ، حتى تكاد تكون من الامور الدينية المقدسة . واذا ما أراد أحدهم عقد حلف مع آخر ، أوقفا شخصاً ثالثاً بينهما ليقوم باجراء المراسيم المطلوبة في عقد الحلف ، ليكتسب حكماً شرعياً ، فيأخذ ذلك الشخص حجراً له حافة حادة كالسكين يخدش به راحتي الشخصين قرب الإصبع الوسطى . ثم يقطع قطعة من ملابسهما فيغمسها في دمي الراحتين ، ويلوث بها سبعة أحجار . ويكون مكان هذا الشخص الذي يقوم باجراء هذه الشعائر في الوسط ، يتلو أدعية وصلاة للإلهين (باخوس) (Bachus) و (اورانيا) (Urania) ، حتى اذا انتهوا منها قاد الحلف حليفه الى أهله وعشيرته لإخبارهم بذلك ، وللاعلان عنه ، فيصبح الحليف أخاً له وحليفاً ، أمرهما واحد بالوفاء .[4]

وما ذكره (هيرودوتس) عن عقد العرب احلافهم على النار ، هو صحيح على وجه عام . يؤيده ما ذكره اهل الأخبار عن (نار التحالف) . وقولهم : كان أهل الجاهلية اذا أرادوا أن يعقدوا حلفاً ، اوقدوا ناراً وعقدوا حلفهم

---

١ ابن هشام (١/٢١٣) ، عيون الأثر ، لابن سيد الناس (١/٥٢) ، أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر (١/١١٤) ، تاج العروس (٧/٦٢) ، القاموس (٣/٢٨٠) ، نسب قريش (٢٨٣) .

٢ الأغاني (٧/٢٦) .

٣ المفضليات (ص ٧٠٥) (واشتقاق خثعم فيما ذكر ابن الكلبي أنهم نحروا جزورا ، فتخثعموا عليه بالدم ، أي تطلوا به) ، الاشتقاق (٢/٣٠٤) .

٤ Harodotus, Vol., I, P. 213, (Rawlinson).

عندها ، ودعوا بالحرمان والمنع من خيرها على من ينقض العهد ، ويحل العقد ، وكانوا يطرحون فيها الملح والكبريت ، فاذا استشاطت ، قالوا للحالف : هذه النار تهددتك ، يخوفونه بها حتى يحافظ على العهد والوعد ، ولا يحلف كذباً ، ويضمر غير ما يظهر . ولذلك عرفت هذه النار بنار التحالف . وهي نار يقسم المتخاصمون عليها كذلك ، فان كان الحالف مبطلاً نكل ، وان بريئاً حلف ولهذا سموها أيضاً (نار المهول) و (الهولة) [1] . وذكر أنهم كانوا لا يعقدون حلفاً الا عليها . وقد أشار الى هذه النار (أوس بن حجر) ، اذ قال :

اذا استقبلته الشمس ، صدّ بوجهه كما صدّ عن نار المهوّل حالف

كما أشار اليها الكميت :

هُمو خوّفوني بالعمى هُوّة الردى كما شبّ نار الحالفين المهوّل [2]

وقد ذكر أهل الاخبار حلفاً سموه : (حلف المحرقين) ، وزعموا أن المتحالفين تحالفوا عند نار حتى أمحشوا أي احترقوا ، وأن (يزيد بن أبي حارثة ابن سنان ، وهو أخو هرم بن سنان الذي مدحه زهير ، بمحش المحاش ، وهم بنو خصيلة بن مرة وبنو نشبة بن غيظ بن مرة على بني يربوع بن غيظ بن مرة رهط النابغة ، فتحالفوا على بني يربوع على النار ، فسُمّوا المحاش بتحالفهم على النار . [3] وزعموا أن المحاش القومُ يجتمعون من قبائل شتى ، فيتحالفون عند النار . [4]

وذكر علماء اللغة أن (المحاش) : القوم يجتمعون من قبائل يحالفون غيرهم من الحلف عند النار . وكانوا يوقدون ناراً لدى الحلف ليكون أوكد . وقد أشير الى ذلك في شعر للنابغة ، اذ يقول :

جمع محاشك يا يزيد ، فإنني أعددت يربوعاً لكم ، وتميما

قيل : يعنى صرمة وسهماً ومالكاً بني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض وضبة بن سعد ، لانهم تحالفوا بالنار ، فسموا المحاش . [5]

---

١ صبح الأعشى (٤٠٩/١) ، اللسان (٧٠٣/١١) ، سبائك الذهب ، للسويدي (١١٩) ، بلوغ الأرب (١٦٢/١) .
٢ نهاية الأرب (١١١/١) .
٣ اللسان (٢٣٨/١٤) ، و (ورد غيط) و (غيظ) .
٤ تاج العروس (٣٨٤/٤) .
٥ اللسان (٣٤٤/٦ وما بعدها) ، (محش) ، تاج العروس (٣٤٨/٤) ، (محش) .

وقريب من هذا ما كانت تفعله قريش حين تعقد حلفاً ، فيأخذ الحليف حليفه الى الكعبـــة ، ثم يطوفان بالأصنام لإشهادها على ذلك ، ثم يعود الحليف بحليفه لاشهاد قريش ومن يكون في الكعبة آنئذ على صحة هذا الحلف ، وقبوله محالفة الحليف ، اذ أصبح وله ما له وعليه ما عليه ، وعلى قومه حمايته حمايتهم له . وقد ذكرت كتب السيرة والاخبار والأدب طرفاً من اخبار المحالفات التي كانت تعقد بمكة وكيفيتها وبعض المراسيم التي تمت فيها .

ولا تعرف صيغة واحدة معينة للقسم الذي يقسم به المحالفون . فمنهم من أقسم بالاصنام التي يعبدونها ويقفون عندها حين يعقدون الحلف . ومنهم ، وهم أغلب أهل مكة ، من كانوا يحلفون عند الركن من الكعبة ، فيضع المتحالفون أيديهم عليه ، فيحلفون . وقد ذكر أن قَسَمَ قريش والاحابيش عند الركن يوم تحالفوا وتعاقدوا ، حلفوا (بالله القاتل وحرمة البيت والمقام والركن والشهر الحرام على مصر على الخلق جميعاً حتى يرث الله الارض ومن عليها ، وعلى التعاقد والتساعد على من عاداهم من الناس ما بلّ بحرٌ صوفةً ، وما قام حراء وثبير ، وما طلعت شمس من مشرقها الى يوم القيامة) . [1]

ومنهم من أقسم بالآباء والاجداد ، لما لهم من مكانة ومقام في نفوسهم . ومنهم من حلف وعقد الحلف عند المشاهد العظيمة ، أو في معابد الاصنام ، أو عند قبور سادات القبائل المحترمين ، فيحلفون بصاحب هذا القبر ويذكرون اسمه على التعاقد والتآزر أو على ما يتفق المتحالفون عليه ، وعلى الوفاء بالعهد . وقد روي أن النبي أدرك (عُمَرَ) في رَكْب وهو يحلف بأبيه ، فنادى رسول الله : (اما ان الله عزّ وجلّ ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم . من كان حالفاً ، فليحلف بالله ، أو يصمت) . [2]

وفي كتب أهـــل الاخبار والأدب اسماء قبائل يظهر أنها كانت أسماء أحلاف عقدت في مراسيم خاصة ، يمكن الوقوف عليها وتعيينها من دراستها والوقوف على معانيها ، مثل الرباب والمحاش وما شاكل ذلك من أسماء .

ومن عاداتهم في عقد الاحلاف ما ذكرته من التحالف على الطيب أو النار أو

١ اليعقوبي (١/٢١٢) .
٢ التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول ، للشيخ منصور على ناصف (٣/٧٤) .

القسم عند صنم . (وفي حديث الهجرة : وقد غمس حلفاً في آل العاص ، أي أخذ نصيباً من عقدهم وحلفهم يأمن به . وكان عادتهم أن يحضروا في جفنة طيباً أو دماً أو رماداً ، فيدخلون فيه أيديهم عند التحالف ليتم عقدهم عليه باشتراكهم في شيء واحد)[1] . وحلفوا بالملح وبالماء . (قال ابن الاعرابي) : (والعرب تحلف بالملح والماء تعظيماً لهما) .[2] ومن المجاز (ملحه على ركبته) ، بمعنى قليل الوفاء .[3] وحلفوا بالخبز والملح ، وعلى من يأكل خبز وملح شخص الوفاء لذلك الشخص . ولا يجوز الاعتداء على من أكل خبز وملح قبيلة . وعليها الدفاع عنه وأخذ حقه ممن ظلمه من أهل تلك القبيلة .

وتدوّن الاحلاف احياناً لتوكيدها وتثبيتها ، وتحفظ عند المتعاقدين ، وقد تودع في المعابد ، كالذي روي في خبر (صحيفة قريش) يوم تآمر المشركون وتحالفوا على مقاطعة (بني هاشم) في شعبهم ، اذ كتبوا صحيفة بما اتفقوا عليه ، ثم أودعوها كما يقول أهل الاخبار جوف الكعبة ، وكالذي ورد من تحالف ذبيان وعبس وتدوينهم ما تحالفوا عليه في كتاب ، وتعاهدوا وأقسموا على اتباع ما كتب فيه ، والعمل به ، والى ذلك أشير في شعر قيس[4]

ونجد في شعر (زهير) :

الا أبلغ الاحلاف عني رسالة وذبيان : هل أقسمتم كل مقسم ؟

اشارة الى قسم أخذ من المتعاقدين ، ليلتزموا الوفاء بما تحالفوا عليه ، وهم (الاحلاف) . كما نجد في شعر الحارث بن حلزة اليشكري :

واذكروا حلف ذي المجاز وما قد م فيه العهود والكفلاءُ
حذر الجور والتعدّي ، وهل ينـ ـقض ما في المهارق الاهواءُ

اشارةً الى العهود والرهائن التي أخذت من (بني تغلب) و (بني بكر) للوفاء بما توافقوا وتعاهدوا عليه ودوّنوه من شروط على (المهارق) ،

١ تاج العروس (٤/٢٠٣) ، اللسان(٦/١٥٧) ، (غمس) .
٢ تاج العروس (٢/٢٣٠) ، (ملح) .
٣ قال مسكين الدارمي :
لا تلمها انها من نسوة ملحها موضوعة فوق الركب
أي هذه قليلة الوفاء ، تاج العروس (٢/٢٣٠) ، ملح .
٤ لعمري لقد حالفت ذبيان كلها وعبساً على ما في الأديم المملد
شعر قيس (٢١) .

أي القراطيس ، توكيداً لما اتفقوا عليه مشافهة . وكان الملك (عمرو بن هند) ، قد أصلح بين الطرفين بحلف ، سمّي حلف ذي المجاز ، فأخذ عليهم المواثيق والرهائن[1] .

ويوثق ما اتفق عليه عن عهود وأحلاف ومواثيق ، رؤساء الأطراف المتعاقدة ، بأن تدوّن أسماؤهم وتختم بخواتيمهم ، لتكون شهادة بصحة ما اتفق عليه ، كما يفعل المتعاهدون على صحة العقد ، وعلى صحة الخواتيم ، وبأن ما اتفق عليه كان بحضورهم ، وبأنهم شهود على كل ذلك .

وفي أخبار أهل الأخبار شواهد تشهد بتدوين الجاهليين لعقود الأحلاف. ورد في شرح (التبريزي) على المعلقات قوله في معرض شرحه لمعلقة (الحارث بن حلزة اليشكري) : إن كانت أهواؤكم زيّنت لكم الغدر والخيانة بعد ما تحالفنا وتعاقدنا ، فكيف تصنعون بما هو في الصحف مكتوب عليكم من العهود والمواثيق والبيّنات فيما علينا وعليكم[2] ؟ وورد ان أهل الجاهلية (كانوا يدعون في الجاهلية من يكتب لهم ذكر الحلف والهدنة تعظيماً للأمر ، وتبعيداً من النسيان)[3] . وورد في شعر ينسب الى (درهم بن زيد الأوسي) ، ما يفيد بوجود صحف مكتوبة بعهود عقدت بين الأوس والخزرج[4] . ووردت اشارة الى (الصحف) : صحف العهود والمواثيق في شعر للشاعر : قيس بن الخطيم[5] .

وروي انه قد كان عند (عمر بن ابراهيم) من ولد (أبرهة بن الصباح) الحبشي المعروف ، كتاباً دوّن (الدينوري) صورته ، فيه حلف اليمن وربيعة في حكم الملك (تبع بن ملكيكرب) . وقد دون بشهر رجب الأصم[6] . وهو كتاب يظهر انه دوّن في الاسلام ، وان واضعه لم يكن له علم بأحوال اليمن في

١ شرح القصائد العشر ، للزوزني (٣٤٥) ، شرح القصائد السبع (٢٠١) ، الحيوان ، للجاحظ (٦٩/١ وما بعدها) ، المعرب للجواليقي (٣٠٣) .
٢ شرح المعلقات (٢٦٨ وما بعدها) .
٣ الحيوان ، للجاحظ (٦٩/١ وما بعدها) .
٤ وان ما بيننا وبينكم حين : يقال : الأرحام والصحف
ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلي (ص ٦٦) .
٥ ديوان قيس بن الخطيم (١٩) .
٦ الأخبار الطوال (٣٥٤) .

ذلك العهد . على كلّ ، فإنه يشير الى وجود تدوين العهود عند الجاهليين . ولما تحالفت قريش على مقاطعة (بني هاشم) و (بني المطلب) كتبت كتاباً بما اتفقت عليه ، كتبه (منصور بن عكرمة العبدري) ، وذكر انه حفظ عند (أم الجُلاّس بنت مُخربة الحنظلية) خاله أبي جهل ، وذكر انه علق في جوف الكعبة[1] .

وشهادات الشهود على صحة العقود أو الأوامر ، معروفة عند أهل اليمن ، إذْ وردت في الأوامر الملكية التي أصدرها ملوك اليمن وفي قوانينهم التي كانوا يصدرونها لأتباعهم . وقد عرفت عند أهل مكة ، وهم قوم تجار وأصحاب مصالح ، ولهم عقود ومواثيق ومعاهدات مع غيرهم من أهل القرى وسادات القبائل . وفي القرآن الكريم ألفاظ لها صلة بالشهادة والشهود ، منها : (شهدتم) ، و (شهدوا) ، و (أشهد) و (تشهد) ، و (تشهدون) ، و (شاهد) ، و (الشهادة) ، وقد أمر بوجوب المحافظة على الشهادة وعدم كتمانها : (ولا تَكْتموا الشَهادَةَ ، ومن يكتمها فإنه آثم قَلْبُهُ)[2] .

ولما كانت مراسيم الأحلاف من المراسيم المهمة ومن الأحداث الخطيرة ، اقترنت من أجل ذلك بتقديم الطعام للمتحالفين . فيجلس المتحالفون من جميع الفرقاء على مائدة واحدة كالذي ذكرته من تقديم عبد الله بن جدعان الطعام للمتحالفين يوم عقدوا (حلف الفضول) . وقد تكون الوليمة نفسها مظهراً من مظاهر مراسيم عقد الأحلاف ، لما للخبز والملح من أثر عند العرب . فعلى من يأكل خبز رجل وملحَه ان يمرّ به ويوفي له ، ولهذا يعنف الإنسان الإنسانَ الغادر ويوبخه ، لأنه لم يراع حرمة الخبز والملح ، وهي حرمة تكاد تصل الى حرمة الدم والرحم .

يتبين مما تقدم ان العرب كانت ترى توكيد الأحلاف بكسوتها بقدسية خاصة ، وذلك بعقدها مراسيم ذات صبغة دينية . وقد راعت في تلك المراسيم جهد إمكانها إيلاج ما يوضع في تلك المراسيم الى أجسام المتحالفين ، وكأنهم أرادوا بذلك ادخال القسم وما حلف عليه في جسم المتحالفين ، ولهذا كان الذين يغمسون اصبعهم في جفنة الدم أو في دم الجزور ، يلطعون إصبعهم ، وكان الذين يغمسون

١ ابن سعد ، طبقات (٢٠٨/١ وما بعدها) .
٢ البقرة ، الآية ٢٨٣ .

أصابعهم في الطيب يلطعون أصابعهم أيضاً ، وكان الذين يقسمون على الماء المقدس يشربون من ذلك الماء ؛ وكان الذين يجرحون أيديهم ويعقدون الحلف يضعون راحتي المتحالفين اليمنى إحداهما فوق الأخرى ، الى آخر ذلك من مظاهر توحي ان المتحالفين لم يكونوا قد فعلوا ذلك عبثاً ومن غير هدف ولا قصد ، بل أرادوا من كل ذلك التأثير في المتحالفين وجعلهم يشعرون بأن حلفهم هذا أي قسمهم على التحالف لتنفيذ ما اتفق عليه قد صار جزءاً من جسمهم ، وقد حل في دمهم ، كما يحل الدم والخبز في دم الجسم .

وتعقد الأحلاف الخطيرة المهمة أمام الأصنام وفي المعابد في الغالب ، وذلك كي تكتسب قدسية خاصة . ويشرف على عقدها سادن الصنم ، وقد يساعده مساعدون ، ليقوموا بمساعدته في إتمام المراسيم .

ويكون بين قبائل الحلف سلم وود ، لذلك يستطيع أبناء القبائل المتحالفة المرور بمواطن هذه القبائل غير خائفين ، وتمر قوافلهم بأمان لا يُتعرضُ لها ، ولا تجبى إلا على وفق ما اتفق عليه وجرت عليه عادة المتحالفين . وعلى أبناء هذه القبائل حماية من يجتاز بأرضهم وتقديم المساعدات له واضافته ودفع الأذى عنه ، وإذا وقع عليه اعتداء من قبائل غريبة فعليه مساعدته والذب عنه واستصراخ قومه لنجدته ، لأنهم من حلف واحد . وعلى الإنسان ان يتعصب للحلف تعصبه لقبيلته .

ويلاحظ ان الأحلاف إذا طالت وتماسكت ، أحدثت اندماجاً بين قبائل الحلف ، قد يتحول الى النسب . بأن تربط القبائل والعشائر الضعيفة نسبها بنسب القبيلة البارزة المهيمنة على الحلف . وينتمي الأفراد الى سيد تلك القبيلة البارزة ، فتدخل أنسابها في نسب الأكبر . وفي كتب الأنساب والأدب أمثلة عديدة على تداخل الأنساب ، وانتفاء قبائل من أنسابها القديمة ودخولها في أنساب جديدة .

ويؤدي انحلال الحلف أو انحلال عقد عشائر القبيلة الذي هو في الواقع حلف سمي (قبيلة) الى انحلال الأنساب وظهور أنساب جديدة ، فان القبائل المنحلة تنضم الى حلف جديد ، فيحدث ما ذكرته آنفاً من تولد أنساب جديدة ، ومن تداخل قبائل في قبائل أخرى ، وأخذها نسبها . ومن هنا قال (كولد زيهر) : إنه لفهم الأنساب عند العرب ، لا بد من معرفة الأحلاف والتحالف ، فإنها تكوّن القبائل ، لأن أكثر أسماء أجداد القبائل هي أسماء أحلاف ، ضمت عدداً

من القبائل توحدت مصالحها فاتفقت على عقد حلف فيما بينها على نحو ما مر [1] .

وفي كتب الأنساب والأدب أدلة عديدة معروفة على أسماء أحلاف ، مشت بين الناس وفشت وشاعت حتى صارت كأنها نسب من الأنساب . من ذلك (الأحلاف) و (المطيبون) . جاء (ابن صفوان) الى (عبد الله بن عبّاس) ، فقال له : (نعم الإمارة إمارة الأحلاف ، كانت لكم) فقال (ابن عبّاس) : (الذي كان قبلها خيراً منّا . كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، من المطيبين ، وكان عمر من الأحلاف) يعني (إمارة عمر) [2] . وقيل لعمر : أحلافي ، لأنه عَدَويّ . والأحلاف صار إسماً لهم كما صار الأنصار إسماً للأوس والخزرج [3] .

وقد أشرت سابقاً الى اسم (تنوخ) . و (الأحابيش) ، حلف عقد عند جبل حبش بأسفل مكة ، فعرف المتحالفون به . وهم (بنو المصطلق ، والحَيا ابن سعد بن عمرو ، وبنو الهون بن خزيمة) ، وذلك على حدّ قول أكثر أهل الأخبار [4] .

و (الرباب) حلف أيضاً ، ضم خمس قبائل ، هي : تيم ، وعديّ ، وعُكْل ، ومزينة ، وضبّة ، ولكنه سار بين الناس ومشى وكأنه اسم جماعة ترجع الى نسب واحد [5] . وأما (الأحلاف) ، الذين ورد اسمهم في شعر (زهير ابن أبي سلمي) ، فهم (أسد) و (غطفان) ، ويقال لحلفهما المذكور أيضاً (الحليفان) [6] . و (الأحلاف) : كذلك قوم من (ثقيف) [7] .

لقد تركت الأحلاف أثراً مهماً في الحياة السياسية والاجتماعية عند العرب قبل

---

١ Muh. Stud., I, S., 64.

٢ اللسان (٩/٥٤) (ببروت) ، (وفى حدس ابن عباس : وجدنا ولاية المطيبي خبرا من ولاية الأحلافى ٠)يريد أبا بكر وعمر ٠ بريد أن أبا بكر كان من المطيبين ، وعمر من الأحلاف ٠

٣ اللسان (٩/٥٤) ، ناح العروس (٦/٧٥) ، المعارف (٦١٦) ٠

٤ اليعقوبي (١/٢١٢) ، البلدان (٢/٢٢٥) ٠

٥ الاشتقاق (ص ١١١) ، اللسان (١/٤٠٣) ٠

٦ شرح القصائد العشر ، للتبريزي (٢١٩) ، شرح ديوان زهير ، لثعلب (١٥) ، اللسان (٩/٥٤) ٠

٧ اللسان (٩/٥٥) ، ناح العروس (٦/٧٥) ، الصحاح (٤/١٣٤٦) ٠

الإسلام وعند العرب في الإسلام كذلك ، على الرغم من الحديث المنسوب الى الرسول الذي يناهض الحلف : (لا حلف في الإسلام)[1] . وقد أدرك الرسول ، ولا شك ، ضررها بالمجتمع العربي إذ كانت من أسباب التفريق ، فحلّ الأحلاف وأحل الدولة مكانها ، وحتم على القبائل إطاعة الرسول أو من يقوم مقامه من المسلمين .

وأما ما رواه (قيس بن عاصم) من ان الرسول قال : (لا حلف في الإسلام ، ولكن تمسكوا بحلف الجاهلية) ، فالظاهر انه قصد بذلك الجوار[2] . وقد أكد الإسلام احترام الجار ، ووجوب الدفاع عنه ، كما أيد الأحلاف الجاهلية التي تدعو الى الخير ونصرة الحق . أما الممنوع ، فما خالف حكم الاسلام ، ودعا الى الهلاك والضرر والفتن والقتال ، فذلك الذي ورد النهيّ عنه في الاسلام[3] .

واستعمل الجاهليون لفظة (حبل) و (حبال) للعهود والمواثيق . فـ (الحبل) هو العهد والذمة والأمان ، وهو مثل الجوار . وكان من عادة العرب في الجاهلية ان يخيف بعضهم بعضاً ، فكان الرجل إذا أراد سفراً أخذ عهداً من سيّد كل قبيلة ، فيأمن به ما دام في تلك القبيلة ، حتى ينتهي الى الأخرى ، فيأخذ مثل ذلك أيضاً ، يريد به الأمان . فهذا حبل الجوار ، أي ما دام مجاوراً أرضه . وفي هذا المعنى جاء قول الأعشى :

واذا تجوّزها حبال قبيلة أخذت من الأخرى اليك حبالها

وجاء في الحديث : (بيننا وبين القوم حبال) ، أي عهود ومواثيق . وفي هذا المعنى ، أي العهد والذمة والأمان ، جاء :

ما زلت معتصماً بحبل منكُمُ مَن حَلّ ساحتكم بأسبابٍ ، نجا[4]

١ تاج العروس (٦/٧٥) ، النهاية في غريب الحديث (١/٢٤٩) ، اللسان (٩/٥٣) ، الكامل ، لابن الأثير (١/٢٦٧) .
٢ الأغاني (١٢/١٥١) .
٣ اللسان (١/٥٤) ، النهاية في غريب الحديث (٣/١٤٣) .
٤ اللسان (١١/١٣٤ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٤/٣٠) ، روح المعاني ، للألوسي (٤/١٧) ، تفسير الرازي (٨/١٧٣) ، جامع احكام القرآن ، للقرطبي (٤/١٥٨) .

وقد استفادت قريش من (الحبال) التي عقدتها بينها وبين القبائل ، إذ أمنت بذلك على تجارتها ، وقد كانت واسعة تشمل كل جزيرة العرب ، وتتصل بالعراق وببلاد الشأم ، فصارت قوافلها العامة والخاصة تمرّ بأمن وسلام من كل مكان بفضل حنكة سادة مكة وذكائهم في تأليف قلوب سادات القبائل وربطهم بهم بعهود ومواثيق . جعلت التحرش بقوافلهم من الأمور الصعبة ، واذا طمع بها طامع أدبه سيد قبيلته الذي يخضع له .

ولقريش ولغيرها أحلاف مع أسر وأفراد . فقد كان لـ (بني دارم) من تميم حلف مع (بني عبد مناف) من قريش . وكان لـ (عكاشة بن محصن) حلف مع رجال من مكة . روي ان رسول الله قال : (منا خير فارس في العرب : عكاشة بن محصن . فقال ضرار بن الأزور الأسدي ذاك رجل منا يا رسول الله . قال : بل هو منا بالحلف . فجعل حليف القوم منهم . كما جعل ابن أخت القوم منهم)[1] . وكان للأخنس بن شريق ، وهو رجل من ثقيف ، وكذلك (يعلى بن منبه) ، وهو رجل من (بلعلويّة) ، وكذلك (خالد ابن عرفطة) وهو رجل من عذرة حلف مع قريش ، فصاروا منها بالحلف . ذلك لأن (حليف القوم منهم ، وحكمه حكمهم)[2] .

وقد يقع أسير في أسر آسر ، فلا يتمكن من فداء نفسه ، ثم يطلب من آسره ان يكون حليفاً له ، فإذا قبل آسره منه ذلك ، صار في حلفه وفي حلف قبيلته . أي يكون ذلك الشخص حليفاً لقبيلة آسره . ويكون حكمه بالنسبة للإرث ، إنه يرث من القبيلة كما يرث الصريح من أبنائها . أما إذا قتل ، فديته نصف دية الصريح[3] . وكان (معيقيب بن أبي فاطمة) حليفاً لبني أسد ، وكان يكتب مغانم الرسول[4] .

التخالع :

واذا أراد المتحالفون انهاء حلفهم وعهدهم الذي تعاهدوا عليه بينهم ، أعلنوا

---

١ مناقب الترك ، من رسائل الجاحظ (١٣/١) ، (تحقيق عبد السلام هارون) .
٢ مناقب الترك (١٢/١ وما بعدها) .
٣ تاريخ التمدن الاسلامي (٢٣/٤) .
٤ الجهشياري (١٢) ، (القاهرة ١٩٣٨) .

عن ذلك ، وكتبوا به كتاباً ، ليكون مشعراً بتخالعهم ، وانهم نقضوا الحلف الذي كان بينهم ، فتسقط بذلك كل مسؤولية تولدت عن الوفـــاء بذلك الحلف أو العهد ، فلا يطالب طرفٌ الطرف الثاني بالوفاء به . ورد في كتب اللغة : وتخالعوا : نقضوا الحلف والعهد بينهم وتناكثوا [1] .

ويكون التخالع باتفاق الطرفين عليه ، وبرضائهما عنه . أما إذا نكل طرف واحد بتنفيذ ما جاء في الحلف، أو أعلن عن انسحابه منه ساعة الحاجة اليه، كأن يتبرأ منه في وقت يكون فيه حليفه في شدة وضيق ، عدّ ذلك غدراً وخيانـة ، لتلكؤه عن تنفيذ ما اتفق عليه . وليس الغدر من سجايا إنسان شريف .

وقد كان للحلف أثر مهم في تلاحم الأنساب وفي انفكاكها وتجزُّئها ، وطالما نقرأ في الكتب عبارات تشير الى تلاحم الأنساب وتداخلها بسبب العوامل المتقدمة . مثل : (ومنهم سليم بن عباد . كان حليفاً لأبـي طالب . وولده اليوم يدعون في آل أبـي طالب) [2] .

والأحلاف بنوعيها أحلاف القبائل وأحلاف الأفراد قد لا تدوم أمداً طويلاً ، ولا سيا أحلاف القبائل ، فالقبائل في تنقل وحركة ، ومصالحها وضرورات الحياة عندها متغيرة غير ثابتة ، وهي قلقة غير مستقرة . وأحلاف تقوم على مثل هذه الأسس لا يمكن ان تدوم وتعمر ، ولا سيا إذا ما تشتت شمل الحلف ، وتنقلت قبائله ، وتحولت الى أماكن بعيدة . فتضعف الروابط والصلات التي تجمـــع بين شملها ، ثم ترخى وتزول ولا يبقى من الحلف غير الاسم . تزول بغير تخالع ولا تقاتل أو تباغض ، تزول لأن الظروف التي دعت الى عقدها ، تكون قد زالت وتغيرت ولأن التباعد قد بَرّدَ من نار الحب التي كانت قد قاربت بين القلوب فجعلها تنسى ذلك الحب ، ولا تذكره إلا عندما تتذكره .

اخاء القبائـــل :

وإخاء القبائل ، هو إخاء اصطناعي ، وان عدّه أهل الأنساب والأخبار اخاءً

---

١ اللسان (٧٦/٨ ح ، (صادر) ، (خلع) ، تـاج العروس (٣٢٢/٥) ، (خلع) .
٢ الاشتقاق (١٨٩) .

حقيقياً من اقتران والد بأم . فنحن نعلم في هذا اليوم ومن قراءاتنا للكتابات الجاهلية ، ومن نقدنا وغربلتنا لأخبار أهل الأخبار ولروايات أهل الأنساب ، ان التآخي ، هو في الواقع جوار ، ونزول قبيلة بجوار قبيلة أخرى ، أو نتيجة حلف تآخت قبائله واتحدت ، فعد تآخيها تآخياً بالمعنى المفهوم من الاخوة . أو حاصل تضخم قبيلة لم تعد أرضها يتسع صدرها لها ، فاضطرت عشائرها وبطونها على التنقل والارتحال الى مواطن جديدة ، وعدت نفسها لذلك من نسل تلك القبيلة التي كانت تعيش معها ، فعدّ ذلك أهل الأنساب نسباً حقيقياً بالمعنى المفهوم من النسب عندنا .

وقد تضطر بعض القبائل على ترك مواطنها والارتحال عنها ، بسبب غزو قبيلة أقوى منها لها ، فتنزل بين قبيلة جديدة وتتحالف معها ، أو تقهرها على النزول بأرضها . وفي كتب أهل الأنساب والأخبار أمثلة عديدة على ذلك . فتتداخل أنسابها ، ويتولد من ذلك نسب جديد . من ذلك ، ما يرويه أهل الأنساب عن (علك) وهو أخو (معد) على زعم أهل النسب ، فلما حارب (بختنصر) (عدنان) ، والد (معدّ) و (علك) ، هاجر أبناء (علك) نحو الجنوب فراراً من (بختنصر) وأقاموا في اليمن ، فدخل نسبهم في اليمن ، وعدّهم بعض أهل الأنساب من قحطان ، ومن ذلك قضاعة وقبائل أخرى عديدة .

الهجن :

وتزوج العرب من الإماء ، وذلك ان من الإماء من كانت جميلة الصورة حلوة المنظر والكلام ، ولهذا تزوّج ساداتهن منهن ، فولد لهم نسل ، قيل للواحد منه الهجين . والهجين : ولد العربي من غير العربية ، قيل له ذلك لأن الغالب على ألوان العرب الأدمة [1] ، ويقال للزواج الذي يقع بين عربي وأعجمية : (مهاجنة) . وقد عابته العرب وعدت الهجين دون العربيّ الصريح ، لوجود دم أعجميّ فيه . والأعاجم هم ، مهما كانوا عليه من منزلة ، دون العرب في نظر العرب [2] .

ويظهر من تعريف علماء اللغة للفظة (الهجين) ، انها خصصت بمن يولد

١ اللسان (أ/د/م) ، (٤٣١/١٣) .
٢ اللسان (أ/د/م) ، (٤٣١/١٣) .

من أم أعجمية بيضاء ، كأن تكون الأم رومية أو فارسية . فقد ذكروا ان العرب أطلقت على أولادهــا من العجميات اللائي يغلب على ألوانهــن البياض ، الهجن والهجناء ، لغلبة البياض على ألوانهم وإشباههم أمهاتهم ، فيجب ان تكون الأمهات الأعجميات إذنْ من ذوات البشرة البيضاء ، تمييزاً لهن عن ذوات البشرة السوداء من الرقيق المستورد من إفريقية . ويذكر علماء اللغة أيضاً ان العرب قالت للعجم (الحمراء) و (رفاب المزاود) ، لغلبة البياض على ألوانهم ، ويقولون لمن علا لونه البياض : أحمر [1] . وقــد هجا (حسان بن ثابت) (سعد بن أبي سرح) بأن اتهمه بأنه عبــد هجين ، أحمر اللون فاقع ، موتر عِلْباءِ القفا ، قَطَط ، جعد [2] .

والهجنة من الكلام : ما يعيبك [3] . وقد جاء هذا المعنى من الفساد الذي قد يظهر في كلام الهجن ، بسبب عجمة الأمهات وعدم اتقانهن العربية . ولما كان الخطأ في اللغة عيباً ، عدت الهجنة من الأمور المعيبة .

ويطلق العرب لفظة (رجل مولّد) على الرجل إذا كان عربياً غير محض . و (المولدة) الجارية المولودة بين العرب ، وقيل : تُولّد بين العرب وتنشأ مع أولادهم ويغذونها غذاء الولد ويعلمونها من الأدب مثل ما يعلمون أولادهــم . و (التليد) التي ولدت ببلاد العجم وحُملت فنشأت ببلاد العرب ، وقيــل : هي التي تولد في ملك قوم وعندهم أبوها [4] .

الجوار :

وللجوار حرمة كبيرة عند الجاهليين . فإذا استجار شخص بشخص آخــر ، وقبل ذلك الشخص ان يجعله جاراً ومستجيراً به ، وجبت عليه حمايته ، وحق على المجار الدفاع عن مجيره ، والذبّ عنه . وإلا عدّ ناقصاً للعهد ، ناكثاً للوعد ، مخالفاً

---

١ اللسان (٤٣١/١٣) ، الأغاني (٧٣/١٦) .
٢ أعبد هجين أحمر اللون فاقع موتر علبــاء القفا قطط جــعد
دبوان حسان (ص ١٤٩) (البرقوقى) .
٣ اللسان (هـ/ج/ن) ، (٤٣١/١٣) .
٤ اللسان (ولد) ، (٤٦٧/٣ وما بعدها) .

لحق الجوار . وعلى القبائل استجارة من يستجير بها ، والدفاع عنه دفاعهـا عن أبنائها . ويقال للذي يستجير بك (جار) . والجار الذي أجرته من ان يظلمه ظالم . وجارك المستجير بك ، والمجير هو الذي يمنعك ويجيرك . وأجاره : أنقذه من شيء يقع عليه[1] .

العصبيـة :

وأساس النظام القبلي هو العصبية ، العصبية للأهل والعشيرة وسائر متفرعات الشعب أو الجذم أو القبيلة ، أو العشيرة . ومن شروطها ان يدعو الرجـل الى نصرة عصبيته والتألب معهم على من يناوئهم ، ظالمين كانوا أو مظلومين ، وليس له ان يتساءل : أهو ظالم أم مظلوم[2] ، وهي ضرورية للقبائل ، لانها لا تستطيع ان تدافع عن نفسها إلا اذا كانت ذات عصبية ونسب ، وبذلك تشتد شوكتها ، ويخشى جانبها ، كما انه لا يمكن وقوع العدوان على أحد مع وجود العصبية . وتقوم العصبية على النسب ، وهي تختلف لذلك باختلاف درجات تقارب الأنساب ، ولذلك نجد عصبيات مختلفة[3] . وتشمل العصبية الصرحاء والموالي والجيران .

وتشمل العصبية أهل المدر كذلك ، فأهل المدر وإن تحضروا واستقروا واقاموا في بيوت ثابتة ، إلا ان نظامهـم الاجتماعي والسياسي بني على العصبية أيضاً ، فتألفت المدن والقرى من (شِعاب) ، وتكوّنت الشعاب من جماعات بينها روابط دم ووشائج قرابة . والشِعْب هو وحدة ، وهو الذي يأخـذ بحق المظلوم من الظالم ، وبظلامة من تقع عليه ظلامة . وغالباً ما تكون بـين الشعاب المتجاورة قرابة وصلة رحم ، وإذا حدث حادث لهذه الشعاب ، هبّت للنظر فيه واتخـاذ ما ينبغي اتخاذه من موقف ، ثم تكون عصبية الشعاب للمدينة أو للقريـة ثم إن سكان هذه المدن وإن تحضروا واستقروا كانوا يُرجعون أنفسهم كأهل الوبر الى

---

١ اللسان (٤/١٥٤ وما بعدها) ، تاج العروس (٣/١١١ وما بعدها) ، (جار) .

٢ (انصر أخاك ظالما أو مظلوما) ، الأمثال (٢٢) ، لسان العرب (١/٦٠٦) ، قاموس المحيط (٢/١٤٠٥) ، (للبستاني) .

٣ راجع بحث العصبية في مقدمه ابن خلدون (ص ١٠٨ فما بعدها) ، الحيـوان (١/١٦٦) .

قبائل وعشائر. فهم اذن أعراب من حيث التعصب والأخذ بالعصبية، واختلافهم عن الاعراب، هو في استقرارهم وفي عيشهم في محيط ضيق محدود وفي خطط مثبتة مرسومة.

وفي المعنى المتقدم من العصبية، ورد قول الشاعر:

اذا أنا لم أنصر أخي وهو ظـــالم   على القوم، لم أنصر أخي حين يظلَم

فالعصبية: أن يدعو الرجل عصبته الى نصرته. وهي (النصرة على ذوي القربى وأهل الارحام، أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة) [1].

وفي هذا المعنى أيضاً ورد قول الشاعر، قريط بن أنيف، حيث يقول:

قـــوم اذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهم   طـــاروا اليه زُرافات ووحدانا
لا يسألون أخـــاهم حين يندبهم   في النائبات على ما قال برهانا [2]

فهو يهبّ اذا سمع نداء العصبية حاملاً سيفه أو رمحه أو أي سلاح يملكه، وبغير سلاح، لينصر أخاه. لا يسأله: لِمَ؟ فليس من العصبية والاخوة القبلية أن تسأل أخاك عمّا وقع له، بل عليك تلبية ندائه وتقديم العون له، معتدياً كان أم معتدى عليه.

وللعصبية صلة كبيرة بالمسؤولية وبالعقوبات. فعلى درجة العصبية تقع المسؤولية. فأقرب الناس الى الجاني، يكون أول من يتناوله الأخذ بالثأر، ثم الأبعد فالأبعد. ومن هنا كان الطالبون للثأر يبدأون بالجاني أولاً. فان فاتهم أخذوا أقرب الناس رحماً به، فان فاتهم أخذوا الذي يليه أو من هو في درجته وهكذا.

وكلما بعدت العصبية عن دم الأبوين، خفت حدتها، وطبيعي ألا تكون العصبية الى القبيلة مثل العصبية الى الاهل في الشدة. ولهذا فان العصبية ترتبط بدرجة الدم والتحام النسب ارتباطاً طردياً. وهذا شيء طبيعي، وهو حاصل هذه الحياة.

ولا تمنع العصبية بطون القبيلة من مخاصمة بعضها بعضاً ومن التقاتل فيما بينها، بسبب تغلب المصالح الشخصية على عاطفة (العصبية). ومتى اصطدمت المصالح

١ اللسان (١/٦٠٦)، (عصب)، ابن خلدون، مقدمة (١٣٨).
٢ المرزوقي، شرح الحماسة (١/٢٧ وما بعدها).

بالعواطف ، تغلبت المصلحة عليها . فالمصلحة حاجة وواقع عمليّ ، والعصبية شعور ، والحاجة أقوى منها . ولهذا نجد المصلحة تدفع بطون القبيلة المتخاصمة على الاستعانة ببطون غريبة عنها ، أو بقبائل بعيدة عنها في النسب لمقارعتها أحواتها وللتغلب عليها ، مدفوعة الى ذلك بدافع المصلحة وغريزة المحافظة على الحياة . فتقاتلت بطون من طيء وتحاربت فيما بينها ، وتقاتلت قبائل بكر ووائل مع وجود النسب والدم ، وتقاتل بنو جعفر والضباب .[1] تقاتلت لظهور مصالح تغلبت على العصبية وعلى الشعور بالاخوة . ومتى ظهرت المصالح المادية عجزت عاطفة النسب والعصبية من التغلب عليها .

وجرثومة العصبية ، العصبية للدم ، وأقرب دم الى انسان هو دم أسرته وعلى رأسها الأبوان والاخوة والاخوات ثم الأبعد فالأبعد ، حتى تصل الى العصبية للقبيلة . ولهذا تكون شدة العصبية وقوتها تابعة لدرجة قرب الدم والنسب وبعدهما . فاذا ما حلّ حادث بإنسان ، فعلى أقرب الناس دماً اليه أن يهب لاسعافه والأخذ بالثأر ممن ألحق الأذى بقريبه . ولهذا صارت درجات العصبية متفاوتة بحسب تفاوت الدم ومنازل النسب .

وآخر مرحلة من مراحل العصبية ، العصبية للقبيلة ، والعصبية للحلف ، أو العصبية للنسب الاكبر ، وذلك في حالة تكتل القبائل وتخاصمها كتلاً . وتكون العصبية للقبيلة أقوى من العصبية للحلف أو النسب الاكبر مثل معدّ أو نزار أو حمير أو ما شاكل ذلك ، وذلك لشعور أبنـاء القبيلة بأن الرابطة التي تربطهم هي رابطة الدم ، والدم أبرز وأظهر في القبيلة من رابطة الحلف أو رابطة النسب الاكبر ، ولا سيما رابطة الحلف ، فانها رابطة مصلحة في الغالب لا رابطة دم ، والشعور بروابط المصالح لا يكون مثل الشعور بروابط الدم .

وتدفع العصبية للحلف ، قبائل الحلف على التناصر والتآزر والتكتل ، والوفاء بالعهد ، والا لم تكن للمتحالفين فائدة ما من الحلف ، وعلى أفراد الحلف أن ينصر بعضهم بعضاً ، وعلى قبائل الحلف أن يتآزروا في دفع الديات أيضاً . وبالمطالبة بديات من يُقتل من قبائل الحلف ، اذا عجز أهل القتيل أو قبيلة القاتل عن الأخذ بحقه .

---

[1] ابن الأثير (١/٣٨٨) ، البلدان (٨/٤٥٠) ، العمدة (٢٠٠ وما بعدها) .

وتشمل العصبية كل منتم الى القبيلة ، تشمل أحرارها أي أبناءها الخلّص الصرحاء ، وتشمل الموالي أي الرقيق وكل مملوك تابع لحرّ ، كما تشمل أهل الولاء والجوار . فالعصبية لا تعرف تفريقاً في هذه الناحية ، فعلى كل من ينتمي الى قبيلة ويحمل اسمها أن يتعصب لقبيلته ويذود عنها ، وان كان عبداً مملوكاً ، ذلك قانون وأمر محتوم ، لا جدال فيه ولا نقاش ، من حيث وجود حقوق أو عدم وجودها ، ومن حيث ان اصل هذا حرّ وأصل هذا عبد . لأن ما يصيب الحر يصيب المولى والجار ، وما يصيب المولى والجار يؤثر على الحر ، لأنه مسؤول عن مولاه وعن جاره بحكم التملك والجوار ، وعلى الرقيق والجار تبعة الدفاع عن الصريح وعن القبيلة التي ينتمي اليها الصريح .

وتلزم العصبية أبناء القبيلة بوجوب تحمل التبعة والقيام بواجبها وتلبية ندائها واجابة الصارخ بالعصبية ، ليس له ان يسأل عن السبب ، ولا ان يعتذر عن تلبية النداء ، وانما عليه ان يعمل بقول الشاعر :

لا يسألون اخاهم حين يندبهم   في النائبات على ما قال برهانا [1]

واذا قُتل قتيل لزم الأخذ بثأره ، واذا كان القتيل سيد قبيلة وجب على القبيلة الأخذ بثأر سيدها ، وهيهات ان تسكت عن قتله ، وعلى كل فرد من افراد تلك القبيلة واجب الأخذ بثأره ممن قتله .

ويفرض قانون العصبية على القبيلة تحمل التبعة ، اذ جعلها تبعة جماعية . فاذا جنى رجل جناية قتل ، تكون قبيلته مسؤولة عن جنايته ، وعليها تقع تبعة قتل القاتل اذا تعذر الأخذ بالثأر منه او تعذر تسليم القبيلة له ، كما يقع على القبيلة دفع الدية اذا عجز القاتل او آله عن دفعها ، وذلك لتوزيعها على المتمكنين من افرادها ، او بقيام ساداتها او سيدها بدفعها كاملة او بدفع ما تبقى منها .

ومن هنا خضعت فردية الاعرابي المتطرفة لقانون الجماعة ، اي لسلطان العصبية فصار واجباً عليه ان يضع نفسه تحت إمرة القبيلة ، وذلك بتلبية ندائها حين يبلغه ذلك النداء ، وتقديم نفسه طائعاً مختاراً لإمرة القبيلة ليدافع عنها او ليشترك معها في الغزو ، ليس له ان يفرّ او يعتزل او يتلكأ ، فهذا واجب مفروض عليه ، اذا خالفه خالف جماعته وخسر حمايتها له ، وصار مَسْبُوباً من الناس .

---

1 حماسة أبي تمام (١/١٦) .

الحمية :

ومن مظاهر العصبية : (الحميّة) وهي الأنفة والغيرة والغضب ، وذلك أن الشخص كان يأنف من عمل قبيح ، وتأخذه حميته من أن يفعل شيئاً يعاب ويعار عليه .[1] وهو يغضب وتأخذه حميته من أن يترك سنة آبائه وأجداده . وقد نهى الاسلام عن الحمية ، واعتبرها من أخلاق أهل الجاهلية والكفر . ونزل الوحي يندد بها : (اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حميّة الجاهلية . فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى) .[2] وذلك حين جعل (سهيل بن عمرو) في قلبه الحمية فامتنع أن يكتب في كتاب المقاضاة الذي كتب بين الرسول والمشركين بسم الله الرحمن الرحيم ، وأن يكتب فيه محمد رسول الله ، وامتنع هو وقومه من دخول رسول الله مكة عـــامه ذلك .[3] فوضع الاسلام (السّكينة) في موضع حمية الجاهلية .

و (النعرة) ، وهي الصياح ومناداة القوم بشعارهم طلباً للغوث والاستعانة ، أو لإهاجتهم ولتجمعهم في الحرب . ومن هنا ورد في الحديث (ما كانت فتنة الا نعر فيها فلان) . أي نهض فيها . وفي حديث الحسن : كلما نعر بهم ناعر اتبعوه ، أي ناهض يدعوهم الى الفتنة ويصيح بهم اليها .[4] ولما كان العرب اصحاب حس مرهف ، وعاطفة ذات حساسية شديدة ، لذلك لعبت النعرات فيهم دوراً خطيراً في اثارة الفتن بينهم . وكانت سبباً لحدوث حوادث مؤسفة عـــند الحضر وعند الاعراب .

واذا أصيب شخص بضيم ، او نزلت به اهانة أو نازلة ، نادى قومه بشعائر العصبية ، وعلى قومه تلبيتـــه ونصرته . وقد ينادي الانسان شخصاً طالباً منه العون والنصرة ، فتلزمه مساعدته كأن ينادي (يا لَفلان) ، وهو شعار يستعمل عند التحزب والتعصب ، ينادي به بصوت عال مسموع ، عند بيت المنادى او في موضع عام او في مكان مرتفع[6] ليصل الصوت الى ابعد مكان .[5]

١ تاج العروس (٩٩/١٠) ، (حمى) ، اللسان (٢١٦/١٨ وما بعدها) ،
٢ سورة الفتح ، رقم ٤٨ ، الآية ٢٦ .
٣ تفسير الطبرى (٦٥/٢٦) ، تفسير القرطبى (٢٨٨/١٦ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (٥٧٧/٣) ، (نعر) .
٥ الروض الأنف (٩٣/١ وما بعدها) ، الأغاني (٧١/١٥) ، شرح ديوان الحماسة (١٦٨/١) .

Muh. Stud, I, S., 61 Kinship, P. 44.

وللقبائل شعار ينـــادون به عند العصبية ، فاذا وقع على احد من اهل يثرب اعتداء وأراد المؤآزرة والنصرة ، نادى : يا لآل قَيْلة ، واذا كان من تميم نادى : يا لتَميم ، وهكذا ، فيهرع من يكون حاضراً ساعة النداء لينصر صاحبه الذي هو من قومه وليــؤآزره . وتعد التلبية من اهم مفاخر الرجال والقبائل وواجباً من الواجبات .[1]

ويتداعى الناس الى العصبية في القتال . واذا ارادوا اهاجة قومهم نادوا بالعصبية . وقد وقع خلاف بين المهاجرين والانصار في المدينة والرسول فيها . فقال قوم : يا للأنصار . وقال قوم يا للمهاجرين . فسمع النبي تداعيهم وصراخهم ، فقال لهم : دعوها فإنها منتنة . ودعاها بـ (دعوى الجاهلية) . (وفي الحديث : ما بأل دعوى الجاهلية ؟ هو قولهم : يا لفلان كانوا يدعون بعضهم بعضاً عند الأمر الشديد) .[2]

الاسلام والعصبية :

وقد تركت (العصبية) اثراً مهماً في الحياة السياسية والاجتماعية عند العرب قبل الاسلام . وقد كانت اذ ذاك ضرورة من الضرورات اللازمة بالنسبة الى الحياة في الجاهلية ، لأنها الحائل الذي يحول بين الفرد وبين الاعتداء عليه ، والرادع الذي يمنع الصعاليك والخلعاء والمستهترين بالسنن من التطاول على حقوق الناس ، اذ لا حكومة قوية رادعة ولا هيئة حاكمة في استطاعتها الهيمنة على البوادي وعلى الإعراب المتنقلين . بل هنالك قبائل متناحرة وامارات متنافرة ، اذ ارتكب انسان جريمة في ارضها ، وفرّ الى ارض اخرى ، نجا بنفسه وأمن على حياته هناك ، ولكنه كان يخشى من شيء واحد ، لم يكن لأحد فيه عليه سلطان ، هو (العصبية) وسة (الأخذ بالثأر) ، وهي العصبية في ثوبها العملي . كان يخشى من سلطان الأخذ بالثأر ، حيث يتعقبه اهل الثأر ، فلا يتركون الجاني يهنأ بالحياة ولو بعد مضي عشرات من السنين ، حتى يُقتل او يقتل اقرب الناس اليه . وبذلك صارت العصبية ضرورة من ضرورات الحياة ، بالنسبة لسكان جزيرة العرب ، لحمايتهم وصيانتهم من عبث العابثين .

---

١ اللسان (٨١/٦) ، ابن هشام (٢٨/٤) ، الأغاني (٧١/١٥) ، (يالطيء) ، شرح ديوان الحماسة (١٦٨/١) .

٢ اللسان (دعا) ، (٢٥٩/١٤) .

وقد أدرك الإسلام ما في العصبية من أخطار على المجتمع ، ولما في الأخذ بالثأر من ضرر على الأمة ، إذ يحول المجتمع الى مجتمع ذئاب ، يأخذ كل ذئب بحقه من غريمه ، فنهى عنها ، وحوّل العصبية الجاهلية الى عصبية إسلامية . بأن يتعصب المسلم لأهل عصبيته ، ولدينه ، فيدافع عنه ويقاتل في سبيله وفي سبيل رفع الظلم عمن وقع الظلم عليه بمساعدة من بيدهم الأمور على إحقاق الحق وإظهار حق المظلوم لديهم . وحرم العصبية الجاهلية المعروفة ، فورد في الحديث : (ليس منا من دعا الى عصبية أو قاتل عصبية)[1] . ومنع الأخذ بالثأر ، إذ جعل حقه من حقوق أولي الأمر ، ومن بيده سلطان المسلمين ومن ينيبونه عنهم للقضاء بين الناس .

من أعراف العرب :

وللأعراب بصورة خاصة أعراف أوجبت الطبيعة عليهم اطاعتها والعمل بها لأن في تنفيذها مصلحة الجميع ، وفي الخروج عليها ضرراً بالغاً . من ذلك وجوب الأخذ بالثأر ، والبحث عن القاتل لقتله مهما طال الزمن ، لان (الدم لا يغسل إلا بالدم) . وقد أملت طبيعة المحيط الذي يعيش فيه العرب عليهم هذا العرف . فليس في البادية مَن يحول بين قتل الناس بعضهم بعضاً إلا الأخذ بالثأر ، وقيام أهل القتيل والعصبية بالأخذ بدمه . ولولا الخوف من الأخذ بالثأر لَعَمّ القتل الحياة : فالحياة في البوادي وفي أكثر أنحاء جزيرة العرب شدة ومحنة وفقر وقسوة . وليس في البادية أي خير كان مما يستمتع به أهل الحواضر ، ولا سيما تلك التي امتازت بوفرة الماء فيها وبحسن جوّها واعتداله . لذلك صارت حياة الأعراب ضنكاً في العيش وفقراً مُرّاً ، وصار كل شيء تقع عليه عين الاعرابي ذا قيمة وفائدة عنده مهما كان تافهاً ، فيريد الاستيلاء عليه وسلبه من صاحبه ، لانه محتاج اليه وفقير ، ويرى ان من حقه ان يستولي على كل ما يراه عند من هو أضعف منه ، وان أدى ذلك الى ازهاق حيانه . ولكن الطبيعة التي علمت

١ اللسان (٦٠٦/١) ، (عصب) .
ونوقد ناركم شررا ويرفع لكم في كل مجمعة لواء
المفضليات (ص ٥٦) ، تاج العروس (٤٤٠/٣) ، بلوغ الأرب (١٦٢/٢) .

الاعرابي هذا المنطق ودرّسته هذا الدرس درّسته في الوقت نفسه ان الاستهتار بالسلب والنهب والقتل ، يؤذيه ويهلكه ، وانه لا بُدَّ له من الحدّ من غلوائه ومن أعدائه على غيره ، ووضعت له حدوداً وقيوداً من طبيعة هذه الحياة التي يحياها . منها عرف (العصبية) ، والأخذ بالثأر ، وغير ذلك من أعراف أملتها الطبيعة على سكان هذه البوادي ، وصارت سنناً متبعة بعضها يتعلق بالأعراف التي تخص داخل القبيلة ، وبعضها يتعلق بالاعراف التي تتعلق بالقبائل المتحالفة ، ومنها ما يتعلق بالاعراف التي تكون بين القبائل المتعادية .

والقاعدة عند العرب ان الدم — كما سبق ان قلت — لا يغسل إلا بالدم ، وان تعويض الدم بمال يرضى عنه (آل) القتيل ، منقصة وذلة لا يقبل بها إلا ضعاف النفوس . أما أهل البيوت والحمولة ، فلا يقبلون إلا بالقصاص وبأخذ الثأر ، وبقتل رجل كفء يكافىء المقتول في المنزلة والدرجة والمكانة ، فإذا كان القتيل سيد قبيلة والقاتل من عامّة الناس أو من عبيدهم ، أبوا الاكتفاء بقتله به اقتصاصاً منه ، إذْ انه دون القتيل في المنزلة والشرف والمكانة ، بل لا بد عندهم من قتل سيد من سادات القبيلة التي يكون منها القاتل ، على ان يكون مكافئاً للقتيل ، حتى يغسل الدم . وان كان ذلك السيد بعيداً عن القاتل ولا صلة له به . فالسيّد سيّد ولا يغسل دمه إلا بدم سيد مثله . ولعلّ الطبيعة وضعت لهم هذه السنة لتأديب سادات القبيلة أو غيرهم ، ممن قد يحرضون العبيد أو غيرهم من السوقة على قتل خصومهم وأعدائهم ، فاذا عرفوا ان أهل القتيل سينتقمون منهم بقتلهم ، حاربوا سفكة الدماء من أتباعهم ولاحقوهم ، وبذلك ينظفون المجتمع منهم ، ويخلصون الناس من سفاكي الدماء .

والأصل في القتل : القصاص ، وقتل القاتل بدل القتيل . فيطالب أهل المقتول بالقوَد وهو قتل النفس بالنفس . وقد ورد ذكره في الحديث ، إذْ جاء : (من قتل عمداً ، فهو قود) [1] . واذا لم يتم القود ، أو لم يحدث التراضي على الدية ، أو اذا فرّ القاتل ، فلا بد من الأخذ بالثأر . ولا يستقر لأهل القتيل قرار الا بعد الأخذ بثأر القتيل . وقد يتركون الخمر والطيّبات ولا يقربون النساء طيلة طلبهم للثأر . وقد يلبسون ألبسة الحزن ويجزونّ شعورهم ، ولا يأكلون لحماً ،

١ تاج العروس (٤٧٨/٢) ، (قود) .

ولا يميلون الى ضحك ولا سماع دعابة ولا الى الاستراحة ، حتى ينالوا منالهم من الأخذ بثأر القتيل . كالذي روي في قصة طلب امرىء القيس الكندي ثأر أبيه من بني أسد . وقد آلى على نفسه ان لا يمس رأسه غسل ولا يشرب خمراً حتى يثأر بأبيه . فلما ظفر ببني أسد قتاتَلَهَ وأدرك ثأره حلّ له ما حرم على نفسه [1] . وكالذي روي في قصة طلب قيس بن الخطيم ثأر أبيه [2] . أو عن (يوم الأقطانين) ، إذْ أقسموا ألا يغسلوا أجسامهم حتى يأخذوا بثأرهم [3] .

وقد يستغرق طلب الأخذ بالثأر عشرات السنين ، لا يكلّ في خلال هذه المدة أصحاب القتيل عن إدراك الثأر . وينظر الى الذين يتوانون عن ادراك الثأر نظرة ازدراء واحتقار ، وقد يلحق بهم وبنسلهم العار من هذا الاهمال ، وقد يلحق ذلك العشيرة أو القبيلة برمتهــا ويكون لهــا سُبّة ، اذا كان القتيل من أشرافها أو من سادتها . لهذا لا يتهاون أهل القتيل عن تتبع آثار القاتل أو أقربائه أو أفراد قبيلته التي ينتمي اليها لغسل هذا العار ، فإن الدم لا يغسل الا بالدم . ومتى أدرك أهل الثأر ثأرهم ، ووجدوا المقتول كفؤاً لدم القتيــل ورضوا عن ذلك ، قالوا لهذا النوع من الثأر (الثأر المنيم) [4] . وقد عرفه بعضهم : أنــه الذي اذا أصابه الطالب رضي به فنام بعده . وقيــل هو الذي يكون كفؤاً لدم وليّك . ويقال أدرك فلان ثأراً منيّماً ، اذا قتل نبيلاً فيه وفاءٌ لطلبته ، وكذلك أصاب الثأر المنيم . قال أبو جندب الهذلي :

دعوا مولى نفاثــة ثم قالوا : لعلك لست بالثــأر المنيم

أي لست بالذي ينيم صاحبه ، أي ان قتلتك لم أنم حتى أقتل غيرك ، أي لست بالكفؤ فأنام بعد قتلك [5] .

ومتى أخذ بثأر القتيل بكته النساء . لأن من عادة نساء الجاهليين ألا يبكين المقتول

١ حلت له من بعد تحريم لها أو أن بمس الرأس منه عسولا
شرح ديوان امرىء القيس (ص ١٥٦) .
٢ شعر قيس بن الخطيم (١ ، ١٥) ، بلوغ الأرب (٣/٢٤) .
٣ الفاخر (٢٥٢ وما بعدها) ، نهاية الأرب (١٧/٧٠) .
٤ اللسان (٥/١٦٧) ، المعاني الكبير (٢/١٠١٨) .
٥ تاج العروس (٣/٧٢) ، (ثأر) .

إلا ان يدرك بثأره ، واذا أدرك بثأره ، بكينه [1] .

ويشبه الثأر ان يكون عقيدة من العقائد الدينية عند العرب . لما يكتنفه أحياناً من (حلف) و (قسم) بوجوب الأخذ بالثأر . ولما تحوط بـه من شعائر حافظ عليها ، من أخذ على نفسه القسم بوجوب الأخذ بالثأر . وهي من شعائر الدين عند الجاهليين . ولا يتركها حتى يبر بقسمه [2] .

واذا عجز الإنسان عن أخذ ثأره بنفسه ، استغاث بغيره لينجده على ثأره . وعلى من قبل نداء الاستغاثة ووافق على النجدة ، مساعدة المستغيث في الأخذ بالثأر وعدم تركه حتى يأخذ بثأره من طلبته .

وقد لعب الأخذ بالثأر دوراً خطيراً في الاسلام كذلك . ولا سيما في الأحداث السياسية . فلما قتل (عثمان) ارتفع نداء : يا لثارات عثمان . قال حسان :

لتسمعن وشيكاً في ديارهم   الله أكبر يا ثارات عثمانا

ومن ذلك قولهم : (يا لثارات الحسين) ، و (يا لثارات زيد) الى غير ذلك [3] . وهو لا يزال يلعب دوراً خطيراً في الحياة العربية الى اليوم .

وقد عيَّر أحد الشعراء (بني وهب) ، لانهم أخذوا دية قتيل ، فاشتروا بها نخلاً ، فقال لهم :

الا أبلغْ بني وهب رسولاً   بأن التمرَ حلو في الشتاء

أي اقعدوا وكلوا التمر ولا تطلبوا بثأركم [4] .

وهناك رجال ضُرب بهم المثل في ادراكهم الثأر . ويقال للواحد من هؤلاء : البيهس [5] .

١ نهاية الأرب (١٢٢/٣) .
٢ حلفت فلم تأثم يميني لأثأرن   عدياً ونعمان بن قيل وأيهما .
تاج العروس (٧١/٣) ، (ثار) .
٣ تاج العروس (٧١/٣) ، (ثار) .
٤ المعاني الكبير (١٠١٩/٢) .
٥ تاج العروس (١١٣/٤) ، (البهس) .

الاستغاثـــة :

ومن مظاهر العصبية : الإستغاثة . وهي ان يصيح الإنسان واغوثاه . طلبـاً للعون والنصرة [1] وعلى من يسمع نداء الاستغاثة من أهل المستغيث أو من رجـال قبيلته أو الحلف الذي تكون قبيلته فيد مدّ يد العون له ونصرتـه . ويعاب من يسمع الاستغاثة فلا يعمل على مساعدة المستغيث . وقد يهجو المستغيث قومـه اذا تباطأوا في إغاثة المستغيث أو لم يستجيبوا لندائه ، وقد يتبرأ منهم ويتركهم ليلحق بقوم آخرين .

ومن أخلاق الجاهلية المناداة بالنصرة [2] . وقد ذكرت معناها في العصبية فهي أيضاً وجه من وجوهها . ذكر ان الرسول قال : (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)، وتفسيره ان يمنعه من الظلم ان وجده ظالماً . وان كان مظلوماً أعانه على ظالمه . والتناصر التعاونُ ، وقد حول الإسلام نصرة الجاهلية الى تناصر ، أي تعاون وتعاضد لأن المسلمين إخوة . ويكون بالانتصار من الظالم وبالانتصاف حتّى يؤخـذ بحق المظلوم من الظالم [3] .

الوفـــاء :

وعلى الانسان الوفاء لأهل عصبيته ، ليس له مخالفتهم ولا معاكستهم مهما كانت درجة الخلاف بينه وبينهم ، لانه واحد ، وهم جماعة ، ان أصابه ضيم فلا بـد لجماعته من مواساته ومن الانتصار له مهما كانت أسباب الفرقة . وما يصيب جماعته سيصيبه ، وما سيصيبه ، سيؤثر في جماعته حتماً ، فيجعلها الى جانبه في الأخير .

وهل أنا إلا من غَزِيَّةَ إن غوت غَوَيْتُ وإن تَرشُدْ غَزِيَّةُ أرشد [4]

وهي في الأخير كما يقول الشاعر (المتلمِّس) لشخص ظن انه منتقل عنهم

١ اللسان (١٧٤/٢) ، (غوث) ، المعاني (١١٠٦/٢) .
٢ العقد الفريد (٥٨/١) .
٣ اللسان (٢١٠/٥) ، (نصرة) .
٤ هذا البيت لدريد بن الصمة ، حماسة ابي تمام (٣٠٦/٢) ، شرح المرزوقي على الحماسة (٨١٥/٢) ، الأصمعيات (١١٢) .

لخلاف وقع بينه وبينهم :

أمنتقلاً من نصر بهثة خلتني ألا إنني منهم وان كنت أينما
ألا إنني منهم وعرضي عرضهم كذي الأنف يحمي أنفه ان يصلما [1]

فإذا أعطى رجل رجلاً عهداً ، فلا يسعه ان يغدر به ، ولا بد له من المحافظة على العهد وما برح العرب يحافظون على عهودهم حتى اليوم . وقد يضحي الإنسان بنفسه على ان يخدش سمعته فيوسم بالغدر . وكانوا في الجاهلية اذا غدر الرجل رفعوا له في سوق عكاظ لواء ليعرفوه الناس [2] . وقد ورد : (ان لكل غدرة لواء) ونصبُ اللواء في المواضع العامة وفي المواسم للإشارة الى غدر شخص بشخص آخر من أشهر الأشياء عند العرب [3] .

والى هذا اللواء أشار (الحادرة) ، (قطبة بن أوس) إذْ قال :

أسمي ويحك هل سمعت بغدرة رفع اللواء لنا بها في مجمع [4]

واذا غدر الرجل بجاره ، أوقدوا النار بمنى أيام الحج على أحد الأخشبين، ثم صاحوا : (هذه غدرة فلان) ليحذره الناس [5] . وقد قيل لهذه النار : نار الغدر [6] .

وربما جعلوا للمغادرِ مثالاً من طين ، ينصبونه ليراه الناس ، وكانوا يقولون : ألا ان فلاناً قد غدر فالعنوه . جاء في الشعر :

فلنقتلن بخالد سَرَواتكم ولنجعلن لظالمٍ تمثالا

فهذا التمثال ، هو تمثال الغدر والخيانة ، نصب ليقف الناس على خبر غدر الشخص الذي نصب له [7] .

---

١ نوادر أبي زيد (١٦٠) ، الأصمعيات (٢٨٦) .
٢ (ان لكل غادر لواء) ، المفضليات (ص ٥٦) .
٣ ارشاد الساري (٩/١٠٦) .
٤ المفضليات (٥٦) ، البحتري ، حماسة (٢١٦) .
٥ ونوقد ناركم شررا ويرفع لكم في كل مجمعة لواء
٦ المفضليات (ص ٥٦) ، تاج العروس (٣/٤٤٠) ، بلوغ الأرب (٢/١٦٢) . نهاية الأرب ١/١١١) .
٧ بلوغ الأرب (٣/٢٨) .

وقد عاب الناس الغادر وعيّروا به فاذا شتموا شخصاً قالوا : يا غُـدَر ! وقد جعلوا الذئب من الحيوانات الغادرة ، فقالوا : الذئب غادر ، أي لا عهد له . كما قالوا : الذئب فاجر[1] .

أهل الغدر :

وقد حفظ أهل الأخبار أسماء رجال عرفوا بالغدر . وقد قال بعضهم : أعرف الناس بالغدر (آل الأشعث بن قيس بن معد يكرب) . وذكر ان الغدر ارث فيهم انتقل بهم الى الاسلام[2] . وضربوا المثل بغدر الضيزن بأبيها صاحب الحصن[3] .

ومن الوفاء : الوفاء بالعهود والمواثيق . فلا يجوز لمن أعطى عهداً وميثاقاً الغدر بهما والتنصل من الوفاء بهما . والوفاء من أنبل الخصال الحميدة التي يتخلق بها انسان . وهو من المثل العليا عند العرب ومن أخلاق (الإنسان الفاضل) عندهم . وقد أوفى (حنظلة الطائي) بعهده الذي أعطاه للملك (النعمان) يوم بؤسه بأن يعود اليه ، ليرى الملك رأيه في قتله . فعاد ، وهو يعلم ان الملك سيقتله ، لأنه أعطاه قولاً بالعودة ، وجعل (شريكاً) نديم الملك ضامناً له بالعودة . فلما عاد ، واستمع الملك الى قصة وفائه أبطل عادته في قتل أول من كان يظهر أمامه يوم بؤسه ، اكراماً لعمله[4] . ورأى (السموأل) ابنه وهو في أيدي أحد ملوك الغساسنة أو ملوك كندة ، وهو يناديه بوجوب دفع ما عنده من دروع وأسلحة مودعة عنده ، من دروع وأسلحة (امرىء القيس) فقال له : (ما كنت لأخفر ذمامي وأبطل وفائي فاصنع ما شئت) . فذبح ولده واحتسب السموأل ذبح ولده وصبر محافظة على وفائه ، ولم يسلم الوديعة إلا الى ورثة امرىء القيس[5] .

وقد دوّن أهل الأخبار أسماء أناس عرفوا بالوفاء . منهم : (أوفى بن

١ اللسان (٥/٨) ، (غدر) .
٢ نهاية الأرب (٣/٣٦٥) .
٣ نهاية الأرب (٣/٣٦٦) .
٤ المستطرف في كل فن مستظرف (١/١٩٩ وما بعدها) ، (عبد الحميد أحمد الحنفي) .
٥ المحبر (٣٤٨ وما بعدها) .

مطر المازني) ، جاوره رجل ومعه امرأة له ، فأعجبت قيساً أخاه ، فقتل زوجها غيلة ، فبلغ ذلك (أوفى) فقتل قيساً بجاره [1] . و (الحارث بن عبّاد) ، وكان من وفائه انه أسر يوم (قضة) (عدي بن ربيعة أخا مهلهل) ، وهو لا يعرفه . فقال له : دلني على عدي . فقال له عدي : ان دللتك عليه فأنا آمن ؟ فأعطاه ذلك . فقال له : فأنا عدي . فخلّى سبيله [2] .

ومن أوفياء العرب (عوف بن محلم الشيباني) ، وهو من مشاهير سادات العرب . وكان من وفائه ان (مروان بن زنباع العبسي) كان قد وتر (عمرو بن هند) ، فجعل على نفسه ألا يؤمنه حتى يضع يده في يده . وان (مروان) غزا (بكر بن وائل) فأسر ، ولم يكن آسره منيعاً ، فطلب من أم آسره ان توصله الى (عوف بن مسلم) ، ولها منه مئة بعير ، فحمل الى (عوف) ، ولاذ بقبته ، وبلغ (عمرو بن هند) مكانه ، فبعث يطلبه ، فأبى عوف ان يسلمه الا ان يؤمنه . ثم أخذه عوف الى (عمرو بن هند) ، وجعل يده بين يد عمرو ويد مروان ، وأصلح بينهما ، فعفا (عمرو) عنه وآمن مروان . فقال عمرو : (لا حر بوادي عوف) فذهبت مثلاً [3] .

وعدّ (مروان بن زنباع) من أوفياء العرب ، لأنه وفى بعهده الذي أعطاه لأم آسره ، وكان قد أعطاه عوداً التقطه من الأرض ليكون رمز وفائه ، على ان توصله الى (محلم) فلما أوصلته دفع اليها المئة بعير ، كما تعهد لها بذلك [4] .

وضرب المثل بوفاء (عمير بن سلمى الحنفي) ، وله قصة في الوفاء تشبه قصة (أوفى بن مطر المازني) . ذكروا ان من وفائه ان رجلاً من (بني عامر بن كلاب) استجار بعمير وكانت معه امرأة جميلة . فرآها (قرين بن سلمى الحنفي) أخو عمير ، وصار يتحدث اليها حتى بلغ ذلك زوجها ، فنهاها . فخافته فانتهت . فلما رأى (قرين) ذلك وثب على زوجها ، فقتله . وعمير غائب ، فأتى أخو المقتول قبر (سلمى) فعاذ به . فقدم (عمير بن سلمى) ،

١ المحبر (٣٤٨) .
٢ المحبر (٣٤٨) .
٣ المحبر (٣٤٩ وما بعدها) ، الاشتقاق (٢١٥) ، الأمثال للميداني (٢/٥٣١) .
٤ المحبر (٣٥١) .

فأخذ أخاه . وبلغ وجوه (بني حنيفة) الخبر ، فأتوه فكلموه ، فأبى الا ان يقتله أو يعفو عنه جاره ، وأبى أخو المقتول أخذ دية أخيه القتيل ولو ضوعفت ، فأخذ عندئذ (عمير) أخاه وقتله لغدره بجاره[1] .

ومن الأوفياء (أبو حنبل : جارية بن مرّ الطائي ثم الحنبلي) . وكان من وفائه ان (امرىء القيس بن حجر الكندي) ، كان جاراً (لعامر بن جوين الطائي) فَقَبَّل (عامر) امرأة (امرىء القيس) ، فأعلمته ذلك فارتحل الى (جارية) ليستجير به . فلم يجده ، ووجد ابناً له أجاره ، فلما جاء (جارية) ورأى كثرة أموال (امرىء القيس) طمع فيها ، وعزم على الغدر بـ (امرىء القيس) ، ثم فكر في أمره ورأى ان الغدر عار ، فعقد له جواره ، ثم أخذه الى (عامر بن جوين) ، فقال لامرىء القيس : قبل امرأته كما قبل امرأتك . ففعل[2] .

ومنهم (المعلى الطائي) ، أحد (بني تيم) من جديلة . وهم (مصابيح الظلام) . وكان (المنذر) يطلب امرىء القيس ، فلجأ الى (المعلى) فأجاره ، وبلغ المنذر مكان (امرىء القيس) فركب حتى أتى منزل المعلى ، ولم يكن المعلى موجوداً ، وأبى ابنه تسليم امرىء القيس الى المنذر ومنعوه[3] .

ومن الأوفياء (عصيمة بن خالد بن سنان بن منقر) ، وكان (النعمان) قد غضب على (بني عامر بن صعصعة) ، فقتل منهم ناساً وشردهم ، فالجأهم (عصيمة) وأجارهم . فبعث اليه النعمان : (ابعث اليّ بعبيدي) فأبى ونادى في قومه شعاره (كوثر) ، وأقبل (النعمان) فأهوى (عصيمة) بالرمح الى معرفة فرسه ، ورجع الملك خائباً . ثم كسا (عصيمة) (بني عامر) وبلّغهم مأمنهم[4] .

وقد عدّ الوفاء محمدة وواجباً ، ولأجل توكيد الوفاء وترسيخه ، كانوا يضعون رهناً ، قد يكون ثميناً مثل أبناء سادات القبائل ، يقدمونهم رهينة لدى

---

١ المحبر (ص ٣٥٢) .
٢ المحبر (٣٥٢ وما بعدها) .
٣ المحبر (٣٥٣ وما بعدها) .
٤ المحبر (٣٥٤) .

الملوك ضماناً لهم في مقابل وفائهم بما تعهدوا للملك وبما عاهدوه عليه من شروط ، وقد يكون شيئاً لا قيمة كبيرة له من الوجهة المادية ، مثل رهن قوس ، أو سهم ، أو التقاط عود من الأرض وايداعها رهناً بالوفاء ، كما مرّ معنا في قصة (مروان ابن زنباع العبسي) مع (عوف بن محلم الشيباني)[1] ، أو في مقابل اعطاء كلمة بالوفاء ، كما في قصة (الحارث بن عباد)[2] ، أو الوفاء بسبب استجارة انسان بقبر ، كما في قصة وفاء (عمير بن سلمى الحنفي)[3] .

العرض :

وعرض الرجل نفسه وبدنه ، وقيل العرض : موضع المدح والذم من الإنسان سواء كان في نفسه أو سلفه أو من يلزمه أمره . وقيل أيضاً : هو جانبه الذي يصونه من نفسه وحسبه ويحامي عنه ان ينتقص ويثلب . وذكر أيضاً ان العرض : عرض الانسان ، ذم أو مدح[4] . ويحرص الجاهليّ على ألا يمس بسوء . واذا تحرش أحدهم به ، أو شعر ان شخصاً أراد الانتقاص منه . ولو بتلميح أو باشارة أو بغمز ثار وهاج مدافعاً عن نفسه وعرضه ، لأن عرض الانسان أشرف شيء بالنسبة له في هذه الحياة .

ومن العرض صيانة أعراض الناس ، لأن من ينتهك عرض غيره ، ينتهك الناس عرضه ويعرض نفسه وماله وأهله للتهلكة . فقد لا يصبر شخص أهينت كرامته على هذه الإهانة فينتقم ممن تعرض به شرّ انتقام . ان لم يتمكن هو بنفسه ، ساعده في أخذ حقه أهل عصبته ورجال قبيلته ، حتى يثأر لنفسه ممن تعرض لعرضه بسوء .

ونجد في الشعر الجاهلي تبجحاً بالنفس واشادة في الدفاع عن العرض ، وتهديداً ووعيداً لمن يحاول النيل منه بأي سوء . وهو كلام يحمل حساد المتبجح بنفسه على الردّ

١ المحبر (٣٤٩) .
٢ المحبر (٣٤٨) .
٣ المحبر (٣٥١) .
٤ اللسان (٣/١٧١) ، (عرض) .

عليه وعلى الطعن فيما قاله . وبذلك تتولد خصومة قد تطول وتكبر وتؤدي الى سقوط قتلى كانوا في غنى عنها لولا هذه الحمية الجاهلية القائمة على التفاخر والتباهي والزهو والحمق .

الحرية :

والعربي مجبول على الحرية ، وهو لا يطيق الخضوع لأحد غير قبيلته على ان لا يؤثر ذلك في حريته الشخصية ، وقد أعجب (هيرودوتس) وغيره من كتبة اليونان والرومان بحب العرب للحرية ولمقاومتهم للاسترقاق ، فذكروا انهم كانوا الشعب الوحيد من بين الشعوب الآسيوية الذي لم يخضع لحكم الفرس ، فلم يتمكن ملوك الفرس من استعبادهم ، وانما اضطروا الى معاملتهم معاملة اصدقاء حلفاء ، فقاموا لهم بخدمات جليلة سهلت لهم فتح مصر ، ولو كان العرب حرباً على الفرس لما تمكنوا قط من حملتهم على مصر .

والعربي من هذه الناحية شديد التعلق بالحرية ، والاعرابي يشعر ، وهو في الحضر بين سكان القرى او المدن ، انه في سجن لا يطاق ، لكثرة القيود التي تقتضيها عادات المتحضرين ، ويسعى للعودة الى وطنه حيث ينطلق حراً كما يشاء . والقبائل تشعر هذا الشعور نفسه ، فهي تعيش متمتعة بأعظم قسط من الحرية ، لا تضحي بها ، الا لمقتضيات المحافظة على الحياة حيث ترتبط بواجبات التحالف مع القبائل الاخرى للدفاع عن النفس وضمان ضروريات الحياة .

ولما كان لكل شيء حد ونهاية ، غدت هذه الحرية انانية شديدة ، وفردية مطلقة حالت دون تعاون الافراد ، ومنعت من مساعدة القبائل بعضها بعضاً مع وجود خطر اجنبي داهم ، وحالت دون تكون المجتمعات الكبرى وهي الحكومات ، واقتصرت التنظيمات السياسية على القبائل ، وأصبحت العصبية للقبيلة تعني القومية . وزاد في حدة هذه الانانية القبلية اعتقادهم بالرابطة الدموية التي تربط الأسر بالعشائر ، والعشائر بالقبائل ، وارجاع ذلك الى الانساب فلا تتعصب القبائل الا لتلك القبائل التي تعتقد انها واياها من شجرة واحدة وأصل واحد .

ان الحياة الصحراوية التي طبعت اصحابها بطابع الافراط في حب الحرية الفردية ، قد اثرت كثيراً في الحياة السياسية والتفكير السياسي في بلاد العرب ، فاقتصرت

الافعال السياسية على افعال القبيلة ، وتراجع الفرد بل الاهل والعشيرة تجاه القبيلة ، وأثرت في اشكال الحكومات التي تكونت في الاماكن الخصبة وبين المتحضرين ، فجعلت منها اتحاداً مع قبائل جمعت بينها مصالح متشابهة ومنافع مشتركة . فاذا ما شعرت بزوال مصلحتها او ان من مصلحتها الانفصال عن هذا الاتحاد فلا تتوانى عن تنفيذ رغباتها وتحقيقها بالقوة . ولهذا نجد القبائل تهيج وتثور على الحكومات التي تخضع لها ، وتدين بالولاء لها ، لأسباب تافهة منبعها ومبعثها هذه الانانية الضيقة التي تدفع سادات القبائل الى الانفصال والخروج من عبودية الخضوع لحاكم ، عليهم تقديم واجب الاخلاص والطاعة له . حاكم يرون انه لا يمتاز عنهم بشيء ، بل يرى كل واحد منهم لأنانيته انه اولى منه بالحكم وبتسلم القيادة ، وان من حقه الخروج عن طاعته ان وجد ظروفاً ملائمة متهيئة للانفصال عنه . فلما وجدت القبائل التي خضعت لحكم (ملوك كندة) ضعفاً في الاسرة الكندية الحاكمة ، ثارت عليها ، وقتلت منهم من قتلت ، وطردت من طردت ، وكوّن سادات القبائل امارات عديدة ، حلت محل مملكة كندة . ولما كان سادات القبائل يجدون ضعفاً في العلاقات بين ملوك الحيرة والفرس ، وبين ملوك الغساسنة وبين الروم ، كانوا يسارعون الى الاتصال بالفرس وبالروم لتنصيبهم مكان ملوك الحيرة وملوك الغساسنة ، لا يرون في هذا العمل اي شين او بأس .

ويصعب في الحقيقة التوفيق بين الفكرة القبلية الضيقة والفكرة القومية التي تسمو فوق القبائل ، فالفكرة القبلية لا تعترف بوجود قومية غير قومية القبيلة ، ولا ترى وجود وطن غير الوطن الذي تنزل فيه القبيلة . فاذا ارتحلت عنه ، وحلت في ارض اخرى اصبحت هذه الارض وطن القبيلة الجديد ، الذي يجب أن يدافع عنه . وأما الأوطان الاخرى ، ومنها وطن القبيلة السابق ، فليست بأوطانها . ومن هنا كان بون شاسع بين هذه الفكرة الوطنية الضيقة ، وبين الفكرة القومية التي تدين بعقيدة الايمان بالقوم اي الجنس الذي هو فوق القبائل والأمكنة ، وبالوطن العام الذي يشمل كل الارضين التي يستوطنها ذلك الجنس .

وقد جابهت الحكومات العربيـــة في الجاهلية ثم في الاسلام متاعب كثيرة من الروح القبلية العنيفة ، ومن الفردية المتطرفة ، فكانت هذه من اهم عوامل هدم المجتمعات السياسية الكبرى في بلاد العرب ، وكانت من اعنف اعداء القومية العربية ، لا في الجاهلية حسب ، بل في الجاهلية وفي الاسلام كذلك .

وأهم ما يعوز العرب في الجاهلية الشعور بفكرة (الأمة) ، التي تسمو فوق القوميات القبليـــة ، وفوق الاقليميات الضيقة التي هي ايضاً صفحة من صفحات الانانية . والشعور بلزوم الحد من الفردية الجامحة التي لا تعترف بحريّات الآخرين ، وبضرورة اطاعة المجتمع في سبيل المصلحة العامة ، واخضاع ارادة الحاكمين لمصلحة حكم الجماعة ، والتحديد من انانيتهم المفرطة ومن البت في امور الرعية ، وكأن الرعية سواد من ماشية ، عليها اطاعة سوط الحاكم وأوامره ، دون ان يكون لها حق في ابداء الرأي . فان غلطة الاستبداد بالرأي تؤدي الى أسوأ العواقب ، غير أن الحرية المفرطة ، أو الانانية الشديدة بتعبير أصح ، التي كادت تجعل المجتمع فوضى ، ضبطتها من ناحية أخرى قوة كبحت جماعها ، وحدت من حريتها ، وأجبرتهـــا على التقيد بقيود ، وعدم التحرك الا بحد وحدود . هي سنة وجوب اطاعة أوامر المجتمع ، والاستجابة لنداء الجماعة ، ولأحكام رؤساء الاحياء والبطون والافخاذ ، والصيحات التي تصرخها القبيلة أو فروعها لتنادي بنداء ، (العصبية) . والا عدّ الخـــارج على نداء الجماعة والمخالف لقرار رؤساء الأسرة او الحي أو القبيلة خارجاً على القانون وعلى العصبية فاستحق بذلك واجب خلعه من عصبية القبيلة له وطرده من قومه . وهو اشد عقاب يفرض على مخالف ما . عقاب : الخلع .

الخلع :

ويبقى الفرد متمتعاً بعطف قبيلته عليه ، وبحمايتها له ما دام قائماً بواجباته المترتبة عليه ، شاعراً بعظم التبعة . فاذا أجرم ، أو عمل عملاً ينافي شرفه أو شرف قبيلته ، واستمر في غيّه لا يسمع نصائح أهله وعشيرته ، كاسراً اعرافَ آله وقبيلته ، فقد عصبية اهله وقبيلته له ، وهام على وجهه طريداً يلتمس مجاورة رجل من عشيرة أو قبيلة اخرى قريبة من موطنه او بعيدة عنه . وتكون هذه الفترة من حياة الانسان شرّ فترة في حياته ، ولا يهدأ للطريد بال الا اذا وجد له حليفـاً او جاراً يتعهد له بحمايته ويبذل (العصبية) له ، وبالدفاع عنه .

ويقال للرجل الذي تغضب عليه قبيلته وتحرمه عطفها وعصبيتها له (الخليع) ، ويقـــال ذلك لمن يخلعه اهله أيضاً . وقد يقال له (الرجل اللعين) و (اللعين) . واللعين هو المطرود ، ولذلك يقال له (الطريد) ، الى غيرها من مصطلحات .

وربما خلعوا الرجل من القبيلة ولو كان من صميمها ، ويسقط عن أهله وقبيلته كل واجب يترتب عليهم أو عليها اذا عمل عملاً يستوجب خلعه ، كما تسقط عن القبائل التي قد تتعرض للخليع بشرّ كل تبعة تقع عليها من الاعتداء عليه ، لخلع اهله او قبيلته له ، وتبرّئهم او تبرئها منه ، فلا يطالبون بثأر .

ولا بد من اعلان خلع أهل (الخليع) او خلع قبيلته له وتبرئها منه ، ليكون ذلك معلوماً عند افراد قبيلته او القبـــائل الاخرى ، فتسقط العصبية عندئذ عن (الخليع) عند اعلان قرار الخلع ، والا بقيت في رقبة أولياء امره وقبيلته ، وذلك كأن يعلن الآب في المواضع العامة وفي المواسم انه خلع ابنه ، بأن يقول : الا ، اني قد خلعت ابني هذا ، فان جَرّ لم اضمن ، وان جر عليه لم اطلب . او يعلن قومه : انما خلعنا فلاناً ، فلا نأخذ احداً بجناية تجنى عليه ، ولا نؤخذ بجناياته التي يجنيها .

وقد كان الحج من المواسم المناسبة لاعلان خلع الخلعاء ، وكذلك كانت مواسم الاسواق كسوقِ عكاظ . فهي مواسم تجمّع ، ينادي فيها المنادي بخلع من يراد خلعه . وكان أهل مكة يكلفون منادياً بالطواف بالاحياء ، ينادي بأعلى صوته عن خلع الخليع . وقد يكتبون كتاباً يحفظونه عندهم او يعلقونه في محلٍ عـــام ليقف عليه الناس .[1]

وقد عاش الخلعاء عيشة صعبة ، لا احد يساعدهم أو يؤويهم خشية ان ينزل بهم أذى ، او يترتب على قبول جوارهم تبعة تجاه من يقتص آثارهم طلباً للثأر منهم . ولذلك تكتل الصعاليك احياناً وكوّنوا عصابات تغزو وتغير وتقطع الطريق . وكان الشاعر (عروة بن الورد) وهو منهم يجمع حوله الصعاليك والفقراء في حظيرة ويغزو بهم ويرزقهم مما يغنمه ، ولذلك سُمّي (عروة الصعاليك) .[2] ذكر أنه كان اذا شكا اليه فتى من فتيان قومه الفقر ، أعطاه فرساً ورمحاً ، وقال له : ان لم تستغن بهما فلا أغناك الله .[3]

١ الأغاني (٥٢/٨) .
٢ اللسان (٤٥٦/١٠) ، (صعلك) .
٣ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٠٣) .

والصعلوك الفقير الذي لا مالَ له . [١] ومن الصعاليك (السليك بن سلكة) الشاعر العدّاء . وهو من العدّائين الذين ضرب بهم المثل في العدو . [٢] وكان (حاجز بن عوف بن الحــرث) ، وهو شاعر جاهليّ مقلّ ، احد الصعاليك العدّائين . كان يعدو على رجليه عدواً يسبق به الخيل . وكان يغير على قبائل العرب . [٣] وكان (قيس بن الحدادية) من الشعراء الصعاليك الفاتكين الشجعان . خلعته خزاعة بسوق عكاظ ، وأشهدت على نفسها بخلعها اياه ، فلا تحتمل جريرة له ، ولا تطالب بجريرة يجرها احد عليه . [٤]

ومن بقية الصعاليك (الشنفرى) و (تأبط شرّاً) . غير ان اعرفهم وأشهرهم وحامل لواء الصعلكة فيهم ، هو (عروة بن الورد) ، الذي نصب نفسه سيّداً على الصعاليك . فكان يجمعهم ويشركهم فيما يغنمه ويرزقهم من رزقه . ويبذل جهده لمواساتهم . فاجتمع حوله صعاليك (عبس) ، وهو منهم واتخذ لهم حظائر آووا اليها ، ولهذا نعت بـ (عروة الصعاليك) . قال اهل الاخبار : انما قيل له عروة الصعاليك مع انه عروة بن الورد ، لانه كان يجمع الفقراء في حظيرة ، فيرزقهم مما يغنمه . [٥] فعروة لم يكن فقيراً محتاجاً معدماً ، كما يفهم من لفظة (صعلوك) . لقد كان في وسعه ان يجمع مالاً مما كان يغنمه من غاراته على العرب ، فيكون حسن الحال غنياً . لكنه فضّل الصعلكة على اكتناز المال ، ورجّح اشراك الفقراء فيما يغنمه على جمعه له واستئثاره له وحده ، لأن له مروءة تأبى عليه ان ينام شبعاناً وجاره فقير جائع . فكان ينفق ما يغنمه على المحتاجين . فهو صاحب مذهب انساني أحس بالألم ، وأدرك ما أصابه يوم خلعه اهله من شدة وضنك ، فأراد ان يخفف من آلام امثاله ممن خلعهم مجتمعهم لعدم وقوفه على اسباب خروجهم عليه . فصار بذلك نصير الصعاليك . ولقد ذكره (عبد الملك ابن مروان) ، فقال : (ما كنت احب ان احـــداً ولدني من العرب الا

١ اللسان (١٠/٤٥٥ وما بعدها) ، (صعلك) .
٢ الأغاني (١٨/١٣٣) .
٣ الأغاني (١٢/٤٧) .
٤ الأغانى (١٣/٢) .
٥ تاج العروس (٧/١٥٣) ، (صعلك) .

عروة بن الورد) .[1] فعروة صعلوك فلسف الصعلكة ، بأن جعلها مثلاً من مُثل الحياة . بينما كانت تعني فقراً مدقعاً وجوعاً قتالاً وهياماً على وجه الارض للاستجداء .

وقد كوّن الصعاليك عصابات تنقلت من مكان الى مكان تسلب المارة وتغير على احياء العرب ، لترزق نفسها ومن يأوي اليها .[2] انضم اليها الصعاليك من مختلف القبائل . ولكون اكثر الصعاليك من الشبان الطائشين الخارجين على اعراف قومهم ، ومن الذين لا يبالون ولا يخشون احداً ، صاروا قوة خشي منها ، وحسب لها حسابٌ . خاصة وفيها شعراء فحول ، يحسنون الهجاء ويتقنون فن ثلب الاعراض ، وفيها مقاتلون شجعان لا يعبأون بالموت ، يفتكون بمن يريدون الفتك به . وخافهم الناس وامتنعوا جهد امكانهم من التحرش بهم ومعاداتهم ، ومنهم من قبل جوار الصعاليك وردّ عنهم وأحسن اليهم ، فاستفاد منهم واستفادوا منه .

وقد كان العرب ينفون الخلعاء الى اماكن معينة مثل (حَضَوْضى) ، وهو جبل في الجزيرة العربية كان الناس في الجاهلية ينفون اليه خلعاءها .[3] وقيل جبل في البحر او جزيرة فيه ، كانت العرب تنفي اليه خلعاءها .[4]

١ الأغاني (٣/٧٨) ، ديوان عروة بن الورد (ص ١٣٨ وما بعدها) ، العقد الفريد (١/١٩١) .
٢ الأغاني (١٩/١١١) .
٣ البلدان (٣/٢٩٦) .
٤ تاج العروس (٥/٢٠) ، (حض) .

الفصل السادس والأربعون

أنساب القبائل

تحدثت في مواضع متعددة من هذا الكتاب عن تقسيم القبائل العربية المألوف عند الأخباريين . أما الحديث في هذا الفصل ، فهو عن أثر القبائل العربية في الجاهلية المتصلة بالإسلام . وبعبارة أخرى القبائل العربية التي كانت في القرن السادس للميلاد . ويضيق بنا هذا الفصل لو أردنا الكلام على جميع القبائل وبطونها وأفخاذها وعمائرها ، لذلك سأكتفي في هذا الفصل بذكر القبائل الكبرى وبالاشارة الى بطونها ان كانت مهمة . وفي كتب الأخباريين والمؤلفات المدونة في الأنساب الكفاية لمن طلب المزيد .

والتصنيف المألوف للقبائل هو حاصل عرف جرى عليه النسّابون ، ولا نعرف تدويناً لأهل الجاهلية للأنساب ، انما نعرف ان أول تدوين رسمي كان هو التدوين الذي تم في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، حيث ظهرت الحاجة الى التسجيل ، فسجلت . ولم تصل ويا للأسف سجلات ذلك الديوان الينا ، ولم يصرح أحد من النسابين انه أخذ مادة أنسابه من تلك السجلات . وانما الذي بين أيدينا هو خلاصة وجهة نظر النسابين في أنساب القبائل ، وعلى هذا التقسيم اعتمد المعنيّون بهذا الموضوع .

واذا غضضنا الطرف عن التصنيف المتبع في حصر أنساب العرب كلها في أصلين أساسين قحطان وعدنان ، فاننا نرى القبائل كما يفهم من روايات الأخباريين كتلاً ، ترجع كل كتلة منها نسبها الى جدّ قديم تزعم ان قبائلها انحدرت من صلبه . وقد تحدثت مراراً عن طبيعة هؤلاء الأجداد .

ومن هذه الكتل التي كانت عند ظهور الإسلام ، كتلة حمير ، وكتلة كهلان ، وكتلة قضاعة ، وكتلة مضر ، وكتلة ربيعة . وكل كتلة مجموعة قبائل كبيرة ، ترجع في عصبيتها الى تلك الكتلة .

أما حمير ، فقد تحدثت عنها سابقاً ، وأشرت الى ورود اسمها لدى بعض الكتبة الكلاسيكيين مثل (سترابون) والمؤرخ (بلينيوس) وذلك في أثناء كلامه على حملة (أوليوس غالوس) حيث عدّها من أشهر القبائل العربية التي كانت في اليمن إذْ ذاك[1] ، كما أشرت الى ورود اسمها في نصوص المسند التي يعود تأريخها الى ما بعد الميلاد[2] ، وهو اسم أرض معينة واسم شعب. أما الذي نفهمه من الأخباريين ، فهو ان حمير اسم واسع يشمل قبائل قحطان عند ظهور الاسلام[3] . وقد يكون مرد ذلك الى ظهور هذه القبيلة في هذا الزمن وبروزها في هذا العهد في اليمن ، فانتمى اليها كثير من القبائل على العادة الجارية في الانتماء الى المشاهير .

ويرجع النسابون نسب حمير الى حمير بن سبأ الأكبر بن يشجب بن يعرب ، ويقولون ان اسمه (العرنج)[4] (العرنجج)[5] ، وهو في نظرهم والد جملة

١ Pliny, VI, 161

٢ تاريخ العرب قبل الاسلام (١٣٧/٣) .

٣ Rubin, Ancient West Arabian, P. 42

٤ منتخبات (ص ٢٨ ، ٧٠) ، المبرد ، نسب عدنان وقحطان (ص ١٨) ، (العرفج) شرح قصيدة ابن عبدون (ص ٨٤) .

٥ (والعرنجج ، اسم حمير بن سبأ . قاله السهيلي في الروض وابن هشام وابن اسحاق في سيرتهما) ، تاج العروس (٧٣/٢) ، لسان العرب (١٤٧/٣) ، (وحمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، أبو قبيلة . وذكر ابن الكلبي أنه كان يلبس حللا حمرا . وليس ذلك بقوي . قال الجوهري : ومنهم كانت الملوك في الدهر الأول . واسم حمير العرنجج . قال الهمداني :: حمير في قحطان ثلاثة :الأكبر والأصغر والأدنى . فالأدنى : حمير بن الغوث بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد بن سدد بن زرعة . وهو حمير الأصغر بن سبأ الأصغر بن كعب بن سهل بن زيد بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن حذار بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن العرنجج وهو حمير الأكبر بن سبأ الأكبر بن يشجب) ، تاج العروس (١٥٨/٣)، (وزرعة هو الأصغر) ، الاشتقاق (ص ٣١١ ، حاشية) .

أولاد ، جعلهم بعضهم تسعة ، هم : الهميسع ، ومالك ، وزيد ، وعريب ، ووائل و (مشروح) مسروح[1] ، ومعد يكرب ، وأوس ، ومرة[2] . وجعلهم بعض آخر أقل من ذلك ، أو أكثر عدداً[3] .

وهم أنفسهم أجداد قبائل حمير . ومن نسل هؤلاء : بنو مرة ، وهم في حضرموت ، والأماوك ، وبنو خيران ، وذو رعين ، وبنو هوزن ، والأوزاع[4] ، وبنو شعبان[5] ، وبنو عبد شمس ، وبنو شرعب ، وزيد الجمهور . وبنو الصوّار ، وأكثر قبائل حمير منهم . وقد كان الملك فيهم وبقي الى مبعث الرسول . ومنهم الحارث الرائش الذي غزا — على زعم الأخباريين — الأعاجم والروم . وعرف بـ (ملك الأملاك) ، وحملت اليه الهدايا من أرض الصين وبلاد الترك والهند ، وملك الأرض بأسرها ، وأدت اليه جميع الناس الخراج[6] . وقد جعلوا مدة حكمه خمساً وعشرين ومئة سنة ، وهي مدة لا أدري كيف إكتفى بها أصحاب الأخبار الذين اعتادوا منح العمر الطويل للملوك هم أقل شأناً ودرجة بكثير من هذا الملك المظفر السعيد .

ويظهر لنا من تدقيق منازل القبائل والبطون المنسوبة الى حمير ، انها كانت في العربية الجنوبية ، وانها بقيت في مواضعها على الغالب في الاسلام . بينما نجد قبائل (كهلان) وبطونها ، وهي فرع سبأ الثاني وقد سكنت في مواضع بعيدة عن اليمن . وهي قبائل ضخمة . أضخم من قبائل حمير . ثم انها كانت تتكلم بلهجة قريبة من لهجة القرآن الكريم في الاسلام . أما بطون حمير ، فقد كانت تتكلم بلغة ركيكة رديئة غير فصيحة بعيدة عن العربية على حدّ تعبير الأخباريين ، ويظهر ان هذا التباين كان عاملاً مهماً في تمييز حمير عن غيرها وفي حشر البطون في جذم حمير . فمن حافظ على لهجته القديمة ، وبقي يستعملها ، عُدّ في هذا

١ (مسروح) ابن حزم : جمهرة (ص ٤٠٦) (تحقيق ليفي بروفنسال) .
٢ ابن خلدون (٢٤٢/٢ وما بعدها) (والهميسع أحد قبيلي حمير ، وهما الهميسع ومالك ابن حمير الأكبر) . منتخبات (ص ١١٠) .
٣ سبائك الذهب ، (ص ١٨) .
٤ ابن حزم (ص ٤٠٦ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢٤٢/٢ وما بعدها) .
٥ خلاصة الكلام (ص ٥٢) ، منتخبات (ص ٥٦) . سبائك الذهب ، (ص ١٨) .
٦ طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب (ص ٤٣ وما بعدها) .

الجذم . ولم يحافظ على هذه اللهجات الا الذين بقوا في أماكنهم وفي مواضعهم، ولم يختلطوا بالقبائل الأخرى التي تأثرت لهجتها بلهجة القرآن الكريم .

وحمير عند الأخباريين أبو الملوك التابعة والأدواء والأقيال ، وهو شقيق كهلان أبي الملوك من الأزد من بني جفنة ومن لخم[1] . ويلاحظ انهم قد حصروا حكم اليمن والقبائل القحطانية المقيمة بها في حمير ، على حين جعلوا الملك على عرب الشأم وعرب العراق ويثرب في أيدي المنتسبين الى كهلان ، أي انهم خصوا الحكم في حارج اليمن بأيدي إخوة حمير ، فوزعوا الملك في اليمن وفي خارجها بين الأخوين . وحمير في عرفهم هو الابن الأكبر لسبأ ، فلعلّ هذا الكبر هو الذي شفع له ان يكون الوارث لليمن ، والحاكم على قبائل قحطان وعدنان فيها . وأخذ مكانة الأب بعد موته والجلوس على عرشه ، ميزة لا ينالها الا الابن البكر ، وقد ملك حمير بعد أبيه على حدّ قولهم أكثر من مئة عام[2] .

ويذكر قوم من الأخباريين ان حكم حمير كان للملوك منها ، ثم للأقيال . والقيل هو الذي يخلف الملك في مجلسه ، فيجلس في مكانه ، ويحكم فلا يرد حكمه . ومن هؤلاء الأقيال على زعمهم المثامنة ، (وهم ثمانية رجال كانوا من حمير ، وكانوا ملوكاً على قومهم ، وهم من تحت أيدي ملوك حمير ، وأولادهم قبائل من حمير ، ويسمون المثامنة . وكان من شأنهم لا يتملك ملك من حمير الا بارادتهم ، وان اجتمعوا على عزله عزلوه . وهم : يزن ، وسحر ، وثعلبان الأكبر ، ومرة ذو عثكلان . هؤلاء من أولاد سبأ الأصغر . ومقار بن مالك من أولاد حمير الأصغر ، وعلقمة ذو جدن ، وذو صرواح)[3] .

١ طرفة الأصحاب (ص ٤٣) .
٢ المصدر نفسه .
٣ طرفة الأصحاب (ص ٤٨ وما بعدها) ، (ثمانية أملاك من ولد حمير الأصغر بن سبأ الأصغر يسمون المثامنة ، جعلوا ذلك اسماً علماً لهم للفرق بينه وبين ثمانية العدد النكرة . قال رجل من العتيك بن أسلم بن يذكر بن عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار ، لرجل من بني يربوع :

تطول علي بالأنساب حتى … كأنك من مثامنة الملوك
من آل مراثد أو ذي خليل … وذي جدن بني القيل المليك
وذي صرواح أو ذي ثعلبان … ومن ذي حزفر عالي السموك
ومن ذي عثكلان وذي مقار … ذوي العلماء والمجد العتيك .

ويلي الأقيال في الحكم الأذواء ، وهم كثيرون منهم : ذو فيفان ، وذو يهر ، وذو يزن، وذو أصبح، وذو الشعبين، وذو حوال ، وذو مناخ ، وذو يحضب ، وذو قينان [1] .

ولما أعاد (عمر بن يوسف بن رسول) مؤلف كتاب (طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب) المتوفى سنة ست وتسعين وستمائة ، وهو نفسه ملك من ملوك اليمن ، الحديث عن المثامنة ، ذكر انهم ثمانية أقيال استقاموا بعد سيف بن ذي يزن ، وهم : آل ذي مناخ ، وآل ذي يزن ، وآل ذي خليل ، وآل ذي مقار ، وآل ذي عثكلان ، وآل ذي ثعلبان ، وآل ذي معاهر ، وآل ذي جدن . وأعظمهم آل ذي يزن لخؤولة أسعد الكامل [2] . وهكذا نجده يرجع تأريخ ظهورهم الى ما بعد أيام سيف بن ذي يزن ، ثم يرجعها الى ما قبل ذلك ، ويغير في الأسماء ويبدل . ولكن علينا ان نعلم ان الأخباريين لا يعرفون التواريخ على وجه صحيح مضبوط ، ثم انهم يخلقون من الرجل جملة رجال ، فخلقوا من أبرهة مثلاً ، وقد عرفنا زمانه ، جملة أبرهات ، وزّعوا أيامها في أزمان تبدأ عندهم قبل أيام سليمان بن داوود وتنتهي بأبرهة الحقيقي حاكم اليمن بعد الميلاد . فلا غرابة إن ذكروا أكثر من سيف بن ذي يزن ورجعوا بتاريخ أيامه الى الوراء .

وكثير من أسماء البطون والقبائل التي يرجع النسابون نسبها الى حمير ، هي أسماء وردت في نصوص المسند ، ومنها أسماء قبائل وبطون حقاً ، ولكنها ليست بالطبع على الشكل الذي يراه الأخباريون ، ولا من حمير بالضرورة . هي أسماء أقوام ولكنها خالية من الآباء والأجداد . أما الآباء والأجداد ، فهي من مولدات

= أولئك خير أملاك البرايا — وأرباب الفخار بلا شريك

فأجابه اليربوعي :

تفاخرني بقوم لست منهم — فما سبب الملوك الى العتيك
شهدت بما شهدت به فابلغ — بصدق شهادتي لهم ألوكي
ولكن لي عليك قديم مجد — وعالي مفخر صعب السلوك
بيربوع وغلب من بنيه — لهم كانت ردافات الملوك

مسحبان (ص ١٦) .

[1] طرفة الأصحاب (ص ٥٠ وما بعدها) .

[2] طرفة الأصحاب (ص ٥٥) .

المتأخرين منهم ، وأغلب ظني انها من المستحدثات التي ظهرت في الجاهلية المتصلة بالإسلام وفي الإسلام . وقد ذكر الأخباريون أسماء عدد كبير من البطون والقبائل المنتسبة الى حمير ، كان لها شأن كبير في تأريخ اليمن في الإسلام . أمـا في خارجها ، فقد أعطى الأخباريون الأدواء الكبرى لأبناء كهلان .

وأما (قضاعة) فللنسابين في أصلها آراء ، منهم من أرجع نسبها الى حمير ، فجعل نسبها قضاعة بن مالك بن عمرو بن مُرّة بن زيد بن حمير [1] . ومنهم من نسبها الى معدّ ، فجعل قضاعة الابن البكر لمعدّ [2] ، ومنهم من صيرهـا جذماً مستقلاً مثل جذم قحطان وعدنان . ومرد هذا الاختلاف الى عوامل سياسية أثرت تأثيراً كبيراً في تصنيف الأنساب ، ولا سيا في أيام معاوية وابنه يزيـد اللذين بذلا أموالاً جسيمة لرؤساء قضاعة في سبيل حملهم على الانتفاء من اليمن والانتساب الى معدّ ، لكونها قوة كبيرة في بلاد الشأم في ذلك العهد ، ولا سيا ان منهم بني كلب ، فذكر ان زعماءها وافقوا تجاه هذه المغريات على الانتساب الى معدّ ، غير ان الأكثرية رفضت ذلك ، وأبت إلا الانتساب الى قحطان [3] . ويرى بعض النسابين والمستشرقين ان انتساب قضاعة الى يمن غير قديم [4] . (قال أبو جعفر بن حبيب النَسّابة : لم تزل قضاعة في الجاهليـة والاسلام ، تعرف بمعدّ حتى كانت الفتنة بالشأم بين كلب وقيس عيلان أيام مروان بن الحـكم . فقالت كلب يومئذ الى اليمن ، فانتمت الى حمير ، استظهاراً منهم بهم الى قيس . وذكر ابن الأثير في الأنساب هذا الاختلاف ، ثم قال : ولهـذا قال محمد بن سلام البصري النَسّابة لما سئل : أنزار أكثر أم اليمن ؟ فقال : إن تمعددت قضاعة ،

١ منتخبات (ص ٨٧) ، ابن خلدون (٢٤٧/٢) ، المبرد (ص ٢٣) ، ابن حزم : جمهرة (ص ٤١١ وما بعدها) ، (عمرو بن مالك بن حمير) ، القاموس (٦٩/٣) ، الاشتقاق (ص ٣١٣) ، خلاصة الكلام، (ص ٤٩) ، سبائك الذهب (ص ١٩ ، ٢٣) .

٢ ابن عبد البر . الانباه على قبائل الرواة (ص ٥٩ ، ١٢١) ، (وتزعم نساب مضر ، انه قضاعة بن معد بن عدنان ، والصواب هو الأول) تاج العروس (٤٧٠/٥) ، اللسان (١٤٧/١٠) .

٣ منتخبات (ص ٨٧) ، ويجد القصة في شكل آخر في كتاب : الانباه على قبائل الرواة لابن عبد البر (ص ٦٠ وما بعدها) . ولكنها لا تغفل العامل السياسي في هذا الباب . الجاحظ : كتاب الحيوان (١٠٧/٤) ، الأغاني (٧٧/٧ وما بعدها) .

٤ Wellhausen, Das Arabische Reich, S., 113, Ency, II, P. 1093

فنزار أكثر ، وان تيمنت ، فاليمن)[1] . والظاهر ان اختلاط قبائل قضاعة بقبائل قحطان وبقبائل عدنان هو الذي أحدث هذا الارتباك بين أهل الأنساب ، فجعلهم ينسبونها تارة الى قحطان ، وأخرى الى عدنان . تضاف الى ذلك العوامل السياسية التي يغفل عن ادراكها أهل الأخبار .

ولا استبعد كون قضاعة كتلة من القبائل كانت قائمة بنفسها قبل الاسلام . ربما كانت حلفاً كبيراً في الأصل ، ثم تجزأت وتشتتت ، فالتحق قسم منها بمعد ، وقسم منها باليمن .

وقد صرح بعض النسّابين المعروفين ان العرب ثلاث جرائم : نزار ، واليمن وقضاعة[2] . فجعل قضاعة جذماً قائماً بذاته مما يشير الى أهميتها قبل الاسلام وفي الاسلام ، خاصةً اذا ما تذكرنا مكانة القبائل المنتمية اليها وأثرها الكبير في السياسة في الجاهلية وبعدها . ولما للنسب من أثر خطير في الميزان السياسي لذلك العهد ، خاصة في أيام معاوية وفي دور الفتن التي وقعت في صدر دولة الأمويين ، ولثقل هذه الكتلة ، كان من المهم لمعاوية اجتذابها اليه ، وضمّها الى معدّ وهو منها ، لتقوية هذا الحزب .

وكان قضاعة جد القضاعيين الأكبر على رواية أهل الاخبار ، مثل سائر أبناء سبأ ، مقيماً في اليمن أرض آبائه وأجداده . ولكنه تشاجر مع وائل بن حمير ، وتخاصم معه وآثر الهجرة الى الشّحر ، فذهب اليها ، وأقام في هذه الارض مع ابنائه ، وصار ملكاً عليها الى ان توفي بها ، فقبر هناك . فصار الملك لابنه (الحاف) (الحافي)[3] ، وهو في زعم الاخباريين والد ثلاثة أولاد ، هم : عمرو ، وعمران ، وأسلم . ومن نسل هؤلاء تفرعت قبائل قضاعة[4] . وأما أمهم ، فبنت غافق بن الشاهد بن علك[5] . فكان من صلب عمرو : حيدان :

---

١ تاج العروس (٥/٤٧٠) .
٢ الانباه (ص ٦٣) .
٣ (والحافي بن قضاعة والد عمران ، معروف) تاج العروس (١٠/٩٤)
٤ ابن خلدون (٢/٢٤٧) ، طرفة الأصحاب (ص ٥٦) ، سبائك الذهب (ص ٢٣) ، (ولد الحاف رجلين : عمران بن الحاف ، وعمرو بن الحاف . هذا ما لم يختلف فيه) ، الانباه (ص ١٢١) .
٥ ابن حزم ، جمهرة (ص ٤١٢) .

وبلي ، وبهراء . وكان من عمران ابنه حلوان[1] ، وأمه ضرية بنت ربيعة بن نزار بن معد . فولد حلوان : تغلب ، وربان[2] ، ومزاحا وعمرا وهو سليح ، وعابداً وعائذاً وقد دخلا في غسان ، وتزيد وقد دخل نسله في تنوخ[3] . وكان من نسل أسلم : سعد هذيم ، وجهينة[4] ، ونهد[5] .

وجعل من رجّع نسب قضاعة الى معد ، الارض التي أقام فيها قضاعة وأبناؤه

١ (وحلوان بالضم بن عمران بن الحاف بن قضاعة) القاموس (٣١٩/٤) ، (وحلوان ابن عمران بن الحاف بن قضاعة من ذريته الصحابيون • وهو باني حلوان بالعراق)، تاج العروس (٩٦/١٠) •

٢ (وربان ، ككتاب ، اسم شخص من جرم • وليس في العرب ربان بالراء غيره ومن سواه بالزاي قلت : الذي صرح به أئمة النسب : انه ربان ، كشداد • وهو : ابن حلوان • وهو والد جرم من قضاعة • ينسب اليه جماعة من الصحابة وغيرهم • وهكذا ضبطه الحافظ الذهبي وابن حجر وابن الجواني النسابة • وقوله : اسم شخص من جرم غلط ايضا • فتأمل) ، تاج العروس (٣١١/٩) ، القاموس (٢٢٦/٤) •

٣ الاشتقاق (ص ٣١٤) ، ابن حزم ، جمهرة (٤٢١) ، (وتزيد بن حلوان بن عمران ابن الحاف بن قضاعة • هكذا بالمثناة الفوقية • وفي نسختنا بالفوقية والتحتية • أبو قبيلة • ومنه البرود التزيدية • وقال علقمة :

رد القيان جمال الحي فاحتملوا فكلهــا بالتزيـديات معـــكوم

وهي برود ، فيها خطوط حمر • يشبه بها طرائق الدم • قال أبو ذؤيب :

يعثرن في حـد الضبـأة كأنمـا كسيت برود بنــي تزيـد الأذرع

قال أبو سعيد السكري : العامة تقول بني تزيد • ولم أسمعها • هكذا قال شيخنا • قيل وصوابه تزيد بن حيدان كما نبه عليـه العسكري في التصحيف في لحـن الخاصة • وفي كتاب الايناس للوزير المغربي في قضاعة : تزيد بن حلوان • وفي الأنصار : تزيد بن جشم بن الخزرج بن حارثة • وسائر العرب غير هذين فبالياء المنقوطة من أسفل • وقال السهيلي في الروض • ان في بني سلمى من الأنصار شاردة بن تزيد بن جشم بالفوقية • ولا يعرف في العرب الا هذا وتزيد بن الحاف ابن قضاعة • وهم الذين ينسب اليهم الثياب التزيدية) ، تاج العروس (٣٦٨/٢) •

٤ ابن خلدون (٢٤٧/٢) ، (وجهينة : قبيلة من قضاعة • وهو ابن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة • وقضاعة من ريف العراق • وسبب نـزول جهينة في الحجاز قرب المدينة ، مذكور في الروض •) تاج العروس (١٦٩/٩) •

٥ ابن حزم ، جمهرة (٤١٥) ، (ونهد) ، قبيلة باليمن • وهم : بنو نهد بن زيد بن ليث بن أسلم بن الحاف بن قضاعة ، وفي همدان : نهد بن مرهبة بن دعام بن مالك ابن معاوية بن صعب) ، تاج العروس (٥١٩/٢) ، (وفي قضاعة سعد هذيم) ، تاج العروس (٣٧٧/٢) •

جدّة وما دونها الى منتهى ذات عرق ، الى حيز الحرم ، من السهل والجبل . وبجُدّة ولد جدّة بن جرم بن ربان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة وبها سمّي على قول أصحاب الأخبار [١] .

أما حيدان [٢] ، فتنتسب الى حيدان بن عمرو بن الحاف ، والد مهرة في نظر النسابين [٣] ، فهو جدّ قبيلة عربية جنوبية على هذا الرأي [٤] ، وما زال اسم مهرة معروفاً حتى الآن . ولمهرة لغة خاصة ، عني بدراستها المستشرقون . وهم من القبائل العربية القديمة التي ورد ذكرها في مؤلفات (الكلاسيكيين) [٥] . وقد علل بعض العلماء القدماء بعد لغة مهرة عن العربية بقوله : (مهرة انقطعوا بالشحر ، فبقيت لغتهم الأولى الحميرية لهم ، يتكلمون بها الى هذا اليوم) [٦] . وذكر ابن حزم لحيدان أولاداً آخرين ، هم يزيد ، وعريب ، وعربد ، وجنادة [٧] .

ويظهر من روايات النسابين ان بطون حيدان لم تكن كثيرة ، وان مواطنها لم تتجاوز العربية الجنوبية ، وانها كانت تتكلم بلهجات العربية الجنوبية القديمة ، وحافظت عليها في الاسلام . فهي مثل بطون حمير ، تختلف في لهجتها عن القبائل الأخرى التي تكلمت بلهجة مقاربة من اللهجة العربية الفصحى . إذن فما الرابط الذي جعل النسابين يرجعون نسب قبائل حيدان الى قضاعة مع هذا الاختلاف البين في اللهجات ؟ ومع سكناها في محل قاصٍ ناءٍ عند الساحل الجنوبي للجزيرة ؟

---

١ البكري (١/١٧) ، (وبجُدة ولد جده بن جرم بن ربان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، فسمي جدة باسم الموضع) البلدان (٣/٦٧ وما بعدها) .

٢ (وبنو حيدان . قال ابن الكلبي : هو أبو مهرة بن حيدان)، تاج العروس (٢/٣٤٢) . (وحيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة ، أبو مهرة بن حيدان) ، منتخبات (ص ٣٠) .

٣ منتخبات (ص ٣٠) ، ابن خلدون (٢/٢٤٧) . القاموس (٣/١٣٧) ، (ومهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة بالفتح ، أبو قبيلة . وهم حي عظيم واليها يرجع كل مهري.) تاج العروس (٣/٥٥١) .

٤ منتخبات (ص ١٠٠) .

٥ Ency., III, P. 138

٦ الاشتقاق (٣٢٣) .

٧ جمهرة (ص ٤١٢).

اللهم إلا ان تكون كل فروع قضاعة على هذا الطراز من اللهجات ، وهذا أمر لم يتحدث عنه الأخباريون ولم يعرفوه .

وأما بليّ [١] ، فقد كانت مواطنهم عند ظهور الاسلام على مقربة من تيماء بين مواطن جهينة وجُذام ، أي في المنطقة التي كانت لثمود في جغرافية (بطلميوس) . ومن بليّ ، بنو فرّان [٢] وهني [٣] .

ولم يذكر الأخباريون بطوناً ضخمة عديدة لبهراء [٤] ، ويظهر انها لم تكن من القبائل الكثيرة العدد . ومن بطونها : قاسط ، وعبـدة ، وأهود (أهوذ) ، ومبشر ، وبنو هنب بن القـين [٥] ، وبنو فائش (بنو قاس) ، وشبيب ابني دريم ، ومطرود ، وثمامة ، وعكرمة ، وثعلبة ، ودهر ، وسعد [٦] .

وأما عمران بن الحاف (الحافي) ، فولد حلوان ، وقد ولد هـذا جملة أولاد هم: تغلب ، وربان وهو عـلاف ، ومزاح ، وعمرو ، وهو سليح [٧] ،

١ (بلى · فعيل) ، بلى قبيلة من اليمن من قضاعة والنسبة اليهم بلوى · وهم ولد بلى بن عمرو بن الحاف بن قضاعة · قال المسلم بن قرط البلوى :

ألم تر أن الحـى كانوا بغبطـة   بمأرب اذ كانـوا يحلونهـا معـا
بلـى وبهـراء وحـولان إخـوة   لعمرو بن حاف فرع من قد تفرعا

منتخبات (ص ٩) ·

٢ الاشتقاق (ص ٣٢٢) ، القاموس (٤/٢٥٥) ·

٣ ابن حزم ، الجمهرة (ص٤٠١٣) ·

٤ (بهراء : قبيلة من اليمن ، وهم ولد بهراء بن عمرو بن الحاف بن قضاعة ، والنسبة اليهم بهراني بنون على غير قياس) منتخبات (ص ١٠) ·

٥ ابن حزم . جمهرة (ص ٤١٢ وما بعدها) ، (وهنب اسم رجل · وهو أبو قبيلة · وهو هنب بن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد · وهو أخو عبد القيس وأبو عمرو وقاسط · قاله ابن قتيبـة · ولا عجب في تفسير المصنف · كما توهمه شيخنا · وقبيلة أخرى ، تعرف بهنب بن القين بن أهوذ بن بهراء بن عمرو بن الحافي بن قضاعة · ذكره الصاغاني) · تاج العروس (١/٥١٨)·

٦ (بنو فائش) ، Wustenfeld Genea., Tab. 2 (بنو قاس) هكذا ضبطه ليفي بروفنسال وهو خطأ ، ابن حزم (ص ٤١٣)·

٧ (سليح كجريح) ، قبيلة باليمن · هو سليح بن حلوان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة قلت : واسمه عمرو · وهو أبو قبيلة · وإخوته أربع قبائل : تغلب الغلباء ، وغشم (غنم) ، وربان ، ويزيد بني حلوان بن عمرو) ، تاج العروس (٢/١٦٥) ، سبائك الذهب (ص ٢٣) ·

وعابد ، وعائذ ، وهم أجداد قبائـــل ، كما ذكرت ذلك آنفاً .

ومن بني سليح[1] : حماطة[2] ، وهم ضجعم بن سعد بن سليح ، وهم الضجاعمة الذين ملكوا بالشأم قبل غسان . وبنو سليح هم أسلاف الغساسنة كذلك ، وهم في نظر النسابين أبنـــاء : سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف[3] . ونسبت الى سليح بطون أخرى منها : أشجع وعمرو والأبصر والعبيد[4] .

ومن نسل (ربان) (زبان)[5] ، قبيلة (جرم) ، ومـــن ولد جرم : قدامة ، وملكان ، وناجيـــة ، وجدّة[6] . ومن جرم كان (عصام) حاجب النعمان[7] . ومن بطون جرم الأخرى : بنو راسب ، وبنو شمخ[8] .

أما تغلب بن حلوان ، فولد وبرة ، وولد وبرة أسداً ، والنمر وكلباً . وهي قبائل ضخمة ، والبرك ، والثعلب ، وهما بطنان ضخمان[9] . وولد أسد ، تيم الله وشيع اللآت . فولد تيم الله بن أسد : فهم ، وهم من تنوخ ، وقسم ، وهم بالجزيرة ، حلفاء لبني تغلب ، ومن فهم : مالك بن زهير بن عمرو بن فهـم ابن تيم الله بن أسد بن وبرة . وعليه تنخت تنوخ وعلى عمّ أبيه مالك بن فهم ، فتنوخ على ثلاثة أبطن : بطن اسمه فهم ، وهم هؤلاء . وبطن اسمه نزار ، وهم

---

١ (وعمرو ، وهو سليم) ، (وهؤلاء بنو سليم ، وهو عمرو بن حلوان) ، ابن حزم : جمهرة (ص ٤٢١) ، (تحقيق ليفي بروفنسال) ، (بنو سليم) ، هكذا ضبط (ليفي بروفنسال) الاسم ، وهو خطأ ، وصوابه : سليح ، سبائك الذهب (ص ٢٣) ، راجع كتب الأنساب الأخرى ، Wustenfeld Genea., Tab. 2

٢ جمهرة (ص ٤٢١) .

٣ الانباه (ص ١٢٣) .

٤ سبائك الذهب (ص ٢٤) .

٥ الانباه (ص ١٢١) ، منتخبات (ص ٢٠) ، الاشتقاق (٣١٤ ، ٣١٨) ، (جرم بن زبان) ، تاج العروس (٢٢٦/٨) ، اللسان (٣٦٢/١٤) . راجع ملاحظة رقم (٣) من صفحة ٢٤٠ من كتابي . تاريخ العرب قبل الاسلام .

٦ ابن حزم . الجمهرة (٤٢١) .

٧ الاشتقاق (ص ٣١٨) ، ابن خلدون (٣٤٧/٢) ، (وجرم بن زبان بن حلوان بن عمران ابن الحافي ، بطن في قضاعة) ، تاج العروس (٢٢٦/٨) ، (وجرم بطنان : بطن في قضاعة . وهو جرم بن زبان ، والآخر في طيء) ، اللسان (٣٦٢/٤) .

٨ ابن حزم . الجمهرة (ص ٤٢٢) .

٩ ابن حزم : الجمهرة (ص٤٢٣ وما بعدها) ، سبائك الذهب (ص ٢٤) .

لوث ، ليس نزار لهم بوالد ولا أم . ولكنهم من بطون قضاعة كلها ، من بني العجلان بن الثعلب ، ومن بني تيم الله بن أسد بن وبرة ، ومن غيرهم ؛ وبطن ثالث يقال له الأحلاف ، وهم من جميع القبائل كلها ، ومن كندة ولخم وجذام وعبد القيس [1] .

ومن نسل شيع اللآت : بنو القين . وهو النعمان بن جسر بن شيع اللآت بن أسد بن وبرة [2] . ومن بطون بني القين ، جشم (جسم) [3] ، وزعيزعة ، وأنس ، وثعلبة ، وفالج ، وبنو مالك بن كعب بن القين . وكعب وكنانة ، ومالك ومعاوية . وبطون أخرى ذكرها (وستنفلد) [4] . وكان للقين جمع عظيم وثروة في أكناف الشأم ، فكانوا يناهضون كلب بن وبرة ، ثم ضعف أمرهم ووهن حتى ما يكاد ان يعرفوا [5] .

ومن نسل النمر بن وبرة بن تغلب : التيم ، وجعثمة ، ووائل وهو خُشَيْن ، وقتبة ، وغاضرة ، و (عاينة) عاتية ، وبطون أخرى دخلت في قبائل عديدة ، فعدت منها [6] ، مما يدل على انها لم تكن ذات عدة وعدد ، لذلك كان لا بد

---

١ ابن حرم : الجمهرة (ص ٤٢٣) ٠

٢ ابن حرم ، الجمهرة (ص ٤٢٤) ٠ (القين هذا الذي نسبوا اليه اسمه : النعمان بن شيع الله بن أسد بن وبرة بن ثعلب ؟ (تغلب) بن حلوان بن عمران بن الحافي بن قضاعة ٠ وقال ابن الكلبي : النعمان حضنه عبد يقال له القين ، فغلب عليه ٠ ووهم ابن التين ٠ فقال : بنو القين قبيلة من تميم) ، تاج العروس (٩/٣١٦) ٠ (شيع الله) هكذا ضبطه (ليفي بروفنسال) ، والأصح (شيع اللآت) الانباه (ص ١٢٣) (بنو القين بن جسر بن شيع اللات بن أسد بن وبرة) ، (القين بن جسر) ، الاشتقاق (ص ٣١٧) ٠

٣ (جدسم) هكذا حققه (ليفي بروفنسال) ، جمهرة (ص ٤٢٤) ، والصحيح (جشم) ،

٤ Wustenfeld Genea., Tab. 2

٥ الانباه (ص ١٢١) ٠

٦ ابن حزم ، جمهرة (ص ٤٢٤) ، (وخشين بن النمر بن وبرة بن تغلب بن حلوان في قضاعة ٠ واسمه وائل بن النمر) ، تاج العروس (٩/١٩١) ، (وفي قضاعة تيم بن النمر بن وبرة ٠ منهم الأفلج الشاعر الفارس) ، تاج العروس (٨/٢١١) ، (وجعثمة بالضم ، اسم ٠ وقال أبو نصر : حي من هذيل ، أو حي من أزد السراة ٠ قاله الأزهري ٠ وفي شرح الديوان من أزد شنوءة أو من اليمن) ، تاج العروس (٨/٢٣٠) ٠

لها من الدخول في القبائل الاخرى والاندماج فيها ، لحماية نفسها من تعديات القبائل والبطون القوية عليها .

وكلب من قبـائل قضاعة الشهيرة . وتنسب الى هذه المجموعة : تغلب بن حلوان فجدّها في عرف النسابين كلب بن وبرة بن تغلب [1] بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة . وكانوا ينزلون في الجاهلية دومة الجندل وتبوك وأطراف الشام . [2] وقـد كانت لهم لهجة خاصة لم يستعملها احد من الشعراء الجاهليين . [3] ولعل ذلك بسبب اتصال هذه القبيلة بالنبط ، اي ببقية بني ارم وبغيرهم ممن لم تكن لهم لهجة عربية نقية ، فتأثرت لهجتها بهذا الاختلاط .

واشتهر من رجال هذه القبيلة زهير بن جناب ، وهو ممن يدخله الاخباريون في المعمرين الجاهليين . [4] وجعلوا عمره أربع مئة وعشرين سنة ، ونسبوا اليه مئتي وقعة ، وجعلوه سيد قومه وخطيبهم وشاعرهم ووافدهم الى الملوك وطبيبهم وكاهنهم وفارسهم ، ونسبوا اليه الامثال والشعر ، وذكروا ان من شعره قوله :

ونادمت الملوك من آل عمرو وبعدهم بني مـاء السماء [5]

وأنه قاله وقد بلغ من العمر مئتي عام ، فجعلوه بذلك معاصراً للمناذرة ملوك الحيرة ، فيكون على قولهم هذا قد عاش طويلاً في الاسلام . وقد ادرك هشام ابن الكلبي هذا التناقض في احدى رواياته ، فصحح عمر زهير واقتصر على مئتي عام . [6] وهو عمر كاف ولا شك يشتاق ان يبلغه كل انسان . ولكنه عمر استقله

---

١ الانباه (ص ١٢١) ، خلاصه الكلام (ص ٤٩) ، سبائك الذهب (ص ٣٠) ، ابن حزم : جمهرة (ص ٤٢٥) ، (وكلب وبنو كلب ، وبنو أكلب ، وبنو كلبة ، وبنو كلاب ٠ قبائل من العرب ٠ قال الحافظ ابن حجر في الاصابة : حيثما أطلق الكلبي ، فهو من بني كلب بن وبرة ٠ قال شيخنا : هو أخو نمر ونوح ، كما في معارف ابن قتيبه ، وقال العيني : في طي كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن الحاف بن قضاعة ٠ وأما تغلب بن وائل فعدناني ، وهذا قحطاني ٠) ، تاج العروس (١/٤٦١) ، (وكلب٠ حي من قضاعة٠) ، اللسان (٢/٢٢٢) ٠

٢ خلاصه الكلام (ص ٤٩) ٠

٣ Ency., II, P. 688.

٤ السجستاني ، كتاب المعمرين (٢٧ وما بعدها) ٠

٥ السجستاني (ص ٢٨) ٠

٦ السجستاني (ص ٢٨) ٠

الأشياخ الكلبيون الذين لا يرضيهم هذا التنقيص في السن .

ولم يكن زهير رئيساً لكلب خاصة ، بل كان على رأي الرواة الكلبيين رئيساً على كلّ قضاعة . ويذكر الاخباريون ان قضاعة لم تجمع على اطاعة رئيس الا زهيراً والا رزاح بن ربيعة ، وهو من عذرة . وكان رزاح هذا اخا قصي بن كلاب لأمه . [1] وقد جعل الاخباريون زهيراً معاصراً لكليب بن وائل . ويفهم من شعر منسوب الى المسيب بن الرفـل ، وهو من ولد زهير بن جناب قاله مفتخراً بزهير متبجحاً به : ان ابرهة كان قد اصطفى آل زهير ، وسوّدها على الناس ، وأعطاه الإمرة عليهم ، وجعله اميراً على حيي معدّ وعلى ابني وائل حيث أهانهما وأذلها . [2] ومعنى ذلك ان زهيراً كان في ايام ابرهة ، اي في النصف الاول من القرن السادس للميلاد ، وأنه على ذلك كان معاصراً لقصي زعيم قريش .

ولم يقنع الرواة الكلبيون بكل ما ذكروه عن حياة زهير ، بل أرادوا ان تكون خاتمة زهير خاتمة غريبة كذلك كغرابة حياته ، فذكروا انه كبر حتى خرف وحتى استخفت به نساؤه ، وأنه لم يتمكن من الأكـل بنفسه ، فصارت معزبته تطعمه بنفسها ، الى ان ملّ الحياة على هذا النمط ، فأخذ يشرب الخمر صرفاً اياماً حتى مات . وذكروا ان احداً من العرب لم يفعل هذا الفعل غير زهير وغير أبي براء عامر بن مالك بن جعفر ، والشاعر عمرو بن كلثوم . [3]

ومن حروب زهير حربه مع بكر وتغلب ابني وائل ، ويروي الاخباريون في ذلك ان ابرهـة حين طلع على نجد اتاه زهير فأكرمه وفضله على من اتاه من العرب ، ثم أقرّه على بكر وتغلب ابني وائل ، فوليهم . وصار يجبي لهم الخراج ، وحدث ان اصابتهم سنة شديدة لم يتمكنوا فيها من دفع ما عليهم اليه . فلما طالبهم بها ، اعتذروا عن الدفع ، فاشتدّ عليهم ، ومنعهم من النجعـة حتى يؤدوا ما عليهم ، فكادت مواشيهم تهلك . فلما رأى ذلك (ابن زيابة) احد بني تيم الله ابن ثعلبة ، وكان فاتكاً معروفاً ، اتى زهيراً وهو نائم ، فاغمد السيف في بطنه ، ثم فرّ هارباً ظاناً انه قد أهلكه . ولما افاق زهير ، اخذه من كان معه من قومه

---

١ السجستاني (ص ٢٨) .
٢ السجستاني (ص ٢٩) .
٣ السجسناني (ص ٢٨) .

حتى وصلوا به الى قبيلته ، فجمع عندئذ جموعه ومن قدر عليه من اهل اليمن ، وغزا بهم بكراً وتغلب ، وقاتلهم قتالاً شديداً انهزمت به بكر ، وقاتلت تغلب بعدها ، فانهزمت ايضاً ، وأسر كليب ومهلهل ابنا ربيعة ، وأخذت الأموال ، وكثرت القتلى في بني تغلب ، وأسرت جماعة من فرسانهم ووجوههم ، وانتصر زهير نصراً عظيماً . [1]

ونسبت اليه حرب اخرى مع غطفان ، قالوا ان سببها ان بني ريث بن غطفان حين خرجوا من تهامة ساروا بأجمعهم ، فتعرضت لهم صداء ، وهي قبيلة من مذحج ، فقاتلوهم ، وبنو بغيض سائرون بأهليهم وأموالهم ، فقاتلوهم عن حريمهم فظهروا على صداء وفتكوا فيهم ، فعزت بغيض بذلك ، وأثرت ، وكَثُرَتْ اموالها ، فلما رأت ذلك ، قالت : (والله لنتخذن حرماً مثل مكة لا يقتل صيده ولا يهاج عائذه) ، فبنوا حرماً ، ووليه (بنو مرة بن عوف) فلما بلغ فعلهم وما اجمعوا عليه زهير بن جناب ، أبى ذلك ، وفرر منع غطفان من اتخاذ هـذا الحرم ، فسار اليها بجموع كبيرة ، فظفر بها ، وأصاب حاجته منها ، وأخذ فارساً منهم في حرمهم فقتله ، وعطل ذلك الحرم . [2]

وروى الاخباريون انه حارب بني القين بن جسر . وكانت له اخت متزوجة فيهم ، فأرسلت من اخبره بعزم بني القين على محاربته ، فاستعد لها ، فقاتلها ، وقتل رئيسها وانصرفت خائبة عنه . [3]

ويظهر من غربلة روايات الاخباريين عن زهير بن جناب ، ان بطل كلب هذا كان من رجال القرن السادس للميلاد ، وأنه لم يكن بعيد عهد عن الاسلام ، وأنه كان معاصراً لأبرهة ، ولعلّه كان قد تحالف معه ، فترك حلفه معه اثراً في ذاكرة الاخباريين . والظاهر انه كان ذا شخصية قويّة ، محارباً ، حارب جملة قبائل فاخضعها ، وبذلك بسط نفوذه عليها ، ورفع اسم قبيلته على القبائل الاخرى . ولعل اتصاله بابرهة وباليمن هو الذي أوجد رابطة نسب قبائل قضاعة بحمير . وقد سبق ان قلت ان المحالفات كانت تؤدي في الغالب الى الالتحام في الانساب .

---

١ ابن الأثير (١/٢٠٥) .

٢ ابن الأثير (١/٢٠٥) .

٣ ابن الأثير (١/٢٠٦) .

اما ما أورده الاخباريون بشأن زمانه وعمره ، فهو مما لا قيمة له . فمن عادة القصاص ، رفع من كانوا يتحدثون عنهم من الشخصيات البارزة التي كانت لها شأن وخطر في القدم ، واضافة السنين الطويلة الى اعمارهم ، والمبالغات والاغراب الى قصصهم ليكون ذلك اوقع في نفوس السامعين وفي مخيلة المعجبين بهذا النوع من الحكايات . ولهذا الاغراب جعل بعض المستشرقين زهيراً شخصية خرافية ، وبطلاً خيالياً اوجدته على رأيهم مخيلة الاخباريين.[1] ولكن الاغراب في القصص مهما بولغ فيه لا يكون حُجَّة قاطعة في كون من قيل فيه شخصية خرافية لا وجود لها . فقد اغرب الاخباريون في ابرهة معاصر زهير ، وبالغوا في الذي رووه عنه ، ورفعوا ايامه الى ايام داوود وأيام سليمان ، وجعلوا له اياماً اخرى . ولكن ابرهة فنّد اقاصيصهم عنه وبيّن في كتاباته التي دوّنها على سد مأرب انه من رجال القرن السادس للميلاد .

ومعظم من روى عنهم الاخباريون هذا النوع من القصص ، هم رجال مثلنا ، عاشوا وماتوا ، وكانت ايامهم في الغالب في القرن السادس للميلاد ، أي في عهد لم يكن بعيداً جداً عن الاسلام لم تتمكن ذاكرة الرواة وحفظة الاخبار من حفظ شيء عنهم ، الا هذا النوع من القصص المحبوب ، المطلوب من الناس ، يقصه القصّاصون في الليالي المقمرة الجميلة ويقصه المعمرون من رجال القبيلة ليكون فخراً لقبيلتهم . وهذا النوع من القصص هو نوع بدائي من انواع حفظ التأريخ ، وأكثر من حفظ وروى اخبار زهير بن جناب الشرقي بن القطامي ، وهشام بن الكلبي ، وأبوه محمد ، وجماعة آخرون من المشايخ الكلبيين .[2] كانوا يروون هذا النوع من القصص عن رجال كلب ، حملهم على ذلك تعصبهم لقبيلتهم كلب .

وأكثر ما روي عن كلب ، هو من اخراج تلك الأيدي الكلبيـــة ، نشرته وأذاعته بين الناس ، ومن حسن حظ كلب ان شيوخ الاخباريين الذين ذكرتهم كانوا منها ، فكان لقصصهم هذا صداه البعيد عند جمهرة الاخباريين .

---

١ Ency., II., P. 688

٢ Ency., II., P. 688.

وكلب في حد ذاتها جملة قبائل وبطون ضخمة ، منها : رفيدة ، وعُرَيْنة ، وصحب ، وبنو كنانة ، وهي قبيلة ضخمة من بطونها : بنو عدي ، وبنو زهير ، وبنو عليم ، وبنو جناب .[1]

وذكر بعض الاخبـاريين ان كلباً كانت تحكم دومة الجندل ، وأن اول من حكمها منهم هو دجانة بن قنافة بن عدي بن زهير بن جناب . وذكروا ايضاً ان الملك على دومة الجندل وتبوك ، كان لهم الى ان ظهر الاسلام ، وانهم كانوا يتداولونه مع السكون من كندة . فلما ظهر الاسلام ، كان على دومة الجنـدل الأكيدر بن عبد الملك بن السكون .[2]

وأظهر قبائل مجموعة أسلم ، جهينة ، وسعد هذيم ، ونهد . ابناء زيد بن ليث ابن الأسود بن اسلم بن الحاف بن قضاعة . اما جهينة ، فقد كانت منازلها في نجد في الأصل ، وعند ظهور الاسلام كانت تقيم في الحجاز على مقربة من المدينة بين ساحل البحر الاحمر ووادي القرى .[3]

ومن جهينة : قيس وモودعة. فولد قيس : غطفان وغيّان. ويعرفون برشدان كذلك . عرفوا في ايام الرسول .[4]

وأما نهد ، فقـد سكنت اكبر بطونها في منطقة نجران . وقد دخلت بطون منها في قبائل اخرى واندمجت فيها . وأما سعد هذيم ،[5] فأشهر قبائلها : بنو عذرة ، وبنو ضنة .[6]

---

١ الجمهرة (ص ٤٢٦) ، سبائك الذهب (ص ٢٩) .

٢ ابن خلدون (٢/٢٤٩) .

٣ Ency., I, P 1060, Caetani, Annali, II, 367.

٤ الجمهرة (ص ٤١٥ وما بعدها) ، الانباه (ص ١٢٣) .

٥ الجمهرة (ص ٤١٨ وما بعدها) . (وسعد ابن هذيم كزبير ، باثبات الألف بين سعد وهذيم ، أبو قبيلة . وهو ابن زيد بن ليث بن سود . لكن حضنه عبد حبشي أسود، اسمه هذيم ، فغلبة عليه . ونسب اليه . ومن سعد هذيم هذا ، بنو عذرة بن سعد اليه يرجع كل عذرى ، ما خلا ابن عذره بن زيد اللآت فى كلب . قاله ابن الجوانى النسابة) ، تاج العروس (٩/١٠١) .

٦ (وضنة بالكسر . خمس قبائل من العرب . وقول الجوهرى . و ٠له قصور . قال شيخنا : اذا قصد من قبيلة جنس القبيلة ، فتصدق بكل قبيلة ، فلا قصور ، على أن

وتقع منازل بني عذرة في اعالي الحجاز في جوار عدد من القبائل المنتمية الى مجموعة قضاعة ، وهي : نهد ، وجهينة ، وكلب ، وبلي . وتقع ارضها في جوار غطفان ، ومن مواضعها : وادي القرى ، وتبوك حتى ايلة . ويذكر الاخباريون ان بني عذرة حينما وفدوا الى وادي القرى من مواطنهم الاصلية على اثر الحروب التي وقعت بين قبائل قضاعة وحمير ، وجدوا اليهود في هذه الديار ، فتحالفوا معهم ، وعاشوا في هذا الوادي وفي المواضع المجاورة له .[1]

وقد ذهب شبرنكر الى ان (عذرة) هي (ادريته Adrithae) القبيلة التي ذكرها (بطلميوس) .[2] اما تأريخ (عذرة) البعيدة عن الاسلام فلا نعرف عنه شيئاً يذكر . وما نعرفه منه يخص الايام القريبة من الاسلام . والى صلاتها الوثيقة وحلفها مع قبائل سعد هذيم ، خاصة بني ضنة وبنو سلامان ، يعود نشوء هذا النسب الذي ربط فيما بين فروع هذه الكتلة ، وكذلك كتلة بني أسلم ومنها جهينة التي كانت ذات صلات حسنة ببني عذرة . ولهذا السبب أطلق النسابون على هذه الجماعة (صحار) .[3]

وكان لبني عذرة صلات بقبيلة قريش تتجلى في خبر الأخباريين عن مساعدة رزاح ، وهو منهم لأخيه من أمه قصي زعيم قريش في نزاعه مع خزاعة كما أشرت اليه في أثناء كلامي على مكة . كذلك كانت لهم صلات بالأوس والخزرج

الجوهري لم يلزم ذكر كل شيء كالمصنف حتى يلزمه القصور ، بل يلزمه أن يذكر ما يصح عنده ، ضنة بن سعد هذيم في قضاعة ، وضنة بن عبد الله ، كذا في النسخ ، والصواب : ضنة بن عبد بن كبير في عذرة بن سعد هذيم ، فهم أشرافهم الى اليوم ، من ذريته : رداح بن ربيعة بن حزام بن ضنة أخو قصي بن كلاب ، وضنة ابن الحلاف في أسد بن خزيمة ، وضنة بن العاص بن عمرو في الأزد ، وضنة بن الحرث في بني نمر بن عامر بن صعصعة ، أحي خويلعة بن عبدالله بن الحرث بطن أيضا .) ، تاج العروس (٩/٢٦٦) .

١ الأغاني (١٤/١٦١) .

٢ Wustenfeld, Die Wohnsitze und wanderungen der Arabischen Stamme, S., 25, 31, 37, 41, Ency., VI, P. 988.

٣ Sprenger, Die Alte Geographie Arabiens, S., 205

حيث يذكر الأخباريون ان والدة الأوس والخزرج كانت من تلك القبيلة ، فهي – في عرفهم – قَيْلَة بنت كاهل (هالك) بن عذرة . وهكذا نجد لبني عذرة علاقات بأهل المدينتين المتنافستين : يثرب ، ومكة [1] . والزواج بين القبائل من الأمور التي تقرب بينها وتصل أنسابها بعضها ببعض .

ومن بطون هذه القبيلة . بنو ضنة ، وبنو جلهمة ، وبنو زقزقة ، وبنو الجلحاء ، وبنو حردش ، وبنو حُنّ ، وبنو مدلج على رأي بعض النسّابين [2] ، وبنو رفاعة ، وبنو كثر ، وبنو صرمة ، وبنو حرام ، وبنو نصر ، وبطون أخرى يذكرها أهل الأنساب [3] .

وتنتسب قبائل كثيرة من اليمن الى كهلان بن سبأ ، وكهلان هو شقيق حمير ، فهناك إذنْ صلة بين قبائل حمير وقبائل كهلان . ويذكر النسّابون ان بني كهلان وبني حمير كانوا يتداولون الملك في بادىء الأمر بينهم ، ثم انفرد به بنو حمير ، وبقيت بطون كهلان في حكمهم في اليمن . فلما تقلص ملك حمير ، صارت الرياسة على العرب البادية لبني كهلان ، لما كانوا بادين لم يأخذ ترف الحضارة منهم. وهكذا نجد النسّابين يقسمون أبناء سبأ الى قسمين: حضر، وهم في رأيهم أبناء حمير ، وأهل وبر أو متزعمون لأهل الوبر وهم من نسل كهلان . والابن الذي ذكره الأخباريون لكهلان ، هو زيد ومن ظهره تسلسلت قبائل كهلان [4] .

وقد نَحَلَ زيد ، على حد قول النسابين ، ولدين ، هما : مالك وعريب . وأضاف الهمداني الى هذين الولدين ولداً ثالثاً سمّاه غالباً . ومن صلب هؤلاء الأبناء انحدرت قبائل كهلان [5] .

١ Ency., VI, P. 989

٢ الاشتقاق (ص ٣٢٠) ، Ency., VI, P 989

٣ سبائك الذهب (ص ٢٨) .

٤ منتخبات (ص ٩٤) ، الاكليل (١/١٠ وما بعدها) . الهمداني . مشتبه (تحقيق أوسكار لوفكرن Oscar Lofgren) (سنة ١٩٥٣) (ص ١٦) ، جمهرة النسب الكبير لابن الكلبي . رواية محمد بن حبيب . مخطوطة المجمع العلمي العراقي مصورة (ورقة ٢٤٧) . وسيكون رمزها . جمهرة النسب .

٥ الاكليل (١/١٠ وما بعدها) . سبائك الذهب (ص ٣٢ وما بعدها) ، الاشتقاق (ص ٢١٨) .

ونَجَلَ مالك من الولد الخيار ونبتاً ، فولد نبت الغوثَ وولد الغوث أدَدَ ، وهو الأزد ، وعَمْراً . ومن ولد عمرو خثعم[1] وبجيلة[2] . ونَجَل عمراً وقدار ومقطعان (مقطعا) على رواية للهمداني[3] .

أما الخيار فقد ولد ربيعة ، وولد ربيعة أوسلة ، وولد أوسلة زيد بن أوسلة ، وولد زيد بن أوسلة مالكاً وسبيعاً وساعاً الأكبر على رأي[4] . ومالكا وتبع ، وعبداً ، على رواية ابن حزم[5] . وقد دخل تبع وعبد في همْدان . وولد مالك ابن زيد من الولد همدان[6] والهان . وقد ولد همدان نوفا (نوفل ؟) بن همدان[7] على رأي . وجملة أولاد آخرين على روايات أخرى[8] . ومن نسل نوف[9] تفرعت

---

١ (وخثعم بن أنمار بن أراش بن عمرو بن الغوث من اليمن . واسمه أفتل . أبو قبيلة . وخثعم لقبه . قال الجوهري . ويقال : هم من معد بن عدنان ، وصاروا من اليمن . وقيل : خثعم ، حمل نحره ، فسمي به أبو القبيلة) ، تاج العروس (٢٦٨/٨) .

٢ ابن حزم ، جمهرة (ص ٣١٠ وما بعدها) . (وبجيلة ، كسفينة . حي باليمن من معد . والنسبة اليه بجلي . محركة . قال ابن الكلبي في جمهرة نسب بجيلة : ولد عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان ، أراشا ، فولد أراش ، أنمارا ، فولد أنمار ، أفتل ، وهو خثعم . وأمه هند بنت مالك بن الغافق بن الشاهد بن عك . وعبقرا ، والغوث ، وصهيبة ، وحزيمة . دخل في الأزد ، ووادعة . بطن مع بني عمرو بن يشكر ، وأشهل وشهلا ، وطريفا ، وسمية رجل ، والحرث ، وخدعة ، وأمهم بجيلة بنت صعب بن سعد العشيرة . بها يعرفون . قال . وقد اختلف أئمة النسب في بجيلة ، فمنهم من جعلها من اليمن . وهو قول ابن الكلبي الذي تقدم . وهو الأكثر . وقيل . هم من نزار بن معد . قاله مصعب بن الزبير . كأن المصنف جمع بين القولين . وفيه نظر لا يخفي) ، تاج العروس (٢٢٢/٧) .

٣ الاكليل (٥/١٠) . (مقطعا) ، جمهرة النسب (ورقة ٢٤٧) .

٤ الاكليل (٦/١٠) .

٥ جمهرة (ص ٣٦٩) .

٦ ابن حزم ، جمهرة (ص ٣٧٤ وما بعدها) ، سبائك الذهب (ص ٣٣) .

٧ (وهمدان . بفتح فسكون . قبيلة باليمن من حمير ، واسمه أوسلة بن مالك بن زيد ابن أوسلة بن ربيعة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ) ، تاج العروس (٥٤٧/٣) .

٨ الاكليل (١١/١٠) ، سبائك الذهب (ص ٧٨) ، (ولد همدان ، نوفا ، وخيران ، فمنهم بنو حاشد ، وبنو بكيل) ، الاشتقاق (ص ٢٥٠) .

٩ (نوفل) هكذا ضبطه (ليفي بروفنسال) ، جمهرة (ص ٣٦٩) ، وهو خطأ وصوابه . نوف ، ابن خلدون (٢٥٢/٢) ، الاشتقاق (ص ٢٥٠) ، (فأولد همدان بن مالك . نوفا وفيه العدد والعز ، وعمرا وفيه الشرف والملك . ورفاش زوج عدي بن الحارث) ، الاكليل (١١/١٠) . (وبنو نوف : بطن من همدان) ، القاموس (٢٠٣/٣) .

قبائل همدان : حاشد[1] ، وبكيل[2] ابنا جشم بن خيران بن نوف .

أما عريب ، فولد يشجب على رواية ابن حزم[3] ، وعمْراً على رواية الهمداني[4] ، فولد يشجب أو عمرو زيد بن يشجب أو زيد بن عمرو على اختلاف الروايتين . والهميسع وهو ذو القرنين السيّار ويكنى بالصعب على رواية ذكرها الهمداني[5] . ونَجَلَ زيد أدد بن زيد ، فولد أدد مرة ، ونبتاً ، وهو الأشعر ، وجلهمة وهو طيء ، ومالكاً ، وهو مذحج . وقد تفرعت من هؤلاء قبائل وبطون .

والأزد قبائل عديدة تنتمي كما قلت الى الأزد ، وهو الغوث . وينسب الأخباريون بيتاً من الشعر الى حسان بن ثابت ، يقولون : إنه قاله في نسب الأزد ، هو :

ونحن بنو الغوث بن نبت بن مالكٍ   بن زيد بن كهلانٍ وأهل المفاخر[6]

يذكرون انه قاله مفتخراً بهذا النسب ، وهو منهم . وهو شعر قد يكون وضعه النسابون وأهل الأخبار على لسانه ، وهو ما أظنه ، ليكون دليلاً لهم على صحة دعواهم في نسب الأزد ، وهم يعلمون ما كان عليه الشاعر من تعصب لليمن . وقد ذكر الأخباريون أيضاً ان حمير تقول ان الأزد منهم ، وانه هو الأزد بن الغوث الأكبر بن الهميسع بن حمير الأكبر . ولم يكفهم ذلك ، بل أرادوا ان يثبتوا هذا القول ويؤيدوه بشعر . والشعر في نظرهم سندٌ قوي لاثبات رأي ، ولا سيما اذا كان من شعر معمر أو ملك من الملوك القدماء . وقد قرأت في كتبهم ولا شك ما كتبوه من الأشعار على لسان آدم وهابيل وقابيل وعاد وثمود وأمثال ذلك من شعر زعموا انهم نظموه بهذه العربية الجميلة التي نكتب اليوم بها ، فكيف لا يأتون بشعر لإثبات رأيهم في هذا الباب ينسب الى التبابعة ،

---

١ (وحاشد : حي من همدان . تذكر مع بكيل ، ومعظمهم في اليمن) ، تاج العروس (٣٣٦/٢) .

٢ (وبكيل : كأمير حي من همدان . وهو : بكيل بن حشم بن خيران بن نوف بن همدان) ، تاج العروس (٢٣٢/٧) .

٣ ابن حزم : جمهرة (ص ٣٧٤) .

٤ الاكليل (١/١٠) .

٥ الاكليل (١/١٠) .

٦ منتخبات (ص ٣) .

وهم من خلص العرب وملوكها المعروفين البارزين ؟ فرووا شعراً للتبع أسعد تبع ، قالوا ، انه ذكر فيه الأزد ، وكانوا معه ، فهم من حمير إذن وهو :

ومعي مقاولُ حميرٍ وملوكها والأزدُ أزد شنوءة وعمـان [1]

وهكذا أضافوا الى حمير الأزد بجملتها .

وأسعد تبع من التبابعة الذين لهم حظ سعيد عند الأخباريين ، فهو مؤمن في نظرهم ، وهو ذو القرنين . وهو من أعظم التبابعة ، وأفصح شعراء العرب . ولم يكتفوا بما أغدقوا عليه من نعوت ، بل أرادوا أكثر من ذلك وأبعد ، فقالوا انه كان نبيـاً مرسلاً الى نفسه ، وانه تنبأ بظهور الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، قبل ظهوره بسبع مئة سنة ، وانه قال شعراً في ذلك حفظه الناس هـذه السنين الطويلة عنه ، وانه لذلك نهى النبي عليه الصلاة والسلام عن سبّه [2] . فهو إذن من المؤمنين الصالحين ومن رجال الجنة ولا شك ، وهو قصص روّجه ولا شك الحميريون والقحطانيون المتعصبون في الاسلام ، ليُسكتوا بذلك خصومهم السياسيين. وهم في نظرهم العدنانيون الذين شرفتهم النبوة ورفعت مقامهم في الاســلام ، فافتخروا بها على القحطانيين ، ولم يكن القحطانيون أقل باعاً في توليد القصص في الفخر من منافسيهم القحطانيين ، فأوجدوا هذه الحكايات عن تبابعتهم ، وأوجدوا لهم الفتوحات العظيمة ، ثم لم يكفهم ذلك كله ، فقالوا : ان النبوة اذا كانت في العدنانيين ، فانها كانت أيضاً في القحطانيين ، بل هي أقدم عهداً فيهم منهم ، فمنهم كان عدة أنبياء . وهكذا سدّوا الثغرة التي كان يهاجم منها العدنانيون .

وقد ولد الأزد عدة أولاد ، منهم : مازن ، ونصر ، وعمرو ، وعبد الله ، ووقدان ، والأهيوب [3] . ومن ولد مازن عمرو ، وعدي ، وكعب ، وثعلبة . ومن ولد ثعلبـة : عامر ، وامرؤ القيس ، وهو البطريـق ، وكرز . فولد امرؤ القيس حارثة ، وهو الغطريف ، وولد حارثة هذا عامراً المعروف بمـاء

---

١ منتخبات (ص ٣) .

٢ منتخبات (ص ١٢ وما بعدها) .

٣ جمهرة (ص ٣١١) ، تاج العروس (٢٨٩/٢) ، سبائك الذهب (ص ٤٥) ، جمهرة النسب (ورقه ٢٤٧) ، Wustenfeld, Genea, Tab. 10,

السماء ، والتوأم ، وهو عامر ، وعدياً .[1]

وولد عامر ماء السماء عمرانَ الكاهن ، وعمراً مزيقياء (مزيقيا) ، فولد عمرو مزيقياء ذُهْل بن عمرو ؛ وهو وائل ، وقد سكن نسله بنجران ، وعمران بن عمرو ، وحارثة بن عمرو ، وجفنة بن عمرو ، وثعلبة العنقاء بن عمرو ، وأبا حارثة بن عمرو ، ومالك بن عمرو ، وكعب بن عمرو . وقد نزل بعض هؤلاء الولد على موضع ماء اسمه غسان ، فشربوا منه ، فسُمّوا به . وهم بنو الحارث ، وجفنة ، ومالك ، وكعب .[2]

ويظهر من فحص روايات الاخباريين عن الأزد انها كانت مجموعة ضخمة من القبائل ، ودليل ذلك عدّ النسابين اياها جرثومة من جراثيم قحطان ، وقد ذكروا انها كانت سبعاً وعشرين قبيلة ،[3] منها الأوس والخزرج . وهم من نسل حارثة ابن ثعلبة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف ،[4] وأمهم قيلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة بن عمرو مزيقياء.[5]

ومن ولد عديّ بن حارثة بن عمرو مزيقياء ، سعد ، وهو بارق جد القبيلة المسماة بهذا الاسم[6] . اما من ولد عمران بن عمرو مزيقياء ، فقد ولد الأزد والحجر[7] ، وولد الأزد لعتيك وشهميلاً[8] ، ومن ولد الحجر زهران

---

١ جمهرة (ص ٣١١) . Wustenfeld, Tab. 11. جمهرة النسب (ورقه ٢٤٧) .
٢ جمهرة (ص ٣١٢) ، منتخبات (ص ٨٠) ، البلدان (٢٩٢/٦) .
٣ الانباه (ص ١٠٦) .
٤ (ومزيقياء : لقب عمرو بن عامر ماء السماء . أى حارثة الغطريف بن امرىء القيس البطريق بن ثعلبه البهلول بن مازن السراج بن الأزد . ملك اليمن ، وهو جد الأنصار ، لأنه كان يلبس كل يوم حلتين ويمزقهما بالعشي . يكره العود فيهما ، ويأنف أن يلبسها غيره . وقيل : انه كان يمـــزق كل يوم حلـــة ، فيخلعها على أصحابه . وقيل لأنه كان يلبس كل يوم ثوبا ، فاذا أمسى مزقه ووهبه والأقوال متقاربة) ، تاج العروس (٦٩/٧) جمهرة النسب (ورقة ٢٤٧) .
٥ جمهرة (ص ٣١٢) ، جمهرة النسب (ورقة ٢٤٩) .
٦ منتخبات (ص ٦) ، جمهرة (ص ٣٤٧) .
٧ سبائك الذهب (ص ٦٥) .
٨ جمهرة (ص ٤٧) ، الاشتقاق (ص ٨) .

وزيد مناة ، وسود ومرحوم وعمرو .[1]

وذكر ابن حزم ان الازد تدعي ان عمرو بن حجر هذا كان نبياً[2] ، وبذلك يكون القحطانيون قد اضافوا اليهم نبياً آخر من الانبياء الذين نسبوهم الى قحطان .

وقد نزلت بارق في ارض تسمى بارقاً ، فنسبت اليها . وقيل وجاء في نسبها انها من نسل سعد بن عديّ بن حارثة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الازد ، وهم اخوة الأوس والخزرج ، وليسوا من غسان . ولابن الكلبي اخبار عن بارق وعن القبيلة التي نزلت بها .[3] وقد نزل مع سعد بن عديّ ابنا اخيه عمرو بن عدي بن حارثة ، وهما مالك وشبيب فسُمّوا بارقاً كذلك .[4]

ومن نسل جفنة بن عمرو مزيقياء كان آل جفنة ملوك الشام ،[5] ويقال ان اسم جفنة هو علبة ، ولذلك عرف آله بآل علبة كذلك .[6] وعرف ولد عمرو ابن مازن بن الازد ، وهم عديّ وزيد الله ولوذان ، وامرؤ القيس ، والحارث ، وحارثة ومالك وثعلبة وسوادة وعوف والعاصي وخالد والوجيه بغسان كذلك ، وكان منهم بنو شقران وهم بالشام ، وبنو زمّان بن تيم الله بن حقال ، وهو بالحيرة من العبـــاد . واليهم نسبت بيعة ربيعة بن زِمّان ، ومنهم ايضاً الحارث الاعرج ابن ابي شمر الغساني على رأي بعض النسابين ممن اخرجه من آل جفنة وأدخله في نسل عمرو بن مازن ، ومنهم عبد المسيح بن عمرو بن حيّان بن بقيلة وهم من آل بقيلة ، وكان نصرانياً ، وهو الذي صالح خالد بن الوليد عن اهل الحيرة ، ومنهم ثعلبة بن عمرو بن المجالد رئيس غسان ايام ساروا من بطن مرّ الى الشام وشقيق جذع ، وكذلك سطيح الكاهن على رأي ابن حزم . ومنهم

١ منتخبات (ص ٦) ، جمهرة (ص ٣٥١) ، مع بعض الاختلاف في سبائك الذهب (ص ٦٥) .
٢ جمهرة (ص ٣٥١ وما بعدها) .
٣ البلدان (٢/٣٢ وما بعدها) .
٤ الانباه (ص ١١٢) .
٥ جمهرة (٣٥١) ، منتخبات (ص ٢١) .
٦ طرفه الأصحاب (٦٩) .

بنو غافق ، وبنو صوفة ، وبنو تفلذ . وبطون اخرى اشار اليها النسابون .[١]

وولد عبد الله بن الازد عدثانَ وقرناً ، وهما قبيلتان ، والحارث ، وعبد الله بنو عبد الله بن الازد . والى عدثان يرجع بعض النسابين نسب علك ، فيقولون : انه علك بن عدثان بن عبد الله بن الازد .[٢] وكان من ولد عمرو بن الازد ماوية وعرمان ، وهما بطنان بعمان ، وألمع وجدجنة وهما ازديون بالحجاز ، وسعد والضيق وقد دخلا في عبد القيس ، وربيعة وامرؤ القيس وهما من غسان .[٣]

ومن ولد دوس بن عدنان بن عبد الله بن زهران بن كعب ، منهب وغنم ، فولد غنم فهم ابن غنم ، وولد فهم مالك بن فهم وأكثرهم بعمان ، وسليم بن فهم ، وطريف بن فهم ، وهم بالحجاز . فولد مالك بن فهم ثوابة وولده بعمان ، وجذيمة الوضّاح ملك الحيرة ، وعوفاً وجهضماً وسلمة ، ومعناً وهناءة وشبابة والحارث وعَمْراً وثعلبة بني مالك بن فهم . وقد دخلت ثعلبة في تنوخ .[٤]

ومن قبائل الازد المعروفة خزاعة .[٥] وتنسب الى عمرو بن لحي بن حارثة بن عمرو مزيقياء ،[٦] او عمرو بن ربيعة ، وهو لحي بن حارثة بن عمرو بن

١ جمهرة (ص ٣٥٤) ، الاشتقاق (٢٨٥) ·
٢ جمهرة (ص ٣٥٤) ·
٣ جمهرة (ص ٣٥٤) ·
٤ جمهرة (ص ٣٥٨) ·
٥ العقد الفريد (٢/٧٥) ، فؤاد حمزة ، قلب جزيرة العرب (ص ٢٣١ وما بعدها) ، البكري (١/٢٩٦) ، الهمداني · صفة (ص ١٢٠ ، ٢١١) ، الأغاني (١٣/٣ ، ١٩/٧٦) ، أبو الفداء (١/١٠٧) ، نهاية الأرب (٢/٣٠١ و ٣٢٥) ، كحالة ، (١/٣٣٩) ، Ency., II, P. 984.
٦ خلاصة الكلام (ص ٥٣) ، (وخزاعة ، حي من الأزد · قال ابن الكلبي : ولد حارثة ابن عمرو مزيقياء بن عامر ، وهو ماء السماء : ربيعة وهو لحي ، وأفصى ، وعديا ، وكعبا وهم خزاعه · وأمهم بنت أد بن طابخة بن الياس بن مضر · فولد : ربيعة عمرا · وهو الذى بحر البحيرة ، وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامى ، ودعا العرب الى عبادة الأوثان · وهو خزاعة · وأمه فهيرة بنت عامر بن الحارث بن مضاض الجرهمى · ومنه تفرعت خزاعة · وإنما صارت الحجابة الى عمرو بن ربيعة من قبل فهيرة الجرهمية ، وكان أبوها آخر من حجب من جرهم · وقد حجب عمرو ·) ، تاج العروس (٥/٣١٧) ·

عامر ، [1] او خزاعة بن حارثة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن الغطريف ، [2] ويذكر الاخباريون عن عمرو والد خزاعة انه اول من بحر البحيرة وسيب السايبة ووصل الوصيلة وحمى الحامي . [3] وانها سميت بخزاعة لأنها تخزعت عن بقية قومها وهم الأزد ، اي تخلفت عنهم فلم تذهب معهم ، ثم أقامت بمكة . [4]

ويروي الاخباريون بيتاً ينسبونه الى الشاعر حسّان بن ثابت هو :

ولما هبطنا بطن مر تخزعت … خزاعة عنا في حلول كراكر [5]

ويفهم من هذا البيت ان خزاعة انما تخلفت عن الارد بموضع (بطن مرّ) ، وهو موضع من نواحي مكة ، فأقامت به ، ولم تلحق ببقية ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من مأرب يريدون الشام ، وقد نسب (ياقوت الحموي) هذا البيت

---

١ المبرد · نسب عدنان وقحطان (ص ٢٢) ، (وسمىت خزاعه بهذا الاسم ، لأنهم لما ساروا مع قومهم من مأرب ، فانتهوا الى مكة ، تخزعوا عنهم ، فأقاموا وسار الآخرون الى الشأم · وقال ابن الكلبى : إنما سُمُّوا خزاعة ، لأنهم ، انخزعوا من قومهم حين أقبلوا من مأرب ، فنزلوا ظهر مكة · وقيل خزاعة من الأزد · مشتق من ذلك لتخلفهم عن قومهم · وسُمُّوا بذلك لأن الأزد لما خرجت من مكة لتتفرق في البلاد تخلفت عنهم خزاعة وأقامت بها · قال حسان بن ثابت :

فلما هبطنا بطن مرّ تخزعت … خزاعة عنّا في حلول كراكر

وهم بنو عمرو بن ربيعة · وهو لحي بن حارثة · فإنه أول من بحر البحائر ، وغير دين ابراهيم ·(، اللسان (٩/٤٢٢) ·

٢ البلدان (٨/٢١) ·

٣ الاشتقاق (ص ٢٧٦) ·

٤ منتخبات (ص ٣٢) ، (وهذه خزاعه · سُمُّوا بذلك ، لأنهم لما ساروا مع قومهم من مأرب ، فانتهوا الى مكة ، تخزعوا عن قومهم وقاموا بمكة · وسار الآخرون الى الشأم · وقال ابن الكلبي : لأنهم انخزعوا عن قومهم حين أقبلوا من مأرب ، فنزلوا ظهر مكة · وفى الصحاح ، لأن الأزد لما خرجت من مكة ، لتتفرق في البلاد ، تخلفت عنهم خزاعة ، وأقامت بها · قال الشاعر :

فلما هبطنا بطن مر تخزعت … خزاعة عنا في حلول كراكر

والبيت لحسان ، كما هو فى هوامش الصحاح · وهكذا أنشده له الليث ، والصواب انه لعدي بن أيوب الأنصارى أحد بني عمرو بن سواد بن غنم كما حققه الصاغاني)، تاج العروس (٥/٣١٧) · منتخبات (ص ٣٣) ، الاشتقاق ص ٢٧٢) ، الأزرقي (١/٥٠) ·

٥ البلدان (٢/٢٠ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢/٢٥٣) ·

مع ابيات اخرى الى عون بن ايوب الانصاري الخزرجي .[1]

ولبعض النسابين والاخباريين رأي في نسب خزاعة ؛ فهم يرون انها من معدّ ، اي من العدنانية ، وانها من نسل خزاعة بن لحي بن قمعة بن الياس بن مضر .[2] ولكن الاكثرية من النسابين ترى انها من الازد ، اي من قحطان .

وقد اختارت خزاعة بعد اعتزالها الازد الذاهبين الى الشام الاقامة بمكة ، وكانت مكة بأيدي جرهم يومئذ اخذتهـــا في ايام ملكها مضاض بن عمرو من العماليق اصحابها قبل جرهم ، وساعده في ذلك (السميدع) ملك قطورا ، وبقيت جرهم فيها الى ان أجلتهم خزاعـــة عنها اجلاهم رئيسها يومئذ ، وهو ثعلبة بن عمرو مزيقياء بعد حرب ، فانتقل الحكم الى الخزاعيين . وتولاها رجال منهم تلقبوا كسابقيهم بألقاب الملوك .

وانفرد زعيم خزاعـــة لحيّ بالحكم ، وتزوّجَ فهيرة بنت عامر بن عمرو بن الحارث بن مضاض بن عمرو الجرهمي ملك جرهم ، فولدت له عَمْراً ، وهو عمرو بن لحيّ على نحو ما ذكرت . ثم انتقل الحكم من بعده الى اولاده ، فكان مجموع ما حكموا خمس مئة عام ، وآخرهم حليل بن حبشية في ايام قصيّ .[3]

وللأخباريين روايات في كيفية استيلاء خزاعة على مكة ، وفي الذي استولى عليها من رؤساء خزاعة ، وهم يبالغون كثيراً في الزمن الذي استولت خزاعة فيه على مكة . وربما لا يتجاوز ذلك القرن الخامس للميلاد[4] . اما تأريخ انتهاء حكمها على مكة وانتقاله الى قريش في أيام قصيّ ، فقد كان في النصف الأول من القرن السادس للميلاد . ولكن انتقال السلطة منها الى قريش لا يعني انها أصيبت بمـــا أصيبت جرهم أو غير جرهم به من ضعف واندثار ، فقد بقيت خزاعة معروفة مشهورة ذات بطون عديدة في الاسلام .

---

١ البلدان (٢/٢١) .
٢ الانباه (ص ٩٢) .
٣ الأزرقي (٤٦/١ وما بعدها) .
٤ Ency., II, P. 984.

فمن جملة خزاعة كعب ومليح وسعد ، ومنهم بنو سلول بن عمرو ، وبنو حليل بن حبشية سادن الكعبة ، وبنو قمير ، وبنو المصطلق الذين غزاهم الرسول [1] ، وبطون اخرى عديدة يذكرها النسّابون [2] .

وكانت خزاعة محالفة للرسول في نزاعه مع قريش . ولما وقعت حرب بينها وبين بني بكر ، وأعان مشركو قريش حلفاءهم بني بكر ، ونقضوا بذلك العهد ، نصر الرسول خزاعة ، وأعلن الحرب على قريش ، فكان ذلك سبب فتح مكة [3] .

ويعد آل الجُلَنْدي ، وهم ملوك عُمان ، من الأزد كذلك . والجُلندي لقب لكل من ملك منهم عُمان . وآخر من ملك منهم جيفر وعبد ابنا الجلندي ، أسلما مع أهل عمان على يد عمرو بن العاص [4] ، وقد كان (الجُلندي بن المستكبر) يعشر من يقصد سوق (صحار) ، ومن يقصد ميناء (دبا) من التجار القادمين من مختلف أنحاء الجزيرة أو من الهند والصين وافريقية . ويفعل في ذلك فعل الملوك [5] . ويرجع نسب (المستكبر) الى (بني نصر بن زهران بن كعب) . وهو في عرف النسّابين (المستكبر بن مسعود بن الجرار بن عبد الله ابن مغولة بن شمس بن عمرو بن غنم بن غالب بن عثمان بن نصر بن زهران) . أما جيفر ، فهو ابن الجُلندي بن كركر بن المستكبر وكان أخوه عبد الله ، ملك عمان .

وقد جعل بعض علماء الأنساب الأزد ستاً وعشرين قبيلة يجمعها جميعها الأزد ،

١ خلاصة الكلام (ص ٥٢) .
٢ المبرد : نسب عدنان وقحطان (ص ٢٢ وما بعدها) ، الاشتقاق (ص ٢٧٦ وما بعدها) .
٣ الانباه (ص ٩٥) ، تاريخ أبي الفداء (١٠١/١ وما بعدها) .
٤ خلاصة الكلام (ص ٥٤) . (جيفر بن الجُلندي الأزدي ، ملك عمان ورئيسها ، أسلم هو وأخوه عبدالله على يد سيدنا عمرو بن العاص بن وائل السهمي ، رضي الله عنه ، لما وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهما ، وهما على عمان) ، تاج العروس (١٠٥/٣) ، (وجلنداء : بضم أوله وفتح ثانية وممدودة وبضم ثانية مقصورة اسم ملك عمان) ، (قال الأعشى :
وجلنداء في عمان مقيما ثم قيسا في حضرموت المنيف)
تاج العروس (٣٢٣٢) ، لسان العرب ١٠١/٤ .
٥ المحبر (٢٦٥ وما بعدها) .

وهي : جفنة ، وغسّان والأوس والخزرج ، وخزاعة ، ومازن ، وبارق ، وألمع ، والحجر ، والعتيك (العتيق) وراسب ، وغامد ، ووالبة ، وثمالة ، ولهب ، وزَهْران ، ودهمان ، والحُدان، وشكر ، وعَكّ ، ودوس، وفهم ، والجهاضم ، والأشاقر ، والقسامل والفراهيد [1] . وهي أكثر من ذلك ، أو أقل عدداً على حسب مذاهب أهل الأنساب في ضبط أسماء البطون [2] .

ويصنف النسّابون قبائل الأزد جميعها في أربعة أصناف من الأزد ، هي : أزد عمان وأزد السراة وهم الذين أقاموا في سراة اليمن ، وأزد شنوءة أبناء كعب ابن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد ، وهم من سكنة السراة كذلك ، وأزد غسان وهم من شرب من ماء غسان [3] . ويلاحظ ان هذا التصنيف مبني على أسماء مواضع نزلت فيها قبائل الأزد .

ومواطن الأزد القديمة هي مثل مواطن بقية القحطانيين في اليمن ، وقد تركتها على أثر حادث سيل العرم ، فتفرقت مع من تفرق من القحطانيين الى الأماكن المذكورة . وذكر ان أزد السراة حاربت قبيلة خثعم التي كانت نازلة في السراة ، فتغلبت عليها وانتزعت الارض منها ، وان (أردشير) الاول أسكن الازد في عمان . فبقوا فيها تحت حكم الفرس [4] .

وكان مناة وذو الخلصة من أصنام الأزد الرئيسية التي تعبدت لها ، كما تعبدت لصنم اسمه العائم كان في السراة [5] . ولصنم آخر اسمه باجر ، كان للأزد ولمن جاورهم من طيء [6] .

وأما القبائل المتفرعة من عمرو بن الغوث ، فهي أنمار ، وتنسب الى أنمار بن

١ ابن خلدون (٢/٢٥٣) ، أبو الفداء (١/١٠٢) .

٢ راجع شجرة الأزد في كتاب سبائك الذهب (٦٥ ، ٦٦ ، ٦٩) ، المبرد : نسب عدنان (ص ٢١ وما بعدها) و Wustenfeld Genea, Tab., 10 ، نهاية الأرب (٢/٢٩٦) .

٣ Ency . I, P. 529. ، صبح الأعشى (١/٣١٩) ، كحالة (١/١٥ وما بعدها) .

٤ Ency., P. 530

٥ فـي Ency., I, P. 530. ذو الحمة وهو خطأ مطبعي ولا شك : Wellhausen, Reste, S., 45.

٦ القاموس (١/٣٦٢) ، لسان العرب (٥/١٠٣) . صبح الأعشى (١/٣٢٩) .

(أراش)[1] (إراش) (أراشة)[2] ، وأراش هو ابن عمرو ، وقد نسب بعض النسابين أنماراً الى أنمار بن نزار بن معدّ بن عدنان ، فجعلوها من العدنانيين[3] ، ويدلّ ذلك على اختلاط هذه القبيلة بالقبائل التي ترجع نسبها الى مجموعة معدّ .

وولد أنمار أفتل[4] ، وهو خثعم ، وأمه هند بنت مالك بن الغافق بن الشاهد ابن علكّ ، فهي ذات صلة بعلكّ من ناحية الأم . وولد أنمار أيضاً خزيمة وقد دخلت في الأزد ، ووادعة ، وعبقراً ، والغوث ، وصهيبة ، وأشهل ، وشهلاً ، وطريفاً ، وسنية ، والحارث ، وخذعة . وأمهم كلهم بجيلة بنت صعب بن سعد العشرة ، وكانوا كلهم متحالفين على ولد أخيهم خثعم[5] . ولهذا يرجع كثير من النسّابين قبائل أنمار الى أصلين : خثعم وبجيلة[6] .

١ جمهرة (ص ٣٦٥) ، الاشتقاق (ص ٣٠٢) ، (وإراشة بالكسر : أبو قبيلة من بلي وهو إراشة بن عامر بن عبيلة بن شميل بن فران بن عمرو بن بلي • وأريش كزبير ، بطن • وقال ابن حبيب : من لخم جدس بن أريش بن إراش بالكسر • وأراش هو ابن الحيان بن الغوث • وقيل . اراش هو ابن عمرو بن الغوث • وهو والد أنمار أبو بجيلة من خثعم • وأراشة بطن من خثعم ، واراشة ، أيضا من العماليق ••• وبالضم في أزد وفي قضاعة) ، تاج العروس (٤/٢٨٠) • صبح الأعشى (١/٣٢٩) •

٢ الاكليل (١٠/٥) ، منتخبات (ص ٣١ ، ١٥٠)•

٣ (أنمار بن نزار • مضى الى اليمن ، فتناسل بنوه ، ثم حسبوا من العرب اليمانية •)، تأريخ ابن الوردي (١/٩٢) ، ابن هشام : (ص ٤٩) (طبعة وستنفلد) ، ابن قتيبة : المعارف (ص ٥٠) ، البلخي : كتاب البدء والتأريخ (٤/١٠٧) (تحقيق كليمان هوار)• وسيكون رمزه : البلخي •

٤ (أقيل) جمهرة (أفتل) الاشتقاق (ص ٣٠٤) ، وهو الصحيح • تاج العروس (٣/٣٢١) • الصحاح للجوهري (٢/٢٨٠) ، النووي : تهذيب الأسماء (ص ٢٨٩) ، نهاية الأرب (٢/٣١٠) ، لسان العرب (٨/٢٩٥) ، (١٥/٥٦) تاج العروس (٦/٢١٦) ، لسان العرب (٨/٢٩٥) ، (١٥/٥٦) تاج العروس (٦/٢١٦) ، العائق للزمخشري (١/٦٦) ، كحالة (١/٢٣١ وما بعدها) • (أقيل) نسب قريش (ص ٧) •

٥ جمهرة (ص ٣٦٥) •

٦ البلخي (٤/١٠٧) ، تأريخ ابن الوردي (١/٩٠) •

وولد خثعم ولداً اسمه حلف أو خلف ، ويعود هـذا الاختلاف الى غلط النسّاخ ، ومـن نسله عفرس ، فولد عفرس ناهساً[1] وشهران[2] وناهبـاً ونهشاً وكوداً وربيعة أبا اكلب[3] . ومن بني (ناهش) ناهس حام بن (ناهس)[4] ناهش[5] ، وهم بطن ، وبنو أجرم وهم بطن أيضاً . ويُسمّون ببني معاويـة كذلك ، وأوس مناة بن ناهس ، وهو الخنيك ، وهـم بطن ، وبنو عُنّة ، وبنو قحافة[6] .

وكانت منازل خثعم في الهضبة الممتدة من الطائف الى نجران عند طريق القوافل الممتدة من اليمن الى الحجاز .

ولا تزال بطون خثعم معروفة حتى الآن . ومنها بطون في تهامة وفي عسير . منها ما هي بادية ، ومنها ما هي مستقرة تتكسب قوتها من الزرع[7] .

وذهب (ليفي ديلافيدا) في (المعلمة الإسلامية) الى ان خثعماً ليست قبيلة في الأصل إنما هي حلف نألف من قبائل متعددة تحالفت بينهـا لمصالح مشتركة

١ (وناهس بن خلف ، بطن من خثعم) ، ناج العروس (٤/٢٦٦) . (عفرس ... أبو حي باليمن . وهو عفرس بن خلف بن أقبل ؟ وهو خثم ؟ بن أنمار) ، ناج العروس (٤/١٩٣) ، العقد الفريد (٢/ ٧٨) ، كحالة (٢/٧٩٤) ، ناهش بن عفرس) ، كحالة (٣/١١٦٩) . (شهران وربيعه وناهش أولاد عفرس بن خلف بن أفتل) نهاية الأرب (٢/٢٩٤) .

٢ جمهرة (ص ٣٦٩) ، (خثعم بن أنمار بن أراشة بن عمرو بن الغوث بن نبت بن زيد بن كهلان بن سبأ الأكبر . ويقال انما سمي خثعم بجمل له اسمه خثعم . فكان يقال ارتحل آل (خثعم) ، منتخبات (ص ٣١) ، الاشتقاق (ص ٣٠٤) وشهران ابن عفرس بن خلف بن أفتل) ، أبو قبيلة من خثعم . وأفتل هو خثعم) . تاج العروس (٣/٣٢١) ، نهاية الأرب (٢/٢٩٣) ، العقد الفريد (٢/٧٨) ، كحالة (٢/٦١٧) .

٣ الاكليل (١٠/٥) .

٤ جمهرة (٣٦٨) .

٥ Ency , II, P. 924

٦ الاشتقاق (ص ٣٠٥) ، (أجرم) القاموس (٤/٨٩) ، ناج العروس (٨/٢٢٦) ، كحاله (١/٥) . (بنو قحافـة) ، لسان العرب (١١/١٨٣) ، القاموس ، (٣/١٨٣) ، كحالة (٣/٩٣٩) .

٧ فؤاد حمزة : في بلاد عسير (ص ٦٠) ، (القاهرة ١٩٥١) .

جمعت بينها ، كما يحدث في سائر الأحلاف[1] ، والذي أداه الى هـذا الفهم اختلاط هذه القبيلة في القبائل العدنانية واختلاف النسابين في نسب خثعم وتفسيرهم معنى كلمة خثعم .

وقد ورد ذكر خثعم في روايات الاخباريين عن حملة أبرهة على مكة ، إذ هم يذكرون انها عزمت على منعه من الوصول الى مكة ، وان نفيل بن حبيب الخثعمي رئيس خثعم إذ ذاك ، خرج بقبيلي خثعم : شهران وناهس ومن تبعه من قبائل العرب ، وقاتله حينما بلغ أرض خثعم ، غير ان أبرهة تغلب عليه ، وأسره ، وأبقاه حيّاً على ان يكون دليله في طريقه الى مكة ، وقد سار معه حتى أبلغه الطائف ، وهناك قام بوظيفة إرشاد الحبش الى مكة أبو رغال الثقفي ، وذلك بأمر من مسعود بن معتب رئيس ثقيف[2] . ويقول الأخباريون ان العرب صارت ترجم قبر أبي رغال بالمغمس ، وصار سبّة للناس ، ولست أدري لم خص الأخباريون قبر أبي رغال بالرجم ، ولم يشركوا معه قبر مسعود بن معتب ، وهو الذي كلف — على حد قولهم — أبا رغال ان يرشد أبرهة الى مكة .

وقد اشتركت خثعم في المعركة المعروفة عند الأخباريين باسم يوم فيف الريح ، وهو يوم كان لمذحج على بني عامر بن صعصعة . اشتركت فيه عدة قبائل أخرى مع المتخاصمين[3] . وقد كانت بطون من مذحج تسكن في جوار خثعم ، وعند ظهور الاسلام كانت خثعم في حلف مع مراد ، وقد اشتركت معها في حربها مع قيس[4] .

وقد تعبدت خثعم مثل بجيلة ودوس وباهله والأزد للصنم المسمى بذي الخلصة الذي هدم في الاسلام ، هدمه عبد الله بن جرير البجلي[5] . وكان لها بيت يدعى كعبة اليمامة به الخلصة . تعبدت اليه[6] .

---

١ Ency., II, P. 924

٢ الطبري (٢/١١١) ، الاشتقاق (ص ٣٠٦) .

٣ ابن الأثير (١/٢٦٥) ، الأمثال : للميداني (٢/٣٠٨) ، البلدان (٦/١٣) ، الأغاني (٥/٢١) النقائض (ص ٤٦٩) العقد الفريد (٣/٣٥٩) .

٤ Blau, In, ZDMG , 23, (1869), S., 562.

٥ المحبر (ص ٣١٧) ، Ency., II, P. 924.

٦ كحالة (١/٣٣٢) .

أما بجيلة[1] ، فهم بطون عديدة متفرقة ، تفرقت في أحياء العرب منذ يوم حربها مع كلب بن وبرة بالفجار ، وقد أعاد شملها وجمعها جرير بن عبد الله ابن جابر البجلي ، وهو الشليل بن مالك بن نصر بن ثعلبة بن جشم ، صاحب رسول الله[2] . ومن أشهر بطون بجيلة قسر ، وعلقمة ، وبنو أحمس[3] . وقيس كبة ، وبنو عرينة بن نذير ، وبنو دهن بن معاوية . ومن قسر خالد بن عبد الله القسري[4] .

وأعرف قبائل المجموعة الثانية من قبائل كهلان ، وهي المجموعة التي ترفع

١ منتخبات (ص ٥ وما بعدها) ، (بجيلة : امرأة ، وهي ابنة صعب بن سعد العشيرة ، ولدت لأنمار بن أراش بن عمرو بن الغوث ، وعمرو بن الغوث ، أخو الأزد بن الغوث) ، الانباه (ص ١٠٠) ، (وبجيلة ، هو عبقر بن أنمار بن أراش ، ولد عبقر ، والغوث وصهيبة ، أمهم بجيلة بنت صعب بن سعد العشيره ، فنسبوا اليها ، وعرفوا بها) ، الانباه (ص ١٠١) ، البلخي (٤/١١٨) ، الاشتقاق (ص ٣٠٢) ، البكري (١/٦٣) ، وبجيلة كسفينة ، حي باليمن من معد والنسبة اليه بجلي ، محركة ، قال ابن الكلبي في جمهرة نسب بجيلة : ولد عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان اراشا ، فولد أراش أنمارا ، فولد أنمار أفتل وهو خثعم ، وأمه هند بنت مالك بن الغافق بن الشاهد بن عك ، وعبقرا ، والغوث ، وصهيبة ، وخزيمة ، دخل في الأزد ، ووادعه بطن مع بني عمرو بن يشكر ، وأشهل وشهلا ، وطريفا ، وسُمية رجل والحارث وخدعة ، وأمهم بجبلة بنت صعب بن سعد العشيره ، بها يعرفون ، فلت وقد اختلف أئمة النسب في بجيلة ، فمنهم من جعلها من اليمن ، وهو قول ابن الكلبي الذي تقدم وهو الأكثر ، وقيل هم من نزار بن معد ، قال مصعب بن الزبير ، كان المصنف جمع بين القولين ، وفيه نظر لا يخفى) ، تاج العروس (٧/٢٢٢) ، كحالة (١/٦٣) .
٢ جمهرة (ص ٣٦٥ وما بعدها) ، ابن الوردي (١/٩٠) .
٣ الاشتقاق (ص ٣٠٥) ، المبرد ، نسب عدنان (ص ٢٣) .
٤ المبرد : نسب عدنان وقحطان (ص ٢٣) ، وفي بجيله ، أحمس بن الغوث بن أنمار ، وقيس كبه بن الغوث بن أنمار بن أراش ، بطون ، وفي بجيلة بطون غير هؤلاء ، ومن بطون بجيلة : دهن بن معاوية بن أسلم بن أحمس بن الغوث بن أنمار ... وقد مضى دهن في عبد القيس ، ومن بطون بجيله : قسر بن عبقر بطن ، وهو رهط خالد بن عبد الله القسري ، وعرينة بن نذير بطن ، ومنهم . النضر) ، الانباه (ص ١٠٢) ، البلخي (٤/١١٨) ، (وبنو دهن بالضم ، حي من بجيلة ، وهم بنو دهن بن معاويه بن أسلم بن أحمس بن الغوث) ، تاج العروس (٩/٢٠٥) لسان العرب (١٧/٢٠) ، القاموس (٤/٢٢٤) .

تسبها الى الخيار بن زيد بن كهلان ، هي قبيلة همدان . وهي من القبائل المعروفة في الجاهلية والإسلام ، وكان لها شأن خطير في كلا العهدين .

وقـــد تحدثت في الجزء الثاني من كتاب : تأريـــخ العرب قبل الإسلام عن همدان استناداً الى كتابات المسند ، وأشرت الى صنمها وهو (تألب ريام) والى نفر من ملوكهـــا ، والى منازل في الأرض التي عرفت ببلد همـــدان[1] . أمـــا الأخباريون وأهـــل الأنساب ، فيروون ان هذه القبيلة من نسل جـــدّ أعلى هو (همدان) وكان يسمى (تـــلاد الملك)[2] ، وهو في نظرهـــم والد نوف[3] (نوفل)[4] ، وعمرو ، ورقاش زوج عديّ بن الحارث[5] . ويختلف النسّابون بعض الاختلاف في سرد أسماء آباء همدان[6] ، وهو اختلاف لا يهمنا نحن كثيراً أو قليلاً بعد ان وقفنا على طبيعة هذه الأنساب .

وأولد نوف بن همدان (حُبران)[7] (خيوان)[8] (خيران)[9] ، ويعود اختلاف هذا الاسم الى الخطأ الذي وقع فيـــه النُسّاخ ولا شك . وولد حبران (خيوان) ولداً اسمـــه جُشَم ، وهو والد حاشد وبكيل . وهمـــا قبيلا همدان

---

١ (٢/٢١٤ وما بعدها) ، صبح الأعشى (١/٣٢٨) ، كحالة (٣/١٢٢٥ وما بعدها) .

٢ الاكليل (١٠/١٠) .

٣ الاكليل (١٠/١١) .

٤ (نوفلا) هكذا حققه (ليفي بروفنسال) ، جمهرة (ص ٣٦٩) . وهو خطـــأ . وصوابه (نوف) نهاية الأرب (٢/٢٠٣) .

٥ الاكليل (١٠/١١) .

٦ طرفة الأصحاب فى معرفة الأنساب (ص ٢٩ وما بعدها) .

٧ (حبران) هكذا في طبعة الاكليل (١٠/٢٨) ، وفى منتخبات (ص ٢٧) .

٨ (خيوان) هكذا في طبعة جمهرة ابن حـــزم (ص ٣٦٩) ، (تحقيق ليفي بروفنسال) . (خيوان) ، سبائك الذهب (ص ٧٨) .

٩ (خيران) هكذا في الاشتقاق (ص ٢٥٠) . (خيران : هكذا ذكره ابن الجواني النسابة . ولد نوف بن همدان . وقال شيخ الشرف النسابة : هو خيوان بالواو ، فصحف) ، تاج العروس (٣/١٩٥) ، (وخيران ... والد نوف بن همدان) القاموس (٣/٢٥) .

العظيمان ، والحارث وقد غبر في قيس ، وزيد وقد دخل في حاشد [1] .

وأولد حاشد جشماً ، وعوصاً وقد دخل في كلب . وولد جشم بن حاشد مالكاً ومعد يكرب وعمراً وأسعد وعريباً وزيداً ومرثداً وضماماً ويريم الأكبر وعامراً وربيعة . وأولد يريم بن جشم حاشد الوحش ، وهم بطن بالوحش من أرض الكلاع بين السحول وزبيد ، وعمراً . وأولد عمرو زيداً وهو والد تباع جد التباعين ، وتقع منازلهم بالسحول من بلد الكلاع بعلفان ووادي النهى [2] .

والى حاشد [3] تنسب مرثد ، وهو مرثد بن جشم بن حاشد في عرف النسابين . وقد سبق ان أشرتُ الى مرثد ، وهو والد ولد اسمه ربيعة ، وهو ناعط ، وهو بطن ، وولد آخر اسمه الحارث وهم اسم بطن كذلك . وأولد ناعط مرثداً وشراحيل وعامراً وشرحبيل ، فولد شرحبل أفلح ، وأولد أفلح عُمَيْراً ذا مرّان وكان معاصراً للنبي [4] .

ومن هَمَدان بطون عديدة كان لها صيت في الجاهلية وفي الاسلام ، مثل بني عليان ، وبني حجور ، وبني قدم ، وبني فائش ، وبني شاحذ ، وبني جحدن ، وبني ابزن ، وبني شبام . وذي جعران وذي حدّان ، وبني ناعط . وهم في الواقع عدة بطون ، [5] ومنهم آل ذي المشعار . [6]

ومن بطون بكيل [7] بن جشم بن حبران آل ذي لعوة ، وبنو جذلان وثعلان ،

١ الاكليل (٢٨/١٠) ، (حاشد وبكيل قبيلا همدان بن جشم بن حيران بن نوف بن همدان مالك زيد بن أوسلة بن ربيعة بن الحيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ) الهمداني : مشتبه . (ص ٤٥) .
٢ الاكليل (٢٩/١٠) ، سبائك الذهب (٧٨) ، وفي قائمة الاسماء أوهام واخطاء .
٣ (حاشد) الصفة (١١١) ، تاج العروس (٣٣٦/٢ ، ٥٤٧) ، كحالة (٢٣٥/١)،
٤ الاكليل (٣٠/١٠) .
٥ الاشتقاق (ص ٢٥٠ وما بعدها) ، الاكليل (٩٦/١٠ وما بعدها) .
٦ الاكليل (٣٦/١٠) .
٧ (بكيل) البلدان (٧٠٧/١) ، الاشتقاق (٢٥٠) ، تاج العروس (٢٣٢/٢ ، ٥٤٧) ، الصفة (١١٠ وما بعدها) ، القاموس (٣٣٦/٣) ، لسان العرب (٦٧/١٣) ، نهاية الأرب (٣٠٣/٢) .

وبنو دومان ، ومنهم النشقيون ، وبنو صعب بن دومان ، وبنو مرهبة من الصعب ، وبنو أرحب من الصعب كذلك ، وبطون اخرى ذكرها الهمداني في الجزء العاشر من الاكليل .[1] وهو الجزء الخاص بقبائل همدان .

ويظهر من روايات الاخباريين أن الهمدانيين كانوا يتعبدون للصنمين : يغوث ويعوق عند ظهور الاسلام .[2] ومعنى ذلك ان تطوراً خطيراً كان قد طرأ على عبادة هذه القبيلة ، فابتعدت عن صنمها الخاص بها وحاميها الذي كانت تلجأ اليه في الملمات ، وهو (تألب) الذي كان معبده بمدينة (ريام) ، ونسيته وتعبدت للصنمين المذكورين اللذين لم يرد اسمها في كتابات المسند ، وهما من الاصنام التي استوردت الى الحجاز ونجد على ما يظن من الشمال .

وقد وقع بين مراد وهمدان والحارث بن كعب يوم عرف بيوم رزم (يوم الرزم) ، وهو موضع في بلاد مراد ،[3] وقد اخذ فيه الصنم يغوث .[4]

اما قبـــائل مجموعة عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ ، فاشهرها الأشعر ، وطيء ، ومذحج ، وبنو مرّة .

اما الاشعر ، فولد نبت بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ ، وهم الأشعريون والأشعرون والأشاعرة ، وتقع منازلهم في ناحية الشمال من زبيد .[5]

---

١ (ص ١٠٨ وما بعدها) ، الاشتقاق (ص ٢٥٦ وما بعدها) ، سبائك الذهب (ص ٧٨ ومابعدها) .

٢ Ency., II, P. 246 (وكان يعوق لهمدان ، وخولان ، وكان فى أرحب، المحبر (ص ٣١٦) .

٣ البلدان (٤/٢٤٧) .

٤ Blau, in, ZDMG , 23, S , 562.

٥ جمهرة (ص ٣٧٤) ، ابن خلدون (٢ / ٢٥٤) ، (الأشعرون . اختلف فيهم . فمنهم من يقول انهم من ولد الأشعر بن سبا ... ومنهم مـن يقـول انهم من ولد الأشعر بن ادد بن زيد بن يشجب بن عريب بن كهلان بن سبا . واسم الأشعر : (نبت بن أدد) ، الانباه (ص ١١٥) ، طرفـة الأصحـاب (ص ١٠) ، البكـري (١/٥٣) ، الصفة (١١٩،٥٣) ، الصحاح (١/٣٤١) ، تاج العروس (٣/٣٠٢)، لسان العرب (٦/٨٤) ، صبح الأعشى (١/٣٣٥) .

ومن بطون الأشعر : الجماهر ، وجدّة والأنغم (الانعم) (الاتعم) ، والأرغم ، ووائل ، وكاهل . ومن بطونهم : غاسل ، وناجية ، والحنيك ، والركب [1] .

وأما طيء ، فانهـا من ولد جلهمة بن أدد بن يشجب بن عريب بن زيد كهلان ، ويذكر الاخباريون انها كانت باليمن ، ثم خرجت على اثر الازد الى الحجاز ، ونزلوا سميراً وفيداً في جوار بني اسد ، ثم استولوا على اجأ وسلمى وهما جبلان من بلاد اسد ، فأقاموا في الجبلين حتى عرفا بجبلي طيء [2] .

وتفرقت طيء الى بطون عديدة ، يرجـع اصولها النسابون كعادتهم الى آباء وأجداد ، ومن هؤلاء جديلة ، وتيم الله (بنو تيم) وحيش والأسعد ، وقد جلا هؤلاء عن الجبلين . وبحتر بن عتـود ، وبنو نبهان ، وبنو هنيء ، وبنو ثعل والثعالب . وهم بنو ثعلبة بن رومان بن جندب بن خارجة بن سعد بن فطرة بن طيء ، وهم في طيء نظير الربائع في بني تميم . ومن بني ثعلبة بن جدعاء تيم بن ثعلبة ، وعليهم نزل امرؤ القيس بن حجر ، وعمرو بن ثعلة بن غياث ، وكان على مقدمة عمرو بن هند يوم اوارة [3] ، وبنو لأم بن ثعلبة [4] .

ويذكر الاخباريون ان طيئاً بعد ان بلغت جبلي اجأ وسلمى ، شاهدت هناك شيخاً كان مع ابنته يمتلكان جبلي اجأ وسلمى ، وقد ذكرا لطيء انهما من بقايا

١ طرفة الأصحاب (ص ١٠) ، الجمهرة (ص٣٧٤ وما بعدها) ، الاشتقاق (٢٤٨) ، Wustenfeld, Genea , Taf., 8. كحالة (٣١/١) .

٢ ابن خلدون (٢٥٤/٢) ، (وعاش طيء بن أدد ... خمسمائة سنة . وذكر هشام أنه سمع اشياخا من طيء ، يذكرون ذلك ، وأنه حمل من جبله باليمن . وكان يقال له طريب الى جبلي طيء . وأقام بهما حينا . وفنل العادي الذي كان بالجبلين) ، كتاب المعمرين من العرب (ص ٦٤) . أبو الفداء (١٠٢/١) ، القاموس (٦٥/١ ، ٦٤/٤ ، ٢٢٩ ، ٣٤٨) ، لسان العرب (١٥/١ ، ١٦٠) ، صبح الاعشى (٣٢٠/١)، الاشتقاق (٢٢٧ وما بعدها) ، ابن صاعد (٤٣) ، تاج العروس (٩٢/١ ، ٥ / ٢ ، ٣٦٢ ، ١٩٧/٦ ، ٢٨٧ ، ١٥٠/٧) ، الاغاني (٤٧/١٠ ، ١٩٣/١٨ ، ١٢٨/١٩)، الميداني الامثال (١٩٤/١) الوبري ، تهذيب الاسماء واللغات قسم أول (٢٨٩/٢)، كحالة (٦٩١/٢) .

٣ جمهرة (ص ٣٧٥ وما بعدها) . الابـــاه (ص ١١٦) ، (وبحتر من طيء) ، الهمداني : مشتبه (ص ٤٧) ، طرفة الأصحاب (ص ١٠) .

٤ ابن خلدون (٢٥٤/٢) .

صحار . وذكروا ان لغة طيء هي لغة هذا الشيـــخ الصحاري .[1] وقد اوجد الاخباريون هذه القصة تفسيراً لبعض المميزات اللغوية التي امتازت بها لهجة طيء. وصحار اسم موضع واسم بطن من قضاعة ايضاً. وقد اخذت بطون قضاعة مواطن طيء في الشمال ، واختلطت بعض بطون طيء بقضاعة. فهل عنى الاخبـاريون بصحار هذا البطن من قضاعة ، ولا سيما اذا تذكرنا ان علماء اللغة يذكرون وجود التلتلة في لغة طيء ، وقد نسبوا التلتلة الى قضاعة كذلك ؟ ولا يستبعد ان يكون لأسطورة الاخباريين عن الشيخ الصحاري ، شيء من الواقع ، كأن يشير ذلك الى صلة صحار بطيء .

ويذكر الاخباريون ان الرئاسة في الجاهلية على طيء كانت لبني هنيء بن عمرو ابن الغوث بن طيء ، وهم رمليون واخوتهم جبليون ، ويعنون بذلك انها كانت تنزل البــوادي ، لا جبلي طيء . ومن ولده اياس بن قبيصة بن ابي غفر بن النعمان بن حية بن سعنة بن الحارث بن الحويرث بن ربيعة بن مالك بن سمر بن هنيء بن عمرو بن الغوث بن طيء[2] الذي ولي ملك الحيرة بأمر كسرى — كما سبق ان اشرت الى ذلك في الفصل الخاص بتأريخ الحيرة — وكان له شأن يذكر عند الفرس .

وكان لطيء جد هذه القبيلة من الولد : فطرة ، والغوث والحارث . فأما ولد الحارث فدخلوا في مهرة بن حيدان . وأما ولد فطرة[3] ، فمنهم : جديلة ، وولد خارجة بن سعد بن فطرة ، وتيم الله ، وحيش ، والأسعد . ومن نسل هؤلاء تفرعت سائر بطون طيء[4] .

ومن بني الغوث بن طيء بنو ثعل[5] ، ومنهم سلامان وجرول[6] . ومن بني

١ البلدان (١/١١٧) .
٢ الجمهرة (٣٧٧) .
٣ نهاية الارب (٢/٢٩٨) ، كحالة (٣/٩٢٣) .
٤ الجمهرة (ص ٣٧٥ وما بعدها) ، الاشتقاق (ص ٢٢٨ وما بعدها) ، الانبــاه (ص ١١٦) .
٥ (بنو ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيء) ، نهاية الارب (٢/٢٩٩) ، الاشتقاق (٢٣١) . لسان العرب (١٣/٨٩) ، كحالة (١/١٤٢) .
٦ (سلامان بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيء) ، الاشتقاق (٢٣١) ، صبح الاعشى (١/٣٢١) ، كحالة (١/١٨٤) (٢/٥٣١) .

سلامان بحتر ، ومعن ، وهما بطنان ضخمان ، وجرول بن ثعل . ومن بني جرول ابن ثعل ربيعة بن جرول . وهم بطن ضخم ، ولوذان بن جرول بن ثعل . ومن بني ربيعـــة بن جرول اخزم والنجد . والأخزم بطون عديدة ، ومنها عدي بن اخزم ، ومن رجالها حاتم الطائي المعروف بجوده [1] . وعمرو بن الشيـخ وكان أرمى الناس في زمانه [2] .

وفي استطاعتنـــا ان نقول عن طيء ، وان كنا لا نعرف شيئاً يذكر من تاريخها في الجاهلية ، انها كانت ذات مكانة خطيرة في تلك الايام ، بدليل اطلاق اسمهـــا عند بعض الكتبة الكلاسيكيين وعند الفرس والسريان وعند يهود بابل ، على جميع العرب كما اشرت الى ذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب . ولا يعقل اطلاق اسم هذه القبيلة على جميـع العرب لو لم تكن لها منزلة ومكانة في تلك الايام ، ولو لم تكن قوية كثيرة العدد ممعنة في الغزو ومهاجمة الحدود ، حتى صار في روع السريان انها اقوى العرب ، فأطلقوا اسمها عليهم . وبدليل اختيار الفرس لإياس بن قبيصة ، وهو من طيء لتولي الحكم في الحيرة مرتين ، ولا بد ان يكون لمركز قبيلته سند قوي اسنده في الحكم . وليس بمستبعد ان تكون قبائل قضاعة قد حلت محل طيء في الشمال مما اضطر الاخيرة الى التزحزح من أماكنهـــا والدخول في غيرها والاكتفاء بمنطقتها في جنوب النفود . أي في جبلي طيء [3] .

وبالرغم من انتزاع طيء لجزء من أرض بني أسد ، وهم من مضر ، وسكناهم فيها ، فإن بني أسد وكذلك بني ضبة التي كانت قد تحولت عن بني تمـــيم الى طيء ، انضموا الى طيء وساعدوهـــا في الحرب التي وقعت بينهـــا وبين بني يربوع ، وهم من تميم ، تساعدهم بنو سعد . وانتهت بهزيمـــة بني يربوع في

١ الجمهرة (ص ٣٧٨) .
٢ أبو الفداء (١/١٠٢) .
٣ ARABIN, ANCIENT WEST — Arabian, P 193

موضع « رجلة التيس » [1] . ولكن ذلك لا يعني ان العلاقات بين بطون طيء وأسد كانت حسنة دوماً ، وثيقة لم يعكر صفوها ما يقع عادة بين القبائل من حروب . فقد وقعت بين القبيلتين حروب كذلك . منها : الحرب التي وقعت بالخص في العراق على مقربة من قادسية الكوفة . وقد انتهت هذه الحرب كما تنتهي الحروب الأخرى بتصفية حسابها بدفع الديات وبعقد صلح [2] .

وقد وقعت بين عبس وطيء جملة غزوات . قضت احداها على حياة (عنترة ابن شداد) ، البطل الأسود الشهير [3] . أغار عنترة مع قومه على بني نبهان من طيء ، وهو شيخ كبير ، قد عبثت به يد الدهر ، فجعل يرتجز ، وهو يطرد طريدة لطيء . فانهزمت عبس . وأصيب عنترة بجرح قضى عليه [4] . وهناك رواية أخرى في مقتل بطل عبس [5] .

وفي رواية للاخباريين ان ابن هند ملك الحيرة أغار على إبل لطيء ، فحرض زرارة بن عدس ، عمرو بن هند على طيء ، وقال له انهم يتوعدونك ، فغزاهم فوقعت بسبب ذلك جملة حوادث تسلسلت الى يوم أوارة . وكان عمرو ابن هند كما يقول الأخباريون قد عاقد الحيّ الذي غزاه على ان لا ينازعوا ولا يفاخروا ولا يغزوا ، فلما غزا عمرو بن هند اليمامة ، ورجع ، مرّ بطيء ، انتهز زرارة بن عدس – وكان كارهاً لطيء مبغضاً لها – هذه الفرصة ، وأخذ يحرضه على غزوها ، ويشجعه عليه . وما زال به على ذلك ، حتى غزاها ، بعد ان بلغه هجاء الشعراء الطائيين له ، لاصابته بعض النسوة من طيء . فتمكن منها وأخذ جملة أسرى ، من بطن (أخزم) ، وهم رهط حاتم الطائي [6] .

وكانت صلة هذه القبيلة بالفرس حسنة ، ولما أراد الملك النعمان الالتجاء اليهم والدخول فيهم ليمنعوه من الفرس ، لمصاهرته لهم ، وأخذه زوجتين هما فرعة

١ Ency, IV, P. 623. (رجلة النيس) ، البلدان (٤/٢٢٨) ، البكري (٢/٦٤٠) (تحقيق السقا) .
٢ الاغاني (١٨/١٦٣) ، (الخص : قرية قرب القادسية) ، البلدان (٣/٤٤٤) .
٣ الاغاني (٨/٢٣٩ ، ٢٣٥) (طبعة دار الكتب المصرية) .
٤ الاغاني (٨/٣٤٥) (طبعة دار الكتب) ، (٧/١٤٥) (طبعة الساسي) .
٥ المصدر نفسه .
٦ الاغاني (١٩/١٢٧ وما بعدها) .

بنت سعد بن حارثة بن لام وزينب بنت أوس بن حارثة بن لام منهم ، لم تقبل طيء جواره ولا مساعدته ، وقالت له : (لولا صهرك قاتلناك ، فإنه لا حاجة لنا في معاداة كسرى) [1] . وقد جعل كسرى إياس بن قبيصة على الرجال من الفرس والعرب في حرب بكر بن وائل في معركة ذي قار .

ويظهر من روايات الأخباريين ان رؤساء طيء كانوا يحكمونها ، وكانوا يلقبون بملك . فقد ذكروا ان عدي بن حاتم الطائي كان رئيس طيء في أيام الرسول ، وكان مالكاً عليهم يأخذ منها المرباع . فلما جاءت خيل الرسول اليه بقيادة علي بن أبي طالب ، فرّ الى الشأم ، ثم ترك الشأم ، وذهب الى الرسول فأسلم [2] .

أما صنم طيء ، فكان (الفلس) ، وكان بنجد ، قريباً من فيد . وسدنته من بني بولان [3] . هدمه علي بن أبي طالب بأمر النبي ، وكانت طيء قد قلدت الصنم سيفين يقال لأحدهما مخذم وللآخر رسوب ، أهداهما اليه الحارث بن أبي شمر ، فأخذهما عليّ بن أبي طالب . وتعبدت طيء لصنم آخر هو (رضى) [4] . كما تعبدت لصنم ثالث هو سهيل [5] .

ومَذْحِج من القبائل اليمانية الكبيرة ، وقد تفرعت منها قبائل كبيرة كذلك . وتنتسب الى جدّ أعلى لها ، هو مذحج . وهو مالك بن أدد بن زيد بن يشجب ابن عريب بن زيد بن كهلان ، وأبو عدة أولاد ، هم : جلد بن مذحج ، ويحابر . وهو مراد : وزيد . وهو عنس ، وسعد العشيرة [6] ، ولهيس بن مذحج .

١ الطبري (٢/١٥١ وما بعدها) .
٢ (ذكر غزوة طيء واسلام عدى بن حاتم) ، ابن الاثر (٢/١١٩) .
٣ المحبر (ص ٣١٦) .
٤ Ency., IV, P. 624
٥ كحالة (٢/٦٩١) .
٦ الجمهرة (ص ٣٨١) ، ابن خلدون (٢/٢٥٥) . الاشتقاق (ص ٢٣٧ وما بعدها) Wustenfeld, Genea., Taf., 7, 8. ، (فولد يحابر مذحج . وولد مذحج مرادا ، وجلدا ، وعنسا ، وسعد العشيرة . وانما سمي سعد العشيرة ، لانه شهد الموسم ، ومعه بنون عشرة ، فقيل له من هؤلاء ؟ فقال : هم العشيرة . وولد سعد العشيره جعفن بن سعد ، وحبيب بن سعد ، وصعب بن سعد ، وعائذ الله بن سعد) ، البلخي (٤/١١٩ وما بعدها) ، (وأما مذحج ، فكل من انتسب الى مالك بن أدد=

وأمهم كلهم سلمى بنت منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر [1] . ومن بني عَنْس بن مذحج : عمّـــار بن ياسر الصحابي المعروف ، والأســـود العنسي المتنبي [2] .

ولمذحج مثل القبائل الأخرى أيام . منها يوم فيف الريح [3] ويوم السلان . وهو لربيعة على مذحج [4] . وسأتحدث عن أيام مذحج في الفصل الخاص بأيام العرب قبل الإسلام .

ويشير هذا النسب الذي يذكره النسّابون الى وجود صلات قديمة وثيقة بين مراد وخثعم ، وبين مجموعة القبائل المعروفة بمذحج . وهم أبناء اخوة على رأي النسابين [5] .

ويذكر الأخباريون ان مواطن مراد القديمة هي في الجوف ، في منطقة رملية جرداء . ويظهر انها كانت متبدية وكان معبودهـــا الصنم يغوث [6] ، الصنم الذي تعبدت له مذحج كذلك [7] . روي ان الصنم يغوث ، كان لمذحج كلها . وكان في

= ابن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ، فهو مذحجي ومن لم ينسب الى مالك بن أدد ، فليس بمذحجي . ومالك بن أدد ، هو جماع مذحج . وقال ابن اسحاق : مذحج بن يحابر بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ . ولم يتابع ابـــن اسحاق في ذلك) ، الانباه (ص ١١٦) ، ابن الوردي (١/ ٩٠) ، أبو الفـــداء (١/١٠٢) ، القاموس (١/ ١٧١) ، لسان العرب (٢/ ٤٨٠) ، (٣/ ١٠٣) ، الروض الانف (١/ ١٣٩) ، البكري (١/ ٢٩٨) ، كحالة (٣/ ١٠٦٢ وما بعدها) .

١ الجمهـــرة (ص ٣٨١) .

٢ الاغاني (١٨/ ١٣٥) ، ابن الوردي (١/ ٩٠) ، (عنس ابن مالك وهو مذحج) ، الاشتقاق (٢٤٧) ، نهاية الارب (٢/ ٣٠١) صبح الاعشى (١/ ٣٢٧) ، الصفـــه (٥٤ ، ١٠٤) ، كحالة (٢/ ٨٤٧ وما بعدها) .

٣ نهاية الارب (١٥/ ٤١٤) ، العقد الفريد (٢/ ٨٠) ، الامالي للقالي (٣/ ١٤٧) ، البكري (٣/ ١٠٣٨) (طبعة السقا) .

٤ بين معد ومذحج وكلب يومئذ معدون . وشهدها زهير بن جناب الكلبي .. فقال

شهدت الموقدين على خزاز ... وفي السلان جمعا ذا زهـــاء

البلدان (٥/ ١٠٤) .

٥ Wustenfeld, Genea., I.

٦ Ency., III, P. 726

٧ الاصنام (١٠) .

أنعم ، فقاتلتهم عليه غطيف من مراد ، حتّى هربوا به الى نجران ، فأقروه عند بني النار من الضباب ، من بني كعب ، واجتمعوا عليه جميعاً [١] .

ويذكر الأخباريون ان المنذر بن ماء السماء حينما بغى على أخيه عمرو ، هرب عمرو الى مراد ، فاحتفلت به ، وعينته رئيساً عليها . غير انه اشتدّ عليها حينما تمكن وقويَ أمره ، فغدرت به وقتلته . لذلك غزاهـا عمرو بن هند ، وقتل قتلة عمرو [٢] .

وكانت بين مراد وهمدان حرب ، وقعت في عهد لم يكن بعيداً عن الاسلام . عرفت بيوم الرزم ، انتصرت فيهـا همدان على مراد . وكان رئيس مراد أيام الرسول فروة بن مسيك المرادي . وقد استعمله الرسول على صدقات مراد وزبيد ومذحج ، فاستاءت زبيد ومذحج من ذلك . وارتد عمرو بن معـديكرب في مرتدين من ربيد ومذحج . فاستجاش فروة النبيّ ، فوجه اليهـم جيشاً ، هزم المرتدين [٣] .

وقبيل الإسلام كان هبيرة بن المكشوح بن عبد يغوث رئيساً بارزاً على مراد ، وقـد عدّه الأخباريون من (الجرارين) في اليمن ، ويقصد بالجرار من ترأس ألفاً في الجاهلية [٤] . وقد كان ابنه قيس من رؤساء مراد البارزين عنـد ظهور الاسلام [٥] . وهو الذي قتل الأسود العنسي [٦] . وكان هناك رئيس آخر على مراد عند ظهور الاسلام هو فروة بن مسيك المتقدم ذكره ، كان كذلك من الجرارين [٧] .

وأشهر أولاد يحابر ، وهو مراد ، ناجية وزاهر [٨] . ومن ولد ناجية مفرج ، وكنانة ، وعبد الله ، ومالك ، ويشكر ، وردمان . وقـد انتسب ردمان الى

١ المحبر (ص ٣١٧) .
٢ Ency., III, P. 726
٣ البكري (٢/٦٤٩ وما بعدها) ، الاغاني (١٥/٢٥ وما بعدها) .
٤ المحبر (ص ٢٥٢) .
٥ Ency., III, P. 726
٦ الاشتقاق (ص ٢٤٧) .
٧ المحبر (ص ٢٥٢) .
٨ (ويحابر بن مالك ، وهو مراد ، وانما سمي مرادا ، لانه أول من تمرد باليمن) ، الاشتقاق (ص ٢٣٨ ، ٢٣٦) نهاية الارب (٢/٢٨٥) .

حمير . ومن ولد عبد الله غَطيف[1] ، وهـم بطن . ومن نسل ردمان[2] قرين ونابية ، وهما بطنان . ومن بني زاهر قيس بن المكشوح ، وبنو الحصين والربض والصنابح وهما بطنان[3] .

وأولاد سعد العشيرة كثيرون ، تفرعت منهم قبائل وبطون ، ويذكر الأخباريون ان سعد العشيرة كان رجلاً كثير الأولاد حتى انـه كان اذا ركب ركب معه ثلاث مئة فارس من صلبه . والظاهر انها كانت من القبائل الكبيرة ، وأظن انها كانت تحتمي بصنم هو (سعد العشيرة) ، ثم نسبته فتصور أبناؤهـا انه إنسان ، وانهم من صلبه منحدرون ، وليس هذا بأمر غريب ، وقد ذكرت أمثلة من هذا القبيل ، ومنه (تالب) صنم همدان المذكور في المسند ، الذي صيره النسابون جداً من أجداد همدان .

ومن أولاد سعد العشيرة : الحكم[4] ، والصعب[5] ، وثمـرة ، وجعفي ، وعائذ الله ، وأوهن الله ، وزيـد الله ، وأنس الله ، والحر . ومن البطون المتفرعة من هؤلاء الدئل ، وهم من نسل الحكم ، وقـد دخلوا في تغلب[6] . وأسلم . ومن جعفي مرّان وحريم[7] . أما بنو صعب فأشهرهـم أود ومنبه[8] ، ويسمى أيضاً بزبيد . ومن نسل زبيـد مازن ، وهم بطن[9] . ومن قبيلة أود الأفوهُ الأودي الشاعر المعروف[10] .

١ (عطيف بن عبدالله بن ناجيه بن مراد) ، تاج العروس (٢١٣/٦) ، القاموس (١٨١/٣) ، كحالة (٨٨٩/٣) .
٢ (ردمان بن ناجيه) ، الاشتقاق (ص ٢٤٧) ، تاج العروس (٣١٠/٨) .
٣ الجمهرة (ص ٣٨٢ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (٢٥٥/٨) ، نهاية الارب (٣٠١/٢) لسان العرب (٣٤/١٥) ، كحالة (٢٨٧/١) .
٥ (الصعب بن سعد العشيرة بن مالك) ، نهاية الارب (٣٠١/٢) ، كحالة (٦٤١/٣) .
٦ الجمهرة (ص ٣٨٣) .
٧ (جعفي بن سعد العشيرة) ، الاشتقاق (ص ٢٤٢) ، نهاية الارب (٣٠١/٢) أبو الفداء (١٠٨/١) ، لسان العرب (٣٧١/١٠) .
٨ البكري (٥٧/١) ، تاج العروس (٢٩٧/٢) ، لسان العرب (٤١/٤) ، أبو الفداء (١٠٨/١) ، كحالة (٤١/١) .
٩ الجمهرة (ص ٣٨٥) ، الاشتقاق (ص ٢٤٥) ، نهاية الارب (٢٨٥/٢) .
١٠ ابن الوردي (٩٠/١) ، الاغاني (٤٤/١١ وما بعدها) ، الجمهرة (ص ٣٨٦) .

وأبين بطون جلد بن مالك بن أدد ، أي جلد بن مذحج، بنو عُلة بن جلد . ومن أولاد عُلة : عمرو ، وعامر ، وحرب تفرعت جملة قبائل أظهرها : النخع بن عمرو بن علة . وبنو الحارث بن كعب بن عمرو بن علة . ورهاء وهو ضبة بن الحارث بن عُلة [1] ، وصداء وهم من نسل يزيد بن حرب ابن علة [2] .

وقد تحالفت منبّه والحارث والعلاء (العلى) وسيحان (سيحان) (سنجان) وهفان وشمران ، وهم ولد يزيد بن حرب بن علة بن جلد على بني أخيهم صداء ابن يزيد بن حرب ، فسُمّوا جَنْباً ، لأنهم جانبوا عمهم صداء ، وحالفوا بني عمهم بني سعد العشيرة . ومن جنب ، معاوية الخير الجنبي ، صاحب لواء مذحج في حرب بني وائل ، وكان مع تغلب [3] .

أما صداء ، فحالفت بني الحارث بن كعب . ومن بني منبّه ، كان معاوية ابن عمرو بن معاوية بن الحارث بن منبّه بن يزيد الذي تزوّج بنت مهلهل بن ربيعة التغلبي [4] .

وتنتسب قبيلة النخع الى النخع وهو جسر بن عمرو [5] بن علة بن جلد بن

---

١ (رهاء بن منبه بن حرب بن علة بن جلد بن مالك) ، تاج العروس (١٠/١٦١) ، لسان العرب (١٩/٦٣) ، الاشتقاق (ص ٢٤٢) ، نهاية الارب (٢/٢٨٦) ، كحالة (٢/٤٤٨) .

٢ الانباه (ص ١١٦ وما بعدها) ، الاشتقاق (ص ٢٣٧ ، ٢٤٢) .

٣ خلاصة الكلام (ص ٥٥) ، ابن الوردي (١/٩٠) ، الاشتقاق (ص ١٣٠) ، صبح الاعشى (١/٣٢٦) ، كحالة (١/٢١٠) ، تاج العروس (١/١٩٢) ، أبو الفداء (١/١٠٨) .

٤ الجمهرة (ص ٣٨٨) ، الاشتقاق (ص ٢٤٢) ، تاج العروس (١/٨٨) ، القاموس (١/٢٠) نهاية الارب (٢/٢٨٦) .

٥ (ولد عمرو بن علة كعبا ، وعامرا ، وجسرا وهو النخع) ، الجمهرة (ص ٣٨٩) . وبعد اسطر من هذا النسب ، وفي باب (وهؤلاء بنو جسر أخيه ، وهو النخع بن عامر) جاءت هذه الاسطر (ولد النخع بن عامر بن علة .. الخ) ، فصار والد النخع عامر في هذا الباب ، بينما هو (عمرو) . ولم يشر (ليفي بروفنسال) الى هذا التناقض الناشيء من تحريف النساخ ، وفي تحقيقه هفوات من هذا القبيل . الانباه (ص ١١٦) .

مالك ، وهو مذحج[1] . ومن النخع الأشتر النخعي ، واسمه مالك بن الحارث ، صاحب رسول الله ، ثم علي بن أبي طالب . وللنخع بطون عديدة[2] منها : صُهبان ، ووهبيل . وجسر ، وجذيمة ، وقيس ، وحارثة[3] ، وصلاءة ، ورزام ، والأرت ، ومن الأرت بنو عبد المدان وعبد الحجر بن المدّان[4] .

وولد مرّة بن أدد رُهمًا ، والحارث . ومن رهم كان الأفغى الذي كان يتحاكم اليه بنجران على رواية ابن حزم[5] ، أو من رهم ، من طيء على رواية ابن دريد[6] . أما الهمداني ، فذهب الى انه من رهم بن مرة بن أدد ، أي على نحو ما ذهب ابن حزم اليه[7] .

وبنو مُرّة بن أدد ، اخوة طيء ومذحج والأشعريين ، بطون كثيرة تنتهي كلها الى الحارث بن مُرّة ، مثل خولان ومعافر ولخم وجذام وعاملة وكندة[8] . أما خولان ، فيرجع نسبها الى خولان بن عمرو بن مالك بن الحارث بن مرّة ابن أدد . ويسمي النسابون خَوْلان فكلا (أفكلاً) كذلك[9] . والخوليون هؤلاء هم خولان أدد ، وعرفوا بخولان العالية أيضاً[10] ، وهم غير خولان بن عمرو ابن الحاف (الحافي) بن قضاعة ، أي خولان القُضاعية ، وهي قبيلة يمانية كذلك في نظر من جعل قضاعة من اليمانيين[11] . وأظن ان هناك صلة بين (فكل)

١ منتخبات (ص ١٠٢) ، الاشتقاق (ص ٢٣٧) ، ابن خلدون (٢/٢٥٥) ، نهاية الارب (٢/٣٠٢) ، أبو الفداء (١/١٠٨) ، لسان العرب (١٠/٢٢٦) ، القاموس (٣/٨٧) ، المصباح المنير (٢/١١٤) ، كحالة (٣/١٠٧٦) .
٢ أبو الفداء (١/١٠٣) صبح الاعشى (١/٣٢٧) .
٣ جمهرة (ص ٣٨٩) .
٤ الاشتقاق (ص ٣٣٧) .
٥ جمهرة (ص ٣٩٢) .
٦ الاشتقاق (ص ٢١٨) .
٧ الاكليل (١٠/٢) ، (مرهم) ، نهاية الارب (٢/٢٨٦) ، كحالة (٣/١٠٧٧) .
٨ ابن خلدون (٢/٢٥٦) ، نهاية الارب (٢/٢٨٦ وما بعدها) .
٩ جمهرة (ص٣٩٢) ، الاشتقاق (ص ٢٢٧) ، ابن خلدون (٢/٢٥٦) ، نهاية الارب (٢/٢٨٧) ، تاج العروس (٦/٦٥٢ ، ٧/٣١٢) ، القاموس (٢/٢٣٢) ، لسان العرب (١٣/٢٤٠) ، صبح الاعشى (١/٣٢٥) ، القاموس (٣/٢٧٢) ، كحالة (١/٣٦٥ وما بعدها) .
١٠ الاكليل (١٠/٢،٤٢) .
١١ منتخبات (ص ٣٥) ، الاكليل (١٠/٢٩٣) ، الانباه (ص ١١٥ ، ١٢٠) .

و (أفكل) و (يكلى) أو (ركلى) المذكور عند بعض الأخباريين ، وقد زعم الهمداني انــه شقيق خوَلان ، وابن الابن الآخر لعمرو بن مالك . وقــد نشأت هذه الصور للاسم من تحريف النُسّاخ ، ومن التبلبل الذي يحدثــه أمثاله للنسّابين والباحثين في الأنساب . واما ان يكلى أو فكل هو شقيق خوْلان ، أو انه خولان نفسه ، فأمر لا قيمة له .

ورجح نشوان بن سعيد الحميري كون المراد بـ (خولان العاليــة) خوَلان قضاعة ، وقد ذكر الرأيين وناقش كل واحـــد منهما ، ثم رجّح ان خولان العالية هي خولان قضاعة[١] .

واسم خولان من الأسماء التي ورد ذكرهـــا في كتابات المسند . ورد اســماً لأرض ، كما ورد اسماً لقبيلة ، هي قبيلة خولان[٢] ويعود تأريخ هذه الكتابات الى ما قبل الميلاد . وتقع أرض خولان في نفس المكان الذي عرف في الإسلام بـ (عرّ خوْلان) وبأرض خولان[٣] . وقد ذهب (شبرنكر) الى ان خولان هي (حويلة) إحدى القبائل العربية المذكورة في التوراة[٤] .

وعند ظهور الاسلام ، كانت خولان تتعبد للصنم ، عم أنس (عميأنس) وللصنم يعوق .[٥] وفي السنة العاشرة للهجرة ، وصل وفد منها الى الرسول معلناً له الدخول في الاسلام . وقد اشتركت خولان مع من اشترك من القبائل العربية في الفتوح ، فلعبت دوراً هاماً فيها خاصة في فتوحات مصر .[٦]

والى جعفر بن مالك بن الحارث بن مُرّة يرجع نسب المعافر .[٧] جدّ المعافرين ، ويسمى بالمعافر الاكبر تمييزاً له عن المعافر الاصغر ، وهو ابن حضرموت .[٨]

١ منتخبات (ص ٣٥ وما بعدها .
٢ Halevy 585, Glaser 1076, Glaser 119.
٣ Ency , II, P. 933.
٤ Ency., II, P. 933.
٥ الاصنام (٤٣) . كحاله (١/٣٦٦) .
٦ Ency., II, P 933.
٧ جمهره (ص ٢٩٣) ، نهايه الارب (٢/٢٨٧) ، كحالة (٣/١١١٥) .
٨ الاكليل (١٠/٣) ، الاشتقاق (ص ٢٢٨) ، ابن خلدون (٢/٢٥٦) ، الانبـــاه (ص ١١٨) .

وقد اشتهرت المعافر بنوع من الثياب سميت باسمهم .[1]

ومن ولد عديّ بن الحارث بن مرّة بن أدد بن يشجب ، كان الحارث بن عديّ وهو عاملة ، وعمرو بن عديّ وهو جذام ، ومالك بن عديّ وهو لخم ، وعفير بن عدي وهو والد كندة .[2] وكلها كما نرى قبائل معروفة شهيرة تنتسب الى القحطانيين . وأما أمهم ، فهي رقاش بنت همدان .[3]

وذكر ابن خلدون ان الحـارث بن عديّ والد عاملة ، سمي عاملة باسم أمه عاملة ، وهي من قضاعة . وذكر انها كانت في بادية الشام .[4]

وقد يستنتج من هذه الصلة بين القبائل الثلاث ، انها كانت حلفاً في الأصل جمع بينها لمصالح مشتركة ولظروف متشابهة ألفت بينها على نحو ما رأينا عنـد قبائل اخرى فصارت نسباً بمرور الايام .[5] وقد كانت هذه الصلة قوية خاصة بين لخم وجذام ، حيث اقترن اسمها معاً في الغالب ، ولا سيا في الاسلام ، مما يدل على اشتراك المصالح بين القبيلتين .

وكانت عاملة حليفة لكلب ، (وغزت معها الى طيء ، فأسر رجل من عاملة ، اسمه قعيسيس ، عديّ بن حاتم ، فانتزعه منهم شعيب بن مسعود العُليمي من كلب ، وقال له : ما أنت وأسر الاشراف ؟) ، وأطلقه بغير فداء .[6] ومن عاملة الشاعر عديّ بن الرقاع .[7]

ويذكر الاخباريون ان بطوناً من عاملة كانت في الحيرة ، كما ان بعضاً منها كانت خاضعة للزبّاء .[8] واذا صح زعم الاخباريين هذا ، فانه يدل على قدم

---

١ (المعاوربة) منتخبات (ص ٧٣) .

٢ حمهرة (ص ٣٩٤) .

٣ الاكليل (١٠/٤) .

٤ ابن خلدون (٢/٢٥٧) ، (عاملة) ، تاج العروس (٨/٣٥) ، القاموس (٤/٢٢) ، نهاية الارب (٢/٢٨٧) ، صبح الاعشى (١/٣٣٥ وما بعدها) .

٥ Ency., III. P. 11.

٦ جمهرة (ص ٣٩٤) .

٧ منتخبات (ص ٧٧) ، جمهرة (ص ٣٩٤) .

٨ Ency., I, P. 327.

وجود هـــذه القبيلة في بلاد الشام والعراق ، ولكننا لا نجد لها ذكراً مثل اكثر القبائل الاخرى في كتب (الكلاسيكيين) .

وكانت منازلها عند ظهور الاسلام في المنطقة الجنوبية الشرقية للبحر الميت . وقد اشتركت مع القبائل العربية الاخرى التي ساعدت الروم ، وانضمت الى جانب (هرقل) (Heraclius) ، ولكن اسمها لم يرد كثيراً في اخبار فتوح المسلمين لبلاد الشام ، وانما كان من الاسماء المعروفة في ايام الامويين . وتدل اقامتها في هذه البلاد منذ ايام الجاهليـــة على ان صلتها ببلاد الشام كانت اقوى وأمتن من صلتها بالعراق .

وصنم عاملة هو الأقيصر ، وكان في مشارف الشام ، يحجون اليه ، ويحلقون رؤوسهم عنده .[١]

وولد جذام : وهو عمرو بن عديّ بن الحارث بن مرّة[٢] والد قبيلة جذام الشهيرة من الولد حراما ، و (جُشَمَ) .[٣] ومن بني حرام غطفان وأفصى ، وهما ابنا (سعد بن اياس بن افصى بن حرام بن جذام) . وذكر ابن حزم : ان روح بن زنباع ، وهو من بني افصى ، اراد ان يردّ نسب جذام الى مضر ، فيقال جذام بن أسدة اخي كنانة وأسدِ ابني خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ، فعارضه في ذلك نائل بن قيس .[٤]

ومن بطون جذام : (بنو ضبيب ، وبنو مخرمة ، وبنو بعجة ، وبنو نفاثة ، وديارهم حوالي ايلة من اول اعمال الحجاز الى ينبع من اطراف يثرب . وكانت لهم رياسة في معان وما حولها من ارض الشام لبني النافرة من نفاثة ، ثم لفروة ابن عمرو بن النافرة . وكان عاملاً للروم على قومه وعلى من كان حوالي معان من العرب . وهو الذي بعث الى رسول الله صلى الله عليه وسلم باسلامه ، وأهدى

١ كحالـــة (٢/٧١٤) .
٢ منتخبات (ص ١٩) ، ابن خلدون (٢/٢٥٧) . تاج العروس (٨/٣٢٣) ، لســـان العرب (١٤/٣٥٦) ، أبو الفداء (١/١٠٩) ، نهـــاية الارب (٢/٣٠٣) ، صبـــح الاعشى (١/٣٣٠) ، الصحاح (٢/٢٦٩) ، كحالة (١/١٧٤) .
٣ (جشم) ، جمهرة (ص ٣٩٥) ، وهو في الاشتقاق (ص ٢٢٥) (حشم) .
٤ جمهرة (ص ٣٩٥ وما بعدها) Ency., I, P. 1058

له بغلة بيضاء وسمع بذلك قيصر ، فأغرى به الحارث بن أبي شمر الغساني ملك غسان ، فأخذه وصلبه بفلسطين)[1] .

أما لخم ، الأخ الآخر لعاملة وجذام ، فولد جزيلة ونمارة ، وولد نمارة عدياً ، وهو عَمَم وحبيب وجذيمة ، وهم العباد ، وغيرهم . وولد حبيب ، هانئاً ، ومن نسله تميم الداري صاحب رسول الله ، ومن نمارة عمرو بن رزين ابن لخم ، ومن ولده قصير الوارد اسمه في قصة الزبّاء ، ومن نسل عَمَم بنو نصر بن ربيعة بن عمرو بن الحارث بن مسعود بن مالك بن عمم بن نمارة ابن لخم ، رهط آل المنذر ملوك الحيرة[2] .

ويظهر ان اللخميين كانوا أقدم جماعة في هذا الحلف ، وقد كانوا قبل الاسلام في بلاد الشأم والعراق وفي البادية الفاصلة بينهما وفي مواضع متعددة من فلسطين . ومنهم كما رأينا كان آل لخم ملوك الحيرة . ولا يستبعد ان يكون ظهور هذه القبيلة على أثر تصدع حكومة تدمر . حيث مكن هذا التصدع رؤساء القبائل الكبرى من الظهور . وقد كان اللخميون على النصرانية مثل الغساسنة في الشأم[3] .

ويدل القصص المروي عن أصل لخم ، وانحدارها من صلب ابراهيم ، على قدم هذه القبيلة في نظر أهل الأخبار . ومما جاء في هذا القصص ان أحد بني لخم هو الذي أخرج يوسف من البئر[4] . وقد لعب اللخميون دوراً هاماً كما رأينا في سياسة البادية وفي مقدرات عرب الشأم والعراق .

وفي الاسلام صارت كلمة (لخم) تطلق على جذام . ويدل ذلك على الصلات الوثيقة التي ربطت بين القبيلتين . ثم قل استعمال كلمة (لخم) ولخمي ، بالقياس الى جذام . حتى صارت لخم تعني في الغالب الأمراء اللخميين .

١ ابن خلدون (٢/٢٥٧) .
٢ جمهرة (٣٩٦ وما بعدها) ، الاشتقاق (٢٢٥) ، صبح الاعشى (١/٣٣٤ وما بعدها) لسان العرب (١٦/١٢) ، تاج العروس (٤/١٢٦) ، الصحاح (٢/٣٢٣) ، كحالة (٣/١٠١٢) .
٣ Ency , III, P. 11.
٤ Ency., III, P. 11

وشقيق لخم هو عفير بن عديّ والد ثور ، وهو كندة جـدّ قبيلة كندة الشهيرة . وولد كندة معاوية بن كندة ، وأشرس ، وأمها هي رملة بنت أسد ابن ربيعة بن نزار [1] . ويمثل هذا النسب صلة كندة بقبائل معدّ . وقد نسب بعض النسّابين كندة الى كندة ، وهو ثور بن مرتع بن معاوية بن كندي بن عفير بن عديّ بن الحارث بن مرّة بن أدد بن زيد بن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان [2] ، وقد ولد هذا النسب من نسب آخر جعل اسم ولد عفير (كندي) ، ثم ساقوا النسب على هذا النحو الى ان وصلوا الى ثور بن مرتع ، فقالوا : إنه هو كندة وانه شقيق مالك وهو الصدف ، وقيس [3] .

ومن بطون كندة معاوية بن كندة ، ومنه الملوك بنو الحارث بن معاوية الأصغر بن ثور بن مرتع بن معاوية [4] أسلاف الشاعر امرؤ القيس ، وقد حكموا القبائل الأخرى من غير كندة ، ومنها قبائل من عدنان .

ومن ولد أشرس : السكون والسكاسك [5] ، ومن السكون بنو عديّ وبنو سعد وأمها من مذحج اسمها تجيب بنت ثوبان بن سُليم بن رها بن مذحج ،

١ جمهرة (ص ٣٩٩) ، الاكليل (٤/١٠) . (كندة ، واسمه ثور بن غفير بن عدى ابن الحارث بن مرة بن أدد بن نشجب بن عريب بن زيد كهلان بن سبأ . هذا قول ابن الكلبي . وقال ابن هشام : كندي ويقال كندة بن ثور بن مرتع ... وقال ابن اسحاق : كندة هو ثور بن مرتع . وقال الزبير . ثور بن مرتع بن كندة من ولد معاوية الاصغر) الانباه (ص ١١٤) ، الاشتقاق (ص ٢١٨) ، تاريخ ابن خلدون (٢٥٧/٢) ، تاج العروس (٤٣/١ ، ٢٨٧/٢) ، لسان العرب (٣٨٦/٣) ، صبح الاعشى (٣٢٨/١) ، نهاية الارب (٣٠٣/٢) ، الروض الانف (٣٤٥/٢) ، كحالة (٩٩٨/٣ وما بعدها) .

٢ منتخبات (ص ٩٤) . (كندة بن غفير بن الحارث . من ولد زيد بن كهلان) ، خلاصة الكلام (ص ٥٥)ومابعدها .

٣ الاكليل (٥/١٠) .

٤ ابن خلدون (٢٥٧/٢) .

٥ الانباه (ص ١١٥) . (السكاسك . نسل حميس السكسك بن أشرس بن ثور . وهو كندة بن عفير من بطونها : خداش ، صعب ، ضمام ، والاحدر) ، الاشتقاق (٢٢١) ، تاج العروس (١٤١/٧) ، كحالة (٥٢٧/٢) .

ولذلك عرفوا بـ (تجيب)[١] .

وكان أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل في أيام الرسول من السكون ، وأخوه بشر بن عبد الملك . يذكرون انه ذهب الى الحيرة ، وتعلم بها الخط ، ثم رجع الى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب أخت أبي سفيان[٢] .

وأما الصدف ، فهو عقب مالك بن أشرس على رواية . وقد نسب الى كندة ، كما نسب الى حضرموت . ونسبه بعض النسابين الى حمير . فمن نسبه الى كندة ، قال : الصدف هو : عمرو بن مالك بن أشرس بن شبيب بن السكون ابن أشرس بن ثور وهو كندة[٣] ، أو عمرو بن مالك بن أشرس أخي السكون ابن أشرس . ومن نسبه الى حضرموت ، قال : الصدف ، هو الصدف بن أسلم بن زيد بن مالك بن زيد بن حضرموت الأكبر[٤] . وقد قال عنه بعض الأخباريين : انه مالك بن الصباح ، أخو أبرهة بن الصباح[٥] . وأبرهة بن الصباح هو عربي في نظر أكثر الأخباريين . ولم يعرفوا انهم يقصدون به أبرهة الحبشي ، صاحب حملة الفيل . ومن نسبه الى حمير قال : الصدف هم من نسل : الصدف ابن عمرو بن ديسع بن السبب بن شرحبيل بن الحارث بن مالك بن زيد بن سدد بن حمير الأصغر[٦] . أو : الصدف بن سهلة بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن

١ (نجيب • قال الزبير وغيره : نجيب امرأة • وهي ابنة ثوبان بن سليم بن رها بن مذحج • نسب اليها ولدها • وولدها عمر بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد • وعمير بن عدي ، بنو عم خولان ، يجمعهم الحارث بن مرة بن أدد • ولدت تجيب في السكون من كندة ، فهم أشراف السكون) ، الانباه (ص ١١٥) • ابن خلدون (٢٥٧/٢) ، نهاية الارب (٣٠٤/٢) ، الاشتقاق (٢٢١)، كحالة (٥٢٨/٢ وما بعدها) •

٢ جمهرة (ص ٤٠٣ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢٥٧/٢) •

٣ كحاله (٦٣٧/٢) ، نهاية الارب (٣٠٤/٢) ، لسان العرب (٩٠/١١) •

٤ الجمهرة (ص ٤٣١) •

٥ الانباه (ص ١١٤) ، نهايه الارب (٣٠٤/٢) ، لسان العرب (٩٠/١١) ، كحاله (٦٣٧/٢) •

٦ منتخبات (ص ٥٩) ، (الصدف بن مرتع ، والصدف من حمير هذا قول الهمداني • وغيره يقول . جميع الصدف من حمير) ، الهمداني : مشتبه (ص ٤٠) ، (الصدف بالضم ابن عمرو بن الغوث بن حيدان • الصدف بن دسع : الصدف بالفتح وهو مالك بن مرتع أخو كندة في قول الهمداني • وفي قول غيره : الصدف من حمير) ، الهمداني : مشتبه (ص ٣٢) •

عبد شمس بن وائل بن الغوث بن هميسع بن حمير [1] .

واختلاف أهل الأنساب ، وأهـــل الأخبار في نسب الصدف ، دليـــل على اختلاط هذه القبيلة ببطون كندة وحمير وحضرموت . ودخول بطونها فيهـــا ، وانتسابهـــا الى البطون التي دخلت فيهـــا ، ويؤدي ذلك في الغالب كما رأينا الى اختـــلاط الأنساب .

١ كحالة (٢/٦٣٧) .

الفصل السابع والأربعون

القبائل العدنانية

أوجزت الكلام في الفصل المتقدم على القبائل القحطانية ، أي القبائل التي يرجع نسبها الى اليمن ، وفي هـذا الفصل سأحاول الكلام على قبائل القسم الثاني من العرب ، اي قبائل العدنانيين ، مقتصراً في الغالب على ذكر القبائل الكبرى ، سالكاً ما سلكته في الفصل المتقدم من طريقة أهل الانساب في ترتيب القبائل .

وجدّ قبائل هذا الفصل عدنان من سلسلة تنتهي باسماعيل بن ابراهيم الخليل ، جد الاسماعيليين . وهو مثل قحطان شخصية لا نعرف من امرها شيئاً ، ولا من خبرها غير هذا الذي يقصّه علينا الاخباريون . وهو على حد قولهم من معاصري الملك بختنصر ملك بابل (٦٠٤ — ٥٦١ ق.م) الذي اوحى الله اليه على لسان (برخيا بن احنيا بن زربابل بن سلتيل) ان يغزو العرب في ايام ابنه معدّ بن عدنان على حد قول الاخباريين [١] .

ويزعم الاخباريون انهم وجدوا في كتب (برخيا) هذا نسب عدنان ، وأنه كان معروفاً عند اهل الكتاب وعلمائهم ، مثبتاً في اسفارهم . واستشهدوا على نسبه بشعر لأمية بن ابي الصلت [٢] . فمن ذرية عدنان اذن ، تفرعت هذه القبائل التي سأتحدث عنها في هذا الفصل .

١ الطبري (١/٢٩١) .
٢ الانباه (ص ٤٧) .

وقد بخل الاخباريون على عدنان ، فلم يمنحوه من الولد غير ولدين ، هما : معد ، والحارث وهو علكّ . [1] وأمهما : منهاد بنت لهم بن جليد بن طسم . [2] وقـد بخلوا عليه بأسماء نسائه ايضاً على ما يظهر ، اذ لم يذكروا لنا اسم زوجة اخرى له . ولا ندري نحن ، وقد عشنا بعدهم بقرون ، سرّ هذا البخل الشنيع .

ومن نسل هذين الولدين تفرعت قبائل عدنان ، فأولد معد نزاراً ، [3] وأضاف بعض النسابين قضاعة اليه . وأمهما معانة بنت جوشم بن جهلمة بن عامر بن عوف ابن عديّ بن دُب بن جرهم . [4] وقـد اشرت الى اختلاف النسابين في نسب قضاعة وارجاع بعضهم اياه الى معدّ وبعضهم الى قحطان ، والى محاولة كل فريق جرهم اليه ، لعوامـل سياسية بحتة وان اكتسبت صبغة نسب وأصل وحسب ، فالموضوع هو تكتل وتحزب وتنافس . وقضاعة كتلة من القبائل كبيرة ، لذلك كان لاجتذابها الى احد المعسكرين السياسيين المتطاحنين اهمية عظيمة في سياسة ذلك العهد ، لذلك نجد نَسّابي كل فريق يحاولون جهدهم اثبات نسب قضاعة في فريقهم ، حريصين على نفي نسبتها الى الفريق المعارض ، واخراجها منها ، وتفنيد حجج الخصوم . هذا ابو عبد الله الزبيري (١٥٦ — ٢٣٦ هـ) وهو قرشي ، ومعدود من مشاهير النسابين ، يذكر نسب قضاعة فيقول : «وقد انتسبت قضاعة الى حمير ، فقالوا : قضاعة بن مالك بن حمير بن سبأ ، وأمه عُكبرة ، امرأة من سبأ ، خلف عليها معد ، فولدت قضاعة على فراش معدّ ، وزَوّروا في ذلك شعراً فقالوا :

يا ايها الداعي ادعنا وأبشر ولكن قضاعياً ولا تَنَزّرْ
قضاعة بن مالك بن حمير النسب المعروف غير المنكرْ

١ وقد منحه ابن الكلبي خمسة أولاد . هم . (معد ، والديث ، وأبى ، والعي ، وعدبد . فولد الديث : الحارث ، وهو عك . فولد عك بن الديث : الساهد وصحارا . وهو غالب .) جمهرة النسب (ورقة ٣) .

٢ أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري : كتاب نسب قريش تحقيق (ليفي بروفنسال) (ص ٥) . (وقد قيل . عك بن الديث بن عدنان) ، جمهرة (ص ٨) ، وأمهم مهدد بنت اللهـم بن جلحب من جديس) ، جمهـره النسب (ورقة ٣) .

٣ طرفة الاصحاب (ص ٥٧) ، سبائك الذهب (ص ٢٠) ، ابن خلدون (٢/٣٠٠) .

٤ نسب قريش (ص ٥) .

قال : وأشعار قضاعة في الجاهلية ، وبعد الجاهلية ، تدلّ على ان نسبهم في معدّ » [1] .

وجعل ابن حزم لمعدّ خمسة اولاد ، هم : نزار بن معدّ ، واياد بن معدّ ، وقنص بن معدّ ، وعبيد الرماح بن معدّ ، والضحاك بن معدّ . وذكر ان من الاخباريين من يزعم ان ملوك الحيرة من المناذرة هم من ولد قنص ، وأن عبيد الرماح دخلوا في بني مالك بن كنانة ، وأن الضحاك بن معد هو الذي اغار على بني اسرائيل في اربعين من تهامة [2] . ونسب ابن الكلبي لمعد جملة اولاد آخرين [3] .

ويذكر بعض الاخباريين ان الامارة بعد معدّ على العرب كانت الى قنص بعد ابيه ، فأراد اخراج اخيه نزار من الحرم ، فأخرجه اهل مكة ، وقدّموا عليه نزاراً [4] .

وقد ولد لنزار مضر واياد ، وأمهما ، خبيّة بنت عك بن عدنان ، وربيعة وأنمار ، وأمهما حُدالة بنت وعلان بن جوشم بن جهلمة بن عامر بن عوف بن عديّ بن دُبّ بن جرهم ، فهما ليسا صريحين في نظر النسابين كمضر واياد ، لأنهما ليسا مثلهما من أب عدناني وأم عدنانية . ومن النسابين من قال : ان (ربيعة ومضر الصريحان من ولد اسماعيل) [5] ، فلم يجعل اياداً بذلك من العدنانيين الصريحين .

وفي رواية الاخباريين ان نزاراً حينما شعر بدنوّ اجله قسم ما عنده على اولاده ، فجعل لربيعة الفرس ، ولمضر القبة الحمراء ، ولأنمار الحمار ، ولإياد الحلمة والعصا . ثم تخاصموا بعد ذلك ، واتفقوا على التحكيم ، فحكم بينهما أفعى نجران [6] .

١ نسب قريش (ص ٥) .
٢ جمهرة (ص ٨) .
٣ جمهرة النسب (ورقة ٣ وما بعدها) .
٤ ابن خلدون (٢/٣٠٠) .
٥ نسب قريش (ص ٦) ، (ولد نزار بن معد مضر وايادا ، وأمهما سودة بنت عك ابن الديث بن عدنان . وربيعة ، وأنمارا ، وأمهما الحدالة بنت وعلان بن جوشم بن جلهمة بن عمرو بن هلبنية بن دوة) ، جمهرة النسب (ورقة ٤) ، سبائك الذهب (ص ٢٠) .
٦ ابن خلدون (٢/٣٠٠) ، نهاية الارب (٢/٣١٠) .

ولم يجزم ابن حزم في نسبة انمار نزار ، فبعد أن ذكر مضر وربيعة واياداً ، وهم ولد نزار ، قال : (وقيل : أنمار) ، ثم قال : (وذكروا أن خثعماً وبجيلة من ولد أنمار) [1] . أما ابو عبدالله المصعب بن عبدالله مصعب الزبيري ، فأثبت نسب أنمار في نزار ، وذكر ان من انمار بجيلة (انتسبوا الى اليمن ، الا من كان منهم بالشام والمغرب ، فانهم على نسبهم الى انمار بن نزار) [2] .

ويظهر ان نسابي خثعم وبجيلة يأبون انتسابهم الى انمار ، اذ ذكروا ذلك ، ويرون ان اراش بن عمرو تزوّج ابنة انمار ، وهي سلامة ، فولدت له ولداً سمي انمار بن اراش. ويذكر النسابون انه لم يشتهر احد من ولد انمار [3] . ومعنى هذا ان هذه القبيلة ، كان قد ضعف حالها ودابت في غيرها ، لذلك لم يذكر لها النسابون شيئاً من البطون .

وقد نسب (الزبيري) خثعماً الى اقبل (افتل) بن انمار بن نزار ، وذكر ان خثعماً هم اسم جبل تحالفوا عليه ، (فنسبوا اليه ، وهم بالسراة على نسبهم الى انمار بن نزار . واذا كانت بين اليمن فيما هنالك وبين مضر حرب ، كانت خثعم مع اليمن على مضر) . كذلك نسب خزيمة ، وهو يشكر إلى انمار [4] .

وكان اياد على رواية الاخباريين اكبر اولاد معدّ [5] ، واليه يرجع نسب كل ايادي . وأولد اياد زهراً ودعمياً ونمارة ، ومن نسلهم تفرعت سائر اياد[6] .

وقد ارتحلت اياد عن منازلها الأصلية ، بسبب الحروب ، فذهب قسم كبير منها الى العراق حيث نزلوا في الانبار وفي عين أباغ وسنداد وتكريت وبطن اياد وباعجة وأماكن اخرى ، وذهب قسم آخر منهم الى البحرين حيث انضموا الى قضاعة ، كما سكن قسم منهم في بلاد الشام [7] .

---

١ جمهرة (ص ٩) ٠
٢ نسب قريش (ص ٧) ٠
٣ سبائك الذهب (ص ٢٠) ٠
٤ نسب قريش (ص ٧) ٠
٥ خلاصه (ص ٥٨) ٠
٦ جمهره (ص ٣٠٨) ، نهاية الارب (٢/٣١٠) (طبعة الكتب المصريه) ، صبح الأعشى (١/٣٣٦) (طبعة دار الكتب المصرية) ٠
٧ الأغاني (١٥/٩٣) ، Ency., II, P. 565.

ويروي الاخباريون ان اياداً الذين كانوا اختاروا الاقامة في البحرين وهجر بعد تركهم مواطنهم القديمة في تهامة اضطروا الى ترك مواطنهم الثانية والهجرة منها الى العراق على اثر قدوم بني عبـــد القيس وشن بن افصى ومن معهم مهاجرين من منازلهم الى هجر والبحرين ، فان هؤلاء القادمين الجدد لما بلغوا هجر والبحرين ضاموا من وجدوهم بها من اياد والازد ، ثم اجلت عبد القيس اياداً عن تلك البلاد ، فساروا نحو العراق ، وتبعتهم شن بن افصى ، فعطفت عليهم اياد واقتتلوا معهم حتى كاد القوم يتفانون ، وقد بادت بسبب ذلك قبائل من شن [1] .

اما منازل اياد القديمة ، فكانت تهامة مع ابناء انمار ما بين حد ارض مضر الى حد نجران وما والاها وصاقبها من البلاد [2] . ثم فارقت انمار اخوتها ربيعة ومضر واياداً ، فكثرت اياد وزاد عددها وكثرت قبائلها ، فأخذت تعتدي على ابناء ربيعـــة ومضر ، فوقعت بينها وبينهم من جراء بغيها هذا حروب ، واجتمعت مضر وربيعة عليها ، ثم تحاربوا في موضع من ديارهم يسمى (خانقاً) وهو لكنانة ، فغلبت اياد ، وظعنت من منازلها ، وافترقت عن اخوتها ، وتفرقت على رأي بعض الاخباريين ثلاث فرق : (فرقة مع اسد بن خزيمة بذي طوى ، وفرقة لحقت بعين اباغ . وأقبل الجمهور حتى نزلوا بناحية سنداد . ثم اتفقوا ، فكانوا يعبدون ذا الكعبـــات : بيتا بسنداد – وعبدتها بكر بن وائل بعدهم – فانتشروا فيما بين سنداد وكاظمة ، والى بارق والخورنق وما يليها ، واستطالوا على الفرات ، حتى خالطوا ارض الجزيرة ، فكان لهم موضع دير الأغور ودير الجماجم ودير مُرّة ، وكثر من بعين اباغ منهم ، حتى صاروا كالليل كثرة ، وبقيت هناك تعير على من يليها من أهل البوادي ، وتغزو مع ملوك آل نصر المغازي) [3] ، وحالها حسن معهم ومع الأكاسرة ، حتى حدث حادث افسد ما بينهم وبين الفرس ، يرجعه الأخبـــاريون الى اعتداء نفر من اياد على نسوة من اشراف الأعاجم ، وذلك في ايام (انو شروان بن قباذ) او (كسرى بن هرمز) ، فسار اليهم الفرس ، فانحازت اياد الى الفرات ، وجعلوا يعبرون ابلهم بالقراقير ، ويجوزون الفرات . فتبعتهم الأعاجم ، وكان على اياد يومئذ (بياضة

١ البكري (١/ ٨٠ وما بعدها) .
٢ البكري (١/ ١٨) .
٣ البكري (١/ ٦٩ وما بعدها) .

ابن رياح بن طارق الايادي) . فلما التقى الناس ، ارتجزت (هند بنت بياضة) شعراً مشهوراً معروفاً ، اوله :

نحن بنـــات طارق   نمشي على المفارق [1]

ثم هجمت اياد على الفرس ، وهزمتها آخر النهار ، وقتلت الجيش الذي كان يتعقبها ، فلم يفلت منه الا الشريد ، وجمعوا جماجمهم ، فجعلوها كالكوم ، فَسُمِّيَ ذلك الموضع دير الجماجم [2] .

هذه رواية من عدة روايات وردت عن الحرب الّتي وقعت بين الفرس واياد ، وهي الرواية الوحيدة الّتي يرد فيها خبر انتصار اياد على الفرس . اما الروايات الاخرى ، فتقــول بانتصار الفرس على اياد . فرواية ابـي علي القالي مثلاً عن رجاله تنص على غزو انو شروان لاياد على اثر اعتداء نفر من اياد على نسوة الاعاجم ، وتعقيبه لهم ، وقتله خلقاً منهم ، حتّى اضطر بعضهم الى النزول بتكريت ، وبعضهم ارض الموصل والجزيرة ، عندئذ بعث انو شروان ناساً من بكر بن وائل مع الفرس ، فنفوهم عن تكريت والموصل الى قرية يقــال لها الحرَجيّة . ثم التقوا بهم ثانية في هذا الموضع ، فهزمهم الفرس ، وقتلت منهم كثيراً ، ودفنت اجسادهم بها في مقبرة ذكر صاحب الرواية انها كانت معروفة بها الى يومه . وسارت البقية حتّى نزلت بقرى من ارض الروم ، وسار بعضهم الى حمص وأطراف الشام . وكان الحارث بن همام بن مرّة بن ذهل بن شيبان فيمن سار اليهم من بكر بن وائل مع الأعاجم ، فأجار ناساً من اياد ، كان فيهم : ابو دواد الايادي [3] .

وفي رواية اخرى ان اياداً كانت مقربة عند الفرس ، حتّى ان كسرى بن هرمز كان قد اتخذ جماعة منهم امتازوا بحسن الرماية ، فجعلهم رماة عنده ، وجعلهم مراصد على الطريق فيما بينه وبين الفرات لئلا يعبره احد عليهم ، الى ان حدثت حادثة الاعتداء على النسوة ، فغضب كسرى على اياد ، وأرسل جيشاً

١ وهو من الرجز القديم ، نسب الى نساء أخريات غير هند بنت بياضة ، البــكري (١/ ٧٠ حاشيه ٢) ، شرح الحماسة للتبريزى (٣/ ٣٥) .
٢ البكرى (١/ ٧٠) .
٣ (جار كجار أبي داود) ، البكري (١/ ٧١) .

عليهم ، لحقهم وقد عبروا دجلة ، فجثا الاياديون على الركب ، ورموا الفرس رشقاً واحداً . عندئذ امر كسرى بارسال الخيل عليهم ، وأمر (لقيط بن يعمر ابن خارجــة بن عَوْبَثان الايادي) ، وكان كاتبه بالعربية وترجمانه ، وكان محبوساً عنده ان يكتب الى من كان من شداد قومه ، فيما بينهم وبين الجزيرة ، ان يقبلوا الى قومهم ، فيجتمعوا ، ليغير على اياد كلهم ، فيقتلهم . فكتب لقيط الى قومه ينذرهم كسرى ، ويحذرهم اياه في جملة قصائد رواها الاخباريون [1] ، فهربت اياد وأمر كسرى الخيل ، فأحدقت بهم وبالذين بقوا من خلف الفرات . ثم وضعوا فيهم السيوف ، ومن غرق منهم بالماء اكثر ممن قتل بالسيف . ولما بلغ كسرى شعر لقيط قتله [2] .

اما من هرب من اياد الى الشام ، ومن كان قد هاجر اليها ، فقــد دان للغساسنة ، وتنصر كأكثر عرب الروم ، ولحق اكثرهم بلاد الروم فيمن دخلها مع جبلة بن الايهم من غسان وقضاعة ولخم وجذام [3] .

ولدينا رواية اخرى في اسباب تسمية موضع دير الجماجم بهذا الاسم ، تشير الى حدوث معركة بين الفرس واياد ، وقتل اياد لقوم من الفرس ، ولكنها حادثة اخرى غير الحادثة المتقدمة على ما يظهر ، يرويها ابن الكلبي ، خلاصتها : ان رجلاً من اياد اسمه بلاد الرماح او بلال الرماح ، وهو انبت بن محرز الايادي ، قتل قوماً من الفرس ، ونصب رؤوسهم عند الدير ، فسمي دير الجماجم . ولم تذكر هذه الرواية زمن حدوث هذا القتل ، وهل كان قبل اجلاء اياد عن العراق او بعده كما جاء في الروايات السابقة ؟ وهل كان هذا انتقاماً من الفرس بعد ما فعلوه بإياد ؟ غير ان هناك رواية اخرى يرويها ابن الكلبي ايضاً تشير بوضوح الى ان فتك اياد بالفرس في موضع دير الجماجم انما كان بعد نفي كسرى اياهم الى الشام وفتكه بهم ، اي ان هذا الفتك كان عملاً انتقامياً من الفرس ، لما فعلوه بإياد . يقول ابن الكلبي : (كان كسرى قد قتل اياداً ، ونفاهم الى الشام ، فأقبلت ألف فارس منهم حتى نزلوا السواد ، فجاء رجل منهم وأخبر كسرى

١ منهــا :

سلام في الصحيفــة من لقيــط على مــن بالجــزيرة من إيــاد

البكري (١/٧٢ وما بعدها) .

٢ البكري (١/٧٣) .

٣ البكري (١/٧٥) ، الأغاني (٢/٢٣ وما بعدها) ، كحالة (١/٥٣) .

بخبرهم ، فأنفذ اليهم مقدار ألف وأربع مئة فارس ليقتلوهم ، فقال لهم ذلك الرجل الواشي : انزلوا قريباً حتى أعلم لكم علمهم . فرجع الى قومه وأخبرهم ، فأقبلوا حتى وقعوا بالأساورة ، فقتلوهم عن آخرهم ، وجعلوا جاجمهم قبة . وبلغ كسرى خبرهم ، فخرج في اهليهم يبكون . فلما رآهم ، اغتم لهم ، وأمر ان يبني عليهم دير سمي دير الجماجم) [1] . وهذه الرواية عن فتك اياد بالفرس ، هي اقرب الى المنطق من الرواية الاولى التي ذكرتها عن النزاع بين كسرى واياد .

على ان هنـــاك اخباراً اخرى ذكرها الاخباريون في تعليل اسم موضع (دير الجماجم) لا تشير اشارةً ما الى هـــذا الاصطدام بين الفرس واياد ، انما اشار بعضها الى حرب وقعت بين اياد وبين بني نهد في هذا المكان ، قتل فيها خلق من اياد وقضاعة ، ودفنوا هناك ، فسمي الموضع بهذا الاسم ، كما نسبت الحرب الى قبائل اخرى لم يرد بينها اسم اياد [2] .

وفي رواية الاخباريين عن فتك كسرى بإياد ، ونفيه اياهم الى الشام ، مبالغة كبيرة ولا شك . فاننا نجدهم انفسهم يذكرون اياداً مع الفرس تحارب في معركة (ذي قار) ، ثم يذكرون انها اتفقت سراً مع بكر على ان تخذل الفرس يوم اللقاء . وقد خذلتهم بالفعل ، اذ ولت منهزمة ساعة اشتداد القتال فانهزمت الفرس [3] . ثم تراهم يذكرون اياداً في اخبار الفتوح ، فيروون انها حاربت تحت امرة (بهران ابن بهران جوبين) المسلمين ، اي انها كانت تحارب مع الفرس في العراق [4] . وأن صلاتهم كانت حسنة بهم . وهذا يناقض ما زعموه عن نفي الفرس لهم عن العراق .

ولم تكن اياد من القبائل العربية النصرانية التي مالت الى تأييد المسلمين ، ففي الفتوحات الاسلامية للعراق كانوا مع الفرس على المسلمين وإن ساعدهم قسم منهم بالاتفاق معهم سراً ، كما حدث في فتح تكريت . وفي الشام انضم قسم منهم الى (هرقل) (Heraclius) في محاولاته اليائسة التي قام بها للاحتفاظ ببلاد الشام ولاستخلاص ما استولى عليه المسلمون من تلك البقاع . ولما حلت الهزائم بالروم ، فضل قسم منهم الهجرة الى بلاد الروم والاقامة فيها . وقد كان ذلك عن عاطفة دينية ولا شك . [5] غير ان هذا لا يعني ان جمهرة اياد كانت كلها مع الروم .

---

١ البلدان (٣/١٣١) .

٢ البلدان (٤/١٣١) .

٣ الطبري (٢/٢٥٣ وما بعدها) .

٤ Ency., II, P. 566.

٥ Ency., II, P 566.

ذكرت ان من المواضع التي كانت لإياد في العراق ، موضع سنداد . ويفهم من روايات الأخباريين عنه ، انه قصر ونهر ومنازل نزلت بها إياد حين مجيئها الى العراق ، وانه كان في الأصل اسم حاكم فارسي كان قد عين على هذه المنطقة ، فأقام بها مدة طويلة ، وبنى أبنية كثيرة من جملتها القصر الذي ذكر في شعر ينسب الى الأسود بن يعفر النهشلي ، جاء فيه :

أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذي الشرفات من سنداد

وانه أيضاً اسم قصر كانت العرب تحج اليه[1] ، هو الذي قصده الهمداني بقوله : (وكانوا يعبدون بيتاً يسمى ذا الكعبات ، والكعبات حروف الترابيع)[2] . ويظهر من روايات الأخباريين عن هذا القصر انه كان من القصور الضخمة المعروفة . يظهر انه كان مربع الشكل ، أو ذا مربعات ولذلك عرف بـ (الكعبات) ، وبـ (ذي الكعبات) . وذكر أيضاً انه كان لربيعة ، وانها كانت تطوف حوله حيث قالوا : (الكعبات ، بيت كان لربيعة ، كانوا يطوفون به)[3] .

ويظهر من أقوال الأخباريين وجود عدة بيوت كانت على هيأة كعبات في جزيرة العرب لعبادة الأصنام ، تحج القبائل اليها وتطوف حولها ، سأتحدث عنها في الجزء الخاص بالحياة الدينية عند العرب قبل الإسلام ، ومنها بيت كان بـ (أحد) على رواية ، أو على مقربة من شداد (سنداد) على رواية ابن دريد ، أو على شاطىء الفرات على رواية تنسب الى ابن الكلبي عرف بـ (السعيدة) كانت ربيعة تحجه في الجاهلية[4] ، وأظنهم يقصدون هذا البيت بيت سنداد .

أما مضر[5] ، فولد الياس والناس ، ويعرف أيضاً بعيْلان ، وأمهما الحنفاء

١ البلدان (١٤٩/٥ وما بعدها) ، (والبيت ذي الكعبات من سنداد) ، اللسان (٢١٣/٢) . تاج العروس (٤٥٧/١) ، الأصنام (ص ٤٥) .
٢ الصفة (ص ١٧١) (طبعة القاهرة ١٩٥٣ ، بعناية محمد بن عبدالله بن بليهد النجدي) .
٣ تاج العروس (٤٥٧/١) ، اللسان (٢١٣/٢)، (وكان لربيعة بيت يطوفون به ، يسمونه الكعبات وقيل ذا الكعبات) .
٤ تاج العروس (٣٧٨/٢) ، لسان العرب (١٩٩/٤) .
٥ تاج العروس (٥٤٤/٤) ، جمهرة (٩) ، صبح الأعشى (٣٣٩/١) ، منتخبات (ص ٣٥ ، ٥٥) .

ابنة إياد بن معدّ[١] ، وسماها ابن حزم (أسمى بنت سود بن أسلم بن الحارث ابن قضاعة)[٢] ، فهي قضاعية على هذا الرأي . وجعل بعض النسابين أم الياس امرأة دعوها الرباب بنت إياد المعدية[٣] ، فهي إذن على هذه النسبة من معد .

ومضر هو شعب في نظر أهل الأنساب ، والشعب في عرفهم أعظم من القبيلة[٤] ، فهو أكبر وحدة اجتماعية سياسية في اصطلاح النسابين . وهو من أعظم شعوب مجموعة عدنان ، ولم يعثر على هذا الاسم في الكتابات الجاهلية ، ولا في مؤلفات الكلاسيكيين . أما اسم معدّ ، فقد أشير اليه كما ذكرت سابقاً في بعض مؤلفات الكلاسيكيين . وأما اسم نزار فقد ورد في نص النمارة الذي يرجع عهده الى سنة ٣٢٨ للميلاد . وقد عرف مضر بـ (مضر الحمراء) عند النسابين ، ويقولون انه عرف بذلك (لأن أباه أوصى له من ماله بالذهب) . ويظهر انها كانت قبيلة عظيمة عند ظهور الاسلام ، ثم اندمجت في غيرها من قبائل هذه المجموعة : مجموعة عدنان . حتى تغلبت على مضر تسمية قيس ، أي تسمية أبناء قيس عيلان (قيس بن عيلان) (قيس عيلان) في الاسلام ، فصارت (قيس) تؤدي معنى العدنانية ، واستعملت في مقابل عرب اليمن قاطبة ، فيقال : قيس ويمن[٥] .

وولد لألياس مدركة واسمه عامر ، وعمرو وهو طابخة ، وقمعة واسمه عمير ، وأمهم خندف ، واسمها ليلى بنت حُلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة . وقد نسبوا الى أمهم فقيل لهم خندف[٦] . وقد حصر بعض النسابين نسل خندف في مدركة وطابخة ، ولذلك حصروا قبائل مضر في أصلين خندف وقيس عيلان[٧] .

١ نسب قريش (ص ٧) ، سبائك الذهب (ص ٢١) .
٢ جمهرة (ص ٩) .
٣ نهاية الأرب (٢/٣٢٥) .
٤ منتخبات (ص ٥٥) .
٥ صبح الأعشى (١/٣٢٩) ، وهناك حملة نماسير لـ (مضر الحمراء) ، نهاية الأرب (٢/٣١٠) .
٦ (خندف : فعلل ، بكسر الفاء واللام) منتخبات (ص ٥٥) ، جمهرة النسب (ورقة ٤)، وتجد في هذه الورقة تفسير ابن الكلبي على طريقته المألوفة في وضع القصص عن معنى مدركة وطابخة وقمعة وخندف ، نهاية الأرب (٢/٣٣٠) ، اللسان (خندف) .
٧ نسب قريش (ص ٧) ، جمهرة (ص ٩) ، طرفة الأصحاب (ص ٥٧) ، تاج العروس (٣/٥٤٤) ، صبح الأعشى (١/٣٣٩) ، كحالة (٣/١١٠٧) ، منتخبات (ص ٥٥) .=

أما مدركة[1] ، فولد له خزيمة ؛ وهذيل . وأمها سلمى بنت أسد بن ربيعة ابن نزار[2] ، ونسب بعضهم له ولداً آخر هو غالب[3] . وولد خزيمة كنانــة ، وأمه عوانة بنت قيس بن عيلان[4] ، وأسداً ، وأسدة ، والهون ، وأمهم برّة بنت مرّ بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر بن نزار ، وهي أخت تميم ابن مرّ[5] . وهذيل قبيلة متسعة ، لها بطون كثيرة[6] .

وليس النسابون على اتفاق بينهم في تعيين أولاد أسدة ، فجعلهم بعضهم جذاماً ولخماً وعاملة ، ونسب هؤلاء في اليمن كما أشرت الى ذلك في أنساب قبائــل قحطان على رأي أكثر النسابين[7] .

وأمــا نســل الهــون[8] فهــم : عضــل[9] ، وديش[10] ، ويعرفــون

= قال العجاج :

لا قدح إن لم تور نارا بهجر ذات سني يوقدها من افتحر

من شاهد الأمصار من حيي مضر

يعني قيسا وخندف . وقال جرير :

إذا آخذت قيس عليك وخندف بأقطارها لم تدر من حيث تسرح

المبرد (ص ١ وما بعدها) .

١ صبح الأعشى (١/٣٤٨) ، ابن خلدون (٢/٣١٩) .

٢ نسب قريش (ص ٨) ، وهي (سلمى بنت أسلم بن الحاف بن قضاعة) ، في جمهرة النسب (ورقة ٤) .

٣ جمهرة (ص ٩) ، وأضاف ابن الكلبي ، اليهم (غالبا) و (سعدا) و (قيسا) ، وأمهم (ليلى بنت السيد ؟ بن الحاف بن قضاعة) ، جمهره النسب (ورقة ٤) .

٤ (ويقال : هند بنت عمرو بن قيس عيلان) ، جمهرة النسب (ورقة ٤) .

٥ نسب قريش (ص ٨) ، جمهرة (ص ٩) ، (وعبد الله) ، جمهرة النسب (ورقة ٣) .

٦ صبح الأعشى (١/٣٤٩) .

٧ نسب قريش (ص ٨ وما بعدها) . (وأسدة . فجذام ، تنسب الى أسدة) ، جمهرة (ص ٩) جمهرة النسب (ورقة ٤) .

٨ (الهون بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر) ، نهاية الأرب (٢/٣٩٤) ، صبح الأعشى (١/٣٤٩) ، لسان (١٧/٢٣١) ، كحالة (٣/١٢٣٥) ، أبو الفداء (١/١٠٧) .

٩ صبح الأعشى (١/٣٤٩)، لسان العرب (١٣/٤٨٠)، الصحاح للجوهري (٢/٢١٥)، كحالة (٢/٧٨٧) .

١٠ (الديش بن مليح بن الهون) ، صبح الأعشى (١/٣٤٩) ، تاج العروس (٧/٣١٦) ، (الديش بن الهون . وهو أخو عضل . ويقال لهاتين القبيلتين ، وهما : عضل والديش القارة) أبو الفداء (١/١٠٧) .

بالقارة[1] ، وهم بنو بيشع بن مليح بن الهون[2] . على حدِّ قول بعض النسابين وبطنان من خزاعة هما الحيا والمصطلق ، حلفاء لبني الحارث بن عبد مناة بن كنانة . ويعرفون على حد قولهم بالأحابيش : أحابيش قريش . لأن قريشاً حالفت بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة على بكر بن عبد مناة ، فهم حلفاء قريش[3] .

وأولاد كنانة ، هم : النضر ، وهو أكبر أولاده وبه يكنى ، ومالك (مالكا) ، وملكان ، ومليك وغزوان ، وعمرو ، وعامر ، وأمهم برّة بنت مرّ أخت تميم بن مرّ[4] ، وهي نفسها زوج خزيمة والد كنانة ، تزوجها كنانة بعد وفاة أبيه . وكانت العادة في الجاهلية ان يتزوج الولد البكر زوجة أبيه بعد وفاته إذا لم تكن أمه ، وان يرث خيار ماله ، وهو زواج منعه الاسلام . ويعرف هذا الزواج بزواج المقت[5] .

وكانت لكنانة زوج أخرى ، هي هالة بنت سويد بن الغطريف ، ويقصدون بالغطريف حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأرد بن الغوث بن النبت ، وقد ولدت له حُدال وسعداً وعوفاً ومجربة . وقد ترك هؤلاء الأولاد ذرية ، فكان من سل حدّان جماعة أقامت بعدن أبين ، وكان من نسل مجربة بنو ساعدة[6] .

أما زوج كنانة الثالثة ، فكانت الذفراء : واسمها فكيهة . وهي بنت هنى ابن بليّ بن عمرو بن الحاف بن قضاعة . وقد ولدت له : عبد مناة[7] .

١ جمهرة (ص ١٧٩) ، تاج العروس (٣/٥١٠) ، لسان العرب (٦/٤٣٦) ، الاشباه (ص ٧٣) ، كحالة (٣/٩٣٥) .
٢ جمهرة (١٧٩) .
٣ (فأما الهون بن خزيمة ، فهم عضل ، ودبش ، والقارة ، بنو يثيع بن الهون ، وهم ، وبطنان من خزاعة يقال لها الحيا والمصطلق ، حلفاء لبني الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، وهم كلهم يقال لهم . الأحابيش أحابيش قريش) ، نسب قريش (ص ٩) .
٤ نسب قريش (ص ١٠) ، (وبنو عبد مناه) ، الجمهرة (ص ٤٣٤) ، وأضاف ابن الكلبي اليهم أولادا آخرين ، جمهرة النسب (ورقة ٥) .
٥ نسب قريش (ص ١٠)، جمهرة النسب (ورقه ٥)، بلوغ الأرب (٢/٥٢ وما بعدها).
٦ نسب قريش (ص ١٠) .
٧ نسب قريش (ص ١٠) .

وولد النضر ، وهو قريش على بعض الآراء[1] مالكاً على رأي أكثر النسابين، وأضاف بعضهم اليه ولدين آخرين ، هما : مخلد الصلت ، وأمهم عكرشة بنت عدوان بن عمرو بن قيس ابن عيلان[2] . ومن مخلد قريش بن بدر بن مخلد بن النضر ، وكان دليل قريش في التجارة في الجاهلية ، وبه سميت قريش على رأي بعض النسابين ، وباسم بدر والده دعي بدر[3] ، والى الصلت بن النضرة ينسب بنو مليح[4] (ملح)[5] ، على رأي ، بينما يعدّون من خزاعة في رأي آخر[6] .

أما ولد مالك ، فهو فهر ، وهو قريش ، وأمـــه جندلة بنت الحارث بن جندل بن عامر بن سعد بن الحارث بن عضاض بن جرهم[7] ، فهي جرهمية على هذا النسب . وبه سميت قريش قريشاً على رأي أكثرية أهل الأخبار . ولهـــذا يقال لهم بنو فهر[8] . وللأخباريين روايات عديدة في معنى قريش[9] .

وولد فهر غالباً والحارث ومحارباً وجندلة ، وأمهم ليلى بنت الحارث بن تميم ابن سعد بن هذيل بن مدركة[10] ، وولد غالب بن فهر لؤياً وتيماً وهو الأدرم ، وأمها عاتكة بنت مخلد بن النضرة بن كنانة[11] ، وقيس بن غالب وقد انقرض نسله[12] .

---

١ المبرد (ص ٢) .
٢ نسب قريش (ص ١١) ، جمهرة النسب (ورقة ٥) .
٣ الجمهرة (ص ١٠) ، البلدان (٢/٨٨) ، البكري (١/٢٣١) . (تحقيق السقا) .
٤ نسب قريش (ص ١١) .
٥ الجمهرة (ص ١١) .
٦ الجمهرة (ص ١١) ، نسب قريش (ص ١١) .
٧ نسب قريش (ص ٢٢) ، الجمهرة (ص ١١) ، جمهرة النسب (ورقة ٥) .
٨ قال الحطيئة :

وإن الـذي أعطيتهم أو معنهم ... لكالتمر أو أحلى لحلف بنـي فهر

المبرد (ص ٢) .
٩ راجع كتب اللغة مادة (قريش) ، نهاية الأرب (٢/٣٣٣) ، القاموس (٢/٢٨٤) ، الصحاح (١/٤٩٥) .
١٠ نسب قريش (ص ١٢ وما بعدها) ، وأضاف ابن الكلبي أولادا آخرين اليه ، جمهرة النسب (ورقة ٥) .
١١ نسب قريش (ص ١٢) ، جمهرة النسب (ورقة ٥) .
١٢ جمهرة (ص ١١) .

ومن ولد لؤي كعب وعامر ، وهما البطاح ، وسامة ومن نسله بنو ناجية ، وخزيمة وهم عائذة ، وقد نزلوا في بني أبي ربيعة من شيبان ، والحارث وهو جشم ، وهم في همدان ، وأمهم مارية بنت كعب بن القين بن جسر بن شيع الله ابن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، وسعد ابن لؤي وهم بنانة ، وقد نزلوا في بني شيبان ، وأمه يسرة بنت غالب بن الهون بن خزيمة[1] ، وعوف بن لؤي وقد دخل نسله في بني ذبيان بن غطفان ابن قيس عيلان ، وهم بنو مرّة بن عوف بن ذبيان رهط الحارث بن ظالم المري . وقد دخل أكثر هؤلاء الأبناء في غيرهم . ولذلك أدخلهم النسّابون فيمن دخلوا فيهم ، وعدوا نَسْلَ كعب وعامر الصرحاء من ولد لؤي وحده[2] .

وولد كعب مرّة[3] ، وهصيصاً[4] ، وأمها وحشية بنت شيبان بن محارب بن فهر ، وعديّ وأمه حبيبة بنت بجالة بن سعد بن فهم بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مضر[5] ، وولد مرّة كلاباً ، وأمه هند بنت سرير بن ثعلبة بن الحارث ابن مالك بن كنانة ، وسرير والد هند هو أول من نسأ الشهور ، ثم نسأها القلمس ابن أخيه من بعده واسمه عديّ بن ثعلبة بن الحارث بن كنانة . ثم صار النسيء في ولده ، وكان آخرهم جنادة بن عوف . وولد أيضاً تيم بن مرّة ويقظة بن مرّة ، وأمها بنت سعد ، وهو بارق بن حارثة بن عمرو بن عامر . جد قبيلة بارق[6] ، ومن عديّ بن كعب عمر بن الخطاب وزيد[7] .

أما كلاب ، فكان له من الولد قصيّ وزهرة . ومن نسل قصي : عبد مناف وعبد الدار وعبد العزى[8] . وقد تحدثت سابقاً عن قصيّ منظم قريش .

١ نسب قريش (ص ١٣) ، ويجد في هذا الكتاب بعض الاختلاف عما ورد في جمهرة النسب (ورقة ٥ وما بعدها) .
٢ جمهرة (ص ١١) .
٣ ابن خلدون (٢/٣٢٦) ، صبح الأعشى (١/٣٥٤) ، القاموس (٢/١٣٣) ، لسان العرب (٢/٣٢٦) ، تاج العروس (٣/٥٣٩) .
٤ نهاية الأرب (٢/٣٥٥) ، كحالة (٣/١٢١٩) .
٥ نسب قريش (ص ١٣) ، الجمهرة (ص ١٢ وما بعدها) ، جمهرة النسب (ورقة ٦) .
٦ نسب قريش (ص ١٣ وما بعدها) .
٧ المبرد (ص ٣) .
٨ نسب قريش (ص ١٤) ، الجمهرة (ص ١٢) ، جمهرة النسب (ورقة ٦) .

فولد عبد مناف بن قصيّ : عمراً وهو هاشم ، والمطلب وهو عبد شمس ونوفلاً . وأم هاشم وعبد شمس والمطلب عاتكة بنت مرّة بن هلال بن فالج بن ذكوان السلمية ، وأم نوفل واقدة من بني مازن بن صعصعة السلمية ، خلف عليها هاشم بن عبد مناف بعد أبيه ، فولدت له ابنتين خالدة وضعيفة [1] .

ومن بطون كلاب بنو زهرة [2] ، ومن بطون تيم [3] بن مرّة أبو بكر الصديق ، وعبد الله بن جدعان سيد قريش في الجاهلية ، ومن بطون يقظة بن مرّة بنو مخزوم ، ومنهم خالد بن الوليد [4] .

ومن نسل هصيص بن كعب ، بنو جمح . وهم ولد جمح بن عمرو بن هصيص [5] ، وبنو سهم بن عمرو بن هصيص [6] . ومن بني سهم ، عمرو ابن العاص [7] .

وقد وقعت حرب بين بني جمح وبني محارب بن فهر في موضع عرف بردم بني جمح بمكة ، قتلت فيه بنو محارب بني جمح أشد القتل ، فعرف ذلك الموضع بالردم ، بما ردم عليه من القتلى يومئذ [8] . وكان أمية بن خلف على بني جمح في حرب الفجار [9] .

---

١ الجمهرة (ص ١٢) .

٢ (بنو زهرة بن كلاب) ، تاج العروس (٢٤٨/٣) ، أبو الفداء (١١٤/١) ، نهاية الأرب (٣٥٧/٢) ، جمهرة (١١٩ وما بعدها) .

٣ (تيم بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر) ، نهاية الأرب (٣٥٧/٢) ، أبو الفداء (١١٣/١) ، صبح الأعشى (٣٥٤/١) ، كحالة (١٣٨/١) .

٤ المبرد (ص ٣) ، الاشتقاق (ص ٦١ ، ٨٨) ، (بنو يقظة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر) ، نهاية الأرب (٣٥٦/٢) ، ابن خلدون (٣٢٦/٢) ، أبو الفداء (١١٣/١) ، صبح الأعشى (٣٥٤/١ ، ٣٥٥) ، (بنو مخزوم بن يقظة) جمهرة (١٣١ وما بعدها) ، لسان العرب (٦٨/١٥) ، الاشتقاق (٦٠) ، تاج العروس (٢٦٣/٦) ، (٢٧٦/٨) ، الانباه (١٧) ، كحالة (١٠٥٨/٣) .

٥ الجمهرة (ص ١٥٠) ، تاج العروس (١٣٣/٢) ، صبح الأعشى (٣٥٣/١) ، نهاية الأرب (٣٥٦/٢) ، الانباه (ص ٧١) ، كحالة (٢٠٢/١ وما بعدها) .

٦ الجمهرة (ص ١٥٤ وما بعدها) .

٧ المبرد (ص ٣) ، أبو الفداء (١١٣/١) ، القاموس (١٣٤/٤) ، الانباه (٧١) ، نهاية الأرب (٣٥٦/٢) ، تاج العروس (٣٥٢/٨) ، كحالة (٥٦٠/٢) .

٨ البكري (٦٤٩/٢) (تحقيق السقا) ، أبو الفداء (١١٣/١) .

٩ الأغاني (٧٧/١٩) .

أما نسل ربيعة بن نزار ، فهم أسد وضبيعة [١] . ويضاف اليهما أكلب [٢] على بعض الروايات . ومن نسل هؤلاء تفرعت قبائل ربيعة . فمن أسد كانت جديلة وعنزة وعمير [٣] . ومن بني عنزة بنو هزّان بن صباح بن عتيك بن أسلم بن يذكر بن عنزة . وبنو جلاّن بن عتيك بن أسلم بن يذكر بن عنزة . وبنو الحارث بن الدؤل بن صباح بن عتيك بن أسلم . كان إذا مصر ثوبية مصرت عنزة معه . وعرف من بني هزان آل ضور بن رزاح بن مالك بن سعد بن وائل بن هزّان ، والحارث بن رزاح أخو ضور بن رزاح وهو الذي يقال انه الحارث بن لؤي بن غالب الذي يسمى جشماً ، وجشم كان عبداً لأبيه ، حضنه فسمى به [٤] .

وتعد عنزة [٥] من القبائل العربية الكبيرة ، وهي لا تزال من القبائل البارزة في الزمن الحاضر ، ولها بطون عديدة في الحجاز ونجد وبادية الشأم والشأم . أما تأريخها قبل الاسلام ، فهو مثل تواريخ القبائل الأخرى من حيث الغموض . وقد كانت تتعبد في الجاهلية لمحرق ولسعير [٦] .

وأما ولد ضبيعة [٧] ، فهم أحمس [٨] والحارث . ومن بني أحمس الشاعر المسيب ، وهو زهير بن علس ، والحارث الأضجم بن عبد الله بن ربيعة بن دوفن سيد

١ ابن خلدون (٢/٣٠٠) ، نسب ربيعة بن مصر بن عدنان . وهو ربيعة بن مصر بن نزار بن معدّ بن عدنان) ، طرفة الأصحاب (ص ٦٢) ، سبائك الذهب (ص ٥٣) ، لسان العرب (٩/٤٦٩) ، صبح الأعشى (١/٣٣٧ ، ٣٣٩) ، نهاية الأرب (٢/٣٢٨) ، لسان العرب (٤/٣٩) ، الاشتقاق (١٩٤) ، كحالة (١/٢٢٤ ، ٢/٦٦٣) ، تاج العروس (٥/٤٢٧) .
٢ جمهرة (ص ٢٧٥) ، نهاية الأرب (٢/٣١٠ ، ٣٢٨) .
٣ نهاية الأرب (٢/٣٢٨) ، الاشتقاق (١٩٤) .
٤ جمهرة (ص ٢٧٦ وما بعدها) .
٥ ابن خلدون (٢/٣٠٠) ، نهاية الأرب (٢/٣٢٨) ، الاشتقاق (ص ١٩٤ ، ٢٠٢) ، لسان العرب (٧/٢٥١) ، جمهرة (٢٧٧) ، تاج العروس (٣/٦٢) ، القاموس (٢/١٨٤) ، كحالة (٢/٨٤٦ وما بعدها) .
٦ Ency, I, P 346
٧ الاشتقاق (ص ١٩٠) ، ابن خلدون (١/٣٠٠) ، نهاية الأرب (٢/٣٢٨) صبح الأعشى (١/٣٣٩) ، تاج العروس (٥/٤٢٧) ، كحالة (٢/٦٦٣) .
٨ الاشتقاق (ص ١٩٠) ، كحالة (١/١٠) .

ربيعة الذي نشبت بسبب مقتله حرب بين بني ربيعة ، والمتلمس الشاعر . ومن بني أحمس أيضاً بنو الكلبة ، وهم أولاد مرّة بن مازن بن أوس بن زيد بن أحمس بن ضبيعة . ومنهم الحُلَيْس وابن المسيب[1] .

أما جديلة[2] ، وهو جدّ جديلة ، فولد دُعمياً[3] وجدْياً[4] . وقد دخل بنوه في بني شيبان ، وجدار (جداما)[5] ، وقد دخل نسله في بني زهير بن جشم من بني النمر بن قاسط . وولد غير ذلك في بعض الروايات[6] . وولد دعمي أفصى[7] ، وولد أفصى هنبساً وعبد القيس وجشماً ودخل بنوه في عبد القيس ، وناسما ، ودخل بنوه في بنى تغلب[8] .

ومن نسل عبد القيس بن أفصى ، شن[9] ولكيز[10] . ومن ولد لكيز وديعة وهو جدّ بطن ، وصباح ، وهم بطن كذلك ونكرة ، ومن بطون وديعة عمرو ، وغنم ، ودهن ، ومن عمرو بن وديعة مالك وثعلبة وعائذة وسعد وعوف والحارث ، ومن الحارث ، ابن أنمار بن عمرو بن وديعة البراجم ، وهم عبد شمس وعمرو وحيّ بني معاوية بن ثعلبة بن عوف بن أنمار بن عمرو بن ربيعة ، وهؤلاء

---

١ جمهرة (ص ٢٧٥ وما بعدها) .
٢ الاشتقاق (١٩٦)، ابن خلدون (٢/٣٠٠) ، نهاية الأرب (٢/٣١١) ، كحالة (١/١٧٣) ، (جديلة بفتح الجيم وكسر الدال المهملة وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام ، وهاء في الآخر ، والنسبة اليهم جدلى) ، صبح الأعشى (١/٣٢٧) .
٣ (دعمى) ، لسان العرب (١٥/٩٢) ، القاموس (٤/١١٢) ، تاج العروس (٨/٢٩١) ، نهاية الأرب (٢/٣١١) .
٤ جمهرة (٢٧٨) .
٥ (جدار) جمهرة (٢٧٨) ، (جدار بن جديلة بن أسد بن ربيعة) ، تاج العروس (٢/٣١٦ ، ٩/١٦٠) ، كحالة (١/١٧٠) ، جمهره (ص ٢٧٨) ، سبائك الذهب (ص ٥٣) ، المبرد (١٨) .
٦ سبائك الذهب (ص ٥٣) .
٧ نهاية الأرب (٢/٣٢٩) .
٨ جمهرة (ص ٢٧٨) ، سبائك الذهب (٥٣) .
٩ (شن بن أفصى بن عبد القيس بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة ابن نزار) ، الاشتقاق (ص ١٩٦) ، تاج العروس (٩/٢٥٦) ، لسان العرب (١٧/١٠٩)، الصحاح للجوهرى (٢/٣٨٧)، جمهرة (٢٨٢) ، سبائك الذهب (ص ٥٤).
١٠ سبائك الذهب (ص ٥٤) ، الاشتقاق (١٩٦) ، لسان العرب (٧/٢٧٢)) .

البراجم هم غير براجم تميم [1] ، والجارود وقد كانت له صحبة بالرسول وولى أولاده منازل رفيعة في الاسلام [2] .

ومن نسل عجل بن عمرو بن وديعة بن لكيز . ذهل وذاهل ، ومن بني ذهل ليث وثعلبة ، وهما ابنا حداد بن ظالم بن ذهل بن عجل بن عمرو . ومن ليث بن حدّاد ، بنو دهل بن ليث ، ومنهم جيفر بن عبد عمرو بن خوليّ ابن همام بن الفاتك [3] ، ومن نسل عمرو بن وديعة بنو محارب [4] ، ومنهم الحطم بن محارب ، واليه تنسب الدروع الحطمية ، وبنو الدّيل بن عمرو بن وديعة [5] ، ومن نسل وديعة بن لكيز بنو دهن وبنو غنم . ومنهم الدّيل ومازن [6] .

واشتهر من ولد نكرة بن لكيز ، الشاعر المثقب ، والشاعر الآخر الممزق ، وهو شأس ، والمفضل بن معشر بن أسجم وهو شاعر كذلك [7] .

أما شن بن أفصى ، فكان من نسله يزيد بن شن ، يذكر أهل الأخبار انه أول من ثقف القنا بالخط ، وعديّ ، والدّيل . ومنهم عمرو بن الجعيد بن صبرة بن الدّيل بن شن بن أفصى بن عبد القيس ، وهو الذي ساق عبد القيس من تهامة الى البحرين ، وعرف بالأفكل [8] ، وكان سيد ربيعة في الجاهلية ، وكان ذا بغي ، فسارت اليه بنو عصر ، فقتلوه . ومن بني عمرو رئاب بن البرّاء ، وكان على دين المسيح [9] .

ومواطن بني عبد القيس بتهامة في الأصل ، ثم ارتحلت عنها بسبب الحروب التي وقعت بين أبناء ربيعة ، فذهبت الى البحرين ، فتغلبت على من كان قد

---

١ الأغاني (٢٠٩/١) .
٢ الجمهرة (ص ٢٧٨ وما بعدها) ، المبرد (١٨) ، الاصابة (١٠٤٢) ، الاشتقاق (١٩٧) ، المعارف (١١٥) .
٣ جمهرة (ص ٢٨٠) .
٤ الصفة (١٣٢) ، كحالة (١٠٤٣/٣) .
٥ الصحاح (١٨٦/٢) ، لسان العرب (٢٤٩/١٣) .
٦ جمهرة (ص ٢٨٠ وما بعدها) ، سبائك الذهب (ص ٥٤) .
٧ جمهرة (٢٨٢) ، شيخو : شعراء النصرانية (القسم الثالث : في شعراء بكر بن وائل من بني عدنان — ص ٤٠٠ وما بعدها) .
٨ جمهرة (ص ٢٨٢) ، الاشتقاق (ص ١٩٧) .
٩ الاشتقاق (ص ١٩٧) .

سكن قبلهم بها من اياد ومن بكر بن وائل وتميم . واقتسمتها بينهم ، فنزلت جذيمة بن عوف بن بكر بن عوف بن انمار بن عمرو بن وديعة بن لكيز الخط وأفناءها ، ونزلت شن اقصى طرفها وأدناها الى العراق ، ونزلت نكرة بن لكيز القطيف وما حوله والشفار والظهران الى الرمل وما بين هجر الى قطر وبينونة ، ونزلت عامر بن الحارث بن انمار بن عمرو بن وديعة والعمور ، وهم بنو الديّل ابن عمرو ، ومحارب بن عمرو ، وعجل بن عمرو الجوف والعيون والاحساء ، ودخلت قبائل منهم جوف عُمان فصاروا شركاء للأزد في بلادهم [1]. وقد بقيت بنو عبد القيس في هذه المواضع محتفظة بها عند ظهور الاسلام .

ويظن ان (Aboukaiun) ، وهو اسم قبيلة وموضع ذكر في جغرافيـة (بطلميوس) هو (عبد القيس) [2] . ولم يتحدث (الكلاسيكيون) شأنهم في اكثر ما كتبوه عن بلاد العرب بشيء عن هذه القبيلة . ولكن الاخباريين يروون ان عرب بلاد عبد القيس والبحرين وكاظمة غزوا السواحل المقابلة لهم من ارض ايران ، وذلك لضيق معاشهم ، وللضنك الذي حلّ بهم في عهـد سابور ذي الاكتاف (سابور الثاني) منتهزين فرصة اضطراب الأمن في تلك البلاد وضعف الحكومة بسبب صغر سن الملك . فلما كبر الملك واشتد ، جمع جموعه وسار بها على الغازين ، ففتك بهم ، وأسر منهم خلقاً كثيراً ، ثم عبر البحر (فورد الخط واستقرى بلاد البحرين ، يقتل اهلها ولا يقبل فداء . ولا يعرج عن غنيمة ، ثم مضى على وجهه ، فورد هجر ، وبها ناس من اعراب تميم وبكر بن وائل وعبد القيس ، فأفشى فيهم القتل) (ثم عطف على بلاد عبد القيس ، فأباد اهلها) ثم سار الى اليمامة ، فقتل بها مقتلة كبيرة ، ولم يمر في طريقه بماء الا غوره ، ولا جب من جبابهم الا طمّه ، حتى وصل قرب المدينة ، فقتل من وجد هناك من العرب ، وأسر . ثم عطف نحو بلاد بكر وتغلب فيما بين مملكة فارس ومناظر الروم بأرض الشام ، فقتل من وجد بها من العرب ، وسبى وطمّ مياههم ، ثم أسكن من

---

١ البكري (١/٨٠ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢/٣٠٠) ، نهاية الأرب (٢/٣٢٩) ، الاشتقاق (ص ١٩٦) ، صبح الأعشى (١/٣٣٧) ، القاموس (٢/٢٤٤ ، ٣٨٧) ، لسان العرب (٨/٧٢ ، ٣٩٨) ، الأغاني (١٣/٥٦ ، ١٤/٤٤ ، ١٠٣ وما بعدها) ، كحاله (٢/٧٢٦ وما بعدها) .

٢ Ency., I, P. 45

بني تغلب من البحرين دارين واسمها هيبح والخط ، ومن كان من عبد القيس وطوائف من بني تميم هجر ، ومن كان من بكر بن وائل كرمان ، ومن كان منهم من بني حنظلة بالرملية من بلاد الاهواز [1] .

وهم يذكرون ايضاً ان عرب الشام قد تأثروا بما فعله سابور بهم ، فاتفقوا مع الروم ، وانتقموا منه . ولكن سابور بعد انتصاره على الروم ، عاد فاتبع سياسة استرضاء العرب ، فاستصلحهم ، وأسكن بعض قبائل تغلب وعبد القيس وبكر بن وائل كرمان وتوج والاهواز [2] . وهذه الرواية الثانية هي ، ولا شك الجزء الاخير من حديثهم عن حملة سابور على بلاد العرب ، اخذها الطبري أو المورد الذي اعتمد عليه من مورد كان قد جزأ الكلام ، فصار الحديث الواحد حديثين اثنين . ونجد ذلك واضحاً وضوحاً تاماً في اتفاق العبارات بين الروايتين ، ثم ان الاسكان الاجباري في ارض ما ليس نوعاً من الاستصلاح والاسترضاء .

وفي حديث الاخباريين عن حملة سابور على بلاد العرب ووصوله الى مقربة من المدينة وعن تنكيله بالعرب وحرقه المدن وطمه المياه ، مبالغات كبيرة ولا شك ، اخذت من موارد فارسية بولغ فيها ، وليس في روايات المؤرخين الروم عن هذا الحادث ما يؤيد هذا الزعم .

وكان والي البحرين عند ظهور الاسلام ، المنذر بن ساوى ، وهو من بني تميم ، يحكمها باسم الفرس على حد رواية الاخباريين ، وقد ارسل اليه الرسول رسولاً عنه يدعوه وقومه من بني عبد القيس الى الاسلام . وكان رسول رسول الله هو العلاء بن الحضرمي . فلما اتاه العلاء يدعوه ومن معه بالبحرين الى الاسلام أو الجزية ، اسلم المنذر ، وأسلم جميع العرب بالبحرين [3] . وقد اوفدوا وفداً عنهم الى الرسول برئاسة المنذر بن الحارث بن النعمان بن زياد بن نصر بن عمرو بن عوف بن جزيمة بن عوف بن انمار بن عمرو بن وديعة بن بكر ، فاتصل بالرسول ، وصارت له صحبة ومكانة منه . ووفد منهم الى الرسول ايضاً الجارود وهو (بشر

---

١ الطبرى (٢/٦٦ وما بعدها) .
٢ الطبري (٢/٧٠) .
٣ ابن الأثير (٢/٨٦ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢ بقية الجزء الثاني ص ٢٦) ، المحبر (ص ٢٦٥) .

ابن عمرو بن خناش) ، وثعلبة أخو عوف بن جذيمة ، وفدا في بني عبد القيس سنة تسع مع المنذر بن ساوى . وكان نصرانياً فأسلم .

وكان بين بني عبدالقيس وسكان البحرين والعربية الشرقية بصورة عامة جماعة على دين يهود ، وجماعة احرى على دين المجوس ، وجماعة على دين النصارى . وقد صالح من قرر البقاء في دينه العلاء بن الحضرمي والمنذر بن ساوى على الجزية [1] .

وينسب الى ابي عبيـدة معمر بن المثنى كتاب في اخبار بني عبد القيس ، اسمه (كتاب خبر عبد القيس) والى علاّن الشعوبي كتاب اسمه (مثـالب عبد القيس) ، كذلك ينسب الى المدائني كتاب اسمه (كتاب اشراف عبد القيس) [2] .

ومن ولد هنب بن أفصى [3] قاسط بن هنب [4] ، وهو والد وائل بن قاسط [5] ، والنمر [6] ومن بني النمر تيم الله وأوس مناة وعبد مناة وقاسط ، ومن بني تيم الله ابن النمر عامر الضحيان ، وقد ساد ربيعة اربعين عاماً وأخذ منها المرباع وهو عامر بن سعد بن الخزرج بن تيم الله بن النمر بن قاسط . وأبو حوط الحظائر ابن جابر ، والد جابر الخير ، اخو المنذر بن ماء السماء لأمه [7] .

ومن رجال بني النمر بن قاسط سنان بن مالك ، وكان على الأبلة ، استعمله كسرى عليها . وهو والد صهيب من اصحاب الرسول . وقد عرف (صهيب) بصهيب الرومي . وذكر ابن خلدون انه ينسب الى الروم [8] ، فهل عنى بذلك

---

١ ابن الأثير (٢/٨٩) .
٢ Ency. I, P. 46
٣ تاج العروس (١/٥١٨) ، لسان العرب (٢/٢٨٧) ، نهاية الأرب (٢/٣٢٩) ، ابن خلدون (١٢/٣٠١) ، كحالة (٣/١٢٢٩) .
٤ لسان العرب (٩/٢٥٥) ، الاشتقاق (٢٠٢) .
٥ نهاية الأرب (٢/٣٣٠) ، الاشتقاق (٢٠٢) ، لسان العرب (١٤/٢٤٥) ، القاموس (٤/٦٣) ، كحالة (٣/١٢٤٤) ، ابن خلدون (٢/٣٠١) .
٦ جمهرة (٢٨٣) ، القاموس (٢/١٤٩) ، لسان العرب (٧/٩٥) ، تاج العروس (٣/٥٨٦) ، صبح الأعشى (١/٣٣٨) ، كحالة (٣/١١٩٣) .
٧ جمهرة (ص ٢٨٣ وما بعدها) .
٨ جمهرة (ص ٢٨٣ وما بعدها) .

ان امه من الروم ، او ان اجداده من اصل رومي ، عُدّوا من النمر بن قاسط ؟ ومن اشهر ديار النمر بن قاسط رأس العين (رأس)[1] .

وقد كانت النمر بن قاسط في جمله القبائل العدنانية الاخرى التي خضعت لحكم كندة ، ويذكر الاخباريون في تعليل ذلك ان الحارث بن ابى شمر الغساني لما قتل عمرو بن حجر (ملك بعده ابنه الحارث بن عمرو ، وأمه بنت عوف بن محلم ابن ذهل بن شيبان . ونزل الحيرة . فلما تفاسدت القبائل من نزار ، أتاه اشرافهم ، فقالوا : انا في دينك ، ونحن نخاف ان نتفانى فيما يحدث بيننا ، فوجه معنـــا بنيك ، ينزلون فينا ، فيكفون بعضنا عن بعض . ففرق ولده في قبائل العرب ، فملك ابنه حُجَراً على بني اسد وغطفان ، وملك ابنه شرحبيل قتيل يوم الكلاب على بكر بن وائل بأسرها وبني حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم والرباب ، وملك ابنه معديكرب ، وهو غلفاء ، على بني تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة وطوائف من بني دارم بن مالك بن حنظلة والصنائع ، وهو بنو رُقَيّة قوم كانوا يكونون مع الملوك من شذاذ العرب ، وملك ابنه عبد الله على عبد القيس ، وملك ابنه سلمى على قيس)[2] . فكانت هذه القبيلة اذن في جملة القبائل العدنانية التي جمع شتاتها تاج كندة . وليس في رواية الاخباريين هذه غرابة ، فقد رأينا امرأ القيس يحكم قبله قبائل عديدة ، ويفرض تاجه عليها ، ثم يوزّع ابناءه على تلك القبائل . ولكن هذا التوحيد لا يدوم في العادة امداً طويلاً ، انما يتوقف على حكمة الحكام ، وعلى حسن تصرفهم ، وعلى قوتهم وقدرتهم ، وسلطة ذات يدهم . فاذا ظهر ضعف على الحاكم او الحكام ، او حدث حادث ، يتبين منه للقبائل الخاضعة ان من خضعت له لم يعد قوياً متمكناً ، ثارت عليه ثم لا يلبث ذلك البناء ان ينهار .

اما نسل وائل بن قاسط ، فهم بكر ودثار ، وهو تغلب ، وعبد الله ، وهو عنز ، والشُخيص[3] ، وقد دخل نسله في بني تغلب ، والحارث وقد دخل في بني عائش بن مالك بن تيم الله بن ثعلبة بن بكر بن وائل . امهم كلهم هند

١ ابن خلدون (٢/٣٠١) .
٢ الأغاني (٩/٨١ وما بعدها) .
٣ الجمهرة (٢٨٥) .

بنت مُرّ بن طابخة بن الياس بن عامر [1]

وولد تغلب بن وائل غنماً ، والأوس ، وعمران . ومن ولد غنم عمرو ووائل ومن ولد وائل شيبان ولودان ، ومن ولد عمرو بن غنم بن تغلب حبيب ومعاوية وزيد ، ومن نسل حبيب بكر وجشم ومالك ، ومن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب كان الشاعر عمرو بن كلثوم ، وبنوه : عبد الله والأسود ، وهما شاعران كذلك ، وعباد ، وهو قاتل بشر بن عمرو بن عدس . وكان من بني جشم مُرّة بن كلثوم ، وهو فارس من فرسان الجاهلية ، وكان أخاً لعمرو ابن كلثوم ، وأبو حنس عاصم بن النعمان بن مالك بن عتاب وهو ابن عم عمرو ابن كلثوم ، وعاصم هـذا هو قاتل شرحبيل بن الحارث الملك آكل المرار يوم الكلاب [2] .

ومن بني الحارث بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب ، كليب ، ومهلهل ، وعديّ ، وسلمة بنو ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم ، ومن نسل مهلهل ليلى وهي أم عمرو بن كلثوم ، ومن نسل كليب هجرس بن كليب [3] .

تغلب :

وتغلب من القبائل العربية الكبيرة التي ورد اسمها كثيراً في مؤلفات الاخباريين والمؤرخين ولها ايام مع القبائل الاخرى ، وهي مثل سائر القبائل العدنانية الاخرى مهاجرة على عرف النسابين ، تركت ديارها وارتحلت الى الشمال ، فسكنت في العراق وفي بادية الشام ، واتصلت منازلها بالغساسنة والمناذرة والروم والفرس . وكانت غالبيتها على النصرانية عند ظهور الاسلام .

١ الجمهرة (ص ٢٨٧) ، المبرد (١٧) .
٢ الجمهرة (ص ٢٨٧) .
٣ (تغلب بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة ابن نزار) ، لسان العرب (٢/١٤٥) ، تاج العـروس (١/٢٣١) ، الاشتقاق (ص ٢٠٢) ، القاموس (١/١١٣) ، الصحاح (١/٨٨) ، نهاية الأرب (٢/٣١٦) .

وينسب النسابون تغلب الى جدّ أعلى زعموا ان اسمه (تغلب) ، وهو (تغلب ابن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة ابن نزار) [1] .

وقد عرفت هذه القبيلة بـ (الغلباء) [2] . وهو نعت يدل على فخر القبيلة بنفسها وعلى تباهيها على غيرها من القبائل . وقد ذكر بعض أهل الأخبار عنها قوله : (لو أبطأ الاسلام قليلاً ، لأكل بنو تغلب الناس) [3] . تعبيراً عن قوتها وكثرتها وأهميتها إذْ ذاك بين القبائل .

وقيل في اسمها تغلب بنت وائل بالتأنيث ، ذهاباً الى القبيلة ، كما قالوا : تميم بنت مرّ . جاء في شعر الفرزدق :

لولا فوارس تغلب ابنة وائل   ورد العدو عليك كل مكان [4]

وقد كانت لرؤساء تغلب الرئاسة على قبائل ربيعة ، كما صار لها اللواء . أي رئاسة الحرب . فمن يحمل اللواء تكون له الرئاسة في الحرب [5] .

ويرى أهل الأخبار ان قبيلة تغلب مثل سائر قبائل ربيعة كانت تسكن في الأصل في تهامة ، ثم انتشرت فنزلت الحجاز ونجد والبحرين ، فلما تحاربت مع (بكر بن وائل) ، زحفت نحو الشمال حتى بلغت أطراف الجزيرة ، فسكن قوم منها جهات سنجار ونصيبين ، حتى عرفت تلك الديار بـ (ديار ربيعة) [6] . وديار ربيعة بين الموصل الى رأس عين ونصيبين و (دنيسر) والخابور ، وما

١ لسان العرب (٢/١٤٥) ، تاج العروس (١/٢٣١) ، الاشتقاق (ص ٢٠٢) ، القاموس (١/١١٣) ، الصحاح (١/٨٨) ، نهاية الأرب (٢/٣١٦) ، جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم (٢٨٦) .

٢ قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، للقلقشندي (ص ١٣٠) ، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، للقلقشندي (ص ٢٨٧) .

٣ شرح القصائد العشر ، للتبريزى (ص ٢٨٣) (القاهرة ١٩٦٢ م) ، النصرانية (١٢٥) ، شرح التبريزى لمعلقة عمرو بن كلثوم (١٠٨) ، (طبعة لايل) ، النصرانية (١٢٥) .

٤ القلقشندي ، نهاية الأرب (١٨٦) .

٥ ابن الأثير ، الكامل (١/٣١٢) .

٦ نهاية الأرب (١٧٠) ، قلائد الجمان (١٣٢) ، سبائك الذهب (٥٢) .

بين هذه من المدن والقرى . وجمعت هذه الديار بين (ديار بكر) و (ديار ربيعة) وسميت كلها بـ (ديار ربيعة) [1]. وقد انتشرت بطون تغلب في الرثار ، بين سنجار وتكريت [2] .

ويروي أهل الأخبار ان أول من نزل بطون تغلب في الجزيرة الفراتية هو : (علقمة بن سيف بن شرحبيل بن مالك بن سعد بن جشم بن بكر) وقد قاتل أهل الجزيرة حتى غلبهم ، وأنزل قومه بها . ويؤيدون رأيهم هذا بما جـاء في معلقة (عمرو بن كلثوم) :

ورثنا مجـدَ علقمة بن سيف أباح لنا حصون المَجِد دِينا [3]

وقد كان شريفاً رئيساً في الجاهلية [4] .

وقد أدى اتصال تغلب بالروم وبنصارى العراق والجزيرة وبلاد الشأم الى دخول قسم منهم في النصرانية كمعظم القبائل التي دخلت العراق وبلاد الشأم . وهي من القبائل المتنصرة ومن سكان الخيام [5] .

وقد تغلب الشاعر (جابر بن حنى التغلبي) ، ويقال انـه قال في شعر له مخاطباً بهراء :

وقد زعمت بهراء ان رماحنا رماح نصارى لا تخوض الى الدم [6]

وهو بيت من قصيدة يفتخر فيها بقومه وبشجاعتهم : ومعنى هذا البيت إن صح ، ان النصارى لم يكونوا أشداء في الحروب ، وانهم لم يكونوا على شاكلة العرب الوثنيين في الطعن والضرب .

ومن ولد تغلب في رأي النسابين : غنم والأوس وعمران . ومن بطون غنم :

---

١ ابن خلدون (٢/١٠٤) ، صبح الأعشى (١/٣٣٧) ، البلدان (٢/٤٩٤) (بيروت ١٩٥٦م) .

٢ البلدان (١/٩٢١) (طهران) .

٣ جمهرة أشعار العرب (١٢٤) ، شرح المعلقات السبع ، للزوزني (ص ١٢٩) ، شرح القصائد العشر ، للتبريزي (ص ٤١١) .

٤ الاشتقاق (٢٠٣) .

٥ Raccolta, P 142

٦ النصرانية (١٢٦) ، شعراء النصرانية (١٩٠) .

(الأراقم) . وهم جشم ومالك وعمرو وثعلبة والحارث ومعاوية وهم بنو بكر ابن حبيب بن عمرو بن غـنم بن تغلب[1] . ومنهم : عمرو بن الخنس قاتل (الحارث بن ظالم) ، وكان (الأسود بن منذر) ملك الحيره قد طلب ذلك منه . ومنهم (الهذيل بن هبيرة) وكان قد رأس تغلب في الجاهلية[2] . وكان جراراً للجيوش ، أسره يزيد بن حذيفة السعدي[3] .

ومن (بني تغلب) (السفّاح بن خالد) ، واسمه (سلمة) . وكان جراراً للجيوش في الجاهلية . وإنما سمي (السفّاح) ، لأنه سفح المزاد يوم كاظمة ، وقال لأصحابه : قاتلوا فإنكم ان أهزمتم مُتم عطشاً[4] .

ومن بني غنم : بنو جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب . ومنهم الشاعر : عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن سعد بن زهير بن جشم ، ومن ولده : عبد الله والأسود ، وهما شاعران سيدان . وعبّاد ، وهو قاتل بشر بن عمرو بن عدس[5] .

ومنهم (أبو حنش) ، عاصم بن النعمان بن مالك بن عتاب ، وهو ابن عم عمرو بن كلثوم . وهو قاتل (شرحبيل بن الحارث) الكنـدي ، وذلك يوم الكلاب[6] . ومنهم (الفدوكس) الذين منهم (الأخطل)[7] .

ومن بني جشم بن بكر بن الحارث ، (كليب وائل) ، ذو الصيت الشهير في كتب أهل الأخبار شقيق (مهلهل) . و (كليب وائل) هو (وائل بن ربيعة بن الحارث بن زهير) . وقد ضرب بـه المثل في العز فقيل (أعز من

---

١ المبرد ، نسب عدنان وقحطان (ص ١٧) ، المعارف (٣٢) ، الاشتقاق (٢٠٣) ، ابن رشيق ، العمدة (١٥٧) .
٢ الاشتقاق (٣٣٩) .
٣ الاشتقاق (٢٠٣) .
٤ قال الشاعر :
وأخوهما السفّاح ظمأ خيله … حتى وردن جباء الكلاب نهالا
الاشتقاق (ص ٢٠٣) .
٥ المعارف ، لابن قتيبة (ص ٤٣) ، شرح المعلقات ، للتبريزي (ص٢٨٣) ، جمهرة ابن حزم (ص ٢٨٧) .
٦ ابن حزم ، جمهرة (ص ٢٨٧) .
٧ الاشتقاق (٢٠٤) .

كليب وائل)[1] . وكان والده (ربيعة) ، قد قاد مضر وربيعة يوم السلآن الى أهل اليمن ، وأدخله (السكرى) في جملة (الجرارين)[2] .

أما السبب الذي حمل (ربيعة بن مرّة بن الحارث بن زهير التغلبي) على مقارعة قبائل اليمن وحروبها ، فهو شعور أبناء تغلب بوجوب التخلص من نفوذ اليمن عليها ، ومن حكم (زهير بن جناب الكلبي) عليها . فقد زعم أهل الأخبار ان (تغلب) كانت مثل سائر قبائل (معدّ) خاضعة لنفوذ حكّام اليمن ، وقد سئمت من جوار الحكّام الذين ينصبهم (التبابعة) عليها ، فظهر رجال فيها عزموا على التخلص من ذلك النفوذ ، وتكوين حلف قويّ يكبح جماح اليمن يتألف من قبائل معدّ . وكان من بين أولئك الرجال (ربيعة بن الحارث ابن زهير) والد (كليب وائل) ، وكانت خطته ضرب اليمن للتخلص من حكم (زهير بن جناب) الذي كان حكّام اليمن قد أقاموه على قبائل معدّ . وجمع قبائل مضر وربيعة تحت زعامة واحدة ، وبذلك تتخلص تلك القبائل من تحكم اليمن في شؤونها ومن دفع الاتاوة لها .

ويذكر أهل الأخبار ان (زهير بن جناب) الكلبي القضاعي ، كان قد ولى أمر (معد) بمساعدة حكّام اليمن وتأييدهم له ، ويذكر بعض منهم ان (أبرهة) الحبشي هو الذي نصب زهيراً عليها وأيده وأعانه على معدّ . وذاك حينما غزا (أبرهة) نجداً وتوسع فيها ، فجاءه (زهير) ليتقرب اليه ، وليعينه على بعض قبائل معدّ[3] .

وسار (زهير) في حكم معدّ ، حتى اشتط وبغى وقسا في جمع الاتاوة ، فضجر الناس منه ، وهاجمه (زيابة) من (بني تيم الله) ، وطعنه طعنة ظن انه قد قضى بها عليه . ولكن زهيراً نجا منها ، فجمع عندئذ قومه ومن كان معهم من قبائل قحطان وغزا بكراً وتغلب ، فانهزمت بكر ثم تغلب ، وأسر كليب ومهلهل ابنا ربيعة ، وجماعة من أشراف تغلب . فتأثرت قبائل ربيعة من هذه الهزيمة ، وعينت (ربيعة بن مرّة بن الحارث بن زهير التغلبي) رئيساً

١ الاشتقاق (٢٠٤) ، ابن الأثير ، الكامل (١/٢١٤) .
٢ المحبر (ص ٢٤٩) .
٣ ابن الأثير ، الكامل (١/٢٠٥) .

عليها ، فحمل ربيعة ومن انقاد اليه على زهير ، واسترجع الأسرى ولكن زهيراً لم يلبث ان عاد الى ما كان عليه من جمع الاتاوة من معدّ[1] .

وكليب وائل ، كما يظهر من روايات الأخباريين ، رجل صلب قوي ، ارتفع بجمه بعد يوم (خزازى) (خزاز) الذي أظهر قوة معدّ لما اجتمعت ، فانتخب رئيساً مطاعاً على هذه القبائل ، وأعطي الملك والتاج ، وبقي على ذلك دهراً ، حتّى دخله زهو شديد ، فأخذ يبغى على القبائل ويشتط في أخذ الاتاوة منها وفي اتخاذ خيرة الأرض المخصبة ذات المياه الغزيرة مناطق حمى لا يجور لإبل غيره الرعي فيها ، وفي الاستيلاء على مواضع الماء ، حتّى ضجرت الناس منه وسئمت حكمه وودت لو تمكنت من التخلص من جوره وتعسفه[2] .

قال (ابن الكلبي) : لم تجتمع معدّ كلها إلا على ثلاثة من رؤساء العرب، وهم : عامر بن الظرب بن عمرو بن بكر بن يشكر بن الحارث : والثاني ربيعة ابن الحارث بن مرّة بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب ، وهو قائد معدّ يوم السلان . وهو كما رأينا والد (كليب) . والثالث : كليب بن ربيعة[3] . ويظهر من ذلك انه ورث رئاسة قومه ورئاسة معدّ من والده ، وانه زاد في قومه وفي مكانته يوم قاوم قبائل اليمن ، وتغلب عليها في (يوم خزاز) ، وكانت معدّ تهاب اليمن ، وتخضع لملوكها ، لذلك كان يوم السلان ويوم خزاز ، نصراً معنوياً كبيراً لها ، جرأها على الوقوف أمام اليمن ، وعلى تحديها . وجعلها تشعر بأنها قوة وأن في امكانها صد اليمن لو اتحدت قبائل (معدّ) فيما بينها ، ووحدت كلمتها تحت رئاسة رئيس قوي قدير .

ويذكر أهل الأخبار ان معداً اجتمعت كلها تحت رايته ، وجعلت له قسم الملك وتاجه وتحيته وطاعته ، فغبر بذلك حيناً من الدهر ثم دخله زهو شديد وبغى على قومه حتّى بلغ من بغيه انه كان يحمي مواقع السحاب فلا يرعى حماه ،

١ المحبر (ص ٢٤٩) ، العقد الفريد (٦/٩٧) (العريان) ، نهاية الأرب (١٥/٤٢٠ وما بعدها) .

٢ ابن الأثير ، الكامل (١/٢١٤) ، النقائض (٩٠٥ وما بعدها) الميداني ، الأمثال (١/٢٥٤) ، خزانة الأدب (١/٣٠١ وما بعدها) ، المحبر (٢٤٩) ، المعارف (٦٠٥ وما بعدها) (دار الكتب (سنة ١٩٦٠م) .

٣ نهاية الأرب (١٥/٣٩٦ وما بعدها) .

ويقول : وحش أرض كذا في جواري ، فلا يهاج ، ولا تورد إبل أحد مع إبله ولا توقد ناره . وكان اذا رأى أرضاً فأعجبته حماها ومنع الناس عنها ، وذلك بأن يطلق جرواً يعوي ، فيكون المكان الذي ينقطع فيه صوت العواء فلا يسمع ، هو حد تلك الأرض . قيل ولذلك عرف بـ (كليب) [1] .

وكان (كليب) قد تزوج (جليلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة)، وهي أخت (جَسّاس بن مرة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة) [2] . وهي أيضاً من أشراف قومها ، و (ذهل بن شيبان) من الأسر المعروفة التي نجد لها اسماً بين الجاهليين .

وقد أدت عنجهية (كليب) وغطرسته الى مقتله ، وسبب ذلك على ما يقوله أهل الأخبار ان ناقة كانت للبسوس خالة (جَسّاس) ، أو الى (جليلة أخت جسّاس) على رواية ، أو الى رجل اسمه (سعد الجرمي) واسم الناقة (السراب) كانت قد اختلطت بإبل (كليب) وأخذت ترعى معها ، فلما رآها كليب ، أنكرها واستعظم أمر دخولها المرعى مع إبله ، فرمى ضرعها بسهم فنفرت وهي ترغو . فلما رأت (البسوس) ، أو (جليلة) أو رأى (سعد الجرمي) الناقة وقد أصيبت بسهم كليب ، عز على صاحبها ذلك ، أو على صاحبتها حسب اختلاف الروايات ، وذهب أو ذهبت كل واحدة منها الى (جساس) ، صارخاً أو صارخة ، وكل منهم في جواره وعند فناء بيته ، فثار الدم في رأسه ، وأخذته العزة ، وذهب غاضباً الى (كليب) ومعه (عمرو بن الحارث) فكلماه ، وأظهر جسّاس ما حلّ به من ذل وإهانة برمي (السراب) بالسهم ، فلم يبال بهما ، فطعنه (جساس) وضربه (عمرو بن الحارث) ، فقتل كليب [3] .

وقد أثار مقتل (كليب وائل) هذا حرباً استمرت أربعين سنة على ما يذكره أهل الأخبار عرفت بـ (حرب البسوس) . وهي في الواقع معارك وغزوات

١ نهاية الارب (٥١/٣٩٦) ، أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر (٦٥/١ وما بعدها) (طبعة بيروت) ، السويدي ، سبائك الذهب (١٠٥) .
٢ المحبر (ص ٣٠٠) .
٣ العقد الفريد (١٥٠/٥) ، النويري ، نهاية الأرب (٣٩٦/١٥) ، اللسان (٢٨/٦) ، (دار صادر) .

وقعت في أوقات متقطعة وقعت بين (تغلب) ومن حالفها وبين (بكر) . أثارها وأشعل نارها (مهلهل) أخو (كليب) أخذاً بثأر أخيه من (بني بكر) قوم (جساس) . وأعلنها دون اهتمام لتوسط عقلاء (بكر) بحل القضية حلاً سليماً حقناً لدماء الطرفين . بتأدية دية الملوك ، وهي ألف ناقة سود المقل ، أو ان يأخذوا أحد أبناء (مرة بن ذهل) والد جساس، فيقتلوه بدم (كليب) [1].

وأبت بعض قبائل بكر الدخول في حرب مع (تغلب) . واعترلت عن (بني شيبان) قوم جساس ، ومن هؤلاء (بنو لجيم) و (بنو يشكر) . وانسحبت (الحارث بن عباد) . وعشائر أخرى . وتولى (مرة بن ذهل) قيادة قومه من (بني شيبان) من بكر . فكانت معارك وملاحم ذكر أسماءها أهل الأخبار . منها (يوم النهي) ، وهو أول يوم من أيام حرب البسوس على رواية ، ويوم عنيزة ، وهو أول يوم من هذه الأيام على رواية أخرى [2] . ثم وقعت أيام أخرى منها يوم الذنائب ، وهو يوم قتل فيه : (شراحيل بن مرّة بن همام) والحارث بن مرة ، وهمام بن مرّة أخو جساس من أمه وأبيه . وعمرو بن سدوس بن شيبان . وهو من بني ذهل بن ثعلبة ، وسعد بن ضبيعة ، وهو من بني قيس بن ثعلبة وآخرون . وقد قيل إن منهم من قتل في أيام أخرى .

ومن بقية الأيام : يوم واردات ، ويوم عويرضات ، ويوم الحنو ويوم أنيق ، ويوم ضرية ، ويوم القصيبات ، ويوم العصيات ، ويوم قضة ، وهو يوم التحالق ، وفيه حلّق رجال بكر لمتهم ، وذلك ليميز البكريون عن غيرهم ، الى غير ذلك من أيام تجد أسماءها في كتب الأخبار والتأريخ والأدب .

وقد توسط رؤساء بكر عند (مهلهل) بأن يوقف القتال ، بعد ان سقط القاتل وهو (جسّاس) قتيلاً في معركة من هذه المعارك ، يقال انها معركة (يوم واردات) لكنه لم يقبل وأبى إلا الاستمرار في القتال حتى يشفي نفسه من (بني بكر) ، فتدخل (الحارث بن عباد) عندئذ واشترك مع البكريين ، وتولى أمر (بني بكر) ، ووقعت أيام أخرى أثرت في (بني تغلب) . وقد وقع

١ نهاية الأرب (٣٩٦/١٥) – ابن الأثير ، الكامل (٣١٢/١) .

٢ أبو الفداء ، المختصر (٩٥/١ وما بعدها) (طبعة سروب) ، المعارف (٦٠٥ وما بعدها)، (دار الكتب المصرية) .

(مهلهل) في يوم (قصة) وهو يوم (تحلاق اللمم) أسيراً في أيدي (الحارث ابن عباد) ولم يكن يعرفه . فسأله الحارث عن مكان (مهلهل) قائلاً له : دلني على عدي بن ربيعة (وهو اسم مهلهل) وأخلي عنك . فقال له عدي : عليك العهود بذلك إن دللتك عليه ؟ قال . نعم . قال : فأنا عدي . فجزّ ناصيته وتركه . وقال فيه :

لهفَ نفسي على عديّ ولم أعرف عديّاً إذْ امكنتني اليدان [1]

وورد في بعض الأخبار ان الذي قتل (جساساً) هو (الهجرس) ، وهو ابن كليب ، وابن أخت جساس ، إذْ ان أمه هي (جليلة) . وكان جسّاس قد سباه ، ثم زوجه ابنته ولكنه أبى إلا ان يقتل خاله ، أخذاً منه بدم والده . ويقال ان جسّاساً لم يقتل وإنما مات حتف أمه [2] .

وفي هذا الأسر وجز الناصية كانت نهاية زعامة (مهلهل) على قومه ، فقد ترك أهله ، وفرّ الى (مذحج) ، حيث نزل بـ (بني جنب) ، فخطبوا اليه ابنته وقيل أخته فمنعهم ، فأجبروه على تزويجها ، وساقوا اليه جلوداً من أدم . وكان قد كبر وتقدم في السن وضعف حاله فجاءه أجله بعد مدة غير طويلة ، ويقال إن عبدين من عبيده اشتراهما (مهلهل) ليغزوان معه ، سئما منه ، فلما كانا معه بموضع قفر أجمعا على قتله ، فقتلاه ، وبذلك انتهت حياته ، وحياة حرب البسوس [3] .

ويذكر أهل الأخبار ان العرب صارت تضرب المثل في شؤم (البسوس) وفي شؤم (سراب) ، فقالت (أشأم من البسوس) و (أشأم من سراب) [4] .

١ العقد الفريد (٥/٢١٣ وما بعدها) ، صبح الأعشى (١/٣٩١) .
٢ الكامل ، لابن الأثير (١/٣١٩) ، الأغاني (٤/٢٩٤) ، (٥/٢٩٤) (بيروت) .
٣ النويري ، نهاية الأرب (١٥/٣٩٦) ، ابن الأثير (١/٣١٢) ، صبح الأعشى (١/٣٩٩) ، العقد الفريد (٥/٢١٣) ، سبائك الذهب ، الفصل الحادي عشر ، لسان العرب (٦/٢٨) .
٤ الميداني ، مجمع الأمثال (١/٣٨٧) ، ابن الأثير ، الكامل (١/٣١٢) ، سبائك الذهب (١٠٤) ، مقامات الحريري (٢٦٠) ، (المكتبة التجارية) ، فرائد اللآل في مجمع الأمثال (١/٣١٩ وما بعدها) (المطبعة الكاثوليكية ببروت) ، ابراهيم بن السيد على الأحدب الطرابلسي ، جمال الدين محمد بن محمد بن نباته المصري ، سرح العيون =

وقد اقحم الرواة شعراً في قصصهم عن هذه الحرب ، وذلك على عادتهم في رواية اخبار الايام ، وهو لا يخلو من أثر الإثارة والعواطف القبلية . ونجد في الشعر المنسوب الى البسوس تحريضاً أثار جساساً حتى دفعه على قتل (كليب) دون أن يفكر في سوء عاقبة ذلك القتل . ويعرف هذا النوع من الشعر بـ (الموثبات) . وهو من شعر التحريض . ومن هذا النوع الشعر الذي تقوله النساء في ندب الموتى لإثارة شجون الحاضرين [١] .

ويعد (مهلهل) في جملة فرسان العرب الشجعان المعروفين . كما يعد في جملة الشعراء المتقدمين . لقب بـ (مهلهل) ، لانه اول من رقق الشعر ، او لقوله :

لما توغل في الكراع هجينهم　　هلهلت أثأر مالكاً او صنبلا فتدبر [٢]

وقد كان لتغلب جملة رؤساء ، منهم رئيس يقال له الجرار ادرك النبي ، وأبى الاسلام فبعث رسول الله زيد الخيل الشاعر المشهور وأحد الشجعان المشهورين ، ليطلب منه الدخول في الاسلام كما تقول احدى الروايات او القتال ، فأبى الاسلام وقاتل حتى قتل [٣] .

ولاعتزاز تغلب بنفسها ، ولشعورها بعرتها ، امتنعت عن دفع الجزية المفروض اداؤها على اهل الكتاب ، وذهبت الى عمر بن الخطاب قائلة له : (نحن عرب لا نؤدي ما يؤدي العجم ، ولكن خذ منا كما يأخذ بعضكم من بعض) . ورضيت بدفع ضعف ما يدفعه المسلمون صدقة أنفه من كلمة (جزية) [٤] . وافتدت قبائل

= شرح رساله ابن خلدون (٤٨ وما بعدها) (مصطفى البابي) ، الشعر والشعراء (٩٩ وما بعدها) ، شعراء النصرانية ، القسم الثاني (١٦٤ وما بعدها) ، صبح الأعشى (١/٣٩١) .

١ دائرة المعارف الاسلاميه (٣/٦٤٥) (ترجمه ابراهيم شنتناوي وجماعته) .

٢ بلوغ الأرب (٣/١٠٨) ، الشعر والشعراء (٩٩) ، جمهره أشعار العرب (٢١٨) ، شرح التبريزي (٣١٠)، الاشتقاق (٣٣٩)، سرح العيون (٥٦) ، الكامل (١/٣١٦).

٣ الأغاني (١٦/٥٢) (أخبار زيد الخيل) .

٤ السنن الكبرى (٩/٢١٦) ، (باب نصارى تغلب تضعف عليهم الصدقه) ، (فصل في شان نصارى تغلب وسائر أهل الذمه وما تعاملوا به) . كتاب الخراج (١٢٠ وما بعدها) ، (القاهره ١٣٥٢ هـ) . البلاذري ، فتوح (١٨٥ وما بعدها) .

اخرى مثل تنوخ وبهراء بتغلب ، فرضيت بدفع الصدقة التي يدفعها المسلمون مضاعفة مفضلين اياها على دفع الجزية ، لكي لا تكون في مصاف النبط ، ومن امف لفهم من غير العرب ، والمساواة فيها تعد اهانة لهم في نظرهم ، وان كان داعوها نصارى مثلهم ، وهم اخوانهم في الدين .

وذكر ان (عمر بن الخطاب) لما همّ بفرض الجزية عليهم ، قطعوا الفرات وأرادوا اللحاق بأرض الروم ، فانطلق (النعمان بن زرعة) أو (زرعة بن النعمان) الى (عمر) ، فقال له : انشدك الله في بني تغلب ، فانهم قوم من العرب نائفون من الجزية ، وهم قوم شديدة نكايتهم ، فلا يعن عدوّك بهم . فأرسل عمر في طلبهم وأضعف عليهم الصدقة [1] .

ومن مواضعها التي كانت تتبرك بها قبر القديس مارسرجيوس (مارسرجس) بالرصافة [2] .

وكانت تغلب ايضاً في جملة القبائل العدنانية التي خضعت لآل كندة ، حكم منهم عليها معديكرب المعروف بغلفاء [3] ، وخضعت ايضاً لحكم ملوك الحيرة الذين حاولوا اصلاح البين بين تغلب وبين بكر بن وائل ، فأخذوا رهائن من الطرفين ، ليمنعوهم بذلك من القتال [4] . وقد وقعت بين الحيين حروب طويلة ترد اخبارها في الايام ، كما وقعت بينها وبين يربوع وقبائل اخرى حروب سأتحدث عنها في الفصل الخاص بأيام العرب قبل الاسلام .

وقد ثار التغلبيون مراراً على ملوك الحيرة وحاربوهم ، والواقع ان خضوع تغلب والقبائل الكبيرة الاخرى لملوك الحيرة لم يكن الا خضوعاً اسمياً ، يتمثل في حمل الاتاوات الى الملوك ما داموا اقوياء ، ولذلك كان ملوك الحيرة كما كان

١ البلاذري ، تنوخ (١٨٥ وما بعدها) .
٢ من شعر الأخطل :

لما رأونا ، والصليب طالعا ... ومار سرجس ، وسما نافعا
وأبصروا راياتنا لوامعا ... خلوا لنا راذان والمزارعا

المشرق ١٩٣٦ (ص ٢٤٧) .
٣ الأغاني (٨٢/٩) .
٤ الأغاني (٤٢/١١ وما بعدها) .

الأكاسرة والقياصرة يسترضون الرؤساء بالهبات والمال ، ومن جملة هؤلاء ، سادات (مشايخ) هذه القبيلة .

وأما بكر بن وائل ، فكان من نسله عليّ ، ويشكر ، وبدن . وقد دخل بنو بدن في بني يشكر ، ومن بني يشكر الشاعر الحارث بن حلزه ، والريّان اليشكري ، سيد بني بكر في حربهم مع بني تغلب . وكان من نسل عليّ بن بكر ، صعب بن عليّ ، وهو والد مالك ولُجَيْم وعكابة . ومن مالك بن صعب سهلٌ بن شيبان بن زمان المعروف بالفند [1] . ومن بطون يشكر ، بنو غُبر بن غنم بن حبيب بن كعب بن يشكر ، وبنو كنانة ، وبنو حرب بن يشكر ، وبنو ذبيان بن كنانة بن يشكر [2] .

وبكر بن وائل ، من القبائل الكبيرة التي كان لها شأن معروف عند ظهور الاسلام . وهي مثل القبائل العدنانية الاخرى من القبائل المهاجرة التي تركت ديارها القديمة على حد قول الاخباريين ، وهي تهامة ، على اثر الحروب الكثيرة المملّة التي وقعت بين العدنانيين ، فهاجرت الى اليامة ثم الى البحرين والعراق . ويذكر انها اخذت تغزو مع تميم وعبد القيس حدود الفرس ، حتى اضطر (سابور) الثاني المعروف بـ (سابور ذي الاكتاف) حوالي سنة (٣٥٠ للميلاد) على مهاجمة هذه القبائل ومحاربتها ، وتخريب المنازل التي كانت تنزل بها . فلما انتهى من حروبه ، أمر بنقل كثيرمن الأسرى الى الأهواز وكرمان لإسكانهم هناك [3] .

وفي القرن الخامس للميلاد ، كان الحكم على بكر وأكثر قبائل معدّ على حد رواية الاخباريين في ايدي التبـــابعة ، ثم في ايدي ملوك كندة ، نصبهم التبابعة انفسهم ملوكاً على تلك القبائل . وكان أولهم حجر آكل المرار الذي انتزع من اللخميين ما كان في ايديهم من ملك بكر بن وائل ، ووسّع ملكه . فلما توفي حجر تولى الملك ابنه عمرو المعروف بالمقصور من بعده ، وبقيت بكر تابعة له ، وكذلك لابنه الحارث مغتصب عرش الحيرة على نحو ما ذكرت . وكان الحارث

١ جمهره (ص ٢٩١) ، (بنو رمان) ، الاشتقاق (٢٠٧) ، المعارف (٣٢) .
٢ المبرد (١٧) .
٣ أبو الفداء (٤٨/١) ، الطبرى (٦٦/٢) .

قد وَزّع ابناءه على القبائل ، ليتولوا ادارة شؤونها فعين ابنه شراحيل او شرحبيل او سلمة حاكماً على بكر . فلما اعاد انو شروان عرش الحيرة الى اصحابه اللخميين ، وانتكس الأمر مع الحارث ، حتى اضطر الى الهرَب الى ديار كلب او غيرها ، حيث لاقى مصيره بكيفيـــة لم يتفق على وصفها الاخباريون ، وقعت النفرة بين اولاده ، ودَبّ الخلاف بين ابنائه ، فاقتتلوا ، وتحزبت القبائل واقتتلت . ثمّ وجد رؤساؤها انها فرصة سانحة ، فاستقلوا عن كنده ، وعادت الى ما كانت عليه من الفرقة والاستقلال . وترأس كليب وائل تَغْلِبَ وبكراً وقبائل معد ، وقاتل جموع اليمن ، وهزمهم ، وعظم شأنه ، وصار ملكاً زماناً من الدهر ، ثم داخله الزهو والغرور ، فبغى على اتباعه ، وحمى اكثر الارضين ، فلم يسمح لأحد بالرعي فيهـــا الا باذنه ، فقتله رجل من بكر اسمه (جساس) في قصة يرويها الاخباريون ، فثارت تغلب ، وطالب اخو كليب وهو (مهلهل) بالأخذ بالثأر من بكر . فجرت بين القبيلتين حروب طويلة استمرت على ما يذكر الاخباريون اربعين عاماً ، هلك فيها خلق كثير وانتهت بمقتل جساس ، وهلاك مهلهل في قصص مُنَمَّق من هذا القصص الذي يرويه اهل الاخبار .[1]

وقد أضعفت هذه الحروب القبيلتين ولا شك ، وقد تدخل ملوك الحيرة في الأمر ، فأصلحوا بينهم : أصلح بينهم المنذر بن ماء السماء على رواية ، أو عمرو ابن هند في رواية اخرى[2] ، وقد كانوا مع المنذر الثالث في غزوته التي غزا بها الغساسنة ، كما كانوا مع النعمان بن المنذر . وقد حاربوا الفرس مع بني شيبان ، فانتصروا عليهم في معركة ذي قار . وكان يؤيد الفرس من العرب تغلب وطيء واياد وبهراء وقضاعة والعباد والنمر بن قاسط . وقد اتفقت اياد سراً مع بكر بن وائل ، فانهزمت حين اشتباك المعركة ، فانهزمت الفرس ومن ساعد الفرس من القبائل التي اشتركت معها تأييداً لإياس بن قبيصة ، او بغضاً لبكر كما هو شأن تغلب ، او طمعاً في ربح من الفرس او رغبة في التقرب اليهم . وقد كان لهذه المعركة اثر كبير في نفوس القبائل ، ومركزها مع الفرس .

١ أبو الفداء (١/٧٧ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢/٣٠١) .
٢ الأغاني (١١/٢٢ ، ٤٤ وما بعدها) .

ويظهر ان بكراً لم تخضع للفرس ، ولا لحكم الحيرة بعد معركة ذي قار . وفي السنة التاسعة من الهجرة دخل قسم منهـا في الإسلام ، فعين الرسول المنذر بن ساوى عليها وعلى بني عبد القيس . غير انها ارتدت عنها بعـد وفاة الرسول ، فهاجمت مع قيس بن ثعلبة برئاسة الحطيم بن ضبيعة البحرين ، وعينت (الغرور) ملكاً على هذه الديار . عندئذ أرسل أبو بكر عليهم جيشاً بقيادة العلاء الحضرمي ومن بقي على الإسـلام من بكر وشيبان ، تمكن منهم وَرَحَمهُمْ الى حظيرة الإسـلام .

ومن لُجَيْم بن صعب ، بنو حنيفة ، وبنو عجل ، ابنا لجيم بن صعب بن عليّ ، وبنو حنيفة هم أهل اليمامة [1] . ومن حنيفة الدئل ، وتقع مواطنهـم في اليمامـة كذلك [2] . ومن ولد الدئل بن حنيفة بنو مرّة وعبد الله وذهل وثعلبة . ومن بني مرّة هودة بن عليّ بن ثمامة الذي توجّه الى كسرى ، وعمرو بن عبد الله ابن عمرو بن عبد العزّى ، وهو قاتل المنذر بن ماء السماء يوم عين أباغ [3] . ومن عديّ بن حنيفة مسيلمة الكذّاب [4] .

وأما ولد عُكابة بن صعب [5] . فهم : ثعلبة وهو الحضن ، وقيس وقد دخل بنوه في بني ذهل بن ثعلبة . فولد ثعلبة بن عكابة شيبان ، وذهل ، وقيساً ، والحارث . وقد دخل بنوه في بني أنمار بن دب بن مرّة بن ذهل بن شيبان . وأمهم رقاش ، وهي البرشاء بنت الحارث بن العتيك بن غنم بن تغلب . وولد ثعلبة أيضاً تيم الله بن ثعلبة . وأمه الجدماء بنت حلّ بن عديّ بن عبد مناة بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر ، وأتيد ، وضنّة . ودخـل بنو ضنّة في بني عذرة . ودخل بنو أتيد في بني هند من بني شيبان [6] .

١ الجمهرة (٢٩١ ، ٤٣٩) ، نهاية الأرب (٢/٣٣١) ، الاشتقاق (٢٠٧) ، (لجيم) ، سبائك الذهب (٥٦) ، الانباه (ص ٩٧) .
٢ تاج العروس (٧/٣٢٧) ، لسان العرب (١٣/٢٤٩) ، الاشتقاق (٢٠٩) ، نهاية الأرب (٢/٣٣١) ، ابن خلدون (٢/٣٠٢) .
٣ جمهرة (ص ٢٩٢) ، التبريزي ، شرح الحماسة (٤/١٥) .
٤ المبرد (١٦ وما بعدها) .
٥ لسان العرب (٢/١٨) ، الاشتقاق (٢١٢ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٢/٣٣١) ، ابن خلدون (٢/٣٠٣) ، كحالة (٢/٨٠٣) .
٦ جمهرة (ص ٢٩٥ وما بعدها) ، سبائك الذهب (ص ٥٨) .

ومن ولد ثعلبة بن عكابة ، تيم الله[1] . ومن ولد تيم الله بن ثعلبة بن عكابة ، شيبان[2] ، ومنهم أوس بن محصن ، وهو الذي أطلق له السبي يوم أوارة ، وصعير بن عامر وكان من فرسان بكر[3] .

ومن بني ذهل بن ثعلبة بن عكابة ، بنو سدوس بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة ، وتقع مواطنهم في اليمامة ، وكانوا أرداف ملوك كندة[4] . وبنو رقاش وهم الرقاشيون أبناء مالك (ملكان) وزيد (زيد مناة) ابني شيبان بن ذهل ابن ثعلبة بن عكابة من زوجه رقاش بنت ضبيعة بن قيس بن ثعلبة[5] . وكان بنو شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة من البطون الضخمة ، ورئيسهم في الجاهلية مرّة بن ذهل بن شيبان ، ومن نسله جساس قاتل كليب[6] .

ومن نسل قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب ، ضبيعة ، وتيم ، وثعلبة ، وسعد . ومن نسل ضبيعة الأعشى ميمون بن قيس الشاعر المعروف ، والمرقش الأكبر ، والمرقش الأصغر ، وطرفة بن العبد ، وعمرو بن قميئة ، وشعراء آخرون . وتعدّ هذه القبيلة في طليعة القبائل بكثرة من ظهر فيها من الشعراء[7] . وتقع منازل قيس في اليمامة . وكانت صلاتهم وثيقة بالمناذرة . ومنهم كتيبة الصنائع إحدى كتائب النعمان بن المنذر[8] .

ومن بني أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان ، عمرو بن أبي ربيعة بالمزدلف ، وابنه حارثة ذو التاج ، وكان على بني بكر يوم أوارة ، وهانيء بن مسعود

١ تاج العروس (٢٠٣/٧) ، (٢١٦/٨) ، الاشتقاق (٢١٢) ، ابن خلدون (٣٠٣/٢) .
٢ لسان العرب (٤٩٥/١) ، صبح الأعشى (٣٣٨/١) ، نهاية الأرب (٣٣٢/٢) ، ابن خلدون (٣٠٣/٢) ، الاشتقاق (٢١٠) .
٣ جمهرة (ص ٢٩٦) .
٤ لسان العرب (٤١٠/٧) ، الاشتقاق (٢١١) .
٥ جمهرة (ص ٢٩٨ وما بعدها)، القاموس (٢٧٥/٢) ، لسان العرب (١٩٥/٨) ، تاج العروس (٨٤/٩) ، كحالة (٤٤٢/٢) .
٦ ابن خلدون (٣٠٣/٢) .
٧ جمهرة (ص ٣٠٠) ، شيخو . شعراء النصرانية : القسم الثالث في شعراء بكر بن وائل من بني عدنان (٢٦٤ وما بعدها) ، كحالة (٩٧١/٣) .
٨ ابن خلدون (٣٠٣/٢) ، تاج العروس (٢٤٢/٢) ، (٢٣٣/١٠) ، نهاية الأرب (٣٣٢/٢) ، جمهره (٣٠٠ وما بعدها) .

الشيباني الذي هاج القتال بين بني بكر وبني تميم وضبة والرباب يوم ذي قار ، ومفروق واسمه النعمان بن عمرو الأصم ، وهو من فرسان بكر وساداتهم ، وأعشى بني ربيعة ، وهو عبد الله بن حارجة بن حبيب بن قيس بن عمرو ابن أبي ربيعة الشاعر [1] .

ومن بني مرّة بن ذهل بن شيبان ، همام ، وجساس قاتل كليب التغلبي ، والمثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم بن سعد بن مرّة بن ذهل الشيباني القائد الإسلامي الشهير قاتل مهران [2] .

وأما عكّ ، فهم من القبائل العربية القديمة ، وهم (أكيته) (Akkitai) عند (بطلميوس) ، ولا نعرف من أخبارها في نصوص المسند شيئاً . ويظهر من اختلاف النسّابين في نسبها ، ومن جعلها من قحطان تارة ومن عدنان تارة أخرى ، انها كانت على اتصال بالجاعتين ، واختلطت بهما بالفعل ، ولهذا الاختلاط أثره في تكوين الأنساب ، كما ان لمحالفاتها لقبائل عدنان وقحطان أثره في النسب .

ولهذا نجد بعض النسابين يجعلون عكّاً ابناً لعدنان ، فهو على حد قولهم شقيق معدّ ، ونجد بعضاً آخر يسمّيه الحارث ، ويجعل عكّاً لقباً له ، ثم يصيره ابناً للديث بن عدنان فيقول : هو عكّ بن الديث بن عدنان ، أي انه حفيد عدنان . ثم نجد قسماً آخر يصيره من الأزد ، أي من قحطان ، فيجعله عكّ ابن عدنان بن عبد الله بن الأزد ، بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان [3] . وأرى ان (عدثان) و (عدنان) كلمة واحدة . وقع فيها تحريف ، فصارت الكلمة الواحدة كلمتين ، وليس من المستغرب وقوع ذلك . فالكلمتان واحدة في الحروف ، ما عدا حرفي الثاء والنون اللذين يتشابهان في الرسم أيضاً فيما عدا عدد النقط .

١ جمهرة (ص ٣٠٥) .
٢ جمهرة (ص ٣٠٥ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٣٣٣/٢) ، الاشتقاق (١٥) ، كحالة (١٠٧١/٣) .
٣ جمهرة (ص ٣٠٩) ، ابن خلدون (٢٩٩/٢) ، طرفة الأصحاب (ص ٦٥ وما بعدها) ، تاج العروس (١٦٤/٧) ، لسان العرب (٣٥٧/١٢) ، الصحاح (١٤١/٢) ، الصفة (٥٤) .

وقد رجح نشوان بن سعيد الحميري ، وهو من اليمن من حمير ، رأي القائلين من النسّابين برجوع نسب عكّ في الأزد ، فقال : (عكّ قبيلة من العرب يقال لهم ولد علك بن عدنان أخي معد ، ويقال لهم ولد علكّ بن عدثان بن عبد الله بن الأزد ، وهو أصح القولين . وإنما سبب انتسابهم في معدّ ان غسان وقت خروج الأزد من مأرب نزلوا تهامة وبها علكّ ، فخيرتهم عكّ بين شرقي تهامة وغربيها ، فاختارت غسّان الشرقي ، ومكثت به زماناً ، حتى قيل لهم إن عكاً أثخن منكم لبناً ، وأدسم منكم سمناً ، لأن أموالكم إذا سرحت استقبلت الشمس ، وإذا راحت استقبلت الشمس ، فأحرّت الشمس رؤوسها ، وأموال عكّ تستدبر الشمس عند الطلوع والغروب ، فاستقالت غسّان عكّاً ، فلم تقلها ، فاقتتلوا ، فقتلت غسان عكّاً قتلاً ذريعاً وأجلتها عن كثير من أوطانها ، فمن ثم انتفت عكّ من اليمن ، وانتسبت الى معدّ)[1] .

وقد ذكر نشوان شعراً جاء فيه :

ألم ترَ عكّاً هامة الأزد أصبحت مذبذبة الأنساب بين القبائل
وعقت أباها الأزد واستبدلت به أباً لم يلدها في القرون الأوائل ؟

ومن ولد علكّ علقمة ، ومن ولد علقمة الشاهد ، ومن ولد الشاهد غافق ، من نسل هؤلاء تفرعت سائر علكّ[2] . ونجد بعض النسابين يغفلون علقمة ، ويجعلون الشاهد ولداً من أولاد عدنان ، ومنهم من جعل لعلك ولدين ، هما : الشاهد ، وعبد الله ، وجعل للشاهد ولدين كذلك ، هما غافق ، وساعدة ، ولعبد الله بطنين كذلك ، هما : عبس وبولان . ومن بطون غافق ، القيانة ، والمقاصرة ، ودهنة . ومن بطون ساعدة : لام ، وصخر ، ودعج ، ونعج ، وزعل ، وقين ، وقاضية ، وعلاقة ، وهامل ، ووالبة ، وقحر . ومن بطون عبس : زهير ، ومالك ، وطريف ، وزيد ، والعسالق ، والحجيبية ، وغنم ،

١ منتخبات (ص ٧٤) .
٢ سبائك الذهب (ص ٦٣) ، جمهرة (ص ٣٠٩) ، ابن خلدون (٢/٢٩٩) ، نهاية الأرب (٢/٣١٢) ، تاج العروس (٧/٣٧) ، أبو الفداء (١/١٠٧) ، كحالة (٣/٨٧٥) .

وتاج ، ومنسك ، ومن بطون بولان : الهليلي ، والحربي [1] . ويلاحظ ان معظم قبائل عكّ وبطونها ، هي في اليمن ، بينما هي قبائل عدنانية على رأي أكثرية النسّابين . وقد علل بعض النسابين ذلك بقوله : (وإنما كثرت قبائل عكّ بن عدنان باليمن ، لأن عكّاً تزوّج بنت أشعر ، فأولد فيهم ، فكانت الدار واحدة لذلك السبب) [2] .

وسمى النسابون ابن مضر عيلاناً كذلك [3] ، وقال بعضهم (إن عيلاناً لم يكن بأب لقيس ولا ابنٍ لمضر ، وإنما هو قيس بن مضر . وعيلان اسم فرس لقيس مشهور في خيل العرب مفضل ، وكان قيس بن مضر يسابق عليه . وكان رجل من بجيلة يقال له قيس كبة الفرس له مشهورة أيضاً ، وكانا متجاورين في دار واحدة قبل ان تلحق بجيلة بأرض اليمن . وهذا على مذهب من جعل بجيلة ابناً لأنمار بن نزار . وكان فرساهما مشهورين مذكورين ، ، فكان الرجل إذا سأل عن قيس ، أو ذكر قيساً ، قيل له : أقيس عيلان نريد ، أم قيس كبّة ؟ فصار قيس لا يعرف إلا بقيس عيلان ، وهو قيس بن مضر بن نزار .. وقد قيل إن قيساً سُمّي عيلان بغلام كان له ، وقيل سُمّي عيلان بكلب كان له يقال له عيلان) [4] الى غير ذلك من تفاسير وتعليلات تشير الى اضطراب النسابين والاخباريين في الناس وفي قيس عيلان [5] .

وقد عرف المنتسبون الى قيس عيلان بـ (قيس) و (بقيس عيلان) و بـ (عيلان) و بـ (القيسيين) و بـ (القيسية) كذلك [6] ، وهي من الكتل القبائلية الضخمة . ومع ذلك لا نعرف من تأريخها قبل القرن السادس للميلاد شيئاً يذكر . ولم يرد اسمها في كتب (الكلاسيكيين) . وقد ذكر لها الاخباريون

---

١ طرفة الأصحاب (ص ٦٤ وما بعدها) .

٢ طرفة الأصحاب (ص ٦٦) .

٣ سبائك الذهب (ص ٢١) ، الصحاح للجوهري (١/٤٧٢) ، لسان العرب (٨/٧١) . تاج العروس (٨/٤٠) ، القاموس (٢/٢٤٤) ، الاشتقاق (١٦٢) ، ابن خلدون (٢/٣٠٥) ، أبو الفداء (١/١١١) ، نهاية الأرب (٢/٣٣٤ وما بعدها) . كحالة (٣/٩٧٢ وما بعدها) .

٤ الانباه (ص ٨١ وما بعدها) .

٥ راجع التفاسير الأخرى لمعنى عيلان في : الاشتقاق (ص ١٦٢ وما بعدها) .

٦ Ency , II, P 652

أياماً عديدة . تشمل حروباً وقعت بين القبائل القيسية نفسها ، وحروباً وقعت بين قيس وقبائل أخرى من غير قيس . وقد خضعت قبائل قيس مثل أكثر القبائل العدنانية الأخرى لحكم مملكة كندة القصير [1] .

وقد ولد الناس او عيلان قيسا ودهمان . وقد جعل بعض النسابين . قيساً ابناً لمضر ، وقالوا : انه عيلان ، وان عيلان عبد حضنه ، فنسب قيس اليه [2] . وقد ولد قيس عدة اولاد ، هم : خصفة [3] ، وسعد ، وعمرو [4] . ومن ولد عمرو فهم ، والحارث وهو عدوان [5] ، وأمهما جديلة بنت مرّ بن أد ، فنسبوا اليها . وقيل : هي جديلة بنت مدركة بن الياس [6] .

وكان لفهم عدة أولاد ، منهم : قَيْن ، وسعد ، وعامر ، وعائد ، ومن بني سعد تأبط شراً الشاعر [7] . وكانت الطائف من مواطن فهم ، وعدوان ، ثم غلبتهم عليها ثقيف ، فخرجوا الى تهامة ونجد . ومن بني طرود ، وهم بطن من فهم ، كان بأرض نجد ، الأعشى [8] .

أما أبناء عدوان بن عمرو ، فهم زيد ، ويشكر ، ودَوْس . ويقال انهم دَوْس التي في الأزد ، وكانت ديارهم بالطائف ، ثم تركوها بعد نزول ثقيف فيها وارتحلوا الى تهامة [9] . ومن ولد زيد بن عدوان ، أبو سيّارة الذي كان يدفع

١ Ency., II, P. 654.

٢ جمهرة (ص ٢٣٢) ، الاشتقاق (ص ١٦٢) .

٣ ابن خلدون (٢/٣٠٧) ، لسان العرب (١٠/٤٢١) الصحاح (٢/٢٠) ، كحالة (١/٣٤٥) .

٤ جمهرة (ص ٢٣٢) ، سبائك الذهب (ص ٣٣) ، الاشتقاق (ص ١٦٢) ، المبرد (ص ١٠) ،

٥ طرفة الأصحاب (ص ٦١) .

٦ جمهرة (ص ٢٣٢) ، لسان العرب (١٣/١١٢) ، الانساه (٨٣) ، كحالة (١/١٧٣) .

٧ جمهرة (ص ٢٣٢) ، الاشتقاق (ص ١٦٢ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٢/٣٤٣) ، ابن خلدون (٢/٣٠٥) ، تاج العروس (٩/١٦) .

٨ الأغاني (٤/٧٥) ، ابن خلدون (٢/٣٠٥) .

٩ ابن خلدون (٢/٣٠٥) ، نهاية الأرب (٢/٣٤٣) ، صبح الأعشى (١/٣٤٦) أبو الفداء (١/١١٢) ، لسان العرب (١٩/٢٧٠) القاموس (٤/٣٦٠) ، كحالة (٢/٧٦٢ وما بعدها) .

بالناس في المواسم . ومن بني يشكر بن عدوان ، عامر بن الظرب بن عمرو بن عيّاذ بن يشكر بن عدوان ، وقد عرف عامر بن الظرب هذا بـ (حاكم العرب) في الجاهلية . وهو شقيق سعد ، وعمر ، وصعصعة ، وثعلبة . ومن بني ثعلبة بن الظرب ، ذو الأصبع العدواني من الشعراء المعروفين[1] . ومن بطون عدوان الأخرى ، بنو خارجة ، وبنو وابش ، وبنو رهم بن ناج[2] .

ومن نسل سعد بن قيس عيْلان ، غطفان ومنبه وهو أعصر[3] . أما غطفان ، فقبيلة كبيره معروفة ، وهناك قبيلة أخرى تسمى بـ (غطفان) كذلك ، وهي يمانية ، تنسب الى غطفان بن سعد بن مالك بن حرام بن جذام[4] . أما هذه ، فعدنانية في عرف النسّابين ، وتقع منازل هذه القبيلة شرقي خيبر وحدود الحجاز الى جبلَي طيء[5] .

وقد وقعت بين غطفان وبني عامر بن صعصعة عدة أيام ، منها : يوم الرقم ، ويوم القرنتين ، ويوم طوالة ، ويوم قرن[6] . وقد كانوا مع الأحزاب في محاربة الرسول . وكانوا يعبدون العُزّى . شجرة بنخلة عندها وثن تعبدها غطفان ، سدنتها من بني صرمة بن مرّة ، وكانت قريش تعظمها ، وكانت غنى وباهلة تعبدها معهم . هدمها خالد بن الوليد ، وهدم البيت وكسر الوثن . وكانوا يطوفون حول البيت ، بيت بساء تشبهاً بطواف القبائل الأخرى حول الكعبة بمكة ، ولهم صنم آخر موضعه في مشارف الشأم يسمى الأقيصر[7] .

ومن رؤساء غطفان الذين سادوا فيها ، زهير بن جذيمة العبسي ، وقد قاد غطفان كلها ، وعمرو بن جؤيّة بن لوذان الفزاري ، وقد قاد غطفان كلها الى

١ جمهرة (ص ٢٣٢ وما بعدها) ، الاشتقاق (ص ١٦٤) .

٢ الاشتقاق (ص ١٦٣) .

٣ جمهرة (ص ٢٣٣) ، الاشتقاق (ص ١٦٤) ، المحبر (ص ١٠) .

٤ ابن خلدون (٢/٢٥٦) ، نهاية الأرب (٢/٣٠٨) ، كحالة (٣/٨٨٩) .

٥ Ency , II, P. 144.

٦ كحالة (٣/٨٨٨) .

٧ المحبر (ص ٣١) ، كحالة (٣/٨٨٩) .

يوم الخنان الى بكر بن وائل ، وبلر بن عمرو ، وقد قاد غطفان لبني أسد ، وعيينة بن حصن بن حذيفة ، قاد غطفان الى بني تغلب يوم الساجسي [1] .

ويبدأ تأريخ غطفان باستقلال قبائل معدّ ، وخروجها من حكم اليمن على ما يرويه الاخباريون . وكان رئيس قبائل غطفان في هذا العهد زهير بن جذيمة العبسي سيد عبس ، وعبس من غطفان . وقد تلقب بلقب ملك وجبى الإتاوة من هوازن ، ثم قتله خالد بن جعفر بن كلاب ، فترأس عبس ابنه قيس ، وترأس ذبيان – وهي من قبائل غطفان كذلك – حذيفة بن الفزاري . وتمكن الحارث بن ظالم أحد الفُتّاك في الجاهلية من قتل خالد بن جعفر ، وهو في جوار ملك الحيرة ، وقد أدت هذه الحوادث الى تشتيت قبائل غطفان ، والى نشوب حروب بينها خاصة بين عبس وذبيان [2] .

وقد كانت قبائل غطفان في جملة القبائل التي قاومت الإسلام ، واشتركت مع القبائل الأخرى في محاربة الرسول ومهاجمة المدينة ، ثم أسلمت في السنة الثامنة للهجرة . وبعد وفاة الرسول عادت أكثرية غطفان ، فارتدت عن الإسلام ، وهاجمت المدينة . ولكن أبا بكر تمكن من صدّها ، ثم عادت كما عاد غيرها الى حظيرة الإسلام .

وولد غطفان ثلاثة أولاد ، هم : ريث ، وبغيض وأشجع على رواية [3] ، وولد ريثاً وعبد العُزّى على رواية أخرى . وقد بدل رسول الله اسم عبد العُزّى فجعله عبد الله ، فعرف نسله بالاسم الجديد [4] . وقد ولد ريث من الولد أهون ، ومازناً وأشجع وبغيضاً [5] ، وذلك على رواية من جعل لغطفان ولدين ، هما : ريث وعبد العُزّى .

١ المحبر (ص ١٩٢ ، ٢٤٨ وما بعدها) .
٢ المحبر (ص ١٩٢ وما بعدها) .
٣ الاشتقاق (ص ١٦٧) ، تاج العروس (١/٦٢٦) .
٤ جمهرة (ص ٢٣٧) .
٥ جمهرة (٢٣٨) ، ابن خلدون (٢/٣٠٥) ، نهاية الأرب (٢/٣٢٣) ، تاج العروس (١/٦٢٦) ، Wustenfeld, Genea , Taf. H.

ومن بطون أشجع[1] بكر وسبيع ، ومن سبيع حلاوة[2] (خلاوة)[3] ، وهفّان وفتيان ، وقنفذ ، وذبيان[4] .

وتقع مواطن أشجع في الحجاز بضواحي يثرب ، وكانوا حلفاء للخزرج من الأزد . وقد ساعدوهم في يوم بعاث[5] . وقد كان بينهم وبين سُلَيم بن منصور يوم كان في موضع الجر[6] .

ومن ولد بغيض[7] : عبس ، وذُبيان ويضاف اليها أنمار في بعض الروايات . ومن نسل عبس قطيعة ، وورده ، والحارث ، وورفة[8] . ومن نسل قطيعة[9] زهير بن جذيمة سيد بني عبس ، وجميع غطفان ، وقيس بن زهير بن جذيمة صاحب حرب داحس والغبراء ، والربيع بن زياد وزير النعمان ، والحارث بن زهير قتله كليب يوم عراعر ، وشأس بن زهير قتله فزارة[10] ، ومن عبس عنترة بن شدّاد البطل الجاهلي الشهير[11] .

وهناك جملة قبائل وبطون عرفت بعبس ، ففي أسد وحنيفة وهوازن وعمرو

١ (أشجع) ، ابن خلدون (٢/٣٠٥) ، تاج العروس (٣/٩٢ ، ٥/٣٩٣) ، البكرى (١/٣٢٩ وما بعدها) ، لسان العرب (١٠/٤٠) ، نهاية الأرب (٢/٣٢٣) ، صبح الأعشى (١/٣٤٤) .

٢ (حلاوة) جمهرة (ص ٢٣٨) ، (هكذا ضبط الاسم ليفي بروفنسال) .

٣ سبائك الذهب (ص ٥٠) ، تاج العروس (١٠/١١٩) ، ابن خلدون (٢/٣٠٥) ، Wustenfeld, Genea , Taf H.

٤ سبائك الذهب (ص ٣٥) ، (نجد أخطاء عديدة في الطبع) ، تاج العروس (١٠/٢٧٦) . Wustenfeld, Genea , Taf H.

٥ الأغاني (١٥/١٥٢) .

٦ كحالة (١/٢٩) .

٧ نهاية الأرب (٢/٣٢٣) ، لسان العرب (٨/٣٩٠) ، كحالة (١/٨٦ وما بعدها) .

٨ جمهرة (ص ٢٣٩) ، أما ابن دريد فاكتفى بذكر ولدين لعبس ، هما : قطيعة وورقة . الاشتقاق (ص ١٦٩) نهاية الأرب (٢/٣٢٣) ، Wustenfeld, Genea , Taf II

٩ (قطيعة بن عبس) ، نهاية الأرب (٢/٣٢٣) .

١٠ جمهرة (ص ٢٣٩ وما بعدها) ، الاشتقاق (١٦٩) ، نهاية الأرب (٢/٣٢٣) ، ابن خلدون (٢/٣٠٦) .

١١ طرفة الأصحاب (ص ٦٢) .

ابن قيس عيلان وعاثّ بطون عرفت بعبس ، وهي تسمية معروفـة وردت في الكتابات الصفوية والتدمريـة والنبطية [1] ، فهي من الأسماء القديمة المعروفة عند العرب الشماليين .

وتعد عبس جمرة من جمرات العرب ، وجمرات العرب هي : ضبّة بن أد ، وعبس بن بغيض ، والحارث بن كعب ، ويربوع بن حنظلة ، وبنو نمير بن عامر أو أقل من ذلك على حسب تعدد الروايات [2] . ويقصدون بالجمرة القبيلة التي لا تنضم الى أحد ، ولا تحالف غيرها ، وتصبر في قتال من يقاتلها من القبائل ، أو القبيلة التي يكون فيها ثلاث مئة فارس أو ألف فارس [3] . وهو تعريف لا يمكن ان ينطبق على قبيلة ما من القبائل ، حتى على هذه القبائل التي قالوا عنها انها الجمرات ، فلا بد في القتال بين القبائل من حلف ، ومن طلب مساعدة القبائل الأخرى . ولذلك نجد الأخباريين يذكرون ان بعض هذه القبائل طفئت لأنها حالفت القبيلة الفلانية . فذكروا ان ضبة طفئت لأنها حالفت الرباب ، وان الحارث طفئت لأنها حالفت مذحجاً ، وان عبساً طفئت أيضاً لانتقالها الى بني عامر بن صعصعة يوم جبلة [4] . وهكذا إذا استقيصت كلام الاخباريين الوارد في مناسبات أخرى عن هذه القبائل ، تجد انه يصادم ما قالوه من عدم تحالف القبائل المذكورة وانضمامها الى القبائل الأخرى . وظنّي ان شهرة عبس في الشجاعة خاصة من دون القبائل الأخرى إنما وردت اليها من هذا القصص المروي عن عنترة ابن شدّاد .

ومن ولد ذبيان [5] فزارة وسعد [6] ، وفي روايات أخرى ان والد سعد هو ثعلبة

١ Ency., I, P. 73.

٢ المحبر (ص ٢٣٤) .

٣ تاج العروس (١٠٧/٣) ، لسان العرب (٢١٥/٥) ، القاموس (٣٩٣/١) .

٤ من شعر ينسب لأبي حية النميري :

لنا جمرات ليس في الأرض مثلها ... كرام وقد جربن كل التجارب
نمير وعبس يتقى بفنائها ... وضبة قوم بأسهم غير كاذب

تاج العروس (١٠٧/٣)، لسان العرب (٢١٥/٥) ، منتخبات (ص ٢٢) .

٥ ابن خلدون (٣٠٦/٢) ، تاج العروس (٢٨٧/٦ ، ١٣٥/١٠) ، الصحاح (٤٧٧/٢) ، لسان العرب (٣٠٩/١٨) ، الاشتقاق (١٧١) .

٦ الاشتقاق (ص ١٧١) ، جمهرة (ص ٢٤٠) .

ابن ذبيان[1] . وولد سعد عوفاً ، وهو والد مُرّة وثعلبة [2] . ومن بني مرّة بن عوف خزيمة ، وغطفان ، وسنان . ومن بني سنان هَرِم بنُ سِنان ، وبنو يربوع بن غيظ بن مرة بن عوف ، ومنهم النابغة الذبياني ، والحارث بن ظالم ابن جذيمة بن يربوع بن غيظ من الفتاك ، ومن بني مرة بنو سهم بن مرة [3] . ومن بني ثعلبة بن سعد ، بنو بجالة بن ثعلبة بن سعد ، وبنو عجب بن ثعلبة بن سعد ، وبنو رزام بن ثعلبة بن سعد [4] .

وقد وقعت بين بني عبس وذبيان حروب عديدة ، سأتحدث عنها في الايام ، والظاهر انه كانت بين القبيلتين منافسة شديدة .

اما فزارة ، [5] فولد عديّاً ، وظالماً ، ومازناً ، وشمخاً [6] (سمخا) [7] (شمجا) [8] ، ومرّة . ومن بني عديّ : بغيض بن مالك بن سعد الذي اجتمعت عليه قيس في الجاهلية ، وبنو بدر بن عمرو بن حويّة بن لوذان بن ثعلبة بن عدي بن فزارة ، وهم بيت فزارة وعددهم ، وبنوه حذيفة الذي يقال له ربّ معد ، وحمل ، المقتولان يوم الهباءة ، ومالك ، وعوف ، المقتولان في حرب داحس والغبراء ، والحارث ، وربيعة ، وقد سادوا كلهم [9] . ومن بني ظالم ،

١ الاشتقاق (ص ١٧٤) ، كحالة (٢/٥١٤) .
٢ جمهرة (ص ٢٤٠) ، نهاية الأرب (٢/٣٢٤) .
٣ جمهرة (٢٤١) ، المحبر (١٩٢) .
٤ نهاية الأرب (٢/٣٢٤) .
٥ (فزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر) ، نهاية الأرب (٢/٣٢٤) ، لسان العرب (٦/٣٦١) ، القاموس (٢/٨٤ ، ١٤٩) ، تاج العروس ، (٣/٤٧٠) (٩/١١٧) ، المبرد (١١) ، أبو الفداء (١/١١٢) .
٦ الاشتقاق (ص ١٧١) ، القاموس (١/٢٦٢) ، لسان العرب (٣/١٣٣) ، ابن خلدون (٢/٣٠٦) ، تاج العروس (٢/٦٥) ، المقريزي . البيان (ص ٥٣) .
٧ (سمخ) هكذا ضبطه (لبفي بروفنسال) ، جمهرة (ص ٢٤٣) .
٨ (شمج) (شمخ) ، كحالة (٢/٦٠٨) ، بنو شمخ بن فزارة من ذبيان . قال ابن بري : قال الجوهري : بنو شمج من ذبيان بالجيم قال : والمعروف عند أهل النسب : بنو شمخ بن فزارة بالخاء المعجمة ساكنة الميم ، لسان العرب (٣/١٣٣) .
٩ جمهرة (ص ٢٤٣ وما بعدها) .

نعامة الذي يتمثل به في ادراك الثأر ، وكان فيه هوج ، ورويت له امثال كثيرة [١] .
ومن بني شمخ ، ظويلم المعروف بمانع الحريم ، (سُمّي بذلك لأنه خرج في الجاهلية يريد الحج ، فنزل على المغيرة بن عبد الله المخزومي ، فأراد ان يأخذ منه ما كانت قريش تأخذ ممن نزل عليها في الجاهلية ، ولذلك سُمّي الحريم . وكانوا يأخذون بعص ثيابه او بعض بدنته التي ينحر ، فامتنع عليه ظويلم ، وقال :

يا ربّ ، هل عندك من غفيره ان منى مانعه المغيره
ومانع بعد منى ثبيره ومانعي ربّي أنْ أزوره

وظويلم الذي منع عمرو بن صرمة الإتاوة التي كان يأخذها من غطفان) [٢] .

وتقع مواطن فزارة بنجد وبوادي القرى [٣] ، وانتشروا بعد ذلك – وخاصة في الفتوحات الاسلاميـة – في مواطن اخرى ، وذهبت بطون منهم الى شمال افريقية . وكان لحذيفة بن بدر رئيس فزارة اثر خطير في حرب داحس التي وقعت بين عبس وذبيان ، ولهم حروب وايام مع القبائل الاخرى مثل حربها مع عمرو بن تميم ومع التيم ومع هـوازن ومع بني جشم بن بكر ومع بني عامر . يذكرها اهل الاخبار في حديثهم عن الايام . وقد قاد حذيفة بن بدر فزارة ، ومرّة يوم النسار ، ويوم الجفار ، وفي حرب داحس حتى قتل فيها يوم الهباة [٤] . وقد عرف (حذيفة) هذا بـ (ربّ معد) [٥] . وكان ابنه (حصن) من سادات فزارة .

ومن بني مازن بن فزارة : بنو العشراء [٦] ، (وبنو سيّار بن عمرو الذي

---

١ الاشتقاق (ص ١٧١) .
٢ الاشتقاق (١٧٢) .
٣ الهمداني : الصفة (١٧٤ ، ١٧٧ وما بعدها) ، البكري (٦٣/١ ، ١٦٠ ، ٢٢٣ ، ٢٥٦ ومواضع أخرى) ، لسان العرب (٣٦١/٦) .
٤ المحبر (ص ٤٦١) .
٥ المحبر (ص ٢٤٩) . Ency., II, P. 93.
٦ (بنو العشراء ، وهو عمرو بن جابر بن عقيل بن هلال) ، الاشتقاق (ص ١٧٢) ، القاموس (٩٠/٢) ، لسان العرب (٣٥١/٦) ، المحبر (ص ١٣٥) .

رهن قومه بألف بعير ، وضمنها لملك من ملوك اليمن ، وذلك ان بني حارث بن مرّة ، قتلوا ابناً لعمرو بن هند ، فرهن سيّار قوسه [1] . ومن ولد سيّار ، زبّان ، وقطبة . ومن ولد قطبة هرم بن قطبة ، وهو من حكماء العرب ، واليه تحاكم عامر بن طفيل وعلقمة بن علاثة ، وكان ممن أدركوا الاسلام [2] .

وأما ولد أعصر بن سعد بن قيس عيلان [3] ، فهم : مالك ، ومن نسله باهلة ، وعمرو وهو غنيّ ، وأمها من همْدان ، وثعلبة وعامر ومعاوية ، وأمهم الطفاوة بنت جرم بن (زبان) [4] .

ومن ولد مالك ، سعد مناة ، وأمه باهلة بنت صعب بن سعد العشيرة من مذحج ، وبها عرف سعد مناة ونسله . ومعن بن مالك وهو الذي خلف أباه على باهلة ، ومن نسله عمارة بن عبد العزىّ ، قاتل عبد الدار بن قصيّ [5] . ومن بطون باهلة بنو قتيبة ، ومنهم بنو سهم ، وبنو أصمع ، ووائل بن معن [6] . وتقع منازل هـذه القبيلة في اليمامة في الأصل [7] ، ويظن بعض المستشرقين انها قبيلة (Bahilitae) (Pachylitae) التي ذكرها (بلينيوس) [8] . وقبيلة (Bliulaei) الوارد اسمها في جغرافية (بطلميوس) [9] .

١ الاشتقاق (ص ١٧٢) ، (سيار ذو القوس الذي رهن قوسه على الف بعير في قتل الحارث بن ظالم ، من النعمان الأكبر) ، المحبر (ص ٤٦١) .
٢ الاشتقاق (ص ١٧٢) ، المحبر (١٣٥) .
٣ تاج العروس (٣/٤٠٦) ، الصحاح (١/٣٦٦) ، لسان العرب (٦/١٤٦) ، كحالة (١/٣٥) .
٤ لسان العرب (١٩/٢٣٤) ، نهاية الأرب (٢/٣٣٤) ، جمهرة (ص ٢٣٣) ، الاشتقاق (ص ١٦٤) ، المبرد (ص ١٠) ، (الطفاوة) ، البلخي (٤/١٢٣) .
٥ جمهرة (ص ٢٣٣ ومابعدها) ، تاج العروس (٣/٤٠٦) ، وقد نسبت (باهلة) الى همدان كذلك ، الصحاح (٢/١٥٩) ، لسان العرب (١٣/٧٦) ، ابن خلدون (٢/٣٠٥) ، أبو الفداء (١/١١١) .
٦ المبرد (١٠) ، الاشتقاق (١٦٤ وما بعدها) ، منتخبات (ص ١٠) .
٧ (ديار باهلة) ، (أرض باهلة) ، مراصد (١/٣٠ ، ٤٩٦ ، ٢/٢٦) ، Ency., I, P 576, Blau, in ZDMG., 1869 (XXIII), S., 584.
٨ تاريخ العرب قبل الاسلام (٣/٣٢١) ، Pliny, 6, 32, Glaser, Skizze, II, P. 145.
٩ تاريخ العرب قبل الاسلام (٣/٤١٦) ، Blau, in ZDMG . (1898), 22, S, 670, 1869, 23, S, 584.

وأما غنيّ ، فقبيلة كانت ديارها في جوار طيء وعند حمى ضَريّة[1] . ومنها رباح بن الأشل ، وابن اخيه ثعلبة قاتل شأس بن زهيرة بن خزيمة العبسي . وقيل : ان رباحاً هو قاتل شأس . وكانت لهم ظاعنة ضحمة بالشام[2] . ومن بطون غنيّ عبد ، وزبان ، وصريم ، وضبينة[3] ، وبنو عتريف[4] . وكانت لهم حروب مع عبس ومع زيد الخيل . ومن اصنامهم التي عبدوها : اللآت ، ومناة ، والعُزّى[5] . ومن شعرائهم طفيل بن عمرو الغَنَوي[6] ، وكعب بن سعد الغَنَوي[7] .

ومن ولد خصفة بن قيس عيلان . عكرمة ، وأمه اخت كلب بن وبرة لأبيه[8] ، ومحارب[9] . ومن محارب : عامر بن وهب بن مجاشع المعروف بذي الرمحين ، وكان سيّد قومه ، وقد غزا باهلة وأوقع فيها ، وأسر منها ، وسبع الوارث ، وهو مالك بن عمرو بن حارثة بن عبد بن سلول الكيدبان ، واسمه عبد الله . القائل لرسول الله : (جملي احب اليّ من ربّك)[10] ، والعقب من

---

١ نهاية الأرب (٣٢٣/٢) ، البكري (٨٦٦/٣) (تحقيق السقا) ، الصفة (ص١٥٣ ، ١٧٠ ، ١٧٤) ، الأغاني (١٤٧/٧ ، ٩/١٠ وما بعدها) ، كحالة (٨٩٦/٣) ،
Ency. II. P. 584.

٢ جمهرة (ص ٢٣٦) .

٣ وفيهم يقول لبيد :

ابني كلاب كيف ينفى جعفر … وبنو ضبينة حاصروا الأجباب

الاشتقاق (١٦٥) ، المبرد (١٠) ،
Wustenfeld, Genea., 2 Abt., Taf., Register, S, 170.

٤ المبرد (١٠) ، Register, S. 170

٥ Ency., II, P 140

٦ Ency., II, P 140

٧ شيخو : شعراء النصرانيه (القسم الخامس في شعراء نجد والحجاز والعراق) (ص ٧٤٦) .

٨ لسان العرب (٣١٠/١٥) ، القاموس (١٥٣/٤) ، جمهرة (٢٤٧ وما بعدها) ، كحالة (٨٠٤/٢) .

٩ جمهرة (٢٤٧) ، نهاية الأرب (٣٢٣/٢) ، المبرد (١٢) ،
Wustenfeld, Geagea, Taf., F.

١٠ جمهرة (ص ٢٤٨) .

محارب لصلبه في فخذين : طريف ، وجسر [1] .

والفرع الثاني من فرعي خصفة ، فرع ضخم كبير بالقياس الى فرع محارب ، فهو يشتمل على ولد منصور بن عكرمة ، وهم : مازن ، وهوازن ، وسُليم ، وسلامان ، وأبو مالك [2] . ومن بني هوازن : بكر بن هوازن ، ومن ولد بكر : معاوية ، ومنبه ، وسعد ، ويزيد . وقد قتل معاوية ، فجعل عامر بن الظرب العدواني ديته مئة من الإبل . ويقول الاخباريون ان هذه اول دية قضي فيها بذلك ، وان لقمان كان قد جعلها قبل ذلك مئة جدي [3] . وفي بني سعد بن بكر ابن هوازن استرضع الرسول . ومن بطون بكر الاخرى : جشم بن معاوية بن بكر ، ومنهم بنو جداعة ، رهط دريد بن الصمّة ، وبنو سلول وهم بنو مرّة ابن صعصعة بن معاوية بن بكر ، وعامر بن صعصعة [4] .

وهوازن من القبائل العربية الضخمة ، وقد تفرعت منها قبائل كبيرة معروفة كانت لها شهرة بين القبائل . سكنت في مواضع متعددة من نجد على حدود اليمن وفي الحجاز [5] . ويظهر من انتساب هذه القبائل المعروفة الكبيرة اليها ، ثم من اقتصار اسم هوازن على قبيلة واحدة فيما بعد ، واختصاصها به ، أنها كانت في الأصل حلفاً ضم جملة قبائل ، ثم انفصل لعوامل سياسية واقتصادية مختلفة ، فلم يبق من ذلك الحلف الا الرابطة التأريخية التي بقيت في ذاكرة نسابي القبائل ، وهي رابطة النسب . وقد وقعت بين القبائل التي ترجع نسبها الى هوازن وبين قبيلة هوازن حروب عديدة .

وقد كانت هوازن في جملة القبائل الخاضعة للتبابعة ، فلما استقلت قبائل معدّ عن اليمن ، كانت هوازن في جملة من استقل من تلك القبائل . ولكنها أخذت تدفع الإتاوة لزهير بن جذيمة سيد عبس من غطفان . فلما قتل زهير ، استقلت من غطفان ، ولم تدفع الإتاوة اليها . ولما انتهت حرب عبس وذبيان ، وعقد الصلح بين القبيلتين المتنافستين ، وقعت حروب وأيام بين بطون غطفان

---

١ نهاية الأرب (٢/٣٢٣) .
٢ جمهرة (ص ٢٤٨) ، طرفة الأصحاب (ص ٦١) نهاية الأرب (٢/٣٢٣) .
٣ جمهرة (ص ٢٥٢) .
٤ المبرد (١٣) ، الاشتقاق (ص ١٧٧) ، طرفة الأصحاب (ص ٦١) .
٥ Ency , II, P 293, Blau, In ZDMG . 1869, 23, S , 586

وهوازن ، منها : يوم الرقم ، ويوم النباع ، ويوم اللوى ، دارت الدائرة فيها على هوازن ، كما وقعت بينها وبين قبائل كنانة وقريش وثقيف أيام عديدة [1] .

وكانت هوازن في جملة القبائل التي قاومت الاسلام . وقد غزاها الرسول ، بعد فتح مكة ، فتمكن منها ، ودخلت في الاسلام ثم ارتدت بعد وفاته ، ثم عادت مع التوّابين بعد ان غلبهم الخليفة أبو بكر الصديق .

وكان لهوازن صنم يعظمونه في عكاظ اسمه جِهار ، سدنته من آل عوف النصريين ، تشاركهم في عبادته محارب ، وكان في سفح أطْحَل [2] .

ومن ولد مُنبّه بن بكر بن هوازن بن منصور ، قَسيّ وهو ثقيف [3] . وولد قسي جشماً وعوفاً ودارساً [4] . وقد دخل ولده في الأزد . ومن بني عوف بن ثقيف ، الحجاج بن يوسف الثقفي . ومن بني غِيَرة بن عوف بن ثقيف ، الشاعر أمية بن أبي الصلت . والأخنس بن شريق ، والحارث بن كلدة وأبو عبيد بن مسعود ، والد المختار [5] . ومن بطون ثقيف الأخرى بنو عُقدة بن غيرة ، وبنو مُعتب ، وبنو حبيب ، وبنو اليسار بن مالك بن حطيط [6] . ومن بني مُعتب ، غيلان بن مسلمة بن معتب ، وكانت له وفادة على كسرى [7] .

ولثقيف حروب يظهر انها كانت في الغالب دفاعاً عن النفس ، إذْ نجد ثقيفاً تهاجم فيها في الطائف ، فتضطر عندئذ الى الدفاع عنها . وقد كان من أصنامها اللاّت ، وله بيت بالطائف على صخرة يضاهون به الكعبة بمكة . وكانوا يهدون

---

١ Ency., II, P., 293

٢ المحبر (ص ٣١٥) ، (أطحل) ، البكري (١٦٧/١) (طبعة السقا) ، البلدان (٢٨٢/١ وما بعدها) ، Ency., II, P., 293.

٣ ابن خلدون (٣٠٩/٢) ، الأغاني (٤٤/١٢) ، القاموس (١٢١/٣) ، لسان العرب (٣٦٣/١٠) ، الصحاح (١١/٢) ، الاشتقاق (١٨٣) .

٤ (جشم بن ثقيف) ، لسان العرب (٣٦٧/١٤) ، تاج العروس (٢٣٩/٨) ، الصحاح (٢٧١/٢) ، (جشم بن ثقيف) ، ابن خلدون (٣٠٩/٢) ، كحالة (١٤٨/١) .

٥ الجمهرة (ص ٥٢٦ وما بعدها) ، (غيرة بن عوف بن ثقيف) ، ابن خلدون (٣٠٩/٢) ، تاج العروس (٤٥٩/٣) ، الاشتقاق (١٨٥) ، كحالة (٩٠٢/٤) .

٦ المبرد (ص ١٣) ، الاشتقاق (ص ١٨٥ وما بعدها) .

٧ ابن خلدون (٣٠٩/٢) .

اليه الثياب لستّره بـه ، ويطوفون حوله . وسدنته من آل أبي العاص بن أبي يسار بن مالك من ثقيف[1] .

وولد سليم بن منصور ، بُهثة[2] (بُهتة) . ومن ولد بهثة الحارث ، وثعلبة ، وامرؤ القيس ، وعوف ، ومعاويــة . ومن بطون امرىء القيس ، بنــو عصيّة . ومــن بني عصية ، مالك ذو التاج ، وكرز ، وعمرو ، وهند ، وبنو خالد بن صخر بن الشريد . وقد توجت بنو سليم مالكاً ملكاً عليها ، وقتل مالكاً وكرزاً عبد الله بن جذل الطعان الكناني . وقــد اشتهرت بلاد بني سليم بالمَعدِن الذي فيها ، ولذلك قيل لهــا معدن بني سليم[3] . ومن بني الحارث بن بهثة بنو ذكوان[4] . ومن بني عبس بن رفاعة بن الحارث ، العباس بن مرداس[5] ، وهم من القبائل التي لعنها الرسول ، لقتلها أهل بئر معونة . وقد لعن الرسول بني عصية بن خفاف بن امرىء القيس بن بهثة كذلك للسبب نفسه[6] . ومن بني ثعلبة بن بهثة بن سليم حكيم بن أمية بن حارثة بن الأوقص ، وكان بمكة في الجاهلية محتسباً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر[7] .

وتعد قبيلة بني سليم من القبائل المهمة الساكنة في الحجاز في أرض اشتهرت بمعادنها وبخصبها ، وبها حِرارٌ منها : حرة بني سليم ، وحرة ليلى ، وبها مياه

---

١ المحبر (ص ٣١٥) .

٢ (بهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر) ، لسان العرب (٤٢٤/٢) ، الاشتقاق (١٩٢) ، الحماسة للتبريزي (٢٣١/١) صبح الأعشى (٣٤٥/١) .

٣ جمهرة (ص ٢٤٩ ، / ٢٥١) ، الصفة (١٥٤) .

٤ (ذكوان بن رفاعه بن الحارث بن رجا بن الحارث بن بهثة بن سليم) ، الاشتقاق (٢٨٧) لسان العرب (٣٠٧/١٣) ، تاج العروس (١٣٧/١٠) ، ابن خلدون (٣٠٧/٢) .

٥ (بنو عبس بن رفاعه بن الحارث بن رجا بن الحارث بن بهثة بن سليم) ، ابن خلدون (٣٠٧/٢) ، الأغاني (١٣٨/١١) ، الاشتقاق (١٨٨) .

٦ جمهرة (ص ٢٥١) ، الاشتقاق (ص ١٨٧ وما بعدها) ، ابن خلدون (٣٠٨/٢) ، نهاية الأرب (٣٢٣/٢) ، لسان العرب (٢٩٨/١٩) ، كحالة (٧٨٦/٢) .

٧ جمهرة (ص ٢٥١) .

استفادت منها القبيلة في الزرع . وتجاورهـا من القبائل غطفان وهوازن وهلال . وكانوا على صلات حسنة باليهود ، كما كانوا على صلات وثيقة بقريش . وقد تحالف معهم أشراف مكة وكبارها لما لهم من علاقات اقتصادية بهذه القبيلة [1] .

ويروى ان النعمان بن المنذر كان قد نقم على بني سُليم لأمر أحدثوه ، فأرسل عليهـم جيشاً ، ولكنه لم يتمكن منهـم ، وهزم الجيش [2] . ولبني سليم ككل القبائل الأخرى أيام : منها : يوم ذات الرَّمرمْ وهو لبني مازن على بني سُليم ، ويوم تثليث وهو بين مراد وبني سُليم [3] .

وكان لهم صنم يقال له (ضمار) كان عند مرداس والد العباس بن مرداس . فلما توفي مرداس ، وضعه العباس في بيت يتعبد له . فلما ظهر الاسلام ، أسلم ، وأحرق ذلك الصنم [4] .

وولد معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور أولاداً ، هم : نصر ، وجشم ، وصعصعة ، وعوف . ويسمون بنيه الوقَعَة [5] . وقـد دخلوا في بني عمرو بن كلاب بن الحارث [6] . ومن بني نصر معاوية ربيعة بن عثمان ، وهو أول عربي قتل عجمياً في يوم القادسية . ومن بني جشم بن معاوية ، دُريد بن الصمّة من

---

١ صبح الأعشى (١/٣٤٥ وما بعدها) ، Ency., IV, P. 518

٢ كحالة (٢/٥٤٤) . بعث النعمان بن المنذر جيشا (الى بنى سليم لشىء كـان وجد عليهم من أحله . وكان مقدم الجيش عمرو بن فرتنا ، فمر الجيش عـلى غطفان ، فاستجاشوهم على بني سليم ، فهزمت بنو سليم جيش النعمان ، وأسروا عمرو بن فرتنا ، فأرسلت غطفان الى بنى سليم . وقالوا ننشدكم بالرحم التي بيننا الا ما أطلقتم عمرو بن فرتنا . فقال أبو عامر هذه الأبيات ، أي لا نسب بيننا وبينكم ولا خله . أى ولا صداقه بعدما أعنتم جيش النعمان ، ولم تراعوا حرمـه النسب بيننا وبينكم) ، لسان العرب (٦/٤٢٨) .

٣ كحالة (٢/٥٤٤) .

٤ الأغاني (١٣/٩٢) .

٥ (بنو عوف بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور) ، الاشتقاق (١٧٧) ، لسان العرب (١٠/٢٩٠) ، القاموس (٢/٩٦) ، كحالة (٣/١٢٥١) .

٦ جمهرة (ص ٢٥٧) ، الصفه (١٢١) ، ابن خلدون (٢/٣١٠) ، تاج العروس (٢/٣٠٠ ، ٣٠/١٠٥ ، ٥٧٠ ، ٤/١٣) الاشتقاق (١٧٨) ، كحالة (٣/١١٨١) .

الفرسان المعروفين . ولهم حروب مع أسد وغطفان وعبس ، وكانت مواطنهم بالسروات [1] .

اما ولد صعصعة بن معاوية ، فهم : عامر ، ومرّة ويعرف أبناؤه ببني سلول نسبوا الى أمهم [2] ، وغالب وأمه تماضر ، وقد نسب ولده الى أمهم . وربيعة وأمة عويصرة ، واليها نسب . وعبد الله ، والحارث : وأمهما عادية [3] ، واليها نُسبا ، وكبير ، وعمرو ، وزبير وأمهم واثلة ، واليها نسبوا . وقيس ، وعوف ، ومساور ، وسيار ، ومشجور أمهم عدبة ، فنسبوا اليها [4] . ويلاحظ ان النسابين قد جعلوا لصعصعة عدة نساء ، ونسبوا الى هؤلاء النسوة أولادهن ، فعلوا ذلك للتمييز بين هؤلاء الأولاد ولا شك .

وذهب بعض المستشرقين الى احتمال كون بني عامر هم : (Hamırei) ، (Hamırou) ، (Hamırinoei) المذكورين في تأريخ (بلينيوس) [5] . وتقع منازلهم بين منازل قبائل هوازن وسالم وثقيف ، ولهم مع القبائل الأخرى مثل بني حنيفة وعبس وذبيان وفزارة وتميم وبني نهد وسعد والرباب حروب عديدة ، ترد أخبارها في الأيام .

ومن نسل عامر بن صعصعة : ربيعة ، وهلال ، ونمير ، وسواءة . ومن بني ربيعة بن عامر بن صعصعة كلاب ، وعامر ، وكليب [6] . ومن بني عامر

١ جمهرة (ص ٢٥٨) ، ابن خلدون (٢/٣١٠) ، الاشتقاق (١٧٧) ، ابو الفداء (١/١١١) ، لسان العرب (١٤/٣٦٨ ، ١٥/٢٨٧) ، تاج العروس (٤/٥٢) ، ٨/٢٢٩ ، ٩/١٤٦) ، القاموس (٢/٣٢٧ ، ٤/٤٤) ، الصحاح (٢/٢٧١) ، صبح الأعشى (١/٣٤٣) ، المحبر (٢١١ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩) .

٢ (وهي ابنة ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل) تاج العروس ، (٧/٣٧٨) ، لسان العرب (١٣/٣٦٥) ، الصحاح (٢/١٩٩) ، ابن خلدون (٢/٣١٠) ، القاموس (٣/٣٩٧) ، جمهرة (ص ٢٥٩) .

٣ تاج العروس (١٠/٢٣٨) ، كحالة (٢/٧٠١) .

٤ جمهرة (ص ٢٥٩) .

٥ Ency., I, 329

٦ جمهرة (ص ٢٦٣ وما بعدها) ، صبح الأعشى (١/٣٤٠ وما بعدها) ، الاشتقاق (١٧٨) ، ابن خلدون (٢/٣١٠) ، تاج العروس (٧/٣٥٠) ، القاموس (٢/١٤١) ، لسان العرب (٣/٢٧٢ ، ٦/٢٨٦) ، كحالة (٢/٧٠٨ وما بعدها) .

ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، معاوية ذو السهمين ، لأنه كان يأخذ سهمه من غزوات بني عامر ، أقام أو غزا[1] . وبنو عمرو بن عامر المعروف بـ (فارس الضحياء)[2] . ومن بني كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة[3] . وهم خالد الأصبغ وربيعة الأحوص ، ومالك الطيّان ، أمهم بنت رياح بن الأشل الغنويّ . وعتبة ، وعوف ، أمهما فاطمة بنت عبد مناف بن قصيّ بن كلاب . فولد الأحوص عوفاً ، وعمراً ، وشريحاً ، قاتل لقيط بن زرارة يوم جبلة ، وقد سادوا جميعاً . ومن عوف بن الأحوص علقمة بن علاثة الذي نافر عامر ابن الطفيل[4] .

ومن نسل خالد بن جعفر بن كلاب أرْبَدْ بن قيس بن جزء بن خالد ، وهو الذي أراد مع عامر بن الطفيل قتل رسول الله[5] . ومن نسل مالك بن جعفر ابن كلاب ، عامر ، وهو أبو براء ربيعة ملاعب الأسنة ، والطفيل ، وهو والد عامر بن الطفيل ، ولبيد الشاعر[6] . ومن نسل عتبة بن جعفر بن كلاب عروة الرحّال بن عتبة بن جعفر الذي أجار لطيمة الحيرة ، فقتله البرّاض الكناني ، ومن أجله كانت حرب الفجار . وابنته كبشة هي أم عامر بن الطفيل ، ولدته يوم جبلة[7] .

ومن نسل عمرو بن كلاب الصعق ، وهو عمرو بن خويلد بن نفيل بن عمرو ابن كلاب . وكان سيداً يطعم بعكاظ ، ومن ولده الشاعر يزيد بن عمرو الصعق[8] . ومن بني الضباب بن كلاب بن ربيعة شَمِر بن ذي الجوشن قاتل

---

١ جمهرة (ص ٢٦٤ وما بعدها) .
٢ جمهرة (ص ٢٦٤) ، المحبر (ص ٤٥٨) .
٣ الأغانى (١٣٢/١١ ، ٥٢/١٥ وما بعدها) ، المحبر (ص ٢٥٣) ، جمهرة (٢٦٤ وما بعدها) الاشتقاق (١٨٠) ، كحالة (١٩٥/١) .
٤ جمهرة (٢٦٧ ، وما بعدها) .
٥ الاغاني (١٣٧/٥ وما بعدها) ، جمهرة (ص ٢٦٨) .
٦ الاغاني (٩٣/١٤) ، جمهرة (ص ٢٦٨) ، المحبر (٢٥٤ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣) .
٧ جمهرة (ص ٢٦٨ وما بعدها) .
٨ جمهرة (ص ٢٦٩) ، الاشتقاق (ص ١٨٠ وما بعدها) .

الحسين بن علي[1] . ومن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة جَعدة ، والحَريش ، وعُقيل ، وقشير ، وعبد الله ، وحبيب . ومن ولد عبد الله نهم والعجلان[2] ، وهم قبيلة . ومن جعدة الشاعر النابغة الجعدي[3] . ومن بني قُشير مالك ذو الرقيبة بن سلمة الخير الذي أسر حاجب بن زرارة يوم جبانه . ومن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، المنتفق بن عامر بن عقيل ، وهم بطن ، وربيعة بن عامر ، ومنهم الحارث الأبرص قاتل زيد بن عمرو بن علس يوم جبلة ، وبنو خفاجة بن عمرو بن عقيل .

وتقع منازل الضباب في أرض كلاب ، ومن بطونهم ضبّ وضبيب وحسل وحسيل ، وقد وقعت بينهم وبين جعفر بن كلاب يوم عرف بيوم حرابيب[4] ، ويوم آخر عرف بيوم هراميت[5] .

وأما منازل جعدة ، فهي في الفلج من اليمامة[6] . وأما الحريش ، فكانت منازلهم باليمامة ، واشتركت في يوم الرحرحان[7] . وكانت مساكن عقيل بالبحرين ، وهاجروا الى العراق ، وكان لهم أثر ملحوظ في تأريخ العراق في الإسلام .

والفرع الثاني من فروع مضر ، هو من نسل الياس[8] ، ويتكون هذا الفرع من ثلاث كتل : طابخة ، وقمعة ، ومدركة . ولكلّ كتلة من هذه الكتل قبائل وبطون .

١ جمهرة (٢٧٠) ، الميداني (٢٦٩/٢) ، العمدة لابن رشيق (١٥٧/٢ ، ١٦٧) ، كحالة (٦٦٠/٢) ، الاشتقاق (ص ١٨٠) .

٢ جمهرة (ص ٢٦٩ وما بعدها) ، الاشتقاق (١٨١) .

٣ جمهرة (ص ٢٧٣) ، الاشتقاق (ص ١٨١) ، صبح الأعشى (٣٤١/١ وما بعدها) ، الأنساب للمقدسي (ص ١١٠) ، نهاية الأرب (٣٢٢/٢) ، كحالة (٨٠١/٢) .

٤ كحالة (٦٦٠/٢) ، نهاية الارب (٣٢١/٢) .

٥ (هراميت بالفتح وكسر الميم ثم ياء وتاء مثناة) ، (يوم الهراميت) البلدان (٤٥٠/٨) ، البكري (١٣٠٥/٤) وبهذا الموضع آبار ينسبون حفرها الى لقمان ابن عاد ، مما يدل على أنها من الآبار القديمة .

٦ Ency, I, P 991

٧ الاشتقاق (١٨٣) ، كحالة (٢٦٧/١) .

٨ صبح الأعشى (٣٤٦/١) ، سبائك الذهب (ص ٢١) ، جمهرة النسب (ورقة٤) .

أما طابخة ، واسمه عمرو (عامر) [1] ، فهو والد ولد يسميه النسّابون أداً ، وأد والد عدة أولاد هم : مرّ ، وضبّة ، وعمرو وهو مزينة ، وعبد مناة ، وحميس (خميس) . وذكروا ان بني حميس ، شهدوا يوم الفيل مع الحبشة ، فقتلوا ، فقل نسلهم [2] .

أما ضبّة بن أد ، فولد سعد بن ضبّة ، وسعيد ولا عقب له ، قتله الحارث ابن كعب ، ثم قتل ضبّة الحارث بن كعب ، وفي ذلك سارت الأمثال الثلاثة : (أسعد أم سعيد) و (الحديث ذو شجون) و (سبق السيفُ العذلَ) قالها كلها ضبة [3] ، وباسل بن ضبّة . ويذكر الأخباريون ان الديلم من نسله . وولد سعد ابن ضبّة بكر بن سعد ، وثعلبة ، وصريم . ومن بكر بن سعد ضرار بن عمرو ابن مالك ، سيد بني ضبّة . وقد شهد يوم القرنتين ، والمفضل بن يعلى صاحب المفضليات ، وحبيش بن دلف بن العون ، وكان ينازع ضرار بن عمرو الرياسة وحضر يوم القرنتين ، وبني تيم بن ذهل [4] .

وتعد ضبّة جمرة من جمرات العرب التي أشرت اليها ، وتقع منازلها في اليمامة ، وفي خلال الحروب التي وقعت بين عبس وذبيان دخلت عبس أرض ضبّة ، ولكنها اضطرت الى مغادرتها بعد النزاع الذي حدث بين عبس وضبّة . وجاورت بني عامر بن صعصعة . وفي يوم (جَبَلة) ، وهو من الأيام المشهورة التي وقعت بعد يوم رحرحان بعام ، ويصادف ذلك عام مولد النبي على رواية [5] . أو قبل مولده بسبع عشرة سنة على رواية أخرى [6] . كانت ضبة مع ذبيان وتميم

١ (عامر) جمهرة النسب (ورقة ٤) ، ابن خلدون (٢/٣١٥) ، صبح الأعشى (١/٣٤٧) ، جمهرة (١٨٧ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٢/٣٢٥) .
٢ (حميس) ، جمهرة (ص ١٨٧) ، ويختلف النسابون فيما بينهم في عدد ولد طابخة ، سبائك الذهب (ص ٢٥) ، نسب قريش (ص ٨) ، المبرد (ص ٦) ، ابن خلدون (٢/٣١٥) ، (بنو خميس) نهاية الأرب (٢/٣٢٥) ،
Wustenfeld, Genea., Taf., J.
٣ الميداني : مجمع الأمثال (١/٣٥٠ ، ٩٩ ، ٥٩٩ ، ٦٠١) .
٤ جمهرة (ص ١٩٢ وما بعدها) .
٥ البكري (٢/٣٦٥) (طبعة السقا) (مادة جبلة) ، نهاية الأرب (١٥/٣٥٠ وما بعدها) .
٦ البلدان (٣/٥٢) .

وأسد والرباب وفزارة في مهاجمة بني عامر بن صعصعة [1] . وبالرغم من كثرة هذه القبائل ، تمكنت بنو عامر من الظفر به ومن إلحاق الهزيمة بتميم وبمن ضامها . والى مشورة قيس بن زهير العبسي يعود الفضل في انتصار بني عامر . وفي رواية ان لقيطاً استنجد أيضاً بالنعمان بن المنذر ، فأنجده بأخيه لأمه حسّان ابن وبرة الكلبي ، وبصاحب هجر وهو الجون الكندي ، فأنجده بابنيه معاوية وعمرو وغزا بني عامر [2] . وقد أصيب تميم ومن كان معها من القبائل بخسائر ، وبوقوع عدد من الزعماء أسرى في أيدي بني عامر ، فقتل في هذا اليوم لقيط بن زرارة ، وأسر حاجب بن زرارة ، أسره ذو الرُقيبة ، وأسر سنان بن أبي حارثة المرّي وجزت ناصيته ، وأُطلق إمعاناً في امتهانه ، وأسر عمرو بن عدس وجزت ناصيته كذلك ثم أخلي سبيله . وقتل معاوية بن الجون ، ومنقذ بن طريف الأسدي ، ومالك بن ربعي بن جندل [3] . ويعد حزّ الناصية بعد الأسر خاصة من أشد درجات الامتهان ، ولا سيما جزّ نواصي السادة والرؤساء .

وفي يوم النسّار ، لحقت ضبّة وعديّ بأسد وطيء وغطفان في غزوهم لبني عامر ، وقد ألحقوا خسائر فادحة ببني عامر ، وهذا مما غاظ تميماً ، فجعلها تلحق طيئاً وغطفان وحلفاءهم من ضبّة وعديّ يوم الفجار ، حتى قتلت من طيء أكثر مما قتلت طيء يوم النسار [4] .

ومن ذُرية عبد مناة بن أد : تيم [5] ، وعديّ ، وعوف ، وثور ، وأشيب . وهؤلاء هم الرّباب ، لأنهم تحالفوا مع بني عمهم ضبّة على بني عمهم تميم بن

---

١ Ency . I, P 884.

٢ البكري (٢/٣٦٦) .

٣ نهاية الأرب (١٥/ ٣٥٠ وما بعدها) .

٤ (يوم الفجار) نهاية الأرب (١٥/ ٤٢١) ، (يوم الحمار) ، البكري (٤/ ١٣٠٦) (تحقيق السقا) ، مادة ، (النسار) ، (النسار .... جبال صغار كانت عندها وقعة بين الرباب وبين هوازن وسعد بن عمرو بن تميم ، فهزمت هوازن ، فلما رأوا العلبة ، سألوا ضبة أن تشاطرهم أموالهم وسلاحهم ويخلوا عنهم) ، البلدان (٨/ ٢٨٤) .

٥ المبرد (ص ٦) ، الاشتقاق (ص ١١٤) ، تاج العروس (٨/ ٣١٦) ، كحالة (١/ ١٣٨) .

مرّ ، فغمسوا أيديهم في رُبّ[1] . ومن بني عوف بن عبد مناة بنو عكل . ومن بني عمرو بن أد : مزينة ، نسبوا الى أمهم مُزينة بنت كلب بن وبرة[2] . وتقع ديار الرباب بالدهناء في جوار بني تميم[3] .

ومن ولد أد بن طابخة مرّ بن أُد[4] فولد مرّ تميماً وثعلبة ، وهو ظاعنة ، وبكر بن مرّ ، وهو الشعيراء ، ومحارب بن مرّ ، وهو صوفة . ومن النساء برة أم النضر ، وملك وملكان بني كنانة . وهي أيضاً أم أسد بن خزيمة ، وهند ابنة مرّ وقد ولدت بكراً وتغلب وعنز بني وائل بن قاسط ، وتُكمة بنت مرّ وقد ولدت غطفان بن سعد ، وسُليماً وسلامان بن منصور ، وجديلة بنت مرّ وقد ولدت فهماً وعدوان ، واليها ينسبون ، وعاتكة بنت مرّ . وهي والدة عذرة ابن سعد وإخوته[5] .

وأما صوفة ، فانهم كانوا يجيزون بالحاج . وقد انقرضوا عن آخرهم في الجاهلية ، فورث ذلك آل صفوان بن شجنة (سجنة) (شحمة) ، من بني سعد بن زيد مناة بن تميم[6] . ومن هؤلاء على رواية كان عامر بن احيمر السعدي

١ جمهرة (ص ١٨٧) ، (فالرباب ، تيم ، وعدى ، وعكل ، ومزينة ، وضبة ، وانما سموا الرباب لانهم تحالفوا ، فقالوا اجمعوا كاجتماع الربابة . وهي خرقة تجمع فيها القداح . وقال قوم : بل غمسوا أيديهم في رب وتحالفوا . والقول الأول أحسن) ، الاشتقاق (ص ١١١)، المبرد (ص ٦) ابن خلدون (٣١٨/٢) ، لسان العرب (٣٨٨/١) (والرباب : ولد تيم بن عبد مناة وعدى بن عبد مناة وعوف بن عبد مناة : سموا الرباب لانهم غمسوا أيديهم في رب ، اذ تحالفوا على بني تميم . قال : ومن النسابين من يجعل الرباب بني تميم وعدى وثور وعكل وهم بنو عبد مناة وضبة بن أد) ، نهاية الأرب (٣٢٩/٢) .

٢ جمهرة (ص ١٩٠) ، صبح الأعشى (٣٤٨/١) ، ابن خلدون (٣١٨/٢) ، الاشتقاق (١١١) ، ابو الفداء (١١٢/١) ، تاج العروس (٣٤٥/٩) ، لسان العرب (٢٩٤/١٧) ، القاموس (٣٦٦/١) ، كحالة (١٠٨٣/٣ وما بعدها) .

٣ ابن خلدون (٣١٨/٢) ، كحالة (٤١٥/٢) .

٤ المبرد (ص ٦) ، الصحاح (٣٩٨/١) ، نهاية الأرب (٣٢٥/٢) ، ابن خلدون (٣١٥/٢) .

٥ جمهرة (١٩٥ وما بعدها) ، (طابخة ، مر ، أد) ، سبائك الذهب (ص ٢٥) .

٦ القاموس (١٦٤/٣)، (وبنو صوفة ، وهم ولد الغوث ، وهو الربيط بن مر) ، نهاية الأرب (٣٢٥/٢) ، (شحمة) ، ابن خلدون (٣١٩/٢) ، (سجنة) ، كحالة (٦٥٥/٢) الصحاح (٣٩/٢) ، اللسان (١٠٢/١١) ، جمهرة (١٩٦) .

الذي حصل على بردي مُحوّق من النعمان بن المنذر في مجلس مفاخر حضرته وفود العرب عقد بحضره النعمان بن المنذر في الحيرة. وقد بزّ عامر هذا الحاضرين في الفخر وفي الانتساب على الطريقة المألوفة. ولما سأله النعمان: بِمَ أنت أعز العرب؟ قال: العزُّ والعدد من العرب في معدّ، ثم في نزار، ثم في تميم، ثم في سعدّ، ثم في كعب، ثم في عوف، ثم في بهدلة، فمن أنكر هذا من العرب فلينافرني؟ فلما لم ينافره أحد، ذهب بالبردين [١].

وتميم من القبائل العربية الكبيرة المعروفة، وقد نعتهم ابن حزم بقوله: (وهم قاعدة من أكبر قواعد العرب) [٢]. وتعدّ في مقابل قيس وربيعة، وهي الممثلة لمجموعة مضر في بعض الأحيان. وهي أقرب جغرافياً وتأريخياً الى قيس وربيعة منها الى كنانة [٣]. ومعارفنا عن تأريخها مستمدة مثل معارفنا عن القبائل الأخرى المماثلة من الروايات المدوّنة في كتب الأخباريين [٤].

ويزعم الأخباريون ان جدّ هذه القبيلة مدفون في موضع (مُرّان) [٥]، وهم يروون قصصاً عنه وعن ميلاد أولاده من هذا النوع الذي ألفنا وروده عن الأخباريين [٦].

ولا نستطيع في الوقت الحاضر ان نرتقي بتأريخ تميم عن القرن السادس للميلاد، فليست لدينا موارد تأريخية يعتمد عليها ترفع تأريخ هذه القبيلة الى

---

١ وفيه يقول الفرزدق:

فما تم في مسعد ولا آل مالك ... علام اذا ما قيل لم يتبهدل

لهم وهب النعمان بردي محرق ... بمجد معد والعديد المحصل

وفي أهل هذا البيت من سعد بن مناة، يقول أوس بن مغراء السعدي:

ولا يريمون في التعريف موقفهم ... حتى يقال أجيزوا آل صفوانا

العقد الفريد (٢/٦٥)، (تحقيق محمد سعيد العريان).

٢ جمهرة (ص ١٩٦).

٣ Ency., IV, P. 643

٤ ابن قتيبة: المعارف (٣٧ وما بعدها) (طبعة وستنفلد)، جمهرة النسب (ورقة ٦٢ وما بعدها)، الاشتقاق (ص ١٢٣ وما بعدها)، الأغاني (٤/٧ وما بعدها)، ١٢/٣٦، ١٥/٦٩ وما بعدها)، ابن خلدون (٢/٣١٥)، أبو الفداء (١/١١٢).

٥ البلدان (٨/٧).

٦ Ency., IV, P 644

ما قبل ذلك ، ولا يعني هذا اننا ننكر ان يكون لها تأريخ قديم ، اذ يجوز ان يكون لهـا عهد اقدم من هذا العهد الذي نتحدث عنه . ولكننا لا نملك الآن نصوصاً جاهلية او موارد اسلامية يُطْمأن اليها ، ترجع تأريخ تميم الى ما قبل هذا القرن .

اما في القرن السادس ، فقد كانت تميم قبيلة بارزة ظاهرة ، بطونها منتشرة في العربية الشرقية ، وفي نجد وفي العراق ، وفي انحاء مختلفة من جزيرة العرب ، مجاورة لقبائل معروفة مثل اسد وغطفان وبني عبد القيس وتغلب ، متصلة بها . ومن بني دارم من تميم كان المنـذر بن ساوى حاكم البحرين والذي أسلم في ايام الرسول [١] .

وكانت لتميم صلات متينة بملوك الحيرة ، وكان من عادتهم جعل الردافة في بطن من بطونهم ، وهو بطن بني يربوع . وقد ثار هذا البطن وهاج ، لما حولت الردافة الى بطن آخر من بطون تميم ، هو بطن بني دارم ، ولم يقبلوا الا برجوعها اليهم ، لما كان للردافة من مكانة ومنزلة في ذلك الوقت [٢] .

ونجد في كتاب الاخباريين اسماء ايام عديدة وقعت بين تميم وغيرها من القبائل ، خاصة قبـائل بكر بن وائل ، كما نجد اشارات الى حروب وقعت بينهم وبين بعض ملوك الحيرة . وقد اشرت الى القصص الذي يرويه اهل الأخبار عن غزو (سابور ذي الاكتاف) لجزيرة العرب والى ما زعموه من تنكيله بالقبائل وانتزاعه اكتافهم ، ومن هذه القبائل قبيلة تميم [٣] . ويذكر الاخباريون ايضاً ان (كسرى برويز) (كسرى أبرويز) (Khusrawparwez) ، كتب الى عامله على هجر ، وهو (المكعبر) ، ان ينتقم من تميم ، لتعرضها لقافلة كانت محملة بالتجارات وبالهدايا مرسلة اليه ، فقتل المكعبر بالمشقر عدداً كبيراً منهم [٤] .

ولتميم صلات متينة برجال مكة ، وقد كان لرجالهم ذكر وخبر في سوق

---

١ Ency., IV, P. 644.

٢ Ency., IV, P. 945.
Journal of the Economic and Social History of the Orient, Vol., VIII, 1965 PP. 113.

٣ Noldeke, Geschichte der Perser und Araber, S., 56.

٤ Ency., IV, P. 645

(عكاظ) . فنهم كان حكّام الموسم . كما تولوا القيام ببعض مناسك الحجّ . وقد صاهرهم بعض رجال مكة .

ويظهر من بعض روايات الاخباريين ان تميماً وبقية القبائل المنتمية الى (أُد) كانت تتعبد لـ (شمس) . وكان لشمس بيت (تعبده بنو أُد كلها : ضبّة ، وتميم ، وعدي ، وعُكل ، وثور . وكان سدنته من بني أوس بن مخاشن بن معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم ، فكسره هند بن أبي هالة بن أسيد بن الحلاحل بن أوس بن مخاشن) [1] . وعبدت طائفة من تميم (الدَّبَران) من النجوم ، ولهم قصة عن هذه النجوم [2] .

وكان بعض تميم على النصرانية ، ومنهم علي بن زيد العبادي ، كما كان بعض منهم من دان بالمجوسية ، ومن هؤلاء زرارة بن عدس التميمي وابنه حاجب ابن زرارة والأقرع بن حابس [3] .

وفي شواهد كتب النحو والصرف امثلة عديدة من لهجة تميم [4] ، وهي تشير الى وجود فوارق ومميزات في تلك اللهجة تميزها عن اللهجه التي نزل بها القرآن الكريم . وقد اخرجت هذه القبيلة عدداً من الشعراء في الجاهلية والاسلام . وللاستشهاد بلهجة تميم ، ولوجود عدد من الشعراء الذين يعدون من كبار الشعراء عند علماء الشعر ، اهمية كبيرة ولا شك في دراسة اللهجات العربية ، وعلاقاتها بلهجة القرآن الكريم [5] .

وقد أدى تعدد بطون تميم وانتشارها الى نشوب حروب بينها ، والى تكتلها كتلاً وتكوين احلاف بينها ، كالحلف الذي كان بين بني يربوع وبني نَهْشَل . وقد نسب لأبي اليقظان النسابة كتاب في احلاف تميم اسمه : (كتاب حلف تميم بعضها بعضاً) [6] .

---

١ المحبر (ص ٣١٦) .

٢ بلوغ الأرب (٢/٢٣٩) .

٣ بلوغ الأرب (٢/٢٣٣ وما بعدها) .

٤ ابن فارس : الصاحبي (٢٤) . المزهر (١/٢١١) ، السيوطي : الاتقان (ص١٠٩) .

٥ Voller, Volkssprache und Schriftsprache in Alten Arabien, S. 8ff., Ency., IV, P. 645.

٦ الفهرست (ص ٩٤) ، Ency, IV, P 644.

وبطون تميم عديدة ، تفرعت على رأي النسابين من الحارث ، وعمرو ، وزيد مناة اولاد تميم [1] . ومن ولد عمرو : العنبر ، والهجيم ، وأسيد ، ومالك ، والحارث ، وقليب [2] . والحرماز ، وكعب على رواية اخرى [3] . ومن بطون بني كعب بنو فهد . وقد عرف نسل الحارث بالحَبِطات [4] . ومن بطون بني مالك ابن عمرو بن تميم : مازن ، والحرماز ، وغيلان ، وغسان [5] . ومن بني أسيد ابن عمرو بن تميم بنو كاهل ، ومنهم أوس بن حجر الشاعر الجاهلي المعروف . وكان شاعر مضر حتى أسقطه زهير [6] ، وبنو شريف ومنهم أكثم بن صيفي من حكماء العرب في الجاهلية ، وحنظلة بن ربيعة ، ابن اخي اكثم . وقد كتب للنبي الوحي [7] . ومن بني مالك بن زيد مناة بن تميم البراجِم ، وبنو دارم [8] ، ومن بني حنظلة بنو يربوع ، ومن بني يربوع بنو ثعلبة [9] ، ومن بني الحارث بن يربوع بنو سليط ، ومن نسل مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم : بنو فُقَيم ، وبنو نهشل ، وبنو مجاشع [10] ، وفي بني رياح بن يربوع كانت ردافة قبل الاسلام [11] ، ومن بني العنبر بن يربوع كانت سجاح [12] .

١ جمهرة (ص ١٩٦) ، (وبنو أسد بن عمرو بن تميم) ، هكذا في الصفحة (٤٣٥)، من الجمهرة ، (والحارث أبا شعرة ، وانما سمى أبا شعرة لبيت قاله :
وقد اخضب الرمح الاصم كعوبه   به من دماء القوم كالشقراب
المبرد (ص ٦) ، الانباه (٧٦) الاشتقاق (١٢٦) ، المعارف (٢٦) .
٢ جمهرة (ص ١٩٧) ، المبرد ص (٧) ، الاشتقاق (١٢٦) ، المعارف (٢٦) .
٣ الاشتقاق (ص ١٢٣ وما بعدها) ، المبرد (ص ٧) .
٤ المبرد (ص ٧) ، الاشتقاق (ص ١٢٤) ، العقد (٢/٢٢٢) .
٥ الاشتقاق (ص ١٢٤) ، جمهرة (ص ٢٠٠) .
٦ الاشتقاق (ص ١٢٧) .
٧ الاشتقاق (ص ١٢٧) ، جمهرة (ص ٢٠٠) .
٨ الانباه (ص ٧٦ وما بعدها) ، جمهرة (ص ٢١٢) ، المبرد (ص ٧) ، طرفة الأصحاب (ص٦٠) .
٩ جمهره (٢١٣) ، الاشتقاق (ص ١٢٥) ، المبرد (ص ٧) .
١٠ جمهره (ص ٢١٧ وما بعدها) ، المبرد (ص ٧) ، (وأما تميم بن مر ، فهي قبيلة كبيرة ، ترجع الى طابخة بن الياس بن مضر ، فبطونها . دارم ومجاشع) ، طرفه الأصحاب (ص ٦٠) الاغاني (١٢/٤٨) ، نهاية الأرب (٢/٣٢٦ وما بعدها) .
١١ المبرد (ص ٨) ، الاشتقاق (١٣٥) ، العمدة لابن رشيق (٢/١٦٥)، تاج العروس (٥/٣٥٨) ، لسان العرب (٣/٢٩٥) ، كحالة (٢/٤٥٧) .
١٢ المبرد (ص٨) ، جمهرة (٢١٥) ، صبح الأعشى (١/٣٤٨) ، ابن خلدون (٢/٣١٧) ، كحالة (٢/٨٤٥) .

وذكر (البلاذري) ان (بكر بن وائل) أغارت على (بني عمرو بن تميم) يوم (الصليب) ، ومعها ناس من الاساورة ، فهزمتهم بنو عمرو وقتلت (طريفا) رأس الأساورة [1] . وذكر ان (بكراً) كانت تحت يدِ كسرى وفارس ، فكانوا يقوونهم ويجهزونهم . وكان يشرف عليهم عامل (عين التمر) [٢] . ويظهر ان (بني عمرو) ، كانوا قد اعتدوا على (عِيرِ كسرى) ، فجهز (بكر بن وائل) عليهم .

اما بنو قمعة بن الياس ، فهم من نسل عامر بن قمعة ، واسم قمعة عمير [٣] . وقد ولد عامر أفصى وربيعة وهي لحيّ ، فولد لحيّ عامر بن لحيّ ، وولد عامر ابن لحيّ عمْراً وهو عمرو بن لحي ، نسب الى جدّه ، فعرف بعمرو بن لحيّ . وهو على قول الاخباريين اول من غير دين اسماعيل ودعا العرب الى عبادة الأوثان [4] .

وأشهر بطون قمعـة أسلم ، وخزاعه في رأي بعض النسابين [٥] . ولم يشر الى عقب يذكر لقمعة بعض آخر من علماء الانساب [٦] . اما اسلم ، فهم بنو أفصى ابن عامر بن قمعة ، وأما خزاعة ، فهم بنو عمرو بن عامر بن لحيّ وهو ربيعة . وقد كانت مواطن خزاعة في انحاء مكة في مرّ الظهران وما يليه . وكانوا حلفاء لقريش . ودخلوا في عام الحديبية في عهد رسول الله ، وقد ذهب بعض النسابين كما اشرت سابقاً الى ذلك ان خزاعة من غسان ، وانها من نسل حارثة بن عمرو (عامر) مزيقياء ، وانها اقامت بمرّ الظهران حين سارت غسان الى الشام ، وتخزعوا عنهم ، فَسمُّوا خزاعة . والى نسبة خزاعة الى غسّان ذهب نسابو خزاعة [٧] .

---

١ M J. Kister, in Journal of the Economic and Social History of the Orient, p 114.

٢ النقائض (٥٨١) .
٣ نسب قريش (ص ٨) .
٤ الجمهرة (ص ٢٢٣) ، (ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : أول من سيب السائبة ، وبحر البحيرة ، وحمى الحامي ، عمرو بن لحى بن قمعة . رأيته في النار يجر قصبة . واشبه ولده به أكثم بن أبي الجون . فقال أكثم . أيضرني ذلك يا رسول الله ؟ قال . أنت مؤمن ، وهو كافر) ، نسب قريش (ص٨) .
٥ ابن خلدون (٢/٣١٥) ، جمهره (ص ٤٣٧) .
٦ صبح الأعشى (١/٣٤٨) .
٧ نسب قريش (ص ٨) .

ومن صلب عمرو بن لحيّ ، اي خزاعة ، بنو سلول بن كعب بن عمرو بن عامر بن لحيّ ، ومنهم قمير (قمر) ، ومطرود ومازن وسعد وحليل ، وحُبْشيّة وهم بطن ، وهو حاجب الكعبة [1] . ووالد حُبّي التي تزوجها قُصيّ بن كلاب . ومن نسل حليل ابو غبشان ، واسمه المحترش ، باع الكعبة بزق خمر من قصيّ ابن كلاب . ومن ولد حبشية بن كعب بن عمرو بن عامر بن لحي : حرام ، وغاضرة [2] . ومن نسل بني عوف بن عمرو بن عامر بن لحيّ : جفنة (بنو جهينة) ، وهم عباد بالحيرة . ومن نسل سعد بن عمرو بن لحي بنو المصطلق . ومن بني افصى بن عامر بن قمعة بن عامر بن قمعة : بنو اسلم ، وسلامان وهوازن ، وبنو ملكان بن افصى بن عامر بن قمعة وبنو مالك بن افصى [3] .

وقد تحدثت سابقاً عن رأي نسابي اليمن في خزاعة ، وعدّها من جماعة قحطان . ونظراً لعد بعض النسابين اياها من عدنان تحدثت عنها في هذا الباب .

اما فرع مدركة ، فيتكون من اصلين : خزيمة ، وهذيل . وأمهما سلمى بنت أسد بن ربيعة بن نزار [4] . واضاف بعض النسابين ولداً آخر اليهما اسمه غالب بن مدركة ، دخل نسله في بني الهون بن خزيمة بن مدركة [5] .

اما ولد خزيمة ، فهم كنانة وأمه عوانة بنت قيس بن عيلان ، وأسد ، وأسدة ، والهون ، وأمهم برّة بنت مر بن أد بن طابخة . اخت تميم بن مر [6] . ويرى بعض النسابين ان جذاماً ولخماً وعاملة هم نسل أسدة ، ولكنهم انتسبوا في اليمن ، فقالوا جُـــذام بن عدي بن الحارث بن مُرّة بن أُدَد بن زيد بن يشجب بن عريب بن مالك بن زيد بن كهلان ، وأن هذا الانتساب كان لعوامل سياسية كما حدث لقبائل اخرى ، خاصة في ايام الامويين [7] .

١ نهاية الارب (٣٠١/٢) ، الاشنفاق (ص ٢٧٦) ، جمهره (٢٢٣) .
٢ نهاية الارب (٣٠١/٢) ، جمهرة (٢٢٣) ، الاشتقاق (٢٧٨) ، كحالة (٨٧٤/٢) .
٣ نهاية الأرب (٣٠١/٢) ، جمهرة (٢٢٣ وما بعدها) ، ابن خلدون (٣١٥/٢) .
٤ ابن خلدون (٣١٩/٢) ، جمهرة (٩) ، نسب قريش (ص ٨) ، سبائك الذهب (ص ٢٢ وما بعدها) ، (مدركة ٠٠٠٠ وله فرع واحد على حاشية عمود النسب ، وهو هدبل) ، صبح الأعشى (٣٤٨/١) .
٥ جمهرة (ص٩) .
٦ نسب فريش (ص٨) ، الجمهرة (ص٩) ، (فولد خريمة بن مدركة كنانة وأسد والهون) ، طرفة الأصحاب (ص ٥٩) .
٨ نسب فريش (ص ٩) .

وكانت منازل كنانة عند ظهور الإسلام في أطراف مكة بين هذيل وأسد بن خزيمة ، وكان لها أثر مهم في تأريخ مكة على ما يفهم من روايات الأخباريين. وقد ساعدت قريشاً ، وقريش من كنانة في نزاعها على رئاسة مكة مع خزاعة ، ولها مع خزاعة جملة وقائع ، كما كان لها أثر خطير في حروب الفجار [1] .

وتتألف كنانة من بطون عديدة ، هي : النضر ، والنضير ، ومالك ، وملكان ، وعامر ، وعمرو ، والحارث ، وعروان (عزوان) ، وسعد ، وعوف ، وغنم ، ومخرمة ، وجرول . وفي رواية لابن الكلبي ان جميع هؤلاء الأبناء هم من أم واحدة هي برّة بنت مرّ ، أخت تميم بن مرّ [2] ، وهي أم أسد وأسدة والهون أبناء خزيمة في رواية أخرى . أما أم عبد مناة بن كنانة ، وذلك في رواية من جعله ابناً لكنانة ، فهي بنت هنيء بن بليّ من قضاعة . ولهذا السبب نسبت الى قضاعة عند بعض النسابين [3] .

ومن بطون عبد مناة بن كنانة : بكر ، وعامر ، ومرّة ، وغفار . وهي بطون . ومن بكر : ليث ، والدئل وأمها أم خارجة البجلية ، وضمرة ، وعريج . ومن ليث بن بكر : عامر وجُندع ، وسعد . ومن الدُّؤل أبو الأسود الدُّؤلي . ومن بني مرّة بن عبد مناة : بنو مدلج ، وقد اشتهروا بالقيافة [4] . ومن بطون مالك بن كنانة : ربيعة بن مكدّم ، فارس بني كنانة ، وبنو فراس بن تميم ، وبنو فُقَيم ، وهم الذين كانوا ينسأون الشهور في الجاهلية ،

١ نسب قريش (ص ١٠) ، الصفة (٥٤) ، القاموس (٢/٦٦ ، ٣/١٠) ، تاج العروس (٨/٢٤٠ ، ١٠/١٧٨) ، لسان العرب (١٢/١٥٤ ، ١٧/٢٤٣) ، ابن خلدون (٢/٣٢٠) ، صبح الأعشى (١/٣٥٠) ، الانباه (٧٢) ، زيدان : العرب قبل الاسلام (٢٤١) ، كحالة (٣/٩٩٦) ، Ency., II, p. 1017.

٢ جمهرة النسب (ورقه ٤) ، الاشتقاق (١٠٥ وما بعدها) ، Wüstenfeld, Genea., Taf., N

٣ Ency., II, p. 1018

٤ جمهره (ص ١٧٠ وما بعدها) ، (الدئل) ، الاشتقاق (١٠٥ وما بعدها) ، المعارف (٢٢ ، ١٥٠) المبرد (ص٤) ، طرفة الأصحاب (ص ٥٩) ، صبح الأعشى (١/٣٥٠ وما بعدها) ، الأغاني (١٩/٧٧) ، تاج العروس (٩/٣٢٣) ، أبو الفداء (١/١١٢) ، ابن خلدون (٢/٣٢٠) ، كحالة (٢/٧٣٥) ، (٣/١٠٦١) .

ثم أبطل ذلك في الاسلام[1] .

ومن نسل الهون : عضل[2] ، وديش[3] ؛ والقارة[4] . وبنو يتع (يتتع)[5] (يثيع)[6] ، بن مليح بن الهون . وهـــم ، وبطنان من خزاعة هما : الحيـــا والمصطلق ، حلفاء لبني الحارث بن عبـــد مناة بن كنانة . ويقال لهـــم جميعاً الأحابيش ، أحابيش قريش ، لأن قريشاً حالفت بني الحارث بن عبد مناة على بكر بن عبد مناة ، فهم وأحلافهم حلفاء قريش[7] .

أما نسل أسد بن خزيمة ، فهم : دُودان[8] ، وكاهل[9] . وعمرو ، وصعب ، وحملة[10] . ويقال لبني عمرو بنو نعامة[11] . وجعل بعض النسابين بني النعامة من نسل عبد الله بن صعب بن أسد ، وهم : بنو جعدة ، وبنو البحير بن عبد الله

١ صبح الأعشى (١/٣٥١) ، الانباه (٧٤) ، المعار (٢٢) ، المبرد (٥) ، الأغاني (١٢/٤٨) ، (وهيم بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة) ، كحالة (٣/٩٢٦) ، نهاية الأرب (٢/٣٥١) .
٢ لسان العرب (١٣/٤٨٠) ، الصحاح (٢/٢١٥) ، أبو الفداء (١/١١٢) ، صبح الأعشى (١/٣٤٩) ، كحالة (٢/٧٨٧) .
٣ تاج العروس (٧/٣١٦) ، أبو الفداء (٢/١١٢) ، صبح الأعشى (١/٣٤٩) .
٤ طرفة الأصحاب (ص ٦٠) ، الاشتقاق (ص ١١٠) ، ويطلق بعض النسابين القارة على عضل والديش مجتمعين ، تاج العروس (٣/٥١٠) ، لسان العرب (٦/٤٣٦) ، الصحاح (١/٣٩١) ، الانباه (ص٧٣) ، كحالة (٣/٩٣٥) ، (عضل والديش ابنى مليح بن الهون وهم القارة ، سموا قاره لأن يعمر بن عوف بن الشدا(أحد بني ليث لما أراد أن يفرقهم في بطون كنانه قال رجل منهم :
دعونـــا قارة لا تنفرونـــا فنجفل مثل اجفال الظليم
فسموا قارة . وهم رماة العرب) ، نهاية الأرب (٢/٣٣١) .
٥ نسب قريش (ص ٩) ، Wustenfeld, Genea., Taf., N.
٦ (يثيع) جمهرة (ص ١٧٩) .
٧ نسب قريش (ص ٩) ، جمهرة (ص ١٧٩) .
٨ لسان العرب (٤/١٤٧) ، صبح الأعشى (١/٣٤٩) ، تاج العروس (٢/٣٤٧) ، أبو الفداء (١/١١٢) ، نهاية الأرب (٢/٣٢١) .
٩ لسان العرب (١٤/١٢٤) ، الصحاح (٢/٢٣٧) ، أبو الفداء (١/١١٢) ، ابن خلدون (٢/٣٢٠) ، نهاية الأرب (٢/٣٣١) ، صبح الأعشى (١/٣٥٠) ، كحالة (٣/٩٧٦) .
١٠ جمهرة (ص ١٧٩) .
١١ الاشتقاق (ص ١١٠) ، المبرد (ص٦) .

ابن مرّة بن عبد الله بن صعب بن أسد[1] . وحصر بعض النسابين بطون أسد ابن خزيمة في كاهل ، وفقعس ، والقعين ، ودُودان[2] .

ومن نسل عمرو بن أسد بن خزيمة : القليب ، ومعرض واسمه سعد ، والهالك[3] ، ومن نسل كاهل بن أسد بن خزيمة مازن بن كاهل ، ومنهم علباء ابن حارثة بن هلال الشاعر قاتل حجر بن عمرو الكندي والد الشاعر امرىء القيس[4] .

وولد دودان بن أسد : ثعلبة ، وغنماً[5] . فولد غنم بن دُودان كبيراً ، وعامراً ، ومالكاً . ومن بني غنم بنو جحش[6] . ومن بني ثعلبة[7] بن دودان الشاعر عبيد بن الأبرص ، والكميت الشاعر . ومن بني سعد بن مالك بن ثعلبة ابن دُودان عمرو بن مسعود الذي يقال إن النعمان بنى عليه الغَرِيّ . ومن بني الحارث بن ثعلبة بن دُودان : قُعين ، ووالبة ، وسعد ، ومن بني قُعين عامر ابن عبد الله بن طريف بن مالك بن نصر بن قُعين ، صاحب لواء بني أسد في الجاهلية . ومن بني عمرو بن قُعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان ، طليحة ابن خويلد بن نوفل الذي ادعى النبوة[8] . وأشهر بطون بني ثعلبة : بنو غاضرة ، وبنو مالك ، وبنو والبة ، وبنو نصر بن قعين ، وبنو الصيداء ، وبنو فقعس ، وبنو دبير[9] .

أما ولد هُذيل بن مدركة ، فهم : سعد ، ولحيان . وولد لحيان طابخة ، ودابغة . ومن طابخة أبو قلابة الحارث بن صعصعة الشاعر . ومن سعد بن هذيل :

١ جمهرة (ص ١٨٠) .
٢ طرفة الأصحاب (٥٩) .
٣ جمهرة (ص ١٨٠) .
٤ جمهرة (ص ١٨٠) ، وفيه يقول امرؤ القيس :
أفلتهن علباء جريضا ولو أدركته صفر الوطاب
المبرد (ص٦) .
٥ تاج العروس (٨/٩) ، ابن خلدون (٢/٣٢٠) ، كحالة (٣/٨٩٤) .
٦ جمهرة (ص ١٨٠ وما بعدها) .
٧ ابن خلدون (٢/٣٢٠) ، تاج العروس (١/١٦٥) ، لسان العرب (١/٢٣١) ، كحالة (١/١٤٤) .
٨ جمهرة (ص ١٨٠ – ١٨٥) ، وهو من بني فقعس بن طريف بن عمرو بن قعين ابن الحارث بن ثعلبة بن دودان ، المبرد (ص ٥) ، الاصابة (٤٢٩٠) .
٩ جمهرة (ص ٤٣٥) ، المبرد (ص ٥) .

الشاعر أبو كبير الهذلي ، وحوية . وقيل إن الحُطيأة منهم . ومنهم خناعة وهم بطن ، ورهم ، وتميم ، والحارث ، ومعاوية ، وعوف . ومن سعد هذيل : عبد الله بن مسعود ، والمؤرخ المسعودي . وقد اشتهرت هذيل بكثرة من نبغ فيها من الشعراء ، حيث بلغ عددهم نيفاً وسبعين شاعراً [١] . ومن بطون هذيل الأخرى : بنو دهمان ، وبنو عادية ، وبنو صاهلة ، وبنو ظاعنة [٢] ، وبنو مخزوم ، وبنو قُريم ، وبنو قرد بن معاوية [٣] .

وتعدّ هذيل من القبائل العربية الكبيرة التي كانت في القرن السادس للميلاد ، أما منازلهم في هذا الوقت ، ففي سراة هذيل بين مكة والمدينة وفي جوار بني سُليم وكنانة [٤] ، وهي مثل أكثر القبائل الأخرى لا نعرف من تأريخها قبل الإسلام شيئاً يذكر . ويذكر الأخباريون انها كانت في جملة القبائل التي أرادت الدفاع عن مكة حينما عزم أبرهة على احتلالها . وكانت تتعبد للصنم سواع بيَنبُع ، وسدنته بنو صاهلة من هذيل ، وتعبدت له بنو كنانة وبنو مزينة وبنو عمرو بن قيس عَيلان كذلك [٥] . وله معبد آخر بموضع (رهاط) [٦] ، كما تعبدت للصنم (مناة) ومعبده بقديد [٧] .

إن ما ذكرته في هذين الفصلين ، هو خلاصة آراء علماء الأنساب في أنساب القبائل . وهي آراء لا نستطيع ان نذهب مذهبهم في انها جاهلية قديمة ، وانها على هذه الصيغة كانت معروفة قبل الإسلام ، وإن قالوا إنهم توارثوها عن الجاهليين ، ونقلوها عن المشتغلين بالنسب في الإسلام والجاهلية كابراً عن كابر ، ولا نستطيع أيضاً ان نزعم انها تمثل أنساب القبائل على نحو ما دوّنت وصنفت في الديوان بأمر الخليفة عمر بن الخطاب . فلم نجد في أقدم ما انتهى إلينا من

١ جمهرة (ص ١٨٥ وما بعدها) .
٢ طرفة الأصحاب (ص ٦٠) .
٣ جمهرة (ص ٤٣٥) ، المبرد (ص ٦) .
٤ الصفة (ص ١٧٣) ، ابن خلدون (٣١٩/٢) ، صبح الأعشى (٣٤٨/١) ، نهاية الأرب (٣٣٠/٢) ، كحالة (١٢١٣/٣ وما بعدها) .
٥ المحبر (ص ٣١٦) .
٦ البكرى (٦٧٩/٢) (طبعة السقا) (مادة رهاط) ، Ency., II, p. 329
٧ Ency., II, p. 329.

كتب النسب إشارة تفيد ان ما قصّوه علينا وما ذكروه في النسب ، منتزع من سجلات ديوان الخليفة . ثم اننا رأينا أمثلة عديدة ، لتنقل نسب القبائل في أيام الأمويين بين قحطان وعدنان لأسباب سياسية وعوامل ترجع الى هـذا التعصب المزري الذي انتشر في ذلك العصر ، حتى جزّأ العرب الى قيس ويمن .

وهذه الخصومة السياسية العنيفة التي جزأت العرب ويا للأسف الى جزءين ، وأسالت الدماء بين الفريقين ، صارت سبباً لتثبيت أنساب القبائل وضمها في مجموعتين : إما الى قحطان ، وإما الى عدنان ، ولا وسط بين الكتلتين . وقد صادف هذا التحزب عصر بدء التدوين ، فكان النسب (لأهميته عند القبائل والناس وفي الحياة السياسية في ذلك العهد) في طليعة الأمور التي شملتها حركة التدوين ، فبدلاً من ان يعتمد السابون على الذاكرة والرواية سطّروا تلك الروايات في الأوراق ، وضبطوا أنساب القبائل التي عاشت قبيل الاسلام وفي صدر الاسلام بهذا التدوين .

وقد أحدث عدم ضبط قواعد الخط في صدر الاسلام ، وعدم استعمال النقط في أول العهد بالتدوين بعض المشكلات للمتأخرين في ضبط الأعلام . فاختلاف النقط يحدث كما هو معروف اختلافاً في ضبط الأسماء ، وهذا ما حدث فعلاً . وإنك لتجد في كتب الأنساب المطبوعة والمحفوظة أمثلة عديدة من هذا القبيل . كذلك أدى إهمال بعض النسابين ذكر الآباء أو الأجداد الى حدوث شيء من الارتباك في ضبط الأنساب . يضاف الى هذا تشابه أسماء بعض القبائل والبطون في قحطان وعدنان .

وقد أشار الهَمْداني الى العصبية التي كان لها أثر خطير في وضع الأنساب في عهد معاوية وغيره في الشأم وفي العراق ، ثم الى تقصير نسابي العراق والشأم في عدة آباء كهلان وحمير ، ليضاهوا بذلك على حد تعبير الهمداني عدة الآباء من ولد اسماعيل ، وذكر انه كانت عند أهل اليمن مثل حمير وهمدان والمرانيين وغيرهم زُبُر مُدوّنة فيها أنسابهم ، يتناقلها الناس ، وهي تختلف عن الأنساب التي يتداولها أهل النسب في العراق والحجاز والشأم بعض الاختلاف ، وان بعضاً من أنساب عرب الحجاز دخل في أنساب الناس من أهل اليمن ، وذلك على رأيه لأسباب ، منها : فتك (بخت نصر) بأقيال اليمن في عهد أسعد تبّع ،

وفي أيام حسان بن أسعد وتخريبه حصونهم ، وقتل حسان لجديس التي أفنت طسماً[1] . وفي هذا الحديث على علاته ما فيه من اعتراف صريح باضطراب النسابين في ضبط الأنساب .

ولا يخلو بعض هذه الأنساب من تحامل العصبية التي كانت في نفوس القبائل والبطون ، إذْ خلقت هذه مثالب لصقتها بآباء القبائل المتباغضة وأجدادها حفظت على مرور الأيام ، ولازمت من قيلت فيهم ، ليس من الصعب الوقوف عليها ومعرفتها كما هو الحال في نسب ثقيف مثلاً . وقد أوجدت قسوة الحجاج بن يوسف ، وهو من ثقيف ، ذلك القصص الذي قيل في جدّ ثقيف ولا شك .

وقد أشرت فيما سبق الى أثر التوراة وأثر نفر من أهل الكتاب ممن ادعوا العلم بكتب الأولين في النسّابين والأخباريين ووضعهم أسس النسب ، وارجاعها الى قحطان وعدنان ، وبناء نسب القبائل على هذين الأساسين . وقد وجدنا (يقطان) في التوراة أباً لشبا وحضرموت وبقية إخوتهما ، وهم من العرب الساكنين في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية . ويقطان هو قحطان . ثم وجدنا الإشماعيلين في التوراة كذلك ، والإشماعيليون هم الاسماعيليون أبناء اسماعيل جدّ العرب العدنانيين . ووجدنا نابت وقدار في التوراة كذلك وعند النسابين أيضاً ، ونابت هو (نبابوت) .

أما الذي يتجلى لنا من استعراض كل هذه الأنساب ودراستها ، سواء أكانت قحطانية أم عدنانية ، فهو ان الحياة السياسية للقبائل كانت حياة كتل ، وهي حياة اقتضتها ضرورات الحياة للدفاع عن النفس والمصالح ، كما هو شأن الدول في كل زمان ، حيث تعقد بينها المحالفات . فالحلف بين القبائل ، هو كالحلف بين الدول بكل ما للحلف من معنى . وقد رأينا نماذج من تلك الكتل الضخمة أشرت اليها في أثناء كلامي على القبائل . ويخيل إليّ ان فكرة رجوع العرب الى قحطان وعدنان ، فكرة تثبتت في الإسلام ، ساعد في ترسيخها وتثبيتها تلك العصبية التي أشرت اليها ، وتلك النظرية التي انترعها ابن الكلبي وأضرابه من التوراة ومن أهل الكتاب بخصوص يقطان وقيدار .

---

١ الاكليل (٨/ ١٠٠ وما بعدها) (طبعة نبيه أمين فارس) ، (١٠/ ٣٠ وما بعدها).

وفي الذي يذهب اليه أهل الأخبار والأنساب من ادعاء وجود خلاف بين القحطانيين والعدنانيين ، شيء من الصحة ، لا سبيل الى نكرانه ، غير انه ليس على النحو الذي ذهبوا اليه . والكتابات الجاهلية التي تحدثت عنها سابقاً ، وأسماء الأشخاص والأصنام ، شواهد على وجود هذا الاختلاف . ولكنه ليس اختلافاً بالمعنى الذي ذهب اليه الأخباريون . فبين العرب الذين يطلق الأخباريون عليهم (القحطانيين) اختلاف في اللهجة وفي الأسماء لا يقلّ عن الاختلاف بين القحطانيين والعدنانيين . كذلك نجد مثل هذا الاختلاف بين العدنانيين أنفسهم . وقد وجدنا نص النمارة لامرىء القيس ، وهو أصل قحطاني على حدّ تعبير الأخباريين وأهل الأنساب ، بلهجة قريبة من لهجة القرآن الكريم بعيدة عن لهجات أهل اليمن . بلهجة نستطيع ان نقول إنها من الأم التي ولدت عربية القرآن الكريم . كذلك نجد النصوص الأخرى قريبة من هذه العربية ، مع انها لأناس يجب عدّهم من قحطان إن سرنا مع النسّابين في مذهبهم في تقسيم العرب الى قحطانيين وعدنانيين . ثم ان الأخباريين لم يشيروا الى وجود فروق في اللسان بين القحطانيين والعدنانيين ، وإنما جعلوهم يتكلمون بعربية واحدة هي عربية القرآن الكريم ، ونسبوا اليهم أصناماً مشتركة . وشعراء الجاهلية هم في عرفهم من قحطان وعدنان . ولهذا قالوا عن اللهجات العربية الجنوبية التي ظلت حية في اليمن وفي حضرموت انها غير فصيحة وانها ليست بعربية ، وان لسان حمير ليس بلساننا ، الى غير ذلك مما أشرت اليه في أجزاء الكتاب السابقة مأخوذة من أقوال العلماء .

وقد ذكرت في كتابي : تأريخ العرب قبل الاسلام ، في أثناء كلامي على النبط ما كان من وجود أداة (ال) المستعملة في عربية القرآن الكريم ، في كتاباتهم ، وأشرت الى استعمالهم أسماءً استعملتها قريش وغيرهم من العرب العدنانيين[1] . وهي اسماء لم نعثر عليها في الكتابات العربية الجنوبية حتى الآن ، كما أشرت الى مشاركتهم العرب الشماليين في أسماء الآلهة التي تعبدوا لها ، وأوردت آراء بعض المستشرقين في أصلهم ، وفي انهم عرب مثل العرب الآخرين .

ولهذه الملاحظات اهمية كبيرة في الحديث عن العرب الشماليين ، وفي النواحي التي يختلفون فيها عن العرب القحطانيين . كما أن لنص النمارة ولتأريخ (بروكوبيوس)

---

١ (١٣/٣) .

اهمية خطيرة كذلك في هذا الموضوع لإشارتها لأول مرة الى (معدّ) . فقد وردت كلمة (معدو) اي معدّ في السطر الثالث من النص ، ووردت كلمة (نزرو) اي (نزار) في السطر الثاني منه . يضاف الى ذلك ورود اسماء قبائل اخرى هي (الأسدين) ، اي قبيلة أسد ، ومذحج .

أما تأريخ (بروكوبيوس) ، فقد وضع (Maddeni) اي معدّاً في الاقسام الشمالية من الحجاز . وقد ذكر هذا المؤرخ ان القيصر (يوسطنيان) طلب من (السميفع أشوع) (Esimiphaius) أن يوافق على تعيين سيد قبيلة اسمه (قيس Kaisus) (Caisus) رئيساً على (معدّ) [1] . وقد ذكرت ان هذا يدلّ ضمناً على خضوع معدّ لحمير ، ولو كان خضوعاً بالاسم . ولوجود معدّ في هذا الزمن ، أي في القرن السادس للميلاد ، في أرض كانت مأهولة بالنبط اهمية كبيرة ولا شك .

كما أشرت الى ورود كلمة (مضر) في نص يماني ، والى اشتراكها في حرب خاصتها سبأ وحمير ورحبة وكدت ومضر وثعلبة [2] . وهي حرب يظهر انها كانت واسعة من الحروب التي وقعت قبيل الاسلام . ومضر في هذا النص قبيلة من هذه القبائل التي اشتركت في الحرب ، وليس اسماً عاماً لقبائل كثيرة ، أي على نحو ما يذهب اليه الاخباريون .

فيتبين من هذه النصوص ان معداً ونزاراً ومضر كانت قبائل تقيم في الأقسام الشماليـة من جزيرة العرب وفي العربية الغربية . وقد لاحظنا ان نص النمارة قد فرق بين معدّ ونزار ، ولم يشر الى وجود رابطة بين القبيلتين ، بمعنى ان كُلاً من نزار ومعدّ كان قبيلة مستقلة ، في حين يضع النسابون نسباً بينهما ويربطون بين القبيلتين . والظاهر ان هذا الارتباط الذي ذهب اليه الاخباريون وأهل الانساب انما حدث في صدر الاسلام ، بعد تثبيت القبائل في الديوان .

وفي اثناء كلام الاخباريين على تأريخ الحيرة ، ذكروا ان معداً كانت خاضعة لها ، وأن ملوكها كانوا يحكمون معداً . ذكروهم في جملة من كان قد خضع

---

١ تاريخ العرب قبل الاسلام (٣/٢٠٥ وما بعدها) .
٢ تاريخ العرب قبل الاسلام (٣/١٦٦) .

لحكم أولئك الملوك . والذي يستنتج من كلامهم أن معـــداً كانوا بادين ، أي اعراباً ، وأنهم كانوا يقطنون مناطق كانت في نفوذ ملوك الحيرة . فهل قصد الاخباريون معداً الذين كانوا يسكنون في أعالي الحجاز كما ذكر ذلك (بروكوبيوس) أم قصدوا جماعات منهم هاجرت الى بادية الشام ، وخضعوا لحكم أهل الحيرة ؟ ويلاحظ ان الاخباريين يتوسعون احياناً في مُلك ملوك الحيرة فيبلغون به البحرين والحجاز .

اما كيف تطورت هذه الانساب ، وكيف توزعت ، وكيف حصرت في جدّين ومن قام بذلك ، وأمثال هذا ؟ فليس من السهل ايجاد جواب لأمثال هذه الأسئلة ما دمنا لا نملك الاسباب التي تهيىء لنا العلم الكافي للاجابة عنها .

الفصل السابع والأربعون

الناس منازل ودرجات

وأهل الجاهلية مثل غيرهم من شعوب ذلك الزمن : أحرار وعبيد ، يستوي في ذلك الأعرابيّ وأهل المدر . والحرّ نقيض العبد ، والحرة نقيض الأمة[1] . والحرّ هو الذي يتصرف بأموره كما يشاء . وأما العبد فلا ، فأمره بيد مالكه ، فلا يجوز له ان يفعل شيئاً من غير رضا سيده ومالك رقبته . ويعبر عن الحر بلفظة (حرم) في المسند ، فيقال : (حرم) ، أي (حرّ) . والجمع (أحرر) ، أي (أحرار)[2] .

والجاهليون وان بدوا (دمقراطيين) شعبيين ، لا فرق عندهم بين حر وعبد ، كبير أو صغير . يخاطب الفقير ملكه أو سيد قبيلته بلهجة بسيطة تنم عن (دمقراطية) عميقة أصيلة إلا انهم في الواقع طبقيون يعاملون الناس حسب منازلهم ودرجاتهم ، ويعملون بمبدأ عدم التكافؤ بين الناس . وآية ذلك عُرف جلوس الناس في مجالس الملوك والمجتمعات ، وعرف تقديم الطعام أو الشراب مبتدئين بالملك ثم بمن يجلس على جانبه الأيمن باعتبار انه أشرف القوم ثم بالجالس على الجانب الأيسر من الملك ، على ترتيب الناس في درجات جلوسهم أو حسب إشارة الملك الى الساقي أو مقدم الطعام . ثم في نظرتهم الى (الحق) والى الأعراف الاجتماعية كالأخذ بالثأر والزواج . فلهم في الأخذ بالثأر مبدأ مقرر

---

١ اللسان (٤ / ١٨١) .

٢ Rep. Epig., VII, p. 416, Nu. 4912, Philby 84

معروف . هو ان القتيل اذا كان شريفاً في قومه ، وكان قاتله وضيعاً صعلوكاً ، أو عبداً فلا يقبل أهل القتيل بـ (القوَد) ، بل يعرف تكافؤ الدم . فعندهم ان دم القتيل الشريف ، لا يغسل إلا بدم شريف مثله ومن أهل مكانته ، ومعنى هذا ان قتل القاتل لا يكفي ، بل لا بد لأهل القتيل في هذه الحالة من البحث عن شريف من قوم القاتل يكون مكافئاً للقتيل في المنزلة والمكانة حتّى يقتل به ، فيغسل عندئذ بقتله دمه . وينام الثأر . وقد يكون المقتول وهو ما يحدث في الغالب بريئاً ولا علاقة له بالقتيل ولا القاتل . ولكن العرف القائم على نظرية التكافؤ بين الطبقات ، لا يفهم براءة بريء ، وحق قتل القاتل وحده ، بل يدين بعقيدة ان الدم لا يغسل إلا بدم موازٍ له ، فلا بد من قتل شريف بشريف إذنْ حتّى ينام أهل القتيل .

والى ما تقدم من الإسراف في القتل وقتل البريء بدم مقتول ، أشير في القرآن الكريم : (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق . ومن قتل مظلوماً ، فقد جعلنا لوليه سلطاناً ، فلا يسرف في القتل) [1] . (وذلك ان أهل الجاهلية ، كانوا يفعلون ذلك ، اذا قتل رجل رجلاً عمداً ولي القتيل الى الشريف من قبيلة القاتل فقتله بوليه ، وترك القاتل ، فنهى الله عزّ وجلّ عن ذلك عباده ، وقال لرسوله ، عليه السلام ، قتل غير القاتل بالمقتول معصية وسرف ، فلا تقتل به غير قاتله . وان قتلت القاتل بالمقتول ، فلا تمثل به) [2] .

وعلى هذه النظرية الطبيعية بنوا تقييم أثمان الديات ، أي ثمن الدم . فدية الملوك في الجاهلية أغلى ما دفع ثمناً عن دم . إذْ جعلت دية الملك ألفاً من الإبل ، فعرفت لذلك بدية الملك . تليها في الثمن ديات الأشراف وسادات القوم حسب الشرف والمنزلة حتّى تصل الى ديات المغمورين المطمورين فتكون أقلها ثمناً . إذْ تبلغ خمساً من الإبل ، وقد تنقص في ذلك . وعلى هذه النظرية القائمة على (الفوقية) و (التحتية) ، قدرت فدية الأسرى أيضاً . ففدية الملوك الذين يقعون في أسر آسر ألف من الإبل ، وعرفت بـ (فدية الملوك) وفدية من هم دونهم أقل حتّى تصل الى أبخس ثمن ، وهي فدية سواد الناس . ولهذا حرص

١ الاسراء ، الآية ٣٣ .
٢ تفسير الطبري (١٥/٥٩) .

الأسير الشريف الذي لا يعرفه آسره على اخفاء شخصيته وعلى التظاهر بالإملاق وبأنه من المغمورين ليجنب نفسه دفع فديــة عالية قد يفرضها آسره عليــه ، فتوجعه وتؤلمه .

ومن هذه النظرة أيضاً ولد اعتقاد أهل الجاهلية ان دم الرئيس يشفي من عضة الكلب الكلِب[1] . فإذا كُلب إنسان أتوا رجلاً شريفاً فيقطر لهم من دم إصبعه فيسقون المكلوب فيبرأ . أو يسقونه من دم ملك فيشفى . جاء في المثل : دماء الملوك شفاء الكلب . ودمــاء الملوك أشفى من الكلب . قال أهــل الأخبار عن الكلب : (وأجمعت العرب ان دواءه قطرة من دم ملك يخلط بماء فيسقاه) ، فيشفى بذلك من الكلب[2] . ولو لم يكن للجاهليين رأي خاص في الملوك والأشراف ، وفي وجود تفوق لهم على سواد الناس ، لما اعتقدوا هذا الاعتقاد في اشفاء دماء الملوك والأشراف لمن يصاب بالكلب . وبعدم شفاء دم غيرهم لهؤلاء المرضى .

ومن هذه النظرة أيضاً ، تولد امتناعهم من تزويج بنات الأشراف والأسر من رجال هم دون البنت في المنزلة . وهو عرف يراعونه ويحافظون عليه الى يومنا هذا . ويزدرون من شأن الخارج على (التكافؤ) بين البنت والولد في الزواج . وقد يرفضون تزويج رجل ثري مكتنز للمال ، من امرأة فقيرة شريفة الأصل ، اذا كان الرجل من أصل ذابل ، كأن يكون أبوه أوجده (صانعاً) أو (خضاراً) ، لأن الأصل في نظر العرب فوق المال . والشريفة يجب ألا تزوج إلا من شريف مثلها ، مراعاة منهم لمبدأ نقاوة الأصل وانجاب الأولاد النجباء . ومن هذه النظرة امتنع العرب من تزويج بناتهم من الأعاجم حتى لو كان ذلك الأعجمي ملكاً . وقد رأينا كيف ان (النعمان بن المنذر) ، رد طلب (كسرى) لما طلب منه تزويجه إحدى بناته من أحد أبنائه . وشقّ ذلك عليه حتى انه لم يتمالك من ضبط نفسه ، فقال للرسول : أما في عين السواد وفارس ما تبغون حاجتكم . ومراده من لفظة (عين) البقر . ومن اغتنام (زيد بن عديّ بن زيد العبادي) هذه الفرصــة ، وكان هو الذي اقترح على (كسرى) ان يزوج أحد ولده من بنات النعمان ، فقال لكسرى : (قد كنت أخبرتك بضنهم بنسائهم على غيرهم ،

---

١ بلوغ الأرب (٢/٣١٩) .
٢ تاج العروس (١/٤٦٠) ، (كلب) .

وان ذلك من شقائهم واختيارهم الجوع والعري على الشبع والرياش ، واختيارهم السموم والرياح على طيب أرضك هذه حتى انهم ليسمّونها السجن) . ومن قوله له : (أيها الملك : إن شرّ شيء في العرب وفي النعمان انهم يتكرمون عن العجم)[1] . فكان ما كان من غضب (كسرى) على النعمان ومن القضاء عليه على النحو الذي تحدثت عنه[2] .

وقد جعل بعض العلماء تخوف العرب من القهر عليهم ومن طمع غير الأكفاء في بناتهم ، في جملة العوامل التي حملتهم على وأد البنات . (قال قتادة : كان مضر وخزاعة يدفنون البنات أحياء ، وأشدّهم في هذا تميم . زعموا خوف القهر عليهم ، وطمع غير الأكفاء فيهن)[3] . ومن شروط الكفاءة في الزواج عند الجاهليين ، التكافؤ في النسب والحسب والمكانة وفي الأصل .

وسبب امتناع العربي من تزويج ابنته الى أعجمي ، هو تكرم العرب عن الأعاجم واستعلاؤهم عليهم . ونظرتهم الى الأعاجم على انهم دونهم في المنزلة والكرامة . لذلك رأوا ان تزويج بنت عربية الى علج أعجميّ ، خسة ما بعدها خسّة ودناءة ما وراءها دناءة . حتى وان كان العربي فقيراً لا يملك شيئاً . بل عابوا العربي الذي يتزوج أعجمية بسبب النسل ، واستصغروا شأن المولود من أب عربيّ ومن أم أعجمية . فهو وان كان عربياً في عرف العرب من أجل ان النسب الى الأب ، ولكنه أعجميّ من ناحية الأم ، فهو دون الأصيل في المرتبة .

وفي غنى العربية بالمصطلحات الكثيرة التي تطلق على السادة والأشراف وعلى الفقراء والمعدمين الترِبين وعلى الطبقات الأخرى ، دلالة ليس فوقها دلالة على وجود هذه النظرة الطبقية عندهم ، وعلى نظرتهم الى أنفسهم على انهم منازل ودرجات ، وانهم غير متكافئين . وان القيادة في المجتمع يجب ان تكون للبيوت .

١ الطبرى) ٢/٢٠٢ وما بعدها) ، (ذكر خبر يوم دى فار) ·

٢ (وفد هجا عبد الفيس بن خفاف البرجمي ، النعمان بن المنذر ، في الجاهليه ، ودكر ولادة الصائغ له ، فقال ·

لعن الله ثم ثنى بلعن ابن ذا الصائغ ، الظلوم الجهول
يجمع الجيش ذا الألوف ويغزو ثم لا يرزأ العدو فتيلا)

الحيوان ، (٤/٣٧٩) ، (هارون) ، الأغانى (٩/١٥٨) ·

٣ القرطبى ، الجامع (١٠/١١٧) ، (تفسير سوره النحل)) ·

ثم ان الأحرار على منازل ودرجات . وهم متفاوتون من حيث الشرف والمال . ويظهر التفاوت بين أهل المدَر أكثر مما يظهر بين أهل الوبر ، ذلك لأن الأعرابي فخور بنفسه ، يرى انه « شريف » مثل غيره نبيل وان قل ماله وشح . ثم ان التفاوت بين الطبقات لا يمكن ان يظهر في البادية ظهوره بين الضواحي والقرى ، لأن طبيعة البادية لا تساعد على ظهور ذلك التباين ، حتى ان عبيد الأعراب لم يكونوا يكوّنون طبقة خاصة مضطهدة ، ينظر اليها نظرة أهل القرى بازدراء ، بل كانوا يعدون في البادية كأعضاء من أعضاء الأسرة[1] .

والتباين الطبقي هو على ما أوضح ما يكون في اليمن ، لأن الطبيعة قد حبت أرض اليمن خيرات وجوّاً لم تحبُ المناطق الأخرى من جزيرة العرب مثلها ، فكانت نتيجة ذلك ظهور الاقطاع فيها ، واشتدت الحاجة الى شراء الرقيق واستجلابه لاستغلال التربة واستثمار خيرات الأرض وتشغيله في المهن الوضيعة ، وظهر في اليمن أغنياء ومتوسطو حال وفقراء معدمون ، أي طبقات اجتماعية كونت ذلك المجتمع بشكل واضح لا نراه في المجتمعات العربية الأخرى ، أشير اليهم في الكتابات .

رجال الدين :

ورجال الدين طبقة في رأس طبقات المجتمع مكانة ومنزلة ، ولها امتيازات خاصة ، لأنها ألسنة الآلهة الناطقة على هذه الأرض ، والآمرة والناهية باسمها ، وهي تقرب الناس الى الآلهة ، وتحرّم وتحلل . وقد رأينا ان أوائل حكّام العربية الجنوبية هم « مكربون » ، أي رجال دين . ولرجال الدين أملاك وأموال ، ولهم على الناس حقوق ، يأخذونها منهم ، كما تأخذ الحكومة حقها من الشعب . وهم طبقة كبيرة ذات قوة وسلطان مصالحها مع مصالح الحكّام بالرغم من الانفصام الذي وقع فيما بين الدولة والمعبد ، وإبعاد « المكرب » عن الحكم ، وحصر حق الحكم في الملك وحده ، وحصر حق ادارة المعبد في رجال الدين وحدهم ، وذلك لأن مصالح الملك ومصالح رجال الدين متشابهة ، وكل جهة من

---

١ Ancient Israel, p. 68.

الجهتين بها حاجة الى مساعدة الجهه الأخرى .

وكثيراً ما نقرأ في كتابات معين : ان الـ « شوع » او الـ « رشو » الفلاني قدّم قرباناً الى آلهة معين ، او بنى معبداً ، او أقام بناءً ، او عمل عملاً تقدمةً لآلهة معين . ولفظتا « شوع » و « رشو » تعنيان الكاهن والسادن ، أي منزلة دينية ذات مركز سام ، وهي أعلى درجات الكهنوت في العربية الجنوبية .

السادة والأشراف :

ويعبر عن السادة والأشراف بتعابير التعظيم والتفخيم ، ومنها لفظة « أبعل » « ابعل » ، أي سيد ورئيس . وهي لفظة استعملت للآلهة كذلك . استعملت بمعنى رب وإله . فورد « ود بعل ... » و « عشتر بعل ... » وهكذا . وقد استعملت في النصوص القديمة خاصة .

ويقال للسادة « أسود » « اسواد » في العربية الجنوبية ، وهم السادة الأشراف[1] . وتقابل اللفظة لفظة « سادات » في عربيتنا . وهم سادة القوم وأشرافهم وأصحاب المنزلة والمكانة في المجتمع .

ويعدّ أعضاء الأسرة المالكة في طليعة السادات ، وهم في السيادة على حسب قربهم او بعدهم من الملك ، ويقدمون على هذا الأساس عند حضورهم الى الملك وفي المواسم الرسمية . ولهم أرضون يستغلونها ، ورقيق يخدمهم .

ويعبر عن وجيه القوم وذي المنزلة والمكانة بلفظة « كهثم » « كهث »[2] وعكسها الوضيع والخامل والصغير والحقير ، فقد ورد : « كل انسم كهثم وقطنم » ، ومعناها : « كل إنسان : كبير وصغير » او « كل انسان وجيه ووضيع » . وتطلق لفظة « القطين » وهي « قطنم » و « قطن » في لغة المسند ، على الخدم والأتباع والإماء في لغة القرآن الكريم[3] . فهي إذن في نفس

١ Arabien, S 128.

٢ راجع النص . Glaser 509, Rhodokanakis, Stu , I, S , 68

٣ اللسان (٢٢٢/١٧) .

المعنى المراد من اللفظة في لغة المسند . وقد ذكر علماء اللغة ان القطين أتباع الملك ومماليكه [1] .

ويقابل أهل الوجاهة والمنزلة في المجتمع ، من يطلق عليهم « ص غ ر م » « صغرم » ، أي صغير . ويراد بها سواد الناس ، ممن لا وجاهة لهم ولا مركز لدى الحكومة والمجتمع ، كما في هذه الجملة : « كبرم فاوصغرم » ، ومعناها : « كبير أو صغير » [2] .

وفي الدرجات العليا من درجات المجتمع ، الأقيال وهم إقطاعيون كبار ، لهم أرضون واسعة وسلطان ، وقد نجد « القول » القَيْلُ قوة في نفسه ومنعة ، فينازع الملوك على الملك ، ويأخذ الحكم بيده .

وترد في الموارد الاسلامية درجة أخرى تذكر عادة مع الأقيال ، هي درجة « ذو » وتجمع أذواء . ويظهر انها من الدرجات الإقطاعية التي صار لها شأن في العهود المتأخرة القريبة من الاسلام . ويراد بها أصحاب الأرضين ورؤساء الإقطاعيات ، كما تطلق على رؤساء القبائل . وقد أخذت من (ذ) التي ترد في المسند ، ومعناها (ذو) في عربيتنا وهي بمعنى (صاحب) في العربيات الجنوبية .

الوجوه :

وسادة القوم هم وجوه المجتمع وسادات القبائل وقادة الجيوش . من (مقتوين) ومن أمراء حرب ، ومن المقربين الى الملوك وكبار موظفي الدولة . وهم أنفسهم من الطبقات العالية في الغالب . وقد ورثوا منازلهم إرثاً ؛ ولهم أرضون وثراء وقصور يقيمون فيها ، وبيوت مشيدة ، وخدم يخدمونهم ، وقد حصلنا على أسماء عدد منهم من الكتابات .

والتجارة من أشرف ما يشتغل به إنسان عند قريش وعند غيرهم من العرب .

---

١ اللسان (٢٢٢/١٧) .

٢ راجع الفقرة السادسة من النص المرسوم بـ : Oslander 35

وقد اشتغل بها أكثر أشراف مكة ، إذْ كانوا تجاراً يتاجرون مع اليمن ومع بلاد الشأم والعراق . وقد كانت الحرفة الوحيدة المربحة في جزيرة العرب . فالزراعة لا تدر عليهم ربحاً كبيراً ، لعدم توفر الماء الكافي لزراعة أرضين واسعة تأتي لأصحابها بغلات واسعة وبأموال طائلة ، والصناعة غير متيسرة ، لذلك عافوها وعابوها ، ولم تكن لديهم وسيلة مربحة أخرى غير التجارة .

ومن الألفاظ الدالة على الوجاهة والمكانة عند العرب الجنوبيين ، لفظة « قرمن » ، أي « القرم »[١] . وهي في هذا المعنى في عربيتنا كذلك ، فيقال للسيد قرم . والقرم من الرجال السيد المعظم و (المقرم) ، هو أيضاً السيد المعظم[٢] .

المحاربون :

ويكون المحاربون طبقة خاصة بهم ، وهم أناس احترفوا الخدمة العسكرية وعاشوا عليها ، وقد أشير اليهم في الكتابات وعرفوا بـ « قسم » « قسد » « ق س د » . وقد ذكروا بعد أصحاب الأرض في إحدى الكتابات[٣] ، وقبل « التجار » « مكر » و « الكيالين » « سلا » في كتابة أخرى[٤] . وقد أشار اليهم « سترابو » إذْ جعلهم في الطبقة الأولى من طبقات المجتمع في « العربية السعيدة » . وكان قد قسم هذا المجتمع ثلاثَ طبقات : المحاربين ، والمزارعين ، وأصحاب الحرف اليدوية[٥] .

ويظهر من دراسة بعض النصوص التي وردت فيها كلمة (قسدن) ، ان

١ Ryckmans 508.

٢ اللسان (١٢/٤٧٣) ، تاج العروس (قرم) .
قال أوس بن حجر :
اذا مقرم منا زر أحد نابه نخمط مادرا ناب اخر مقرم
أمالي المرتضى (١/٢٥٨) .

٣ Glaser 1210, A. Grohmann, S., 123.

٤ Glaser 1571, Rhodokanakis, Bodenwirtschaft, S., 183, Altsabäische Texte, I, 105, Kata Texte, I, 73.

٥ Handbuch, I, 123, A. Grohmann, S., 123

(القسود) ، كونوا طبقة كبيرة خاصة في دولة سبأ ، كانت منزلتها دون منزلة الاشراف واصحاب الاقطاع وفوق رقيق الارض ، المسمون بـ (ادومت) ، التابعين للأرض والذين يباعون معها عند بيع الأرض . وكانوا يستغلون الارض التي تعطى لهم لاستغلالها في مقابل اداء الخدمة العسكرية والاشتراك في القتال عند وقوعه ، فهم عساكر وفلاحون في آن واحد . ويشبه حالهم حال العساكر الذين منحهم الخلفاء الراشدون ارضين زراعية لاستغلالها في مقابل هرعهم الى القتال مع المحاربين عند توجيه الدعوة لهم . وهو نظام كان عند الساسانيين والبيزنطيين .

وقد كان الاشراف وأصحاب الاقطاع يستأجرون من لا ارض له ، باعطائه ارضاً لاستغلالها في مقابل الدفاع عنهم والقتال دونهم . ولذلك كان لكل اقطاعي (قسود) استطيع تسميتهم بالفلاحين المحاربين . يحاربون معه ويدافعون عنه . واذا مات سيدهم ، صارت السيادة الى من ينتقل الارث اليه .

ويعرف المحارب بـ « اسدم » « اسد » في العربيات الجنوبية ، اي جندي وعسكري في اصطلاحنا اليوم . وهم احرار وعبيد . وورد في بعض الكتابات جملة « اسد املكن » « اسد املكان » ، اي « جنود الملك » و « جنود الملوك » وذلك تعبيراً عن جماعة اختصت بالخدمة في جيش الملك . وقد اشير اليهم في كتابة بمناسبة انشاء طريق [1] .

ويلحق هذه الطبقة طبقة الـ « اتمت » ويراد بها الجنود المرتزقة ، او ما يعبر عنه بـ (العساكر) في الزمن الحاضر [2] ، وقد كوّن « العساكر » أو « عساكر السلطان » كما عرفوا في بعض البلاد الاسلامية في ايام الخلافة طبقة خاصة ، اعتمدت على سلطانها وقوتها ، فلم تحفل بأحد وأخذت تعتدي على الاهلين . وقد كانوا خليطاً من الاحرار ومن الرقيق ، اعتمد عليهم الحكام في الدفاع عنهم وفي القضاء على خصومهم ، فعاشوا على خدمة سادتهم ، وقد صارت حرفتهم وراثية ، فابن الـ « اتمت » ينتسب الى الخدمة في المعسكر ايضاً حين بلوغه سن الخدمة ويعيش في خدمة سيده .

١ Rep Epig 4624, J Ryckmans, L'institution Monarchique, 147, Arabien, S. 123.

٢ A Grohmann, S , 123

التجار وتوابعهم :

ويكوّن « التجار » طبقة خاصة من طبقات المجتمع العربي الجنوبي . ويقال لهم « مكر » في لغة المسند . وقد كانوا يتاجرون في البرّ والبحر ، ولهم قوافل وطبقات دنيا من رقيق وخدم تؤدي الواجبات التي يريدها سادتهم منهم . وكان لهذه الطبقة شأن خطير في تأريخ العربية الجنوبية في القديم ، وأثر بليغ في اقتصاد البلاد ، وتزويد الحكومة بمصدر كبير من مصادر دخلها وهو الضرائب التي كانت تدفعها اليها .

وقد تعرض علماء العربية للفظة (المكر) ، فقالوا : ان من معانيها السوق ، وفيها يقع المكر والخداع . وان (الماكر) العير تحمل الزبيب ، والتمكير احتكار الحبوب في البيوت[1] . ولهذه المعاني صله مباشرة بالتجارة وبالاتجار في البرّ والبحر .

وفي العربية طبقة عرفت بـ « سلا » ، تعاطت تجارة الملح ، كانت تبيعه وتستورده وتصدره وتقوم بنقله من مواضعه الى الاسواق . وقد شبه « رودوكناكس » هذه الطبقة بـ « الكواليان » في الوقت الحاضر[2]

الطبقات الدنيا :

ومن الطبقات الدنيا عند العرب الجنوبيين : الـ (ادم) والـ (صغرم) (الصغر) (الصغار) ، والأجراء (اجرم) ، والمتربون (غبر) ، والـ (ومي) (امي) .

الادم :

وترد في كتابات المسند كلمة هي « ادم » و « ادومت » . وتقابل لفظتي « ادم » و « ادومت » و « آدمي » و « أوادم » في العراق ، بمعنى خادم وخدم[3] . ووردت في صورة : « اديمت » « اديمت » و « ادوم » في الكتابات

١ تاج العروس (٣/٥٤٩) ، (مكر) .
٢ Glaser 1571, A Grohmann, S., 124
٣ راجع النصوص الموسومة بـ : ٦٨٩ ، ٦٩٧ ، ٧٠٤ ، ٧٠٧ ، ٧١٢ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٣٠ ، ٧٨٤ من كتاب :
Jamme, Southarabian Inscriptions, p 76, 77
راجع النقش رقم (١٦) ، ص ٢٣) ، من كتاب خليل يحيى نامي : نقوش خربة معين .

القتبانية المتأخرة [١] . وتؤدي معنى التبعية . وأعني بالتبعية الاعتراف بسيادة رئيس على مرؤوس [٢] . فقد كان اصحاب الارض يؤجرون الارض لمن لا ارض لهم ، ومن لا مال لهم ، فيقيمون فيها يشتغلون لأصحابها ، ويكونون تبعاً لهم . ويعبرون عن هذه التبعية بتلك اللفظة المعبرة عنها . فهم في هذه الحالة اذن مزارعون يعيشون من كراء الارض [٣] .

وقد وردت هذه اللفظة بهذا المعنى ، خاصة في النصوص المتعلقة بقبيله « سخيم » [٤] . وهي ذات املاك واسعة وأرضين خصبة ، وأجرتها لمن لا ارض له من الوافدين عليها من الاماكن الاخرى ، لتستغل هذه الارضين وتعيش عليها ، معترفة بذلك انها في حماية هذه القبيلة وفي خدمتها .

وهي فضلاً عن ذلك تعبر عن التبعية بكل اشكالها ، فتعبر عن الانتماء الى شخص او قبيلة كذلك ، بمعنى ان « الادم » تابع لذلك الشخص او القبيلة ، منتمٍ اليه . ولذلك يذكر الـ « ادم » اسم سيده الذي ينتمي اليه ويحتمي به ، كأن يذكر اسمه او اسم القبيلة التي ينتمي إليها . وقد يعبر باللفظة عن معنى (تابع) و (خادم) بالمعنى المجازي ايضاً ، في مثل مصطلح « ادم ملكن » أي « خادم الملك » و « عبد الملك » و « آدم الملك » [٥] . وذلك تعبيراً عن الاحترام للملك وعن الاقرار بتبعية الشخص المذكور له ، وباخلاصه له اخلاص للعبد لسيده ، وان كنا نجد ان للملك حاشية كبيرة هي حاشية (ادم) حقيقية ، اي طبقة لا تملك ارضاً ولا ملكاً ، ومعاشها من خدمة الملك ، حيث يتولى القصر الانفاق عليها ، كما كانت للأسرة الكبيرة جماعات من الـ « ادم » تخدمها وتؤدي لها مختلف الأعمال .

١ Glaser 1398, Handbuch, I, S., 122, Anm 4.

٢ Rep Epig., VII, p. 296, 4651.

٣ Rep Epig., VII, p. Num 4651, 4662.

٤ Rep. Epig., VII, p 301, 4659, p 302, 4660, p. 303, 4062.

٥ SE 80, Rhodokanakis, Die Inschriften an der Mauer von Kohlan-Timna', 25, A. Grohmann, S. 124.

فال « ادم » إذن وفي الغالب ، تعبر عن جماعة من الناس كانوا أحراراً ، إلا انهم لم يكونوا من المتمكنين في حياتهم من حيازة أرض أو ملك ، لذلك جعلوا أنفسهم في خدمة غيرهم ، بأن كروا الأرضين من أصحابها ، لاستغلالها في مقابل حق معلوم ، او اتفقوا مع ثري على أداء عمل له في مقابل أجر يقدمونه اليه . وهم طبقة واسعة العدد . وهي لذلك أرقى منزلة وأحسن حالاً من حال العبيد المملوكين ، والرقيق المشترى من الأسواق .

وقد فسرّ بعض الباحثين كلمة (ادوم) (ادوام) و (اديمت) ، و (ادومت) ، بمعنى عمال الأرض ، او طبقة واطئة من المزارعين الذين لا يملكون أرضاً ، أحوالهم ضعيفة ، لأن ما ينتجونه لا يكفي لاعاشتهم . وذكروا ان كلمة « ضعيف » المستعملة في العربية الجنوبية تعبر عن ذلك المعنى المراد من تلك الكلمات [1] .

وقد ورد في بعض النصوص لفظ (ا ج ر م) بمعنى (أجير) و (أجراء) [2] ، وهم الأشخاص الذين يشتغلون بأجور يدفعها لهم أصحاب الأرضين أو أصحاب المال أو أصحاب العمل . وقد كانوا طبقة من الطبقات الدنيا ، بدليل ذكرهم في هذه الجمله : « كل معنم حرم واجرم » [3] ، (كلّ معينى حرّ وأجير) ، أي كل فرد من أبناء معين حر وأجير ، بتعبير أوضح . والأجراء هم أكثر حرية من العبيد ، لأنهم يشتغلون بأجر وبعقود يتفقون عليها . فإذا انتهى العقد ، او حصل خلاف ، جاز للأجير الانتقال الى موضع آخر ، او الى صاحب محل آخر للعمل لديه ، على حين لا يجوز للعبد فعل ذلك ، لأنه ملك يمين . والأجراء أناس أحرار ، يستطيعون التنقل والتصرف بحرية ، ولكنهم فقراء معدمون لا يملكون شيئاً ، وعيشتهم من العمل الذي يقومون به لغيرهم مقابل الأجر الذي يقدمه رب العمل لهم .

وقد يكون الأجر الذي يدفع عن عمل مقطوع ، وقد يكون عن أمد محدد كأن يكون أجر يوم واحد او أيام ، فإذا تم النهار دفع الآجر للأجير . وقد

---

١ A Grohmann, S, 124

٢ النعش رقم ٥٧٧ ، Jamme, Southerarabian Inscriptions.

٣ النقش رقم ٥ ، الفقرة ٣ من كتاب . نقوش خربة معين (ص ٥) .

يكون الأجر لموسم كامل ، كموسم زرع . وقد كان الأجراء يشتغلون في الزراعة خاصة كحرث الأرض وزرعها او حصاد الزرع او قطف الثمر . ولضعف هذه الطبقة ، وعدم تمكنها من أخذ حقها بالقوة ، كان بعض من يؤجرهم يأكل حقوقهم ، ولا يدفع أجورهم ، او يأكل قسماً منها . ونجد هذه الطبقة في العراق حيث أشير اليها في شريعة « حمورابي » ، كما نجدها في أماكن أخرى من العالم ، وما زال العامل يستخدم في مقابل أجور يومية للقيام بمختلف الأعمال [1] .

وقد ورد في الكتابات القتبانية ذكر جماعتين : جماعة عرفت بـ « غبر » ، وجماعة عبر عنها بـ (ومي) ، او (امي) [2] . و « الغبر » في عربية القرآن الكريم هم الفقراء والصعاليك ، وفي العربية كلمة أخرى تؤدي هذا المعنى هي لفظة (غَبْراء الناس) ، أي فقرائهم ، ومنه قيل للمحاويج بنو غَبْراء ، كأنهم نسبوا الى الأرض والتراب . وبنو غبراء الفقراء . وأما (الغرباء) ، فهم الصعاليك [3] . فالغبر ، إذن هم طبقة من الطبقات البائسة الدنيا التي كانت في قتبان وفي غير قتبان ، طبقة من الفقراء والصعاليك ، لا تملك شيئاً ، ليس لها في حياتها غير البؤس والتعاسة لأنها ولدت بائسة تاعسة فعاشت في تعاستها هذه في هذا العالم على صدقات الناس وعلى ما يحصلون عليه بالسرقة او بالاستجداء وبالقيام بالخدمات والأعمال المتعبة في سبيل الحصول على ما يقوتهم الى يوم خلاصهم من هذا العالم بالوفاة .

وبمعنى المحاويج والصعاليك ُفسّر بيت (طرفة بن العبد) ، بقوله :

رأيت بني غبراء لا ينكرونني   ولا أهل هذاك الطراف الممدّد [4]

وعرف (بنو غبراء) بـ (المدقعين) للصوقهم بالدقعاء ، وهي الأرض . كأنهم لا حائل بينهم وبينها [5] ، و (الدوقعة الفقر والذلّ) و (جوع أدقع وديقوع شديد) [6] .

١ Ancient Israel, p. 76

٢ A Grohmann, S., 124.

٣ اللسان (٥/٥ وما بعدها) .

٤ تاج العروس (٣/٤٣٧) ، (غبر) .

٥ المصدر نفسه .

٦ تاج العروس (٥/٣٣١) ، (دقع) .

وأما (الومي) (امي ؟) ، فطبقة من الطبقات الدنيا كذلك ، من هذه الطبقات العاملة البائسة التاعسة التي لا تحصل على عيشها إلا بشق الأنفس. ولعلّها الطبقة التي يقال لها « شفلوت » في العربية الجنوبية في هذه الأيام [1] . ويجوز ان تكون للكلمة صلة بلفظة « امي » في عربيتنا التي تعني الجاهل والشخص الذي لا يقرأ ولا يكتب .

وفي العربية لفظة « الحشم » ، قيل انها تعني المماليك والأتباع ، مماليك كانوا او أحراراً [2] . وورد ان الحشم الأحرار ، والقطين : المماليك [3] .

رؤوس وأذناب :

ونجـد التفاوت الاجتماعي في ذروته عند العرب الجنوبيين كما بينت ذلك من إيرادي للمصطلحات الاجتماعية المتقدمة . ويقع هذا التفاوت في الدولة وفي المجتمع عند الحضر وعند (اعربن) الأعراب . ويقع بين القبائل كما يقـع في القبيلة الواحدة . فالقبائل أيضاً منازل ودرجات . وعلى رأس القبائل القبيلة التي ينتسب لها المكربون او الملوك . مثل (معين) و (سبأ) و (قتبان) و (حضرموت) و (أوسان) . ولهذا ذكرت مع الآلهة والحكّام ونسبت اليها الحكومات . ثم ذكر بعدها القبائل الأخرى التي هي أقل أهمية منها . أما في القبيلة الواحـدة ، فنجد تفاوتاً بين أبنائها ، وقد رتبوا وصنفوا في درجات ومنازل . أعلاها عند السبئيين مثلاً أعضاء الـ (مزود) و (حسود ؟) ، أصحاب المشورة والرأي والذين يستشيرهم الملوك ، وهم طبقة ممتازة كانت فوق القانون ، ذات امتيازات خاصة . يليهـا أصحاب الأمـلاك والأرض والمال المسمّون بـ (مسحنن) في السبئية ، و بـ (طبنن) في القتبانية . ثم تليها طبقات أخرى تتدنى حتى تصل الى أسفل ، وهي طبقة (الادومت) (ادم) : طبقة (الاوادم) أي الخدم .

ويعـدّ المقربون الى الملوك من أشراف الناس ومن أصحاب الحظوه والجاه .

---

١ A. Grohmann, S, 125

٢ اللسان (١٢/١٣٦) .

٣ اللسان (١٣/٣٤٣) .

وهذا شيء طبيعي ، بالنسبة لكل مكان وزمان ، فالذي يصل الى الملك او الحاكم لا بد وان يكون من ذوي الجاه والمنزلة والمكانة . وقد عرف من اختص بالملوك بـ (أصفياء الملوك) وبـ (أحباء الملك) وبـ (ندماء الملوك) ، وهـم من الخاصة بالطبع . ويعبر عنهم بـ (مودد ملكن) في العربيات الجنوبية .

وأدنى الطبقات منزلةً في المجتمع ؛ هي طبقة العبيد ، هي طبقة تقوم بالخدمة وبسائر الأعمال التي يأنف الإنسان الحر من ممارستها . وقد يكون معظم أفرادها من الزنوج المستوردين من افريقية . وأما الباقون فمن الرقيق الأبيض المستورد من أسواق العراق ومن أسواق بلاد الشأم . وقد كان العبيد ملكاً يباع ويشترى بيع الأموال المنقولة ، ويتصرف صاحب العبد به تصرفـه بملكه الخاص ، ولم يخول القانون العبد حق ابداء رأيه في مستقبله في أي حال من الأحوال ، لأنـه ملك وبضاعة مملوكة ، وكالماشية ، وان كان إنساناً حيـّاً له ما لكل إنسان من روح وادراك وشعور .

ويعرف العبد بلفظة (عبدم) في الكتابات العربية الجنوبية ، أي (عبد) . وبلفظة (عبدن) ، أي « العبد » [1] . وتشمل كل العبيد ، مهما اختلفت ألوان بشرتهم . وترد هذه اللفظة في عربية القرآن الكريم كذلك ، وفي سائر اللهجات العربية الأخرى مثل اللهجة (اللحيانية) [2] ؛ كما ترد في لغة بني إدم (عبدو) وفي اللغة العبرانية [3] . وتستعمل اللفظة للتعبير أيضاً عن العبوديـة المعنوية ، مثل نسبة عبودية الإنسان الى الآلهة أو للملوك أو الكبار وللأشراف والسادات .

ونؤدي لفظة (قن) معنى عبد ؛ أمـا (قنت) (قنيت) (قنية) ، فتؤدي معنى عبدة . وردت بهذا المعنى في الكتابات الصفوية [4] . وتعبر عن طبقة العبيد التي كانت منتشرة في كل أنحاء جزيرة العرب ، وفي كل أنحاء العالم إذْ ذاك . إذْ كانت القوانين الحكومية والقوانين الدولية تعدّ الاتجار ببيع الرقيق تجارة

---

١ Rep. Epig., VII, p. 148, Num 4217, p. 155, Num. 4230, Southarabian Inscriptions, P. 444.

٢ Lihyan und Lihyanisch, S., 143

٣ Hastings, p 864

٤ Littmann, Safa., p. 139

مشروعة وتعدّ العبد ملك يمين لصاحبه ، متى أبق جاز لصاحبه ومالكه قتله . وهو ملك مثل أي ملك ، وحق الملكية حقّ مقدس مصون .

و « القن » في عربية القرآن : العبد الذي مُلك هو وأبواه . وعرف انه العبد الذي ولد عندك ، ولا يستطيع ان يخرج عنك . وورد (لم نكن عبيد قن ، إنما كُنّا عبيد مملكة) . وقيل : عبد قن الذي كان أبوه مملوكاً لمواليه ، فإذا لم يكن كذلك فهو عبد مملكة [1] . فالقن إذن هو عبد بالولادة ، وقد ورثه سيده ؛ فهو عَبْد عبدٍ ، أو عبدُ عبيدٍ .

و (القني المملوك ، فهو في ملك سيده . وقد اقتني وصار في مقتنيات مالكه ، فهو من طبقة المملوكين . ومن هذه الطبقة المملوكة جماعة عرفت بـ (رب ملكن) (ربب ملكن) (ربيب الملوك) (ربيب الملك) ، بمعنى (عبد الملك) و (عبيد الملك) [2] .

أبناء الحبش والأبناء :

وقد تولد من استيلاء الحبش على اليمن جيل جديد تعرّب وكوّن طبقة خاصة من طبقات مجتمع اليمن . وقد تكون هذا الجيل من عنصرين : حبش ولدوا في اليمن من أبوين حبشيين ، ثم بقوا في اليمن وعاش أبناؤهم فيها ، وحبش تزوّجوا من اليمن ، فنشأ لهم نسل فيه دماء الحبش ودماء أهل اليمن . وقد عاش الجيلان في اليمن وتعربا ونسيا أصلهما وصارا يتكلمان العربية واعتدّاها لغتهما ، ولكن ملامحهما الافريقية ، أو الملامح المختلطة دماسة ، لم تتمكن من الاختفاء عن الجيلين ، بل بقيت تنطق بأصلها وبصلتها القديمة بالأرض السوداء .

وعرف الجيل الذي ظهر في اليمن من تزوّج الفرس في العرب بـ « الأبناء » ، وغلب عليهم الإسم لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم [3] . وقد كتب اليهم النبي يدعوهم الى الاسلام . وقد ساعدوا المسلمين ودافعوا عن الاسلام وقاوموا الردة ،

---

١ اللسان (١٣/٣٤٨) ، تاج العروس (٩/٣١٤) ، (قن) .

٢ Rep. Epig 4145, Arabien, S, 125

٣ اللسان (١٤/٩١) ، (بنى) .

ومنهم وهب بن منبه بن سيج بن ذكبار ، وطاووس ، وذادويه ، وفيروز الديلمي [1] . وقد قيل عنهم : الأبناء قوم من العجم سكنوا اليمن ، وهم الذين أرسلهم كسرى مع سيف بن ذي يزن لما جاء يستنجده على الحبشة فنصروه وملكوا اليمن وتديروها وتزوّجوا في العرب ؛ فقيل لأولادهم الأبناء ، وغلب عليهم هذا الاسم لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم . وذكر أنهم عرفوا بـ (أبناوي) في لغة (بني سعد) و (بنوي) في لغة بعض العرب [2] .

ويظهر من بعض الأخبار ان العرب توسعت في مفهوم الأبناء فأطلقتها على كل الفرس الذين اجتذبتهم الحروب الى جزيرة العرب [3] .

وعرف « الأبناء » بتسمية أخرى أيضاً هي (بنو الأحرار) . أما الذين ولدوا من آباء فرس وأمهات عربيات فقد عرفوا في الكوفة بالأحامرة ، وفي البصرة بالأساورة ، وفي جزيرة العرب بالخضارمة ، وفي الشأم بالجراجمة [4] .

وقد ذهبت بعض كتب التواريخ التي ألفها أهل اليمن ، (ان أبناء اليمن ينتسبون الى (هرمز) الفارسي الذي أرسله كسرى مع سيف بن ذي يزن . فاستوطن اليمن . وأولد ثلاثة ، بهلوان ودادوان وبانيان ؛ فأعقب بهلوان بهلول . والداذويون يسعوان ، ومنهم بنو المتمير بصنعاء وصعدة وجراف الطاهر ونحر البون . والداذويون خوارج . ومنهم غزا كراذمار وهم خلق كثير) [5] .

وعرف العربيّ المولود من أمة بـ (الهجين) . وهو معيب . وقيل هو ابن الأمة الراعية ما لم تحصن ، فإذا حصنت فليس الولد بهجين . أو (مَنْ أبوه خير من أمه) . (قال المبرد : قيل لولد العربي من غير العربية هجين ، لأن الغالب على أولاد العرب الأدمة . وكانت تسمى العجم الحمراء ورقاب المزاود ، لغلبة البياض على ألوانهم) [6] .

١ الروض الأنف (١/٥٤) .
٢ تاج العروس (١٠/٤٨) ، (بنى) .
٣ البيان (٣/١١٤) .
٤ الأغاني (١٦/٧٣) .
٥ تاج العروس (١٠/٤٨) ، (بنى) .
٦ تاج العروس (٩/٣٦٥) ، (هجن) .

أما طبقات المجتمع الحضري بالنسبة الى العرب الآخرين وأسماؤها ، فلا ذكر لها في النصوص الجاهلية ، وانما ذكرت في الموارد الاسلامية،وأكثره مما يخص عرب الحجاز ؛ لأن اكثر ما ورد عن الجاهلية القريبة من الاسلام هو مما يخص موطن الاسلام . فكل اعتمادنا فيه على هذه الموارد الاسلامية .

وفي العربية ألفاظ عديدة تعبر عن منازل الناس في الشرف والسيادة . هي في الواقع من النعوت التي اطلقها الناس على الاشراف مبالغة في مدحهم وتفخيمهم . وأشراف القوم هم سادتهم من ارباب البيوت . ونجد في الموارد الاسلامية ذكر (اشراف قريش) . وهم كبار قريش وسادتها وأصحاب البيوت فيها . كما نجد تعبيراً يدل على الرئاسة والزعامة هو (رحى القوم) ، يقال لسيد القوم الذي يصدرون عن رأيه وينتهون الى أمره [1] .

وقد عيّر السودان في الجاهلية وفي الاسلام . عيّروا بسوادهم وبملامح اجسامهم وبطريقة تكلمهم . هذا حسان يهجو احدهم بقوله :

وأمّك سوداء نوبيّــة كأن أناملها الحنظب [2]

و (الخلاسي) الولد [3] بين أبوين أبيض وأسود ، ابيض وسوداء او اسود وبيضاء . فهو المضرب . وقال بعض علماء اللغة : تقول العرب للغلام اذا كانت امه سوداء وأبوه عربياً آدم فجاءت بولد بين لونيها غلام خلاسي والأنثى خلاسية قال الجاحظ : (ورأينا الخلاسيّ من الناس ، وهو الذي يتخلق بين الحبشيّ والبيضاء ، والعادة من هذا التركيب انه يخرج اعظم من ابويه وأقوى من أصليه ومشمريه . ورأينـا البَيْسَريّ من الناس ، وهو الذي يخلق من بين البيض والهند ، لا يخرج ذلك النتاج على مقدار ضخم الأبوين وقوتهما ، ولكنه يجيء أحسن وأملح) . [4]

وقد شابت السنة هؤلاء (طُمطمانية) ، اي عجمة . قال عنترة :

تأوي له فلص النعام كما اوت خرق يمانيــة لأعجمَ طمطم [5]

---

١ اللسان (١٤/٣١٤) ، (صادر) ، (رحا) .
٢ العمدة (١/٣٠٠) .
٣ تاج العروس (٤/١٣٨) ، (خلس) .
٤ الحيوان (١/١٥٧) ، (هارون) .
٥ تاج العروس (٨/٣٨١) ، (طم) .

السادات :

وسادة القوم اشرافهم ورؤساؤهم ، وذكر ان السيد الذي فاق غيره بالعقل والمال والدفع والنفع ، المعطي ماله في حقوقه المعين بنفسه . وذكر ان السيد : الحليم لا يغلبه غضبه [1] .

والسيادة منزلة ودرجة ، ولا تأتي احداً الا باعتراف قومه له بسيادته عليهم وبتنصيبهم له سيّداً عليهم . وكانوا اذا سوّدوا شخصاً عصّبـوه ، والتعصيب التسويد ، ولهذا كانوا يسمّون السيّد المطاع معصّباً . وذكر ان العصابة العمامة . وكانت عمائم سادة العرب هي العمائم الحمر [2] .

وتعدّ الأسر الحاكمة التي ينشأ فيها عدد كبير من الملوك والحكام اسراً عريقة في الشرف ، وينظر اليها نظرة تقدير واحترام ، لأنهم ورثوا المجد عن آبائهم أباً بعد أب . وينطبق ذلك على سادات القبائل الذين يرثون سيادتهم قبائلهم أباً عن جد ، فانهم يفتخرون بذلك على غـيرهم ، لأنهم ليسوا من اولئك الذين انتزعوا السيادة فصاروا سادة ، على حين كان آباؤهم او اجدادهم من الخاملين .

وقصد سادات القبائل وبعض الشعراء الكبار الملوك ، ورحلوا اليهم من منازلهم ، وتقربوا اليهم ، وتوسطوا لديهم لبعض الناس . وقد عرف هؤلاء بـ (الرحال) . ولهذا نجد في الكتب ، انها اذا تعرضت لمثل هؤلاء قالت عنهم انهم من (الرحال) . فقد عرف (عروة بن عتبـة بن جعفر بن كلاب) بـ (عروة الرحال) ، (وانما سُمّي الرحال لرحلته الى الملوك) [3] . كما عرفوا بـ (زوّار الملوك) ، ومنهم (ابو زيد الطائي) .

وأشراف الناس ، هم الذين نالوا الشرف والسؤدد بين قومهم ، فسادوهم . والسيد هو الرئيس ، ويطلق على الرب والمالك والشريف والفاضل والكريم وعلى من ساد قومه ، مثل سادات القبائل . وقد نعت رسول الله (سعد بن معاذ) بـ (سيّد الانصار) . وتقول العرب (هذا سيّدنا) و (فلان سيّدنا) ،

١ اللسان (٣/٢٢٨ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٣/٣٨٦) (طبعة الكويت) .
٣ البلاذري (١/١١٠) .

أي رئيسنا والذي نعظمه . وتقول (ساد قومه) ، اي صار سيدهم ورئيسهم [1] . ونعت (قيس بن عديّ) بـ (سيد قريش) [2] . وكان يوم وفاة (سعد بن معاذ) بالمدينة يوماً مشهوداً . حتى حضر الرسول جنازته وكبر عليه تسعاً ، كما كبر على حمزة ، تعظيماً لشأنه . وشهد دفنه [3] . وكان من عادة اهل مكة في الجاهلية انه اذا مات لهم سيد كبير اغلقوا اسواقهم اعظاماً لموته ، وتعبيراً عن تقديرهم له [4] . فغلق الاسواق عند الجاهليين عند وفاة رجل خطير من امارات التقدير والتعظيم .

ومن امارات تكريم الميت الشريف ، تجمع الناس عند بيته ، احتفالاً به لنقله الى موضع دفنه . واذا كان الميت خطير الشأن كان الجمع اكبر . وهو يتناسب في كثرته مع مكانة ودرجة الميت في المجتمع . وقد ذكر انهم كانوا يقولون للرجل الشريف يقتل : (العقيرة) [5] .

والسادات هم الرؤوس ، رؤوس الناس . اما من دونهم فأذناب . وعرفوا بـ (أذناب الناس وذنباتهم) ، اي اتباعهم وسفلتهم ، والاتباع دون الرؤساء . يقال : جاء فلان بذنبه ، اي اتباعه . قال الحطيئة يمدح قوماً :

قوم هم الرأس والاذناب غيرهم ومن يسوّي بأنف الناقة الذنبا [6]

والسادات (مصابيح الظلام) ومشاعله ، بنورهم يهتدي الفقراء واصحاب الحاجة والفاقة ، فينالون منهم ما يخفف عن كربهم وفقرهم . يطعمون الناس في الحضر والسفر ، فهم سادة الناس وملاذهم حين تغلق كل الابواب بأوجه الاذناب التاعسين البائسين .

ويقال لأشراف قوم وللبارزين منهم وجوه القوم ووجهاء القوم ، فورد (وكان من وجوه القرشيين) ، و (كان من وجوه قريش) . وأما (سروات) مثل

١ اللسان (٢٢٩/٣ وما بعدها) ، (صادر) ، (سود) .
٢ نسب قريش (٤٠٠) .
٣ الثعالبي ، ثمار (٦٤) .
٤ البلاذري ، انساب (٨٧/١) .
٥ تاج العروس (٤١٥/٣) ، (عقر) .
٦ تاج العروس (٢٥٤/١) ، (ذنب) .

(سروات الانصار) و (سروات قريش) ، ففي هذا المعنى ايضاً ، وجوه الانصار وأشرافهم ووجوه قريش وأشرافهم . و (السرّي) ، هو الرئيس [1] . وتعني كلمة (النواصي) خيار العرب واشرافهم . فيقال هو ناصية قومه ، وهو من ناصيتهم ونواصيهم . و (النصية) من القوم الخيار الاشراف [2] .

ويعرف الاشراف المعرقون بـ « النجوم » ، وواحدهم « نجم » . وقد اشار اليهم « حسان » في شعره ، فذكر ان الذين يحملون « اللواء » اي « لواء الحرب » ، هم النجوم [3] . ويقال لسادة الناس (الجحاجح) كذلك [4] . ويقال لهم : (العُرى) ، وهم سادات الناس الذين يعتصم بهم الضعفاء ، ويعيشون بعُرفهم . شبهوا بعرى الشجر العاصمة الماشية في الجدب [5] .

وأما لفظة (ربّ) التي تعني بعلا ايضاً ، وإلـهاً ، والتي تعبر عن معنى (إلـه) في الرمن الحاضر ، فقد اطلقت في لغة المسند على السيد والشريف ، لتعبر عن معاني التفخيم والاحترام ، وأطلقت في معنى (إلـه) ايضاً في النصوص المتأخرة في الغـالب ، وهي من الألفاظ السامية القديمة التي وردت في معظم لغات الساميين .

وقد وردت في عربيتنـا بمعنى المالك والسيد والمدبّر ، وأطلقت بمعنى الملك كذلك . وقد كان اهل الجاهلية يطلقونها على الملك ، قال الحارث بن حِلِزّةَ :

وهو الربّ والشهيد على يو م الحيـارين والبـلاء بلاء [6]

هذا وللسنّ اهمية كبيرة عند العرب ، لأن الانسان اذا ما تقدم في السن ازدادت حكمته وتجاربه في الحياة ورجح عقله . لذلك يكون مرجعاً لمن هو دونه في العمر ، وملاذاً في المشورات ، ويعبر عنهم بـ (ذوي الاسنان) [7] . وهم الطبقة الذكية

---

١ تاج العروس (١٠/١٧٦) ، (سره) .
٢ تاج العروس (١٠/٣٧٠) ، (نصا) .
٣ لم تطق حملـه العواتق منـهم انمـا يحمـل اللـواء النجوم
البرقوقي (ص ٣٨٠) ، ديوان حسان (هرشفلد) (ص ١٩) .
٤ ديوان حسان (ص ٣٦) (هرشفلد) .
٥ اللسان (١٥/٤٦) ، (عرا) .
٦ تاج العروس (٢/٤٥٩) (الكويت) ، (رب) (ربب) .
٧ اللسان (١٣/٢٢٢) ، (صادر) ، (سنن) .

الفطنة المجربة من ذوي المكانة في الناس بالطبع . ولهذا نجد القبائل تتمسك بأخذ الرأي والمشورة من ساداتها المسنين ومن حكمائها المعمَّرين ، لأنهم عركوا الحياة وخبروها وعرفوا ما فيها من مرّ وحلو . لذلك جعلوهم في الطبقات العليا من الناس .

و (الربّ) الرئيس والمرجع ومن تكون اليه الطاعة . والارباب ، هم السادات (قال المنذر يوماً لخالد ، وهم على الشراب ، يا خالد ، من ربك ؟ فقال خالد : عمرو بن مسعود ربّي وربك . فأمسك عليهما)[1] . و (المنذر) هو المنذر الأكبر اللخمي ، وخالد ، هو خالد بن نضلة . ولهذا كان يقول العبد لسيّده : ربّي . وتقول حاشية السيّد والملك لسيدها وملكها : ربّنا .

قال الحارث بن حازّة :

ربُّنا وابننـــا وأفضل من يـ ـمشي ومن دُون ما لديه الثناء

وقال لبيد حين ذكر حذيفة بن بدر :

وأهلكن يوماً ربّ كندة وابنه ورب معدّ بين خبْتٍ وعرعر[2]

و (الخُطر)[3] الاشراف من الرجال العظيمو القدر والمنزلة . والخطير الواحد . ويقال للرجل الشريف ، هو عظيم الخطر . وقوم خطيرون : قوم اشراف[4] . ويقال (العبقري) للكامل والسيد من الرجال . وهو سيد القوم وكبيرهم والذي ليس فوقه شيء والشديد القوي[5] .

وقد عرف سادة قريش ووجوهها بـ (خضراء قريش) . ولما صعد الرسول (الصفا) ، عام الفتح ، وجاءت الانصار فأطافوا بالصفا وجاء (ابو سفيان) ، فقال : (يا رسول اللهِ أُبيدت خضراء قريش ! لا قريش بعد اليوم)[6] . يقصد

١ أسماء المغتالين ، (ص ١٣٣) ، (نوادر المخطوطات) ، (عبدالسلام هارون) .
٢ الحيوان (١/٣٢٨ وما بعدها) ، (هارون) .
٣ بضم الخاء .
٤ تاج العروس (٣/١٨٤) ، (خطر) .
٥ تاج العروس (٣/٣٧٩) ، (عبقر) .
٦ صحيح مسلم (٥/١٧٢) ، (باب فتح مكة) .

نخبة قريش وخاصتها ، في مقابل (أوباش قريش) ، الذين قال عنهم الرسول للأنصار : يا معشر الانصار ! هل ترون أوباش قريش [1] .

والأخضر عند العرب الأسود . وقد افتخر (الفضل بن عبّاس بن عتبة اللهبي) بلونه ، اذ قال :

وأنـــا الأخضر من يعرفـــني   أخضر الجلدة في بيت العرب

يقول : أنا خالص لأن الوان العرب السمرة ، وأنه عربي محض لأن العرب تصف ألوانها بالسواد ، وتصف الوان العجم بالحمرة ، والخضرة عند العرب السواد [2] . وورد (خضر غسان) ، و (خضر محارب) . قال الشاعر :

ان الخضارمة الخضر الذين غدوا   أهل البريص ثمانٍ منهم الحكم

والخضارمة جمع خضرم ، وهو السيّد الحمول [3] .

ويقال لمن هم دون الاشراف وفوق الطبقات الدنيا ، (اوساط الناس) ، و (الاوساط) ، و (اللهازم) . يقال هو من لهازم القبيلة ، اي من اوساطها لا اشرافها [4] .

المستضعفون من الناس :

والمستضعفون من الناس ، كثيرون ، وقد نظر اليهم مجتمعهم نظرة ازدراء واستهجان ، واعتدّهم من الطبقات الدنيا . إما لفقرهم وضيق ذات يدهم ، ومنهم الفقراء والصعاليك والمحتاجون وأبناء السبيل ، واما لطيشهم وخروجهم من مجتمعهم ، ومنهم الطريد والضالّ والخليع ، واما لانشغالهم بحرف يدوية ، وهي حرف لا تليق بالرجل الكريم ، ولا سيما الحرف الدنيا مثل الحلاقة والحجامة والحمالة وأمثالها ، واما من ناحية اصلهم ، مثل ان يكونوا عبيداً او عبيداً مملوكين .

ولاستصغارهم شأن الحرف اليدوية ، لم يقبل عليها الاحرار وابناء البيوت، الا

١ صحيح مسلم (٥/١٧٠ وما بعدها) ، (باب فتح مكة) .
٢ تاج العروس (٣/١٧٩ وما بعدها) ، (خضر) .
٣ الحيوان (٣/٢٤٧) ، (هارون) .
٤ تاج العروس (٩/٦٩) ، (لهزم) .

من اضطرته الفاقة ووجد الا سبيل له الى العيش الا بالاشتغال بها ، فانصرف اليها صاغراً . ولهذا كان اكثر اصحاب الاعمال اليدوية من الرقيق والاعاجم واليهود. واذا اخذنا بروايات اهل الاخبار نجد ان عدد اصحاب الحرف اليدوية كان قليلاً جداً ، فلم يكن في مكة مثلاً احد من النجارين البارعين على ما يفهم من رواياتهم كروايتهم عن اعادة بناء الكعبة قبل النبوة بخمس سنين ، او كانوا قلة يعدّون عداً . وكذلك يقال عن بقية الحرف ، ويقال مثل ذلك عن يثرب . ولا استبعد ان تكون في روايات اهل الاخبار مبالغات ، ولكننا لا نستطيع نكران ازدراء العرب للحرف والصناعات .

وكانوا يعيرون من يتروج من ابنة صائغ او حداد او نجار ، ويعيرون نسله ، ولا سيا اذا كان من بيت رفيع . وقد وجد اعداء (النعمان بن المنذر) آخر ملوك الحيرة وحساده في أمه (سلمى) التي قيل انها ابنة قين او صائغ يهودي ، سبباً قوياً من اسباب استهزائهم به والاستصغار لشأنه . اما الحرفي ، اي الذي يشتغل بالحرف اليدوية ، فلم يكن من السهل عليه التروج من بنات الاحرار ، لما قد تتعرض له أسر البنات من تعيير وسبّة واهانة بين الناس ، بتزويجهم ابنة حرة لشخص وضيع مستصغر .

وأدنى المتعيشين بالحرف منزلة ، الحلاقون والحجّامون والحمّالون ، ثم اولئك الذين يعيشون على تلهية الناس ، مثل سائس قرد ، وهو الشخص الذي يربي القردة ويعلمها القيام ببعض الالعاب لتسلية المتفرجين واضحاكهم في مقابل صدقة يقدمونها لقردته وله ، ومثل اناس آخرون يربون حيوانات اخرى للغرض نفسه ، او يتخذون لهم مهنة اضحاك الناس عليهم لدر عطفهم والجود عليهم ، ومثلهم المخنثون والمغنون المطربون .

وقد عرف المعدمون المتربون ، وهم الذين لا يملكون شيئاً بـ (بني غبراء) ، للزقهم بغبراء الارض ، ويقال لهم (الصعاليك) ايضاً [1] ، وقد ذكرت قبل قليل

١ اللسان (١٤/٩٢) ، (بنى) ، (هم اللصوص والصعاليك المهتدون في مجاهل الارض ، والعالمون بطرقها . وقيل : بل هم الفقراء اللاصقون بالغبراء من سوء الحال ، على غير عطاء ولا وطاء ، قال طرفة بن العبد :

رأيت بني غبــراء لا ينكرونني ولا أهل هذاك الطــراف الممدد

يقول : أنا معروف عند الاخيار والاشرار ، وعند اللئام والكرام) ، الثعالبي ، ثمار (١/٢٧٠) .

ورود لفظة « غبر » في الكتابات القتبانية ، وان لها صلة بـ (غبراء الناس) وبـ (بني غبراء) في عربيتنا . وقد تكون لهذا المصطلح صلة بمصطلح اختلف علماء التوراة في المراد منه ، هو مصطلح (عم هـ — ارز) ، أي (ناس الأرض) (أهل الأرض) ، فقد ذهب بعض العلماء الى انها تعني طبقة وضيعة من سواد الناس ، أو (الفلاحين) الذين يعيشون على استغلال الأرض .

ونعت الخادم الذي يخدم بطعام بطنه (بالعضروط) ، وهو الصعلوك ، والعضاريط الصعاليك . وتعهد الى العضروط مختلف الخدمات ، مثل العناية بالراحلة وأداء أي عمل آخر يقوم به في مقابل طعام بطنه [1] . ويقال للعضروط : اللعموظ ، وهو الذي يخدم بطنه . و (العضارط) الأجراء [2] .

و (الخول) العبيد والخدم ، ويقال : القوم خول فلان ، أي أتباعه ، وهم حشم الرجل وأتباعه . ويقع على العبد والأمة [3] فهم إذن الأتباع المغلوبون على أمرهم الخاضعون لحكم المتحكمين في رقابهم من السادة .

والمملوك خلاف الحر ، والرقيق : المملوك واحد وجمع . والرقيق العبد [4] . ورق صار في عبودية [5] . والعبد : المملوك خلاف الحر [6] . ونجد لعلماء اللغة تفاسير كثيرة لمعنى (العبد) ، والرقيق ، وفي مدى حرية كل واحد منهما . وقد استعملت لفظة (العبد) للدلالة على معان مجازية ، ومعان حقيقية . فقد قصد بها الخضوع والتذلل ، ولهذا نهي عن استعمالها بهذا المعنى في الاسلام ، فورد : (لا يقل أحدكم لمملوكه عبدي وأمتي ، وليقل : فتاي وفتاتي) [7] . وقصد بها أيضاً العبودية الحقيقية .

ولفظة (عبد) و العبد) لفظة عامة في الأصل ، وقد وردت بهذا المعنى في أكثر اللغات السامية ، فاستعملت في معان مجازية وفي معان حقيقية ، ولم تكن

١ اللسان (٣٥١/٧) .
٢ اللسان (٣٥١/٧ ، ٤٦٠) .
٣ اللسان (٢٢٥/١١) ، (صادر) ، (حول) .
٤ اللسان (١٢٤/١٠) ، (صادر) ، (رق) .
٥ اللسان (١٢٣/١٠) ، (صادر) ، (رق) .
٦ اللسان (٢٧٠/٣) ، (عبد) .
٧ اللسان (٢٧١/٣) ، (عبد) .

تعني شخصاً مملوكاً بالمعنى الحقيقي من لفظة (مملوك) بالضرورة . وطالما نقرأ في كتب أهل الأخبار جملاً ، مثل : (ومن هو ؟ إنما هو عبد من عبيدي) ، و (أنت عبد من عبيدي) ، وذلك تعبيراً عن ازدراء شخص لشخص آخر ، واستصغاراً لشأنه ، لأنه جعله في منزلة خدمه وعبيده .

واستعملوا لفظة : (عبد) و (العبد) بالمعنى الحقيقي الخاص بالعبودية ، وقصدوا بها (مملوكاً) ، فقالوا : (كان عبداً روميّاً) ، وقالوا : (كان عبداً حبشياً) ، فقصدوا بها (مملوكاً) كائناً ما كان لونه ، أو جنسه . والظاهر ان المتأخرين قد غلّبوا استعمالها على العبيد والسُّود ، فأطلقوها عليهم من غير ذكر صفتهم ، وعنوا بها الرقيق الأسود حَسْبُ .

وقد ذكر بعض علماء اللغة ان (العبد) اذا مُلك ولم يملك أبواه ، أو الذي سبي ، ولم يُملك أبواه . وقالوا : هم عبيد مملكة ، وهو ان يغلب عليهم ويُستعبدوا وهم أحرار . وفي الحديث : « ان الأشعث بن قيس خاصم أهل نجران الى عمر في رقابهم ، وكان قد استعبدهم في الجاهلية ، فلما أسلموا ، أبوا عليه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين إنا انما كنا عبيد مملكة ولم نكن عبيد قن [1] . أي ان يغلب عليهم فيستعبدهم وهم في الأصل أحرار .

وذكر علماء العربية ان القن : العبدُ الذي مُلك هو وأبواه ، وان العبد القن الذي ولد عندك ولا يستطيع ان يخرج عنك . وعبد قن خالص العبودة [2] . فالقن إذنْ ، هو العبد المملوك ، الذي تنقل اليه العبودية عن أبيه . وقد أسلفت ان هذه اللفظة وردت في لغة المسند ، وانها كانت تعني هذا المعنى عندهم أيضاً . ويشبه العبد القن ، العبد الذي يقال له (CERF) عند الرومان . و « القين » : العبد والجمع قيان [3] .

ويعبر عن العبد بلفظة « مولى » أيضاً ، ويراد بها المعتق كذلك . وتؤدي معاني اجتماعيــة أخرى ذكرها علماء اللغة منهــا : الحليف ، والعقيد ، والربّ

١ اللسان (١٠/٤٩٣) ، (ملك) .
٢ اللسان (١٣/٣٤٨) ، (قنن) .
٣ اللسان (ق/ي/ن) ، (١٣/٣٥١) .

والمالك ، والسيد . ويتبين معناها من الاستعمال [1] . وقد كان بمكة وسائر الأمكنة الأخرى من جزيرة العرب عدد كبير من الموالي .

والعبيد هم حاصل الحروب . فإذا وقع انسان أسيراً في غزو او حرب صار ملكاً لآسره ، ان شاء مَنّ عليه ففك رقبته ، وان شاء ملكه فصار عبداً له . يحتفظ به لنفسه ان أراد ، او أن يهديه لغيره فيصير في ملك من أهدي له ، او ان يبيعه ، فيقبض ثمنه ، فتنتقل ملكية العبد الى شاريه . فالسباء هو مصدر مهم من مصادر الرقيق .

ومورد آخر أمدّ الجاهليين بالعبيد ، هو التجارة : تجارة العبيد . وقد اختص بها قوم عرفوا بالنخاسين . يأتون بالرقيق من مختلف الأماكن ويبيعونه . وكانت تجارة رابحة .

ومن العبيد ، قوم كانوا مدينون فلم يتمكنوا من سداد ديونهم فبيعوا رقيقاً . ومنهم من صار رقيقاً لعدم تمكنه من دفع مال يجب عليه تأديته . كالذي روي من تقامر أبي لهب والعاص بن هشام ، على ان من قمر صار عبداً لصاحبه ، فقمره أبو لهب فاسترقه واسترعاه ابله [2] .

ويكون عدد ما يملكه الانسان من الرقيق امارة على الغنى والمنزلة والجاه والقوة . هم قوة لأنهم عُدّة لسيدهم في القتال وفي الدفاع عنه حتى وان كرهوه . وهم خدم له يؤدون له كل ما يطلبه منهم من أعمال ، ولا يخلو منهم بيت . وذكر ان بعض السادات كان يملك المئات من العبيد فلما وفد (ذو الكلاع ملك حمير) على أبي بكر (ومعه ألف عبد دون من كان معه من عشيرته وعليه التاج ، وما وصفنا من البرود والحلل) [3] .

وكان كثير من ملاك الرقيق ذوو قلوب غلاظ ، لا يرحمون عبيدهم ولا يرفقون بهم . واذا شهد العبد غزواً أو حرباً وغنم فلا يعطى حقه له ، ويؤخذ

١ اللسان (و/ل/ي) ، (١٥/٤٠٩) .
٢ الأغاني (٣/١٠٠) .
٣ التنبيه (٢/٢٩٩) ، (باب ذكر خلافة أبي بكر الصديق) .

سهمه ويعطى الى سيده . ولم يكونوا يثقون بأمانة رقيقهم [1] لذلك حقد العبيد على سادتهم ، وانضموا الى أعدائهم ان وجدوا فرصة مؤاتية لهم أملاً منهم باصلاح الحال . ولما حاصر الرسول الطائف نادى مناديه : (أيما عبـد نزل فهو حر وولاؤه لله ورسولهِ) فنزل جمع منهم وأسلموا وصاروا أحراراً [2] .

ويذكر علماء اللغة طبقة سموها (القطين) ، وهم في عرفهـم تبّاع الملك ومماليكه ، والخدم والأتباع . وقالوا أيضاً : ان القطين تبع الرجل ، ومماليكه ، وخدمه [3] .

ويقال للرعية من الناس (السُّوقة) سمّوا بذلك لأن الملوك يسوقونهم فينساقون لهم [4] . وأما (سواد الناس) ، فعامتهم .

وكـل من ذكرت من الطبقات الدنيا هـم « سوقة » . و « عوام » ، و « سواد » .

ويقال للأخلاط والسفلة من الناس : الأوباش . وهم مثل الأوشاب [5] . وأما الأشابة فأخلاط الناس تجتمع من كل أوب والتأشب التجمع . ويقـال : أوباش من الناس وأوشاب . وهم الضروب المتفرقون [6] .

ويذكـر علماء اللغة ان أهـل اليمن يطلقون على المستضعفين من النـاس (مستخمرون) . و (المستخمرون) هـم الجيران الضعفاء . من (أخمـره الشيء) ، بمعنى أعطاه إياه أو ملكه بلغة اليمن [7] .

ويقال لأوغاد الناس وأرذالهم (الطغام) و (الطغامة) . وذكر ان (طغامة)

١ الأغاني (١/٣٢) ، (١٤/١٢٤١) .
٢ العقد الفريد (٣/٢) .
٣ اللسان (١٣/٣٤٣) ، (قطن) .
٤ ديوان بشر بن أبي خازم (ص ٢٠٠) .
٥ تاج العروس (٤/٣٦١) ، (وبش) .
٦ تاج العروس (٢/١٤٨) ، (أشب) ، (هل ترون أوباش قريش) ، صحيح مسلم (٥/١٧١) ، (فتح مكة) .
٧ اللسان (٤/٢٥٨) ، (خمر) .

و (دغامة) الأحمق . وورد (ياطاسة الأحلام) ، بمعنى من لا عقل له ولا معرفة ، وقيل : هم أوغاد الناس وأسافلهم [1] .

وعرف أوغاد الناس بـ (أولاد درزة) . وذكر ان أولاد درزة : السفلة والسقاط والغوغـــاء من الناس ، كذلك أولاد ترنى . و (أولاد درزة) أيضاً الخيّاطون . ويقال : أولاد درزة هـــم الحاكة ، وهم من أسافل الناس ، كما صرح به المفسرون في قوله تعالى : واتبعك الأرذلون . وابن درزة الدعي ، أو ابن أمة تُساعي ، فجاءت به من المساعاة ولا يعرف له أب [2] .

أهل الوبر :

ما ذكرته عن المجتمع يتناول الحضر ، أمـــا المجتمع البدوي ، أي مجتمـــع الأعراب ، فمجتمع ساذج ليس في تكوينه تعقيد ولا تعدد طبقات . صقلت البادية أهلها ، وبسطت لهم أسلوب الحياة ، وقلصت من الفروق الطبقية ، فلا تجـد فيها ما نجده عند الحضر من اختلاف كبير في منازل الناس .

وكل ما هنالك من طبقات : سادات القبائل ، وهم رؤساء القبيلة وأشرافها ، وأحدهم (سيد القبيلة) أو رئيس القبيلة . ثم أشراف العشائر ومتفرعاتها . ولهم أموال ، ورقيق يخدمونهم . أما سواد القبيلة ، فهـــم منتشرون في أرض القبيلة على هيأة مجتمعات صغيرة متفرقة مبعثرة ، لضيق العيش الذي لا يساعد على تجمع أفراد القبيلة تجمعاً كبيراً في محل واحد ، تظهر فيه الحرف وتتنوع الأعمال التي تكون ضرورية لمجتمع الحضر .

ولسادات القبائـــل المال ، وهي : الإبل . يشربون من ألبانهـــا ، ويأكلون لحومها ، وهم الذين في استطاعتهم الذهاب الى القرى والمدن ومواطن الحضارة للعيش فيها زمناً ، ولشراء ما يجدون في أسواقهـــا مما يحتاجون اليه من سلع .

---

١ اللسان (٣٦٨/١٢) ، (صادر) ، (طغم) ، تاج العروس (٣٨٠/٨) ، (طغم) .

٢ تاج العروس (٣٥/٤) ، (درز) ، (أبناء درزة كناية عن السفل والسقاط ، ويقال لهم : أولاد درزة . قال المبرد : هم خياطون من أهل الكوفة خرجوا مع زيد بن علي)، النيسابوري ، ثمار (٢٧١) .

وللتمتع بمناظر الحضارة . ولزيارة الملوك والحكام . والساكن منهم على مقربة من الحضر ، يخالطهم وقد يشتري له ملكاً يعيش فيه بينهم . فاذا جاء الربيع ، وحمد وقت البادية عاد الى وطنه ، ليرعى ماله ، ولينظر في شؤون قبيلته .

وقد استخدم الاعراب (العبيد) ايضاً ، ولكنهم لم يكثروا من استخدامه استخدام اهل الحضر له ، لعدم وجود حاجة كبيرة عندهم اليه . وقد كان عبيد الاعراب اكثر حرية وأحسن حالاً من عبيد اهل الحضر ، ذلك لأن البادية لا تعرف الاعمال المرهقة ، ولا الحرف الكثيرة التي فرضتها الحضارة على اهل الحضارة ، لذلك صارت الاعمال التي يقوم بها عبيد الاعراب اقل بكثير من الاعمال التي يقوم بها عبيد اهل القرى ، وصار العبد في البادية الصق بصاحبه من مثيله في القرية ، حتى صار وكأنه جزء من اهل البيت الذي اشتراه أو ورثه .

بيوت العرب :

لقد تبين لنا مما تقدم ان العرب وان بدوا وكأنهم سواسية كأسنان المشط ، الكل متساوون في المعاملة لا فرق عندهم بين غني وفقير ، كل معتز بنفسه فخور بفعاله ، الا انهم مع ذلك وفي الواقع طبقيون ، لكل طبقة عرف وتقاليد ، فبيوتهم تتفاوت عندهم في الشرف والمكانة ، هناك بيوت اشتهرت في القبيلة وحافظت على فعالها ومكانتها ، وكانت تتفاخر وتتباهى على غيرها فلا تزوج احداً من ابنائها او بناتها الا لمن كان كفؤاً لها .

وقد تحدث اهل الأخبار والانساب عن بيوت برزت في القبائل وتفوقت على غيرها في ناحية من نواحي الفضل والفخر . فذكر ابن الكلبي : مثلاً ان العدد من تميم في بني سعد ، والبيت في بني دارم ، والفرسان في بني يربوع ، والبيت من قيس في غطفان ، ثم في بني فزارة ، والعدد في بني عامر ، والفرسان في بني سليم ، والعدد من ربيعة في بكر ، والبيت والفرسان في شيبان [1] .

وكان يقال : اذا كنت من تميم ففاخر بحنظلة ، وكاثر بسعد ، وحارب بعمرو ،

[1] العمدة (٢/١٩١) .

واذا كنت من قيس ففاخر بغطفان ، وكاثر بهوازن ، وحارب بسليم ، واذا كنت من بكر ففاخر بشيبان ، وكاثر بشيبان ، وحارب بشيبان [1] .

وقد اشتهرت ثلاثة بيوت شهرة خاصة في الجاهلية القريبة من الاسلام ، وهي : بيت بني زرارة ، وهم من (بني عبد الله بن دارم) في تميم ، وبيت (بني بدر) ، وهم من (بني فزارة) من (بني قيس) ، وبيت (ذي الجدّين) ، وهم من (بني شيبان) من (بكر بن وائل) [2] .

وجعل (أبو عبيدة) بيوت العرب ثلاثة : فبيت قيس في الجاهلية بنو فزارة ، ومركزه بنو بدر ، وبيت ربيعة بنو شيبان ، ومركزه ذو الجدين ، وبيت تميم بنو عبد الله ابن دارم ، ومركزه بنو زرارة [3] . وذكر انه قال : ليس في العرب اربعة اخوة انجب ولا أعدّ ولا اكثر فرساناً من بني ثعلبة بن عكابة . وكان يقال له الأغر والحصن . وبنوه : شيبان وذهل وقيس وتيم الله . وفارس غطفان الربيع بن زياد العبسي ، وفاتكها الحارث بن ظالم ، وحكمها هرم بن قطبة ، وجوادها هرم بن سنان المري ؛ وشاعرها النابغة الذبياني . وفارس بني تميم عتيبة بن الحرث بن شهاب احد بني يربوع . وفارس عمرو بن تميم طريف بن تميم العنبري . وفارس دارم عمرو بن عدس ، وفارس سعد فدكي بن المنقري ، وفارس الرباب زيد الفوارس ابن حصين الضبيّ ، وفارس قيس عامر بن الطفيل ، وفارس ربيعة بسطام ابن قيس [4] .

وقال ابو عمرو بن العلاء : بيت بني سعد الى الزبرقان بن بدر من بني بهدلة بن عوف بن كعب بن سعد ، وبيت بني ضبة بنو ضرار بن عمرو الرديم ، وبيت بني عديّ بن عبد مناة آل شهاب من بني ملكان ، وبيت التيم آل النعمان ابن جساس [5] .

وزعم (ابن الكلبي) ان آل حصن الفزاريين ، وآل الجدّين الشيبانيين ،

---

١ العمدة (٢/١٩٢) ، بلوغ الأرب (٢/١٨٩) .
٢ الكامل (١/٣٥) .
٣ العمدة (٢/١٩٢) .
٤ بلوغ الأرب (٢/١٨٩) .
٥ العمدة (٢/١٩٢ وما بعدها) .

وآل عبد المدان الحارثين • هم اعلى بيوت العرب . ويقال : بيت تميم في بني حنظلة ، اي شرفها [1] . فهذه البيوت هي البيوت البارزة المسلم لها بالسيادة والشرف عند الجاهليين على رأي (ابن الكلبي) .

وذكر (الجمحيّ) : ان الفروسية في اليمن في بني زبيد بن عمرو بن معديكرب . وان شاعر اليمن امرؤ القيس ، وأن بيتها في كندة : في الأشعث ابن قيس . لا يختلف في هذا وانما اختلف في نزار . وقال اخباريّ : كان بيت قيس في آل عمرو بن الظرب العدواني ، ثم في غني في آل عمرو بن يربوع ، ثم تحوّل الى بني بدر . فجاء الاسلام وهو فيهم . وقال الاخفش : فرعا قريش هاشم وعبد شمس . وفرعا غطفان بدر بن عمرو بن لودان وسيّار بن عمرو بن جابر . وفرعا حنظلة رياح وثعلبة ابنا يربوع . وفرعا ربيعة بن عامر بن صعصعة جعفر وأبو بكر ابنا كلاب . وفرعا قضاعة عذرة والحرث بن سعد [2] .

وقد ذكر (الجاحظ) ان هناك قبائل في شطرها خير كثير ، وفي الشطر الآخر شرف وضعة . (فمن القبائل المتقادمة التي في شطرها خير كثير ، وفي الشطر الآخر شرف وضعة ، مثل قبائل غطفان وقيس عيلان ، ومثل فزارة ومرّة ، وثعلبة ، ومثل عبس ، وعبد الله بن غطفان ، ثم غنيّ وباهلة ، واليعسوب والطفاوة . فالشرف والخطر في عبس وذبيان ، والمبتلى والملقّى والمحروم والمظلوم ، مثل باهلة وغنيّ . ومن هذا الضرب تميم بن مرّ ، وثور وعكل ، وتميم ومزينة . ففي عُكل وتيم ومزينة من الشرف والفضل ما ليس في ثور) [3] .

وذكر (الجاحظ) ان بعض الناس تكبّروا على غيرهم ، لما وجدوا لأنفسهم من الجاه والثراء والمكانة ، ومنهم : بنو مخزوم ، وبنو أُمية ، وبنو جعفر بن كلاب ، وبنو زرارة بن عدس . فلم يكونوا كبني هاشم في تواضعهم ، وفي انصافهم لمن دونهم [4] .

الشرف :

وللشرف مقام كبير عند العرب . واذا دخل شريف قوم في مجتمع جلس في

١ تاج العروس (١/٥٣٠) ، (ست) •
٢ بلوغ الأرب (٢/١٩٠) •
٣ الحيوان (١/٣٥٩ وما بعدها) ، (هارون) •
٤ الحيوان (٦/٧٢) ، (هارون) •

المقام اللائق به. ويلعب هذا المقام دوراً كبيراً في مجالس الملوك وفي مجالس سادات القبائل وفي اندية الحضر. واذا لم يأخذ الشريف مكانه، كأن يجلس في مجلس هو دون مجلسه اللائق بمقامه بالنسبة الى الحاضرين، عدّ ذلك اهانة له، ومعاملة سيئة متعمدة. قد تأتي بأوخم النتائج اذا كان الشريف من اصحاب الحول والطول. ولهذا كان الملوك خاصة وسادات القبائل يراعون حرمة المكان، ويُعيّنون للقادم مكانه، بأسلوب لطيف لا يثير مشاعر الجالسين ولا يشعرهم بأنهم فصلوا اهانتهم ان طلبوا من القادم التقدم على الحاضرين، والجلوس على مقربة منهم. وذلك على حسب مكانته ومنزلته، والغالب أن ينص على المكان الذي سيجلس به.

والشرف في العرف الجاهلي، هو الحسب بالآباء. والشرف والمجد عندهم لا يكونان الا بالآباء. اما الحسب والكرم فيكونان، وان لم يكن له آباء لهم شرف[1]. ولهذا حرصوا على استمرار الشرف في الأسر الشريفة، وعلى امدادها بالحيوية والنشاط حتّى يبقى الشرف متألقاً لامعاً فيها. ومن ذلك الزواج المكافىء والفعال الحميدة والمحافظة على سجايا الأسرة الطيبة، والأعراف المثالية، والتمسك بالنسب وعدم تلويثه بدم من هو دونهم في الشرف، ورعاية ذلك النسب وحفظه، ليكون نسب كل شريف بيّناً واضحاً ظاهراً للناس.

ومن الشرف: التخلق بالأخلاق الحميدة، وعمل الامور المُحبّبة المفيدة التي تخلد الذكر لصاحبها وتجعل الناس يلهجون باسمه من ذلك.

العرض:

والعرض في معنى الشرف، ويتجلى في مظاهر متنوعة يراد بها صيانة السمعة وطرد سوء الظن وما يخدش شرف الانسان من سوء او مكروه. وهو لا يكتفي بالدفاع عن عرضه، بل يلزم نفسه ايضاً بالدفاع عن عرض قبيلته وعن عرض من يدخل في جواره او في حلفه، لأن اعراضهم عرضه. فهو يلزم نفسه بلوازم كثيرة ثقيلة، يحاول مهما كلفه الأمر الوفاء بها خشية العار. وهو في سبيل الوفاء بالتزامات العرض يفعل ما يشاء، ويدخل في ذلك القتل والعنف في سبيل الدفاع عن الالتزامات التي ألزم نفسه بها في سبيل حماية العرض[2].

---

١ اللسان (٩/١٦٩)، (شرف).
٢ بلاشير (ص ٣٨ وما بعدها).

واذا مُسّ عرض امرىء بأذى هاج وأهاج مَنْ هو من ذوي دمه ولحمه ، للاقتصاص ممن دنس عرضه . وهو لا يهدأ حتى يأخذ بثأره ممن داس على عرضه . فثأر العرض مثل ثأر القتل ، لا يهدأ صاحبه ولا يهجع الا اذا اخذ بثأره ممن تجاوز على عرضه . والغالب في عقوبة هذا الثأر الذبح . اي بقطع الرأس عن الجسد . يذبح حتى في حالة اذا كان قد توفي من طعنة بخنجر يقضي عليه ، فانه يذبحه عندئذ . ويكون هذا غسلاً للعار الذي الحقه ذلك المتجاسر بعرض القاتل .

المروءة :

وتتمثل المثل الجاهلية العليا في (المروءة) ، وقد فسرت المروءة بأنها كمال الرجولية . ومن المروءة : الحلم ، والصبر ، والعفو عند المقدرة ، وقرى الضيف ، واغاثة الملهوف ، ونصرة الجار ، وحماية الضعيف . فاذا تمثلت امثال هذه السجايا في رجل ، كان كاملاً ، عظيم الشأن في قومه . والمروءة عند الجاهليين كالدين عند المسلم .

وقد ورد ان المروءة الا تفعل في السرّ امراً وأنت تستحي ان تفعله جهراً [1] فهي اقصى ما تكون من اخلاق في الرجل الكامل الشجاع . وقد اقرها الاسلام في جملة ما اقره من فضائل الجاهلية ، ورد : الدين ، المروءة ، ولا دين الا بالمروءة [2] .

والشهامة هي من صفات السيّد الشريف النبيل . والشهم ، هو السيّد النجد ، الذي اذا دُعي أنجد ، واذا طلب أجاب [3] .

الكملة :

وتحدث اهل الاخبار عن جماعة من الجاهليين قالوا انهم عرفوا بين قومهم بالكملة . منهم (بنو زياد العبسيون) ، وهم أنس الحِفاظ ، ويقال له ايضاً أنس الفوارس ، وعمارة الوهاب ، وربيع الكامل ، وقيس الجواد . وقيل : ربيع الحِفاظ ، وعمارة الوَهّاب ، وأنس الفوارس ، امهم فاطمة بنت الخُرشب الانمارية [4] .

---

١ اللسان (١/١٤٩) ، (١/١٥٤ وما بعدها) ، (صادر) ، (مرا) .

٢ Muh Stud, I, S, 14

٣ تاج العروس (٨/٣٦١) ، (شهم) .

٤ العمدة (٢/١٩٧ ، المحبر (٣٩٨) .

وكان (الربيع بن زياد العبسي) المعروف بالكامل ، ممن ينادم الملك النعمان، ويكثر عنده ، ويتقدم على من سواه . وينزله في قبة يضربها له . حتى أفسد (لبيد) الشاعر ، وكان إذْ ذاك غلاماً ما كان بينهما من ودّ في خبر ترويه كتب الأدب والأخبار [1] .

وعرف قوم بـ (الأكابر) ، قيل هم : شيبان ، وعامر ، وجليحة ، والحارث بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل [2] .

والإنسان الكامل عند الجاهليين وفي أول الاسلام ، هو الذي يكتب بالعربية ، ويحسن العوْم والرمي . وقد لقب رجال عديدون بهذا اللقب ، منهم : (أوس ابن خولي) ، وهو من المخضرمين [3] . قال (ابن سعد) عنه : (وكان أوس ابن خَوَلِي من الكَمَلَة ، وكان الكامل عندهم في الجاهلية وأول الاسلام الذي يكتب بالعربية ويحسن العوم والرمي) [4] .

من الخصال الحميدة :

ومن الخصال الحميدة عند العرب : النخوة . والنخوة في اللغة الافتخار والتعظم ، والنخوة الكبر والعظمة . ومن صفات العرب انها كانت تتنحى من الدنايا أي تستنكف [5] .

الكرم :

ومن الأعراف عرف إكرام الضيف ، وتقديم حق الضيافة له مهما كانت درجة تلك الضيافة ومنزلة المضيف . يقدم له ما يقدر عليه وما يتسع حاله له . والضيافة درس من الدروس التي لقنتها الطبيعة للإنسان أيضاً . لقنته ان الانسان مهما كان

---

١ المرتضى ، أمالي ١ / ١٨٩ وما بعدها) ، المعارف (٨٢) .
٢ العمدة (٢/١٦٦) .
٣ ابن سعد ، الطبقات (٣/٥٤٢) ، الاصابة (١/٩٥ وما بعدها) ، (رقم ٣٣٤) .
٤ ابن سعد ، الطبقات (٣/٥٤٢) .
٥ تاج العروس (١٠/٣٦٢) ، (نخا) .

فقيراً ، عليه ان يقدم ما عنده لمن يأتيه من ضيف قريب أو غريب ليضيفه ، إنقاذاً لحياته من قحط البادية ومن شحها . فليس في البادية ملجأ يلجأ الفرد اليه غير الخيام المضروبة هنا وهناك ، ملاجىء مهما قيل فيها ، لكنها قوارب النجاة أو جزر صغيرة في محيط واسع شاسع . لا يطمع الانسان منها إلا في الاستراحة وإمضاء أمور سفره الى الموضع الذي يريده ، واذا امتنع صاحب الخيمة عن أداء حق الضيافة ، عرض حياة ضيفه للخطر ، وعرّض حياته نفسه الى ذلك الخطر ، فلا بد ان تنزل به في يوم ما حاجة ما ، ولا بد ان يقطع البادية مراراً في حياته بحثاً عن رزق ، فإذا بخل ولم يضيّف غيره ، لم يستضيفه الآخرون فيقع في ضنك قد يكون به هلاكه وهلاك من معه .

والعرف ان الضيافة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ ، فاذا انتهت المدة ، سقط حق الضيافة من رقبة (المضيف) إلا اذا جددها ، وزاد عليها . ويعبر عن منزلة الضيف عند المضيف بجمل وتعابير تعبر عن ترحيب المضيف بضيفه ، مثل جملة : (بيتي بيتك) ، وعلى الضيف بالطبع ان يتأدب بأدب الضيافة ، فيصون حرمة بيت مضيفه ، فلا يسرق منه ، ولا ينظر الى العائلة بسوء وألا يقوم بأي عملٍ يخل بعرف الضيافة [1] .

ونظراً الى ما للمعابد من حرمات ، اعتبر الوافدون عليها لزيارتها والتقرب لأصنامها ضيوفاً لها ، وعدّوا الذين يعتدون عليهم خارجين عن العرف مارقين بالنسبة لمجتمعهم . فمن كان يفد الى مكة يقال له (ضيف الله) ، وقيل للحُجّاج (ضيوف الكعبة) ، فلا يجوز الاعتداء عليهم ، ومن وقع اعتداء عليه ، يجد حتماً من بين أهل مكة من يدافع عنه [2] .

والجود ، وهو السخاء صفحة أخرى من صفحات الكرم . وهو ان يمطر الرجل غيره بمعروفه ، وان يجود على غيره بما هو عنده [3] . وقد بالغ بعضهم بجوده حتى ضرب به المثل . ومن هؤلاء حاتم الطائي . وهو (حاتم بن عبد الله ابن سعد بن الحشرج بن امرىء القيس بن عديّ بن أحزم) من قبيلة طيء .

١ Smith, Kinship, P. 70.

٢ Smith, Kinship, P. 41, Hastings, P., 427

٣ اللسان ، العقد الفريد (١/٣٣٧) ، نهاية الأرب (٣/٢٠٨) .

وقد ضرب به المثل في الجود والسخاء ، فقيل (أجود من حاتم) ، ورووا عنه قصصاً كثيراً في الجود والسخاء ، يرينا ان الجود فيه سجية ، نبت فيه مُذْ كان صغيراً ، فقد روي انه اختلف مع والده ، وهو صغير ، لأنه فرق إبله وغنمه وكان يرعى بها على قوم مرّوا به ، فيهم : عَبِيد بن الأبرص ، وبشر ابن أبي خازم ، والنابغة الذبياني ، فطرده أبوه ، وقال له : إذن لا أساكنك بعدها أبداً ولا آويك ، فقال حاتم : إذن لا أبالي [1] .

ويذكر : انه كان إذا أهل شهر رجب نحر في كل يوم عشرة من الإبل ، وأطعم الناس ، وانه كان يقول لغلامه يسار ، اذا اشتد البرد وكلب الشتاء : أوقد ناراً في يفاع من الأرض : لينظر اليها من أضل الطريق ليلاً فيقصد نحوه [2] . وكان يوقد نار القِرى ، ليقصدها من يريد الضيافة من الناس . وذكروا انه كانت لحاتم قدور عظام بفنائه لا تنزل عن الأثافي ، الى غير ذلك من أخبار في كرمه وسخائه [3] .

وذكر عنه انه قسّم ماله بضع عشرة مرّة ، وانه مرّ في سفر له على بني عنزة ولهم أسير في القدّ ، فاستغاث به ، ولم يحضره فكاكه ، ففاداه وخلاّه ، وأقام مقامه في القدّ حتى أدي فداؤه . ورووا انه ذبح فرسه ، ووزع لحمها على جيرانه ، لأن امرأة كانت جارة له جاءت اليه مستغيثة به ، تقول له : أتيتك من صبية يتعاوون من الجوع ولم يكن لديه ما يعطيها ، فذبح فرسه ، مع انه وعائلته كانوا جياعاً مثل صبيتها ، فلما مانعت زوجته في ذبح فرسه ، قال لها : إن هذا للؤم ان تأكلوا وأهل الحيّ جياع [4] .

وينسب أهل الأخبار اليه شعراً ، في جملته قصيدة تتعلق بالكرم وبمكارم الأخلاق وبالحكم [5] ، وقد جمعوا من شعره ديواناً ، وذكروا انه من الشعر

---

١ بلوغ الأرب (١/٧٢ وما بعدها) .
٢ بلوغ الأرب (١/٧٣ ، ٧٧ وما بعدها) ، العقد الفريد (١/٣٣٢) .
٣ ثمرات الأوراق للحموي (حاشية على المستطرف) ، (١/١٢٧) ، الشعر والشعراء (١٢٣ وما بعدها) .
٤ الثعالبي ، ثمار القلوب (٩٧ وما بعدها) .
٥ بلوغ الأرب (١/٧٩) .

البليغ الجيد[١] .

وضرب المثل بجود (كعب بن مامة الإيادي) . ويذكر أهل الأخبار انـه هلك بسبب جوده ، فقد مات عطشاً ، لأنه أعطى الماء غيره ، فـات هو من العطش[٢] . وقـد فضله (الجاحظ) ورجّحه على (حاتم الطائي) في الجود . ذلك لأن حاتماً كان يجود على غيره بماله ، أما (كعب) ، فقد بذل النفس حتى أعطبه الكرم ، وبذل المجهود في المال ، فساوى حاتماً من هذا الوجه وباينه ببذل المهجة . فهو على رأيه فوقه في الكرم بمنازل ودرجات[٣] . وذكر ان من عادة (كعب بن مامة) انه اذا جاوره رجل قام له بكل ما يصلحه وعياله ، وحماه ممن يريد . وان هلك له بعير أو شاة أو عبد أخلف عليه ، وان مات وداه ، فجاوره (أبو دواد الإيادي) الشاعر ، فكان يفعل به ذلك ويزيد في برّه ، فصارت العرب اذا حمدت جاراً بحسن جواره ، قالوا: كجار أبـي دُواد[٤] . وقد افتخرت به إياد . وعدّ من مفاخرها[٥] . وذكر (عبد الملك بن مروان) إياداً ، فقال : هم أخطب الناس لمكان قس ، وأسخى الناس لمكان كعب ، وأشعر الناس لمكان أبـي دواد ، وأنكح الناس لمكان ابن الغز[٦] .

و (أوس بن حارثة بن لأم الطائي) . يذكرون ان (النعمان بن المنذر) حباه حلة نفيسة بحضور وفود العرب من كل حيّ ، وكانوا قـد اجتمعوا عنده ، فقال لهم : (إني ملبسٌ هذه الحلة أكرمكم) فألبسه النعمان الحلة[٧] . ويذكرون انه تمكن من الشاعر (بشر بن أبـي خازم) ، وكان (أوس) قد نذر لئن

---

١ بلوغ الأرب (١/٧٥) ، تاريخ الادب العربي ، لـ (كارل بروكلمان) ، (١/١١١ ، ١١٢ ، ١١٣) .
٢ بلوغ الأرب (١/٨١) ، العقد الفـريد (١/٣٣٧) ، نهاية الأرب (٣/٢٠٨) ، ثمرات الأوراق (١/١٢٧) ، (حاشية على المستطرف) .
٣ الثعالبي ، ثمار (١٢٦) .
٤ قال قيس بن زهير :

أطـوف ما أطـوف ثم آوي ... الـى جـار كجـار أبى دواد

الثعالبي ، ثمار (١٢٧ وما بعدها) .
٥ الثعالبى ، ثمار (١٢٢) .
٦ الثعالبي ، ثمار (١٤٢) .
٧ الثعالبي ، ثمار (١١٨) .

ظفر به ليُحرقنَّه ، لأنه أسرف في هجائه ، حتى تجاسر فهجا أمه (سُعدى) . فلما ظفر به ، أشارت (سُعدى) على (أوس) بأن يمنّ على بشر ، فخلى سبيله وأكرمه وأحسن كسوته وحمله على نجيبه وحباه ، فصار (بشر) يمدحه[1] ويذكر أهل الأخبار ، ان أوساً وحاتماً وفدا على (عمرو بن هند) ، فأراد امتحانهما ، والوقوف على رأي أحدهما في الآخر ، فما انتقص واحد منهما الآخر . فقال عمرو : والله ما أدري أيكما أفضل ! وما منكما إلا سيد كريم[2] .

و (هرم بن سنان المُريّ) ، من أجواد الجاهلية أيضاً . وهو سيد غطفان . وكان والده سيّد غطفان كذلك . وقد مدحه الشاعر زهير بن أبي سلمى في أبيات لا يزال الناس يحفظونها ويذكرونها عن هرم وقد كان هرم أعطاه مالاً كثيراً من خيل وإبل وثياب وغير ذلك مما أغناه ، وفيه ورد المثل : (أجود من هرم) . وقد أدركت بنت له أيام عمر فسألها عن أبيها وعن صلته بزهير[3] .

قال (أبو عبيدة) : (أجواد العرب ثلاثة : كعب بن مامة ، وحاتم الطائي ، وكلاهما ضُرب به المثل ، وهرم بن سنان صاحب زهير)[4] .

وقد ضرب المثل بجود (عبد الله بن حبيب العنبري) فقيل : (أقرى من آكل الخبز) . ذكر انه سُمّي آكل الخبز ، لأنه كان لا يأكل التمر ولا يرغب في اللبن . وأكل الخبز ممدوح عند العرب . وهو عندهم من علامات الغنى والمال . وعرف (ثور بن شحمة العنبريّ) بالجود كذلك ، وقد كان قومه (بنو العنبر) اذا افتخروا ، قالوا : (منّا آكل الخبز ، ومنا مجير الطير)[5] . وقد عرف (ثور بن شحمة) بـ (مجير الطير) لأنه كان يشفق على الطيور فيطعمها ويشبعها لجوده وكرمه .

واشتهر (عبد الله بن جُدعان) بجوده كذلك ، وقد كان يسمى بـ (حاسي الذهب) ، لأنه كان يشرب في إناء من الذهب ، وقيل : (أقرى من حاسي

١ بلوغ الأرب (١/٨٣ وما بعدها) .
٢ الثعالبي ، ثمار (١١٨) .
٣ بلوغ الأرب (١/٨٤ وما بعدها) ، ثمرات الأوراق (١/١٢٧) حاشية على المستطرف، العقد الفريد (١/٣٣٧) ، نهاية الأرب (٣/٢٠٨) ، الشعر والشعراء (١٢٣) .
٤ الشعر والشعراء (١٢٣) .
٥ بلوغ الأرب (١/٨٧) .

الذهب) . وكان يجود على (أمية بن أبي الصَّلت) ، ويقري أهل مكة ومن يأتي اليها ، وله جفنة كبيرة يأكل منها الناس ، ويصنع لهم (الفالوذج) ، ولم يكن معروفاً قبله بمكة ، فلما كان بالعراق ، أكله واستذوقه ، وجاء منه بطبّاخ ليطبخ له (الفالوذج) . وهو من (بني تيم) . وكان ممن حرم الخمر على نفسه بعد ان كان بها مغرى ، لما رأى فيها من ضرر واسفاف يلحق بشاربها . وذكر انه لما كَبُرَ وهرم ، أراد قومه ان يمنعوه من تبذير ماله ، ولاموه في العطاء ، فكان يدعو الرجل ، فإذا دنا منه ، لطمه لطمة خفيفة ، ثم يقول له : قم فانشُدْ لطمتك واطلب ديتها ، فاذا فعل ، أعطته بنو تيم من مال ابن جُدعان[1] . وقد ضرب المثل بفالوذج ابن جُدعان في أطايب الأطعمة[2] .

وقد عدّ في (مطعمي قريش) ، وهم سادات قريش وأشرافها ممن كان يطعم الناس ويفتح بيته للضيوف ، ولا يمنع جائعاً من دخول داره . كهاشم بن عبد مناف . وكانت له جفان يأكل منها القائم والراكب ، اذا وقع في احداها صبيّ غرق . فجرى بها المثل في العظم[3] .

وللتعبير عن إسراف الأجواد في جودهم ، وفي قراهم الضيوف ، نعت أحدهم بـ (مطعم الطير) ، كناية عن كرمهم ، وعن كثرة طعامهم المهيأ ، حتى كانت الطيور تشارك الضيوف في أكل الزاد ، وهو كثير . وقد نعت (حسان ابن ثابت) عمه (خالد بن زيد) المعروف بـ (ابن هند) ، وهو من (بني النجّار) ، بـ (مطعم الطير) ، كناية عن انه كان ينحر الإبل للأضياف ، فيأكل منها الناس والطير[4] . ونعتت (ليلى بنت الحَطيم بن عديّ بن عمرو) ، وهي أخت الشاعر (قيس بن الحطيم) أباها بأنه (مطعم الطير ومباري الريح) ، وذلك أمام الرسول[5] .

---

١ بلوغ الأرب (١/٨٧ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٣/٢١٧) ، مجمع الأمثال (٢/٧٢) ، الثعالبي ، ثمار (٦٧٢) ، البيان والتبيين (٣/١٢٤) ، الأغاني (٨/٣٣٤) ، نسب قريش (٢٩١) .

٢ الثعالبي ، ثمار (١٢٣) ، الحيوان ، للجاحظ (٣/٤٠٣) ، عيون الاخبار (٣/٢٦٨) .

٣ الثعالبي ، ثمار (٦٠٩) ، البخلاء (٢١٠) ، سمط النجوم ، للعصامي (١/٢٠٠) .

٤ البرقوقي (ص ١١٧) .

٥ المحبر (ص ٩٦) .

ومن الأجواد من كان يجود في أوقات الشدة والحاجة بصورة خاصة ، في مثل حلول الجدب . وقد عرف نفر من العرب بـ (مطاعيم الريح) ، وذلك لأنهم كانوا يطعمون اذا هبت ريح الصبا ، لأنها لا تهب إلا في جدب ، فمدحوا . ومن هؤلاء : (كنانة بن عبد يا ليل الثقفي) عم أبي مِحْجَن [1] . وزعم (ابن الأعرابي) ان (مطاعيم الريح) ، هم أربعة . منهم : كنانة ابن عبد يا ليل الثقفي المذكور و (لبيد بن ربيعة) [2] .

ويقال للرجل الذي يهتز للمعروف والعطية (الأريحي) ، وهو السخي . و (الأريحية) السخاء [3] .

وقد ضرب المثل بجماعة من الجاهليين عرفوا بجودهم وكرمهم ، حفظ العرب ذكرهم لجودهم ، وما زالوا يحفظونه حتى اليوم ، يتذاكرونه ويروونه في كتاباتهم وفي أنديتهم وفي كلامهم . من هؤلاء ثلاثة سُمّوا (زاد الراكب) و (أزواد الركب) ، لأنهم كانوا اذا سافروا مع قوم لم يتزودوا معهم . كانوا من أهل مكة هم : أبو عمرو بن أمية (مسافر بن أبي عمرو بن أمية)، وأبو أمية بن المغيرة المخزومي ، والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العُزّى (زمعة بن الأسود بن المطلب) . وقد ضرب بهم المثل ، فقيل : أقرى من زاد الراكب [4] .

وقد كان (عبد الله بن أبي أمية) ، المعروف بـ (زاد الركب) شديد الخلاف على المسلمين ، ثم خرج مهاجراً من مكة يريد النبي ، فلقيه بـ (الصلوب) فوق العرج ، فأعرض عنه رسول الله ، ثم عفى عنه [5] .

وفي معنى (زاد الركب) معنى (جفنة الركب) ، والجفنة : الرجل

١ بلوغ الأرب (١/٩١ وما بعدها) .
٢ بلوغ الأرب (١/٩١ وما بعدها) .
٣ اللسان (٢/٤٦٠ وما بعدها) ، (صادر) ، (روح) .
٤ مجمع الأمثال (٢/٧٢) ، اللسان (٣/١٩٨) ، (صادر) ، (زود) ، المحبر (١٧٧ ، ٤٥٧) ، تاج العروس (٢/٣٦٦) ، (زاد) ، نسب قريش (٣٠٠ ، ٣١٥)، الثعالبي ، ثمار القلوب (١٠٣) .
٥ نسب قريش (ص ٣١٥ وما بعدها) .

الكريم . قيل له : (جفنة الركب) ، لأنه كان مطعاماً يضع جفنته ويطعم الناس فيها ، ومن يكون معه في ترحاله . فسمّي باسمها[1] .

وكانت العرب تقول : السفر ميزان القوم ، كأنه يزنهم بأوزانهم ويفصح عن مقاديرهم في الكرم واللؤم[2] . إذْ يتبين الكريم من اللئيم في سفره . فاللئام اذا ما سافروا ضجروا ، لخوفهم من تقديم ما عندهم الى من هم دونهم من فقير ومحتاج ، أما الكريم ، فإنه لا يبالي في سفره فيعطي وينفق ويساعد من يسافر معه بما يجود به عليهم . فهو على عكس اللئيم فرحٌ بسفره هذا مستبشر .

وزعم الأخباريون ان (سويد بن هرمي بن عامر الجمحي) ، كان أول من وضع الأرائك وسقى اللبن والعسل بمكة[3] . ومعنى هذا انه أول من وضع الأرائك لراحة الناس في الجاهلية ، ولعلّهم قصدوا أرائك وضعت في الحرم لجلوس الناس عليها . كما ذكروا ان (أبا أمية بن المغيرة المخزومي) و (أبا وادعة بن ضبيرة بن سعيد بن سعد بن سهم) وكانا يسقيان العسل بمكة ، بعد سويد بن هرمي[4] . وقد كان (عديّ بن نوفل) يسقي الحجيج اللبن والعسل على ما ذكره أهل الأخبار[5] . وقد عدّت السقاية من مفاخر قريش .

وقد كان من عادة الأجواد ايقاد النار في الظلام ليراها الغريب والمحتاج والجائع من مسافة بعيدة فيفد اليها ، فيجد له من يقريه ويقدم له ما يحتاج اليه من طعام . ويقال لها (نار القرى) و (نار الضيافة) . وهي نار توقد لاستدلال الأضياف بها على المنزل . وكانوا يوقدونها على الأماكن المرتفعة ، لتكون أشهر. حتى زُعم ان منهم من كان يوقدها بالمندلي الرطب ، ليهتدي اليها العميان ، بشم رائحة الطيب التي تفوح منها عند الاحتراق . وهي من أجل الأعمال عند العرب . وقد ذكرت في الشعر الجاهلي[6] .

---

١ اللسان (١٣/٩٠ وما بعدها) ، (صادر) ، (جفن) .
٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (٦٨٨) .
٣ المحبر (ص ١٧٦ وما بعدها) .
٤ المحبر (١٧٧) .
٥ نسب قريش (١٩٧) .
٦ بلوغ الأرب (٢/١٦١) .

ويعدّ الشتاء محكّاً للأجواد ولكرام الأنفس. فالشتاء عدوّ الفقير، يؤلمه ببرده ويوجعـــه بفقره ويضيف آلاماً على آلامه. فخيمته الممزقة البالية، لا تقيه من رياح ولا من مطر ولا من برد. والصيد يختفي ويقلّ، والاعشاب تزول، فلا يجد الفقير امامه سوى ما ادخره من قوت ليعيش عليه. فاذا اكله او كان قليلاً، فليس امامه من ملجأ سوى الاستجارة بأهل الجود والسخاء. ممن كان اذا جاء الشتاء ادنوا اليهم الناس وأطعموهم، فيقتلون بذلك جوع الشتاء. ولهذا عرف الواحد منهم بـ (قاتل الشتاء) [1] .

وغاية الجود ان يجود الانسان بأعز ماله لغيره، يقال: (انه لمنحار بوائكها، اي ينحر سمان الإبل)، وهو للمبالغة، يوصف للجود [2] . فهو ليس من اولئك الذين يبخلون بمالهم العزيز، فينحرون الهزيل من الإبل، حرصاً على العزيز، بل يقدم اقصى ما عنده لضيوفه.

ويعد العرب (إقراء الضيف) و (الرفادة) : (رفادة الحج) في جملة (ارث ابراهيم واسماعيل). ويدخل اهل الاخبار في جملة هذا الإرث : تعظيم الحرم ومنعه من البغي فيـــه وقمع الظالم ومنع المظلوم [3] . فالكرم اذن من السنن القديمة الموروثة عن سنة ابراهيم على اهل الاخبار.

ولا يعدّ الكريم كريماً اذا وهب ماله في سبيل غرض. فمن وهب المال لجلب نفع او دفع ضرر او خلاص من ذم فليس بكريم [4] .

ويقال للعطيّة الجزيلة (الدسيعة). ويقال للجواد، هو ضخم الدسيعة، اي كثير العطيّة. وقيل هي المائدة الكريمة والجفنة على سبيل المجاز [5]، لما عرف به الأجواد من تقديم الطعام للأضياف. ويقال للجواد المعطاء السيد الحمول : (الخضرم)، تشبيهاً بالبحر الخضرم وهو الكثير الماء [6] .

---

١ تاج العروس (٨/٧٦)، (قتل).
٢ تاج العروس (٣/٥٥٨)، (نحر).
٣ الكلاعي، الاكتفاء (١/١٥٠).
٤ تاج العروس (٩/٤١)، (كرم).
٥ تاج العروس (٥/٣٢٧)، (دسع).
٦ تاج العروس (٨/٢٨٠ وما بعدها)، (الخضرم) بكسر الخاء.

وقد يعبر عن غاية الجود بقولهم : (هو جبان الكلب) ، اي نهاية في الكرم وكثرته ، لانه لكثرة تردد الضيفان اليه يأنس كلبه فلا يهر ابداً . قال حسان ابن ثابت :

يُغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون من السواد المقبل [1]

ومن الجود والكرم : الرفادة . والرفد : العطاء واعانة المحتاج . ومن ذلك ما فعلته قريش من (الرفادة) ، حيث اتفقت ان يخرج كل انسان مالاً بقدر طاقته ، يشترون به للحاج الجُزر والطعام والزبيب للنبيذ ، فيجمعون من ذلك مالاً عظيماً ، فلا يزالون يطعمون الناس حتى تنقضي ايام موسم الحج . وذكر ان (هاشم بن عبد مناف) ، كان اول من قام بالرفادة ، وأول من هشم الثريد ، وقد سُمّي هاشماً لهشمه الثريد [2] .

وذكر علماء اللغة ان السخاء مراتب ثلاث : سخاء وجود وإيثار . فالسخاء اعطاء الاقل وامساك الاكثر . والجود اعطاء الاكثر وامساك الاقل ، والايثار اعطاء الكل من غير امساك شيء . وهو اشرف درجات الكرم [3] .

ويعبر عن السخاء بـ (الندى) . ويقال (هو ندي الكف) ، اذا كان سخياً [4] . و (طلحة الندى) [5] ، اي السخي الكريم .

من شيم السادة :

ويعد حمل اثقال الديات من شيم السادة ، اذ لم يكن من الممكن للأسر الفقيرة دفع دية القتلى حين توزع في العشيرة او القبيلة ؛ لذلك يحملها السادة عن الضعفاء . وقد مدح « حسان بن ثابت » « حكيم بن حزام بن خويلد » ، فكان مما مدحه به انه (انه حمال اثقال الديات) [6] .

١ تاج العروس (٩/١٥٩) ، (جبن) .
٢ اللسان (٣/١٨١) ، (صادر) (رفد) .
٣ نهاية الأرب (٣/٢٠٤) .
٤ تاج العروس (١٠/٣٦٣) ، (ندا) .
٥ نسب قريش (٢٣٧) .
٦ البرقوقي (ص ٧٠) .

ومن حمل الدماء ودفع اثمان دياتها : (عمرو بن عصم) ، الذي حمل الدماء التي كانت بين (بني سدوس) و (بني عنزة) في الجاهلية [1] ، وهرم بن سنان ، والحارث بن عوف ، اذ تحمل ديات قتلى الحرب التي وقعت بين عبس وذبيان [2] .

كما يعد حمل ثقل المولودة التي يراد وأدها من الشيم ومن الاعمال الحميدة التي يحمد القائم بها عليها . وقد ذكر اهل الاخبار اسماء جماعة دفعوا مالاً لآباء كانوا قد همّوا بوأد بناتهم لإملاقهم ولضعف حالهم ، فأبقوا بذلك على حياتهن . وهو عمل يقدر حقاً ، لأنه عن حس انساني ودافع خيري نبيل .

فك الأسر :

ومن شيم الرجال المنّ على الاسرى بفكّ رقابهم واعطائهم حريتهم . وقد أبت مروؤة بعض السادات الا ان يقوموا بفك أسر الأسرى واعتاق رقبتهم ، ولو بشراء أسرهم بثمن . وقد ذكر العلماء اسماء رجال منهم عاشوا في الجاهلية عرفوا بعدم رضاهم عن الأسر ، فكانوا يدفعون مالاً في مقابل فكّ رقبتهم . من هؤلاء (سعد بن مُشمت بن المُخَيّل) ، وهو من رجال (بني المخيل) في الجاهلية . وكان آلى ان لا يرى اسيراً الا افتكه [3] .

ومن شيم الرجال العفو عند المقدرة والحلم والصفح عن المسيء ، وكان من عاداتهم في غفران الذنب ، حفر بئر ، ثم ينادي من يريد غفران الذنب والعفو عن المذنب : اشهدوا اني جعلت ذنبه في هذه البئر . ثم يرد فيها ترابها ، وبذلك يغفر الذنب [4] . وقد ضرب العرب المثل بحلم (قيس بن عاصم) ، وبـ (الأحنف ابن قيس) . و (قيس بن عاصم) ، هو من بني منقر من تميم . وكان ممن حرم الخمر في الجاهلية ، وذكر انه كان اول من وأد ، لأنه خشي ان يخلف على بناته من هو غير كفء لهن . وكان قد وأد ثماني بنات ، ووفد في وفد

---

١ الاشتقاق (١٩٢) .
٢ الشعر والشعراء (٦١) ، (ليدن) .
٣ الاشتقاق (١٩٣) .
٤ شرح ديوان حسان ، للبرقوقي (ص ١٠٧) .

(بني تميم) على الرسول فأسلم . وقد قال له الرسول لما دنا منه : (هذا سيد اهل الوبر) [1] .

وأما (الأحنف بن قيس) ، فهو تميمي كذلك . ادرك النبي ولم يجتمع به . وكان يضرب بحلمه المثل . وله قصص مع الخلفاء . وسكن البصرة ، وبها مات سنة سبع وستين [2] .

وقد رجّح الجاحظ (الاحنف) على كل من عرف عند العرب واشتهر بينهم بالحلم ، حتى رجحه على لقمان ولقيم وقيس بن عاصم ومعاوية بن ابي سفيان . وله قصص مع معاوية [3] . ونسبوا له حكماً وشعرا [4] . وذكر انه هو القائل : (لا تزال العرب بخير ما لبست العمائم ، وتقلدت السيوف ، وركبت الخيل ، ولم تأخذها حميّة الأوغاد . قيل : وما حمية الأوغاد ؟ قال : ان يروا الحلم ذلاً ، والتواهب ضيماً) [5] . وقيل للأحنف بن قيس : بماذا سدت ؟ فقال : بثلاث ، ببذل الندى ، وكف الأذى ، ونصر المولى . وقال: انما تعلمت الحلم من قيس بن عاصم : أُتي بقاتل ابنه فقال : رعبتم الفتى . وأقبل عليه فقال : يا بني لقد نقصت عددك ، واوهنت ركنك ، وفتت في عضدك ، وأشمتّ عدوّك ، وأسأت بقومك ، خلوا سبيله ، وما حل حبوته ، ولا تغير وجهه [6] .

وللعرب كلمة تقولها عند طلب العفو والحلم وفي مواطن الغضب والتشاجر ، هي : (اذا ملكت فاسجح) ، يقصد بها طلب العفو والحلم عند ثوران الغضب . ولهم كلمات اخرى كثيرة في الحث على التحلي بالحلم والصبر [7] .

ومن خصال السادة : النخوة . وقد عرف بها العرب حتى ضرب بها المثل ، فقيل : نخوة العرب ، وورد : (لؤم النبيط ونخوة العرب) . وهم ينتخون لمن

---

١ الاصابة (٣/٢٤٢) ، (رقم ٧١٩٦) ، أمالي المرتضى (١/١١٢) .
٢ الاصابة (١/١١٠) ، (رقم ٤٢٩) ، أمالي المرتضى (١/١١٢) .
٣ الثعالبي ، ثمار (٨٩) ، أمالي المرتضى (١/٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٩٢ ، ٢٩٨) .
٤ كتاب فصل ما بين العداوة والحسد ، من رسائل الجاحظ (١/٣٤٤ ، ٣٦١ ، ٣٨١) ، عيون الأخبار (٤/٩) ، أدب الدنيا والدين (١٣٥) .
٥ كتاب فصل ما بين العداوة (١/٣٦١) .
٦ أمالي المرتضى (١/١١٢ وما بعدها) .
٧ بلوغ الأرب (١/١٠١ وما بعدها) .

لمن ينتخيهم مع ترفع وتعزز [1] . فاذا نخى شخص ، فعلى من انتخى اجابة داعي النخوة والا عدّ جباناً وصار سبة للناس .

ولا يعني ان ما ذكرته كان يجب ان يتوفر حتماً في رجل ليستحق ان يكون سيداً . فقد رمي بعض الرؤساء بالبخل وبشدة الحرص وبامساك يدهم ، ووصف بعض السادات بالظلم وبالقسوة ، ومع ذلك ، فقد حكموا قبيلتهم وساد بعضهم وهم شُبّان ، والعادة عند العرب ان الرئاسة للمسنّ ، وانما الذي ذكرته يمثل رأي دوي الرأي في الرئيس المثالي الذي يعرف كيف يحكم قومه وكيف يوجه قبيلته . وهي ليست بالضرورة مؤهلات وصفات يجب ان تكون لازمة في الرجل الذي سيسود قومه ، لقد ذكرت ان السيادة بالوراثة ، وأن هذه الخلال اذا تحلى بها انسان آخر من رجال القبيلة عدّ ايضاً سيداً من ساداتها ، بمعنى انه صار شريفاً مقدماً فيها ووجهاً من وجوهها . تماماً كما يكون لمدينة ما رئيس مدينة ، يحكمها بصفة رسمية ، ويكون لها في الوقت نفسه وجهاء وأشراف قد يكون من بينهم من هو اكثر ذكراً وأعلى مكانة وأشرف منزلة من رئيس المدينة ، ولكنه مع ذلك لا يمثل المدينة في الحفلات والمجتمعات ، لأنه ليس برئيسها العامل المعين . وهكذا هو شأن تلك الخصال ، خصال مثالية قد تتوفر في رئيس القبيلة ، وقد لا تتوفر فيه ، بل تتوفر في غيره من ابناء القبيلة ومن رؤساء فروعها ، ليكون لهم السيادة والشرف فيها ويشار اليهم على انهم سادة القبيلة ، ولكنهم لا يعنون بذلك رئاسة فعلية ، وانما رئاسة شرف ومكانة وتقدير في مجتمع . ومن هنا نجد اهل الاخبار يذكرون اسماء جملة سادات ، على انهم سادات قبيلة واحدة وفي وقت واحد ، فهم في الواقع سادات مجتمع وفروع قبيلة .

المدح والهجاء :

وللمدح وللهجاء شأن كبير عند الجاهليين اذ كان الجاهليون يقيمون وزناً كبيراً للقيم المعنوية . فربّ مدح يخلد الممدوح ويبقي ذكره ، ورب هجاء يغض من شأن المهجو ويحط من اسمه . ونحن هذا اليوم نقرأ ما ورد عندهم من المدح ، ونسمع اسماء الممدوحين وما حصلوا عليه من جاه وفخر بين الناس ، ونقرأ ما ورد في ذم أناس وما قيل فيهم من ذمّ وقدح . ولولا الاهمية التي اعطاها الماضون للمدح وللهجاء لما بقي الذم والمديح حتى اليوم .

---

١ الثعالبي ، ثمار (١٦١) .

ومن أسباب المدح سخاء الممدوح أو شهامته ومجدته وشجاعته وعفته وحلمه وصبره وتضحيته وما الى ذلك من صفات وخلال حميدة . فكان اذا جاءه ضيف يعرفه أو لا يعرفه قدم اليه واجب الضيافة ، وبالغ في اكرامه وان كان فقيراً لا يملك شيئاً . ويقدمه على نفسه وعلى أهله ، لأن الضيافة حق وواجب ، وعلى من يقصد للضيافة أداء هذا الواجب .

وقد كان الملوك يهبون على المدح ويثيبون المادح على قدر ما جاء في مدحهم لهم من تفنن في المدح ومن اطراء زائد ومبالغة في المدح . ولما دخل (النابغة الذبياني) على (النعمان بن المنذر) ، وحياه بتحية الملوك ، ثم مضى مسترسلاً في مدحه ، تهلل وجه النعمان سروراً ، وأمر ان يقدم له الدر ، و (كسي أثواب الرضى . وكانت جبات أطواقها الذهب بقصب الزمرد . ثم قال النعمان : هكذا فليمدح الملوك)[1] . وفي كتب الأدب والأخبار أشعار قيل عن كل شعر منها (انها أمدح بيت قالته العرب)[2] . وفيها مبالغات وغلو في المدح ، تجعل الممدوح شمس والملوك كواكب ، اذا طلعت لم يبد منهن كوكب[3] . وأمثال ذلك .

وهذ الشعر وشعر الفخر وأمثالها ، يجب ان يكونا موضوعين لدراسات نفسية ، لأنهما يمثلان أعمق الأحاسيس النفسية للعرب ، ويتحدثان عن المواطن الرقيقة عند العرب ، التي تهتز أوتارها بسرعة عند سماعها هذا النوع من المدح . والنواحي العاطفية التي يمكن منها التأثير في العرب . ونحن لا نستطيع بالطبع ، ان نأخذ هذا الفخر أو ذاك المدح على انهما يمثلان الواقع ويمثلان الممدوح تمام التمثيل . أو انهما تعبير عن نفس صادقة مخلصة في كل ما قالته أو نظمته . فنحن نعلم ان من الشعراء من يمدح للعطاء ويهجو اذا حرم منه . وان الممدوح اذا قطع عطاءه عن الشاعر ، كف الشاعر عن مدحه ، وربما انقلب عليه فيغسل كل ما قاله في مدحه له ، بشعر يشتمه فيه بأبشع أنواع الشتم وأمضه . فشعر مثل هذا ، وان كنا نرويه ونتحدث عنه ونحفظه ، ولكنا نرويه ونستلذ بروايته ، لأنه لذيذ من

١ نهاية الأرب (٣/١٧٧) .
٢ نهاية الأرب (٣/١٨٢ وما بعدها) .
٣ نهاية الأرب (٣/١٨٢) .

ناحية الأدب ، ولأنه شعر قديم يمثل ضرباً من ضروب الحياة في ذلك الوقت .

وقد يمدح الشخص بنعته بنعوت مشرفة ، مثل (فلان أبيض) و (قوم بيض) ، و (البيض المناجيد) وهم لا يريدون من اللفظة بياض البشرة ، وانما يريدون المدح بالكرم ونقاء العرض من الدنس والعيوب [1] . وقد ينعت قوم بالخضرة ، ويريدون بذلك ان المنعوتين قوم عرب خلص . والأخضر بمعنى الأسود ، والعرب تسمي الأسود أخضر ، يريدون بذلك سواد الجلد ، والمراد بسواد الجلد انهم عرب خلص [2] .

ويمدح المحافظون على الوفاء بالعهد والمتمسكون بالودّ ، والمحامون على عوراتهم الذابّون عنها . ويعبر عنهم بـ (أهل الحفاظ) [3] .

التفاخر :

والتفاخر ، وهو التعاظم ، من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية عند أهل الجاهلية [4] . وفي الكتب العربية أمثلة كثيرة من تفاخر الجاهليين بعضهم على بعض ، وتباهيهم بالأشياء الخارجة عن الانسان والتمدح بالخصال . وتكون المفاخر بالآباء والأجداد، وبالسيادة والشرف ، وبالكثرة ، وبالحسب والنسب ، حتى انهم انطلقوا في بعض الأوقات الى القبور فكانوا يشيرون الى القبر بعد القبر ، ويقولون : فيكم مثل فلان ومثل فلان ؟ وفي ذلك نزلت الآية : (ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ، كلاّ سوف تعلمون ، ثم كلاّ سوف تعلمون) [5] . فذكر ان حيين من قريش ، بني عدنان وبني سهم ، تكاثروا بالسيادة والأشراف ، فقال كل حيّ بهم : (ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر) . وقيل : ان قبيلتين من قبائل الأنصار ، تفاخروا وتكاثروا ، فقالت احداهما : فيكم مثل فلان وفلان ؟ وقال الآخرون مثل ذلك . تفاخروا بالأحياء ، ثم قالوا : انطلقوا بنا الى القبور ، فجعلت احدى

---

١ البرقوقي (ص ١٣٤) .
٢ البرقوقي (ص ١٣٥) .
٣ اللسان (٤١٢/٧) ، (صادر) ، (حفظ) .
٤ اللسان (ف/خ/ر) ، (٤٨/٥ وما بعدها) .
٥ سورة التكاثر ١٠٢ ، الآية ١ فما بعدها ، بلوغ الأرب (٢٧٩/١) .

الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان يشيرون الى القبر ، وقال الآخرون مثل ذلك . فأنزلت : (ألهاكم التكاثر)[1] .

وتقع المفاخرات بحضور محكمين في الغالب ، أو طرف ثالث محترم ، وعلى الطرفين قبول الحكم واطاعته ، وسماع رأي الطرف الثالث في حجج وأقوال المتخاصمين المتفاخرين . وتكون المفاخرة بإظهار كل طرف ما عنده من خصال يفاخر بها ، ومن مناقب يستأثر بها ، ومن مجد يرى انه انفرد به دون خصمه ، ثم يذكر ما امتاز به على خصمه ، بكلام منثور ومنظوم ، منسق منمق ، وما قام به من أعمال فريدة ، وما حصل عليه في حروبه مع الناس . وبعد ان يفرغ المتفاخرون من إلقاء ما عندهم من حجج وبيان ، ينظر المحكمون في الحجج التي استمعوا اليها ، ليبدوا حكمهم بموجبها ويكون حكمهم أصعب شيء يواجهونه ، لما يتركه من أثر في نفوس المتخاصمين ، ولما سيكون له من تأثير في مكانة من سيخسر المفاخرة .

ويقال للمفاخرة (المنافرة) . و (المنافرة) المحاكمة في الحسب ، وان يفتخر الرجلان كل واحد منهما على صاحبه ، ثم يحكما بينهما رجلاً ، كفعل (علقمة بن علاثة) مع (عامر بن طفيل) حين تنافرا الى (هرم بن قطبة الفزاري) ، وفيهما يقول الأعشى يمدح (عامر بن الطفيل) ويحمل على (علقمة ابن علاثة) :

قد قلت شعري فمضى فيكما   واعترف المنفور للنافر

وقد نافر (أنيس) أخو (أبي ذرّ الغفاري) شاعراً على شعره ، إذْ كان يرى انه أجود منه شعراً[2] . وتكون المنافرة في كل شيء ، يرى انسان انه يفوق به غيره ، كالمنعة والعزّ والجاه والكرم وما شاكل ذلك من خصال . قال (ابن سيده) : (وكأنما جاءت المنافرة في أول ما استعملت انهم كانوا يسألون الحاكم : أينا أعز نفراً ؟)[3] .

و (النفار) ان يتنافروا الى حاكم يحكم بينهم . و (النفورة) الحكومة .

١ بلوغ الأرب (٢٧٩/١) .
٢ اللسان (٢٢٦/٥) .
٣ اللسان (٢٢٦/٥) ، القاموس (١٤٦/٢) .

وورد (يوم نفورة) : أي يوم حكومة ، حكم فيه بالنفار [1] .

ومن المفاخرات ، مفاخرةُ وفود ربيعة ومضر ابني نزار عند النعمان بن المنذر . فكان فيمن قدم عليه من وفود ربيعة (بسطام بن قيس) و (الحوفزان بن شريك) . وفيمن قدم عليه من وفد مضر من قيس بن عيلان (عامر بن مالك) وعامر بن الطفيل . ومن تميم قيس بن عاصم ، والأقرع بن حابس [2] . ومفاخرة (آل حذيفة بن بدر) و (آل الأشعث بن قيس الكندي) عند كسرى . وهم من أعرق الأسر في أيامهم ، وأشرفها . وقد عَجِب (كسرى) بذكائهم وبحدة أذهانهم [3] . ومفاخرات أخرى مدوّنة في الكتب .

ومن مفاخرات أهل الجاهلية ، منافرة (عامر بن الطفيل) مع (علقمة بن علاثة) [4] المذكورة ، ومنافرة (بني فزَارة) و (بني هلال) [5] ، ومنافرة (الفقعسي) و (ضمرة) [6] ، ومنافرة (جرير البجليّ) و (خالد بن أرطاة الكلبيّ) [7] ، ومنافرة (القعقاع بن زُرارة بن عدس) و (خالد بن مالك ابن رُبعي بن سلم بن جندل بن نهشل) [8] ومنافرة (هاشم بن عبد مناف) و (أمية بن عبد شمس) [9] .

ومن المنافرات ، منافرة (عامر بن أحيمر) عند (المنذر بن امرىء القيس ابن ماء السماء) . فقد ذكر ان (المنذر) أخرج بُردَين يوماً يبلو الوفود ، وقال : ليقم أعز العرب قبيلة ، فليأخذهما . فقام (عامر بن أحيمر) فأخذهما واتزر باحدهما وارتدى بالآخر ، فقال له المنذر : أأنت أعز العرب قبيلة ؟ فقال : العز والعدد في معدّ ، ثم في نزار ، ثم في مضر ، ثم في خِندف ،

١ البيان والتبيين (١/ ٢٤٠ ، ٣٠٤ ، ٣٥١) .
٢ بلوغ الأرب (١/ ٢٨٠ وما بعدها) .
٣ بلوغ الأرب (١/ ٢٨١ وما بعدها) .
٤ بلوغ الأرب (١/ ٢٨٨) .
٥ بلوغ الأرب (١/ ٢٩٧) .
٦ بلوغ الأرب (١/ ٢٩٨ وما بعدها) .
٧ بلوغ الأرب (١/ ٣٠١) .
٨ بلوغ الأرب (١/ ٣٠٦) .
٩ بلوغ الأرب (١/ ٣٠٧ وما بعدها) .

ثم في تميم ؛ ثم في سعد ، ثم في كعب ، ثم في عوف ، ثم في بهدلة ، فمن أنكر هذا فلينافرني ، فسكت الناس ، فقال المنذر : هذه عشيرتك كما تزعم ، فكيف أنت في أهل بيتك وفي نفسك ؟ فقال : أنا أبو عشرة ، وأخو عشرة ، وخال عشرة ، وعم عشرة ، وأما أنا في نفسي ، فشاهد العز شاهدي ، ثم وضع قدمه على الأرض ، فقال : من أزالها عن مكانها ، فله مئة من الإبل . فلم يقم اليه أحد من الحاضرين ، ففاز بالبردين ، وعرف بـ (ذي البُردَين) [1] .

وطالما كانت تؤدي هذه المفاخرات الى وقوع حروب وسفك دماء ، ولذلك أبطلها الاسلام ، ونهى عنها ؟ وعدّها من شعار الجاهلية [2] .

والمساجلة في معنى المفاخرة ، بأن يصنع مثل صنيعه في جري أو سقي . وتساجلوا بمعنى تفاخروا . ذكروا ان أصل المساجلة : ان يستقي ساقيان ، فيخرج كل منهما في سَجْله مثل ما يخرج الآخر ؛ فأيهما نكل فقد غلب ، فضربته العرب مثلاً للمفاخرة ، فإذا قيل فلان يساجل فلاناً فمعناه انه يخرج من الشرف مثل ما يخرجه الآخر ، فأيهما نكل فقد غلب [3] .

وتعرف (المفاخرة) بـ (المُباهاة) أيضاً . فيقال : تباهوا اذا تفاخروا . وأما اذا صابحه ، فيقال هابساه [4] . وذلك بأن يذكر كل متباه مناقبه ومناقب قومه ، يتفاخر بها على خصمه . وطالما أدت المباهاة الى وقوع خصومات ومعارك .

ومن مفاخر العرب التفاخر بمن برز عندهم في عمل فذّ وفي عمل خصال كريمة ، أو قام بفعل استحق الإعجاب . فكانت القبائل تتفاخر بذكر أسماء هؤلاء ، وتحفظ أسماءهم للتباهي بهم ، كما تفعل الدول في التباهي برجالها . ومن مفاخرهم : الفروسية ، فعدّ (الحوفزان) مثلاً وهو (الحوفزان بن شريك) فارس بكر بن وائل .

١ بلوغ الأرب (١/٧٦) .

٢ سورة لقمان ، ٣١ ، الآية ١٨ ، سورة الحديد ، ٥٧ ، الآية ٢٣ ، سورة النساء ٤ ، الآية ٣٦ ، العقد الفريد (٦/١٠١) ، (طبعة العريان) ، بلوغ الأرب (١/٢٧٨) .

٣ قال الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب :

من يساجلني يساجل ماجدا ... يملأ الدلو الى عقد الكرب

اللسان (١١/٣٢٦) ، (صادر) ، (سجل) .

٤ اللسان (١٤/٩٩) ، (بها) .

وافتخروا بـ (الأصم عمرو بن قيس) ، ولقب عند المتفاخرين بـه بـ (صاحب رؤوس بني تميم) ، وافتخروا بـ (مفروق بن عمرو) (حاضن الأيتام) والظاهر انه كان يحن على الأيتام ويعطف عليهم ، لذلك لقب بهذا اللقب ، وافتخر بـ (سنان بن مفروق) ، الذي عرف بـ (ضامن الدمن) . كما افتخر بـ (عمران بن مرة) لأنه أسر (يزيد بن الصعق) مرتين [1] .

الخيـلاء :

وقد عرف بعض الجاهليين بالخيلاء والزهو والتغطرس . وقد اعتبرها الاسلام من سمات أهل الجاهلية . وقد اشتهر (سماك بن خرشة الأنصاري) بمشية خاصة به ، فيها تبختر وخيلاء ؛ حتى عرفت بـ (مشية أبي دجانة) [2] . والتبختر هي مشية العجب والخيلاء . وكانت من مشية بعض المغرورين المترفين من أصحاب الجاه والمال .

الهجـاء :

والهجاء عكس المدح ، وهو ذم الشخص والانتقاص منه وشتمه . وقد نبغ فيه بعض الشعراء ، وتخصص به ، ويجب ان نقف منه موقف الحذر الشديد ، لما للعواطف والهوى من أثر فيه . وقد يهجو شخص شخصاً أو قوماً لسبب تافه ، أو بسبب حادث وقع له لا يستوجب صدور ذلك الهجاء منه . وهناك أشخاص جبلوا على ازدراء الناس وشتمهم والانتقاص منهم ، فهجوا أكثرهم ، بل بلغ بهم الهجاء حداً حملهم على هجو أقاربهم وأهلهم ، بل أنفسهم في بعض الأحيان .

ويستحق الهجـاء من اتصف بسوء الخصال ، واتسم بأخـلاق الأرذال ، والأنذال ، وجعل اللؤم جلبابه وشعاره ، والبخل وطاءه ودثاره . وقد حفظ الرواة بعض الأشعار التي قيل انهـا كانت من أهجى أشعار العرب في الجاهلية

---

١ العمدة (٢/٢٢١) .

٢ الثعالبي ، ثمار (٨٧ وما بعدها) ، تاج العروس (٩/١٩٦) ، (دجن) .

وفي الاسلام . وذكر ان من شعر الهجاء المرّ القاسي قول الأعشى :

تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا [1]

وقوله في الزبرقان بن بدر :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي [2]

وقول الطرمّاح :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت طرق المكارم ضلّت [3]

الى غير ذلك من شعر ، يجب ان نأخذه بحذر . وان نعالجه دائماً على انه يمثل العواطف الشخصية والانفعالات النفسية ، والتهييج الآني . وان شعراً من هذا القبيل لا يمكن ان يحمل محمل الصدق ، وان نقول عنه انه يعبر عن الواقع . بل نأخذه كما سبق ان ذكرت عن شعر المديح على انه تعبير عن نوع من أنواع الأدب في ذلك الوقت . وعلى انه باب يجب ان يدرس من الوجهة النفسية ، لأنه يفيد في الوقوف على النفسية العربية والعقلية الجاهلية في ذلك الوقت .

ولم يكن الهجاؤون يراعون الصدق في كلامهم ، وكيف يراعونه وهم يريدون هجو خصومهم والإساءة اليهم والى سمعتهم بأية طريقة ووسيلة كانت ، حتى وان علموا ان سامعي الهجاء لا يصدقونه . ومن هذا القبيل رمي بعض القبائل أو الأُسر بأنها من أصل أعجمي ، وفي كتب الأخبار أمثلة عديدة على ذلك ، وقد يكون ذلك بسبب وجود دم أعجمي من أم أو من أب بعيد أو قريب ، وقد لا يكون أي أثر من ذلك . شتم (عمرو بن الأهتم) (قيس بن عاصم) ، فقال له ولقومه :

إن تبغضونا ، فإن الروم أصلكم والروم لا تملك البغضاء للعرب [4]

وقد عير (حسان بن ثابت) (بني المغيرة) وسبهم بأنهم عبيد قيون ، أبوهم

١ نهايه الأرب (٣/٢٧٢) .
٢ نهايه الأرب (٣/٢٧٥) .
٣ نهاية الأرب (٣/٢٧٦) .
٤ ديوان حسان (ص ٤٤) (هرشفلد) .

قين لدى (كيره) جاثم . يأخذون (الاهالة) ، وهو الدهن الذي يستخرج من اللحم ، ويبيعونه من الدبّاغين [1] . فما ذكره فيهم هو من اعمال العجم والصعاليك ، لا العرب الأصلاء والأقحاح .

وذكر ان (الوليد) المعروف بـ (الوليد بن المغيرة) لم يكن عربياً ، وانما كان عبداً رومياً ، وكان اسمه (ديم) ، واسم ابيه (صقعب) ، فرغب فيه (المغيرة) ، فادّعاه ، والحق صقعباً بالشام ، فاشتاق اليه ، فصوره في الحائط . وقد هجاه (حسان بن ثابت) ، فقال له ان والدك (صقعباً) كان قيناً ، وأما امك فهي (حباشة) ، وهي عبدة سوداء . وقد تباهيتَ اذ صرت غنياً ، وانما صرت ثرياً بكلبتك هذه ، وهي آلة من آلات الحدادين ، يشير بذلك الى انه كان حداداً ، يعرف ضرب النصال ، وحسن الرقع للبرم ، وهي القدور [2] . ويظهر من شعر حسان ومن شرح الشرّاح ان (الوليد) كان مصوّراً ماهراً متمكناً من فنه ، حتى صور اباه ، ان صح هذا الادعاء من (حسان) .

ولحسان بن ثابت هجاء شديد لثقيف ، قال في بعضه خلّوا (معداً) ولا تنسبوا إليها ، واتركوا (خِنْدفاً) ، فما لكم من ولادة فيها ، وذلك على عاداته وعادة الشعراء والناس عند هجاء قوم ، حيث يرمونهم بكل قبيح ، ويجردونهم من كل مكرمة ، الا انه لم يصرح في شعره بأنهم من ثمود ، اذ كانوا وقت هجاء (حسان) إياهم من (قيس) . وقد نسبهم بعضهم الى (الفهود بن بني جائر بن إرم ، اخوة ثمود) ، ونسبهم آخرون الى (وحاظة) بن حمير ؛ وقال آخرون ان (ثقيفاً) ، هو عبد [3] . كل ذلك نكاية بثقيف .

وذكر اهل الاخبار ان (الازرق) ، وهو غلام رومي في الأصل كان للحارث ابن كلدة الثَّقفي . وقد ادعى نسله ان (الازرق) هو ابن (عمرو بن الحارث ابن ابي شمر الغساني) ، فهم من غسان . وذكر انهم ادعوا في اول امرهم انهم من تغلب ، ثم من بني عكب ؛ ثم افسدتهم خزاعة ، ودعوهم الى اليمن ، وزينوا لهم ذلك ، وقالوا : انتم لا يغسل عنكم ذكر الروم الا ان تدعوا انكم

---

١ البرقوقي (ص ٤٠٣) .
٢ البرقوقي (ص ٤٠٠ وما بعدها) .
٣ البرقوقي (ص ٣٤٦) .

من غسان. فانتسوا الى غسان بعد [1] .

وقد عَيَّرت العرب وسبَّت من كان ذا أصل خامل، كأن يكون قينا، والقين العبد والحداد. ولعلها جمعت هذا المعنى من الترابط بين الحرفة والمنزلة، فقد كان القيون من العبيد. وقد عيّر (حسان بن ثابت) (بني عوف بن عوف) بأنهم منتسبون الى قريش، ولكن نسبهم ليس منهم، بل من جذع قين لئيم العروق عرقوب والده اصهب [2]. فرماهم بأنهم ليسوا من قريش، ولا من العرب، بل من الروم، ووالدهم اصهب به حمرة، وليست الصهبة من لون العرب. وقال لهم: واذا اردتم الانتساب الى العرب، فانتسبوا الى (تغلب)، انهم شرّ جيل، وليس لكم غيرهم مذهب [3]. ويبعث قول «حسان» هذا في «تغلب» على الظن بأن أقواماً من الغرباء دخلوا في تغلب، وصاروا منهم. ولعله قصد ان من تنصر، دخل في تغلب، حتى دخل فيهم من ليس من العرب بسبب نصرانيته، حتى دخل فيهم قوم اصلهم من الروم.

وعُيّر بـ (اولاد درزة)، ويراد بهم الغوغاء. وبنو درز: الخياطون والحاكة، والعرب تقول للدعيّ: هو ابن درزة وابن ترني. وذلك اذا كان ابن أمة تُساعي، فجاءت به من المساعاة، ولا يعرف له أب،. وقال: هؤلاء اوّلاد درزة وأولاد فرتني للسفلة والسقاط [4] .

والسب: الشتم، والسباب: الشتائم والمشاتمة. وأما (السبّة) فالعار [5] . وكانوا يتشاتمون جماعات وفُرادى، ويعير بعضهم بعضاً وقد يقذعون في السب، ولا سيما في الامور التي تتغلب فيها العواطف على العقل.

ومن شتائم الجاهليين وسبابهم (عضضت بأير أبيك) [6] ، ويا ابن الزانية،

١ طبقات ابن سعد (٣/٢٤٧) (دار صادر) .

٢ الى جذم قين لئيم العروق عرقوب والده أصهب

البرقوقي (ص ٦٣) .

٣ الى تغلب انهم شر جيل فليس لكم غيرهم مذهب

البرقوقي (ص ٦٣) .

٤ اللسان (٥/٣٤٨) ، (صادر) ، (درز) .

٥ تاج العروس (٣/٣٤ وما بعدها) .

٦ البرقوقي (١٢١ وما بعدها) .

ويا ابن الفاعلة ، و (يا عاض اير ابيه) ، و (يا مصفر أُسته) [1] ، و (يا ابن ملقى ارحل الركبان) [2] .

وعيرت العرب بالبخـل . والبخل هو على نقيض الكرم . وقد ذُمّ بعض الجاهليين لبخلهم ولحرصهم الشديد على مالهم وعدم مساعدتهم الفقراء والمحتاجين . وقد انتخبوا من بينهم رجلاً زُعم انه ابخل الناس في الجاهلية اسمه (مادر) ، (ابخل مادر) و (ابخل من مادر) . وهو رجل من (بني هلال بن عامر) . ذكر انه كان اذا اتى ماءً روي وأروى ثملأه مدراً ضنا على غيره بوروده . وانه بلغ من بخله انه سقى ابله ، فبقي في الحوض ماء قليل ، فسلح فيه ومدر الحوض بالسلح ، اي لطخه [3] . وورد في الامثال : (ألأم من مادر) [4] .

وعيّرت بالغدر . قال بشر :

رَضيعَةُ صَفْحٍ بالجباه ملمةُ لها بَلَقٌ فوقَ الرؤوس مشهَّرُ

وصفح رجل من (بني كلب بن وبرة) ، جاور قوماً من (بني عامر) ، فقتلوه غدراً . يقـول غدْرتكم بـ (زيد بن ضباء الاسدي) ، اخت غدرتكم بصفح الكابي [5] .

وعيرت من ينكر الصنيع الجميل والفعل الحميد ، فينسى احسان من احسن له . وعيرت من لا يفي ، ولا سيما من أكل الخبز والملح ، وهما من موجبات الوفاء ، فقالوا : (ملحه على ركبته) ، في عدم الوفاء [6] .

واذا سبت العرب احد الموالي ، قالت : يا ابن حمراء العجان ، اي يا ابن الأَمة . كلمة تقولها في السبّ والذمّ . والعرب تسمّي الموالي : الحمراء [7] . وكانوا يعيرون (الأتاوي) ، وهو الغريب في غـير موطنه ، ولا يعدلون احداً من

---

١ الثعالبي ، ثمار (٢١) .
٢ تاج العروس (٣٤٢/٧) ، (رحل) .
٣ الثعالبي ، ثمار (١٢٧) .
٤ تاج العروس (٥٣٦/٣) ، (مدر) .
٥ تاج العروس (١٨٠/٢) ، (صفح) ، اللسان (٥١٦/٢) ، (صفح) .
٦ تاج العروس (٢٣٠/٢) ، (ملح) .
٧ تاج العروس (١٥٨/٣) ، (حمر) .

الأتاوين بأصحاب المحلات . قال الشاعر :

لا تعدلن اتاويـــين قد نزلوا　　وسط الفلاة بأصحاب المحلات

وقالت امرأة من الكفّار ، وهي تحرض الأوس والخزرج ، حين نزل فيهم النبي :

أطعتم أتاويّ من غــيركم　　فلا من مُراد ولا مذحــج

ارادت ان تؤلب وتذكي العصبية [1] .

وكانوا اذا ارادوا الاستهزاء برجل جاهل سفيه ، قالوا له : هذا من اشد سباب العرب ، أي ان يقول الرجل لصاحبه اذا استجهله يا حليم ! اي انت عند نفسك حليم وعند الناس سفيه [2] .

ويعيَّر الانسان بأبويه ، او بأحدهما ، اذا كان بهما او بأحدهما مثلبة ومنقصة يؤاخذ عليها ، كأن يكون ابن أمة او ابن سبي بيع في السوق . وقد رأينا انهم كانوا يزدرون الهجين ، ولا ينظرون اليه نظرتهم الى انسان صريح ، كما كانوا يزدرون مَنَ أمه او ابوه من اصحاب الحرف . وقد عُيِّر (النعمان بن المنذر) لأن امه (سلمى) كانت ابنة قَيْن ، على زعم بعض الرواه . وكانوا اذا شتموا ابن امة ، قالوا له : يا ابن استها [3] .

وقد كان للجاهليين اعراف في اهانات الناس ، من مثل سب الشخص على ما ذكرت ، وتحريض الاطفال على العبث بمن يريدون اهانته ، ورميه بالحجارة والركض خلفه ، وبأمثال ذلك ، او بتحريض السفهاء على التحرش بالشخص ، او تحريض النسوة بسبِّه ، وبالاقذاع في كلامهم معه ، وبما شاكل ذلك من وسائل دنيئة لا تنم على قدرة المحرض ولا على جرأة عنده ، فيعمد الى امثال هذه الامور .

وأما المقتدرون المتمكنون ، فكانوا اذا ارادوا اهانة انسان اهانوه بأسلوب يدل على قدرة المهين وتمكنه من مُهانه وازدرائه ، فكان احدهم اذا تمكن من عدوّه ،

---

1 الحيوان (٥/٩٧) ، (هارون) .
2 اللسان (١٢/١٤٦) ، (صادر) ، (حلم) .
3 قال الأعشى :

أسفهــا أوعدت يا ابن استهــا　　لست علــى الأعـداء بالقـــادر

وقال حسان بن ثابت :

فما منــك أعجب يا ابن اســتها　　ولكننــي من أولـــى أعجـــب

البرقوقي (ص ٦١) .

عمد الى اهانته بنتف لحيته . ونتف اللحية من الاهانات الشديدة عند العرب ، لأن اللحية من سماء الرجولة ، فاذا نتفت عدّ نتفها انتقاصاً من شأن ذلك الرجل وازدراءً شديداً به .

وما يقال عن الاهانة التي توجه الى الرجل بنتف لحيته ، ينطبق كذلك على (جز الناصية) . فجزّ الناصية من وسائل التحقير والازدراء ، وفيه دلالة على ازدراء مَنْ جَزّ الناصية بمن جُزّت ناصيته ، بعد ان تمكن منه . وقد كان في امكانه استرقاقه ، او المنّ عليه بفك أسره ، او بفك رقبته بفدية ، ولكنه لم يفعل كل ذلك ، ولم يطمح في الفدية امعاناً في ازدراء خصمه بافهام الناس ان ذلك الشخص لا يساوي شيئاً ، وان المتمكن ارفع من ان يقبل فدية عن رجل وضيع خامل .

وكانوا اذا ذكروا خصومهم ، تمنوا لهم الشرّ والأذى ، واستعملوا جملاً فيها هذه المعاني . مثل : أخس الله حظه [1] ، وأبعده الله وقبحه ، او رضيع اللؤم ، او ابعد الله دار فلان ، وأوقد ناراً في أثره [2] ، وقد يذكرونهم بهزء وسخرية . ويكثر ذلك عند اهل الفرار .

ومن معـــاني الشتم لفظة (لحى) ، التي تعني (شتم) . يقال (لحى الله فلانا) ، اي قبحه ولعنه . و (الملاحاة) المنازعة . وفي المثل من لاحاك ، فقد عاداك [3] .

وكان من دعاء بعضهم على بعض قولهم : (حبناً وقداداً) . والحبن الاستسقاء ، والقداد ، وجع في البطن [4] .

وكان اذا دعا الرجل على صاحبه ، يقول : قطع الله مطاك . فيقول الآخر : بسلا بسلاً ، اي آمين آمين . وكان يحلف الرجل ثم يقول بسل ، أي : آمين . وكان (عمر) يقول في دعائه : آمين وبسلاً ، اي ايجاباً وتحقيقاً . وهي في معنى الويل ، يقال : بسلاً له اي ويلاً له [5] .

---

١ تاج العروس (١٣٨/٤) ، (خسس) .
٢ اللسان (٤٦٦/٣) ، (وقد) .
٣ تاج العروس (٣٢٣/١٠ وما بعدها) ، (لحا) .
٤ تاج العروس (٤٦١/٢) ، (فد) .
٥ تاج العروس (٢٢٧/٧) ، (بسل) .

وكانوا اذا ما أرادوا التكنية عن الكذاب ، قالوا : (أبو بنات عبر) . و (بنات عبر) الكذب والباطل [1] .

الخسة والدناءة :

والخسة والدناءة ، والخسيس الدنيء والحقير [2] . والدنيئة القبيحة [3] . والدنيّة الخصلة المذمومة [4] . وهي من المثالب التي تكون في الانسان . فيزدرى من شأنه ويحتقر بين قومه . ومنها الحسد واللؤم وعدم احترام العرض . والعرب تتنحى من الدنايا وتستنكف منها [5] .

والحسد من الصفات السيئة التي كرهها العرب . وقد كان الحسد إذْ ذاك كثيراً ، بسبب سوء الأوضاع الاقتصادية وانتشار الفقر . فكان الفقير يحسد غيره على ما عنده ، مهما كان ما عنده قليلاً ، لأنه لا يملك حتى هذا القليل . وقد بحث (الجاحظ) في الحسد ، ووضع رسالة فيه دعاها : كتاب فصل ما بين العداوة والحسد . والحسد عنده شيء مألوف يقع لكل طبقة ولكل إنسان . ومن أسبابه . حبّ الرياسة ، ووجود النعمة ، وأمور أخرى ذكرها وتحدث عنها . كما تكلم عن مظاهر الحسد وأشكاله عند الجاهليين والاسلاميين ، وقد جعله فوق العداوة ، لأن العداوة تزول بزوال أسبابها ، أما الحسد ، فإنه دائم باق [6] .

و (الجبن) ، من الصفات التي يعير (الجبان) بها . وهو الذي لا يحب القتال ولا يستعمل سيفه . ولما كانت الحياة عند العرب حياة قتال صارت الشجاعة في الانسان صفة من صفات التكريم والتعظيم والتقدير ، عكس (الجبن) ،

١ اذا ما جئت جاء بنات عبر وان وليت أسرعن الذهابا
تاج العروس (٣/٣٧٧) .

٢ تاج العروس (٤/١٣٧) ، (خس) .

٣ تاج العروس (١/٦٦) ، (دنأ) .

٤ تاج العروس (١٠/١٣٢) ، (دنو) .

٥ تاج العروس (١٠/٣٦٢) ، (نخا) .

٦ راجع رسالته في رسائل الجاحظ (١/٣٢٥ وما بعدها) ، تحقيق (عبدالسلام محمد هارون) .

وينظر الناس الى (الجبان) نظرتهم الى النساء ، بل هو عندهم دونهن شأناً . لأن المرأة ولدت وفي طبعها اللين والاستسلام ، أما الرجل فقد خلق للعراك والقتال ، وقد حفظ أهل الأخبار قصصاً عن الجبناء وعن تحايلهم في سبيل تخليص أنفسهم من القتال ومن استعمال السيف . وقد اتهموا بتهم . منها : انهم كانوا ينتابهم (الضراط) عند شعورهم بخوف وبأصوات السيوف . حتى استخفت النساء بهم من أجل ذلك . قيل في المثل : أجبن من المنزوف ضرطاً . ومن ذلك ان نسوة من العرب لم يكن لهن رجل ، فتزوجت احداهن رجلاً كان ينام الصبحة ، فاذا أتينه بصبوح ، قلن قم فاصطبح ، فيقول : لو نبهتنني لعادية ، فلما رأين ذلك . قال بعضهن لبعض : إنّ صاحبنا لشجاع ، فتعالين حتى نجربه ، فأتينه كما يأتينه ، فأيقظنه . فقال : لو لعادية نبهتني . فقلن هذه نواصي الخيل . فجعل يقول : الخيل الخيل ويضرط ، حتى مات . الى غير ذلك من قصص يرويه الأخباريون [1] .

الشرف والخمول في قبائل العرب :

والقبائل كالأفراد والأُسر ، فيها النابه المذكور المهاب ، وفيها الخامل المزيل الضعيف الذي لا ينظر اليه نظرة تقدير وتبجيل . والقبيل الكثير الذرء والفرسان والحكماء والأجواد والشعراء ، وكثير السادات في العشائر ، وكثير الرؤساء في الأرحاء ، هو القبيل المقدر المعظم ، ذو الشأن بين القبائل [2] . وقد تقع أحداث وعوامل ، تؤدي الى خمول القبيل والى انفصام وحدته ، والى طمع غيره فيه ، فيهزل عندئذ ويخمل ، ويأخذ مكانه من هو أقوى منه . وقد ذكر (الجاحظ) ، ان القبيل الذرء والعدد ، والذي لا يكون فيه خير كثير ولا شرّ كثير ، يخمل ويدخل في غمار العرب ، ويغرق في معظم الناس ، وصار من المغمورين ومن المنسيين ، وسلم من ضروب الهجاء ومن أكثر ذلك ؛ وسلم من ان يُضرب بـه

---

١ تاج العروس (١٧٦/٥) ، (ضرط) .
٢ الحيوان (٣٥٧/١ وما بعدها) ، (هارون) .

المثل في قلة ونذالة اذا لم يكن شرّ ، وكان محلّهم من القلوب محلّ من لا يغيظ الشعراء ، ولا يحسدهم الأكفاء ... واذا تقادم الميلاد ولم يكن الذرء وكان فيهم خير كثير وشرّ كثير ، ومثالب ومناقب ، لم يسلموا من ان يُهجوا ويضرب بهم المثل ... وقد يكون القوم حلولاً مع بني أعمامهم ، فإذا رأوا فضلهم عليهم حسدوهم ، وان تركوا شيئاً من انصافهم اشتدّ ذلك عليهم ، وتعاظموا بأكثر من قدره ، فدعاهم ذلك الى الخروج منهم الى أعدائهم . فإذا صاروا الى آخرين نهكوهم وحملوا عليهم ، فوق الذي كانوا فيه من بني أعمامهم ، حتى يدعوهم ذلك الى النّدم على مفارقتهم ، فلا يستطيعون الرجوع ، حميّة واتقاء ، ومخافة ان يعودوا لهم الى شيء مما كانوا عليه ، والى المقام في حلفائهم الذين يرون من احتقارهم ، ومن شدة الصولة عليهم)[1] .

وقد ذكر (الجاحظ) ، ان مما تبتلى به القبائل فيصيبها الخمول : الشعر ونبوغ الأقارب أو المنافسين . فالشعر عند العرب يرفع من قدر الناس ويحطّ من درجاتهم . فقد يقال بيت واحد يربطه الشاعر في قوم ليس لهم جاه ، فيرفع من شأنهم ، وقد يقال بيت واحد في قوم لهم النباهة والعدد والفعال ، فيغض من مكانتهم ، ويكون سبّة لهم . ولأمر ما بكت العرب بالدموع الغِزار من وقْع الهجاء ، كما بكى مخارق بن شهاب ، وكما بكى علقمة بن عُلاثة ، وكما بكى عبد الله بن جُدعان . والبلية الأخرى : ان يكون القبيل متقادم الميلاد ، قليل الذرء قليل السيادة ، ويتهيّأ ان يصير في ولد إخوتهم الشرف الكامل والعدد التامّ ، فيستبين لمكانهم منهم من قلتهم وضعفهم لكلّ من رآهم أو سمع بهم ، أضعاف الذي هم عليه لو لم يكونوا ابتلوا بشرف إخوتهم .

ومن شؤم الإخوة ان شرفهم ضعة إخوتهم ، ومن يمن الأولاد ان شرفهم شرف من قبلهم من آبائهم ومن بعدهم من أولادهم[2] . ولذلك كانت القبائل تفخر بنبوغ الشعراء بها ، لأنهم لسانها الذابّ عنها ، وسيفها المصلت على رقاب

---

١ الحيوان (١/٣٥٧ وما بعدها) ، (هارون) .
٢ الحيوان (١/٣٦٥) .

الأعداء . وتتباهي بما يقوم به ساداتها من فعال حميدة وأعمال مجيدة ترفع رأس أبناء القبيلة بين الناس .

ولأهمية الشعراء عند الجاهلين ، قال بعض العلماء : كلاب الحيّ شعراؤهم ، وهم الذين ينبحون دونهم ، ويحمون أعراضهم . وفي هذا المعنى جاء قول عمرو بن كلثوم :

وقد هرّت كلابُ الحيّ منّا وشذّبنا قتادة من يلينا[1]

الاسلام والجاهلية :

وقد أبطل الاسلام كل سمة من سمات الجاهلية وعلامة من العلامات الّتي كانت تعدّ من صميم حياة الجاهلين . وفي جملتها المثل الأعرابية والحياة البدوية ، فاعتبر الأعرابية بعد الاسلام ردة . ونهى عن الهجرة من المدن الى البوادي ، فكان الأعرابي اذا دخل في الاسلام ، لزم الحضارة ، وكلّف بواجب الجهاد في سبيل نشر الاسلام ، لما في التبدي والأعرابية من ابتعاد عن الجماعة وترك للواجب الملقى على المواطن في الدفاع عن الاسلام وفي العمل على انهاض المجتمع والانتاج في سبيل الخير العام . لذلك لام الناس (أبا ذر الغفاري) ، حين لجأ الى (الربذة) فأقام بها وتعزب بذلك عن الجماعة[2] .

وفي جملة ما حاربه الاسلام من أمور الجاهلية الأصنام والأوثان ، فطُمست وأزيلت معالمها ، بل غير أموراً أقلّ منها شأناً وخطراً ، مثل : خضرمة النوق . وكان أهل الجاهلية يخضرمون نعمهم ، فلما جاء الاسلام أمروا ان يخضرموا من غير الموضع الذي يخضرم منه أهل الجاهلية[3] . وذلك منعاً من التشبه بالجاهلين ، وابعاداً للمسلمين عن تذكر أيام ما قبل الاسلام . ونهى عن تسنيم القبور وعن لبس بعض الملابس ، وعن أمور أخرى ، لأنها كانت من صميم أعمال الجاهلين .

---

١ الحيوان (١/٣٥١) ، (هارون) ، (كلاب الجن) ، الثعالبي ، ثمار (٦٩) .
٢ تاج العروس (١/٣٨٠) ، (عزب) .
٣ تاج العروس (٨/٢٨١) ، (الخضرم) .

وحارب الاسلام العصبية التي كانت من أهم سمات الجاهلية ، والتي بقيت مع ذلك كامنة في نفوس الناس . عصبية القبائل وعصبية القرى والمواضع . من ذلك ما كان بين يمن وأهل مكة من نزاع ، تحول الى نزاع قحطان وعدنان . فعير أهل مكة اليمن بأنهم قيون ، وأجابهم أهل اليمن بكلام غليظ شديد . هـذا (أمية بن خلف) يهجو حسان بن ثابت بقوله :

أليس أبوك فينـا كان قيناً لدى القينات ، فسلاً في الحفاظ ؟
يمانياً يظلّ يشدّ كيراً وينفـخ دائبـاً لهب الشواظ [1]

وهذا (حسان) يجيبه ويرد عليه في شعر مطلعه :

أتاني عن أميّـة زورُ قولٍ وما هو في المغيب بذي حفاظ [2]

وطالمـا ظهرت هـذه العصبية في أيام الرسول ، بتنازع الأنصار وقريش وتفاخرهـم بعضهم على بعض . وذكر ان في جملة أسباب تحريم الخمر ، ان رجلاً من الأنصار صنع طعامـاً ، فدعا جمعاً من الأنصار وقريش ، وشربوا الخمر حتى انتشوا ، فتفاخرت الأنصار وقريش ، فقالت الأنصار · نحن أفضل منكم . وقالت قريش نحن أفضل منكم ، وتخاصموا ، فبلغ ذلك الرسول ، فنزل الأمر بتحريم الخمر [3] .

وفي جملة ما نهى الاسلام عنه (دعوى الجاهلية) من التفاخر بالأحساب والأنساب والتباهي بالمـال والبنين والأموات ، وتحـريم بعض الطعام والشراب والعادات الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية على نحو ما رأينا فيما تقدم ، وما سنراه فيما بعـد .

وقد ترك المسلمون أموراً كثيرة أخرى مما كان مستعملاً في الجاهلية ، فمن ذلك تسميتهم للخراج إتاوة ، وكقولهم للرشوة ولما يأخذه السلطان : الحُملان والمكس . وكما تركوا : أنعم صباحاً ، وأنعم ظلامـاً ، وصاروا يقولون : كيف أصبحتم ؟ وكيف أمسيتم ؟ كما تركوا ان يقولوا للملك أو السيّد المطاع :

١ اللسان (٧/٤٤٦) ، (شوط) ·
٢ تاج العروس (٥/٢٥٤) ، (عكظ) ·
٣ تفسير الطبري (٧/٢٢) ·

أبيت اللعن ، وتركوا ان يقول العبد لسيده : ربي ، وان تقول حاشية الملك والسيد للملك وللسيد : ربنا . وكما تركوا ان يقولوا لقوّام الملوك السدنـة ، وقالوا : الحجبة . كما تركوا أشياء أخرى مثـل المرباع والنشيطة والصفايا ، الى غـير ذلك ، ممـا كان مستعملاً في الجاهليـة . فكره للملك استعماله في الاسلام [1] .

1 الحيوان ، للجاحظ (١/٣٢٧) ، (ما ترك الناس من الفاظ الجاهلية) .

الفصل الثامن والأربعون

الحياة اليومية

لا نستطيع ان نتصور وجود حياة يومية صاخبة أو متغيرة عند أهل الوبر ؛ فحياة البادية في غاية البساطة ساذجة الى أقصى حدّ من السذاجة . تذهب وتأتي على وتيرة واحدة ونمط واحد . فليس للرجل في البادية من عمل سوى رعي الإبل والإشراف عليها . وهو عمل لا يستوجب مجهوداً ولا يتطلب بذل طاقة ، لذلك يعهد به الى الأحداث في الغالب ، أما الرجال ، فليس لهم عمل مهم يذكر . لذلك يقضون معظم وقتهم جلوساً بغير عمل ، أو في التحدث بعضهم الى بعض . وحياة على هذا النحو تجبل الانسان على الكسل والخمول . فصار الأعرابي خاملاً كسولاً على صحة جسمه وتوقد ذهنه وذكائه . يحسن الكلام ويجيد تنميق الحديث ويتلاعب في كلامه وفي ايجاد معان وحيل ومخارج له ، ويسترسل في الخيال وفي التصور وفي شعوره الذي سبكه وصاغه في كلام موزون منظوم مقفّى ، وفي كلام مسترسل غير مقفى ، وفي كل حرفة لسانية ، أو تعبير عن شعور ذاتي كالحب والبطولة وما شاكل ذلك مما لا يحتاج الى مجهود وعمل . أما النواحي العملية من الحياة ، النواحي التي تحتاج الى جهد وعمل ، فقد ترك أمرها لغيره ، بل ازدراها وازدرى شأن من يعمل بها ، واحتقر الحرف والصناعات ، لأنها من عمل الأعاجم والعبيد . ورأى ان من العار ان يصاهر أهل الصناعات والحرف والزراعة ، لأنهم دونه في المنزلة بكثير . وهو غير ملوم على نظرته هذه الى العمل اليدوي المجهد ، فالانسان عدوّ ما جهل معظّم لما يكون عنده ، كاره لما لا يملكه ويكون عند غيره . فقد حرمته الطبيعة من كل

ما يحمله على بذل الجهد للاشتغال في صناعة او حرفة او زراعة ، ولم تهيّىء له البذور والمواد اللازمة لاقامتها ، لذلك جهلها فحاربها وازدراها وازدرى شأن من يشتغل بها . كما سأتحدث عن ذلك في المواضع المناسبة لهذا البحث .

والباديه ارضون واسعة شاسعة جرداء في اغلب ايام السنة ، خلا مواسم نزول الغيث وهي قليلة ، وقد تنحبس . اذا امطرت السماء ظهر (الربيع) ، فتفرح الارض وتكسى بخضرة تتخللها اوراد وأزهار وشقائق ، ويضحك عندئذ وجهها ، بعد يبوس وعبــوس ، ضحكاً يُفهم الانسان الحضري عندئذ سرّ تعلق الاعرابي بباديته . ففي البادية على ما فيها من شقاء وجفاف ويبوسة ؛ سحر ينسي الانسان صعوبة الحياة ، وحلاوة تنسيه مرارة الايام القاسية التي يعيشها البدوي في باديته . بعيداً عن الحضر وعن المجتمع المتكثف في مستوطنة او قرية او مدينة ، بل بعيداً حتى عن ابناء عشيرته . فمن طبيعة الصحراء ان قلبها لا يتقبل المجتمعات الكبيرة ، بل يفضل المجتمعات الصغيرة المتناثرة . فصارت البيوت فيها متباعدة منتشرة هنا وهناك انتشار النجوم في السماء . كل بيت مسؤول عن حماية نفسه وعن وقاية افراده من اذى الانسان والحيوان ، وعن حماية جاره وذوي رحمه وأبناء عشيرته . لأنه ان لم يفعل ذلك ، لم يجد من يدافع عنه ايام الشدة والعناء ، حتى صار الجار عنده بمنزلة الأهل والدار .

وحياة من هذا النوع هي حياة لا بد وأن تصير بسيطة جداً ساذجة الى اقصى حدود السذاجة . احاديثها اليومية تكرار واعادة ، وأحاسيسها نسخة لأحاسيس اليوم الماضي والايام السابقة . وافق التفكير فيها محدود ضيق . اذ لا مجال فيها للفكر ان يتفتق وأن يتفتح ويتوسع . ومن هنا طبعت الحياة العقلية والاجتماعية بطابــع الفطرة والبساطة . وهي لا يمكن الا ان تكون كذلك . وكيف تريد منها ان تكون غير ذلك ، ومحيطها وظروفها هي على هذا النحو من الحدود والقيود !

وفي وسع الرجل بفضل ما أوتي من قوة ومن بسطة في الجسم ، قطع المسافات لزيارة الاقارب والجيران ، لقتل الوقت بالكلام معهم ، او للتحدث عن غزو سابق او عن شؤون سيد القبيلة او عن اشراف العشيرة او للخروج الى صيد لاصطياد ما قد يجده من حيوان مسكين ، حتّم عليه سوء طالعه ان يولد في هذه الارض الفقيرة ، فهو مثل الانسان تائه بهذه الحياة في هذه البادية الواسعة المكشوفة الشحيحة ، يشكو الى خالقه من ظلم طبيعة أنبتته في هذه الارض الفقيرة ، على

حين زرعت غيره في غابات كثيفة ذات ظروف حياتية غنية ، فيها من المأكول أشكال وألوان . بينما هو لا يكاد يجد امامه شيئاً ، حتى اذا اشتد عوده واستوى ، وقع في قبضة اناس جائعين ، لا يقل جوعهم عن جوعه ، فلا يخرج من قبضتهم ابداً . يتلذذون في اكله شواءً ، ويتحدثون عن صيدهم ويفتخرون به . وقد يكون الصيد ظبياً او ضباً او يربوعـاً . ويفخرون بصيدهم لانهم محرومون من اللحم ، وكل ما تقع عليه عين المحروم من الأكل ، هو أكل لذيذ دسم في نظر المحروم .

اما الاطفال فهم اطفال اينما وجدوا . لا يعرفون من اسرار الحياة وعنـائها وشقائها شيئاً . همهم اللعب ، يلعب الذكور مع الاناث ، الأخوة مع الأخوات ، فهم اطفال البيوت . وقد يلعب معهم اطفال جيرانهم ، اذا كانت البيوت متقاربة . يلعبون العاباً هي من نتاج طبيعة ارضهم ومحيطهم . لا يعبأون بحرٍّ ولا برد ، ولا بريح او بأشعة شمس محرقة ، وما الذي يفعلونه تجاه طبيعة قوية قهارة لم تعطهم امكانيات بناء بيوت من مدر يأوون اليها لحماية انفسهم من اشعة الشمس لهم على الأقل . وانما مكنت آباءَهم من صنع بيوت من وبر او صوف او شعر معز قد تقيهم من الأشعة بعض الوقاية ، بأن تمنحهم شيئاً من ظل . ولكنها عاجزة عن حمايتهم من البرد ومن الحر ومن الغيث اذا نزل عليهم مدراراً . لا سيما اذا طال عهد هذه البيوت ولعب بها العمر ، وصارت مهلهلة بالية ، ذات جيوب وشقوق كالغرابيل ، تعبث بها الرياح ساخرة من جهل هذا الانسان القانع الراضي بحياته هذه على ما فيها من شظف وعسر وفقر ، بينما هناك مجال واسع له لتحسين حاله ، لو حرك نفسه واستخدم عقله وذراعه لتسخير الطبيعة في خدمته ، لتحسين وضعه والترفيه عن نفسه ولو الى حد .

الرجل :

والرجل بحكم تفوق بنيته على بنية المرأة ، وبفضل قوة عضلاته ومقاومته للطبيعة وللأخطار سيد الأسرة و (رب العائلة) و (بعل المرأة) ، اي سيدها . منح نفسه حقوقاً لم يعطها للنساء . وبنى مفاهيم العدل والحق على اساس ان العدل هو القوة ، فاغتصب حق المرأة والبنت والولد والرجل العاجز لقوته ولأنه مقاتل ، اما غيره

من المذكورين فعاجز عن القتال ، فحرمهم من الحقوق . ومنها حقوق الإرث : وأباح لنفسه حق الاستمتاع بملاذ الحياة ، وفي جملتها الاستمتاع بالنساء وبالخمور وببقية الأطايب . فله ان يتزوج ما يتمكن من النساء ، وجعل بيده حق الطلاق ، وجوّز لنفسه الاتصال بأية امرأة شاء وان كان متزوجاً ، وله ان يتسرى ما يشاء ، وله غير ذلك من امتيازات وحقوق ، بسبب قوته وتفوقه على الجنس الآخر وعلى المستضعفين من المخلوقات ، لأن الحق للمخلوق القوي ، ولا حق عند القوي لانسان ضعيف .

اللحية :

ومن الرجولة الشجاعة والاقدام وعدم المبالاة والمحافظة على مقوّمات الرجل وما منحته الطبيعة اياه من ملامح ميزته عن المرأة ، وأهمها : اللحى . فاللحية عند العرب رمز الرجولة وزينتها وسيماء تكريم الرجل وتقديره . واهانة اللحية عند العرب وعند الساميين هي من اعظم الاهانات التي لا تغتفر ، وتقبيلها عندهم من علامات التقدير والاحترام والاجلال . ويعد نتف اللحية او جزها او حلقها اهانة كبيرة تنزل بصاحبها . يفعلها من يريد الازدراء بشأن الملتحي ، ويعد عدم الاكتراث بتسوية اللحية من سيماء الحزن او الغيظ او المرض او الارتباك وتضعضع الحال . ونجد في التوراة ان في جملة الاهانات التي تلحق بالناس حلق انصاف لحاهم [1] . ويقسم باللحية ، ويعدّ القسم بها من الايمان المغلظة . يمسك بها الحالف بيده اليمنى فيحلف بحقها انه لا يكذب او انه سيفعل ، او ما شابه ذلك . ولكن العادة ان الحالف بها يكون بامساكها باليد ، واذا مدّ غريب يده على لحية رجل اكبر منه في المنزلة والدرجة وأقسم بها او استجار بها ، وجب على صاحبها الأخذ بنفسه والاهتمام بأمره ومساعدته . وقد يمسك غريب محتاج او مطارد بلحية سيد قبيلة او شريف قوم ، ويبين له انه في حماه ومنعتـــه ، وعلى الرجل بذل الحماية والمنعة له .

والعربي يكرم لحيته ، ولا يحلقها ، وتكون لحيته مدببة في الغالب على نمط

---

١ صموئيل الثاني ، الاصحاح العاشر ، الآية ٤ ، قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٩١) .

اللحى الفرنسية . ويصرف بعض الوقت لاصلاحها حتى لا تكون متناثرة بشعة ، وقد يعبر الانسان بلحيته ، فيقال : له لحية تيس . وتنسب عادة اكرام اللحى الى سنن ابراهيم . وقد تكون اللحية كثة كبيرة منتظمة . ويقال للرجل ذي اللحية الطويلة : (اللحياني) و (رجل لحيان) [1] .

ويحلف العربي بشاربه ، فاذا اراد اعطاء عهد او جوار او اي عهد آخر واقسم بشاربه ، وجب عليه الوفاء بعهده . ومن عادة العرب تخفيف الشارب ، وقد تحف وتنسب هذه العادة الى سنن ابراهيم ، ومن السنن الاخرى تقليم الاظافر وحلق العانة [2] . وذكر ان الرسول كان يقص شاربه وأنه قال : قصوا الشوارب وأرخوا اللحى وخالفوا المجوس . وورد انه قال : (خالفوا المشركين ووفرو اللحى وأحفوا الشوارب) [3] .

ويعدّ قص الشارب من (الفطرة) . وهي عشرة او خمسة امور [4] . يذكرون انها من سنن ابراهيم ومن اتبعه من العرب . وفي جملتها الختان .

ويذكر العلماء ان الله ابتلى (ابراهيم) بسنن الفطرة ، وهي التي ذُكرت في القرآن في قوله تعالى : (وإذِ ابتلى إبراهيمَ ربُّهُ بكلمات فأتمّهنّ) [5] ، وهي الكلمات العشر : خمس في الرأس ، وخمس في الجسد . فأما التي في الرأس فالمضمضة والاستنشاق وقصّ الشارب والفرق والسواك . وأما التي في الجسد فالاستنجاء وتقليم الاظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان . فلمّا جاء الاسلام ، قرّرها سنة من السنن [6] .

والعرب من أصحاب الشعور السوداء . وهم مثل غيرهم يفاخرون بشعر

١ تاج العروس (١٠/٣٢٤) ، (لحى) .
٢ القسطلاني ، ارشاد الساري (٢/١٦١) .
٣ زاد المعاد (١/٤٥ وما بعدها) .
٤ زاد المعاد (١/٤٤ وما بعدها) .
٥ البقرة ، الآية ١٢٤ .
٦ بلوغ الأرب (٢/٢٨٧) .

رأسهم ، ويتركونه ينمو ولا يحلقونه على نحو ما كان يفعل اليهود والمصريون [1] . وكانوا يدهنونه ؛ ويمشطونه بالمشط ، ويتركونـه يتدلى على المنكبين . وقـد يضفرونه ضفائر . ومنهم من يضفره ضفيرتين يجعلها تتدليان على جانبي الوجـه . وذكر ان العرب تسمي الخصلة من الشعر أو الضفيرة قرناً . ولهذا عرف (المنذر ابن ماء السماء) جدّ (النعمان بن المنذر) بـ (ذي القرنين) لضفيرتين كانتا في قرني رأسه [2] . والعرب تكني عن العربيّ بالجعـد وعن العجمي بالسبط [3] . والجعد من الشعر خلاف السبط ، أو هو القصير منه . وهـم يعنون بذلك ان سبوطة الشعر هي الغالبـة على شعور العجم من الروم والفرس ، وجعودة الشعر هي الغالية على شعور العرب . وكانوا اذا قالوا رجلاً جعداً عنوا رجلاً كريماً ، كناية عن كونه عربيـاً سخيّـاً ، لأن العرب موصوفون بالجعودة . وقد يقصدون بذلك رجلاً بخيلاً لئيماً ، فهو من الأضداد . وذكر ان العرب تقول : رجلاً جعداً ، اذا كان قصيراً متردد الخلق . وإذا قالت جعد السبوطة ، فإنها تريد بذلك المدح ، إلا ان يكون مفلفلاً كشعر الزنج والنوبة ، فهو حينئذ ذمّ [4] .

وكان الرسول يسدل شعره ، ثم فرقه . والفرق ان يجعل شعره فرقتين كل فرقة ذؤابة . والسدل ان يسدله من ورائه ولا يجعله فرقتين [5] . وذكر انـه كان يضفره غدائر ، والغدائر الضفائر . وكان إذا طال شعره جعله غدائر أربعـاً . وكان يكثر دهن رأسه ولحيته ويكثر القناع كأن ثوبه ثوب زيّات . وكان يحب الترجّل ، وكان يرجل نفسه تارة وترجله عائشة تارة [6] . وترجيل الشعر تسريحه .

١ أشعياء ، الاصحاح السابع ، الآية ٢٠ ، حزقيال ، الاصحاح الخامس ، الآية الأولى، قاموس الكتاب المقدس (١/٦٨ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٤/٣٠٧) ، (قرن) .

٣ تاج العروس (٥/١٤٩) ، (سبط) .

٤ تاج العروس (٢/٣٢٠ وما بعدها) ، (جعد)

٥ زاد المعاد (١/٤٤) .

٦ زاد المعاد (١/٤٥) .

وقد تقوم به المرأة[1] . ويكون ذلك بالمشط . قال امرىء القيس :

كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حنّاء بشيب مرجّل[2]

وللعرب عادات بالنسبة الى شعرهم . فهم إذا غضبوا وأرادوا الأخذ بالثأر ، لم يغسلوا شعورهم وتركوا تدهينها حتى يأخذوا بثأرهم . كالذي رووه من قصة امرىء القيس ، حينما جاءه خبر مقتل والده . وهم اذا أرادوا إذلال رجل واهانته كإذلال سيد قبيلة أو شريف قوم سقط أسيراً ، وأرادوا الإمعان في اذلاله جزّوا ناصيته وتركوه يذهب فذلك عندهم شرّ إذلال . والناصية مقدم الرأس[3] .

ويستوي الرجل والمرأة في دهن شعر الرأس . ولا زال الأعراب يدهنون شعورهم على الطريقة القديمة . ويستعمل أغنياؤهم الدهون الجيدة المستوردة من الخارج . مثل (الزيت) المطيب بالعطور وبأنواع الطيب ، يدهنون به شعورهم ولحاهم في أيام الأفراح بصورة خاصة وفي الأعياد . وكان الرومان واليونان يدهنون الجسم كله بالزيت . ويعدّ دهن شعر الرأس من علامات الفرح والسرور ، وتركه من علامات الغم والحزن[4] . وقد كان الصحابة يطلون شعر رأسهم ولحيتهم بالدهن ليزيلوا شعث رؤوسهم ولحاهم به[5] .

ويضفر شعر الأولاد والبنات ضفائر ، تتدلى على جانبي الوجه ومؤخرة الرأس . وأما الرجال ، فكان منهم من يضفر شعر رأسه ضفيرتين يتركهما تتدليان على جانبي وجهه ، ومنهم من يضفره جملة ضفائر ، قد تبلغ سبعاً . وعادة ضفر شعر الرأس سبع ضفائر عادة معروفة عند غير العرب أيضاً . وكان شعر (شمشون) المشهور مضفوراً في سبع خصل[6] . ولا زال الأعراب يضفرون شعورهم . ويقال للضفيرة (الذؤابة) . والذؤابتان اللتان تسقطان على الصدر .

---

١ شرح النووي على صحيح مسلم ، المطبوع حاشيه على ارشاد الساري ، القسطلاني (٣٣٨/٢) ، (باب جواز غسل الحائض رأس روجها وترجيله) .

٢ تاج العروس (٣٣٧/٧) ، (رجل) .

٣ تاج العروس (٣٦٩/١٠) ، نصا .

٤ مزامير ٥،٢٣ ، متى ١٧،٦ ، صموئيل الثاني الاصحاح ١٤ ، الآية ٢ ، قاموس الكتاب المقدس (٥٢٢/١) .

٥ القسطلاني ، ارشاد الساري (١٦١/٢) .

٦ قاموس الكتاب المقدس (٦١٩/١) .

ويقال لها (غديرتان) . وكل عقيصة غديرة . قال امرؤ القيس :

غدائره مستشزرات الى العلى تضل العقاص في مثنى ومرسل [1]

ولما قدم (ضمام بن ثعلبة) من (بني سعد) على الرسول ، كان رجلاً جلداً أشعر ذا غديرتين . فلما ولى قال رسول الله : إن صدق ذو العقيصتين [2] . ويقال لها (القرنين) كذلك . والعرب تسمي الخصلة من الشعر القرن . والقرن الذؤابة عامة . ومنه : الروم ذات القرون ، لطول ذوائبهم [3] .

وهم مثل غيرهم من الناس يعتبرون الشعر الأشيب أكليل مجد للشيخ ، والشعر الأبيض رمزاً للحكمة والجلالة [4] . وذلك بسبب ان تقدم العمر بالإنسان يكسبه خبرة وحكمة ، لما يراه في حياته من تجارب وعظات . لذلك أقاموا للسن وزناً كبيراً في أخذ الرأي وفي التقدم في الدخول وفي الجلوس في المجالس .

ولم يكن شيوخ الجاهلية وشيبها أقل عناية بمظهرهم وبمرآهم من شيوخ هذا اليوم وشيبه ، فحاولوا ما قدروا إخفاء شيبهم واطماء لعب الزمان بشعرهم وبأوجههم بمختلف الوسائل والسبل ، ومنها إخفاء الشيب بصبغه وباستعمال الخضاب ، وبعضه أسود ، كما خضبوا بالعِظْلم وبالحنّاء [5] . وصبغوا الحاهم . ولم يهملوا العيون ، فاكتحلوا لتظهر براقة مؤثرة . ولا تزال « الوسمة » ، وهي خضاب أسود معروف ، ويستعملها بعض الناس اليوم .

وذكر بعض علماء اللغة ان الخضاب ، اخفاء الشيب بالحنّاء ، واذا كان بغير الحناء قيل : صبغ شعره ، ولا يقال خضبه . وذكر آخر ان أول من خضب بالسواد من العرب (عبد المطلب) [6] . وقد تعلمه من أهل اليمن . إذْ كان قد زارهم فوجد شيبهم يخضبون شعورهم بالسواد ، فأعطوه خضاباً ، فجاء الى مكة ، وعنه شاع الخضاب بين أهلها .

---

١ تاج العروس (٤٤١/٣) ، (غدر) .
٢ الطبري ١٢٤/٣ وما بعدها) ، (قدوم ضمام بن ثعلبه وافدا عن بني سعد) .
٣ تاج العروس (٣٠٧/٩) ، (قرن) .
٤ دانيال ، الاصحاح السابع ، الآية ٩ ، قاموس الكتاب المقدس (٦١٩/١) .
٥ المعرب (ص ١٦) ، تاج العروس (٢٣٦/١) ، (خضب) .
٦ تاج العروس (٣٦٦/٢) ، (الكويت) ، (خضب) .

وقد استعملوا الزعفران في صبغ لحاهم وشعورهم . واستعملوا لون الزعفران في صبغ ثيابهم أيضاً . وذلك لغلاء ثمن (الزعفران) الطبيعي . كما استعمل (العصفر) في الصبغ ، وهو من نبات ينبت في جزيرة العرب ، اذا صبغ الثوب به قيل : عصفر الثوب به [1] . كما استعملوا (الكتم) في تخضيب الشعر . وهو نبت يخلط بالحناء ويخضب بالشعر فيبقى لونه . وقد أشار اليه (أمية بن ابي الصلت) بقوله :

وسوّدت شمسهم اذا طلعت   بالجلب هفاً كأنه كتم

والمكتومة : دهن من أدهان العرب أحمر . يجعل فيه الزعفران أو الكتم . وطبخوا الكتم بالماء واستخرجوا منه مداداً للكتابة [2] .

ويكون الخضاب بالحناء ، كما يكون بالحناء والكتم كما ذكرت ، وقد يكون بالحناء والوسمة . وتجعل الوسمة الشعر أسود فاحماً . وكل هذه من النباتات التي تنبت في الحجاز وفي اليمن وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب . وقد استعملوا (السواد) ويكون بالوسمة في الغالب لتسويد شعر الجارية والمرأة الكبيرة والشيخ للغش والتدليس ، حتى اذا جاء سيد لشراء جارية ظن أن شعرها على هذه الصورة من السواد ، أو جاء رجل يطلب المرأة الكبيرة ظن أنها أصغر من عمرها ، أو عرض الرجل الشيخ نفسه للزواج ، ظهر أصغر من عمره . ونظراً الى ما في هذا العمل من غش نهي عنه في الاسلام [3] .

وخوفاً من أن يقملوا لبدوا شعر رؤوسهم بالخطمي والصمغ . وقد عرف من يفعل ذلك بـ (الملبد) . وقيل : ان « الملبد » المحرم ، الذي لبد شعره حتى لا يقمل ، اذا دخله الغبار بعد العرق [4] . وقد كان القمل قد عشش في آباط كثير من الناس ، لا سيما الفقراء والاعراب منهم . وفي شعر رؤوسهم وفي المواضع المشعرة من أجسامهم ، نظراً لسوء وضعهم من الناحية الاقتصادية وفقرهم : وعدم تمكنهم من غسل أجسامهم . وقد أشير الى القمل والتلبيد في الشعر . ذكر أن القمل

١ تاج العروس (٤٠٨/٣) ، (عصفر) .
٢ تاج العروس (٣٩/٩) ، (كتم) ، (٩٣/٩) ، (وسم) ، العقد الفريد (٤٩/٣) .
٣ ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد (١٨٣/٣ وما بعدها) .
٤ المعاني الكبير (٤٢٦/١) ، تاج العروس ٤٩١/٢) ، (لبد) .

كان يتهافت من رأس (كعب بن عجوة بن عديّ) على وجهه ، وكان محرماً ، فرآه الرسول ، فأمره أن يحلق رأسه وأن يطعم فرقاً بين ستة مساكين [1] .

وذكر أن التلبيد ، أن يأخذ شيئاً من خطمى وآسٍ وسدر ، وشيئاً من صمغ ، فيجعله في أصول شعره وعلى رأسه ، كي يتلبد شعره ولا يعرق ويدخله الغبار ، فيخمّ ويقمل [2] .

وتطيّب الرجال بالطيب ، ودهنوا شعورهم بالدهن المطيب . وكانوا يتطيبون اذا ذهبوا الى زيارة بيت ، وفي المجتمعات العامة كالمواسم والأفراح . وللرجال طيب يختلف عن طيب النساء .

وقد يرقن الرجل كما ترقن المرأة بالحناء وبالزعفران . يقال : أرقن الرجل لحيته ورقنها ، أي خضبها بالحناء وبالزعفران . قال الشاعر :

ومسمعة اذا ما شئت غنت مضمخة الترائب بالرقان [3]

والرقان والرقون الحناء والزعفران .

ويكثر العرب من حمل (العصا) معهم . اذ هي ضرورة بالنسبة لحياتهم . يستعينون بها في طرد الكلاب عنهم ، ورد الحيوانات المتوحشة التي قد تصادفهم ، كما يستعملونها في ضرب إبلهم حتى تطيع أوامرهم . حتى أنهم جعلوا العصا رمزاً لأمور عديدة . منها الطاعة والجماعة . ومنها (شق العصا) بمعنى مخالفة الجماعة . والعصا الجماعة . ومنها (القى المسافر عصاه) ، أي بلغ موضعه وأقام . وضرب مثلاً لكلٍّ من وافقه شيء فأقام عليه . ومنها (هو لين العصا) ، أي رقيق لين حسن السياسة ، و (هو ضعيف العصا) ، أي قليل ضرب الإبل . و (إن العصا من العصية) ، يقال ذلك اذا ُشبه بأبيه ، أي : إن بعض الأمر من بعض [4] .

كما حملوا القضب ، وهي من علائم السلطة والقوة والحكم والنفوذ عندهم . وقد ورد في خبر ارسال رسول الله (عباس بن أبي ربيعة المخزومي) الى

١ الحيوان (٣٧٧/٥) ، (هارون) .
٢ المصدر نفسه .
٣ تاج العروس (٢١٨/٩) ، (رقن) .
٤ تاج العروس (٢٤٤/١٠ وما بعدها) ، (عصا) .

(الحارث) و (مسروح) و (نعيم) بني عبد كلال من حمير ، انهم كانوا يحملون قضباً معهم . وهي من الأثل : قضيب ملمّع ببياض وصفرة وقضيب ذو عُجَر وكأنه خيزران ، وقضيب أسود بهيم كأنه من ساسم [1] . وكان أحدهم اذا جلس وفكر في أمره ، أو أراد الاجابة على سؤال يحتاج الى عمل روية تَكَتَّ الارض بالقضيب الذي يحمله بيده .

المرأة :

والمرأة في المحيط البدوي أنشط وأكثر عملاً من الرجل ؛ فعليها تهيأة الطعام وحلب النياق وغسل الملابس وغزل الصوف والوبر ، والعناية بالأطفـــال وتحضير مادة الوقود ، الى غير ذلك من أعمال لا يقوم بها الرجل ، لأنها من عمل المرأة ، ولا يليق بالرجل القيام بها .

ولم نقرأ في كتب اهل الاخبار ما يفيد سيادة النساء على القبائل ، في الجاهلية القريبة من الاسلام . ولم نقرأ في المسند ما يفيد بوجود ملكات حكمن اليمن . بينما قرأنا في الكتابات الآشورية وجود ملكات عربيات حكمن قبائل عربية ، كانت تنزل البـــوادي من بادية الشام . ووقفنا أيضاً على حكم الملكه (الزباء) لتدمر وذلك بعد الميلاد . ولكننا نقرأ في أخبار أهل الاخبار أخبار كاهنات ، كانت لهن مراكز خطيرة عند القبائل . وكذلك أخبار حاكمات حكمن فيما بين الناس في الخصومات . وقد كان منهن من يقرأ ويكتب كما سنرى فيما بعد .

وللمرأة الشريفة ذات السؤدد حظ في المجتمع لا يدانيه حظ المرأة الحرة الفقيرة . فسؤددها حماية لها ودرع يصونها من الغض من منزلتها ومكانتها . وأسرتها قوة لها ، تمنع زوجها من اذلالها أو الحاق أي أذى بها ، وهي نفسها فخورة على غيرها لأنها من الأسر الكريمة . والعادة بالطبع أن الأسر الكريمة لا تزوج بناتها الا من أسر كريمة موازية لها في المنزلة والشرف . من ذلك قولهم : (استنكح العقائل ، اذا نكح النجيبات) [2] .

حال المرأة في الجاهلية :

وقد اختلف حال المرأة في الجاهلية عن حالها في الاسلام ، بسبب تغير الأحوال

١ ابن سعد (١/٢٨٢ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٩/٤١) ، (كرم) .

وتبدل الظروف . (فلم يكن بين رجال العرب ونسائها حجاب ، ولا كانوا يرضون مع سقوط الحجاب بنظرة الفلتة ولا لحظة الخلسة ، دون أن يجتمعوا على الحديث والمسامرة ، ويزدوجوا في المناسمة والمثافنة ، ويسمى المولع بذلك من الرجال الزِّير ، المشتق من الزيارة . وكل ذلك بأعين الأولياء وحضور الأزواج ، لا ينكرون ما ليس بمنكر اذا أمنوا المكو) [1] . (فلم يزل الرجال يتحدثون مع النساء ، في الجاهلية والاسلام ، حتى ضرب الحجاب على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم خاصة) [2] . (ثم كانت الشرائف من النساء يقعدن للرجال للحديث ، ولم يكن النظر من بعضهم الى بعض عاراً في الجاهلية ، ولا حراماً في الاسلام) [3] .

وما نراه اليوم من اعتكاف النساء في بيوتهن ومن عدم اختلاطهن بالرجال ومن التشدد في الحجاب وأمثال ذلك ، هو بين أهل الحضر خاصة . وقد كان هذا التحفظ معروفاً نوعاً ما عند أهل الحواضر والقرى في الجاهلية ، الا أن التزمت والتشدّد في وجوب ابتعاد الرجل عن المرأة وانفصالها بعضها عن بعض انما نشأ في الاسلام ، بسبب تغير الظروف واختلاط العرب بالأعاجم ، وظهور حالات جعلت العوائل الكبيرة تحرص على حصر المرأة في بيتها . أما في البادية فإن المرأة لا تزال تشارك الرجل في أعماله وتجالسه وتكلمه ولو كان غريباً عنها ، لأن محيط البادية محيط بعيد عن مواطن الريبة والشبهات ، وينشأ البنات والأولاد فيه سوية ، ويلعبون سوية ويشبّون سوية ، ولذلك لم تنشأ عندهم القيود والحدود التي تفصل بين المرأة والرجل . وقد كان حال المرأة الأعرابية على هذه الحال في الجاهلية .

وقد عرفت المرأة بالكيد بين الجاهليين . ونظروا اليها نظرتهم الى الشيطان . وليست هذه النظرة العربية الى المرأة هي نظرة خاصة بالجاهليين ، بل هي نظرة عامة نجدها عند غيرهم أيضاً . بل هي وجهة نظر الرجل بالنسبة للمرأة في كل العالم في ذلك الوقت . وهي نظرة نجدها عند الحضر بدرجة خاصة ، لما لمحيط الحضر من خصائص التجمع والتكتل ، والتصاق البيوت بعضها ببعض ، ولما لهم من حياة اجتماعية واقتصادية وسياسية ، وقد تجبر المرأة على دس أنفها ، والاتصال بالغرباء ، فنشأ من ثمّ هذا الرأي بين أهل الحضر أكثر من الاعراب .

---

١ كتاب القيان ، من رسائل الجاحظ (١٤٨/٢) ، (تحقيق عبد السلام هارون)
٢ كتاب القيان (١٤٩/٢) .
٣ كتاب القيان (١٤٩/٢) .

وعرفت المرأة عندهم بالمكر والخديعة . إذ كان في وسعها استدراج الرجل والمكر به . وهم يتمثلون بمكر (الزبّاء) . واستدراجهـا (جذيمة الأبرش) اليها ، ثم فتكها به . على نحو ما ورد من قصص عنها في كتب أهل الأخبار . غير انهم يروون في الوقت نفسه قصة (قصير) معها ، وكيف تمكن من الأخذ بثأره منها ، في حيلة ومكر ومكيدة ، حتى فتك بها في قصة من قصص المكر والخديعة ، ضرب بها المثل [1] . وعُدّت المرأة كالحيّة في المكر .

ونظر الرجل الى رأي المرأة على ان فيه وهناً وضعفاً وانه دون رأيه بكثير ، وتصور ان مقاييس الحكم عندها ، دون مقاييسه في الدقة والضبط ، ولهذا رأى العرب ان من الحمق الأخذ برأي المرأة . فكانوا اذا أرادوا ضرب المثل بضعف رأي وخطله قالوا عنـه : (رأي النساء) [2] و (رأي نساء) وقالوا : شاوروهن وخالفوهن ، لما عرف عن المرأة من تأثر بأحكام العاطفة عندها . حتى ذهب البعض الى عدم وجود رأي للمرأة ، ولهذا قالوا : يقال للرجل (الفند) إذا خرف وخف عقله لهرم أو مرض ، وقد يستعمل في غـير الكبر وأصله في الكبر . ولا يقال (عجوز مفندة ، لأنها لم تكن في شبيبتها ذات رأي أبـداً فتفند في كبرها . وفي الكشاف : ولذا لم يقل للمرأة مفندة لأنها لا رأي لهـا حتى يضعف . قال شيخنا : ولا وجه لقول السمين انه غريب ، فإنه منقول عن أهل اللغة . ثم قال : ولعلّ وجهه أنّ لها عقلاً وإن كان ناقصـاً يشتد نقصه بكبر السن) [3] .

ويكني العرب عن المرأة بـ (الدُّمية) . والدمية الصنم . وقيل : الصورة المنقشة : العاج ونحوه . وقيل هي الصورة . وقول الشاعر :

والبيض يرفلن في الدُمى والريـط والمذهب المصون

يعني ثياباً فيها تصاوير [4] .

ويقال للمرأة البذيئة القليلة الحياء (العنفص) . وقال بعض علماء اللغة انهـا

---

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (٣١١) ، الميداني (٢/٢٧٢) ، تاج العروس (١/٢٣٧) ، (خطب) .

٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (٣٠٦) .

٣ تاج العروس (٢/٤٥٤) ، (فند) .

٤ اللسان (١٤/٢٧١) ، (دمي) .

المرأة القليلة الجسم الكثيرة الحركة . أو الداعرة الخبيثة . وقيل هي القصيرة المختالة المعجبة . أو المرأة الكثيرة الكلام ، وهي المنتنة الريح[1] . وقد ذمت المرأة (النامة) ، والبذيئة التي تشتم الناس وتنطق بالبذاء . والسليطة اللسان التي تتطاول على الناس ، ولا تبالي أحداً . وقد كان بعض الناس يحرضون أمثال هؤلاء النسوة لاهانة كرام الناس والتحرش بهم ، لما يعرفونه من ان في طبع الرجل الكريم عدم الردّ على المرأة رداً قبيحاً والتعرض لها بسوء .

وتشائموا من بعض النسوة . وقالوا : (مرأة مشؤومة) ، و (عقرى حلقى) ، أي عقرها الله وحلقها ، بمعنى حلق شعرها أو أصابها بوجع في حلقها ؛ أو أنها تعقر قومها وتحلقهم بشؤمها وتستأصلهم[2] . وقد كانوا يطلقونها إذا تشاءم الزوج أو أهله منها ، لاعتقادهم الشديد بالشؤم . وتشاءموا من الفرس الأشقر ومن عتبة الباب ، ومن أشياء أخرى سأتحدث عنها في موضوع التفاؤل والتشاؤم عند العرب .

وجمال المرأة في حلاوة العينين ، وفي جمال الأنف ، والملاحة في الفم . قال الشاعر :

خزاعيّة الأطراف مرّية الحشا فزارية العينين طائيّة الفم[3]

المرأة القبيحة :

وذكر بعض علماء اللغة ان العرب تصف بـ (السعلاة) العجائز والحيل . وقيل السعالى : النساء الصخابات البذيئات ، والمرأة القبيحة الوجه السيئة الخلق . ومن ذلك قول الأعشى :

ونساء كأنهن السعالى[4] .

والعرب تكني عن المرأة بالعتبة والنعل والقارورة والبيت والدمية والغل والقيد والريحانة والقوصرة والشاة والنعجة[5] .

١ تاج العروس (٤/ ٤١٠) ، (العنفص)
٢ تاج العروس (٣/ ٤١٥) ، (عقر) .
٣ الدينوري ، عيون الأخبار (٤/ ٢٧) ، (كتاب النساء) .
٤ تاج العروس (٧/ ٣٧٦) ، (سعل) .
٥ تاج العروس (١/ ٣٦٤) ، (عتب) .

وما قلته يمثل الفكرة العامة عن المرأة بين سواد الناس . غير ان هناك نسوة اشتهرن بالعقل والحكمة عند الجاهليين . وكنّ مرجعاً للرجال في أخذ الرأي . حتى إن منهن من تولين أمر الحكومات ، وقد سبق ان ذكرت فيما مضى ان قبائل بادية الشام كانت تحت حكم ملكات في أيام الآشوريين . ومنهن الملكات (شمس) و (زبيبة) . كما أشرت الى الملكة (الزبّاء) . فلم يجد العرب قبل الميلاد ولا بعده غضاضة من تعيين النساء ملكات عليهم . وقد كن يصاحبن الرجال الى القتال لإثارة هممهم عند اشتداد المعارك ولمداواة الجرحى ، وحمل الماء الى العطشى من المقاتلين . وقد كانت (رفيدة) تداوي جرحى المسلمين في مسجد الرسول بيثرب[1] . وكانت (زينب) طبيبة (بني أود) تعالج المرضى وحازت على شهرة بين العرب[2] .

حتى الشعر ، برزت به شاعرات . مثل الخنساء ، وخرنق ، وجليلة ، وكبشة أخت عمرو بن معديكرب ، وغيرهن . ومنهن من حكمن بين الشعراء المتنافسين في تفضيل شعر شاعر على شعر شاعر آخر . وكان من بينهن كاتبات ومتاجرات الى غير ذلك من حقول الأعمال التي تحتاج الى عقل وذكاء .

زينة المرأة :

والمرأة الحضرية أكثر تفنناً واعتناءً بنفسها من الأعرابية ، بسبب اختلاف المحيط والوضع الاقتصادي . ولها من أمور الزينة ما لا تعرفه الأعرابيات ، من وسائل تجميل وتحلية جسم وملبس . ولا سيما النساء الغنيات القريبات من مواطن الأعاجم . فقد تأثرن بالأعجميات وأخذن منهن ما راق لهن من ملبس وزينة وطيب وحلية .

والعادة ان المرأة تضفر شعر رأسها ضفائر وغدائر ، أما الرجال فيتخذون لهم ضفيرتين ، تتدليان على طرفي الوجه الى المنكبين[3] . ويقال للضفيرة :

١ نهاية الأرب (١٩١/١٧) .
٢ جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (٤٠/١) ، (١٩٥٧ م) .
٣ تاج العروس (٣٥٢/٣) ، (ضفر) .

العقيصة . وذكر ن (العقيصة) الذؤابة . وذكر بعض علماء اللغة ان كل عقيصة غديرة . والغديرتان الذؤابتان تسقطان على الصدر . وقيل الغدائر للنساء ، وهي المضفورة . والضفائر الرجال [1] . وقيل العقص الفتل ، أي فتل الشعر ، وهو ان يلوى الشعر حتى يبقى ليه ثم يرسل . وذكر بعض علماء اللغة ان العقص ان تأخذ المرأة كل خصلة من شعر فتلويها ثم تعقدها حتى يبقى فيها التواء ثم ترسلها ، فكل خصلة عقيصة . وقد عرف (ضِمام بن ثعلبة) أحد بني سعد بن بكر بـ (ذي العقيصتين) ، وكان أشعر ذا غديرتين . وكان خصل شعره عقيصتين وارخاهما من جانبيه . وهو من الصحابة [2] .

ويعدّ شعر المرأة من أثمن الأشياء عندها لذلك تستعز به وتحافظ عليه ، وتسعى لاثارته وتنشيطه ، وهي لا تحلقه إلا إذا نزلت بها نازلة ، مثل موت زوجها أو عزيز آخر عليها ، ويعدّ ذلك غاية في التضحية وفي اظهار حزنها على رجلها الراحل العزيز [3] . فاذا مات عزيز حلقت المرأة شعرها وذرّت التراب أو الرماد على رأسها ، اظهاراً لشدة ألمها وحزنها على ميتها . ويقال لها (الحالقة) . وقد لعن الرسول من النساء الحالقة والصالقة والخارقة . والحالقة التي تحلق شعرها في المصيبة [4] . وقد ضرب بها المثل في الشؤم . لأن من عادة الناس في الجاهلية انهم إذا أصيبوا بمصيبة حلقت النساء شعورهن . والى ذلك أشير في شعر الخنساء :

ولكني رأيت الصبر خيراً من النعلين والرأس الحليق

وأصل ذلك ان المرأة كانت إذا أصيب لها كريم حلقت رأسها وأخذت نعلين تضرب بهما رأسها وتعفره . وفي هذا المعنى جاء في الشعر :

ألا قومي أولو عقرى وحلقى لما لاقت سلامان بن غنم

ولهذا السبب اعتبرت الحالقة علامة من علامات الشؤم ونذيراً من نذر الفرقة

١ قال امرؤ القيس :

غدائره مستشزرات الى العلى تضل العقاص في مثنى ومرسل

تاج العروس (٣/٤٤١) ، (غدر) .

٢ تاج العروس (٤/٤٠٨) ، (عقص) .

٣ Hastings, A Dictionary of the Bible, II, p. 283

٤ تاج العروس (٦/٣٢٠) ، (حلق) .

يضرب بها المثل . وفي الحديث : (دبّ اليكم داء الأمم : البغضاء والحالقة) . (هي قطيعة الرحم والتظالم والقول السيء)[1] .

ويسرح الشعر بـ (المشط) . وقد عرفه الجاهليون ، وهو من آلات التجميل القديمة . . وقد أشير اليـه في الحديث . كما أشير اليـه في الشعر . ورد قول عبد الرحمن بن حسان :

قد كنت أغنى ذي غنى عنكُم كما أغنى الرجالِ عن المِشاطِ الأقرع[2]

وتمشط شعر العرائس (الماشطة) ، فتقوم بترجيله وتجميله لخبرتهـا فيه[3] . ويكون المشط من خشب في الغالب ، وقد يعمل من ذهب أو فضة أو من معدن آخر ، وقد يتخذ من (العاج) .

وتغسل المرأة رأسهـا بطينٍ وأشنان وخطمى ونحوه لتنظيفه . وقـد تغتسل بالطيب ، وذلك بالنسبة للغنيات . وإذا انتهت من غسله استعملت (الغسلة)[4] ، وهو ما تجعله المرأة في شعرها عند الامتشاط من طيب وورق الآس يطرّى بأفاويه من الطيب وتمتشط به[5] . والطين أنواع ، يختلف باختلاف طبقات الأرض . واجوده الحرّ النقي الخالص بعد رسوب الماء ، ويستعمل في تنظيف الشعر .

وقد كانت القبائـل إذا أرادت الصبر في القتال ، والوقوف في الحرب الى النهاية وحتّى النصر ، حلقت نساؤها شعورهن ، لبث الشجاعة في نفوس المقاتلين وإذكاء نار الشجاعة فيهم . وذكر ان (يوم تحلاق اللِّمم) ، إنما سمّي بذلك ، لأن شعارهم كان الحلق . وكان لتغلب على بكر بن وائل[6] .

وتجملت المرأة الجاهلية وتزينت على قدر حالها وامكانها ، لتظهر بذلك جمالها وأنوثتها على سنة الطبيعة ، وعلى عادة المرأة بل والانسان : رجلاً كان أو امرأة

---

١ تاج العروس (٦/٣٢٠) ، (حلق) .

٢ قد كنت أحسبني غنيا عنكم ان الغني عن المشط الأقرع

تاج العروس (٥/٢٢٣) ، (مشط) . اللسان (٧/٤٠٣) .

٣ تاج العروس (٥/٢٢٤) ، (مشط)

٤ بالكسر

٥ تاج العروس (٨/٤٥) ، (غسل)

٦ تاج العروس (٦/٣٢٠) ، (حلق) .

في كل وقت وزمان ، من حبّه في إظهار الزينة وحسن المظهر . جمّلت نفسها بالاعتناء بالنظافة وبالثياب وبالحلية ، كالخلخال والسوارين والخاتم والقُلْبين والقلب والفتخة والمسكة والقرطين والقلائد الأخرى ، وبالتجميل بالكحل وبالمساحيق التي توضع على الوجه والدهن الذي يدهن به الشعر وخضاب الكف والقدم ، وبالوشم وما شاكل ذلك من أمور تجميل وتحلية كانت معروفة في ذلك العهد .

ومن وسائل الزينة : الوشم . غرز إبرة ونحوها في عضو حتى يسيل الدم ثم يحشى بنؤور أو بالكحل أو بالنيلج أو نحوها فيزرق أثره أو يخضر [1] . وكانوا يقصدون بذلك التزين فينقشون به غالب أبدانهم ، أنواعاً من النقوش من صور حيوانات أو نبات أو صور انسان وكذلك الشفاه ، فترى غالب شفاه نسائهم زرقاً . والأطفال منهم يوشمون في بعض المحال من وجوههم لقصد الزينة . وكذلك الرجال . وذكر ان الرسول قد نهى عن ذلك في حديث : لعن الله الواشمة . أو لعن الله الواشمة والمستوشمة [2] .

وكانوا يعتنون بتجميل حواجبهم وازالة الشعر من وجوههم بـ (النماص) وهو (المنقاش) . وعرفت مزينة النساء بـ (النامصة) . وهي مزينة بالنمص . وذكر ان النمص نتف الشعر . وان المشط ينمص الشعر وكذلك المحسّة لأن لها أسناناً كأسنان المشط . ويقال ان النماص مختص بازالة الشعر من الحاجبين ليرققهما أو ليسويهما . وفي الحديث : لعنت النامصة والمتنمصة [3] .

وعنوا بالأسنان فاستعملوا المبرد لبرد ما بين الثنايا والرباعيات ، لتجميلها . وقد لعنت المتفلّجات في الحديث . والمتفلجات جمع متفلجة التي تفلج بين الأسنان [4] . وعنوا بتبييض الأسنان باستخدام (المسواك) ، وهو ما يدلك به الفم . ويكون من عيدان بعض الأشجار ذات الرائحة الطيبة . وقد أشير اليه في الحديث [5] .

١ تاج العروس (٩/٩٤) ، (وشم) .
٢ تاج العروس (٩/٩٤) ، (وشم) ، بلوغ الأرب (٣/١٠ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٤/٤٤٣) ، (نمص) ، بلوغ الأرب (٣/١١) .
٤ بلوغ الأرب (٣/١١) .
٥ تاج العروس (٧/١٤٦) ، (سوك) .

ويقص الشعر والظفر بالمقص ، أي المقراض وهما مقصان [1] . يقص به الرجل شعره ، كما تقص بـه المرأة . وتتخذ المرأة (القُصة) في مقدم رأسها تقص ناصيتها ما علا جبينها [2] .

وذكر ان من نساء الجاهلية من كنّ يقمحن لثّتهن بـ (النوور) ، حصاة كالإثمد تدق فتسفهـا اللثة . وكن يتّسمن بـ (النؤر) . وهو دخان الشحم أو دخان الفتيلة ، يتخذ كحلاً أو وشماً ، وخصصه بعضهم بالوشم [3] .

ولم تنسَ المرأة الجاهلية زينتها ، فزينت نفسها بـ (الحليّ) من ذهب وفضة ومعادن أخرى ومن أحجار كريمة وأحجار تلفت النظر وبالعظام أيضاً وبالخرز . ومن الحـلي (الأساور) المصنوعة من الذهب ، بالنسبة الى المرأة الموسرة ، والحليّ المطعمة باللؤلؤ . ومن الحليّ ؛ ما يزين به الرأس والعنق ، ومنه ما يزين به الأيدي أو الأرجل [4] . وسأتحدث عنهـا في القسم الخاص بالحرف ، بشيء من التفصيل .

و (الكرم) : القلادة . وقيـل هي القلادة من الذهب والفضة ، وقيـل تكون من لؤلؤ أيضاً [5] .

ويضفر شعر رأس الأطفـال ذوائب ، أي ضفائر تتدلى على رأسـه وعلى ناصيته . ومتى كبر الطفل وبلغ سنّ الرشـد ، أو شعر برجولته ، ضفرت له ذؤابتان ، وهي علامة الشباب والرجولة عندهم . وقـد كان الساميّون يحتفلون بحلق الذوائب ، لأن هذا الحلق معناه إنتهاء مرحلة من الحياة ودخول الطفل مرحلة الرجولة ، وهي مرحلة الحياة الصحيحة . وكانوا يرمون الذوائب أمام الأصنام . والعادة انهم يضفرون للأطفال سبع ضفائر . وهي عادة معروفة عنـد الجاهليين أيضاً ، ولا تزال متبعة عند الأعراب وأشباه الحضر . وقـد يعلقون حليّـاً على

١ تاج العروس (٤٢٢/٤) ، (قصص)
٢ تاج العروس (٤٢٣/٤٠) ، (قصص) .
٣ تاج العروس (٥٨٩/٣) ، (نور) .
٥ تاج العروس (٩٧/١٠) ، (حلى) .
تاج العروس (٤٢/٩) ، (كرم) .

كل ضفيرة ، وذلك إمعاناً منهم في تدليل الطفل وفي إراءة جماله . فالزينة وتعليق الحلي من مظاهر التدليل والتجميل .

نساء شهيرات :

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء نساء ذكروا أنهن عشن في الجاهلية . منهن : صحر بنت لقمان بن عاد . وكان أبوها لقمان وأخوها لقيم خرجا مغيرين ، فأصابا إبلاً كثيرة فسبق لقيم الى منزله ، وعمدت صحر الى بعض ما جاء به لقيم ، فصنعت منه طعاماً يكون معداً لأبيها لقمان إذا قدم ، وقد كان لقمان حسد لقيماً في تبريزه عليه ، فلما قدمت صحر اليه الطعام وعلم انه من غنيمة لقيم ، لطمها لطمة قضت عليها ، فصارت عقوبتها مثلاً لكل من لا ذنب له ويعاقب[1] (فقيل : مالي ذنب إلا ذنب صحر) ، ولم يكن لها ذنب[2] .

وقد حصلت (الزبّاء) على شهرة بين العرب ، ووضعوا حولها القصص . ذكروا انها امرأه من العماليق ، وأمها من الروم . وكانت تغزو بالجيوش ، وهي التي غزت مارداً والأبلق فاستعصيا عليها ، فقالت : تمرد مارد وعز الأبلق ، فذهبت مثلاً . ويروي أهل الأخبار لها أمثلة أخرى[3] . ورموها بالغدر ، فقالوا : (قال عديّ بن زيد يذكر قصة جذيمة الأبرش لخطبة الزبّاء :

لخطبي التي غدرت وخانت وهنّ ذوات غائلة لحينا

أي لخطبة زباء . وهي امرأة غدرت بجذيمة الأبرش حين خطبها فأجابته وخاست بالعهد فقتلته[4] .

واشتهرت (البسوس) بالبؤس والشؤم حتى قالوا (شؤم البسوس) . وهي بنت منقذ التميمية ، زارت أختها أم جسّاس بن مُرّة ومع البسوس جار لها من جَرْم ، يقال له سعد بن شمس ، ومعه ناقة له ، فرماها كليب وائل لما رآها

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (٣٠٧) .
٢ تاج العروس (٣٢٧/٣) ، (صحر) .
٣ الثعالبي ، ثمار القلوب (٣١١) .
٤ تاج العروس (٢٣٧/١) ، (خطب) .

في مرعى قد حماه ، فأقبلت الناقة الى صاحبها وهي ترغو وضرعهـا يشخب لبناً ودماً ، فلما رأى ما بها انطلق الى البسوس فأخبرها بالقصة ، فقالت : واذلاّه ! واغربتاه ! وأنشأت تقول أبياتاً تُسمّيها العرب أبيات الفناء . فسمعها ابن اختها جسّاس فثار الدمُ في رأسه ، وخرج معقباً كليباً حتى وجده فطعنه طعنة قضت عليه . ووقعت الحرب بين بكر وتغلب ودامت أربعون سنة . وسار شؤم البسوس مثلاً ، ونسبت الحرب اليها لكونها سببها ، فقيل : حرب البسوس[1] . وهكذا فسر أهل الأخبار سبب وقوع حرب البسوس .

وقصّ أهل الأخبار قصة امرأة أخرى ، قالوا إن رغيف خبز لها صار سبباً في وقوع شرّ بين حيّين ، وأدى الى وقوع قتلى . حتى قيل : أشأم من رغيف الحولاء . والحولاء خبّازة في (بني سعد بن زيد مناة) ، فمرّت وعلى رأسها كارة خبز ، فتناول رجل عن رأسها رغيفاً ، فاشتكت الى رجل كان جاراً لها . فثار وثار معه قومه الى الرجل الذي أخذ الرغيف وقومه فقتل بينهم ألف نفس ، وسار رغيف الحولاء مثلاً في الشيء اليسير يجلب الخطب الكبير[2] .

وذكر أهل الأخبار اسم امرأة أخرى اشتهرت بعطرها ، حتى ضرب به المثل ، فقيل : (عطر منشم) . ولهم أقوال في سبب ضرب هذا المثل . وخلاصتها ان (منشم) امرأة عطارة تبيع الطيب ، فكانوا إذا قصدوا حرباً غمسوا أيديهم في طيبها ، وتحالفوا عليه بأن يستميتوا في الحرب ولا يولوا أو يقتلوا ، فكانوا إذا دخلوا الحرب بطيب تلك المرأة يقول الناس : قد دقّوا بينهم عطر منشم ، فلما كثر هذا القول صار مثلاً . فمن تمثل به زهير حيث قال :

تداركتما عبساً وذبيان بعدما   تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم[3]

واختار أهل الأخبار من بين النساء امرأة جعلوها مثالاً للحمق ، حتى قالوا : (حمق دغه) . وهي دغة بنت منعج . روي لها حماقات كثيرة . وجعلوها مثلاً

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (٣٠٧ وما بعدها) ، الميداني ، الأمثال (١/٣٧٢) .
٢ الثعالبي ، ثمار (٣١٠) .
٣ الثعالبي ، ثمار القلوب (٣٠٨ وما بعدها) ، ديوان زهير (١٥) ، ابن قتيبة ، المعارف (٦١٣) .

سائراً بين الناس في الحمق[١] .

وضرب المثل بـ (أم خارجـــة) في السرعـــة ، فقال أسرع من نكاح أم خارجة . وهي (عمرة بت سعد بن عبد الله بن بجيلة) . كان يأتيها الخاطب فيقول : خطب ، فتقول : نكح . ولدت أم خارجة في نيف وعشرين حيّاً من آباء متفرقين ، وكانت إذا تزوج منها الرجل فأصبحت عنده كان أمرها اليها ، إن شاءت أقامت ، وإن شاءت ذهبت ، وكانت علامة ارتضائها للزوج ان تصنع له طعاماً كلما تصبح[٢] .

وضربوا المثل بـ (عز أم قرفـــة) ، فمن أمثالهـــم إذا أرادوا العزّ والمنعة قالوا : انه لأمنع من أم قرفة . وهي بنت (مالك بن حذيفـــة بن بدر) : وكان يحرس بيتها خمسون سيفاً بخمسين فارساً ، كلهم لها محرم[٣] .

كما ضربوا المثل بـ (برد العجوز) . ولهم قصص في سبب ضربه . وهم متفقون على أن المثل جاهلي ، وليس بإسلامي . ذكر بعضهم ان عجوزاً دهرية كاهنة من العرب كانت تخبر قومها ببرد يقع في أواخـــر الشتاء وأوائل الربيع ، فيسوء أثره عـــلى المواشي ، فقالوا : هـــذا برد العجوز ، يعني العجوز الذي أنذرت به . وذكر بعض آخر ، أن عجوزاً كانت بالجاهلية ولهـــا ثمانية بنين فسألتهم ان يزوّجوها ، وألحت عليهم ، فتآمروا بينهم ، وقالوا لها : إن كنت تزعمين أنك شابـــة فابرزي للهواء ثمان ليال ، فإننا نزوجك بعدهـــا ، فوعدت بذلك ، وتعرضت تلك الليلة والزمان شتاء كلب ، وبرزت للهواء ، وبقيت تفعل ذلك سبع ليال ، ثم ماتت في الليلة السابعـــة . فضرب بهـــا المثل : وقيـــل برد العجوز[٤] .

أهل الحضر :

وما ذكرته يتناول حياة الاعراب ، وحياتهم الاجتماعية هي حياة أخرى تختلف

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (٣٠٩)
٢ الثعالبي ، ثمار (٣١١ وما بعدها) .
٣ الثعالبي ، ثمار (٣١٠ وما بعدها) .
٤ الثعالبى ، ثمار (٣١٣ وما بعدها) .

عن حياة أهل الحاضرة . ففي حياة الحضر تجمع وتكتل . واذا تجمع الانسان وتكتل في موضع وكوّن جماعة ، ظهرت عنده خلال ، لا يمكن ظهورها عند الاعراب . تتسع وتكبر كلما بعدت الشقة بين البداوة والحضارة . لذا فان بين حياة أهل الحيرة أو يثرب أو مكة أو المستوطنات الحضرية الأخرى المنتشرة في جزيرة العرب وبين حياة أهل البادية فروقاً كبيرة ، تختلف في الدرجة والشدة ، بدرجة تكاثف السُكّان في المستوطنة الحضرية ، وبدرجة قربها أو بعدها من الاعاجم ، وبدرجة اتصالها بالعالم الخارجي . فالمستوطنات التي تقع على سواحل البحر يكون لها اتصال خاص بالعالم الخارجي ، لا يمكن أن يتوفر لأهل البواطن ، ويؤدي هذا الاتصال الى التلاحم في الأفكار والى الاختلاط والامتزاج والى توسع أفق أهل الساحل بالنسبة الى من وراءهم في الباطن ، بسبب هذا الاختلاط في الموقع .

لقد تأثر أهل الحواضر من عرب العراق بأخلاق أهل النبط وغيرهم من أهل العراق ، حتى بان ذلك على لسانهم وعلى طراز معاشهم كما بان ذلك على عرب بلاد الشام لاختلاطهم بالروم وبأهل بلاد الشام . فعرفوا عنهم أكل الأعاجم وأحبوا غناء الفرس وغناء الروم . ودخل من دخل منهم في النصرانيه . وقلّد ملوك الحيرة ملوك الفرس في بعض شؤون حياتهم ، وتشبه ملوك عرب الشام بملوك الروم ، حتى في أمور دينهم حيث اعتنقوا النصرانية ، وجاؤوا الى قصورهم بقيان يغنين بغناء الروم وبقيان يغنين بغناء الفرس . وزار سادات عرب العراق (المدائن) ، ووقفوا على حياتها ؛ وعاش سادات عرب الشام بدمشق وبمدن بلاد الشام الأخرى ، وجلبوا الى قصورهم وبيوتهم شيئاً مما أعجبهم ونال حبهم . فصارت حياتهم من ثم حياة تختلف عن حياة الاعراب من هذه النواحي .

وكان لأهل قرى العربية الشرقية اتصال دائم بالعراق وبسواحل الهند الغربية ، وبايران وبالتجار الروم ، فأخذوا منهم وتأثروا بهم ، كالذي يظهر من الآثار التي عثر عليها ويعثر عليها المنقبون في مواضع العاديات . وتأثر أهل العربية الغربية بأهل بلاد الشام والعراق لما كان لهم من اتصال تجاري دائم بهم . ولما كانوا يجلبونه من هذه البلاد من رقيق . كما كان لهم ولأهل العربية الجنوبية اتصال بأهل افريقية ، سكان السواحل المقابلة لبلاد العرب ، فأثروا فيهم وتأثروا بهم . ومن آيات هذا التأثير الملامح الافريقية التي ظهرت في العربية الجنوبية بصورة خاصة ، لا سيما باستيلاء الأحباش مراراً على السواحل العربية المقابلة لافريقية ، وظهور جيل أخذ

من ملامح الجنسين ، نتيجة للازدواج الذي صار بين العرب والافريقيين .

ونجد أثر هذا الاختلاط في اللغة كما نجده في الغناء وفي آلات الطرب . اذ يختلف غناء أهل سواحل جزيرة العرب عن غناء القبائل الساكنة في الباطن ، بعيدة بعض البعد عن السواحل وعن التأثر بمؤثرات الأعاجم الذين يقصدون الموانئ الساحلية للاتجار .

الزواج :

والزواج هو من أهم الافراح في حياة الانسان ، وهو ما زال وسيبقى من أهم الافراح في حياته ، لما له من علاقة سعيدة به . ولهذا يحتفل الناس به عادة ، بإقامة المآدب فيه وبدعوة ذوي القرابة والاصدقاء اليها لمشاركة الزوجين أفراحهما .

وقد صنف (روبرتسن سمث) زواج العرب ثلاثة أصناف : زواج يكون في حدود القبيلة فلا يتعدّاه ، ولا يسمح لرجال القبيلة الا بالزواج من بنات القبيلة نفسها ، وهو ما يسمى بـ (Endogamous) ، وزواج يفرض فيه على الرجل أن يتزوج امرأته من قبيلة أخرى ، وهو ما يعرف بـ (Exogamous) أي (زواج خارجي) . وزواج يجمع الطريقتين المذكورتين ، أي الزواج في داخل القبيلة والزواج من خارجها [1] .

ويظهر من دراسة كل ما ورد في كتب أهل الاخبار وفي كتب التفسير والحديث عن الزواج والطلاق عند الجاهليين أن أهل الجاهلية لم يكونوا يسيرون على سنّة واحدة في عرف الزواج والطلاق ، ولكن كانوا يسيرون على أعراف مختلفة اختلفت باختلاف الأماكن وباختلاف الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية واتصالها بالخارج . وقد وردت الينا مسميّـات بعض تلك الأنواع ، مثل (الخدن) و (المتعة) و (البدل) و (الشغار) و (البعولة) وزواج ذوات الرايات وغير ذلك مما ورد وصفه وشرحه ، ولكنه لم ينعت باسم معين .

وأنواع الزواج هذه ، ليست خاصةً بالجاهليين ، وانما هي معروفة عند غيرهم أيضاً ، ولا سيما عند الشعوب السامية ، وهي مراحل مرّ بها جميع البشر ، ولا

١ Kinship and Marriage, p., 60.

يزال الكثير منها قائماً في أنحاء متعددة من العالم . وهي في الغالب مرآة صافية للظروف التي يعيش فيها الناس . وبعض هذه الأنواع رثاء معيب في عرفنا ، غير أننا يجب أن نفكر دائماً ان اولئك القوم كانت لهم مقاييس دينية وخلقية خاصة بهم ، وهي سليمة صحيحة بالقياس اليهم ، وأنهم عاشوا قبل الاسلام وفي ظروف تختلف عن ظروفنا ، وأن ما نسميه عيباً لم يكن عيباً بالقياس الى المراحل التي كانوا فيها والى عرف ذلك العهد .

ويقال للرجل العزب الذي لا زوج له (الخالي) ، قال امرؤ القيس :

ألَمْ ترني أصبي ،على المرء عِرْسَهُ وأمْنَعُ عِرْسي ان يُزَنَّ بها الخالي [1]

وللرجولة عند العرب أثر بارز ، لما في طبيعة بلادهم من الحر وعدم وجود أمور مسلّية لديهم تصرف ذهنهم عن التفكير فيه وتلهيهم بعض الشيء عن الغريزة الجنسية . ونجد في الأدب العربي شيئاً كثيراً مما يتعلق بهذا الموضوع . وللغلمة المفرطة صار العربي مزواجاً ، يتشبب بالنساء ويتغزل ، والتشبيب من أمارات الرجولة عند الجاهليين .

ونجد في القصص المنسوب الى الجاهليين وفي شعرهم شيئاً كثيراً يتعلق بالحب : حب الرجل للمرأة ، وليس العكس ، ذلك لأن في طبع الرجل التباهي والتفاخر بحبه للنساء . أما المرأة فإن في طبعها الخجل الذي يمنعها من اظهار حبها وتعلقها برجل ما ، ثم ان المجتمع لا يسمح لها بذلك ، وهو يردعها عن أن تبوح بحبها لرجل ما ، ويعد ذلك نوعاً من الخروج على الآداب العامة وجلب العار الى البنت والى الأسرة . ويعبر عن النسيب بالنساء ، أي بذكرهن في ابتداء القصائد ، بـ (التشبيب) . ويعد ابتداء القصيدة بالتشبيب من العرف الجاهلي ، ويقولون ان في ذلك ترقيقاً للشعر [2] .

والنسيب في الشعر ، التشبب بالمرأة والتغزل بها ، وذلك في أول القصيدة ، اذا ذكرها في شعره ووصفها بالجمال والصبا ، ووصف أعضاء جسمها وغير ذلك . ثم يخرج الشاعر بعد ذلك الى المديح . ويدخل في النسيب ، ووصف مرابع الأحباب ومنازلهم واشتياق المحب الى لقائهم ووصالهم وغير ذلك [3] .

١ اللسان (١٤/٢٣٩) ، (خلا) ، تاج العروس (١٠/١١٨) ، (خلا)
٢ تاج العروس (١/٣٠٨) ، (شبب) .
٣ تاج العروس (١/١٨٣) ، (نسب) .

والغزل في نظر بعض العلماء كالتشبيب والنسيب ، كلها بمعنى واحد . وهو وصف الأعضاء الظاهرة من المحبوب ، أو ذكر أيام الوصل والهجر أو نحو ذلك . وفرق بعض آخر بينها ، بأن جعل التشبيب ذكر صفات المرأة وهو القسم الأول من النسيب ، فلا يطلق التشبيب على ذكر صفات الناسب ولا على غيره . والتغزل بمعنى النسيب ذكر الغزل . فالغزل غير التغزل ، والنسيب والغزل في رأي بعض آخر هو الأفعال والأقوال والأحوال الجارية بين المحب والمحبوب نفسها . وأما التشبيب فهو الاشادة بذكر المحبوب وصفاته واشهار ذلك والتصريح به . وأما النسيب فذكر حال الناسب والمنسوب به والأمور الجارية بينهما . وقال بعض : الغزل انما هو التصابي والاستهتار بمودّات النساء [1] . والى غير ذلك من آراء لا صلة لها بهذا الموضوع .

والعادة أن يتغزل الرجل بامرأة فيجعلها بطلة غزله . يلف ويدور في غزله حولها ويلج ويلهج بذكرها . وقد يذكر اسمها وقد لا يذكره . وهي قد تكون امرأة حقاً ، رآها الشاعر فأعجب بها ، وقد لا تكون امرأة معينة خاصة ، وانما امرأة تخيلها ذهن الشاعر ، فصار يتغزل بها ويلهج بذكرها ويلج في اظهار وصفها وصفاتها وما قالت له وما قال لها الى غير ذلك . وسبب ذلك هو أذواق أهل ذلك العهد ، وعادتهم في وجوب الابتداء بالقصيدة بهذا النوع من المقدمات ، حتى يكون شعراً رقيقاً مرموقاً ، وقد أدى تغزل بعض الشعراء بنساء رجال معروفين او ببناتهم الى وقوعهم في مهالك . ومن امثلة ذلك ما زعم من تغزل (النابغة الذبياني) بالمتجردة زوج الملك (النعمان بن المنذر) ، وما كان من غضب الملك عليه وتهديده له بالقتل ، مما اضطر النابغة الى الهرب الى الغساسنة اعداء النعمان ، ليسلم بريشه من سيد الحيرة وما ورد في قصة الشاعر (طرفة بن العبد) .

والطابع العام في هذا الغزل البراءة والعفة ونقاء الألفاظ المؤدّبة ، لا يتطرق فيه الشاعر الى ما وراء اظهار الوجد والحب والتلهف الى زيارة معشوقته له ، أو زيارته لها ، وذكر الايام الجميلة وأحلام الحب الصافية الخالصة النقية ، وقلّما نجد في الشعر الجاهلي اقذاعاً وفحشاً . فالشاعر متأدب في شعره ، يعرف حدوده في الغزل فلا يتجاوزها ، لأنه يعلم حقاً انه اذا ذكر الفحش في شعره وتعرض بامرأة معينة ، فأصابها بسوء قول ، فانها لن تسكت عنه ، واذا سكتت هي ، فلن يفلت من عقاب اسرتها وآلها له . وقد يكون ذلك العقاب القتل .

---

١ تاج العروس (٨/٤٣) ، (غزل) .

وقد ضرب العرب المثل ببعض الرجال في شدة النكاح وكثرته . ومن هؤلاء (حوثرة) رجل من بني عبد القيس ، ضربت به العرب المثل في ذلك فقالت (أنكح من حوثرة)[1] ، و (خوات بن جبير الأنصاري) ، وكان يأتي أحياء العرب يتطلب النساء ، فإذا سئل عن حاجته قال : قد شرد لي بعير فخرجت في طلبه . وأدرك الاسلام ، ورأى الرسول ، فقال له : ما فعل بعيرك الشرود ؟ فقال : أما منذ قيده الاسلام فلا[2] . وكان يحسن الغناء . وكان اذا رأى النساء لبس حلته وجلس اليهن . وذُكر انه (صاحب ذات النحيين)[3] .

ويقال : (اغتلم الرجل) اذا هاج من الشهوة ، وكذلك الجارية وفي الحديث : « خير النساء الغِلمةُ على زوجها » . والغِلمة : شهوة الضراب ، (وفسره جماعة بالشبق واشتهاء الغلمان)[4] . و (الشبق) شدة الغلمة وطلب النكاح ، يقال : رجل شبق ، وامرأة شبقة[5] . وقد ذكر أهل الأخبار أسماء رجال عرفوا بالشبق والغلمة ، ومن هؤلاء (ابن الغز) . فذكر ان عبد الملك ابن مروان ذكر إياداً ، فقال : « هم أخطب الناس لمكان قس ، وأسخى الناس لمكان كعب ، وأشعر الناس لمكان أبي دؤاد ، وأنكح الناس لمكان ابن الغز »[6] .

وفي المثل : « أنكح من ابن الغز » ، وهو من بني إياد ، واسمه سعد أو عروة أو الحارث بن أشيم . وذكروا أنه كان نكّاحاً عظيم الأير ، زعموا ان عروسه زفت اليه ، فأصاب رأس أيره جنبها ، فقالت : أتهددني بالركبة[7] .

وقد عرف من يحب محادثة النساء ومجالستهن ومخالطتهن بـ (الزير)[8] ، ومن هنا قيل : (زير نساء) . وقد ذكر أهل الأخبار أسماء نفر من المشهورين بذلك .

---

١ الثعالبي ، ثمار (١٤١) .
٢ الثعالبي ، ثمار (١٤١) .
٣ الاصابة (١/٤٥١ وما بعدها) ، (٢٢٩٨) ،
٤ اللسان (١٢/٤٣٩) ، (غلم) ، تاج العروس (٩/٤) ، (علم) .
٥ اللسان (١٠/١٧١) ، (شبق) ، تاج العروس (٦/٣٩٠) ، (شبق)
٦ الثعالبي ، ثمار (١٤٢) .
٧ تاج العروس (٤/٧٨) ، (لغز) .
٨ تاج العروس (٣/٣٤٧) ، (زير) .

ويقال لمن لا يأتي النساء عجزاً أو لا يريدهن (العنين) . كما يقال للمرأة التي لا تريد الرجال ولا تشتهيهم (العنينة) على بعض الآراء [1] . ويقال امرأة مساحقة . وامرأة سحاقة ، لمن تشتهي النساء . ويقال انها لفظة مولدة [2] .

وقد عرف (التبتل) عند بعض الجاهليين ، ممن تأثر بآراء الرهبان . ويراد به ترك النكاح والزهد فيــه ، ويكون ذلك للرجال كما يكون للنساء . وتعرف المرأة المقطعة عن الرجال بـ (البتول) . وقد نهى الرسول (عثمان بن مظعون) عن التبتل . وورد في الحديث : (لا رهبانية ولا تبتل في الاسلام) [3] . ويقال لمن لم يأت النساء ولم يتزوج (الصارور) . و (الصارورة) ، المتبتلة ، فلم تتــزوج ولم تتصل برجــل . ومن ذلك : (لا صرورة في الاســلام) [4] . و (الصرورة) عند الجاهليين أرفع الناس في مراتب العبادة ، وقد أطلقت على الراهب المتعبد ، كما جاء ذلك في شعر (ربيعة بن مقروم) الضبي ، من مخضرمي الجاهلية والاسلام :

لو أنها عَرَضت لاشمط راهب عبدِ الإله صرورةٍ متبتل
لدنا لبهجتها وحسن حديثهــا ولهمَّ من ناموره بتنزلِ [5]

وقــد عيب العازف عن اللهو والنساء ، والذي لا يطرب للّهو ويبعد عنه . ولا يقرب النساء ، ولا يحدثهن ولا يريدهن ولا يلهو . فإن مثل هــذا الرجل هو كالحجر الصلد الجلمد ، وفيه غفلة . ويقال له (العزهاة) [6] .

عــدد الزوجات :

ومن حق الرجل في الجاهلية ان يتزوج ما يشاء من النساء من غير تحديد ولا

١ ناج العروس (٢٨١/٩) ، (عن)
٢ ناج العروس (٣٧٨/٦) ، (سحق) .
٣ ناج العروس (٢٢٠/٧) ، (بتل) ، (رد النبي صلى الله عليه وسلم على عثمان ابن مطعون التبتل) ، الاصابة (٤٥٧/٢) ، (رقم ٥٤٥٥) .
٤ ناج العروس (٣٣١/٣) ، (صرر) .
٥ الحيوان (٣٤٧/١) ، (هارون) .
٦ اللسان (٥١٤/١٣ وما بعدها) ، (عزه) .

حصر . إذْ لم تحدد شرائعهم للرجال عدد ما يتزوجونه من نسائهم . فلما جاء الاسلام ، حدد العدد وجوّز للرجل ان تكون له أربع زوجات في وقت واحد ، ومنعه من تجاوز العدد في حالة الجمع ، بمعنى انه لا يسمح له ان يجمع بين خمس زوجات أو أكثر من ذلك في وقت واحد بشرط العدالة بينهن ، فإن خاف الزوج ألا يعدل بينهن فواحدة .

ويذكر أهل الأخبار ان أهل الحرم أول من اتخذ الضرائر [1] ، والضرائر زوجات الرجل الواحد ، وكل منها ضرة للأخرى .

والغاية الأولى من الزواج هي النسل ، لذلك قالت العرب : من لا يلد لا ولد [2] . وكرهت العاقر وعدتها شؤماً . واتخذ العقر من الأسباب الشرعية للطلاق ، إذْ كان الرجل يأبى البقاء مع امرأة لا تلد . لذلك كان يطلقها في الغالب ، لانتفاء الفائدة منها مع انفاقه عليها ، أو يتزوج عليها ليكون له عقب ، وعندهم ان المرأة القبيحة الولود ، خير من الحسناء العاقر ، وان (سوداء ولوداً خير من حسناء عاقر) [3] . وليست هذه العادة من عادات العرب وحدهم ، ولكن يشاركهم فيها أكثر الشعوب الأخرى ، ومنها الشعوب السامية .

ولسادات القبائل والأشراف والملوك غرض آخر من الزواج ، هو غرض كسب الألفة واجتذاب البعداء ، والنصرة ، حتى يرجع المنافر موالياً ، ويصير العدوّ مؤالفاً ، فهو زواج (سياسي) . يتزوج الملك أو سيد قبيلة ابنة سيّد قبيلة أخرى ، فيشدّ بزواجه هذا من أزر ملكه أو من قوة قبيلته . لا سيما اذا كانت البنت من قبيلة كبيرة . وقد عمل بهذا الزواج كثيراً في الجاهلية ، كما عمل به في الاسلام . فقد استفاد معاوية كثيراً من زواجه من قبيلة (كلب) ، إذْ ساعدته وأيدته . وروعي هذا الزواج في المواضع التي تغلبت عليها الحياة القبلية بصورة خاصة للتغلب على طباع البداوة ، القائمة على النفرة من الخضوع لحكم حاكم غريب عنها . وبهذا الزواج تخف هذه النفرة ، فتشعر القبيلة انها من أصهار هذا الحاكم ، وعليها واجب مساعدته بحكم عصبية المصاهرة .

---

١ اللسان (١٢/١٢١) ، (حرم) .
٢ بلوغ الأرب (٢/٩) .
٣ بلوغ الأرب (٢/١٠) .

وكثرة الاخوة عزة ، فمن كثرت اخوته استظهر بهم . فلا يتمكن أحد من النيل منه بسوء ، ولا من ابتزاز حق من حقوقه ، ولا من الاعتداء عليه[1] .

وحظ الرجل العقيم خير من حظ المرأة العاقر . فهو يتزوج عدة زوجات فإن لم يلدن منه ، آمن عندئذ بعقمه . أما المرأة ، فتبقى قانعة راضية في بيت الزوجية ، إن أراد زوجها ذلك ، لأن من الصعب عليها الحصول على زوج آخر إن طلقت ، إذْ كان الرجال يفضلون الأبكار على المطلقات ، واذا طلقت المرأة العاقر ، تقيم بين أهلها من غير زواج في الغالب .

ويرغب العرب في التزوج بالأبكار ، ويفضلون الأبكار الصغار على الأبكار الكبار ، والبكارة من الشروط التي يجب توافرها في الزواج ، واذا تبين ان البنت ليست بكراً ، عُدَّ ذلك نكبة[2] وعير أهلها بها ، ولذلك يكون مصيرها القتل تخلصاً من عارها . أما الزواج بالثيب ، فلا يشترط فيه البكارة لأن المرأة كانت قد تزوجت من قبل ، ثم طلقها زوجها أو مات عنها ، فهي مما لا يتوافر فيها شروط البكارة ، وهو زواج يعزف عنه الشباب ويعير به من يقدم عليه ، إذْ يتهم بالوهن الجنسي وبالطمع في مال الزوجة ، فليس يجمل بالشاب ان يتزوج امرأة أعطت بكارتها غيره . ومن صارت ثيباً من النساء ، صار نصيبها الثيب من الرجال في الغالب ، وان كانت لا تزال شابة صغيرة السن .

ويكره العرب الجمال البارع ، لما يحدث عنه من شدة الإدلال ، ومن الخوف من ثخنة الرغبة وبلوى المنازعة وشدة الصبوة وسوء عواقب الفتنة ، لكنهم كانوا يراعون حسن الصورة وجمال الجسم وتناسق أعضائه . ولهم صفات ونعوت ذكروا انها تمثل جمال المرأة ، تختلف باختلاف الأذواق[3] ، كما ان لهم رأياً في محاسن أخلاق المرأة وفي الخصال التي يجب ان تتحلى بها في معاشرة زوجها وفي العناية ببيتها وفي تربية أولادها[4] . من ذلك ان تكون حريصة على إرضاء زوجها وخدمة أولادها والعناية ببيتها .

---

١ الثعالبي ، ثمار (١٤٣) .
٢ تاج العروس (٣/٥٦ وما بعدها) ، (بكر) .
٣ بلوغ الأرب (٢/١٣ وما بعدها) .
٤ بلوغ الأرب (٢/١٤ وما بعدها) ، عيون الأخبار (٤/١ وما بعدها) .

وللعرب نعوت رأوا انها ان وجدت في المرأة عابتها ، منها ان تكون بذيئة اللسان ، نمامة كذوباً ، عابسة قطوباً ، كثيرة الانتباه والتدخل ، طويلة مهزولة ، ظاهرة العيوب ، سبابة وثوبة ان ائتمنها زوجها خانته ، وان لان لها أهانته ، وان أرضاها أغضبته ، وان أطاعها عصته ، الى غير ذلك من نعوت رووها عن الجاهليين في ذم المرأه المتخلقة بها [1] . وقد نعتت المرأة التي تلبس درعها مقلوباً ، وتكحل إحدى عينيها وتدع الأخرى بـ (القرثع) ، وهي المرأة الجريئة القليلة الحياء البذيئة الفاحشة [2] .

ويرغب العرب في الزواج بالنساء الشقراوات البيض البشرة ، وورد ان بعض العرب قالوا لبعض الملوك : هل لكم في النساء الزهر ، والخيل الشقر ، والنوق الحمر [3] .

والعادة ان أمر الزواج بيد الأبوين ، وليس للبنت معارضة وليّها الشرعي في الزواج ، غير ان بعض بنات الأسر الشريفة لم يكن يقبلن بالزواج بأحد إلا بموافقتهن ، فإلى البنت يكون حق قبول الزوج أو رفضه [4] . كما اشترطت بعض النسوة أنهن ان أصبحن عند زوجهن ، كان أمرهن اليهن ، ان شئن أقمن معهم ، وان شئن تركنهم ، أي ان حق الطلاق بيدهن . وذلك لشرفهن وقدرهن . ومن هؤلاء (سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خداش) ، وهي أم عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف ، و (فاطمة بنت الخرشب الأنمارية) ، وهي أم الكمَلة من بني عبس ، وهم : الربيع الكامل ، وعمارة الوهاب ، وقيس الحفاظ ، وأنس الفوارس ، بنو زياد [5] .

ومنهن (عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان بن ثعلبة بن بهثة) ، وهي أم هاشم ، وعبد شمس ، والمطلب بني عبد مناف . و (السوا بنت

١ بلوغ الأرب (٢/٢٢ وما بعدها) .
٢ عيون الأخبار (٤/٣) .
٣ كتاب البغال من رسائل الجاحظ (٢/٣٤٢) .
٤ ابن سعد ، طبقات ج ١ قسم ١ ص ٤١) ، ابن هشام ، سيرة (١/١٤٨) ، القالي ، أمالي (١/١٩٨) .
٥ المحبر (٣٩٨)

الأعيس) من عنزة ، وكانت تحت خالد بن جعفر بن كلاب[1] . و (مارية بنت الجعيد بن صنبرة بن الديل بن شن بن أفصى) من لكيز[2] .

وقد اشتهرت (أم خارجة) وهي – (عمرة بنت سعد بن عبد الله بن قداد ابن ثعلبة بن معاوية بن زيد بن الغوث بن انمار) من بجيلة – بأنها كانت قد اشترطت ان يكون طلاقها بيدها ، فكانت كما يقول أهل الأخبار تتزوج وتطلق . وقد أكثرت من الولد في العرب ، وبها ضرب المثل فقيل : « أسرع من نكاح أم خارجة »[3] . كان يقال لها : خِطب ، فتقول : نكح وخارجة ابنها ، ولا يعلم ممن هو[4] . وولدت لـ (بكر بن عبد مناة) : الليث والدُّول ، وعُريجاً ، وهي أم العبر ، والهجيم ، وأسَيْد . وولدت أيضاً في (بني القين) من اليمن ، وهم يقال لهم : بنو الحرة ، وولدت في بهراء[5] . وللعداوات بين القبائل أثر بليغ في احتلاق أمثال هذا القصص ، كما لا يخفى .

وذكر أهل الأخبار أسماء نساء تزوجن ثلاثة أزواج فصاعداً . منهن (مارية بنت الجعيد) ، ذكر (ابن حبيب) انها تزوجت من عشرة رجال . ونسوة أخر ذكر أسماءهن (محمد بن حبيب)[6] .

تخفيف غلمة النساء :

وقد أمر بعض الجاهليين بختان النساء للحدّ من طغيان الشهوة ، فإن البظراء تجدُ من اللذة ما لا تجده المختونة ، وفي حديث : يا ابن مقطعة البظور . دعاه بذلك ، لأن أمه كانت تختن النساء . والعرب تطلق هذا اللفظ في معرض الذم ،

١ المحبر (٣٩٩) .
٢ المحبر (٣٩٨) .
٣ المحبر (٣٩٨) ، (وهي أم خارجة بنت قراد) ، الدينوري ، (المعارف) ، (ص ٦٠٩) .
٤ تاج العروس (٢/٢٩) ، (حرج) .
٥ الدينوري ، المعارف (٦٠٩ وما بعدها) .
٦ المحبر (٤٣٥) ، (أسماء من تزوج ثلاثة أزواج فصاعدا من النساء) .

وان لم تكن أم من يقال له هذا خاتنة [1] . وذكر ان الرسول قال لأم عطيـة الخاتنة : « أشمّيه ولا تنهكيه ، فإنـه أسرى للوجه ، وأحظى عند البعل » . كأنه أراد انه ينقص من شهوتها بقدر ما يردها الى الاعتدال ، فإن شهوتهـا اذا قلّت ذهب التمتـع ، ونقص حب الأزواج ، وحب الزوج قيـد دون الفجور [2] .

وذكر ان العرب اتخذت بعض الطرق لتضييق فرج المرأة ، من ذلك استعمال عجم الزبيب . وذكروا ان نساء ثقيف فعلن ذلك ، ويظهر ان أعداء ثقيف في أيام الحجاج قد أشاعوا قصصاً من هذا النوع نكاية به . ويقال لذلك التفريب [3] والتفريم [4] .

حق التقدم في الزواج :

ويقـدم ابن العم على غيره في الزواج ، فإذا جاء رجـل يريد خطبة ابنة رجل ، سُئل ابن عمها ان كان لها ابن عم عن رأيه في ابنة عمه ، فإن أظهر رغبته في الاقتران بها قدّم على غيره ، وزوّجت منه ، وان أظهر انه غير راغب فيها زُوّجت من غيره . ذلك لأن ابن العم مقدم على كل أحد في الزواج من ابنة العم ، وقد يأبى ابن العم من تزويج ابنة عمه من غيره ويصر على ان تكون له ، ولكنه يأبى ان يحدد موعداً للزواج منها ، ويتركها أمـداً طويلاً تنتظر حتى يرى رأيه ، وقد تأبى ابنة العم الزواج من ابن عمها ، ويأبى ابن عمهـا إلا الزواج منها ، فتنشأ من ذلك منازعات وخصومات قد تصل الى اراقة الدم .

١ تاج العروس (٥٢/٣) ، (بظر) ، وهو حديث مناقض لما عرف عن الرسول من عدم النطق بمثل هذا الهجر . وفي تاج العروس احاديث ضعيفـة أو موضوعـة ذكرها من غير روية ولا تثبت .
٢ الثعالبي ، ثمار (٣٠٣/١) .
٣ (فرّب المرأة تفريبا) ، (ضيق قبلها ، أي فرجها بالأدوية . وهي عجم الزبيب وما اشبه ذلك) ، تاج العروس (٤١٧/١) ، (فرّب) .
٤ الفرام . ككتاب ... دواء تضيق به المرأة قبلها . فهي فرماء ومستفرمة . وقد استفرمت ، اذا احتشت بحب الزبيب ونحوه) ، تاج العروس (١١/٩) ، (فرم) .

ومع وجود عرف ان القريب أولى بالبنت من البعيد ، فإن العرب تراعي في الغالب إنكاح البعداء والأجانب . يرون ان ذلك أنجب للولد وأبهى للخلقة ، وأحفظ لقوة النسل ؛ لأن إنكاح الأهل والأقارب يضر بالمولود ويسمه بالضعف والهزال ، ويزعمون ان تقارب الأنساب مدح في الإبل ، لأنه انما يكون في الكرائم يحمل بعضها على بعض حفظاً لنوعها ، وذم للناس لأنه فيهم سبب الضعف . وبهذا المعنى ورد الحديث : « اغتربوا ولا تضووا » أي ان تزوج القرائب يوقع الضوى في الولد ، والضوى : الضعف والهزال[1] . وقد أوصى (حصن بن حذيفة بن بدر) قومه ان (ينكحوا الكفء الغريب ، فإنه عز حادث »[2] . وقال (عمر) مخاطباً آل السائب : « يا بني السائب ، انكم قد أضويتم ، فانكحوا في النزائع » . أي تزوجوا في البعاد الأنساب ، لا في الأقارب ، لئلا تضوى أولادكم . والنزائع جمع نزيعة ، وهي المرأة التي تزوج في غير عشيرتها . وأضوى : ولد له ولد ضاو أي ضعيف[3] .

وروي ان رجلاً قال : بنات العم أصبر والغرائب أنجب ، وما ضرب رؤوس الأبطال كابن أعجمية[4] . وقد أدركوا أثر العرق في الولد . قال رجل : لا أتزوج امرأة حتى أنظر الى ولدي منها ، قيل له : كيف ذلك ؟ قال : أنظر الى أبيها وأمها ، فإنها تجر بأحدهما[5] . وقال بعض الشعراء :

إذا كنت تبغي أيماً بجهالة   من الناس فانظر من أبوها وخالها
فإنهما منها كما هي منهما   كقدك نعلاً ان أريد مثالها
فإن الذي ترجو من المال عندها   سيأتي عليه شؤمها وخبالها[6]

ويراعى التكافىء في الزواج ، فالأشراف لا يتزوجون إلا من طبقة مكافئة لهم ، والسواد لا يتجاسرون على خطبة ابنة سيد قبيلة أو ابنة أحد الوجهاء ، ويعير السيد الشريف ان تزوج بنتاً من سواد الناس ، ولا سيما اذا كانت ابنة

١ بلوغ الأرب (٢/١٠) .
٢ امالي المرتضى (١/٥٣١) .
٣ الدينوري ، عيون (٤/٣) .
٤ عيون الأخبار (٤/٣) .
٥ عيون الأخبار (٤/٣) .
٦ عيون الأخبار (ص ٦) .

صائغ أو نجار أو ابنة رجل يشتغل بحرفة من الحرف اليدوية لأنها من حرف العبيد . وقد عيّر (النعمان بن المنذر) بأمه ، لأنها كانت ابنة يهودي صائغ ، على ما يزعمه أهل الأخبار . ولم يكن من المستساغ عرفاً تزويج ابنة رجل حرّ من عبد مملوك أو مفكوك الرقبة ، ولم يكن من الممكن تزويج البنت الأصيلة الحرّة من ابن عبد أو من حفيد عبد ، أو من حفيد حفيد عبد ، وهكذا لأن سمة العبودية والضَّعَة تلازم الأسر ، وان تحررت وحسن حالها وصارت غنية ، وما زال هذا العرف قائماً في جزيرة العرب .

ويقدم العرب البيت على الجمال . فللبيت أثر في أخلاق المرأة وفي نجابة الأولاد ، وهو أثر دائم . والجمال صورة زائلة . فكانوا يهتمون بالبيت الطيب المنجب ، ليكون النسل نجيباً صحيح البنية والعقل [1] . لقد علمتهم الطبيعة ، وتبين من تجارب الحياة ان لبيت البنت أثراً كبيراً في مستقبل الأسرة وفي نجابة الأولاد وصحة أجسامهم وسلامتهم من المرض . لذلك فضلوا أصالة البيت على جمال المرأة . لما للأصالة من أثر في الوراثة التي تنتقل من الأبوين الى الأولاد . ونجد هذا المسلك عند غير العرب من الساميين أيضاً ، ورد في التلمود : « لا تحفل بجمال المرأه . وانظر الى أسرتها » [2] . وروي ان رجلاً شاور حكيماً في التزوج ، فقال له : إفعل ، وإياك والجمال الفائق ، فإنه مرعى أنيق . فقال : ما نهيتني إلا عما أطلب ، فقال : أما سمعت قول القائل :

ولن تصادفَ مرعىً مُمرِعاً أبداً   إلا وجدتَ به آثار منتجع [3]

وورد في الحديث : (إياكم وخضراءَ الدمن ، قيل : يا رسول الله ، وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في منبت السوء » [4] . فللمنبت شأن كبير في الزواج وفي أخلاق الولد ، فلا قيمة للمرأة الحسناء اذا كانت من بيت سوء .

١ اذا تزوجت فكن حاذقا ... اسأل عن الغصن وعن منبته
وأول خبث الماء خبث ترابه   وأول خبث القوم خبث المناكح
(لا تسترضعوا الحمقاء ولا العمشاء ، فان اللبن يعدي) ، المستطرف (٢/٢١٨) .
٢ Taan, IV, 8, Everyman's Talmud, p. 175.
٣ عيون الأخبار (٤/٩) .
٤ ثمار القلوب (١/٣٠٢ وما بعدها) .

المناكح الكريمة :

وقد روي عن (أكثم بن صيفي) قوله : « المناكح الكريمة مدارج الشرف »[1] . ولهذا حرصوا على تطبيق قاعدة التكافؤ في الزواج ، واختيار كرائم البنات لكرائم الرجال . وروي ان جملة ما أوصى بـه (الحارث بن كعب) سيّد مَذْحِج قومه ان « تزوجوا الأكفاء ، وليستعملن في طيبهن الماء ، وتجنبوا الحمقاء . فان ولدها الى أفنٍ ما يكون ، إلا انه لا راحة لقاطع القرابة »[2] . وقد عرفت هذه القاعدة بـ (الكفاءة في النكاح) . وهي ان يكون الزوج مساوياً للمرأة في حسبها ودينها ونسبها وبيتها وغير ذلك[3] .

والمرأة في نظر العرب وعاء للولد . هذه نظرتهم اليها في الجاهلية وفي الاسلام . قال (عروة بن الزبير) : « لعن الله فلانة ، ألفتُ بني فلان بيضاً طوالاً ، فقلبتهم سوداً قِصاراً » . وفي هذا المعنى جاء في الشعر :

وأول خبث الماء خبث ترابه   وأول خبث القوم خبث المناكح[4]

وللأم أثر خطير في الولد . وقد ذكر (الجاحظ) ان العرب تقول : « عرق الخال لا ينام » . وان كثيراً من العلماء يزعمون ان عرق الخال أنزع من عرق العم . ومن دلائل ذلك تباهي الناس بأخوالهم ، واعتبار الخال بمنزلة الوالد . وقول العرب : « لئيم الخال » ، واحتماء الأولاد بأخوالهم ولجوؤهم اليهم أكثر من لجوئهم الى أعمامهم[5] . ودعوتهم لهم عند العصبية . وقول العرب « العرق دساس » و « عرق الخال » .

ولكننا لا نستطيع القطع برأي العرب في موضوع (دس العرق) . وفي ان أيّاً هو أكثر أثراً ووضوحاً في الولد : عرق الخال ، أم عرق العم ؟ فهناك أمثلة في التأريخ الجاهلي تظهر ان من الجاهليين من كان يقدم العم على الخال ،

١ ثمار القلوب (٦٩١) .
٢ أمالي المرتضى (١/٢٣٣) .
٣ تاج العروس (١/١٠٨) ، (كفأ) .
٤ عيون الأخبار (٤/٢ وما بعدها) .
٥ الثعالبي ، ثمار (٣٤٣ وما بعدها) .

ويرى ان العم مقام الوالد . ولما كان الوالد هو الأصل في النسب عند الجاهليين ، وهو الولي وصاحب الحق الشرعي الأول في ولده ، يكون هذا الحق في إخوته بعد وفاته . كما أننا نجد ان بعض الأولاد كانوا ينزعون الى أعمامهم أكثر من نزوعهم الى أخوالهم . وموضوع نزع العرق عند العرب ، اعتباري اصطلاحي بالطبع ، يمثل وجهة نظرهم في النسب ، ولا يقوم على أسس (بيولوجية) أي من ناحية أثر الدم وانتقال الخصائص الدموية من الوالد ، او من الأم الى الولد . وهو موضوع علمي ، يختلف عن هذه النظرة الاعتبارية ، من حيث انه يقوم على الدراسات العلمية ، ولا يأخذ بالاعتبارات والآراء المبينة على اعتبارات أهل النسب في خصائص الولد .

والظاهر ان الوئام لم يكن واقعاً دائماً بين أبناء العم ، إذْ نجد ان الخصومات طالما كانت تحدث بينهم . ولعل ذلك بسبب ما ألقاه المجتمع على عاتق العمّ من تبعات أولاد إخوته حين وفاة الأخ ، فانه يكون بحسب العرف القبلي الوصي الشرعي على أولاد المتوفى ، وله حق في إرثه بحسب قانون (العصبة) عند وفاة الأخ عن بنات ومن غير أبناء ، أو لطمع الأعمام في أموال اليتامى ، الى غير ذلك من أمور سببت حدوث خصومات أحياناً بين الأعمام وبين أبناء الاخوة ، أو بين أبناء الأعمام . ولعل هذه الخصومات هي التي جعلت (الجاحظ) يتصور ان أبناء العم محسودون [1] .

ونجد العرب يقولون : « عرق فيه أعمامه وأخواله » [2] ، فقدموا الأعمام على الأخوال ، واعترفوا بأثر عرق الاثنين في الولد ، من كرمٍ أو لؤم ، إذْ يكون دس العرق في اللؤم والكرم [3] .

ولاحظ العرب ان الأبوين قد يلدان ولداً يكون لونه مغايراً للونهما ، فيحدث نزاعاً بين الرجل وزوجته في هذه الولادة الغريبة ، وتتهم المرأة أحياناً باتصالها برجل غريب جاء منه هذا المولود ، إلا ان منهم من أدرك (دس العرق) في هذه الولادة ، واحتمال انتقال هذا اللون من آباء أحد الوالدين . وقد اختصم رجل

---

١ كتاب فصل ما بين العداوة والحسد ، من رسائل الجاحظ (١/٣٤٤) .
٢ تاج العروس (٧/١٠) ، (عرق) .
٣ المصدر نفسه .

مع زوجته في مولود ولد له ، فجاء الى رسول الله وقال له : ان امرأتي قد ولدت غلاماً أسود ، فقال له الرسول : « لعل عرقا نزعه »[1] . فاعتقاد العرب ان الولد قد ينزعه عرق من الأب . وفي هذا المعنى أيضاً قول (ابن الزبير) : « لا يمنعكم من تزوّج امرأة قصرها ، فإن الطويلة تلد القصير ، والقصيرة تلد الطويل ، وإياكم والمذكَّرة فانها لا تنجب »[2] . والمذكّرة المتشبهة بالذكور .

وقد حرص العرب لما تقدم على التزوج في الأسر الصحيحة السالمة من الأمراض والعيوب ، ليكون النسل صحيحاً نجيباً . قال أعرابي لصاحب له : (اذا تزوجت امرأة من العرب فانظر الى أخوالها ، وأعمامها ، واخوتها ، فانها لا تخطىء الشبه بواحد منهم)[3] .

لبن الأم :

وللبن الأم شأن كبير عند العرب ، لما يتركه من أثر في طبيعة الولد ، ولذلك كانوا يرون ان تكون الأم مرضعة الولد ، إلا اذا تعذر ذلك لسبب ، فترضعه مرضعة قريبة من أهل المولود او من المرضعات السليمات من المرض ، ومن ذوات العرق الطيب . لأن اللبن دساس يؤثر في شاربه .

واهتم العرب باختيار المرضعات . لما يكون للبان الرضاع من أثر في الرضيع ، ولما يكون للمرضعة ولبيتها من أثر فيه ، كما اهتموا باختيار من يتأبط المولود ويحمله ، لتسليته وتلهيته ، لما يتركه ذلك من أثر في تربيته وخلقه . وفي حديث عمرو بن العاص : « ما تأبطتني الإماء ولا حملتني البغايا في غبرات المآلي » أراد انه لم تتول الإماء تربيته . وغبرات المآلي : بقايا خِرَق الحيض[4] .

واذا أراد مدح انسان والثناء عليه ، ذكروا مرضعته وصفاء لبنه الذي رضعه ، فقالوا : « نعمت المرضعة » ، و « نعمت المرضعة مرضعته » . واذا أرادوا

١ الدميري ، حياة الحيوان (١/٤) .
٢ عيون الأخبار (٤/٣) .
٣ الحيوان (٣/١٦٥) ، (هارون) .
٤ تاج العروس (٣/٤٣٦) ، (غبر) .

ذمّ انسان قالوا : « بئست المرضعة مرضعته » ، كناية عن انها هي التي أرضعته ، فخرج رضيعها على شاكلتها . وفي الحديث حين ذكر الامارة ، فقال : « نعمت المرضعة وبئست الفاطمة » ، ضرب المرضعة مثلاً للامارة وما يوصله الى صاحبها من الأحلاب ، يعني المنافع ، والفاطمة مثلاً للموت الذي يهدم عليه لذاته ويقطع منافعها [1] .

وتعدّ الرضاعة بمنزلة الأخوة بين المتراضعين ، ويفتخر ويتعزز الواحد منهم بالآخر ، خاصة اذا كان من السادات والأشراف . والعرب تقول : « هذا رضيعك » أي أخوك من الرضاع [2] ، وتقول : « استرضع في بني فلان » [3] . ويصير كأنه واحد من القوم الذين استرضع فيهم . وتكون المراضع بمنزلة الأم للرضيع .

ويبدأ الزواج برغبة يبديها الرجل لوالديه ، او برغبة من والديه ، أو من أحدهما تقدم الى الولد تطلب اليه ان يتزوج ، فإن حصلت الموافقة اختيرت له زوجة ، وقد يكون الرجل قد اختار خطيبته وعينها ، فاذا وافق أهله خطبوها الى وليّ أمرها ، واذا أبوا فعليه ان يختار أخرى زوجاً له ، واذا أبى أهل البنت عليه ذلك تركها ، وقد يصر على الزواج بها ، ويصر أهله أو أهلها على رفضهم ذلك ، وقد يزداد الرجل أو البنت إصراراً على الاقتران معاً حتى يتحول ذلك الى هرب من مكانهما الى مكان آخر . وقد تقع بغضاء بين أهلي الرجل والبنت من وقوع هذا الزواج .

الخطبة :

واذا استقر الرأي على البنت ، يذهب ولي أمر الرجل او أقرب الناس اليه الى ولي أمر البنت ، كالأب أو الأخ أو العم أو بني عمها أو غيرهم ممن هم أقرب الناس اليها ، يخطب البنت بعد ان يكونوا قد مهدوا لذلك وحددوا الصداق .

---

١ تاج العروس (٥/٣٥٦) ، (رضع) .
٢ تاج العروس (٥/٣٥٦) ، (رضع) .
٣ المصدر نفسه (ص ٣٥٧) .

وكان الخاطب اذا دخل بيت أهل البنت حيّاهم ومن كان حاضراً بتحية أهل الجاهلية ، مثل : انعموا صباحاً ، او عموا صباحاً ، او أمثال ذلك ، فاذا استقر به المقام ، تكلم فيما جاء فيه ، كأن يقول : نحن اكفاؤكم ونظراؤكم ، فإن زوجتمونا فقد أصبنا رغبة واصبتمونا وكنّا لصهركم حامدين ، وان رددتمونا لعلة نعرفها رجعنا عاذرين . ثم يجيب ولي أمر البنت جواباً مناسباً يضمنه الرضى والقبول ، وبذلك تكون البنت قد خطبت لذلك الرجل [1] .

ووصف بعض أهل الأخبار طريقة من طرق الخطبة عند بعض الجاهليين ، فقال : كان الرجل في الجاهلية يأتي الحي خاطباً ، فيقوم في ناديهم ، فيقول : خطب ، أي جئت خاطباً . فيقال له : بعد الموافقة نكح ، أي قد انكحناك إياها ، ومن دلك ما قدمت من خبر أم خارجة ان صحّ . وذكر ان (نكحاً) هي كلمة كانت العرب تتزوج بها [2] .

ويرتدي أهل الخاطب وأهل المخطوبة خير ما عندهم من ملابسهم ويزينون أنفسهم عند مجيء أهل الرجل الى بيت البنت لخطبتها . واذا تمت الخطبة ضمخ والد الخطيبة بالعبير وخلّق بالطيب ونُحر بعير او أكثر على حسب منزلة أهل البنت . والعادة عند العرب ان ينحروا بعيراً او شاة في المناسبات المفرحة المبهجة ، فلا بد لمثل هذه المناسبات من (ذبيحة) وإسالة دم . ولما خطب النبي (خديجة) واجابته ، استأذنت أباها في ان تتزوجه وهو ثمل ، فأذن لها في ذلك ، وقال : هو الفحل لا يقرع أنفه . فنحرت بعيراً ، وخلّقت أباها بالعبير ، وكسته برداً أحمر [3] .

وكان الجاهليون يقولون للإبل تساق في الصداق : النوافج . وكانوا يقولون عند تقديمها : تهنئك النافجة . على ان بعضهم من كان يكره ذلك . وقد بطل هذا القول في الاسلام [4] .

١ بلوغ الأرب (٣/٢) .
٢ تاج العروس (٢٣٧/١) ، (حطب) ، (٢٤٣/٢) ، (نكح) ، المحبر (٣٩٨) .
٣ تاج العروس (١١٨/٣) ، (حبر) .
٤ قال الشاعر :
وليس بلادي من وراثة والدي ولا شان مالي مستفاد النوافج
الصاحبي (ص ٩٢)

وتلبس العروس ثوباً يجعل له ذيل تسحبه حين تمشي . لأنه يكون طويلاً ، وقد أشير اليه في شعر لامرىء القيس . إذْ قال :

لها ذنب مثل ذيل العروس تسد به فرجهـا من دبر

كما أشير اليه في شعر لخداش بن زهير . إذْ قال :

لها ذنب مثل ذيل الهديّ الى جؤجؤٍ أيـدِ الزافر [1]

والهديّ : العروس التي تهدى الى زوجها .

واستعملت المرأة الغنية المسك والطيب في تطييب جسمها وثيابها . حتى كان المسك يفوح من أردانها . قال قيس بن الخطيم :

وعمرة من سروات النسا ء تنفحُ بالمسك أردانها [2]

و (الصِّداق) هو مهر المرأة ، أي ما يدفعه الرجل الى أهل البنت عند عقد الزواج ، ويقال له الصَّدَقة والصَّدُقة والصُّدُقة والصَّداق . وترادف هذه الكلمة كلمة أخرى هي « مهر » ، وهي من المصطلحات الجاهلية كذلك [3] .

وطريقة العرب من جاهليين وإسلاميين في دفع الرجل (المهر) للزوجـة ، تناقض المألوف عند اليونان والرومان ، حيث جرت عادتهم ان تقدم المرأة صداقها الى زوجها نقوداً أو عيناً . وهي الطريقة المألوفة عند الغربيين حتى الآن . وكان الرومان يستغربون طريقة الجاهليين هذه في دفع المهر [4] .

ويروي (روبرتسن سمث) ان ترادف معنى (الصداق) و (المهر) انما حدث في الاسلام . أما في الجاهلية ، فقد كان هناك فرق بين مدلول الكلمتين . فان المراد من كلمة الصداق عند الجاهليين هو ما يقدم الى العروس . أما المهر ، فهو ما يقدم الى الوالدين [5] .

١ أمالي المرتضى (٢/٩٤ وما بعدها) .
٢ اللسان (١٣/١٧٧) ، (ردن) .
٣ اللسان (١٢/٦٥) ، النهاية (٤/١٢٢) ، جامع الاصول (٧/٥٧٩) ، عمـدة القارىء (٢٠/١٣٦) ، تاج العروس (٣/٥٥٠) ، (مهر) .
٤ Ency Religl , 8, p 447.
٥ Kinship, p. 76, Ency., III, p 137.

والرجل إما ان يكون من ذوي قرابة البنت وإما ان يكون من الأباعد ، أي غريباً عنها . فان كان من ذوي قرابتها ، قال لها ولي أمرها اذا حملت اليه : أيسرتِ وأذكرتِ ولا انثتِ ، جعل الله منك عدداً وعزاً وخلداً . أحسني خلقك ، وأكرمي زوجك ، وليكن طيبك الماء ... ومثل ذلك من كلام . واذا زوّجت في غربة قال لها : لا أيسرتِ ، ولا ذكرتِ ، فانك تدنين البعداء ، أو تلدين الأعداء . أحسني خلقك ، وتحببي الى أحمائك ، فان لهم عيناً ناظرة اليك ، وأذناً سامعة اليك ، وليكن طيبك الماء [1] .

واذا كان العرس أولموا وليمة ، ودعوا اليها ذوي قرابة الزوجين وأصدقاءهم . وتتناسب الولائم مع مكانة العريس وأهله ، للهو ، فإن كان غنياً كانت وليمته ضخمة ، وربما دعوا اليها أهل الطرب ، وقدّموا فيها المأكولات الشهية والخمور . ويقال للوليمة التي تقام « الملاك » ويقال « الإملاك » ، ويقال للطعام الذي يقدم في « الإملاك » ، « الشندخ » لأنه يقدم الدخول . واما ما يصنع للدخول بالمرأة ، فيقال له : « وليمة » و « وليمة العرس » [2] . وكانوا يعدون ولائم العرس من الأمور اللازمة ، ويفعل ذلك حتى الفقير الضعيف الحال . وقد حث الاسلام عليها ، فورد في الحديث ان الرسول قال لعبد الرحمن بن عوف : « أولم ولو بشاة » [3] .

وتزف العروس الى زوجها ، ومعها أصدقاؤها وأهلها : وقد يقترن ذلك بضرب الدفوف والغناء . وقد كان الأنصار يعجبهم اللهو ، ولهذا كانوا يهتبلون هذه المناسبات للهو فيها . ومما كان يقال في زف العروس :

أتينــاكم أتينــاكم فحيانــا وحيّــاكم
ولولا الذهب الأحمر ما حلت بواديــكم
ولولا الحنطة السمرا ما سمنت عذاريكم [4]

ويقال لليلة التي تزف فيها العروس الى زوجها ليلة الزفاف . ويعرف موكب

١ بلوغ الأرب (٢/٣) .
٢ بلوغ الأرب (١/٣٨٦) .
٣ البخلاء (٢٤٦) ، المخصص (٤/١٢٠) .
٤ ارشاد الساري (٨/٦٧) .

الزفاف وبـ (الزفة) ويزف (العروس) الى بيته أيضاً ، فقد كان من عادة ذوي القرابة والأصدقاء إقامة وليمة له ، اذا انتهت رافق المدعوون العريس الى بيته في موكب يغنى فيه ويضرب بالدفوف . وقد يبقى المدعوون الى الصباح ، حيث يحيون ليلتهم ، وهي ليلة العرس ، بالشرب والغناء واللعب .

وتخلّق العروس بالعبير وبأنواع الطيب بحسب سعة حالها وأحوال أهلها المعاشية . وذكر ان (العبير) الزعفران وحده عند أهل الجاهلية . وذكر انه أخلاط من الطيب يجمع بالزعفران ، ، وورد ان العبير غير الزعفران . وقد اشتهر رداء العروس بطيب رائحته ، لما فيه من العبير . قال الأعشى :

وتَبْرُدُ بَرْدَ رداءِ العرو سِ في الصيف رقْرَقْتَ فيه العبيرا[1]

وتزف العروس الى زوجها ليلاً : تزف على قدر حال العروسين ، وقد تزف في النهار ، ويرافق العروس (موكب) موكب من نساء ورجال على الإبل المزينة يسير والنيران بين يديّ العروس . وقد توضع الأنماط على هودج العروس وفي بيتها . وقد منع استعمال النيران في الاسلام ؛ لما في ذلك من التشبه بالمشركين ، كما نهي عن استعمال أنماط الحرير[2] .

وقد تزف العروس في محفة يقال لها (المزفة) ، ومعها أصحاب (الزفة) . وذكر ان (الزفة) ، الزمرة . « ومنه الحديث : انه صلى الله عليه وسلم ، قال لبلال حين صنع طعاماً في تزويج فاطمة ، رضي الله عنها : « أدخل الناس عليّ زفةً زفةً » أي : فوجاً بعد فوج ؛ وطائفةً بعد طائفة[3] .

وفي المثل : « لا عطر بعد عروس » أول من قال ذلك امرأة اسمها : أسماء بنت عبد الله العُذْرية ، واسم زوجها — وكان من بني عمّها — (عروس) . ثم مات عنها ، فتزوجها رجل من قومها أعسر أبخر بخيل دَميم ، يقال له (نوفل) . فلما أراد ان يظعن بها ، قالت : لو أذنت لي ، رثيت ابن عمّي ، وبكيت عند رمسه ؟ فقال : إفعلي . فقالت : أبكيك يا عرس الأعراس ،

---

١ تاج العروس (٣/٣٧٧) ، (عبر) ، اللسان (٤/٥٣١) ، (عبر) .
٢ عمدة القاري (٢٠/١٤٨ ، ١٥٨) .
٣ تاج العروس (٦/١٢٨ و ما بعدها) ، (زفف) .

يا ثعلباً في أهله ، وأسداً عند الباس ، مع أشياء ليس يعلمها الناس ! فقال : وما تلك الأشياء ؟ فقالت : كان من الهمة غير نعّاس ، ويعمل السيف صبيحات الباس . ثم قالت : يا عروس الأغر الأزهر ، الطيب الخيم ، الكريم المحضر ، مع أشياء لا تذكر ! فقال : ومـــا تلك الأشياء ؟ قالت : كان عيوفـــاً للخنا والمنكر ، طيب النهكة غير أبخر ، أيسر غير أعسر . فعرف الرجل انها تعرّض به . فلما رحل بها ، قال : ضمّي عطرك . وقد نظر الى قشوة عطرها مطروحة . فقالت : « لا عطر بعـــد عروس » فذهبت مثلاً . أو « لا مخبأ لعطر بعـــد عروس »[1] .

وتحمل العروس معها أدوات زينتها وموادها الأخرى تضعها في قشوة : قفة من خوص يجعل فيهـــا مواضعها للقوارير بحواجز بينها لعطر المرأة وقطنهـــا ، قال الشاعر :

لها قشوة فيهـــا ملابٌ وزنبقٌ إذا عزبٌ أسرى اليها تطيبا[2]

ويقال للبنت العذراء التي لم تفتض (البكر)[3] . ويقال ذلك للرجل الذي ، لم يقرب امرأة بعد[4] . وزوجها الأول هو الذي يفتض بكارتها . وإذْ كانت لسلامة بكارة البنت مكانة عند العرب ، كانوا يعرضون دم البكارة على الأقارب ، ليكون شهادة على سلامة بكارتهـــا . ويكنى عن البكارة والبنت البكر بـ (بنت ســـعد)[5] .

والزواج حادث مهم في حياة الانسان ، ولذلك يعلن عنـــه بفرح وسرور ، ويقال لذلك (بشاشة العرس)[6] . يعلن عنه بدعوة (وليمة) تولم لذوي القربى والأحباء والجيران والأصدقاء ، تقترن بالغناء وبالضرب على الدفوف أحيانـــاً ، وبارتداء ملابس نظيفة مناسبة ، أو ملابس مصبوغة بصفرة ، والصفرة عند أهل

١ تاج العروس (٤/١٨٨) ، (عرس) .
٢ تاج العروس (١٠/٢٩٤) ، (فشا) .
٣ بالكسر .
٤ تاج العروس (٣/٥٧) ، (بكر) .
٥ تاج العروس (٢/٣٧٩) ، (سعد) .
٦ عمدة القارىء (٢٠/١٣٨ وما بعدها) .

الحجاز في ذلك العهد علامة العرس والفرح والسرور ، كما كانوا يصبغون أيديهم ولحاهم بالزعفران ، ويكحلون عيونهم ، والكحل عندهم من الزينة أيضاً[1] . ويقال للطعام يصنع لعرس : (الوليمة) . وقد ذهب بعض علماء اللغة الى ان اسم الوليمة مختص بطعام العرس . وقد حث الاسلام عليهـا . ورد في الحديث قوله لعبد الرحمن بن عوف : أولم ولو بشاة[2] .

ويقابل الزوج على تفضله بالدعوة الى الوليمة بكلمات فيها خير وشكر وتمنيات للحياة الزوجية الجديدة ، ويقال له عند الانتهاء والانصراف : على الطائر الميمون ، وبالرفاه والبنين . وقد كره في الاسـلام القول : بالرفاه والبنين لأنه من أقوال الجاهلية ، ولما فيه من الاشارة الى بغض البنات ، لتخصيص البنين بالذكور[3] ، وإحياء سنن الجاهلية[4] .

المال والبنون :

واذا ولد مولود ذكر ، سُرّ أهله بميلاده . والعرب مثل غيرهم من الشعوب القديمة كانوا يفرحون بميلاد ولد ذكر ، ويغتمون اذا ولدت لهم أنثى ، ويقيمون وليمة لميلاده ، وكثرة البنين من المفاخر التي يفتخر بها أهل الجاهلية . ان كثرتهم نعمة وعزة . والبنون والمال زينة الحياة الدنيا . بالبنين يدافع الرجـل عن نفسه وعن بيته ، وبهم ينال المال والحق والأخذ بالثأر ، فهم الحمايـة ورأس المال . ونقرأ في أخبار أهل الأخبار افتخار الآباء والأمهات بكثرة ما أنجبوا من أولاد ، ولا سيما اذا كان الأولاد حازوا شهرة بالجود أو بالشجاعة أو بأمثال ذلك ، أو سادوا قومهم ورأسوهم . ورد في القرآن : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا)[5] . صحيح ان اعالتهم مسألة صعبة عسيرة ، ولا سيا إعالة الفقراء أولادهم ، غير ان الحياة الاجتماعية في ذلك العهد لم تكن على مستوى عال من المعيشة تطلب مالاً

---

١ عمدة القاريء (١٤٣/٢٠ وما بعدها) ، (٢٢/٢٢) .
٢ تاج العروس (٩٦/٩) ، (أولم) .
٣ عمدة القاريء (١٤٥/٢٠ وما بعدها) .
٤ اللسان (٨١/١) ، (رفا) ، تاج العروس (٧١/١) ، (رفا) .
٥ الكهف ، الآية ٤٦ .

يضمن الوالد به عيش أولاده ، انما كانت المعيشة سهلة لا تتطلب حاجات كثيرة ، ولم تكن بالناس حاجة شديدة الى النقود ، فما يقوم به المرء من مجهود بدني هو أصيلة[1] كل انسان ، وبه يعيش ، وبه يحصل على ما يحتاج اليه من وسائل معيشة محدودة . فاذا كثر الأولاد ، ازدادت وسائل المعيشة ، وعاش الوالد عيشة ناعمة طيبة ، وحصل بفضلهم على قوة ومنعة .

وقد ذكر أهل الأخبار عدداً من الرجال عرفوا ببنين حصلوا على شهرة وذكر ، فكانوا يفتخرون بهم بين الناس . من هؤلاء (سعد العشيرة) ، قيل له (سعد العشيرة) لأنه كان يركب في عشرة من أولاده الذكور ، فكأنه منهم في عشيرة ، فصار مثلاً للرجل يستكثر بأبنائه وعشيرته ويتعزز بهم[2] . و (الحارث بن سدوس) . وكان له واحد وعشرون ولداً ذكراً[3] .

ويكون الذكور فخراً للأمهات وقوة لهن ، ويقال للمرأة التي تلد الأولاد الكرماء الأشراف منجبة ومنجاب . (ولم تكن العرب تعد منجبة من لها أقل من ثلاثة بنين أشراف)[4] . وتعرف بـ (أم البنين) كذلك . ومنهن (أم البنين بنت عمرو بن عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة) ، و (عمرو بن عامر) هو (فارس) . ولدت (أبا براء) ملاعب الأسنة ، و (طفيلاً) فارس قرزل و (ربيعة) ربيع المقترين ، و (معاوية) معوذ الحكماء ، (سلمى) نزال المضيق ، بني مالك بن جعفر بن كلاب[5] .

وقد أشار القرآن الكريم الى نفرة العرب من البنات ، وما كان يصاب به الرجل من ضيق صدر ومن هم اذا بلّغ ان مولوده أنثى ، قال تعالى : (واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم)[6] . ويزداد كربه اذا زاد عدد بناته ، وقد يعملون الى (الوأد) ، أي دفنهن أحياء للتخلص منهن .

١ الأصيلة : راس المال .
٢ ثمار القلوب (١٠٤) .
٣ ثمار القلوب (١٤٢) .
٤ المحبر (ص ٤٥٥) ، تاج العروس (١/٤٧٧) ، (نجب) .
٥ المحبر (٤٥٨) ، تاج العروس (٣/٤٠٣) ، (عمر) .
٦ النحل ، الآية ٥٨ .

قيل : « إنهم كانوا يقتلونهن خوف العار »[١] . والى ذلك أشار القرآن الكريم : (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق . نحنُ نرزقهم وإياكم)[٢] ، (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقهم وإياكم)[٣] .

وقد افتخرت (بنو عبس) بـ (زهير بن جذيمة بن رواحة) العبسي ، لأنه كان أبا عشرة ، وعم عشرة ، وأخا عشرة ، وخال عشرة ، ورأس غطفان كلها في الجاهلية ولم يجمع على أحد قبله[٤] . فكثرة البنين من موجبات الفخر والاعتزاز والتباهي عند الجاهليين .

العقيقة :

واذا كانت نهاية الانسان عند الجاهليين مقترنة بالدم ، فإن مبدأ حياته مقترن عندهم بالدم كذلك . لقد كان من عادتهم ذبح شاة عند ميلاد مولود وتلطيخ شيء من دمها برأس المولود ، ويقال لهذه الذبيحة « العقيقة » ، وهي كلمة جاهلية وردت في الشعر الجاهلي[٥] . وتذبح عادة في اليوم السابع من ميلاد المولود[٦] . وقد أقر الاسلام ذلك ، فوردت الكلمة في الحديث . ويذكر علماء اللغة ان معنى العقيقة هو شعر كل مولود يخرج على رأسه في بطن أمه ، وانه قيل للشاة المذبوحة لذبحها عند الاحتفال بحلق هذا الشعر . وقد كانوا يعيرون من لم تحلق عقيقته ، إذْ يرون في ذلك منقصة لا تليق بالرجل الكامل[٧] .

ويستقبل المولود بذلك حنكه بالتمر الممضوغ ، أو الحلو مثل عسل النحل ،

١ المسطرف (٧٧/٢) .
٢ الآسراء الآية ٣١ .
٣ الانعام ، الآية ١٥١ .
٤ الاصابه (٢٦٦/٣ وما بعدها) ، (رقم ٧٣٥٢) .
٥ ناج العروس (١٥/٧) ، اللسان (١٢,١٢٩/) .
٦ فهارس البحاري (ص ٣٣٣) .
٧ في شعر منسوب الى امرىء الفيس :
يا هند لا تنكحي بوهة عليه عقيفته احسبا
ناج العروس (١٥/٧) ، البحارى « كتاب العقيقة » حدبث (١) ، عمدة القارىء (٨٢/٢١) .

وكل مـا لم تمسه نار من الحلو [1] . وكان العبرانيون يفركون المولود بالملح . واستقبال المواليد بمثل هذه الأمور من العادات الشائعة عند كثير من الأمم القديمة ، وهي عادات وشعائر دينية أيضاً . فإن الشعوب القديمة لم تكن تفرق كثيراً بين العادات والشعائر بخلاف الحال في الزمن الحاضر [2] . ولاستقبال المولود بدلك جسمه بالحلو أو بالملح أو بما شابه ذلك ، معنى التفاؤل . فالحلو رمز السعادة والفرح . واما الملح ، فانه عنصر مهم من عناصر الحياة عند الأمم القديمة . والخبز والملح هما رمز الصداقة والمودة حتى اليوم .

ويسلى الأطفال باعطائهم العرائس والتماثيل الصغيرة يلعبون بها ويقضون وقتهم بالتسلي بها وبمكالمتها على نحو ما يفعل أطفال اليوم . كما يتسلون باللعب معاً بألعاب خاصة بالصبيان .

الختـان :

ويعدّ الختان من العادات الجاهلية القديمة ، والعرب في ذلك كالعبرانيين . وهو أمر لم يرد ذكره في القرآن الكريم ، انما ورد ذكره في الحديث . وترجع الكلمة الى أصل سامي شمالي قديم [3] . والختان في الأصل نوع من أنواع العبادة الدموية التي كان يقدمها الانسان الى أربابه ، وتعدّ أهم جزء من العبادات في الديانات القديمة [4] . فقطع جزء من البدن وإسالة الدم منه ، تضحية ذات شأن خطير في عرف أناس ذلك العهد ، كما كان حلق الشعر كله أو جزء منه نوعاً من أنواع التقرب الى الآلهة [5] . والختان في الاسلام معدود من سنن الفطرة التي ابتلى الله ابراهيم بها ؛ وهي الكلمات العشر . وفي جملتها الختان [6] .

وقد كان الجاهليون يسمون من لم يختتن : أقلف وأغلف وأغرل ، ويعيبونه ،

---

١ عمدة القاري (٨٣/٢١) ، اللسان (٢٩٨/١٢) ، « حنك » .

٢ Reste, S., 173.

٣ Shorter Ency, p., 254, Ancient Israel pp, 46

٤ Reste, S, 174.

٥ Smith, p., 328.

٦ بلوغ الأرب (٢٨٧/٢) ، الحيوان (٢٧/٧) ، (هارون) .

ويعدّونه ناقصاً[1] . وذكر انتشار هذه العادة عند العرب بعض الكتبة « الكلاسيكيين » مثل : « يوسفوس » المؤرخ اليهودي و « أويسبيوس » و « سوزومينوس » (Sozomenius) [2] ويظهر انه كان معروفاً عند العرب الجنوبيين وعنـد الحبشة كذلك[3] . وقد طبق على النوعين الذكور والإناث . وكانت العرب تزعـم ان الغلام اذا ولد في القمراء فسحت قلفته فصار كالمختون ؛ قال امرؤ القيس وقـد كان دخل مع قيصر الحمام فرآه أقلف ، على ما يزعمه أهل الأخبار :

إني حلفت يميناً غـير كاذبة لأنت أقلف إلا ما جنى القمر[4]

وذكر « يوسفوس » ان العرب يختنون أولادهم عند بلوغهم عشرة من سنهم[5] . ومن الضعف قبول خبره ، ويظهر من موارد أخرى ان الجاهليين لم يعينوا عمراً معيناً للاختتان[6] وأحسب ان هـذا الكاتب اعتمد على مـا جاء في التوراة عن اختتان اسماعيل وهو في الثالثة عشرة من عمره ، أو انه اعتمد على ما سمعه من بعض القبائل الاسماعيلية الساكنة في المناطق الشماليـة الغربية من جزيرة العرب ، فظن ان الاختتان عند جميع العرب هو في هذه السن .

وقد ورد في بعض الأخبار ان الروم حاولوا منع العرب من الاختتان[7] .

والاختتان من المناسبات المفرحة المبهجة في حياة الأسرة ، لهذا كان من عـادة العرب يدعون ذوي القرابة والأصدقاء الى الولائم ويلبسون الأطفال أحسن ما عندهم من لباس ابتهاجاً وفرحاً بذلك .

الرجولـة :

واذا بلغ الطفل ، صار رجلاً ، وجاز له حينئذ ان يفعل فعل الرجـال .

١ Resle, S., 174.

٢ Josephus, Antt., I, XII, 2, Eusep., VI, II, Sozomen, Hist. Eccl, VI, 38.

٣ Ency. Religl., 3, p 679.

٤ تاج العروس (٦/٢٢٦) ، (فلف) .

٥ Josephus, Antiq., XX, II, 4.

٦ Ency Religl., 3, P. 679.

٧ Ancient Israel, p 47.

واحتفل أهله بذلك عند الصنم (Oratal) ، الذي يقابل الإلـه (باخوس) (Bacchus) عند اليونان ، ويبلغ الاحتفال غايته عند قص الضفائر ورميها أمامه ، لأن ذلك معناه عندهم دخول الشاب في مرحلة الرجولة ، ودخوله في عبادة هذا الإلـه [1] .

والبلوغ ادراك الغلام والجارية . وقد كان أهل مكة اذا بلغت عندهم الجارية أخذوها الى (دار الندوة) فدرعوها بها ، علامة على بلوغها .

ومن امثال العرب : (ولدك من دمّى عقبيك) [2] ، أي من نفِست به ، وصبر عقبيك ملطخين بالدم ، فهو ابنك حقيقة ، لا من اخذته وتبنيّته وهو من غيرك [3] . والابن الشرعي ، من ينسب الى ابيه بنسب صحيح ، وعزي الى والده . ويقال : انه لحسن العزوة ، اي صحيح النسب حسنه [4] .

والعادة عند اكثر الساميين نسبة الاولاد الى الآباء . ونجد اكثر اسماء الجاهليين على هذا النحو . وهناك اشخاص عرفوا بأسماء امهاتهم ، وللاخباريين في تفسيرها آراء ، الغالب انهم اشتهروا بأمهاتهم لما كان لأمهاتهم من كفايات وصفات خاصة جعلت لهن صيتاً بعيداً طغى على اسم الرجال ، فنسب أبناؤهم اليهن لهذا السبب تمييزاً عن بقية الابناء الذين قد يكونون للرجل من زوجة اخرى . ومن هذا القبيل اشتهار (عمرو) ملك الحيرة بـ (عمرو بن هند) . واشتهار (المنذر) ، وهو احد الملوك بـ (المنذر بن ماء السماء) على رأي من جعل (ماء السماء) اسم والدة الملك .

ولم يكن للجاهليين قواعد ثابتة معينة في تسمية المواليد ، ففي بعض الروايات ان الأجداد او الآباء هم الذين كانوا يقومون بتسمية المولود ، وفي روايات اخرى ما يفيد قيام المرأة بهذه المهمة . والذي يتبين من غربلة الروايات ان الرجال هم يسمّون الاولاد ، فيضعون لهم الاسماء . اما تسمية البنات فكانت في الغالب من اختصاص النساء . وقد يثبت اسم المولود ويحدد في اليوم السابع من مولده ، اي

---

١ Hastings, I, p. 283, Herodotus, III, 8.

٢ محركة وكصر الكاف فيهما بناء على أنه خطاب للانثى .

٣ تاج العروس (٢/٥٤٠) ، (ولد) .

٤ تاج العروس (١٠/٢٤١) ، (عزا) .

في يوم (العقيقـة) . وتذكر كتب السير ان (عبد المطلب) هو الذي سمى الرسول محمداً ، في يوم سابعه ، اخذه فدخل به الكعبة ، ثم خرج به الى أمه فدفعه اليهـا ، وفي هذا اليوم عقّ له على عادة العرب في ذلك العهد . وتذكر ايضاً ان قريشاً « قالوا لعبد المطلب ما سميت ابنك هذا ؟ قال سمّيته محمداً » [1]

وتختلف التسميات في جزيرة العرب ، كما تختلف معانيها ، فالأسماء المشهورة عند العرب الجنوبيين والواردة في نصوص المسند لا ترد في قوائم اسماء الجاهليين الذين كانوا يعيشون قبيـل الاسلام في نجد والحجاز . وأسماء اكثر ملوك العرب الجنوبيين ولا سيما الذين عاشوا منهم قبل الاسلام هي اسماء مركبة ، ولها صلة بالآلهة . اما اسماء الملوك الشماليين فأكثرها مفردة مثل المنذر والنعمان والحارث وعمرو وأمثال ذلك . والأسماء الشمالية المركبة لها صلة بالأصنام ، ولكن بأصنام العرب الشماليين ، مثل عبد مناة ، وعبد العزى ، وامرىء القيس ، وعبد ودّ . وأما اسماء سواد الناس ، فتختلف كذلك في العربية الجنوبية عنها في الشمال ، وفي المواضع الاخرى من جزيرة العرب . وقد احدث الاسلام تغييراً كبيراً في الاسماء ، فاجتث منها كلّ ما له صلة بالوثنيـة وبالأوثان ، وجاء بتسميات لم تكن شائعة بين الجاهليين ، مثل : محمد وعلي وأمثال ذلك من اسماء لها صلة بالرسول وبالصحابة وبتأريخ الاسلام .

ما كان العرب يسمّون به اولادهم :

وقد بحث (الجاحظ) في علل التسميات عند العرب وفي اسبابها ، فقال : (والعرب انما كانت تسمّى بكلب ، وحمار ، وحجر ، وجعل ، وحنظلة ، وقرد ، على التفاؤل بذلك . وكان الرجل اذا ولد له ذكر خرج يتعرض لزجر الطير والفأل ، فان سمع انساناً يقول حجراً ، او رأى حجراً ، سمّى ابنـه به وتفاءل فيه الشدة والصلابه والبقاء والصبر ، وأنه يحطم ما بقي . وكذلك ان سمع انساناً يقول ذئباً او رأى ذئباً ، تأول فيه الفطنة والخِبّ والمكر والكسب . وان

١ الاشتقاق (٦) ، المواهب (٢٤١) ، الحلبيه (٩٤/١ وما بعدها) ، الروض الانـف (١٠٦/١ وما بعدها) ، ابن هشام ، سيره (١٦٦/١ وما بعدها) ، تاريخ الاسلام ، للذهبي (٢٣/٧ وما بعدها) ، تفسير روح المعاني (٧٣/٤) .

كان حماراً تأول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلَد. وان كان كلباً تأول فيه الحِراسة واليقظة وبُعد الصوت والكسب وغير ذلك) . وجاء بآراء آخرين على هذه التسميّات وعلى آرائهم فيها [١] .

وتعرض (الجاحظ) الى اسماء الحيوان التي تَسمَّى بها الناس . فذكر منها : غراب ، وصُرد ، وفاختة ، وحمامة ، ويمام ، ويمامة ، وعقاب ، وقطامي ، وحجل ، وصقر ، وصفير ، وطاووس ، وطويس ، وحيقطان ، والغرانيق ، والغرنوق [٢] .

المعمرون :

وقد عمر بعض اهل الجاهلية عمراً طويلاً ، فعُدّوا من المعمَّرين في الجاهلية . وروى اهل الاخبار اخبارهم وألف بعضهم كتباً فيهم . فلأبي حاتم السجستاني مؤلف في المعمرين [٣] . والعادة عند العرب ان المرءَ اذا شاخ وكبر بالغوا في تقدير عمره ، وزادوا في سني حياته . حتى جعلوا المعمر من عاش فوق المئة عام . ولا يعد المعمر معمراً عندهم الا اذا عاش مائة وعشرين سنة وصاعداً [٤] . ولهذا ، فلا نستغرب ما يرويه اهل الاخبار عن بعضهم من انهم عاشوا فوق المئة بكثير .

ومن المعمرين : الحارث بن كعب بن عمرو بن وعلة بن خالد المذحجي . يزعمون انه عاش مائة وستين سنة . ورووا له وصية في الاخلاق والآداب والمواعظ والحكم . بيَّن فيها انه على دين شعيب النبي ، وما عليه احد من العرب غيره ، وغير أسد بن خزيمة ، وتميم بن مُرّة . وأنه لم يصافح غادراً ، ولم يتخلق بأخلاق فاجر ، ولا صبى بابنة عمّ له ولا كنة . ولا جاءته مومسة . وأوصى اولاده بالتجمع ، وبالموت في سبيل العز ، وبالحذر من الناس ، وبتزوّج الاكفاء وبتجنب الزواج من المرأة الحمقاء ، لانتقال الحمق منهن الى من يلدن . وأوصى بوصل

---

١ الحيوان (١/٣٢٥ وما بعدها) ، (هارون) .
٢ الحيوان (٧/٥٣ وما بعدها) ، (هارون) .
٣ أخبار المعمرين .
٤ أمالي المرتضى (١/٣٣٦) .

الرحم ، وبلزوم اطاعة الوالدين ، ونبذ الحقد والضغينة [1] .

ومنهم : المستوغر : وهو عمرو بن ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة . ذكروا انه عاش ثلاثمائة وعشرين ، وأدرك الاسلام او كاد يدرك اوله . ونسبوا له شعراً وحِكَماً [2] .

وحشروا في المعمَّرين : (دويد بن زيد) من قضاعـــة . ذكروا انه عاش اربعمائة سنة وستاً وخمسين سنة ونسبوا له وصية فيها : (اوصيكم بالناس شراً ، لا ترحموا لهم عبرة ، ولا تقيلوا لهم عثرة) الى آخر ذلك من وصية فيها شدة على الناس وحث لأهله على عدم الرحمة بهم ، وألا يرحموا احداً ، والا يهنوا [3] . وهي تمثل وضعاً خاصاً ورأياً لواضع هذه الوصية ولراويها من اناس زمانه ، فيها سوء ظن ، ووجوب الحـــذر والاعتماد على النفس ، حيث لا ينفع الانسان في حياته الا نفسه .

ومن المعمرين زهير بن جناب . عاش مائتي سنة وعشرين سنة . وأوقع مائتي وقعة ، وكان سيداً مطاعاً شريفاً في قومه . فيه عشر خصال لم تجتمعن في غيره من اهل زمانه ، كان سيد قومه ، وشريفهم ، وخطيبهم ، وشاعرهم ، ووافدهم الى الملوك ، وطبيبهم ، وحازي قومه ، وكان فارس قومه وله البيت فيهم . وقد نسبوا له وصية ، على عادتهم في نسبتهم الوصايا الى المعمرين . ذكروا انه اوصى بنيه فيها بوجوب التجمع ومقاومة النوائب وترك التخاذل والاتكال ، وبعدم الغرور في هذه الدنيا ، فانما الانسان في هذه الدنيا عَرَضٌ تعاورُه الرماة فمقصِّر دونه ، ومجاوز موضعه ، وواقع عن يمينه وشماله ، ثم لا بد انه مصيبه . ورووا له شعراً وحكماً .

وذُكر انه كان على عهد (كليب وائل) ، ولم يكن في العرب انطق من زهير ولا أوجه منه عند الملوك ، وكان لسداد رأيه يسمى كاهناً ، ولم تجمع قضاعة لا عليه وعلى رزاح بن ربيعة [4] .

واختلف في عمر (ذو الأصبع العـــدواني) يوم مات . فذكر بعضهم انه

١ أمالي المرتضى (١/٢٣٢ وما بعدها) .
٢ أمالي المرتضى (١/٢٣٤ وما بعدها) .
٣ أمالي المرتضى (١/٢٣٦ وما بعدها) .
٤ أمالي المرتضى (١/٢٤٠ وما بعدها) .

عاش مائة وسبعين سنة . واستقل (أبو حاتم السجستاني) هذا المقدار ، فجعله ثلاثمائة سنة . وهو من (عدوان) . وأحد حكّام العرب في الجاهلية . ونسبوا له على عادتهم بالنسبة للمعمرين حكماً وشعراً[1] .

ومن المعمرين الذين دكرهم أهل الأخبار (معد يكرب الحميري) ، من آل ذي رعين ، و (الربيع بن ضبع الفزاري) . ذكر انه عاش أكثر من مائتي سنة . وانه لما بلع مائتين وأربعين سنة قال شعراً في ذلك . وقد عاش في الاسلام أيضاً وأدرك أيام معاوية[2] .

وجعلوا عمر (أبو الطحان القيني) مائتي سنة ونسبوا له حكماً وشعراً[3] . وأبى (الكلبي[4]) ان يجعل عمر (عبد المسيح بن بقيلة الغساني) ، وهو عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيّان بن بقيلة ، أقل من ثلاثمائة وخمسين سنة . وجاراه في ذلك (أبو مخنف) وآخرون . وذكروا انه عاش في الجاهلية وأدرك الاسلام فلم يسلم ، ومات نصرانياً . وذكروا ان (خالد بن الوليد) لما نزل على الحيرة ، وتحصن منه أهلها أرسلوا اليه (عبد المسيح بن بقيلة) ليكلمه فسأله خالد أسئلة عديدة . منها : أعرب أنتم أم نبط ؟ قال عبد المسيح : عرب استنبطنا ونبيط استعربنا . ثم سأله : كم أتى لك ؟ قال : ستون وثلاثمائة سنة . ثم عاد الى قومه فنصحهم بمصالحة خالد . ورووا له شعراً في دخول المسلمين الحيرة ، وكيف صار أمر (آل المنذر) ، وقد تحسر فيه على الأيام الماضية ، التي ولت حتى آل الأمر بهم ان يؤدوا الخراج الى (معدّ) التي اقتسمتهم علانية كأقسام الجزور ، يؤدون لهم الخراج ، بعد خراج كسرى وخراج من قريظة والنضير . ثم خلص الى ان الدهر هو كذلك لا يدوم على حال . فيوم من مساءة ويوم من سرور[4] .

وذكر ان بعض سادات أهل الحيرة خرج الى ظاهرها يختط داراً ، فلما احتفر

---

١ أمالي المرتضى (١/٢٤٤ وما بعدها) ، الأغاني (٣/٩٤ وما بعدها) ، الكامل ، للمبرد (٥/٩٤ وما بعدها) .
٢ أمالي المرتضى (١/٢٥٣ وما بعدها) .
٣ أمالي المرتضى (١/٢٥٧ وما بعدها) .
٤ أمالي المرتضى (١/٢٦١ وما بعدها) .

موضع الأساس ، وأمعن في الاحتفار أصاب كهيئة البيت ، فدخله فإذا رجل على سرير من رخام ، وعند رأسه كتابة : أنا عبد المسيح بن بقيلة .

حلبت الدهر أشطره حياتي ونلت من المنى بُلَغَ المزيد
وكافحت الأمور وكافحتني فلم أحفل بمعضلة كئود
وكدت أنال في الشرف الثريا ولكن لا سبيل الى الخلود [1]

وأدخلوا (النابغة الجعدي) ، واسمه (قيس بن عبد الله بن عدس) في المعمَّرين . ولكنه لم ينل من أهل الأخبار عمراً يستحق الذكر . إذْ منحوه أقصر ما يمكن من العمر بالنسبة للمعمرين . وهو عشرون ومائة سنة . وتفضل (أبو حاتم السجستاني) عليه فمنحه مائتي سنة [2] . وأبو حاتم من الكرماء جداً بالنسبة لمنح الأعمار الى المعمرين . وقد أدرك الاسلام فأسلم . ومدح الاسلام بشعر . ويذكر انه جاء الرسول وأنشده من شعره [3] .

وذكر (الجاحظ) نقلاً عن المتقدمين عليه ، انهم (ذكروا انهم وجدوا أطول أعمار الناس في ثلاثة مواضع : أولها سرو حمير ، ثم فرغانة ، ثم اليمامة ، وان في الأعراب لأعماراً أطول ، على ان لهم في ذلك كذباً كثيراً) [4] .

أصحاب العاهات :

والعمى من العاهات المعروفة بين الجاهليين . منهم من ولد أعمى ، أو أصيب بالعمى في طفولته ، ومنهم من أصابه وهو على كبر . وذكروا ان من أشراف العميان (زهرة بن كلاب) و (عبد المطلب بن هاشم) و (العبّاس بن عبد المطلب) ، وغيرهم .

و (العَوَرُ) من العاهات التي كان الجاهليون يعيبون من أصيب به . وكانوا

---

١ أمالي المرتضى (٢٦٣/١) .
٢ أمالي المرتضى (٢٦٣/١ وما بعدها) ، جمهرة اشعار العرب (٣٠١ وما بعدها) .
٣ أمالي المرتضى (٢٦٥/١ وما بعدها) ، أخبار المعمرين (٦٤ وما بعدها) ، ابن قتيبة ، الشعر والشعراء (٢٤٧ وما بعدها) ، الاصابة (٢١٨/٦ وما بعدها) ، الاغاني (١٢٧/٤ وما بعدها) .
٤ الحيوان (١٥٧/١) ، (أطول الناس أعمارا) ، (عبد السلام محمد هارون) .

يرمون العوران باللؤم والخبث . وقد أصيب بـه بعضهم في الحروب . (كأبو سفيان) فقد أصيب يومَ الطائف بالعَوَر ، وأصيب غيره في معارك أخرى [1] .

وأصيب بعض الناس بالبرص . وقـد ذكر (السكري) أسماء جماعـة من (البرص الأشراف) [2] ، ومن هؤلاء : (جذيمة الأبرش) ، الملقب بـ (الوضّاح) ، وذكر ان (الوضح) كناية عن (البرص) [3] ، وكانت قريش تخاف البرص خشية العدوى . فأخرجت (أبا عزة عمرو بن عبـد الله بن عمير بن وهب) عنها ، مخافة العدوى . فكان يكون بالليل في شُعَف الجبال ، وبالنهار يستظل في الشجر ، وسُقيَ بطنه ، فأخذ مدية فوجأ بها في معدته . فسال ذلك الماء ، فبرأ برصه ، ورجع الى مكة [4] .

ومن العاهات (الفقم) ، وهو تقدم الثنايا العليا ، فلا تقع على السفلى ، اذا ضم الرجل فاه . ثم كثر حتى صار كل معوج أفقـم [5] و (العرج) ، ومن أشهر (العرجان الأشراف) (الحارث بن أبي شمر الغساني) ، و (عبد الله ابن جُدعان) ، و (الحوفزان بن شريك الشيباني) ، و (النابغة الذبياني) ، وغيرهم [6] .

ومن المعيبات في الانسان ، ألا يكون للرجل شعر في وجهه . ويقال لمن عرى وجهه من الشعر (الكوسج) . وذكر انه الذي عرى وجهه من الشعر إلا طاقات في أسـفل حنكه ، كالأثط والثط . والثط هو القليل شعر اللحية والحاجبين . ويقال : رجـل ثَطّ ، وامرأة ثطة الحاجبين [7] . ومن الثُّط (الحارث بن أبي شمر الغساني) ، و (المنذر بن النعمان بن ماء السماء اللخمي) ، و (عبد الله ابن جُدعان) و (قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري) [8] .

---

١ المحبر (٣٠٢) ، (العوران الأشراف) .
٢ المحبر (٢٩٩) .
٣ تاج العروس (٢٤٧/٢) ، (وضح) .
٤ المحبر (٣٠١) .
٥ المحبر (٣٠٤) تاج العروس (١٤/٩) .
٦ المحبر (٣٠٤) .
٧ تاج العروس (٩١/٢) .
٨ المحبر (٣٠٥)

حياة الشبان :

ومن الشبان من كان يقضي وقته بالشراب ، وبمصاحبه القيان ، وهم أولاد اليسار والمجّان . وكان منهم من يأوي الى منزل أحدهم فيعكفون على اللهو والشُرب ، لا يعبأون ولا يكترثون [1] ومنهم شباب مكة قبل الاسلام . وكان منهم قوم مستهترون لم يبالوا بحرمة ولا بأحد ، حتى ان شباباً من شباب مكة سرق من خزانة الكعبة لينفق مما سرقه على شربه وقيانه . وقد عرف هؤلاء بـ (الفتيان) . وكانوا يقضون أوقاتهم بالشرب وبلبس الملابس النظيفة ، وبالسماع الى القيان كما عرفوا بالسخاء على من حولهم وعلى من يجتمع معهم من الفتيان . وكانوا شجعاناً ، يخرجون الى القنص والصيد . وقد أشار أهـل الأخبار الى أسمـاء بعض هؤلاء الفتيان [2] .

وشباب الجاهلية مثل شباب أهل كل زمان ، لا يختلفون عنهم بشيء ، في تأنق بعض منهم وفي محاولته اظهار شبابه تجاه البنات . فكان شباب القرى والمدن ولا سيما الوضيئون منهم وأهل الجمال يتسكعون في الأسواق وفي مواضع التجمع ، بل وحتى في المعابد ليعبثوا في كلامهم مع البنات وليتحدثوا اليهن ، شأن أي شاب في هذه الدنيا بالنسبة الى الشابات . وقد اضطر آباء وأقرباء بعض هؤلاء الشباب على تقريع أبنائهـم لتجاسرهم على بنات الحيّ . حتى منـع البعض من الشباب الجميل من التأنق في الملبس حتى لا يلفتوا اليهم أنظار البنات ، فيثرن فيهم عاطفة الجموح نحو التشبب والحب .

وذكر (محمد بن حبيب) أسماء رجال من مكة كانوا يتعممون مخافة النساء على أنفسهم من جمالهم [3] . ويظهر انهم كانوا يرخون العمائم حتى تنزل على الوجه فتخفي معالمه ، ولا يبدو عندئذ شيء من معالم جمال ذلك الشخص . ولم يذكر فيما اذا كانوا قـد فعلوا ذلك من أنفسهـم ضبطاً للنفس من الوقوع في غوى الشيطان ، وتحت تأثير سحر العيون ، أم انهم أجبروا على ذلك إجباراً ، على

---

١ المحبر (١٧٣ وما بعدها) ، تاج العروس(١٠/٢٧٥ وما بعدها) ، (فتى) تاج العروس (٩/٣٤١) ، (مجن) .

٢ المحبر (١٧٣ وما بعدها) .

٣ المحبر (ص ٢٣٢)

نحو ما كان يفعله أهل مكة بالنسبة الى المستهترين من شبابهم ، ليكون التعميم أحد الحواجز التي تحول دون سقوط عين المرأة على الشاب الجميل أو الرجل الجميل . أو انهم فعلوه هم ، على انه (موضة) و "ذي" من أزياء الشباب . ومن الرجال الذين ذكر (ابن حبيب) انهم تعمموا مخافة النساء ولم يكونوا من أهل مكة ، (امرؤ القيس بن حجر الكندي) ، و (قيس بن الخطيم) الأوسي ، و (ذو الكلاع الحميري) ، و (زيد الخيل بن مهلهل الطائي) . ولم يذكر السبب في اقحام مثل هذه الأسماء في موضوع التعمم بمكة . هل ذكرهم بمعنى انهم كانوا اذا قدموا مكة تعمموا ، خشية الوقوع في هوى النساء ، فيجلب عليهم صداعاً وصداماً مع أهل أولئك النسوة ، أو انه ذكرهم بمعنى انهم كانوا يتعممون مثل أهل مكة حذر الوقوع في الحب ، فدرج أسماءهم في هذا الموضع لهذه المناسبة .

وقد ذكر (ابن حبيب) ان (الحضر) ، وهو أحد من كان يتعمم مخافة الوقوع في حب النساء ، لم يكتف بالتعمم ، بل تبرقع أيضاً[1] . ولعله فعل ذلك بتأثير ديني . أخذ ذلك عن الرهبان والمتزمتين بدينهم من أهل الجاهلية الذين حجبوا أنفسهم عن الناس وآووا الى الغار أو قمم الجبال للتبصر والتأمل والابتعاد عن الملأ ، ولا سيما عن النساء .

الفتيان :

وعُرف شباب أبناء الأغنياء والجاه بـ (الفتيان) . وأحدهم (فتى) . ويراد به الشاب . وقد تطلق على السخيّ الكريم ، وهو من (الفتوة)[2] . وكثيراً ما نقرأ في كتب أهل الأخبار جملاً تشير الى (الفتوة) في الجاهلية ، مثل (وهو من فتيان قريش أيضاً)[3] . يريدون بذلك جماعة من أبناء الأسر عاشت عيشة شباب وعبث ، تلهو وتشرب ، وتنفق وتعطي ، وتغيث ،

١ المحبر (٢٣٢) .
٢ تاج العروس (١٠/٢٧٥) ، (فتى) .
٣ المحبر (ص ١٧٦) .

وتتسابق ، وتقتل وقتها في اللذة والاستمتاع وفي الانفاق على الجسد ، على نحو ما يفعله أبناء الطبقة المترفة في كل وقت . وقد كانت لها نجدة وشهامة ، اذا استُنجد بأحدها هبّ لنجدة المستنجد ودافع عنه .

الأحامرة :

والحياة عند بعض الناس : خمر ولحم وخُلوق . فهي متع الحياة عندهم . قال الأعشى :

إن الأحامرة الثلاثة أهلكت مالي وكنت بها قديماً مولعاً
الخمر واللحم السمين وأطّلي بالزعفران فلن أزال مبقعا[1]

والحياة عند البعض خمرٌ ونساء . واتهمت المرأة بحبها الحليّ والطيب . ورد : (أهلك النساء الأحمران . يعنون الذهب والزعفران ، أي أهلكهن حب الحليّ والطيب) . وورد (الأحمران : اللحم والخمر) . ويقال للذهب والزعفران : الأصفران ، وللماء واللبن الأبيضان ، وللتمر والماء الأسودان . وفي الحديث : أعطيت الكنزين الأحمر والأبيض . والأحمر الذهب والأبيض الفضة . والذهب كنوز الروم ، لأنها الغالب على نقودهم . وقيل أراد العرب والعجم . وقيل : الأحامرة : اللحم والخمر والخلوق . وورد الأحمران : الخمور والبرود[2] .

الخمور :

وفي مجتمع الحياة فيه على وتيرة واحدة ، والفراغ فيه أكثر من العمل ، ومرافق اللهو والتسلية فيه قليلة أو معدومة ، والفقر فيه أكثر من الغنى ، وتشغيل الفكر فيه محدود ضيق – في مجتمع كهذا المجتمع لا بد وان يقبل الناس فيه على قتل فراغهم بالبحث عن شيء ينسيهم فراغهم وفقرهم وشدة حاجتهم ، ويلهيهم عن قساوة الطبيعة عليهم ، ويبعث فيهم الأمل والطرب والنشوة ، والشعور بأنهم

---

١ تاج العروس (٣/١٥٤) ، (حمر) .
٢ تاج العروس (٣/١٥٤) ، (حمر) ، الحيوان (٣/٢٤٩) ، (هارون) .

سادة ملكوا الدنيا ، وان كل واحد منهم هو (رب الخورنق والسدير)[1] ، فكان اقبالهم على الخمر شديداً ، حتى أفرطوا في شربه وآذى بعضهم نفسه من شدة إقباله عليه ، فصار آفة من الآفات ، حتى ضحى شاربه بمركزه وماله في سبيله ، فكان ذلك من عوامل تحريمه في الاسلام .

وقد كان الخمر من متع الحياة الثلاث بالنسبة للشباب . والمتع الثلاث : الخمر والقمار والنساء[2] . فاذا أضيفت الشجاعة اليها صار الفتى من خيرة الفتيان ، لذلك كان الشباب يفتخرون اذا جمعوا بين هذه المتع ويتباهون على غيرهم بها . وربما ارتكبوا المعاصي والمخالفات في سبيل الحصول على المال للانفاق على متعهم هذه وعلى ملذاتهم وملاهيهم في هذه الحياة .

ومن أسماء الخمر : العقار ، سُميت لمعاقرتها أي لملازمتها الدن . والمعاقرة الإدمان ومعاقرة الخمر إدمان شربها . وقيل سميت عقاراً لأن أصحابها يعاقرونها أي يلازمونها أو لعقرها شاربها عن المشي ، وقيل هي التي لا تلبث ان تُسكر[3] .

والسكران نقيض الصاحي . والسكر حالة تعترض بين المرء وعقله . وأكثر ما يستعمل ذلك في الشراب المسكر . و (السكّير) الكثير السكر[4] . و (المدمن) هو الملازم للشراب وغيره ، لم يقلع عنه ، فهو يلازمه ولا يقلع عن شربه أو شرب الخمر[5] .

وقد أدمن كثير من أهل الجاهلية على شرب الخمر ، وهلك قسم منهم بسببها . وقد حذر من ذلك الاسلام فورد : « مدمن الخمر كعابد الوثن »[6] ، و « لا يدخل الجنة مدمن خمر »[7] .

١ واذا سكرت فانني رب الخورنق والسدير واذا صحوت فانني رب الشويهة والبعير
وقال حسان بن ثابت :
ونشربها فتتركنا ملوكا وأسدا ما ينهنهنا اللقاء
٢ التبريزي ، شرح القصائد العشر (٤٣) .
٣ تاج العروس (٤١٧/٣) ، (عقر) .
٤ تاج العروس (٢٧٣/٣ وما بعدها) ، (سكر) .
٥ اللسان (١٥٩/١٣) ، (دمن) .
٦ اللسان (١٥٩/١٣) ، (دمن) .
٧ المستطرف (٢٢٩/٢) .

وعرف علماء اللغة (الخمر) بما أسكر من عصير العنب ومن عصير كل شيء يُسكر . ولما نزل الأمر بتحريم الخمر ، كان شرابهم بالمدينة يومئذ الفضيخ ، البُسْر والتمر في الغالب [1] . غير ان الجاهليين كانوا يصنعون الخمر من أي شيء يقع في أيديهم مما يمكن تخميره للحصول على مادة مسكرة منه مثل الحبوب الأعشاب وغير ذلك ، بل كان منهم من يخمر اللبن ، ولا سيما ألبان الإبل ، للانتشاء بها . و (النشوة) السكر [2] .

وكان أهل المدينة يسقون ضيوفهم شراباً من الفضيخ . فاذا جاءهم ضيف سقوه منه . كانوا يضعونه في قِلال وجِرار وهو خليط من بسر وتمر ، ومن تمر وزَهْو . والزهو [3] هو البسر الملون الذي ظهرت فيه الحمرة والصفرة [4] ، كما كانوا يصنعونها من خلط الزبيب والتمر [5] أيضاً . وكانوا يجلسون مجلسهم ، ويسقيهم أحد أبناء صاحب الدار أو خادم من خدمه : من قلال أو كؤوس يدور بها عليهم قليلاً قليلاً [6] .

واستخرج أهل اليمن من الشعير شراباً عرف عندهم باسم (المزر) [7] . وذكر ان (المزر) نبيذ الذرة والشعير والحنطة والحبوب ، وقيل : نبيذ الذرة خاصةً . وذكر أبو عبيد ان ابن عمر فَسَّر الأنبذة ، فقال : البِتع نبيذ العسل ، والجعة نبيذ الشعير ، والمزر من الذرة ، والسكر من التمر ، والخمر من العنب [8] .

وورد ان أهل اليمن كانوا يتخذون شراباً مسكراً من القمح يستعينون به على برد بلادهم ويتقوّون به على عملهم . وقد منعوا عن ذلك في الاسلام حين نزل الأمر بتحريم الخمور [9] .

١ تاج العروس ٣/١٨٦ وما بعدها) ، (خمر) ، صحيح مسلم (٦/٨٥) ، (باب تحريم الخمر) .
٢ تاج العروس (١٠/٣٦٨) ، (نشي) .
٣ بفتح الزاي وسكون الهاء وبالواو ، وقد تضم الزاي .
٤ صحيح مسلم (٦/٨٧ وما بعدها) .
٥ صحيح مسلم (٦/٨٩) .
٦ تاج العروس (٣/٥٤١) .
٧ صحيح مسلم (٦/٩٩) .
٨ تاج العروس (٣/٥٤١) ، (مزر) ، الاصابة (١/٤٦٦) .
٩ الاصابة (١/٤٦٦) ، (رقم ٢٤٠٩) .

ومن الخمور نوع اشتهر في العراق باسم (الخمور الصريفية) نُسبت الى قرية (صريفون) عند (عكبراء) في العراق ، وإياها عنى الأعشى بقوله :

وتجبى اليه السيلحون ودونها صريفون في أنهارها والخَوَرْنَقُ

ووصف الأعشى في شعر آخر الخمر الصريفية فقال :

تعاطي الضجيع اذا أقبلت بُعَيْدَ الرقاد وعند الوَسَنْ
صريفيةً طيبٌ طعمهـا لها زبد بين كوُب ودن

وذكر بعض العلماء انها إنما عرفت بصريفية ، لأنها أُخذت من الدن ساعتئذ كاللبن الصريف[1] .

وكانوا يضعون خمرهم في زِقّ يحملونه معهم ، فأينما يكون الانسان يكون خمره معه . وقد كانوا يكثرون من استعماله كما يظهر ذلك من روايات أهـل الأخبار مع فقر شاربها وعدم وجود طعام عنده . أما في المدن والقرى والحواضر ، فهناك خمارات ، جمعت الى الخمر وسائل المتع الأخرى ، يقصدها أهل المكان والغرباء للاستمتاع بها ، والترفيه عن خاطرهم . وقد هيأت بعض الخمارات المغنين فيها وجلبوا الى حاناتهم أنواع الخمور .

وكانت الخمارات منتشرة في كل مكان ، ولا سيما على الطرق . حيث ينزل بها المسافرون للاستراحة واستعادة النشاط بعد تعب ونصب . وكان بمكة وبسائر القرى خمارات كذلك . أصحابها نصارى ويهود في الغالب . ومعظمهم من غير العرب ، وفدوا من الخارج للتكسب والعيش فامتهنوا مهنة بيع الخمر وإسقائهـا للناس . وقـد عرفت (الخمارة) بالحانوت . يذكر علماء اللغة ان (الحانوت دكان الخمر) . وقـد أشير الى بالحانوت في الشعر الجاهـلي . وكانت العرب تسمي بيوت الخمارين الحوانيت . وأهل العراق يسمونها المواخير . وورد ان الخليفة (عمـر) أحرق بيت (رويشد الثقفي) ، وكان حانوتـاً يعاقر فيـه الخمر ويباع[2] . وعرفت (الخمارة) بالدكة أيضاً[3] .

---

١ تاج العروس (٦/١٦٤) ، (صرف) .
٢ تاج العروس (١/٥٣٩) ، (حانوت) .
٣ تاج العروس (٩/٢٠١) ، (دكن) .

وقد يجتمع فتيان من مواضع شتى للشرب ، فيقال لهم (الأندرون) . يتنادرون فيما بينهم بما شذّ وخرج من الجمهور . وذكر ان قول عمرو بن كلثوم :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

هو في هذا المعنى [1] .

وقد تاجر اليهود بالخمر ، وفتحوا لهم الحانات في الأماكن التي أقاموا بها من جزيرة العرب ، فقصدها الناس للشرب . ومن جملتهم الشاعر الأعشى الذي كان كلفاً بشرب الخمر حريصاً على تعاطيها ، قيل انه عزم على الدخول في الاسلام وأراد الذهاب الى الرسول لينشده ويعلن أمامه دخوله في الاسلام ، ونظم شعراً في مدحه ، فأدرك (أبو سفيان) ما في شعر (الأعشى) في مدح الرسول والاسلام من أثر في تصرفه وفي إضعاف قريش ، فلقيه وحادثه وكلّمه وجاءه من ناحية نقطة الضعف التي كانت فيه . وهي حبّه للخمرة . فهيّج أشجانه فيها ، وأظهر له كيف ان الاسلام حرّمها على المسلمين ، وجعل في شربها الحدّ ، فهو سيُحرم من متعته الوحيدة التي بقيت له في حياته ان دخل في الاسلام . وأثار فيه الحنين اليها ، ورغّبه في الذهاب الى قومه والمكوث هناك سنة يشربها ، ثم يرى رأيه بعد ذلك ، فإما ان يستمر على شربها ، واما ان يعافها ويدخل في الاسلام ، على ان يأخذ مقابل ذلك مائة من الإبل . فأثر كلام (أبو سفيان) فيه ، وأخذ الإبل وذهب بها الى قومه وأقام بـ (منفوحة) حتى مات بها قبل الحول [2] .

وذكر (بلينيوس) ان العرب كانوا يصنعون الخمر من النخيل ، وذلك كما يفعل سكان الهند [3] . ويقصد بذلك التمور بالطبع . وقد ذكر ذلك من باب التنويه بالأمور الغريبة . فليس استخراج الخمر من التمور مألوفاً عند اليونان والرومان .

---

١ تاج العروس (٣/٥٦٠) ، (ندر) .

٢ جمهرة أشعار العرب (٥٦) ، الشعر والشعراء (١٣٥) ، الأغاني (٨/٧٧) ، (١٠/١٤٣) ، (١٥/٥٢) ، (١٦/١٦٠) ، المحبر (٣٢١) .

٣ مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الثالث ، الجزء الاول ، (ص ١٣٩) ، (١٩٥٤م) ، (بلاد العرب : من تاريخ بلينيوس) .

ولهذا السبب أشار اليه ، ليقف عليه قومه . غير ان العرب كانوا يستخرجون النبيذ من الكروم أيضاً ، وذلك في الأماكن التي توفرت فيهـا الكروم ، مثل الطائف واليمن . وقد أشار (سترابون) الى صنع الخمر من التمر [1] .

أما خمور العرب فمن البتع ، وهو نبيذ العسل ، وهو خمر أهـل اليمن . ومن التمر ومن البُرّ والشعير والزبيب . ولأهل اليمن شراب من الشعير ، يقال له المزر ، أشرت قبل قليل اليه [2] .

وشرب الجاهليون أشربة استخرجوها من الذرة ومن مواد أخرى . فقد صنع أهل اليمن (المزر) من الذرة أيضاً . فلما أسلم قوم منهم سألوا الرسول عنه . فقال لهم : أله نشوة ؟ فلما قالوا له : نعم ، قال : فلا تشربوه [3] .

وانتبذوا في (النقير) : أصل النخلة ينقر فينبذ فيه ، فيشتدّ نبيذه . وذُكر ان أهل اليمامـة كانوا ينقرون أصل النخلة ثم يشدخون فيهـا الرطب والبسر ثم يدعونه حتى يهـدر ثم يموت [4] وانتبذوا في (الحنتم) : الجرار الخضر ، وفي (الدبّاء) ، اليقطين ، وفي (المزفت) أي ما طلي بالزفت [5] .

ومن الخمور (المقدى) . يتخذ من العسل على بعض الروايات . يقال انه من قرية تسمى (المقدة) بالأردن ، وقيل هي في طرف حوران قرب أذرعات [6] .

وللخمر أسماء عديدة ، ذكرها علماء اللغة . منها ما هي معربة . عربت عن اليونانيـة ، أو الفارسية ، أو السريانية ، لأنهـا استوردت من بلاد الشام ، أو العراق [7] .

ومن الخمور خمر يقال له : (الاسفنط) . وهو المطيَّب من عصير العنب .

---

١ مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الثاني ، (١٩٥٢ م) ، (ص ٢٦٧) .
٢ العقد الفريد (٦/٣٥٦) .
٣ الاصابة (١/١٣٣) .
٤ تاج العروس (٣/٥٨١) ، (نقر) .
٥ القسطلاني ، ارشاد الساري (٦/١١) .
٦ تاج العروس (٢/٤٦٠ وما بعدها) ، (قد) .
٧ راجع كتب اللغة والأدب .

وقيل هي خمر فيها أفاويه ، أو أعلى الخمر وصفوتها . وذكر ان اللفظة (رومية) . قال الأعشى :

وكان الخمر العتيق من الا سفنط ممزوجة بماء زلال
باكرتها الأغراب في سنة النو م فتجرى خلال شوك السيال [١]

واستعمل الجاهليون أواني الشرب المصنوعة من الزجاج والباور ومن الذهب والفضة ، واستعملوا أواني أخرى تتناسب مع منزلة الشارب ومكانته . وقد كان ملوك الحيرة وملوك الغساسنة يشربون بالآنية الغالية ، وبعضها منقوش . وكذلك تفنن أغنياء مكة في الشرب ، فاستعمل عبد الله بن جُدعان الأواني المصنوعة من الذهب في شربه ، حتى ضرب به المثل ، فقيل : (أقرى من حاسي الذهب) ، وعرف بـ (حاسي الذهب) . وشرب غيره من أصحاب الثراء بأواني غالية استوردوها من الخارج ، على حين كان أكثر سكان مكة فقراء لا يملكون شيئاً . ولهذا ورد في الحديث النهي عن الشرب بآنية الذهب والفضة [٢] . وقد ذكر ان النابغة الذبياني ، وهو من شعراء الجاهلية الكبار ، كان لا يأكل ويشرب إلا في آنية الذهب والفضة ، من عطايا النعمان وأبيه وجدّه ، ولا يستعمل غير ذلك [٣] .

وحرم قوم من الجاهليين الخمر على انفسهم ، وأكثرهم ممن يسمّون الأحناف ، ومنهم من كان يشربها ويقبل عليها ، ولكنه وجد نفسه وقد قام بأعمال لم يرتضيها ، جعلته يشعر بالخجل منها ، فتركها وحرمها على نفسه . ويذكر اهل الاخبار ان اول من حرمها على نفسه وامتنع منها في الجاهلية ، هو (الوليد بن المغيرة) . وهو رجل ينسب اليه اهل الاخبار جملة امور ، منها انه اول من خلع نعليه لدخول الكعبة في الجاهلية ، فخلع الناس نعالهم في الاسلام ، وأول من قضى بالقسامة في الجاهلية فأقرها الاسلام ، وأول من قطع في السرقة في الجاهلية ، فأقرّها

---

١ تاج العروس (٥/١٥٤) ، (الاسفنط) .
٢ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الثاني (ص ٢٩٣) ، بلوغ الأرب (١/٨٧) .
٣ بلوغ الأرب (٣/٢٢) .

الاسلام . ويذكرون ان الجاهليين كانوا يقولون : « لاوَثَوْبَيْ الوليد ، الخلق منها والجديد »[1] .

وممن ترك الخمر في الجاهلية (عبد الله بن جدعان) ، وسبب تركه لها انه شرب مع اميـة بن ابـي الصلت الثقفي ، فلطم وجه (امية) بعد ان ثمل ، فأصبحت عينه مخضرّة فخاف عليها الذهاب ، فسأله عبد الله : ما بال عينك ؟ فقال : انت اصبتها البارحة . قال : وبلغ مني الشراب ما ابلغ معه من جليسي هذا المبلغ ، فأعطاه عشرة آلاف درهم ، وقال : الخمر عليّ حرام ، لا أذوقها ابداً[2] . وذكر ايضاً انه سكر فجعل يساور القمر . فلما اصبح أُخبر بذلك ، فحرمها[3] . الى غير ذلك من قصص .

وممن حرمها في الجاهلية ، قيس بن عاصم المنقري ، وعامر بن الظرب العدواني ، وصفوان بن أُمية بن محرث الكناني ، وعفيف بن معديكرب الكندي ، والاسلوم ابن اليامي من َهمْدان ، ومقيس بن عديّ السهمي ، والعباس بن مرداس السلمي ، وسعيد بن ربيعة بن عبد شمس ، وورقة بن نوفل ، والوليد بن المغيرة ، وأبوه اميه بن المغيرة ، والحارث بن عبيد المخزومي ، وزيد بن عمر بن نفيل ، وعامر ابن جذيم الجمحي ، وأبو ذر الغفاري ، ويزيد بن جعونة الليثي ، وأبو واقد الحارث بن عوف الكناني ، وعمرو بن عَبَسَة ، وقسّ بن ساعدة الإيادي ، وعبيد ابن الابرص ، وزهير بن ابـي سُلْمى المزني ، والنابغتان الذبياني والجعدي ، وحنظلة الراهب بن ابي عامر ، وقبيصة بن اياس الطائي ، واياس بن قبيصة بن ابـي غفر ، وحاتم الطائي ، و (سويد بن عدي بن عمرو بن سلسلة الطائي)[4] .

وذكر ان ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية : (بشير الثقفي) . وكان نذر في الجاهلية الا يأكل الجزور ولا يشرب الخمر[5] .

---

١ المعارف (ص ٢٤٠) .
٢ نهاية الأرب (٨٨/٤) .
٣ المحبر (٢٣٧) .
٤ المحبر (ص ٢٣٧ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٨٨/٤ وما بعدها) ، بلـوغ الأرب (٢٩٤/٢ وما بعدها) ، الأمالي ، للقالي (٢٠٤/١ وما بعدها) ، الأغاني (٩/٥) ، (بيروت) .
٥ الاصابة (١٦٠/١) .

وروي ان (عفيف بن معديكرب الكندي) ، عم الأشعث بن قيس ، كان قد طلق الخمر وحرّمها على نفسه وحرّم معها القمار والزنى ، والثلاثة من اهم وسائل التلهي والتمتع بالحياة عند الجاهليين [1] . وكان قيس بن عاصم يأتيه في الجاهلية تاجر خمر فيبتاع منه ولا يزال الخمار في جواره حتى ينفد ما عنده . فشرب قيس ذات يوم فسكر سكراً قبيحاً ، فجذب ابنته وتناول ثوبها، ورأى القمر فتكلم بشيء ثم نهب ماله ومال الخمار . فلما صحا اخبرته ابنته بما صنع وما قال فآلى لا يذوق الخمر [2] .

وبعض هؤلاء هم من الحنفاء ، وبعضهم من السادة الأشراف الذين لم يتذوقوها ، او انهم تعاطوها ثم رأوا ضررها فتركوها وحرموها على انفسهم . ويظهر ان بعضهم قد حرمها على نفسه وعلى آله ايضاً ، فذكر مثلاً ان الوليد بن المغيرة ضرب فيها ابنه هشاماً على شربها ، ولعلّ منهم من كان يستعمل الحدّ ، وهو الجزاء الذي قرره الاسلام على شاربي الخمر .

وقد اشار اهل الاخبار الى وقوع حوادث لأكثر من ذكرتهم دفعتْ بهم الى تحريم الخمر على انفسهم ، كالذي ذكرته من امر عبد الله بن جدعان ، وكالذي اشار اليه اهل الاخبار من تحرش بعضهم بمحارمهم تحرشاً لا يفعله انسان سويّ ، او تخليطهم اثناء سكرهم وقيامهم بأعمال مضحكة صيّرتهم سخرية للحاضرين ، فلما صحوا وسمعوا بما فعلوا ندموا على ما بدا منهم ، وقرروا اجتنابها وتحريمها على انفسهم منذ ذلك اليوم [3] .

وكان الجاهليون يشتدون على النساء في شرب الخمر حتى لم يُحفظ انّ امرأة سكرت [4] .

المخدرات :

لم اعثر على نص جاهلي جاء فيه ذكر لاستعمال اهل الجاهلية للمخدرات ، ولم

---

١ بلوغ الأرب (٢/٢٩٤) .
٢ بلوغ الأرب (٢/٢٩٧) .
٣ المحبر (ص ٢٣٧ وما بعدها) .
٤ بلوغ الأرب (٢/٢٩٧ وما بعدها) .

اعثر في اخبار اهل الاخبار على خبر يفيد تعاطي الجاهليين لها . ولكن هذا لا يعني نفي معرفة عرب الجاهلية بالمخدرات ، ويظهر ان إفراطهم في تناول الخمور ووجود الخمور الرخيصة لديهم ، وتحضيرهم لها بطرق بدائية رخيصة ، وتخدرهم بها ، كانت من الأمور التي صرفتهم عن استعمال المخدرات الاخرى التي ربما زاد ثمنها على ثمن الخمر .

الانتحار بشرب الخمر :

وقد قتل بعض الجاهليين انفسهم بشرب الخمر صرفاً ، ذكر (السكّري) منهم (عمرو بن كلثوم الثعلبي) . وكانت الملوك تبعث اليه بحبائه وهو في منزله من غير ان يفد اليها . فلما ساد ابنه الأسود بن عمرو ، بعث اليه بعض الملوك بحبائه كما بعث الى ابيه ، فغضب (عمرو) وقال : (ساواني بولدي) ، وحلف لا يذوق دسماً حتى يموت ، وجعل يشرب الخمر صرفاً على غير طعام ، فلم يزل يشرب حتى مات [1] .

وأهلك (البرجُ بن مسهر الطائي) نفسه بشرب الخمر الصرف كذلك ، في قصة ذكرها (السكري) [2] .

و (زهير بن جناب بن هبل) ، هو ممن أتلف نفسه بشرب الخمر ايضاً ، لما خالفه ابن اخيه عبد الله بن عليم بن جناب ، فانزعج من ذلك وغضب ، وأمات نفسه بشرب الخمر . ذكر انه قال في ابن اخيه : (عدوّ الرجل ابن اخيه ، غير انه لا يَدَعُ قاتل عمه) [3] .

وذكر ان (ابا براء بن مالك بن جعفر) ، قتل نفسه بشرب الخمر ايضاً ، انتحر لمخالفة قومه امره . فدعا قَيْنَتَيْنِ له ، فشرب ، وغنتاه ، ثم دعا بالشاعر (لبيد) ، وطلب منه ان يقول ما يقول فيه من المراثي ، فلما اثقله الشراب ، اتكأ على سيفه حتى مات [4] .

---

١ المحبر (٤٧١) .
٢ المحبر (٤٧١) .
٣ المحبر (٤٧١) ، الاصابة (٢/٢٤٩) ، (رقم ٤٤٢٣) .
٤ المحبر (٤٧٢ وما بعدها) ، الاصابة (٢/٢٤٩) ، (٤٤٢٣) .

الاغتيال :

الغيلة : هي الخديعة وايصال الشر او القتل الى انسان من حيث لا يعلم ولا يشعر [1] . وقد كان معروفاً بين الجاهليين ، شجع على ظهوره وانتشاره بينهم عرف الأخذ بالثأر ، والتنافس الذي كان بينهم على الرئاسة والوجاهة ، وقواعد مجتمع ذلك الوقت التي كانت تقيم وزناً كبيراً للكلمة ، وللمدح والهجاء ، ولتقديم شخص على شخص في الجلوس في مجلس من المجالس ، فكانت هذه الامور وأمثالها تدفع من يتعرض لها على الانتقام ممن اهانه والتربص به وتتبع آثاره حتى يتمكن من قتله او اغتياله .

وقد اتبع المغتالون اساليب شتى في الاغتيال . منها الطعن بالرمح او بالخنجر او بالسكين ، ومنها الذبح ، والخنق ، ومنها اللجوء الى الحيلة بدس السم في الشراب او الطعام ، الى غير ذلك من اسباب الغيلة .

والغيلة غير الفتك . ذُكر ان الفتك ان يقتل الرجل الرجلَ مجاهرة . وهو ان يأتي الرجل صاحبه وهو غارٌ غافل حتى يشد عليه فيقتله ، وان لم يكن اعطاه اماناً قبل ذلك ، ولكن ينبغي له ان يعلمه ذلك .

قال المخبل السعدي :

وإذْ فتك النعمان بالناس محرما فمن ليَ من عوف بن كعبٍ سلاسله

وكان النعمان بعث الى (بني عوف بن كعب) جيشاً في الشهر الحرام ، وهم آمنون غارون فقتل فيهم وسبا [2] .

ولمحمد بن حبيب السكري ، كتاب ذكر فيه اسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والاسلام ، وأسماء من قُتل من الشعراء [3] . بدأ فيه بـ (جذيمة الأبرش)

١ تاج العروس (٥٣/٨) ، (غيل) .
٢ تاج العروس (١٦٦/٧) ، (فتك) .
٣ نوادر المخطوطات ، (القاهرة ١٩٥٤ م) ، المجموعة السادسة (تحقيق عبد السلام هارون) .

الذي غدرت به (الزباء) ملكة (تدمر) ، فأجلسته على نطع ، وسقته الخمر ، ثم أمرت بقطع رواهشه ، حتى مات . ثم ثنى بـ (حسان بن تبع) ، فزعم ان اخاه قتله غيلة وهو نائم على فراشه ، طمعاً في ملكه ، ثم تكلم عن (عمليق) ملك طسم ، وكانت منازلهم (عنزة) في موضع اليمامة [1] . وذكر في جملة من ذكرهم اسم (عمرو بن مسعود) و (خالد بن نضلة) من بني (أسد) . وكانت أسد وغطفـــان حلفاء لا يدينون ويغيرون عليهم ، فوفدا سنة من السنين ومعهما (سبرة بن عمير الفقعسي) الشاعر ، على (المنذر) الأكبر اللخمي ، فكلّمهما في أمر دخولهما في طاعته والذب عنه كما ذبت (تميم) و (ربيعة) ، فعلم انهم لا يدينون له . فقرر الكيد بهما ، فأومأ الى الساقي فسقاهما سماً ، فماتا ، ثم ندم على ما فعل ، فأمر فحُفر لهما قبران ودفنا فيهما ، وبنى عليهما منارتين ، وهما (الغريان) وعقر على كل قبر خمسين فرساً وخمسين بعيراً ، وغرّاهما بدمائهما ، وجعل يومَ نادمهما يوم نعيم ، ويوم دفنهما يوم بؤس [2] .

وقد كان خنق الأشخاص في جملة وسائل الاغتيال والتخلص من الأعداء ، وقد ذُكر ان الملك (النعمان بن المنذر) ، أمر بخنق (عدي بن زيد العبادي) ، فمات منه . ويكون الخنق بالضغط الشديد على الرقبة باليد ، وباستعمال الحبل او قطع القماش . ويقال للحبل الذي يخنق به (الخناق) [3] .

وذكر ان (الحكم بن الطفيل) ، لما انهزم في نفر من أصحابه يوم (الرقم) (حتى انتهوا الى ماء يقال له المرورات ، فقطع العطش أعناقهم فماتوا ، وخنق ابن الطفيل نفسه مخافة المثلة ، فقال في ذلك عروة بن الورد :

عجبت لهم اذ يخنقـــون نفوسهم   ومَقتلهم تحت الوغى كان أعذرا [4]

الصيد :

والصيد في جزيرة العرب رغبة وحاجة . رغبة للملوك والرؤساء والاثرياء للأنس

---

١ (ص ١١٧) .
٢ (ص ١٣٣ وما بعدها)
٣ تاج العروس (٦/٣٣٩) ، (خنق) .
٤ ديوان عروة (١٣٥) ، نهاية الارب (١٥/٣٦٤) .

والترويح عن النفس، وحاجة عند السواد وهم فقراء في الغالب لا يملكون شيئاً، فلحم الصيد نعمة كبرى لهم وغذاء طيب لا يصل اليهم دائماً.

اما اصطياد الرؤساء والاثرياء فبالاستعانة بالصقور في الغالب، حتى اذا قيل كُنّا نتصقر، انصرف الذهن في الحال الى الصيد، لاستعمال الطيور في الصيد، حيث تُدرَّب تدريباً خاصاً وتعلم تعليماً متقناً، فاذا رأت الحيوان انقضت عليه، فلا تتركه يستطيع الحركة والهرب الى ان يصل الصياد الى الفريسة المسكينة. ويدعى قيّم الصقور ومعلمها «الصقّار». وتستعمل كلاب الصيد كذلك، وهي كلاب سريعة مدربة تدريباً خاصاً، فاذا رأت الصقر فوق الفريسة عَدَت خلفها لتساعد الصقر في القبض على الحيوان فلا يهرب ويولي. ومنها ما تفتش عن مواضع اختفاء الحيوانات، فاذا شعرت بوجود حيوان في كهف او مغارة تدخل اليها او تقوم بحركات تضطره الى الخروج فيصطاده الصياد. وقد تستعمل الخيل كذلك. وهي لم تكن كثيرة في الجاهلية، ولا يملكها الا المتمكنون.

وقد ذكر الصيد في آيات من القرآن الكريم، مما يدل على اهميته ومكانته في حياة العرب يومئذ. ويقال للصيّاد القانص كذلك. وأما استثارة الصيد واخراجه، فيعبّر عن ذلك بلفظة «النَّجش»، والمنجاش والنجاش هو المثير للصيد. ويقال: هَبِص الكلب اذا حرص على الصيد وقلق نحوه، ويقال ايضاً: غَرَّبت الكلاب، اذا امعنت في طلب الصيد.

وكانت العرب تعيش في الغالب بلحوم الصيد، وكانت خيلهم تسهل عليهم نيل صيدهم، وتعينهم على الوصول الى غايتهم. فكانت عندهم من اعز الأموال وأثمن الأشياء يُعتنى بها اعتناء الرجل بنفسه، ولولاها حُرم من لذة أكل اللحوم. وكانت اذا اغارتها على صيد، خضبوا نحر السابق بدم ما يمسكونه من الصيد، علامة على كونه السبّاق الذي لا يدرك في الغارات [1].

ولأهل الجاهلية عناية خاصة بـ (الصقور). يربّونها تربية خاصة. وذكر علماء اللغة ان كل شيء يصيد من البزاة والشواهين، صقر. وقد اشير الى صيد (الصقور) في الحديث [2].

١ بلوغ الأرب (٣/١٨).
٢ تاج العروس (٣/٣٣٩)، (صقر).

وقد استعانوا بالكلاب السريعة الجري في الصيد كذلك. وقد عُنوا بتربية أنواع ذكيّة سريعة الجري منها لمطاردة الفريسة، اذا ادركتها نهشتها او قبضت عليها، فيأتي الصياد، فيأخذها منها.

ويتحايل الصيادون في الاصطياد، فيحفرون حفيرة تلجَّف من جوانبها، اي يجعل لها نواحي، وتعرف عندهم بالقُرْموص، وذلك للتمويه على الحيوان. وقد يتخذ الصياد او اي شخص آخر موضعاً فوق اطراف الشجر والنخل خوفاً من الأسد، فيقال لذلك «العرزال». وأما «الزُّبيــة» فحفرة تحتفر للأسد، وكذلك «الزونة»، و «القُتْرة» حفرة يحتفرها الصائد يكمن فيها حتى لا يشعر به الصيد. وقد يدخِّن الصائد في قترته لكيلا تجد الوحش ريحه، ويقال لذلك «المُدَّمر». و «الروق» موضع الصائد، و «الدُّجية» قترة الصائد. وهناك ألفاظ اخرى من هذا القبيل يراد بها الحفَر التي يستتر بها الصيادون في الصيد.

ويستخدم الصيادون جملة ادوات في الاصطياد، منها آلة تسمى «الجَرّة»، وهي خشبة نحو الذراع يجعل في رأسها كِفة وفي وسطها حبل، فاذا نشب فيها الظبي ناوصها واضطرب، فاذا غلبته استقر فيها. و «الحِبالة» الحبل الذي يصاد به. و «الأحبول» حبالة الصائد. وأما «الشرك» فحبائل الصائد والواحدة «شركة»، و «المصلاة» شرك ينصب للصيد، و «الكَصيصة» حبالة الظبي التي يصاد بها. وهناك آلة تشبه المنجل تشدّ بحبالة الصائد ليختطف به الظبي يقال لها «الخاطوف». وأما «الرداعة» فمثل البيت تجعل فيه لَحْمة يصيد الصياد به الضبع والذئب. ويتخذ الصيادون بيتاً يبنونه من حجارة، ثم يجعلون على بابه حجراً يقال له السهم. والملِسْن يكون على الباب، ويجعلون لحمة السبع في مؤخر البيت فاذا دخل السبع لتناول اللحمة، سقط الحجر على الباب فسدّها، وبذلك يحبس، فلا يستطيع الخروج. ويقال لذلك البيت «الرواحة». وأما «الجَرِيئة»، فانها بمعنى «الرداعة». ولعرقبة الحمير الوحشية تستعمل آلة خاصة تشبه الهلال يقال لها «هلال الصيد».

وتستعمــل الشباك في الصيد كذلك. تستعمل في صيد البحر والبر. ويغدف الصياد بالشبكة على الصيد ليأخذه. وأما القصبة التي تصاد بها العصافير، فيقال لها الغاية. والغاية الراية كذلك. وأما «الرامق» و الرامج» فبمعنى الملواح الذي يصاد به البُزاة والصقور، وهو أن يؤتى ببومة فيُشدّ في رجلها شيء أسود،

ويخاط عيناها . ويشدّ في ساقيها خيط طويل ، فاذا وقع عليهـا البازي صاده الصياد من قترته . ويقال انها لفظة عجمية . وقد تُعْشى الطيور بالليل بالنار ليصيدوها ، ويعبرون عن ذلك بجملة : قمر القومُ الطيرَ .

و « المِفقاس » عودان يشدّ طرفاهما بخيط ، كالذي في وسط الفخ ، ثم يُلْوى أحدهما ، ثم يجعل بينهما شيء يشدهما ، ثم يوضع فوقها الشركة ، فاذا اصابها شيء ، وثبت ، ثم اغلقت الشركة في الصيد . والعطوف والعاطوف مصيدة فيها خشبة منعطفة الرأس ، والمِقْلة والقُلة عود يجعل في وسطه حبل ، ثم يدفن ، ويجعل للحبل كِفة فيها عيدان ، فاذا وطىء الظبي عليها عضت على اطراف اكارعه . وأما الدّواحيل فخشبات على رؤوسها خِرق ، كأنها طرّادات قصار ، تركز في الارض لصيد حمر الوحش . وأما البُجّة ، فانها « الرداحة » . وأما « اللُّبجة » ، فانها حديدة ذات شُعب كأنها كفّ بأصابعه تَنْفرِج ، فيوضع في وسطها لحم ثم يُشدّ الى وتد ، فاذا قبض عليها الذئب ، التبجت في خطمه ، فقبضت عليه ، وصرعته . و « النّامِرة » مصيدة تربط فيها شاة للذئب .

وقد يستتر الصياد بحيوان او غـيره ليخفي نفسه عن الصيد ، ويقال لذلك « الدريئة » ، وبهذا المعنى « الذريعة » و « الرقيبة » و « السيفة » ، واذا استتر الانسان بالبعير من الصيد فيقال لذلك « المسوق » .

وفي جزيرة العرب حيوانات وحشية ، وقد قلّ فيهـا الأسد الآن . اما في الجاهلية ، فقد كان معروفاً في مواضع عديدة عُرفت عندهم بالمآسد، جمع مأسدة [1] ، وقد كانوا يصطادونه بطريقة اسقاطه في حفر تغطى ، فاذا سار عليها الأسد سقط فيها ، وبطرق اخرى . وهناك الفهود والنسور والضباع والذئاب ، وتكثر القردة في المناطق الجبلية وفي النجود ، وهي لا تزال موجودة في نجود الحجـاز واليمن والعربية الجنوبية .

ويقال لمأوى الأسد في خِيسه : (العريس) (والعريسة) . ويصعب صيده وهو في مكمنه ، وضرب المثل بذلك فقيل :

« كمبتغي الصيد في عِرّيسة الأسد »

---

١ (وأرض مأسدة : كثيرة الأسود) ، اللسان (٢/٧٢) ، (أسد) .

وقال طرفة :

كليوث وسط عريسِ الأجم [1]

ومن الحيوانات الوحشية المعروفة في جزيرة العرب الحمار الوحشي . ويظهر ان بعض الناس كانوا يأكلونه ، بدليل ما ورد في كتب الفقه من النهي عن أكل لحوم الحمر الوحشية . ويذكر علماء اللغة ان الحميريين كانوا يطلقون على الحمار لفظة « العُكسوم » و « الكسعوم » [2] .

ويكثر الظبي في جزيرة العرب ، ويطمع فيه الصيادون . وقد كان الجاهليون يلجأون الى جحوره فيسدّون ابوابها ويحفرون من موضع آخر للوصول اليه ، كما كانوا يضربون بحجر على الحجر ليفزع الظبي ، فاذا فزع تهيأ للقتال ، وتهيأ الصياد للقبض عليه ، ويتحايل عليه فيقبض عليه من ذيله . وهو ما زال كثيراً في مواضع عديدة من جزيرة العرب ، وقد استعملت السيارة في الزمن الحاضر في صيده وذلك في باب التجديد في الصيد [3] .

والنعام من الحيوانات المعروفة في جزيرة العرب . وقد ذكر علماء اللغة ألفاظاً كثيرة قالوا إن العرب اطلقوها على النعام ، على ذكر النعامة وعلى انثاها وعلى صغار النعام . ومنها « الجعول » ويراد بها ولد النعام ، وهي يمانية . وكذلك لأصوات النعام وجماعاتها [4] . وورود هذه الألفاظ دليل على كثرة النعام في جزيرة العرب ووقوف العرب عليها .

وأما اهل السواحل ، فقد اضطرتهم طبيعة بلادهم على الاصطياد في البحر ، على اصطياد سمكه ، للاعتياش عليه ولبيع الفائض منه . او لتجفيف الزائد منه لأكله وقت الحاجة او لتقديمه علفاً لحيواناتهم . وقد اشتهر سكان الخليج في الجاهلية ايضاً بالغوص لاستخراج اللؤلؤ من الصدف الكامن على قاع البحر . وقد كان يؤتيهم ذلك ارباحاً طائلة . اما اهل باطن جزيرة العرب والأماكن البعيدة عن السواحل فقد قلّ علمهم بالسمك ، لعدم وجود انواع منه في البوادي . وعدم امكان ايصاله طرياً اليهم . فقلّت اسماء انواعه في لهجاتهم . بينما نجد له اسماءً عديدة في لغات اهل السواحل لوجود انواع عديدة منه في البحار كانوا يصطادونها . فتكون القسمَ الغالب من اللحم عندهم .

١ اللسان (١٣٦/٦) ، (عرس) .
٢ المخصص (٤٧/٨) .
٣ فؤاد حمزة : في بلاد عسير (ص ٢٣) .
٤ المخصص (٥١/٨ وما بعدها) .

وذكر علماء اللغة ان (السمك) الحوت من خلق الماء [1] . وذكر ان الحوت ما عظم من السمك [2] . ومن أنواع سمك البحر : (القرش) [3] . وهو من الأسماك العظام .

ومن وسائل صيد السمك (العروك) ، خشب يلقى في البحر ، يركبون عليه ، ويلقون شباكهم ، يصيدون السمك [4] . و (العركيّ) صياد السمك . ولهذا قيل للملاحين عرك ، لأنهم يصيدون السمك . (وفي الحديث في كتابه الى قوم من اليهود : ان عليكم ربع ما أخرجت نخلكم ؛ وربع ما صادت عروككم ، وربع المغزل) . والعروك هم الذين يصيدون السمك [5] .

ومن عادة ملوك الحيرة والغساسنة أنهم كانوا يتبدون في المواسم الطيبة من السنة ، بعد هطول الأمطار واكتساء البادية بُسطَ الربيع ، وتعييد الطيور والماشية بالمناسبة السعيدة . كانوا يخرجون الى البوادي للاستمتاع بالمناظر الجميلة وللصيد والقنص ، ومن الأماكن التي كان ملوك الحيرة يقصدونها منزل (ماوية) ، وهو منزل بين مكة والبصرة [6] . ذكر ان الملك (النعمان) كان اذا أراد الاستئناس برؤية حلل الربيع والماء ، خرج الى (النجف) والى البادية ، فتنصب له ولأصحابه القباب ويمضي أياماً هناك يتصيد ويستمتع بمنظر الشقائق ذوات الألوان الأخاذة الجاذبة للقلوب ، حتى زعم ان (شقائق النعمان) انما سميت بذلك نسبة اليه . جاء الى موضع وقد اعتم نبته من أصفر وأحمر واذا فيه من هذه الشقائق ما راقه ولم يرَ مثله ، فقال : ما أحسن هذه الشقائق ! إحموها ! وكان أول من حماها ، فسميت شقائق النعمان بذلك [7] .

ويظهر من حديث جرى بين يدي (النعمان) ان من العرب من كان يذمّ الصيّاد ، ويفضل صاحب الإبل عليه . فقد روي ان (معاوية بن شكل) ذمّ

١ تاج العروس (٧/١٤٤) ، (سمك) .
٢ تاج العروس (١/٥٣٩) .
٣ تاج العروس (٤/٣٣٧) ، (قرش) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٧) .
٥ تاج العروس (٧/١٦١) ، (عرك) .
٦ الاشتقاق (١٩١) .
٧ تاج العروس (٦/٣٩٨) ، (شق) .

(حجل بن نضلة) بين يدي النعمان ، إذ قال فيه : « انه مقبل النعلين ، منتفخ الساقين ، قعو الأليتين مشاء بأقراء ، قتال نلباء ، بياع إماء » . فقال له النعمان : « أردت ان تذمه ، فمدحته » ، ووصفه بأنه صاحب صيد ، لا صاحب إبل[1] . ولعله قصد بذلك انه كان صياداً محترفاً ، اتخذ الصيد حرفة له . فقد كان بين الصيادين قوم اتخذوا الصيد لهم حرفة . فاذا اصطادوا باعوا صيدهم ، ولم يستفد منه ، فهو مثل الجزار ، الذي يبيع اللحم ولا يطعم أهله منه ، ولذلك نظروا اليه نظرة استصغار .

سباق الخيل :

والتسابق على ظهور الخيل رياضة الأثرياء والفرسان القديمة . وهي لا تزال معروفة ، وان كانت قد أخذت تلفظ أنفاسها بسبب اقبال الأثرياء على ركوب السيارات الفخمة التي لفتت أنظارهم وجرتهم اليها ، فلم يبق من يمارس تلك الرياضة القديمة إلا أولئك الذين لم تصل السيارت اليهم بكثرة ، لوعورة الطرق وامعانهم في البوادي وابتعادهم عن المواطن التي أخذت تغروها منتجات العرب .

ويذكر أهل الأخبار ان أول من ركب الخيل (اسماعيل) ، ولذلك سميت بـ (العراب) ، وكانت قبل ذلك وحشية كسائر الوحوش . خرج الى موضع (أجياد) ، فنادى بالخيل ، فلم يبق على وجه الأرض فرس بأرض العرب إلا أجابته فأمكنته من نواصيها وتذللت له . ولذلك قال النبي : (اركبوا الخيل فانها ميراث أبيكم اسماعيل)[2] .

وراهن أهل الجاهلية على الخيل . فكانوا يخرجون الى السباق ويقال : يجتمع الناس للرهان ، ثم يتراهنون هنالك على الخيل المتجمعة و (السابق) من الخيل ، وهو الأول ، هو الذي يأخذ الجائزة الأولى ، ويتلوه « المصلي » وهو الفائز الثاني[3] . و « الحلبة » الدفعة من الخيل في الرهان خاصة ، وقيل : خيل تجتمع

١ اللسان (١٧٩/١٥) ، (قرا) ، تاج العروس (٢٩٠/١٠) ، (قرى) ، (ومد وجدنا العرب يستذلون الصيد ويحقرون الصياد) ، الحيوان (٣٠٩/٢) ، (هارون) .
٢ الدميري ، حياة الحيوان (٣١١/١) .
٣ العقد الفريد (٢٠٦/١ وما بعدها) .

للسباق من كل أوب [1] . ومجمع الخيل .

ويقال للحبل الذي يمدّ في صدر الخيل عند الإرسال الحلب . والمنصبة الخيل حين تنصب للإرسال . ويقال للسابق من الخيل : الأول ، والمصليّ الثاني الذي يتلوه . وما سوى ذينك يقال له الثالث والرابع وكذلك الى التاسع ثم السُّكَيْت . فما جاء بعد ذلك لا يعتدّ به . والغسكل الذي يجيء آخر الخيل . وذكر : ان : أسماء خيل الحلبة عشرة لأنهم كانوا يرسلونها عشرة عشرة ، وسمي كل واحد منها باسم . فالأول منها السابق . وهو المُجَلّي لأنه كان يجلي عن صاحبه ، والثاني المُصلي لأنه يضع جحفلته على صلا السابق ، والثالث المسلي ، والرابع والخامس المرتاح ، والسادس العاطف ، والسابع المؤمل ، والثامن الحظيّ ، والتاسع اللّطيم ، والعاشر السُّكيْت ، والغسكل الذي يجيء آخر الخيل في الحلبة . ويقال للحبل الذي يجعل في صدور الخيل يوم الرهان المقبض والمقوس . وقيل في أسماء خيل الحلبة ان أولها المجلّي ثم المصلي ثم المسلي ثم العاطف ثم المرتاح ثم الحظيّ ثم المؤمل . هذه السبعة لها حظوظ ، ثم التي لا حظوظ لها . اللطيم ، ثم الوغد ، ثم السكيت [2] .

وكانوا يضعون عند نهاية الحدّ الذي يقررونه للسباق قصبة فمن يصل اليها قبل غيره من المتسابقين ، يعد السابق لقصبة السبق ، ويكون قد أحرز القصب لأن الغاية التي يسبق اليها تُذرّع بالقصب . وتركز تلك القصبة عند منتهى الغاية ، فمن سبق اليها حازها واستحق الخطر [3] .

و (الخطر) الذي يوضع بين أهل السباق ، وقيل الذي يوضع في النضال والرهان في الخيل فمن سبق أخذه . والسابق اذا تناول القصبة ، علم انه قد أحرز الخطر [4] . وكانوا يقلدون السابق من الخيل ؛ ولا يقلّد من الخيل إلا سابق كريم . ويقولون للسابق من الخيل : المقلّد [5] .

١ تاج العروس (٢/٣١١) ، (الكوت) .
٢ نهاية الأرب (٢/١٠٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٢/١٥١) ، (روح) .
٣ اللسان (١/٦٧٧) ، (قصب) .
٤ اللسان (٤/٢٥١) ، (خطر) ، (١٠/١٥١) .
٥ تاج العروس (٢/٤٧٥) ، (قلد) .

وقد سابق الرسول بين الخيل التي قد ضمرت من موضع « الحفياء » الى « ثنية الوداع » والمسافة بين الموضعين خمسة أميال أو ستة ، وقيل ستة أميال أو سبعة . وسابق بين الخيل التي لم تضمر من « الثنية » الى مسجد « بني زريق » والمسافة ميل أو نحوه . وسابق بين الخيل على حلل أتته من اليمن ، فأعطى السابق ثلاث حلل والمصلي حلتين ، والثالث حلة ، والرابع ديناراً ، والخامس درهماً ، والسادس قصبة . وقد ساهمت خيله في السباق .

وراهن رسول الله على الخيل ، وذكر ان أول مسابقة كانت في الاسلام سنة ست من الهجرة . سابق رسول الله بين الخيل ، فسبق فرس لأبي بكر فأخذ السبق . والمسابقة مما كان في الجاهلية ، فأقرها الاسلام [1] .

وفي الحديث : أحاديث عن الرسول في السبق ، منها : لا سبق إلا في خف أو نصل أو حافر ، فالخف للإبل ، والحافر للخيل ، والنصال للرمي [2] وبقية الأحاديث في كتب الحديث والفقه .

ولم يقتصر السباق عند الجاهليين على السباق بين الخيل ، بل سابقوا بين الإبل ، وجعلوا للسابق خطراً ، كما سابقوا بين الكلاب والحمير والحيوانات الأخرى .

ومن سباق أهل الجاهلية والاسلام ، السبق بالنصل ، أي المراماة بالسهم . وذلك بأن يوضع خطر ، ويذكر عدد الرمي والهدف ، فمن أصاب الهدف أكثر من غيره نال السبق . وقد عرف نفر من الجاهليين بإصابتهم الهدف ، وبقوة رميهم ، وجعلوا لقوة الرمي وشدته أو لرخاوته وللمكان من إصابته الهدف درجات هي : الخاصل ، والخازق ، والخاسق ، والحابي ، والمارق ، والخارم ، والمزدلف . والخاصل الذي يقرع الشن ولا يخدشه ، والخازق الذي يخدشه ولا يثقبه ، والخاسق الذي يثقبه ويثبت فيه ، والحابي ان يدني الرامي يده من الأرض فيرميه فيمر على وجه الأرض فيصيب الهدف ، والمارق الذي يمرق الشن

١ نهاية الأرب (٣٦٨/٩ وما بعدها) ، القسطلاني ، ارشاد (٧٨/٥ وما بعدها) .
٢ اللسان (١٥١/١٠) ، (سبق) .

أي يثقبه وينفذ فيـه ، والخارم الذي يخرم طرف الشن أي يقطعه ، والمزدلف الذي يسقط بقرب الغرض ثم يشتن فيصيب الهدف [1] .

ومن السباق : المناضلة ، وهي المباراة في الرمي . والنضيل هو الذي يرامي ويسابق . والمناضلة المفاخرة والتسابق بالأشعار [2] . وتكون المباراة في الرمي بثلاثة أنواع : مبادرة ، ومحاطة ، ومناضلة . فالمبادرة ان يشترطا إصابة عشرة من عشرين ، فيبتدر أحدهما الى العشرة فينضل صاحبه ، والمحاطة ان يقولا نرمي عشرين رشقاً على ان من فضل صاحبه بخمس إصابات فقد نضله ، فإذا اشترطا ذلك ، ورمى كل واحد منهما عشرين رشقاً وأصابا إصابات نظر ان استويا في الإصابة لم يحصل النضل ، وان تفاوتا في الاصابة حط الأقل أو الأكثر ، فإن بقي لصاحب الأكثر الخمس المشروطة فقد نضل صاحبه ، وان بقي له أقل من الخمس المشروطة لم يحصل النضل . والمناضلة ان يشترطا عشرة من عشرين على ان يستوفيا جميعاً ، فيرميان معاً جميع ذلك ، فإن أصاب كل واحد منهما عشرة أو فوقها أو دونها لم يحصل النضل ، وان أصاب واحد منهما دون العشرة والآخر عشرة فما فوقها ، فقد نضل صاحبه [3] .

وللعرب عناية خاصة بالخيل ، وما زالوا يعتنون بهـا الى اليوم ، حتى لقد حفظوا أنسابهـا حفظهم لأنساب الناس ، وألفوا الكتب فيها . ونجـد في كتب الأدب واللغة أسماء خيل اشتهرت في الجاهلية . وذكر (ابن النديم) في كتابـه (الفهرست) أسماء كتب ألفت في الخيل ، ذهب أكثرها ، وبقي بعض منها . ونجد في (تاج العروس) أسماء خيل اشتهر أمرها في الجاهلية ذكرت في مواضع متناثرة من أجزاء الكتاب [4] . وذكر معها أسماء أصحابها ، كما أشار الى مؤلفات رجع اليها في هـذا الموضوع مثل كتاب الخيل لابن الكلبي [5] ، وقـد طبع ،

١ بلوغ الأرب (٣/٣٥٤) .
٢ تاج العروس (٨/١٣٨) ، (نضل) .
٣ بلوغ الأرب (٣/٣٥٥) .
٤ تاج العروس (٩/٦٠) ، (لطم) .
٥ وقد طبع ببولاق بمصر ، (أنساب الخيل) ، (لندن) .

وكتاب الخيل لأبي عبيدة وقد طبع كذلك ، ومؤلفات أخرى لم تطبع حتى الآن[1] .

ولائم العرب :

الوليمة كل طعام يصنع لعرس وغيره ويدعى اليه . وأما الدعوة : فهي أعم من الوليمة ، وأما المأدبة ، فكل طعام صنع لدعوة أو عرس . والآدب الداعي الى الطعام[2] . وولائم العرب ست عشرة وليمة . هي : وليمة العرس ، وهي ما يصنع للدخول بالزوجية ، و (الملاك) (الأملاك) وهي ما يصنع للخطبة ، و (الخُرس) وهي طعام يصنع للنفساء لسلامة المرأة من الطلق ، وقيل : هي طعام الولادة . و (العقيقة) وهي ما يصنع للطفل بعد ولادته وتختص باليوم السابع ، و (الأعذار) وهي ما يصنع للختان ، و (الشندخ) وهي أيضاً طعام الأملاك ، و (الوكيرة) وهي ما يصنع للبناء يعني للسكن المتجدد ، و (التحفة) وهي ما يصنع للزائر ، و (الشندخ) وهي طعام الأملاك كما ذكرت ، وما يصنع عند وجود الضالة ، و (النقيعة) وهي ما يصنع للقدوم من السفر ، وقيل : النقيعة التي يصنعها القادم والتي تصنع له تسمى (التحفة) ، و (القرى) وهي ما يصنع للضيف ، و (الوضيمة) وهي ما يصنع للميت ، أي لأهل المصيبة .

ويقال للدعوة التي تعم دعوتها (الجَفَلى) ، وأما (النقرى) فهي التي تخص دعوتها . قال طرفة :

نحن في المشتاةِ ندعو الجَفَلى لا ترى الآدِبَ فينا ينتقر

١ أسماء الخيل ، لابن الأعرابي ، وقد طبع ب (ليدن) ، ولأبي اسحاق ابراهيم بن اسماعيل المعروف بابن الأجدابي ، كتاب كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ على الوان الخيل ، مطبوع ، نهاية الأرب (١٠/١٤) .

٢ اللسان (١/٢٠٦) ، (ادب) ، المخصص ، لابن سيده (٤/١٨٨ وما بعدها) ، البخلاء ، للجاحظ (٢٤٦) ، (دار بيروت ، بيروت ١٩٦٠) ، النهاية ، لابن الأثير (٢/٣٤) .

يفتخر بقومه وانهم اذا صنعوا مأدبة دعوا اليها عموماً لا خصوصاً ، وخص أيام الشتاء لأنها أيام الشدّة والضيق[1] .

ويقال للطعام المستعجل ، وهو الذي يقدم للراكب : (العُجل) و (العجيل) ، وهو من السويق والتمر في الغالب . واذا أكرم رجل رجلاً آخر بتقديم (اللبن) اليه ، قيل لذلك الكرم (القفي) . ويقال لما يرفع للانسان من المرق (العفارة) . وهنالك أسماء تجدها في كتب اللغة لأنواع المأكول والأطعمة[2] .

---

١ بلوغ الأرب (١/٣٨٥) ، البخلاء ، للجاحظ (٢٤٦) ، المخصص (٤/١٢٠) .
٢ المخصص (٤/١٢٠ وما بعدها) .

الفهرس